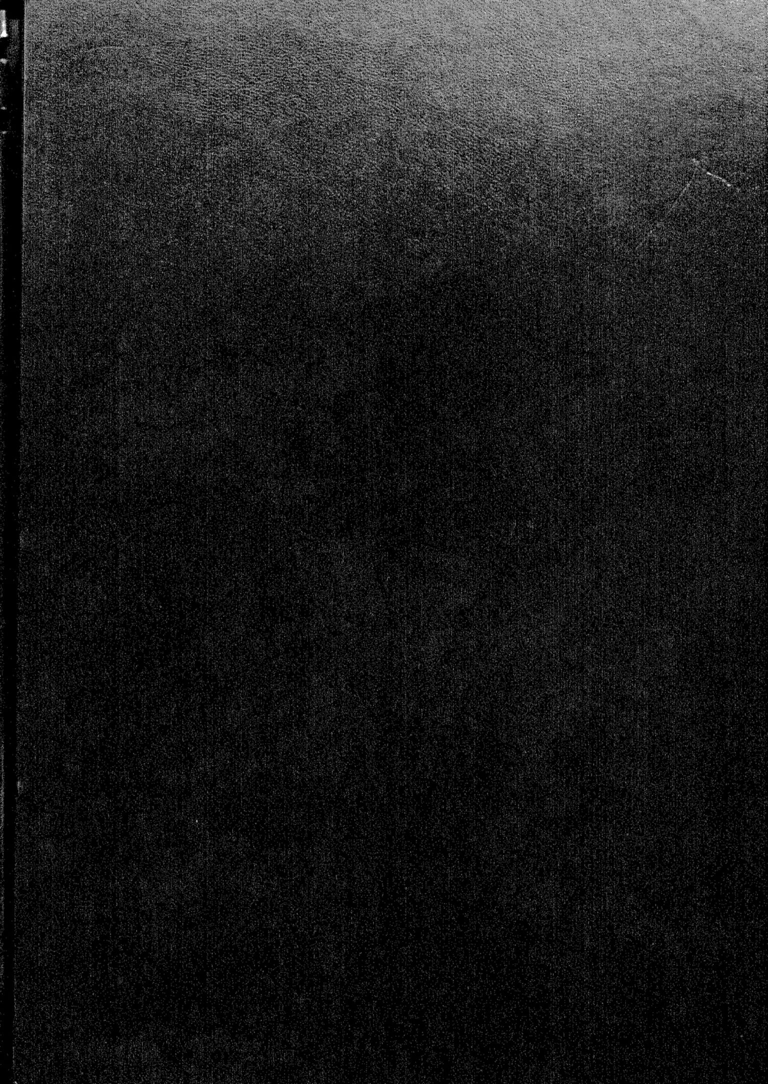


اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

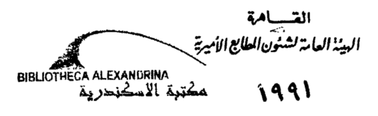
الحزب الخامس والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩١



« سـورة المجادلة »

مدنية وآياتها ثنتان وعشرون

أهم مقاصدها :

بيان حكم ظهار الرجل من امرأته ، بأن يقول لها ـ مثلاً ـ : أنت علىَّ كظهر أمى ، وأن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ـ أى : لعنوا مثلهم ـ وأن لهم فى الآخرة عذابًا مهينًا ، وأن الله تعالى يعلم جميع ما فى السموات والأرض ، ومن ذلك أنه يعلم السر والنجوى ، وبيان مصير الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ ، وأن على المؤمنين إذا قيل لهم : تفسحوا فى المجالس أن يتفسحوا ، وأن الذين يتولون قومًا معادين للإسلام أعدَّ الله لهم عذابًا مهينًا ، وأن الله تعالى قضى بأن يَغْلِب هو ورسله جميع أعداء الدين ، وأن من يتركون مودة من يحادون الله ورسوله ـ ولو كانوا أقاربهم ـ أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمـان وأيدهم بروح منه ، وأنهم سيدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار : (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

اسماء هذه السورة :

تسمى المجادلة ، بكسر الدال وفتحها ، والكسر أشهر ، وتسمى أيضًا سورة (قد سمع) وسورة الظهار .

مناسبتها لمـا قبلها :

ختمت السورة السابقة بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من ذلك حيث سمع الله شكوى هذه المرأة ، وأزال شكوى كربتها ، بما بينه من حكم الظهار ، وجاء فى مطلع السورة السابقة ذكر صفات الله الجليلة ، ومنها الظاهر والباطن ، وأنه سبحانه « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ » ، وافتتح هذه السورة بذكر أنه تعالى سمع قـول المجادلة التى شكت إليه تعالى ، إلى غير ذلك من المناسبات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١)

المفــردات :

(تَحَاوُرَكُمَا) : تراجعكما فى الكلام من حار إذا رجع ، ويجوز أن يكون المراد به الكلام المردَّد السمع للمسموعات .

التفســـير

١ـ(قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) :

نزلت هذه الآية والآيات بعدها فى امرأة من الأنصار اسمها خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجى ، وقيل غير ذلك ، ولكن الأكثرين على أنها هى خولة بنت ثعلبة المذكورة ، وأن زوجها هو أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه ، فدخل عليها يومًا فراجعته بشىء فغضب فقال : أنت علىَّ كظهر أمى ، وكان هذا أول ظهار فى الإسلام .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه ، فندم أوس من ساعته ، فدعاها فأبت وقالت : والذى نفسى بيده : لاتصل إلىَّ وقد قلت ماقلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن أوسًا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىَّ ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى ـ أى كثر ولدى ـ جعلنى عليه كأمه وتركنى إلى غير أحـــد ، فإن كنت تجد لى رخصة يارسول الله تُنعِشُنى بها وإيَّاه فحدثنى بها ، فقال

ـ عليه الصلاة والسلام ـ : والله ما أُمرت فى شأنك بشىء حتى الآن ـ وفى رواية : ما أراك إلَّا قد حرُمْتِ عليه ـ فقالت : ما ذكر طلاقًا ، وجادلت رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرارًا ، ثم قالت : اللَّهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى وما يشق علىَّ من فراقه .

وفى رواية قالت : أشكو إلى الله ـ تعالى ـ فاقتى وشدة حالى ، وأن لى صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، اللَّهم فأَنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال ﷺ : يا خولة أَبْشِرِى . قالت : خيرًا . فقرأ عليها ـ عليه الصلاة والسلام ـ (قَدْ سَمِعَ ...) وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يكرمها إذا دخلت عليه ويقول : قد سمع الله تعالى لها .

روى ابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات : أنها رأته ـ رضى الله عنه ـ وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها ووضع يده على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين . حبست رجال قريش على هذه العجوز قال : ويحك . أتدرى مَنْ هذه ؟ قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله لشكواها من فوق سبع سمٰوات . هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف حتى أتى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها(١) .

وفى رواية أخرى : أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ والناس معه على حمار ، فاستوقفته طويلًا ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عُميرًا ، ثم قيل لك : عمر ، ثم قيل لك : يا أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ـ وهو واقف يسمع كلامها ـ فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره ، لا زلت إلَّا للصلاة المكتوبة ، أتدرون مَن هذه العجوز ؟ هى خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سمٰوات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر(٢) .

(١) حكاه الآلوسى .

(٢) حكاه القرطبى .

وروى النسائى وابن ماجه والبخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت بعد أن نزلت الآية (قَدْ سَمِعَ) : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ وأنا فى ناحية من البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله تعالى :(قَدْ سَمِعَ ...) الآيات[١] .

والسماع مجاز ، أو كناية عن القبول . والسمع والبصر من صفات الله تعالى ، وهما غير صفة العلم ، فكل المسموعات والمبصرات يعلمه الله تعالى .

وبعض العلماء قال : إنهما كناية عن العلم ، وهذا خطأ لما فيه من محو صفتى السمع والبصر وهما من صفاته وأسمائه تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » ، نقل القرطبى عن الحاكم أبى عبد الله قوله : والسمع والبصر من صفات الله كالعلم والقدرة والحياة والإرادة فهما من صفات الذات . لم يزل الله سبحانه وتعالى متصفًا بهما .

والمعنى الإجمالى للآية : قد سمع الله - تعالى - قول خولة بنت ثعلبة التى تُسائلك فى حكم ظهار زوجها منها بقوله لها : أنت علىَّ كظهر أُمى ، وتشتكى إلى الله - تعالى - لينزل فى شأنها حكمًا غير الطلاق الذى جعلوه فى الجاهلية حكمًا للظهار ، وكانت هذه الشكوى إلى الله - تعالى - بعد أن أفهمها الرسول ﷺ أنه - سبحانه - لم ينزل فى شأنه حكمًا ، والله يسمع تحاورها معك - أيها الرسول - وترديدها للشكوى ، إن الله عظيم السمع للمسموعات وإن كانت همسًا ، عظيم البصر للمرئيات وإن كانت دقيقة ، فلهذا لم يخف عليه - سبحانه - ما جرى بينك وبينها من الحوار .

---

(١) حكاه الآلوسى .

(ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾)

المفردات :

(يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم) : يقول الرجل منكم لامرأته : أنت عليَّ كظهر أمى أو ما فى معناه ، وسيأْتى بيانه .

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ) : ما أُمهاتهم .

(مُنكَرًا) : يستنكره الشرع والعقل .

(وَزُورًا) : وكذبًا منحرفًا عن الحق .

التفسير

٢ - (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّآئِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) :

شروع فى بيان الظهار وحكمه المترتب عليه شرعًا ، والظهار : مصدر ظَاهَرَ ، وحقيقة الظهار - كما قال القرطبى - : تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلَّلٍ بظهر مُحَرَّمٍ ، وقد أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت علىَّ كظهر أمى فهو مظاهر ، أما لو قال لها : أنت علىَّ كظهر ابنتى أو أُختى أو غيرهما من المحارم فإنه يكون مظاهرًا عند أكثر الفقهاء ، ومنهم من قال : لا ظهار إلَّا بالتشبيه بظهر الأُم ، وهو مذهب قتادة والشعبى ؛ لأَنه هو الذى قام عليه الحكم ، والأَول هو المعتمد ؛ لأَن تشبيه المظاهِر ظهر امرأته بظهر أُمه ، هو تشبيه بظهر محرم ، فليكن مثله فى الحكم التشبيه بظهور كل المحارم .

قال القرطبي في المسألة الثالثة : وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وسترا .

وفي الظهار صريحه وكنايته آراء شتى ، فارجع إليها إن شئت في موسوعات التفسير أو الفقه .

والظهار يكون في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها ، على أن يكون صادرا من كل زوج يجوز طلاقه .

والمعنى الإجمالي للآية : المؤمنون الذين يقولون لنسائهم : أنت علي كظهر أمي مخطئون[1] ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة ، فهو كذب لا يليق بالمؤمنين أن يقولوه ، ما أمهاتهم على الحقيقة إلا اللائي ولدنهم ، فلا تشبه نساؤهم بهن ، وإنما يشبه بهن المرضعات[2] وزوجات الرسول - كما جاء في الكتاب والسنة - وإن هؤلاء المظاهرين ليقولون بهذا التشبيه منكرا في الشرع والعقل والطبع ، وزورا - أي : وكذبا باطلا - وإن الله لعظيم العفو والغفران للتائبين وغيرهم فإنه تعالى واسع المغفرة .

ويفهم من الآية أنه حرام ، بل قال بعضهم : إنه من الكبائر ؛ لأنه إقدام على تبديل حكم الله بغير إذنه ، ولهذا أوجب الله فيه الكفارة العظمى .

(وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾)

(١) على أن خبر المبتدأ محذوف ، ويصح أن تكون الجملة التي بعده خبره .

(٢) أي : في الحرمة والكرامة ، أما الزوجات فأبعد شيء عن الأمومة ، فلا يشبهن بهن .

المفـــردات :

(يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ) قال الفراء : اللام فى قوله : (لِمَا قَالُواْ) بمعنى عَنْ ، أى : يرجعون عمَّا قالوه ، ويريدون وطء نسائهم بعد أن حرَّموه على أنفسهم .

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) : فعليه إعتاق رقبة .

(مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا) أى : من قبل أن يجامعها .

(ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ) أى : ذلك التغليظ فى الكفارة لكى تعملوا بشرائع الله التى شرعها لكم ، فلاتعودوا إلى الظهار الذى هو من شرائع الجاهلية .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) أى : أحكامه التى حددها فلايحل تركها .

التفســـير

٣ـ (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

بين الله فى الآية السابقة الحكم الإجمالى للظهار ، وهو أنه منكر وزور ، وجاءت هذه الآية ومابعدها بيانًا لحكمه تفصيلًا شاملًا لظهار أوس زوج خولة التى حاورت الرسول ﷺ بشأنه ، ولظهار غيره من الأزواج .

وقد بينت الآية أن المظاهر الذى يعود لما قال فى امرأته ، فعليه تحرير رقبة من قبل أن يمسها بالوطء ، والعود لِمَا قاله ؛ رجوعه عن تحريمها على نفسه كأُمه ، إلى الرغبة فى وطئها الذى حرَّمه على نفسه ، فاللَّام فيه بمعنى : عن ، كما قاله الفراء ، أى : يعود ويرجع عن تحريمها إلى الرغبة فى وطئها .

وقد جاء فى الآية أنه لا يحل له وطؤها حتى يكفر عن ظهاره بتحرير رقبة ، أى : إعتاق رقيق كامل الرق ؛ ليصبح بهذا الإعتاق حرًّا بعد عبوديته ، يتصرف تصرف الأحرار ، لا تصرف العبيد ، ولا بد فى هذا الرقيق أن يكون سليمًا من العيوب ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ ويجب أن يكون مسلمًا عند مالك والشافعى كما فى كفارة القتل ، وعند أبى حنيفة :

يجزئ الكافر ومن فيه شائبة رِقٍّ كالمكاتب ، فإن أعتق نصفى عبدين فلا يجزئ عند المالكية والحنفية ، وقال الشافعى : يجزئ ؛ لأن نصفى العبدين فى معنى العبد الواحد ، ولكل دليله .

وقد أوجب الله فى هذه الآية أن يكون الإعتاق قبل أن يجامعها ، فإن جامعها قبل التكفير أَثِمَ وعَصَى ولا يسقط عنه التكفير ، بل يأتى به قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها ، سواء أكانت الكفارة بالعتق أم بالصوم أم بالإطعام .

أما مسُّها بغير الوطء قبل الكفارة كالقُبْلَة والمباشرة بغير وطء فلا يحرم عند أكثر العلماء ، وقيل : ذلك وما أشبههن من أنواع المسيس حرام قبل أن يكفر ، وبه قال مالك وهو أحد قولين عند الشافعى ، وهو الظاهر ؛ لأن مثل ذلك يؤدى إلى الوطء قبل التكفير[1] .

والمعنى الإجمالى للآية : والرجال الذين يظاهرون من نسائهم ثم يرجعون عما قالوه من تحريم وطئهن كالأُمهات إلى الرغبة فى وطئهن ، فعلى كل واحد منهم إعتاق عبد أو أمة إعتاقًا كاملًا قبل أن يجامع زوجته أو يستمتع بها عند بعضهم ، ذلكم تؤمرون به ، والله بما تعملون خبير ، فيعفو عمن كفَّر قبل المسيس ، ويعاقب من مسَّ قبل الكفارة .

٤ - (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أفادت هذه الآية الكريمة أن الكفارة مرتبة ، فلا ينتقل إلى الصوم من قدر على العتق ، ولا إلى الإطعام من قدر على الصيام ، وتفصيل ذلك ما يلى :

١ - من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكًا لها لكنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكًا لثمنها إلَّا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن وليس له غيره حتى يبيعه

---

(١) فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، واعلم أنه لا ظهار للمرأة من الرجل - كما قاله الشافعى ، وقال الأوزاعى : هو يمين تكفرها ، وقال الزهرى : لا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها - انظر المسألة الثانية عشرة من القرطبى .

ويشترى الرقبة بثمنه ، فله أن يصوم شهرين متتابعين عند الشافعى ، وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجًا إلى ذلك .

٢ ـ الكفارة الثانية للظهار أن يصوم شهرين إن عجز عن الإعتاق بأى وجه مما تقدم ويجب أن يكون صيامهما متتابعًا ، فإن أفطر فى أثنائهما لغير عذر استأنفهما ، فإن كان الفطر لعذر كسفر ومرض ، فقيل : يبنى على ما صامه ـ وهو الصحيح الذى قال به أكثر الأئمة ، وقال أبو حنيفة : يبتدئ . وهو أحد رأيى الشافعية .

٣ ـ إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة ، أتَمَّ الصيام وأجزأه عند مالك والشافعى : وقال أبو حنيفة وأصحابه : يقطع الصيام ويعتق الرقبة .

٤ ـ إذا وطئ المظاهر نهارًا فى أثناء صومه بطل التتابع وعليه أن يستأنف ، فإن كان ليلًا فلا يستأنف؛ لأن الليل ليس محلاً للصوم ، وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل وعليه الاستئناف ؛ لأنه وطئ قبل الكفارة لقوله تعالى : (مِن قَبْلِ أن يَتَمَآسَّا) .

٥ ـ من لم يقدر على الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينًا إطعامًا مُشبعاً ، وذهب الشافعى وغيره إلى أنه مد واحد لكل مسكين .

وفى الظهار أحكام فرعية كثيرة ، فمن أرادها فليرجع إلى موسوعات التفسير أو الفقه .

والمعنى الإجمالى للآية : فمن ظاهر من امرأته ولم يجد رقيقًا ليعتقه ؛ لأنه قد لا توجد عبيد أو كانت موجودة ولا قدرة له على ثمن العبد ، أو له قدرة على ثمنه لكنه يحتاج إليه لخدمته أو نحوها مما سبق بيانه ـ فمن ظاهر من امرأته ولم يجد رقيقًا يعتقه على النحو السابق فعليه قبل أن يمس امرأته أن يصوم ستين يومًا متتابعة ، فإن أفطر فى بعضها لغير عذر استأنف ، فإن كان لا يقدر على الصيام شهرين متتابعين ، فعليه أن يطعم ستين مسكينًا إطعامًا مشبعًا ، ذلك البيان المفصل لكى تؤمنوا بالله ورسوله بتنفيذه ، وتلك الأحكام هى حدود الله الفاصلة بين الحق والباطل ، فالزموها وقفوا عندها ، وللكافرين الذين يتعلونها ولا يعملون بها عذابٌ شديد الإيلام .

وإطلاق لفظ الكافرين على من يتعدون حدود الله لزجرهم والتغليظ عليهم ، ونظيره قوله – تعالى – : « وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ »[1] .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(يُحَآدُّونَ) : يعادون ويشاقون .

(كُبِتُواْ) : أهلكوا أو أخذوا .

(عَذَابٌ مُّهِينٌ) : مذهب ومزيل لعزهم وكبرهم .

التفسير

٥ – (إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

لَمَّا ذكر الله المؤمنين الواقفين عند حدوده ، عقبهم بذكر المحادين المخالفين لها ، قال القرطبى : والمحادة : المعاداة والمخالفة فى الحد ، وقال الزجاج : المحادة : أن تكون فى حد يخالف حد صاحبك ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحداد للبواب . اهـ .

---

(١) سورة آل عمران من الآية ٩٧

وقال الآلوسى نقلًا عن ناصر الدين البيضاوى فى تفسير (يُحَآدُّونَ اللهَ) يضعون ، أو يختارون حدودًا غير حدود الله -تعالى- ورسوله ﷺ ، ثم قال نقلًا عن شيخ الإسلام سعد الله جلبى : وعلى هذا ففيه وعيد عظيم لمن وضعوا أمورًا خلاف ماحدده الشرع وسموها قانونًا ، والله - تعالى - المستعان على ما تصفون . انتهى بتصرف يسير .

ثم قال الآلوسى : إنه لا شبهة فى أنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق الآراء من أهل الحل والعقد ، على وجه يحسن به الانتظام ، ويصلح أمر الخاص والعام ، ومنها تعيين مراتب التأديب والزجر على معاصٍ وجنايات لم ينص الشارع فيها على حد معين ، بل فوض الأمر فى ذلك لرأى الإمام ، فليس ذلك من المحادة لله - تعالى - ورسوله ﷺ فى شىء ، بل فيه استيفاء حقه - تعالى - على أتم وجه ، لِمَا فيه من الزجر عن المعاصى وهو أمر مهم للشارع - عليه الصلاة والسلام - ثم قال : وفى كتاب الخراج للإمام أبى يوسف - عليه الرحمة - وإشارة إلى ذلك ، ولا يعكر على ذلك ونحوه قوله - تعالى - : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » ، لأن المراد كماله من حيث تضمنه ما يدل على حكم الله - تعالى - خصوصًا أو عمومًا ، ويرشد إلى هذا عدم النكير على أحد من المجتهدين ، إذا قال بشىء لم يكن منصوصًا عليه بخصوصه ومن ذلك ما ثبت بالقياس بأقسامه ، نعم القانون الذى يكون وراء ذلك ، بأن كان مصادمًا لما نطقت به الشريعة الغراء ، زائغًا عن سنن المحجة البيضاء ، فيه ما فيه كما لا يخفى على العارف ... إلخ .

والآية عند الأكثرين أشارت إلى ما كان يوم الخندق ، ولكن حكمها عام ، يتناول أهل الخندق وكل من يعارض أحكام الله - تعالى - ويعاديها ، ويؤثر عليها قوانين من وضع البشر مخالفة للنصوص الشرعية ، ما لم تكن تلك القوانين فيما لم يرد فيه حكم الله تعالى ، ويدل لجواز وضع القوانين فيما لم تنص عليه الشريعة أنه ﷺ بعث معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى إلى اليمن قاضيًا ومفقهًا وأميرًا وجامعًا للزكاة ، فقال له : « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : بما فى كتاب الله ، قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ » قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : « فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ » قال : أجتهد رأيى لا آلو -

أى : لا أقصر ، قال : فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لِمَا يرضى رسول الله » رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة .

والمعنى الإجمالى للآية : إن الذين يعادون الله فلا يعملون بحدوده وأحكامه ، وبما جاء به رسوله ﷺ ويرفضونها أو يضعون أحكامًا مخالفة لنصوص الشريعة تفضيلًا لها عليها ، أخزاهم الله ولعنهم كما فعل بالذين من قبلهم ، وهم الذين عارضوا رسل الله السابقين ورفضوا حدود الله وشرائعه التى أنزلها إليهم ، وقد أنزلنا آيات واضحاتِ الحجة بيناتِ المحجة ، وللكافرين بتلك الآيات أو بكل مايجب الإيمان به عذابٌ يهينهم ويذلهم .

٦ - (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

أى : اذكر لهم أيها الرسول تعظيمًا ليوم الحساب - اذكر لهم - يوم يبعثهم الله جميعًا رجالًا ونساء ، ويحشرهم إلى ساحة القيامة ، فينبئهم بما عملوا فى الدنيا من الآثام والمعاصى ، وفى جملتها معاداة شريعة الله - ينبئهم بما عملوه - بيانًا أو تصويرًا لها بالصورة اللائقة بها على رءوس الأشهاد تخجيلًا وتشهيرًا بحالهم ، زيادة فى خزيهم ونكالهم أحصى الله ماعملوه عددًا ولم يفته منه شىء علمًا وكتابة فى صحف أعمالهم ونسوه لكثرته وتهاونهم به حتى ذكرهم به الله ؛ ليكون أبلغ فى الحجة عليهم ، والله على كل شىء مطلع وناظر ، فلا تخفى عليه من أعمالهم خافية .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾)

المفردات :

(نَجْوَىٰ) النجوى : التناجى ، وهو المسارّة .

(لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ) : هلّا يعذبنا الله بسبب ما نقول .

(حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) : كافيهم جهنم عقابًا لهم فى الآخرة .

التفسير

٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ[١] ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

(١) نجوى فاعل (يكون) التامة ، و(من) زائدة ، و(إلا) أداة استثناء ملغاة لاعمل لها ، وجملة (هو رابعهم) استثناء من أعم الأحوال .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى قوم من المنافقين واليهود كانوا يتناجون بما يسىء المسلمين فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك ، وقال مجاهد : نزلت فى اليهود ، والنجوى : مصدر بمعنى التناجى ، وقال القرطبى نقلا عن غيره : كل سِرَار نجوى ، وقيل : النجوى يكون من خلوة ثلاثة يُسِرُّون شيئًا يتناجون به ، والسِّرار ما يكون بين اثنين [١] .

والمعنى : ألم تعلم أيها الرسول أن الله تعالى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، من عناصرهما وما استقر فيهما ، حتى المناجاة – أى : المسارَّة – فإنه يعلمها ويعلم المتسارِّين بها ، ما يكون من مسارة بين ثلاثة إلَّا الله رابعهم بعلمه لا بحلوله معهم فى مكانهم ، فإنه – تعالى – لا يحل فى مكان ولا يمر عليه زمان ، وكل من الزمان والمكان من خلقه – تعالى – وما يكون من مسارَّة بين خمسة إلَّا الله سادسهم بعلمه ، ولا أقل من ذلك كالاثنين والأربعة ، ولا أكثر منه كالستة وما فوقها ، إلَّا هو معهم بعلمه ، فلا يخفى على الله من نجواهم شىء حيثما كانوا فى ظاهر الأرض أو باطنها ، فإن علمه – تعالى – لا يتفاوت باختلاف الأماكن قربًا وبعدًا ، ثم يخبرهم بما عملوا يوم القيامة تشهيرًا بما عملوا من هذه المسارَّة الخبيثة وسواها ، وإظهارا لموجب عذابهم ، وأن الله مطلع على كل شىء فلا تخفى عليه خافية ، وهذه الآية تؤكد ما جاء قبلها من أنه – تعالى – يعلم الذين يحادون الله ورسوله ، ويضعون أحكامًا مخالفة لشرعه ، وأنه – تعالى – سوف ينبئهم بما عملوه ، ويجزيهم عليه ، وخلاصة الآية أنه – تعالى – محيطٌ بكل كلام ، ومن ذلك أنه سمع مجادلة المرأة التى ظاهر منها زوجها ، فإن قلت : لماذا اقتصر الله على الثلاثة والخمسة ؟ فالجواب كما قال الفراء : المعنى غير مصمود [٢] والعدد غير مقصود ؛ لأنه – تعالى – إنما قصد – وهو أعلم – أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم ما يقولون سرًّا وجهرًا ولا تخفى عليه خافية ، فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض [٣] .

---

(١) وقال الراغب : النجوى أصله مصدر كما هنا ، وقد يوصف به فيقال : هو نجوى وهم نجوى . قال – تعالى – : « وإذ هم نجوى » وعليه يحتمل أن يكون من باب زيد عدل : اهـ ، يريد أنه على المبالغة كزيد عدل .

(٢) أى : غير مقصود . (٣) نقله القرطبى .

٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

صح من رواية البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - أن أناسًا من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : السَّام عليك يا أبا القاسم ، فقال ﷺ : وعليكم . قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم ، وفى رواية : عليكم السام والذام واللعنة ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : ياعائشة : إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ، فقال : ياعائشة أو ما سمعت أقول : وعليكم ؟ فأنزل الله - تعالى - (وَإِذَا جَاءُوكَ ...) الآية .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : إن الآية فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم ، يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شر ، فلا يزالون كذلك حتى تقدم أقاربهم ، فلما كثر ذلك شكا المؤمنون إلى الرسول ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المؤمنين ، فعادوا لمثل ذلك فنزلت الآية ، فمن حديث عائشة عرفنا أن النجوى كانت من اليهود ، وأن الآية نزلت بسبب سوء تحيتهم للنبى ﷺ ، ومن كلام ابن عباس عرفنا أن المنافقين كانوا يتناجون بالصورة التى رواها ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان اليهود حلفاءهم قبل الإسلام ، وعنهم أخذوا بغض الإسلام والمسلمين .

ومعنى الآية : ألم[1] تعلم - أيها الرسول - ما فعله أولئك الذين نهيتهم عن المسارة فيما بينهم فى شأنك وشأن المؤمنين ، ثم يعودون لما نهوا عنه ويتسارون بالإثم والعدوان عليكم ، وبمعصية الرسول ﷺ حيث لم ينتهوا عمَّا نهوا عنه ، وإذا جاءوك لأمر من الأمور حيوك بما لم يحيك به الله ، فقالوا : السام عليك - والسام : الموت - وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديًّا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال : السام عليكم - فردَّ عليه النبى ﷺ

---

(١) الهمزة للتعجب .

وقال: «أتدرون ما قال هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: كذا رُدُّوه علىَّ، فَرَدُّوه قال: «قلتَ السام عليكم؟» قال: نعم، فقال النبى ﷺ عند ذلك: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليك ما قلت».

وقال الله ـ سبحانه ـ: (حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ)؛ لأن الله يحييه بالسلام فى مثل قوله ـ تعالى ـ: «وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ»، وقوله: «وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى» وبما جاء فى التشهد: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته» والتعبير بذلك للإيذان بشناعة ما قاله اليهود لمن اصطفاه الله للرسالة وسلَّم عليه، ويقول هؤلاء اليهود: لو كان محمد نبيًّا لعذبنا الله بما نقول فهلَّا يعذبنا، وقد فات هؤلاء الجاهلين أن الله ـ تعالى ـ يعصى بكل المعاصى ومنها الكفر به ولا يعذب أولئك العصاة عذابًا عاجلًا ولا يقطع عنهم الرزق، وكم من نبى أُسىء إليه من قومه، ولم يعاجلهم الله بالعقوبة، وهذا مقرر ومعروف لديهم (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) عذابًا يدخلونها ويصطلون بها (فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ) جهنم، فهى شر وأشد من عذاب الدنيا، وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول: «وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ»[1].

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾)

(١) سورة إبراهيم، الآية ٤٢

المفـردات :

(تَنَاجَيْتُمْ) : تساررتم .

(وَتَنَاجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ) : وتساروا بالخير وتقوى الله تعالى .

(إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ) : إنما المسارة بالمساءة ، مصدرها والحامل عليها الشيطان .

(وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) : وليس الشيطان أو التناجى بالسوء بضار المؤمنين بنفسه ، بل بإرادة الله .

(وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ) : فليعتمدوا على الله ، ويتركوا أمرهم إليه ، فإنه يحفظهم من كل سوءٍ لم يكتبه عليهم .

التفسـير

٩ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْاْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَاجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

هذه الآية للنهى عن المسارة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ ، والخطاب فيها يجوز أن يكون للمؤمنين المخلصين تعريضًا بالمنافقين ، وكأنه قيل : يا أيها المؤمنون المخلصون فى إيمانهم لا تفعلوا مثل المنافقين واليهود فى تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ وتناجوا فيما بينكم بما يتضمن خيرًا للمؤمنين ، ويقيكم إثم معصية الرسول ﷺ فإن ذلك هو اللائق بصدق إيمانكم .

ويجوز أن يكون الخطاب للمنافقين ، وإطلاق لفظ المؤمنين عليهم باعتبار ظاهر حالهم ، ومسايرة لهم فى زعمهم .

وقيل : إنه خطاب لليهود ، والمقصود من وصفهم بالإيمان إيمانهم بموسى ـ عليه السلام ـ كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ »[١] ، وقد ختم الله الآية بقوله ـ سبحانه ـ : (وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

---

(١) سورة الحديد من الآية ٢٨

أى : وخافوا الله الذى إليه وحده تحشرون بعد بعثه لكم من قبوركم ، لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا .

١٠ - (إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) :

أى : إنما التناجى والمسارة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ من الشيطان ، فهو المتسبب فيها والحامل عليها ؛ ليدخل الحزن فى قلوب المؤمنين ، وليس الشيطان أو التناجى بالإثم والعدوان بضارهم شيئًا من الضرر إلَّا بإرادة الله - تعالى - ومشيئته ، وذلك بأَن يقضى بالموت أو الغلبة على أقاربهم ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون فلا تكترثوا بتناجيهم ، ولتتوكلوا على الله ولا تحزنوا فلا يقع فى ملكه إلَّا ما يريد ، والمقصود من الآية إزالة خوف المؤمنين من تناجى أعدائهم .

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن ذلك يحزنه » ، وعلق عليه الآلوسى فقال : ومثل التناجى فى ذلك أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان ذلك يحزنه .

وعلق عليه القرطبى بقوله : يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فلا يتناجى أربعة دون واحد ، ولا عشرة ولا ألف - مثلًا - لوجود هذا المعنى فى حقه ، بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون التناجى دون هذا الواحد بالمنع أولى ، وإنما خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أول عدد يتأتى ذلك فيه ، وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور ، وسواءٌ كان التناجى فى مندوب أو مباح أو واجب ، فإن الحزن يقع به ، وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان فى أول الإسلام ؛ لأن ذلك كان فى حال المنافقين ، فيتناجى المنافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . ا هـ .

ورأى الجمهور أرجح من ذلك .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾)

المفـردات :

(تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ) : تَوَسَّعوا فى أماكن الجلوس .

(فَافْسَحُواْ) : فتوسعوا .

(وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ) أى : وإذا قيل انهضوا للتوسعة على المقبلين فانهضوا .

التفســـير

١١ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

لَمَّا نَهى الله فيما سبق عما هو سبب للتنافر والتباغض ، أمر فى هذه الآية بما هو سبب للمودة والوفاق ، وهو أن يتفسحوا فى المجالس فى المسجد أو غيره لمن يقول لهم[1] : تفسحوا

---

(١) التفسح : تفعل من الفسح وهو التوسعة ، يقال : فسح فلان لأخيه فى مجلسه يفسح فسحاً أى : وسع له ، وبابه منع ، ومنه قولهم : بلد فسيح ، ولك فى كذا فسحة ، أما فسح - بضم السين - فهو من باب كرم ، تقول : فسح المكان : أى ، صار واسعاً .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا قال لكم قائل منكم : توسعوا فى المجالس فى المسجد أو غيره فاستجيبوا له وليفسح بعضكم عن بعض فى المجالس ، ولا تتضاموا فيها لمنعه من الجلوس بينكم ، فإذا أفسحتم له يفسح الله لكم فى رحمته أو فى منازلكم فى الجنة أو فى قبوركم أو فى صدوركم أو فى رزقكم ، وقال بعضهم : المراد يفسح الله - سبحانه - لكم فى كل ما تريدون الفسح فيه مما ذكر أو غيره .

قال القرطبى : والصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير ، والأجر ، سواء أكان مجلس حرب أم ذكر أم مجلس يوم الجمعة ، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه فلا يقام منه كرهاً ، بل يستأذن فى التوسعة ، قال ﷺ : « من سبق إلى ما لم يُسْبَق إليه فهو أحق به »[1] ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه ، روى البخارى ومسلم عن ابن عمر عن النبى ﷺ : « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه الذى يجلس فيه » ، وعنه عن النبى ﷺ : « أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » ، وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه » واللفظ للبخارى .

والأكثرون قالوا : إن الآية نزلت لما كان عليه المؤمنون من التَّضَامِّ فى مجلسه ﷺ ، والضِّنة بالقرب منه وترك التفسح لمقبل ، قال الآلوسى : وأيا ما كان فالحكم مطرد فى مجالسه ﷺ ومصاف القتال وغيرها .

(وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ[2] فَانشُزُواْ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

والمعنى كما قال القرطبى : وإذا قيل لكم : انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير ، فانهضوا ولا تتباطئوا ، وقال ابن زيد : هذا فى بيت رسول الله ﷺ كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبى ﷺ فقال - تعالى - : (وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ) عن النبى ﷺ فَانشُزُوا فإن له حوائج فلا تمكثوا .

---

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الخراج والإمارة والفىء » ج ٣ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ فقد ورد الحديث برقم ٣٠٧١ بنحوه .

(٢) أمر من النشز وهو الارتفاع ، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها .

وذكر الله أجر من امتثل فى قوله – تعالى –: (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) وهذه الدرجات إما أن تكون للذين أُوتوا العلم ، وتنكير هذه الدرجات يؤذن بتعظيمها ، وإما أن تكون لجميع المؤمنين وفيهم الذين أُوتوا العلم ، وعطفهم على الذين آمنوا من عطف الخاص على العام تعظيمًا لهم كأنهم جنس آخر ، ولذلك أُعيد لفظ الموصول معهم .

أخرج الترمذى وأبو داود والدارمى عن أبى الدرداء مرفوعًا : « فَضلُ العالمِ على العابدِ كفَضْلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكب » – « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ »[1] .

ورفعهم درجات يكون فى ثواب الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على غير المؤمن ، ويرفع العالم على من ليس بعالم .

وختم الله الآية بقوله : (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فيجزى من يعمل بهذه الآية خير الجزاء ويعاقب من لم يمتثل بما يناسبه من عقاب .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾)

(١) سورة الزمر من الآية ٩

المفـردات :

(نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ) : ساررتموه .

(بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ) : قبل نجواكم ، وفى هذا التعبير استعارة تمثيلية أو مكنية ، والنجوى : المسارة .

(أَأَشْفَقْتُمْ) : أخِفتم ، أو شق عليكم .

(وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ) : قبل توبتكم ، أو رفع عنكم التكليف بتقديمها .

التفســـير

١٢ـ (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ذكر الآلوسى فى سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس وقتادة ،أن قومًا من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول ﷺ فىغير حاجة إلَّا لتظهر منزلتهم ، وكان ﷺ سَمْحًا لا يرد أحدًا ، فنزلت هذه الآية .

وعن مقاتل أن الأَغنياء كانوا يأْتون النبى ﷺ فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت . قال الآلوسى تعليقًا على نزول هذه الآية : وفى هذا الأَمر تعظيم للرسول ﷺ ونفع للفقراء ، وتمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الآخرة ومحب الدنيا ، ودفع للتكاثر عليه من غير حاجة مهمة .

وقال زيد بن أَسلم : لَمَّا نزلت هذه الآية انتهى أَهل الباطل عن النجوى ؛ لأَنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ،وشق ذلك على أَهل الإِيمان وامتنعوا عن النجوى ، لضعف كثير منهم عن الصدقة ، فخفف الله عنهم بما نزل بعد الآية .

وهذه الصدقة كان من مقاصدها نفع الفقراء ، فإِنها طلبت لتعطى لهم ، فإِنه ﷺ كان لا يأْكل من الصدقة ، ولم يعين فى الآية مقدارها ؛ ليجزئ القليل والكثير منها ، وقد نسخ العمل بها كما سيأْتى بيانه فى الآية التالية .

قال القرطبي : الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة ، ثم قال : وذكر القشيرى وغيره عن على بن أبى طالب أنه قال : آية فى كتاب الله ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى ، وهى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً) كان لى دينار فبعته ،فكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نَفِد ، فنسخت بالآية الأُخرى : (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ) ، وقال ابن عباس أيضاً : نسخها الله بالآية التى بعدها ، وقال ابن عمر :

لقد كانت لعلى بن أبى طالب ثلاث ، لو كانت لى واحدة منهن كانت أحب إلىَّ من حُمر النَّعَم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤُه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى .

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : إذا ساررتم الرسول ﷺ فقدموا قبل هذه المسارة والمناجاة صدقة تصرف على فقرائكم ذلك خير لكم وأطهر لقلوبكم ، فإنه يعودها على حب البذل فى الخير ، كما أن فيه إعداد النفس لمزيد التلقى من رسول الله ﷺ فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله غفور رحيم لمن ناجاه ولم يتصدق قبل المناجاة لفقره .

١٣ ـ (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

أى : أخفتم الفقر بسبب أن تقدموا قبل نجواكم صدقات[١] أو أخفتم تقديم الصدقات لتوهم ترتب الفقر عليه[٢] فإذ[٣] لم تفعلوا ما أُمرتم به من تقديمها قبل المناجاة وتاب الله عليكم من كثرة المناجاة للرسول ﷺ من غير ضرورة ، حيث عـدلتم عنها بعد تكليفكم بتقديم الصدقة قبلها ، والتزمتم القصد فيها والتخفيف فيها ، فتحقَّقَ الغرض

(١) وعلى هذا فالمفعول محذوف وهو لفظ الفقر ، وأن تقدموا القليل لهذا الخوف ، بتقدير باء السببية أو لفظ على قبل أن تقدموا .

(٢) وعلى هذا يكون لفظ : (أن تقدموا ... إلخ) هو المفعول به لأشفق .

(٣) لفظ (إذ) فى قوله ـ تعالى ـ : (فإذ لم تفعلوا) ظرف للزمان الماضى .

الأول من تكليفكم بها ، وهو زيادة احترامكم لرسوله ، وعدم إرهاقه بكثرة المناجاة له – فإذا لم تفعلوا تقديم الصدقة ، وقبل الله توبتكم بالتزامكم القصد فى مناجاته ، فقد رفعنا عنكم تقديمها قبل المناجاة ، ونسخنا تكليفكم بها ، فالتزموا المثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فهما ركنان هامان من أركان الإسلام ، وأطيعوا الله ورسوله فى كل ما أمركم به ، ومنها ما تقدم فى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية والله خبير بما تعملونه ظاهرًا أو خفيًّا ، فيجازيكم بما يتناسب مع أعمالكم ،والتعبير بلفظ (صدقات) بالجمع ، مع أن المطلوب صدقة واحدة قبل المناجاة ؛ لأن الخوف لم يكن من تقديم صدقة واحدة ، بل من تكرار تقديم الصدقة فى كل مناجاة ، ولأن جمع الصدقة فى مقابل جمع المشفقين ، يقتضى القسمة آحادًا .

وفى قوله تعالى : ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إشعار بأنه – سبحانه – قد عذرهم ورخص لهم فى ألا يقدموا صدقة .

سؤال هام وجوابه :

فإن قيل : أليس الله بأعلم بأنهم لن يتصدقوا ، فما معنى تكليفهم بها ثم تغيير هذا الحكم؟
فالجواب : أنه لما حصل المراد من تكليفهم بها ، وهو توفير وقت الرسول ﷺ وعدم إرهاقه بالمناجاة الشخصية التى لا يشترك فيها المسلمون ، لم تعد هناك حاجة لبقاء التكليف بها ، وحسبهم عنها الزكاة التى أوجبها الله على الموسرين منهم ، فهى تأديب فى ثوب بر ، فحيث حصل الأدب من غير تقديمها فلا داعى لبقائها ، ففى الزكاة كفاية عنها .

* (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(تَوَلَّوْا قَوْمًا) أى : وَالَوْهُمْ من الموالاة والمناصحة . والمراد : موالاة المنافقين لليهود .

(وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ) : وهو قولهم : والله إنا لمسلمون .

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) أى : أعدوها سترًا ووقاية ؛ ليخلصوا عن المؤاخذة .

(فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ) : وذلك بتثبيط مَنْ لقوهم عن الدخول فى الإسلام .

(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ) أى : استولى عليهم وتحكم فى أُمورهم .

التفسير

١٤ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَامِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

شروع فى إنكار موالاة المنافقين لليهود ، وتعجيب من حالهم وهو خطاب للرسول ﷺ وإلى كل من يتـأتى منه النظر .

والمعنى : ألم تنظر أيها الرسول إلى حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ،فإن حالهم ليدعو إلى العجب ، حيث إنهم يوالون قوما غضب الله عليهم وهم اليهود (مَّا هُم مِّنكُمْ) معشر المؤمنين (وَلَا مِنْهُمْ) أى : من القوم المغضوب عليهم ؛ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك كما قال تعالى : « مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ »[1] وجملة (مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ) مستأنفة أو حال من فاعل تولوا .

وجوز ابن عطية أن يكون هم فى (مَّا هُم مِّنكُمْ) لليهود ،وضمير (وَلَامِنْهُمْ) للمنافقين وعلى ذلك يكون المعنى :ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم أى : القوم المغضوب عليهم منكم ولا من المنافقين الذين تولوهم فيكون فعل المنافقين على هذا أخس ؛لأنهم تولوا قومًا مغضوبًا عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذِمَامهم ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صوابًا .

(وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أى : ويحلف المنافقون على الكذب وهو قولهم : والله إنا لمسلمون ،أو على أنهم ما شتموا النبى ﷺ على ماروى أنه كان جالسًا فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه. فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق فقال - عليه الصلاة والسلام - حين رآه :علام تشتمنى أنت وأصحابك ، فقال : ذرنى آتك بهم . فانطلق فدعاهم فحلفوا فنزلت ، خرجه الإمام أحمد وغيره .

---

(١) سورة النساء من الآية ١٤٣

حلف المنافقون على ذلك (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أنهم كاذبون فيما حلفوا عليه ، وفى ذلك إشارة إلى عظيم شناعة ما فعلوا ، فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب فى غاية القبح .

١٥ - (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

أى : أنه - سبحانه - أعد للمنافقين نوعًا شديدًا من العذاب متفاقمًا ، بسبب سوء صنيعهم الذى اقترفوه بموالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم . وقد بلغوا فى الإساءة إليهم أقصى ما تعودوا الإتيان به ، وتمرنوا عليه من فساد وإفساد منذ الأزمان الماضية المتطاولة التى كانوا فيها يعيثون فى الأرض الفساد .

١٦ - (اتَّخَذُوٓاْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

المعنى : أن اتخاذهم لأيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً وسترًا حتى تسلم دماؤهم وأموالهم إذا ما افتضح وانكشف أمرهم هو عبارة عن إعدادهم لتلك الأيمان ، وتهيئتهم إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ، ويتخلصوا من المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة وبما ذكر وضح أن المراد من قوله - تعالى - : (اتَّخَذُوٓاْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) أى : أعدوها .

أما فى قراءة الحسن (اتَّخَذُوٓاْ إِيمَانَهُمْ) بكسر الهمزة ، فالاتخاذ عبارة عن التستر بالفعل كأنه قيل : تستروا بما أظهروه من الإيمان عن أن تستباح دماؤهم بالقتل وأموالهم بالغنيمة وذراريهم بالسبى (فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) أى : فصد المنافقون الناس عن سبيل الله فى خلال أمنهم بتثبيط من لقوا منهم عن الدخول فى الإسلام وتهوين أمر المسلمين عندهم، أو قصد : ومنع المنافقون المسلمين عن سبيل الله فيهم وهو قتلهم لكفرهم ونفاقهم . هذا هو سبيل الله فيهم . ثم ختمت الآية بوعيد ثان ووصف آخر لعذابهم الذى وصف أولًا بأنه شديد فى قوله - تعالى - : « أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » لبيان أن العذاب بوصفيه الشديد والمهين بلغ الغاية فى الشدة والإهانة حتى حق عليهم قوله - تعالى - : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »[1] ، وقيل : الأول لعذاب القبر والثانى للآخرة

---

(١) سورة النساء ، من الآية ١٤٥

١٧ - (لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) :

أى : لن تدفع عنهم عذابَ الله أموالهم مهما بلغت ، ولا أولادهم مهما كانت معونتهم ، فلا تغنى عنهم أى غناء قليلًا كان أو كثيرًا ، وليس المراد خصوص الأموال والأولاد ، بل كل مايعتبره الإنسان من دواعى القوة والمنعة . وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر ؛ لأن الإنسان فى الغالب تارة مايدفع عن نفسه بالفداء ، وأخرى بالأولاد (أُوْلَٰٓئِكَ) المنافقون الموصوفون بما ذكر (أَصْحَابُ النَّارِ) الملازمون لها (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى : المخلدون فيها لا يخرجون منها أبد الآبدين . روى أن رجلًا منهم قال : لَنُنْصَرُنَّ يوم القيامة بأنفسنا ، وأموالنا وأولادنا فنزلت الآية .

١٨ - (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) :

أى : حين يبعثهم الله جميعًا من قبورهم ويساقون للقاء ربهم فيحلفون له - سبحانه - حينئذ بأنهم مسلمون حيث قالوا : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » كما يحلفون لكم فى الدنيا ، ويظنون أنهم بتلك الأيمان الفاجرة على شىء من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه فى الدنيا إذ كانوا يدفعون عن أموالهم الغنيمة ، وعن أرواحهم القتل ، وعن ذراريهم السبى بمثل تلك الأيمان الفاجرة . ويأملون بها فوائد دنيوية (أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) البالغون الغاية فى الكذب التى لامطمح بعدها لكاذب ، حيث استوت حالهم فيه فى الدنيا والآخرة بتجاسرهم على علام الغيوب الذى يعلم السر وأخفى . وزعموا أن أيمانهم تجعل الكذب مقبولًا لديه - عَزَّ وَجَلَّ - كما تجعله مقبولًا لدى المؤمنين الذين لا يعلمون إلَّا ظاهر القول ،أما كُنْهُهُ وحقيقة أمره فعلمه عند الله .

١٩ - (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

أى : استولى عليهم وتمكن من عقولهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه فأنساهم بذلك ذكر الله ، قال الكرمانى : علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والمشارب والملابس ، ويشغل قلبه عن التفكر فى آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها ،

ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبُهْتَان، ويشغل لبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها (أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ) أى: الموصوفون بما ذكر من القبائح والتمادى فى العصيان (حِزْبُ الشَّيْطَانِ) أى: جنوده وأتباعه (أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى: البالغون فى الخسران أقصاه حيث إنهم بسوء صنيعهم فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم، واختاروا بدله الشقاء الدائم، والعذاب الأليم.

وفى اشتمال الجملة على حرفى التنبيه والتأكيد وضمير الفصل وغير ذلك من فنون التوكيد ما لا يخفى.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات:

(يُحَآدُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ): أى: يعادونهما ويخالفون أمرهما.

(أُوْلَٰٓئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ): أى: فى جملة من هم أذل خلق الله.

(كَتَبَ اللَّهُ) أى : أثبته وأوجبه .

(أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) : العشيرة هى: القبيلة ولا واحد لها من لفظها ،والجمع : عشيرات وعشائر ا هـ . مصباح .

التفسير

٢٠ -(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ) :

استئناف مسوق لتعليل ما قبله من خسران حزب الشيطان ،والتعبير بالموصول ذمًّا لهم بما فى حيز الصِّلة وإشعارا بعلية الحكم .

والمعنى : أولئك الموصوفون بما ذكر من التولى والموادة للقوم المغضوب عليهم هم فى جملة من جعله الله أذل خلقه من الأولين والآخرين ؛لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر. وحيث كانت عِزَّة الله غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك .

٢١ - (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ) :

استئناف وارد لتعليل كونهم فى الأذلين .

والمعنى : قضى الله وأثبت فى اللوح المحفوظ ، وحيث جرى (كَتَبَ اللَّهُ) مجرى القسم أجيب عنه بما أُجيب به القسم فقيل : (لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى) أى : بالحجة والعَدَد والعُدَّة ، ونظيره قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »[1] ويكفى فى الغلبة تحققها للرسل -عليهم السلام - فى أزمنتهم غالبا ،فقد أهلك الله الكثير من أعدائهم بأنواع العذاب كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم . وبذلك تحققت الغلبة لرسله ، كما تحققت للرسول ﷺ لأن العاقبة كانت له بعد حرب استمرت بينه وبين أعدائه ، وكذا لأتباع الرسل بعدهم. وذلك إذا كان جهادهم أعداء الدين على نحو جهاد الرسل لهم بأن يكون خالصا لوجه الله - عزَّ وجلَّ - لا لطلب ملك وسلطنة ، وأغراض دنيوية . ولن تجد مجاهدا كذلك إلَّا منصورا غالبا . وخص بعضهم

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٧١ - ١٧٣

الغلبة فى الآية بالحجة لاطرادها وهو خلاف الظاهر كما قال الآلوسى ،ويبعده سبب النزول ، فعن مقاتل : لَـمَّا فتح الله - تعالى - مكة والطائف وخيبر وما حولها للمؤمنين قالوا : نرجو أن يظهرنا الله - تعالى - على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبى : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا من أن تظهروا عليهم فنزلت الآية (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) ينصر رسله وأولياءه بقوته القاهرة ، وعزته البالغة : فلا يغلبه على مراده كائن كيفما كان .

٢٢ - (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

الخطاب فى الآية للرسول أو لكل من هو أهل للخطاب .

والمعنى : من الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوادون من عادى الله ورسوله وذلك بأن يجمعوا بين الإيمان وموادة من عادى الله ورسوله .

وهو المراد بنفى الوُجْدان ، على معنى أنه لا ينبغى أن يتحقق ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن قصده وجَدَّ فى طلبه كُلُّ أحد ، وذلك مبالغة فى النهى عنه والزجر عن ملابسته والتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم .

وقيل : المراد لا تجد قومًا كاملى الإيمان على هذه الحال ، والنفى باق على حقيقته ، والمراد بموادة المحادين موالاتهم ومظاهرتهم ، والظاهر أن المراد بمن حاد الله ورسوله الكافر . وبعض الآثار تشير إلى شموله الفاسق . روى عن الثورى أنه قال : نزلت فيمن يصحب السلطان . وقال سهل : من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس لمبتدع ولا يجالسه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعًا سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع لطلب عز الدنيا أو غناها أذلَّهُ الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب .

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن البراء بن عازب مرفوعًا : «أوثق الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله» ، ونعى الآلوسى على بعض المنتسبين إلى بعض المتصوفة فقال : ومن العجب أن بعض المنتسبين إلى المتصوفة- وليس منهم ولا قلامة ظفر - يوالى الظلمة ، بل من لا علاقة له بالدين منهم ، وينصرهم بالباطل ، ويظهر من محبتهم ما يضيق عن شرحه صدر القرطاس اهـ

وقد زاد - سبحانه - النهى عن موادة من عادى الله ورسوله تأكيدًا بقوله : (وَلَوْ كَانُوٓا۟ آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَو عَشِيرَتَهُمْ) أى : ولو كان من حادّ الله ورسوله آباء الموادين أو أبناءهم أو إخوانهم أو من قبيلتهم التى ينتمون إليها ، ويستظلون بلوائها . وليس المراد بمن ذكر خصوصهم ، وإنما المراد الأقارب مطلقًا .

وقدم الآباء لوجوب طاعتهم على الأبناء ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، وثنى بالأبناء لقوة الارتباط فى الدنيا بهم لكونهم أكبادهم ، وثلث بالإخوان ؛ لأنهم المناصرون لهم ، وختم بالعشيرة للاعتماد على أفراد القبيلة والتناصر بهم بعد الإخوان غالبًا (أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ) إشارة إلى الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله وإن كانوا أقرب الناس إليهم ، وأمسهم رحمًا بهم ، وما فى الإشارة من معنى البعد فى قوله - تعالى - : (أُو۟لَـٰٓئِكَ) للتنويه برفعة شأنهم ، وعلو قدرهم ، أولئك كتب الله وأثبت فى قلوبهم الإيمان ، ولَمَّا كان الشىء يراد أولًا ثم يقال ثم يكتب عبر عن المبدأ بالمنتهى وهو الكتابة للتأكيد والمبالغة فى اتصافهم به : (وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) أى : قواهم بكتاب أنزله ، فيه حياة لهم وهو القرآن ، أو بروح من الإيمان على أنه فى نفسه روح ؛ لأن به حياة القلوب ، والمراد بالروح على هذا نور يقذفه الله فى قلب من يشاء . تحصل به الطمأنينة ، والعروج على معارج التحقيق .

وتسميته روحًا ؛ لأنه سبب الحياة الطيبة الأبدية .

(وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ) ذلك بيان لآثار رحمته - تعالى - الأخروية إثر بيان ألطافه الدنيوية حيث يدخلهم فى جنات باسقة الأشجار طيبة الثمار . تتخلَّلُ أشجارها وتنساب بين قصورها أنهار جارية متدفقة تزيدها جمالًا وبهاء ، ماكثين فيها أبد الآبدين

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ) استئناف جار مجرى التعليل لِمَا آتاهم الله من آثار رحمته التى أفاضها عليهم فى الدارين الدنيوية والأُخروية أى : قبل أعمالهم (وَرَضُواْ عَنْهُ) بيان لابتهاجهم الذى بدت آثاره عليهم بما أُوتوه عاجلًا وآجلًا . وقد شرفهم ـ سبحانه ـ بقوله : (أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ...) المختصون به ـ تعالى ـ وذلك تشريف لهم لا يعدله تشريفٌ ما .

(أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) هذا بيان لاختصاصهم بسعادة الدارين ،جاء بجملة مؤكدة تـأُكيدا قويًّا كما سبق بيانه قريبا .

والآية قيل : نزلت فى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حُدِّثت أن أبا قحافة سب النبى ﷺ وصكه أبوبكر صكة فسقط ،فذُكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ قال : نعم . قال : لا تعد . قال : والله لو كان السيف قريبًا منى لضربته . وفى رواية : لقتلته . فنزلت .

وقيل : نزلت فى أبى عبيدة بن عبد الله بن الجراح . أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وجماعة عن ابن عباس عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبى عبيدة يتصدى له يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت ، وقيل : نزلت فى مصعب بن عمير قتل أخاه يوم أُحد ، وقيل : نزلت فى على كرم الله وجهه ، وحمزة وعبيدة ابن الحارث يوم بدر قتلوا عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة ، وعلى أى حال فالحكم عام . وإن نزلت فى أُناس بأعيانهم كما لا يخفى .

سورة الحشر

مدنية وعدد آياتها اربع وعشرون
وتسمى سورة بنى النضير كما قال ابن عباس

مناسبتها لما قبلها :

إن فى آخر تلك « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ، وفى أول هذه (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) ، وفى آخر السابقة ذكر من حاد الله ورسوله ، وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله ، وأن فى الأُولى ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضًا ، وفى هذه ذكر ما حل باليهود ، وعدم إغناء تولى المنافقين إيَّاهم شيئًا .

اهم اغراض السورة :

ابتدأت بتنزيه الله وتمجيده ، وبيان أن الكون له وحده بما فيه من إنسان ، وحيوان ، وجماد ونبات يشهد بعظمته وسلطانه : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ...) الآية ، ثم تحدثت عن مظاهر قدرته فى إخراج بنى النضير وإجلائهم عن ديارهم ولم تنفعهم حصونهم العالية ولا قلاعهم المنيعة : (هُوَ الَّذِىٓ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...) الآيات ، ثم تناولت موضوع الفىء ، فبينت شروطه وأحكامه مع بيان الحكمة فى إعطائه الفقراء : (وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ...) الآيات ، ثم أشارت إلى أصحاب رسول الله وأثنت عليهم الثناء العاطر بذكر تضحيات المهاجرين ومآثر الأنصار :(لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ...) الآيات .

وفى مقابلة المهاجرين والأَنصار ذكرت السورة المنافقين الأَشرار الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام وكان مثلهم معهم كمثل الشيطان الذى يزين للإنسان سوءَ عمله ، ثم يتخلى عنه ويخذله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِم ...) الآيات .

وحثت المؤمنين على تقوى الله ، وحذرت من ذلك اليوم الرهيب الذى لا ينفع المرء فيه إلَّا ماقدمت يَدَاه : (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ...) الآية ، وبينت الفرق الكبير بين

أهل الجنة ، وأهل السعير ، وبين مصير السعداء ، ومصير الأشقياء : (وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ...) الآيات .

وختمت السورة ببيان شأن القرآن ، وعظيم تأثيره ، وأنه رفيع القدر ، نابه الذكر ؛ لأن الذى أنزله هو المتصف بالأسماء الحسنى : (هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ...) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) التسبيح : التنزيه لله – تعالى – اعتقادا وقولًا وعملًا عمًّا لا يليق به .

(لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) : عند أول جمع اليهود لإجلائهم . فالحشر معناه : الجمع ، ومنه : وحشر لسليمان جنوده .

(حُصُونُهُمْ) : مفرده حصن ، وهو المكان المنيع الذى لا يقدر عليه لارتفاعه ، وحصن حصانة فهو حصين أى : منيع .

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) أى : ألقاه وأنزله بشدة .

(بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : عادوهما وخالفوهما .

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ) اللِّينة – بكسر اللام – : النخلة القريبة من الأرض الكريمة الطيبة .

التفسير

١ – (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المعنى : نزَّه اللهَ عما لا يليق به ما فى السموات وما فى الأرض . وذلك يعم جميع ما كان مستقرًّا فيهما ، وما كان من أجزائهما حيث أُريد به معنى عام شامل لكل ما نطق بلسان المقال كالملائكة والمؤمنين من الثقلين ، وما نطق بلسان الحال كغيرهم ، وهو المراد من قوله – تعالى – : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »[١] ، وذكرت اللام فى لفظ الجلالة مع الفعل المتعدى وهو سبَّح إما للتأكيد أو للتعليل بمعنى فعل التسبيح لأجل الله – تعالى – وخالصا لوجهه . وبدئت بعض السور بلفظ سبح وبعضها بلفظ يسبح للإيذان بتحقق التسبيح فى جميع الأوقات (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الذى لا يُغالب ولا يُمانع ولا يعجزهُ شىءٌ كائنا ما كان ، ولا يفعل إلَّا ما تقتضيه الحكمة .

وكرر الموصول هنا فقيل : (مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح .

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ٤٤

روى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمَّا قدم المدينة صالح بنى النضير وهم رهط من اليهود من ذرية هارون ـ عليه السلام ـ نزلوا بالمدينة فى فتن بنى إسرائيل انتظارا لبعثة النبى ﷺ . وفى صلحه معهم عاهدهم أن يكونوا لا له ولا عليه . فلما ظهر ـ عليه الصلاة والسلام ـ على المشركين يوم بدر قالوا : هو النبى الذى نعته فى التوراة لا ترد له راية ، فلما كان يوم أُحد ما كان ارتابوا ونكثوا العهد فخرج كعب بن الأَشرف زعيمهم فى أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا قريشا عند الكعبة على قتاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأَمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأَنصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ثم صبحهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالكتائب فقال لهم : اخرجوا من المدينة فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدس عبد الله بن أُبى المنافق وأصحابه من قال لهم : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم ، فسدوا الأَزقة وحصنوها فحاصرهم النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إحدى وعشرين ليلة . فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين لهم طلبوا الصلح ، فأَبى ﷺ إلَّا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير . يحملون ما شاءُوا من متاعهم . فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلَّا أهل بيتين منهم هما آل أبى الحقيق وآل حيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة منهم بالحيرة ، فأَنزل الله ـ : تعالى ـ(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) إلى قوله : (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) ، وقوله ـ تعالى ـ :

٢ ـ (هُوَ الَّذِىٓ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَاظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى الْأَبْصَارِ) :

هذه الآية بيان لبعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته إثر وصفه ـ تعالى ـ بالعزة القاهرة والحكمة البالغة على الإطلاق فى الآية السابقة ، وعلى هذا فالضمير راجع إلى الله سبحانه وتعالى .

والمعنى : ذلك المنعوت بالعزة والحكمة :(هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) وهم يهود بنى النضير . أخرجهم من ديارهم بالمدينة لأول الحشر بمعنى عند أول إخراج لهم ، والحشر : إخراج الجماعة من مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط ، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام وغيرها ، وآخر حشرهم بإجلاء عمر – رضى الله عنه – إياهم من خيبر إلى الشام ، وقيل : آخر حشرهم يوم القيامة .

ومشروعية الإجلاء كانت فى ابتداء الإسلام ، أما الآن كما يقول الآلوسى فقد نسخت فلا يجوز إلّا القتل أو السبى أو ضرب الجزية .

وكان من شأنكم أيها المسلمون أنكم (مَا ظَنَنتُم أَن يَخْرُجُواْ) من ديارهم لشدة بأسهم ، ومنعة حصونهم وكثرة عددهم وعُددهم كما كان من شأنهم أنهم ظنوا أن حصونهم مانعتهم من أمر الله تعالى ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال لمقابلة ما ظننتم أن يخرجوا ، أن يقال : وظنوا ألّا يخرجوا ولكن عدل إلى ما فى النظم الجليل للإشعار بأن ظنهم قارب اليقين فناسب أن يؤتى بما يدل على فرط وثوقهم بما هم فيه بتقديم الخبر وهو (مَانِعَتُهُمْ) على المبتدأ وهو (حُصُونُهُمْ) للدلالة على الاختصاص والتوكيد فكأنه لا حصن أمنع من حصونهم ليكون مانعاً من الوصول إليهم (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ) أى : نزل بهم أمر الله وقدره المقدور لهم من حيث لم يتوقعوه ولم يخطر لهم على بال وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف فإنه مما أضعف قوتهم ، وفل شوكتهم ، وسلب قلوبهم الأمْنَ والاطمئنانَ وألبسهم أردية الخضوع والاستكانة (وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) بإلقاء الخوف الشديد فيها بقوة ، أو من مكان بعيد (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ) الجملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر تقديره : فما حالهم بعد قذف الرعب فيها أو معه ؟ فأجيب بالجملة .

والمعنى : يخربون بيوتهم من باطنها بأيديهم ليسدوا بأخشابها وأحجارها أفواه الأزقة تحصيناً لها وحتى لا تبقى صالحة لسكنى المسلمين والانتفاع بها بعد جلائهم عنها فيزيدهم ذلك ندماً وحسرة . ولينقلوا ما فيها من جيد الخشب والساج معهم ، كما كانوا يخربون تلك

البيوت من خارجها بأيدى المؤمنين الذين أرادوا اقتحامها عليهم ليزيلوا تحصنهم بها ، وليتسع مجال المعركة أمام المسلمين فيتسنى لهم الغلبة عليهم ، واستئصال شأفتهم فلا تبقى لهم بالمدينة دار .

ومعنى تخريبهم لبيوتهم بأيدى المؤمنين : أنهم لما عرضوا أنفسهم وديارهم بنكث العهد وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروا المسلمين به وكلفوهم إياه ، وبهذا الاعتبار عطفت بأيدى المؤمنين على بأيديهم (فَاعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ) أى : فتأملوا يا أولى العقول والألباب ، واتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة ، واتقوا مباشرة ما أوصلهم إليه الكفر والعصيان واحذروه واعتمدوا على الله وحده حتى لا تُعاقَبوا بمثل عقابهم .

٣ ـ (وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ) :

أى : ولولا أن كتب الله عليهم الإخراج أو الخروج عن أوطانهم على تلك الصورة الفظيعة (لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا) بالقتل والسبى كما فعل ببنى قريظة وجىء بقوله ـ تعالى ـ : (وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ) لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا وهو القتل فلا نجاة لهم من عذاب الآخرة ، وليس تمتعهم أياماً قلائل بالحياة ، وتهوين أمر الجلاء على أنفسهم بنافع لهم ، وفيه إشارة إلى أن القتل أشق من الجلاء لا لذاته ، بل لأنهم يصلون عنده إلى عذاب النار.

وفرق بعضهم بين الجلاء والإخراج بأن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . وقال الماوردى : الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج قد يكون لواحد ولجماعة .

٤ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) :

الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : (ذَٰلِكَ) تنبئ بأن ما حاق بهم أو ما سيحيق بسبب أنهم عادوا الله ورسوله وخالفوهما وفعلوا ما فعلوا من المحكى عنهم من القبائح والسيئات (وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ) الاقتصار على ذكر مشاقة الله لتضمنها لمشاقة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليوافق قوله ـ تعالى ـ : (فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) أى : يعاقبه ؛ لأنه ـ سبحانه ـ شديد العقاب

كأنه قيل : ذلك الذى نزل بهم من العقاب أو سينزل بهم هو بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله ﷺ وكل من يشاق الله – تعالى – كائنًا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد

٥ – (مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ) :

قال الحافظ بسنده عن جابر قال : رخص لهم فى قطع النخل وشدد عليهم ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا : يارسول الله علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا ؟ وكان بعضهم قد شرع أثناء الحصار فى قطع بعض النخيل إغاظة لهم وإرهابًا لقلوبهم فأنزل الله تعالى الآية .

والمعنى : ما قطعتم أى نخلة كما قال الحسن ومجاهد والراغب وجماعة ، أو أى نخلة كريمة كما قال الثورى ، كأنها أخذت من اللِّين ، أو تركتموها قائمة على أصولها لم تتعرضوا لها بشىء ما فذلك الذى فعلتموه من القطع أو الترك بأمر الله – تعالى – الواصل إليكم بواسطة رسول الله ﷺ أو بإرادته – سبحانه – ومشيئته « وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ » أى : وليعز المؤمنين ، ويذل اليهود ويغيظهم ؛ لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كما أرادوا ، ويتصرفون فيها حسبما أحبوا من القطع أو الترك يزدادون غيظا ، وكمدا ، وحسرة ، وندما ، حيث إن فى القطع خزيا – بالغًا لذهابها بأيدى أعدائهم المسلمين وحسرة شديدة ، وفى الإبقاء حسرة أشد ، وخزيًا أبلغ لكونها باقية فى أيدى أعدائهم المسلمين يتمتعون بها وينعمون بثمرها . قال بعضهم : هاتان الحسرتان تتحققان أيضا كيفما كانت المقطوعة أو المتروكة ؛ لأن النخل مطلقًا مما يعز على أصحابه فلا تكاد تسمح أنفسهم بتصرف أعدائهم فيه حسبما شاءوا ، وعزته على صاحبه الغارس له أعظم من عزته على صاحبه غير الغارس له ، وقد سمعت بعض الغارسين يقول : السعفة عندى كإصبع من أصابع يدى ، وتحقُّق الحسرة على الذهاب إن كانت المقطوعة نخلة كريمة أظهر .

واستدل بالآية على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم ومضاعفة لحسرتهم .

ويرى الفقهاء فى المسألة أن القطع والتحريق أولى إن علم بقاؤها فى أيدى الكفار ، وإلّا فالإبقاء أولى ما لم يتضمن ذلك مصلحة .

(وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾)

المفـردات :

(وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ) الفىء : كل مال أخذ من الكفار بغير قتال .

(فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ) إيجاف الخيل والركاب : سرعة سيرها ، يقال : أوجف البعير : حثه وحمله على السير السريع ، والركاب اسم جمع لا واحد له من لفظه غلب على ما يركب من الإبل كما تطلق كلمة الراكب على راكبه ، فلا يقال فى الأكثر الفصيح راكب لمن كان على فرس ونحوه ، بل يقال : فارس ، أى : فما أجريتم على تحصيله خيلاً ، ولا ركاباً .

(مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ) : هم أهل قرى الكفار عامة الذين أُخذت أموالهم صلحاً بغير إيجاف خيل ولا ركاب .

(لِذِى الْقُرْبَىٰ) : هم بنو هاشم وبنو عبد المطلب .

(كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ) الدولة : ما يتداول فى الأيدى ، فيحصل فى يد هذا تارة وفى يد هذا أخرى ، أى : يتداوله الأغنياءُ بينهم فلا يصيب الفقراءَ .

التفسـير

٦- (وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

شروع فى بيان حال ما أُخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل ، أموال الكفرة التى تكون فيئًا للمؤمنين ؛ لأن الله خلق الناس لعبادته ، وخلق ما خلق من الأموال ليتوسلوا بها إلى طاعته .

(وَلَـٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ) أى : إن سنته جارية منذ الأزل على أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم بقذف الرعب فى قلوبهم ، وقد سلط رسوله ﷺ على بنى النضير تسليطًا غير مألوف من غير أن تتحملوا مضايق الخطوب ، وتقاسوا شدائد الحروب ، لذلك فلا حق لكم فى أموالهم ، ويكون أمرها مفوضًا إليه ﷺ (وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) فيفعل ما يشاء كما يشاء على الوجوه المعهودة تارة وأُخرى على غيرها لا يغالب ولا يمانع ولا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء .

٧- (مَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

بيان لحكم ما أفاءَ الله على رسوله ﷺ من قرى الكفار على العموم ، بعد بيان حكمه فيما أفاءه من بنى النضير .

فالآية جوابٌ على سؤال مقدر ناشئ عمَّا فهم من الكلام السابق ، فكأن قائلًا يقول : قد علمنا حكم ما أفاءَ الله من بنى النضير ، فما حكم ما أفاءَ الله تعالى من غيرهم ؟ فقيل : ما أفاءَ الله على رسوله ... الآية ، ولذا لم تعطف على ما قبلها ، وإعادة عين العبارة الأُولى فى الآيتين لزيادة التقرير (فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) قد اختلف فى قسمة ما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع .

نزلت حين طلب الصحابة منه ﷺ أن يقسم بينهم أموال بنى النضير قسمة الغنائم كما حدث فى بدر ، فبين الله – تعالى – أنها فئ لا غنيمة إذ إنهم لم يقطعوا لها شقة ، ولم يلقوا فيها مشقة ، ولم يلتحموا فيها بقتال شديد ، بل ذهبوا إليها رجالًا ، وكانت على ميلين من المدينة ، وفتحت صلحًا ، فهى للرسول خاصة يتصرف فيها كما أمره الله سبحانه.

والمعنى : ما رجع إليكم وحصلتم عليه من أموال بنى النضير بعد رحيلهم عنها فهى لرسول الله ﷺ خاصة يتصرف فيها حسبما شرعه الله تعالى ، فقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب – رضى الله تعالى عنه – قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء اللهُ على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله ﷺ خاصة ينفق منها على أهله ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع ، عدة فى سبيل الله يعطى منها من يشاء ، ولذلك آثر المهاجرين بها ولم يعط الأنصار شيئًا عدا ثلاثة لفقرهم كما قال الضحاك .

وخصت به ﷺ لأنها حصلت لكم صلحًا ، فلم تحصلوها بكد اليمين ، وعرق الجبين ولم توجفوا على الوصول إليها خيلًا ولا ركابًا ، بمعنى أنكم لم تدفعوها دفعًا شديدًا لغزو بنى النضير وإنما ذهبتم إليها رجالًا ماعدا النبى ﷺ لقرب ديارهم من المدينة ، وفيما ذكر إشعار بأن هذه الأموال حرية بأن تكون لرسول الله ﷺ ، وإنما وقعت فى أيديهم بغير حق . فأرجعها الله إلى مستحقها ، من فاء الظل : إذا رجع ، وكذلك شأن الفئ من أهل القرى غير بنى النضير فقيل : يسدس كظاهر الآية ، ويصرف سهم الله فى عمارة الكعبة ، وسائر المساجد ، والمصالح العامة وقيل : يخمس وهو الصحيح وذكر الله للتعظيم ، ويصرف سهم الرسول بعد وفاته إلى إمام المسلمين على قول ، وإلى العساكر والثغور على قول ، وإلى مصالح المسلمين على قول .

وحاصل المعنى : أن فئ أهل القرى يقسم إلى خمسة أسهم ، فيصرف سهم منه لله وللرسول وذكره تعالى للتيمن والتبرك فإن لله ما فى السموات والأرض كما روى عن ابن عباس والحسن عن محمد بن الحنفية ، وفيه تعظيم لشأن الرسول ﷺ .

وسهم لذى القربى من بنى هاشم وبنى عبد المطلب دون من عداهم لقوله ﷺ : بنو هاشم وبنو عبد المطلب شىءٌ واحد ، وشبك بين أصابعه ، ويقول فيهم : لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام كما فى البخارى .

وسهم لليتامى . وهم أطفال المسلمين الذين فقدوا آباءهم ولو كان لهم أجداد ، وسهم للمساكين وهم ذوو الحاجة والفقر ، وسهم لابن السبيل ، وهو الغريب المنقطع فى سفره عن ماله ، وقيل : يخمس ، فيصرف خمسه كما يصرف خمس الغنيمة المذكورة فى قوله ـ تعالى ـ : « وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ » [1] الآية ، والأخماس الأربعة الباقية يصرفها الرسول كما يشاء ، له أن يعمم وله أن يخصص ذلك بالفقراء .

وصرف الفىء على النحو المذكور (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ) تعليل للتقسيم السابق أى : حتى لا يكون شيئًا يتداوله الأغنياءُ منكم، ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء مع أن حقه أن يكون لهم . أو حتى لا يكون دولة جاهلية بينكم ، فإن الرؤساء كانوا يستأثرون بفيئهم ، ويقولون : من عزّ بزّ . وقرئ دولة بضم الدال وفتحها وهما بمعنى واحد .

(وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ...) الآية : الواو اعتراض على سبيل التأكيد ، وليست عاطفة .

أى : وما أعطاكم الرسول من الفىء فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه أو عن تعاطيه فاتركوه وابتعدوا عنه ،وحمل الآية علىخصوص الفىء مروى عن الحسن لقرينة المقام ،وفى الكشاف : الأجود أن تكون الآية عامة فى كل ما أمر به ﷺ ونهى عنه وذلك لعموم (ما) وأمر الفىء داخل فى العموم دخولًا أوليًا (وَاتَّقُواْ اللَّهَ) فى مخالفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وذلك تعميم إثر تعميم ، ويتناول كل مايجب أن يتقى لدخوله . كما سبق فى عموم (ما) روى ذلك عن ابن جريج .

(إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :فيعاقب كل من يخالف أمره ونهيه عقابا شديدا ليس لهم من يدفعه عنهم من ولى أو نصير .

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٤١

قال الإمام بسنده عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشمات[١] ، والمستوشمات[٢] ، والمتنمصات[٣] ، والمتفلجات[٤] للحسن المغيِّرات خلق الله – عز وجل – قال : فبلغ امرأة يقال لها : أم يعقوب فجاءت إليه ، فقالت : بلغنى أنك قلت : كيت وكيت . فقال : مالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفى كتاب الله ، فقالت : إنى لأقرأ بين لوحيه فما وجدته ، قال : إذا كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت (وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ) . قالت : بلى . قال : فإن النبي ﷺ نهى عنه إلى آخر الحديث . أخرجه الشيخان من حديث سفيان الثورى .

(لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾)

(١) هن اللاتى يصنعن الوشم وذلك بغرز البشرة بإبرة ثم يذر عليها لون أحمر .
(٢) من يطلبن من غيرهن الوشم . (٣) اللاتى يأمرن بترقيق حواجبهن طلباً للزينة .
(٤) اللاتى يباعدن بين الثنايا والرباعيات بترقيق الأسنان بالمبرد .

المفردات :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ) أى : نزلوا المدينة مقيمين بها ، وأخلصوا الإيمان .

(وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا) أى : إن نفوسهم لم تطمح إلى شىء مما أعطى المهاجرون من الفىء وغيره .

(وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) أى : حاجة بمعنى أنهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) أى : ومن أبعده الله بتوفيقه من أن يغلب عليه حب المال وبغض الإنفاق كان من المفلحين ، وأضيف الشح إلى النفس ؛ لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهو المنع نفسه بأن يبخل على الناس بما فى يده ، وقيل : الشح : بخل مع حرص .

التفسير

٨ - (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) :

والمعنى : يقول - تعالى - مبينًا حال الفقراء المستحقين لمال الفىء بأنهم هم الذين أخرجهم الكفار من ديارهم وأموالهم وكانوا مائة رجل كما قيل فخرجوا يبتغون رزقًا منه - تعالى - فى الدنيا ومرضاة فى الآخرة ، وقد وصفوا أولًا بما يدل على استحقاقهم للفىء حيث وصفوا بالإخراج من الديار والأموال ، ووصفوا ثانيًا بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده ، مما يدل على توكلهم التام ورضاهم بما قدره المليك العلام فقال : (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) وكانت نصرة الله - تعالى - ورسوله ﷺ هى مقصدهم فقد قال - سبحانه - : (وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أى : ويضمرون فى أنفسهم عزمًا أكيدًا بأن يبذلوا كل مرتخص وغال فى سبيل نصرة دين الله ، أو فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة تقارنه نصرة لله ولرسوله وأى نصرة تعدل ذلك .

(أُولَٰئِكَ) الموصوفون بما ذكر من الأوصاف العظيمة (هُمُ الصَّادِقُونَ) الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى دعواهم الإيمان ، حيث فعلوا ما يدل عليه أقوى دلالة مع إخراجهم من

أموالهم وأوطانهم لأجله - سبحانه - وهذا الوصف خاص بهم لا بغيرهم ممن آمن فى مكة ، ولم يخرج من داره وماله ولم يثبت منه نحو ما ثبت منهم من لين مع المشركين .

٩ - (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

كلام مستأنف لمدح الأنصار بخصائص حميدة من جملتها مدح محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاصهم ببعض مال الفىء دونهم وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة ، وقد تبوءُوا الدار والإيمان ، وتمكنوا فيها أشد تمكن ، ونسبة التبوء إلى الدار ، والمراد بها المدينة ظاهر ؛ لأن التبوء النزول فى المكان ونسبته إلى الإيمان باعتبار جعله مستقرًّا وموطنًا حيث استقرت به نفوسهم واطمأنت إليه قلوبهم . والتعريف فى الدار للتنويه كأنها الدار التى تستحق أن تسمى دارًا ، وقد أعدها الله لهم ليكون تبوؤهم إيَّاها مَدْحًا لهم . وقيل : والذين تبوءُوا الدار وأخلصوا الإيمان ، وكان تبوؤهم للدار والإيمان من قبل هجرة المهاجرين ولا يلزم منه سبق إيمانهم على إيمان المهاجرين حتى يقال الأمر بالعكس ، بل نهاية ما يلزم عليه سبق إيمان الأنصار على هجرة المهاجرين (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ) من إخوانهم المهاجرين ، وقد بلغ من سماحتهم أنهم أنزلوهم منازلهم ، وأشركوهم أموالهم ونزلوا لهم عن بعض ما يعز عليهم حتى قيل : إن من كانت عنده امرأتان نزل عن إحداهما وطلقها حتى يتزوجها رجل من المهاجرين وهم مع كل ذلك لا يجدون فى أنفسهم حسدًا أو غيظًا مما أُعْطِىَ المهاجرون من الفىء وغيره ولا مرَّ ذلك بخاطرهم فضلًا عن أن تطمح إلى شىء منه نفوسهم (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) بمعنى أنهم يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شىء من الطيبات ولو كان بهم حاجة وخَلَّة ، وذلك بتقديم حاجة المحاويج على حاجة أنفسهم .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ، فقام رجل من

الأنصار- وفى رواية فقال أبو طلحة- : أنا يارسول الله ، فذهب به إلى أهله فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله ﷺ ، قالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية . قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئي السراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله -صلى الله تعالى عليه وسلم- ففعلت ، ثم غدا الضيف على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله من فلان وفلانة وأنزل الله فيهما (وَيُؤْثِرُونَ ...) الآية .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) : لعل المراد بالشح البخل المتناهى بحيث يبخل المتصف به بمال غيره . أى : لا يودُّ جودَ غيره ، وتنقبض نفسه منه ، ويسعى فى ألّا يكون ، وقيل : إنه اللؤم ، وإضافته إلى النفس ؛ لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذى هو البخل ، وقال الراغب : الشح : بخل مع حرص وذلك فيما كان عادة ، وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ولكنه البخل ، إنما الشح أن تطمح عين الإنسان إلى ما ليس له ، ويفهم من الآية ذم الشح ذمًّا بالغًا ، ومن يوق شح نفسه بتوفيق الله ومعونته حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال، وبغض الإنفاق فهؤلاء هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه ، والجملة الشرطية تذييل وتوكيد لمدح الأنصار والثناء عليهم لتناوله إيَّاهم تناولًا أصليًّا ، وكانت الإشارة فى قوله - تعالى- : (فَأُوْلَـٰٓئِكَ) جمعًا باعتبار معنى (مَنْ) كما أفرد الضمير فى قوله - سبحانه - : (ومَن يُوقَ) باعتبار لفظها .

١٠ - (وَالَّذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

هؤلاء هم القسم الثالث ممن تستحق فقراؤهم من مال الفىء ، ذكرهم - سبحانه - بعد ذكر المهاجرين والأنصار ، والمراد بهم التابعون بإحسان كما فى آية براءة « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ »[1] .

(١) سورة التوبة ، من الآية ١٠٠

فالتابعون بإحسان الذين هاجروا بعدما قوى الإسلام ، أو المتبعون لآثار المهاجرين والأنصار الحسنة ، وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية إلى يوم القيامة ، وهذا مايشير إليه قوله - سبحانه - : (وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ...) الآية لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ، ومراعاتهم لحقوق الأخوة فى الدين ، والسبق بالإيمان قائلين : ربنا اغفر لنا ولإخواننا فى الدين ، والأخوة عندهم أعز وأشرف من النسب ، وتضرعوا إليه تعالى أن يطهر قلوبهم من الحقد على المؤمنين على الإطلاق ، وأن يجعل حبهم خالصًا لله وحده : (رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) تستجيب دعاء الصادقين مع المبالغة فى الرأفة والرحمة فحقيق بنا أن نطمع فى تحقيق ماندعو به لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .

وفى الآية حث وتوجيه وترغيب فى الدعاء إلى الصحابة . وتصفية القلوب من بغض أحد منهم مع الاعتراف بفضلهم ، وحسن صنيعهم وسبقهم إلى البذل والتضحية .

قال ابن كثير : ما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية أن الرافضى الذى يسب الصحابة ليس له من مال الغنيمة شئ لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين .

وقد روى الشعبى أنه قال : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة : سئلت اليهود : مَن خير أهل ملتكم؟ فقالوا : أصحاب موسى ، وسئلت النصارى مَن خير أهل ملتكم؟. فقالوا : أصحاب عيسى ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟. فقالوا : أصحاب محمد . أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم . فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة .

* (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(نَافَقُواْ) : أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر .

(لِإِخْوَانِهِمُ) : أمثالهم فى الكفر أو الصداقة والموالاة ، وكثر جمع الأَخ - مرادًا به الموالاة والصداقة - على إخوان ، ومرادًا به الأُخوة فى النسب على إخْوة .

(لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ) : ليفرن منهزمين وقد أعطوا ظهورهم للعدو .

(رَهْبَةً) : خوفًا وهيبة .

(لَايَفْقَهُونَ) : لايدركون الأُمور على حقيقتها .

التفسير

١١ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

هذه الآية حكاية لِمَا جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة ، والأحوال الفاسدة وتعجيب من سلوكهم وأفعالهم بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين ، والإشادة بأخلاقهم الطيبة وشمائلهم الكريمة على اختلاف طبقاتهم ، وترديد أقوالهم السمحة .

والخطاب فى الآية للرسول ﷺ أولًا ، ثم لكل أحد له حظ من تلقى الخطاب أو الانتفاع بمضمونه .

والمعنى : ألم تتعجب يا رسول الله أنت ومن معك من أحوال الذين تمكن منهم النفاق فأخفوا الكفر وأظهروا الإيمان مثل عبد الله بن أُبَىّ وأمثاله من المنافقين ، وما ذهبوا إليه من الخيانة وما تورطوا فيه من سلوك شائن ، وعمل قبيح ، إنهم يقولون لإخوانهم المتأصلين فى الكفر ، وأصدقائهم الذين يوالونهم من يهود بنى النضير مؤكدين مقسمين : لئن أُخرجتم ، وأكرهتم على ترك بلدكم ووطنكم لنخرجن معكم تضامنًا ونصرة ، ولا نطيع فى شأنكم أحدًا يمنعنا عن مناصرتكم أبدًا ، وإن طال الزمان ، وإن قوتلتم من أحد كائنًا من كان أو عاداكم أحد لنكونن فى نصرتكم ، ومعاونتكم على عدوكم . والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى أقوالهم ، ضَالُّون مُضِلُّون فى وعودهم ، وإن عززوا ذلك وأكدوه بالأيمان . وقوله ــ تعالى ــ : (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) مبادرة بتكذيبهم إجمالًا ، يفصلها قوله تعالى :

١٢ ــ (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) :

والمعنى : إنهم لكاذبون فى وعودهم ضالُّون مُضِلُّون فى أقوالهم ، والله لئن أُخرج هؤلاء اليهود من بلدهم ، وأُجلوا عن ديارهم لا يخرج المنافقون معهم ، ولا يأْبهون بهم ، ولئن قوتلوا لا يكونون فى نصرتهم ، ولا يهتمون بما يجرى عليهم أو يقع فيهم من قتل أو هلاك وتشريد ، ولئن خرج المنافقون لنصرهم أو قاموا على سبيل الفرض والتقدير لتكونن عاقبتهم الهزيمة ، وليولن الأدبار فارين راجعين ، وقد أعطوا ظهورهم للمؤمنين إمعانًا فى الفرار ، وإمعانًا فى الهروب ثم لا ينصرون أى : ثم لا يكون هناك نصر لليهود ولا تنفعهم وعود المنافقين ، ويهلكهم الله ، أو ثم لا يكون هناك نصر للمنافقين ولا إدراك لغاياتهم السيئة ، وخططهم الفاسدة ، ويفتضح أمرهم ، وينكشف كيدهم فينالون جزاءهم .

وقد كان الأمر كما أخبر القرآن ، ذلك إذ أرسل عبد الله بن أبى رأس النفاق وأعوانه إلى بنى النضير سرًّا يؤلبونهم ويغرونهم بالتمرد والعصيان ، ويعدونهم بالنصر لهم ، والوقوف معهم ، وكان إخبار القرآن بذلك قبل وقوعه حجة بينة على صدق النبوة ، وإعجاز القرآن .

١٣ - (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) :

تؤكد هذه الآية عدم نصر هؤلاء المتآمرين من المنافقين واليهود بتقرير أن المؤمنين أشد تخويفًا لهم من الله ، يرهبونهم ، ولا يستطيعون لقاءهم .

والمعنى : لأنتم أيها المؤمنون أشد وأقوى تخويفًا وترويعًا فى صدور هؤلاء من الله الذى يظهرون لكم أنهم يخافونه ، ويرهبون قوته ، فهم يغلفون خوفهم منكم فى الخوف منه على طريقتهم فى النفاق .

ذلك السلوك المشين من الخوف منكم أشد من الخوف من الله بسبب أنهم سفهاء العقول لا يفهمون الأمور على حقيقتها ، ولا يصلون فى الفهم إلى إدراك عظمة الله وجبروته ، وقوته على خلقه حتى تكون خشيته منهم فوق كل خشية ، وسلطانه أعلى من كل سلطان .

(لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(مُحَصَّنَةٍ) : ممنوعة محاطة بالأسوار ضربت عليها الخنادق والدروب .

(بَأْسُهُمْ) : شجاعتهم وقوتهم .

(جَمِيعًا) : مجتمعين ذوى مودة وألفة .

(شَتَّىٰ) : متقطعة متفرقة .

(وَبَالَ أَمْرِهِمْ) : سوء عاقبة كفرهم .

(عَاقِبَتَهُمَا) : نهايتهما وآخر أمرهما .

التفسير

١٤ - (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ) :

تصوير آخر لجبنهم وشدة خوفهم من المؤمنين ، والرهبة التى تملأ قلوبهم وتمنعهم أن يواجهوهم بالعداوة أو يبارزوهم فى القتال .

والمعنى : لا يقوى هؤلاء اليهود أو المنافقون على مواجهتكم ، ولا يجرأون على مبارزتكم والإصحار[1] إليكم مجتمعين جميعًا ومتفقين فى موطن من المواطن إلَّا فى قرًى مسوَّرة بالأسوار محاطة بالدروب والخنادق التى ترد هجوم العدو ، وتحدّ غاراته ، أو من وراء الجدر التى يتحصنون خلفها ، ويمتنعون بها وذلك من جبنهم وشدة خوفهم مع قوتهم وحدَّة شكيمتهم وهم فيما بينهم يظهرون بمظهر التآلف والتواد بما يفهم أنهم متفقون متعاونون ، وقلوبهم متفرقة متقاطعة . ذلك الخلق فيهم ناشئ من جهلهم وأنهم قوم لا يفهمون آثار الفرقة ، ولا عاقبة الاختلاف والتمزق .

والتعقيب فى هذه الآية بـ (لَا يَعْقِلُونَ) ، وفى الآية السابقة بـ (لَا يَفْقَهُونَ) للإشارة إلى أن إدراك آثار الفرقة والتشتت مما يعلم بمجرد العقل والتمييز ، أما معرفة الله تعالى ، واستشعار عظمته وسطوته واسترهاب خشيته فمما يحتاج بعد العقل إلى فقه وفهم .

---

(١) أصحر : برز فى الصحراء .

١٥ ، ١٦ - (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) :

تتضمن هاتان الآيتان مثلين - مثلاً للمشركين فى نهايتهم ، ومثلاً للمنافقين فى وعودهم لليهود . فأما الأول فقوله - تعالى - : (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...) الآية .

والمعنى : مثل مشركى مكة فى كفرهم وعنادهم وما انتهى إليه أمرهم من القتل والفتح والإذلال والإهلاك كمثل الأمم السابقة عليهم القريبة العهد منهم خاصموا رسلهم ، وعادوا أنبياءهم ، وعارضوا دعواتهم فنالوا سوء جزائهم وذاقوا وبال عصيانهم ، ولقوا النكال الشديد والهوان البليغ فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب موجع ، مفرق فى الألم لا يقادر قدره .

والمثل الثانى فى قوله - تعالى - : (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ...) الآية .

والمعنى : مثل المنافقين فى وعودهم لليهود ، وإغرائهم لهم بالتمرد وعصيان المؤمنين ، ومعارضتهم ثم تخلفهم عنهم كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بالشر ، ويزين له المعصية ويحبب إليه الفسوق والكفر ؛ ولا يزال به حتى يقع فيما يريده منه فإذا سقط ابتعد عنه ، وتبرأ منه ومن فعله ، وظهر بمظهر الورع الخائف من الله النادم على عصيانه الذى يخاف عذابه ويرجو ثوابه ، أو يقول ذلك فى الآخرة ، وحمل الشيطان على الجنس هو الأنسب .

وما ذهب إليه بعض المفسرين من أن المراد بالإنسان أبو جهل والحوار الذى جرى يوم بدر من قوله - تعالى - على لسان الكفر : « لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ »[1] ، وقوله - تعالى - على لسان إبليس : « إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ »[2] . فهذا تخصيص لا ينهض عليه دليل ، ولا يعين عليه النص .

١٧ - (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) :

أى : فكان عاقبة الشيطان والفريقين اللذين أغراهما من اليهود والمنافقين أنهم جميعًا إلى النار وفى النار خالدين مخلدين فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وذلك الجزاء نهاية كل ظالم ، وعاقبة كل طاغية متجاوز لحدود الله ، خارج عن طاعته « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(١ ، ٢) سورة الأنفال من الآية : ٤٨

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾)

المفـردات :

(لِغَدٍ) : أصله غَدْو بوَزْنِ فعل حذف آخره ، وهو اليوم الذى يأْتى بعد يومك على أثره ، ثم توسعوا فيه حتى أُطلق على البعيد المترقب ، والمراد يوم القيامة .

(نَسُواْ اللهَ) : انصرفوا عن طاعته وغفلوا عن ذكره .

(فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) : صرفهم عن العمل بما فيه نفعها ونجاتها .

(خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا) : متطامنًا متشققًا ، وهى من قبيل التمثيل .

التفسـير

١٨ - (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

عرضت الآيات السابقة على هذه الآيات لأَحوال المؤمنين وفصَّلت طبقاتهم وما شاع فى أخلاق كل طبقة وغلب على سلوكها وما اتسمت به من الفضائل والمكارم وصدق الإِيمان وسخاء النفس والإِيثار والتحاب فى الخير والنصح فى الدين ، كما عرضت لقبائح النفاق ،

وسفه المنافقين ، وأسلوبهم فى الكذب والمصانعة ، وإثارة الفتن ، وإذكاء التفرقة والخلاف ، وكشفت حقيقتهم ، وفضحت جبنهم ورهبتهم من المسلمين ، وضربت لذلك الأمثال التى تحذر سوء العاقبة وقبح المآل .

ثم خلصت الآيات بعد ذلك للمؤمنين تناديهم فى رفق ، وتدعوهم فى تلطف وإشفاق إلى الاستدامة فى الطاعة والعمل ليوم عظيم ، وغد قريب يقوم فيه الناس لرب العالمين حتى تسلم لهم راحة الدنيا وثواب الآخرة .

والمعنى : يا أيها الذين آثروا الإيمان وتمكنت العقيدة من نفوسهم فطهرتها من الشرك والنفاق ، ووجهتها إلى صدق الطاعة وإخلاص العبادة داوموا هذا العمل وامضوا فيه وأكثروا منه ليوم عظيم وغد قريب يجد المرءُ فيه ما قدمت يداه ، ويلاقى جزاءه عند الله ، ولتنظر نفسٌ أية نفس ما تدخِّرُه لغد وما تعدّه لهذا اليوم الذى تجد فيه كل نفس ما قدمت وأخرت ، وما أسرَّت وأعلنت وإنه لقريب . قال قتادة : « إن ربكم قرَّب الساعة حتى جعلها كغد » . فاتقوا الله يا معشر المؤمنين واعملوا فى طاعته لهذا اليوم العظيم الأهوال ، أو كما اتقيتم الله فى أوامره وطاعته اتقوا الله فى محارمه ونواهيه ، فلا تعصوه فيما أمركم ، ولا يراكم حيث نهاكم لتجمعوا طرفى التقوى من المأمورات والمنهيات وتكون لكم عند الله أعظم الدرجات ، إن الله محيطٌ بكل أعمالكم بصيرٌ بجميع أحوالكم وأقوالكم يحصيها لكم ، ويجزل عليها جزاءكم .

وعبَّر عن يوم القيامة بغد للتنبيه إلى شدة قربه وإثارة الخوف من هوله وبأسه ، ولدنوّ الغد من أمسه ، أو أن الدنيا كيوم والآخرة غده . ونكره لتهويله وتفخيمه كما نكر كلمة نفس للعموم والتنبيه إلى أنه لا ينبغى أن تغفل الأنفس عن التفكر لغدها والعمل لآخرتها ، وفيه حث على النظر والاعتبار ، وتعبير بالترك والغفلة المسيطرة على أكثر النفوس .

١٩ - (وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

تفريع على الآية قبلها واسترسال فى غرضها أى ، لا تغفلوا عن العمل بطاعة الله ، ولا تكونوا كالذين تركوا أداء حقه وناموا عن عبادته وذكره فصرفهم عن العمل بما فيه سلامة نفوسهم ونفعها ، وحرمهم حظوظهم من الخير والثواب ، أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم

هم الفاسقون الخارجون من طاعة الله إلى معصيته ، المتناهون فى الفسوق ، المستحقون للعقاب الجسيم فى دار الجحيم .

٢٠ ـ (لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

المعنى : إذا تقرر أن المؤمنين المتقين الذين يداومون على الطاعة ويخلصون العبادة لهم الجنة ، وأن المشركين والمنافقين والذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم لهم دار الجحيم ، فإن هذه الآية توضح هذا المعنى وتبرزه نصًّا صريحًا وحكمًا صحيحًا ، أى : لا يستوى أهل النار والملازمون لها الذين انخرطوا فى الملذات ، وانهمكوا فى المعاصى ، وسبحوا فى مهاوى الشرك ، ومفاوز الضلال والكفر ، ونسوا الله وتجاوزوا حدوده ـ لا يستوى هؤلاء ـ وأصحاب الجنة الذين وقفوا أنفسهم على العمل لها ، وقرنوا سلوكهم بالطاعة وحياتهم بالحلال الطيب ـ إن أصحاب الجنة الذين هذه أعمالهم وهذا سلوكهم هم الفائزون بكل المطالب ، الجديرون بكل الرغائب الناجون من كل المثالب والمعايب .

٢١ ـ (لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) :

هذه تعجيب من حال من لا يهتدى بالقرآن ولا يستجيب لهديه ، وتنبيه إلى أنه منار هداية ، ورائد طاعة ، ومنهل ظمأ بما ينطوى عليه من فنون القوارع ، وضروب المخاوف ، ودروب الرغائب ، ومناهل العرفان بحيث لو أنزل على جبلٍ أصم من الجبالِ الضخمة العاتية لرأيته ـ مع كونه مثلًا فى القسوة ، علمًا فى الرسوخ والثبات ـ متهاويًا متداعيًا ومتشققًا ، متصدعاً من قوة خشية الله وشدة جبروته لعلو شأن القرآن وبلاغة تأثيره بالزواجر والقوارع . والمراد توبيخ الإنسان وتعنيفه على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن أو سماعه وتدبر ما فيه وتلك الأمثال التى ذكرناها فى هذه السورة وفى غيرها نضربها للناس ونوردها لهم متعددة المقاصد مختلفة المضامين لعلهم يتفكرون فى معانيها ويدركون مراميها فينعكس ذلك على سلوكهم وأعمالهم .

(هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(الْغَيْبِ) : ما غاب عن الحس وجهلت معرفته .

(الشَّهَادَةِ) : ما حضر وشوهد .

(الْقُدُّوسُ) : البليغ فى النزاهة عمَّا يوجب نقصًا .

(الْمُؤْمِنُ) : واهب الأمن .

(الْمُهَيْمِنُ) : المسيطر الحافظ لكل شىء ، الرقيب .

التفسير

٢٢ - (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ) :

تختم سورة الحشر بذكر طائفة من أسماء الله تعالى ، واختصاص هذه الأسماء بالذِّكر من بين أسماء الله الحسنى سر من أسرار القرآن الكريم ، ونمط من إعجازه ، ولعل لها خصائص تعظم بركتها ويعم نفعها . وحسب القارئ أن يقرأها ذكرًا يرطب لسانه وعظة تزكى نفسه .

والمعنى : هو الله وحده لا يشاركه غيره ولَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ المحيط بعلم جميع الأشياء ما غاب منها عن الحس وجهلت معرفته وما حضر وشوهد وتحققت معرفته ، لا يغيب عنه من ذلك شيء ولا يعزب عن علمه قريب أو بعيد ، ولا يحرم فضله عاجز ولا قادر ، هو الرحمن الذى تنتظم رحمته فى الدنيا جميع المخلوقات ، الرحيم الذى يختص برحمته فى الآخرة من يشاءُ من أهل الطاعات الصالحات .

وتقدم الغيب على الشهادة فى الآية لتقدمه فى الوجود وتعلق العلم القديم به ، ولأن علم الغيب مما يدق ويخفى فتقديمه فى الإخبار أبعث للتنبيه والاعتبار .

٢٣ ــ (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

تكرر بدء الآية بمثل البدء السابق : (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ) لإبراز العناية والاهتمام بالتوحيد ، وتلذذًا بذكر الله ، وليكون لفظ الجلالة هو الأساس والمدخل لبناء الأسماء الأخرى عليه .

والمعنى : هو الله وحده لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ السيد المالك لجميع الأشياء ملكًا حقيقيًا يتصرف فيها على وجه ليس لأحد منعه منه أو معارضته فيه . القدوس الطاهر من كل عيب وآفة ونقص ، المنزه عن القبائح ، الغنى عن الشريك والولد ، المبارك الذى تنزل البركات من عنده ، السلام من كل سوء وعيب ، الذى ترجى عنده السلامة من كل بلاء ، المؤمن الذى يهب الأمن لكل خائف ويوفر الاطمئنان لكل مرهوب مقهور ، ولا يظلم عنده أحد ، المصدق لنفسه ورسله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فيما بلغوه عنه ــ جلَّ وعلَا ــ المهيمن الرقيب الحافظ لكل شىء المسيطر الذى لا يعلو عليه أحد ، العزيز القادر الذى لا يُقْهر ، المنيع الذى لا يرام ولا يمتنع عليه مرام وليس كمثله شىء ، الجبار العظيم الشأن فى الملك والسلطان الذى يذل له كل شىء ولا يستحق أن يوصف بهذا الوصف على الإطلاق إلَّا الله ــ تعالى ــ فإذا أُطلق على غير الله كان فى غير موضعه ، وكان ذمًّا . المتكبر المستحق لصفات التعظيم ، المتعالى عن كل نقص ورذيلة .

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) : أى تنزيهاً له - جَلَّ شأْنه - عن إشراكهم بعد تعداد صفاته التى لا يشاركه فيها أحدٌ أبدًا .

٢٤ - (هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المعنى : هو الله الخالق ، أى : المقدر للأشياء بحكمته ، المحدث لها على إرادته ، البارئُ الموجد لها بريئة من التفاوت فلا ترى فيها اختلافًا ولا عدم تناسب ، أو مميزًا بعضها عن بعض باختلاف الأشكال ، المصور الموجد لصورها وأشكالها كما أراد الله وحده . هذه الأسماء الحسنى التى اختص بها ذاته ووضح بها صفاته ما ذكر منها وما لم يذكر لدلالتها على المعانى الحسنة والفضائل العالية ، والكمال المطلق - يسبح لله بهذه الأسماء ويذكره بترديدها جميع ما فى السموات والأرض من خلائق وأجرام بحاله أو بمقاله - وإن من شىءٍ إلَّا يسبح بحمده - وكل قد عرف صلاته وتسبيحه وهو العزيز فى ملكه ، الحكيم فى فعله ، المتعظم لجميع الفضائل والكمالات ليس كمثله شىءٌ وهو السميع البصير .

سـورة الممتحنـة

مدنية وآياتها ثلاث عشرة آية

وهى إحدى سور ثلاث بدأت بقوله – تعالى – : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ » المائدة والحجرات وهذه السورة ، والصحيح المشهور فى ضبطها أنها بفتح الحاء صفة للمرأة التى نزلت بسببها ، وقد تكسر الحاء على أنها صفة للسورة ، كما قيل فى سورة براءة : الفاضحة .

مناسبتها لمـا قبلهـا :

وترتبط بالسورة قبلها بتقارب الهدف ، وتلاؤم الغرض ، فقد نعت السورة قبلها على المنافقين سلوكهم المهين وتظاهرهم لليهود ، وإخوانهم الكافرين ، وجاء فى هذه السورة نهى المؤمنين من اتخاذ الكفار أعداء الله وأعدائهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، على أن مضمون سورة الممتحنة يعتبر تقريرًا وتأكيدًا لمـا جاء فى سورة الحشر قبلها حتى كأنها من تمامها ، ولهذا استحقت أن توضع بين سور التسابيح أو ذوات سبح مع اختلاف مفتتحها .

مقاصد هـذه السورة الكريمـة :

بدأت سورة الممتحنة بنهى المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم من الكفار والمشركين أولياء يُصَافونهم ، ويصلونهم بالمودة والتعاون ، كأن ذلك ارتباط بما سبق من التعجب من أحوال المنافقين وموالاتهم لليهود مما يشير إلى الربط بين السورتين ، وهى إذ تنهى المؤمنين عن ذلك تنبه إلى كفر المشركين والمنافقين بما جاء به الرسول وكيدهم له وللمؤمنين ، ليلجئوهم إلى الخروج عن وطنهم ، ويتابعون إيذاءهم لمجرد أنهم آمنوا حملًا لهم على الخروج وهذا سلوك يقتضى الحذر منهم ومقاطعتهم وذلك لأنه إن كان الإيمان عن صدق وعقيدة ورغبة صادقة فى الانتصار للدعوة ونصرة الرسول ، فإن هولاء الأعداء لاخير فيهم ولا يجدى فيهم معروف ، ولا يبقون على مودة إلا ضعفًا وخديعة فإن أمكنتهم الأيام من المؤمنين طالت أيديهم بالإيذاء ، وبسطوها بالسوء مع ترقب أن يرجع المؤمنون عن دينهم ، ورغبتهم أن يعودوا كافرين .

وتقرر الآيات أن القرابات وصلات البنوة وغيرها لا تنفع مع كفر ، ويوم القيامة يفصل بين المؤمنين والكافرين يوم يفر المرءُ من أخيه وأمه وأبيه ، ولن ينفع المؤمن فيه إلّا عمله: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ .

ثم تلمح الآيات إلى أن اختلاف الدين يقطع الأنساب ويميت الصلات بين الأهل والأقارب ،وتسوق طرفًا من أخبار إبراهيم – عليه السلام – مع قومه وبراءته من أبيه ليكون ذلك هديًا لكل مؤمن وحافزًا له على الاقتداء بأبيه إبراهيم ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَاهِيمَ ... ﴾ إلخ .

ثم تخصص الآيات النهى بالذين تمادوا فى العناد ، وأمعنوا فى الفساد ، وتورطوا فى موالاة الإيذاء من المشركين . فأما الذين سالموا وأمسكوا عن الشر ، وحبسوا أذاهم عن المؤمنين فلا بأس من التعامل معهم . والعدل فى معاملتهم ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ ... ﴾ إلخ .

ثم أشارت الآيات إلى قصة امتحان المؤمنات اللائى جئن إلى الرسول مهاجرات من مكة إلى المدينة للتأكد من صدق إيمانهن ، وحسن قصدهن . ودعت إلى التمسك بهن والإحسان إليهن ، والتعايش معهن بالنكاح حتى ظهر صدقهن . ثم تناولت بيعة النساء للرسول ، بمشروعيتها وإمضاءها والدعاء لهن .

وختمت السورة بمثل ما بدئت به من النهى عن موالاة المشركين المغضوب عليهم . واتخاذهم أولياء ، فإن الله قد غضب عليهم حتى تمكن فيهم اليأس ، وانقطع الرجاءُ .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣))

المفردات :

(أَوْلِيَاءَ) : أصدقاء أحباء جمع ولى وهو الصديق .

(بِالْمَوَدَّةِ) : بالمحبة والإخلاص .

(يَثْقَفُوكُمْ) : يتمكنوا منكم ويظفروا بكم .

(يَبْسُطُوا) : يمدوا ويسرفوا فى مساءتكم .

(يَفْصِلُ) : يقضى ويحكم .

التفسير

١ـ (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...) الآية .

نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة – وذلك أنه لَمَّا تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة كتب حاطب إلى أهلها أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم ، وأرسله مع امرأة تدعى سارَّة مولاة بنى المطلب ، فنزل جبريل – عليه السلام – إلى الرسول بخبر ذلك ، فبعث رسول الله ﷺ عليًّا وعمارًا وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد . وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فإن أبتْ فاضربوا عنقها . فأدركوها ثمة فجحدت فسل على سيفه فأخرجته من عقاصها – واستحضر رسول الله ﷺ حاطبًا وقال له: ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ما كفرت مذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ، ولكنى كنت امرأً ملصقًا فى قريش وليس لى فيهم من يحمى أهلى وأردت أن آخذ عندهم يدًا ، وقد علمت أن كتابى هذا لن يغنى عنهم شيئًا . فصدقه رسول الله ﷺ ، وقبل عذره . فقال عمر – رضى الله عنه – : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال ﷺ : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. ففاضت عينا عمر – رضى الله عنه – فنزلت .

وروى أن رسول الله ﷺ أمن جميع الناس يوم فتح مكة إلَّا أربعة :هذه المرأة أحدهم .

والمعنى : يا أيها الذين شرُفوا بالإيمان ورفعوا مكانتهم به ، وعَزُّوا بأعماله الصالحة ، وسلوكه الطيّب : لا تركنوا إلى هؤلاء الراكسين فى الكفر المنغمسين فى الرذائل وقبح السلوك أعدائى وأعدائكم ولا تطمئنوا إليهم ، وتصافوهم فتتخذوهم أولياء وأصحابا تصلون إليهم بالمحبة وتتقربون منهم وتلقون إليهم أسرار النبى وأخبار المؤمنين ، وهم قد كفروا بدينكم ، وعارضوا دعوة رسولكم وأنكروا ما نزل عليه من أخبار الوحى وآيات القرآن ، وجاوزوا ذلك إلى الكيد لكم وإيذائكم والإصرار على إخراج الرسول وإخراجكم من وطنكم وإجلائكم عن بلدكم ؛ لأنكم آمنتم بربكم ، واتبعتم هدى نبيكم وتركتم ضلالهم وجهلهم ، وقوله تعالى : (إن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى) مرتب على قوله – تعالى – : (لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) .

والمعنى : إن كان خروجكم عن صدق إيمان ورسوخ عقيدة ورغبة فى دين الله وابتغاء مرضاته فلا تتخذوا أعدائى وأعداءكم أولياء تفضون إليهم بالمحبة ، وتهمسون لهم بأسراركم وأخباركم تظنون أنها خافية وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيَّان فى علمى ، وأنا مطلع على ما أخفيتم وأظهرتم ، ومن يفعل هذا الفعل من موالاة المشركين ، وإلقاء الأسرار إليهم فقد أخطأ طريق الحق والصواب ، وفى الآية إشارات منها :

١ - تقديم الرسول على المؤمنين فى الإخراج للإشارة إلى أن فى إخراج الرسول قضاء على الإسلام .

٢ - من كان عدوًّا للرسول فهو عدوٌّ لجماعة المسلمين .

٣ - تقديم الإخفاء على الإعلان فى العلم مشعر بإحاطة علم الله وكمال قدرته .

٤ - أن صدق الإيمان يتنافى مع قبح العمل ، والمعصية لا تقدح فى أصل الإيمان .

٢ - (إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ) :

تمضى الآيات فى التحذير من موالاة المشركين والتودد إليهم فتكشف خبث طويتهم ودخيلة كيدهم وعداوتهم .

والمعنى: لو يتمكن هؤلاء المشركون منكم ويظفرون بكم تتجلى عداوتهم ويفضح غدرهم وخيانتهم ويظهرون على حقيقتهم ويرتبون على ذلك أحكامهم ويشبعون غيظهم وتمتد أيديهم وتطول ألسنتهم إليكم بالإيذاء ضربا وشتما وتعذيبا وقتلا . وكل ما يقدرون على عمله ، ممَّا يسيئكم ، ويوقع العذاب بكم يفعلونه معكم، وتمنوا لو ترتدون كفارا عن دينكم ، فهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين من الشتم والقتل والتمزيق . وردكم كفارا أسبق المضار عندهم، وأول أمانيهم .

٣ ـ (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

كان اعتذار حاطب بن أبي بلتعة عن عمله الإشفاق على أهله وقرابته فى مكة فعقبت هذه الآية ببيان أن الأرحام والقرابات لا تعود بالنفع على أهلها إذا لم تعصمها عقيدة، ويوثقها دين.

والمعنى : لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون من أجلهم أعداءكم إشفاقا على الرحم والولد وتلقون إلى هؤلاء الأعداء بالمودة لأجلهم مراعاة لهم وحبًّا فيهم فإن الكفر يقطع الأنساب ، ويورث العداوة بين الأهل والأقارب والأصحاب ، فإذا كان يوم القيامة يوم الفصل يقضى بينكم وبين أقاربكم وأولادكم . ويحكم بينكم يوم يفرُّ المرءُ من أخيه وأُمه وأبيه ، والله مطلع وبصير بكل ما تعملونه فيجازيكم على أعمالكم .

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) : قدوة طيبة وخصلة حميدة .

(أَنَبْنَا) : رجعنا .

(فِتْنَةً) : معذبين بهم .

(يَتَوَلَّ) : يُعرض .

التفسـير

٤ ـ (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...) الآية إلى قوله : (وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) :

تسوق هذه الآية طرفًا من أخبار سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه وقومه تأْكيدًا لأَمر الإِنكار والتخطئة فى موالاة الكفار ؛ ليعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرى الإِيمان وأقدس روابط المودة فلا ينبغى أن يغفل عنهما .

والمعنى : لقد كان لكم أيها المؤمنون فيما تعلمون من أخبار أبيكم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأصحابه الذين آمنوا به وكانوا معه وماتقرءُونه عنه وعنهم قدوة صالحة وخصلة حميدة من خصال الخير إذ قالوا لقومهم الذين كفروا بالدعوة ، وأنكروا الرسالة وآذوا رسول الله وخليله إبراهيم ـ قالوا لهم ـ : إنا برءاء منكم قاطعون لمودتكم وقرابتكم، بعيدون عن معايشتكم ومعاملاتكم منكرون لكم ولِما تعبدون من دون الله من الأَصنام والتماثيل ـ كفرنا بكم قرابة وأهلًا ، وكفرنا بآلهتكم ومعبوداتكم واستحكمت بيننا وبينكم العداوة والبغضاءُ . وبدت القطيعة والجفاءُ ، وكان هذا شأْننا معكم ودأبنا فى معاملتكم لانتركه ولا نحيد عنه ، فسيروا على سيرة أبيكم إبراهيم ، والتزموا منهجه فى معاداة أعدائكم ، وخذوا منه القدوة الحسنة . والأُسوة الصالحة ولا تستغفروا لهؤلاءِ الكفار ،واعلموا أن استغفار إبراهيم لأَبيه ما كان إلَّا عن عدة وعده إيَّاها فوفَّى له بها طمعًا فى أن يسلم ورجاءَ أن يهتدى . فلمَّا تبين له أنه عدو لله تبرأَ منه وأَعلن أنه لايملك له من الله شيئا يجلب له نفعا أو يدفع عنه ضرًّا .

(رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) : يحتمل أن يكون من تمام ما نقل عن إبراهيم – عليه السلام – ومن معه من جملة التأسى ، وأن علينا أن نقتدى به دائما فى التوكل على الله ، والإنابة إليه وتفويض المصير والأمور كلها لله .

وتقديم المجرور لإفادة قصر التوكل والإنابة إلى الله على الله وحده .

ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا ، لبيان مجاهدتهم لأعداء الله والالتجاء إليه فى جميع أمورهم لاسيما فى مدافعة الكفرة ، وكفاية شرورهم كما ينطق بذلك قوله – تعالى – : (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ...) الآية .

٥ – (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى :نسألك يا ربنا وندعوك ضارعين ألَّا تسلط عاينا الذين كفروا فيفتنونا بإغراءات أو عذاب لانطيقه يقهرنا ، واغفر لنا ما فرط منا ، ربنا إنك أنت العزيز الغالب الذى لا يذل من التجأ إليه ، ولا يخيب رجاءُ من توكل عليه ، الحكيم الذى يضع الأمور فى مواقعها ، ولا يفعل إلَّا عن حكمة بالغة .

٦ – (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) :

أُعيد طلب التأسى للمبالغة فى الحث على الاقتداء به – عليه السلام – والتأسى بمناقبه وبيان أنه السلوك المستقيم ، ولذلك صدر بالقسم وذيل بقوله: (لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) بدل (لكم) للإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك هذا الاقتداء ، وأن ترك الاقتداء بهم من مخايل عدم الإيمان بهما – كما ينبئ عن ذلك قوله – تعالى – : (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) أى : ومن يعرض عن الاقتداء والتأسى بهم فقد باعد بينه وبين الله ، وحرم نفسه فضله ورحمته والله هو الغنى عن كل شئ ، المحمود بكل لسان ، والله أعلم .

* (عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ) : وتقضوا إليهم بالقسط والعدل .

(الْمُقْسِطِينَ) : العادلين .

(وَظَاهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ) : وعاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم .

التفســـير

٧ ــ (عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ):

بعد أن أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار فى الآيات السابقة وامتثلوا الأمر وتشددوا فى عداوة ومقاطعة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ، وظهر منهم الجد فيه ، والصدق والصبر والرغبة فى وصل ما انقطع بينهم وبين أقربائهم لكفرهم رحمهم ووعدهم بتيسير ما تمنّوه ، وتذليل ما رغبوا فيه فقال ــ سبحانه ــ :

(عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً) : هذا وعد من الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من الكفار مودة بأن يهديهم للإيمان ويوفقهم إليه فيكونوا لكم أولياء وتوجد المحبة بعد البغضة ، والألفة بعد الفرقة ، والله تام القدرة على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة فيؤلف بين القلوب المتعادية القاسية لتصبح مجتمعة متفقة . قال ـ تعالى ـ : « وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1] .

فلما يسّر الله فتح مكة أظفرهم بأمنيتهم فأسلم قومهم وتمّ بينهم من التّحابّ والتصافى ما تم ويدخل فى ذلك أبو سفيان وأحزابه من مسلمى الفتح .

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى : والله واسع المغفرة يغفر للكافرين كفرهم إذا أسلموا وتابوا وأنابوا إلى ربهم والله كثير الرحمة بعباده المخلصين ، روى ابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان صخر بن حرب على بعض اليمن فلمّا قُبض رسول الله ﷺ ، أقبل فلقى ذا الخِمار مرتدا فقاتله ، فكان أوّل من قاتل فى الرّدة وجاهد عن الدين ، قال ابن شهاب : وهو ممّن أنزل الله فيه : (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً) .

٨ ـ (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

أى : لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم فى الدِّين من الكفار ولم يُخرجوكم من دياركم أن تُحسنوا إليهم وتكرموهم وتمنحوهم صِلَتكم وتعدلوا بينهم . إنَّ الله يُحب أهل البر ، والتّواصل والحق والعدل . جاء فى الحديث الصحيح : (المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش : الذين يعدلون فى حُكمهم وأهاليهم وما وَلُوا) ، وأخرج البخارى وغيره عن أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ قالت : (أتتنى أُمّى راغبة ـ وهى مشركة فى عهد قريش ، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ فسألت رسول الله أأصلها ؟ فأنزل الله ـ تعالى ـ :

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٣

(لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ ...) الآية ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (نعم صِلِي أُمَّك) ، وقال الحسن : نزلت الآية فى خُزاعة وغيرها من قبائل العرب كانوا صالحوا رسول الله ﷺ على ألّا يقاتلوه وألّا يعينوا عليه ، وقال قرة الهمدانى : نزلت فى قوم من بنى هاشم منهم العباس ، وعن عبد الله بن الزبير : نزلت فى النساء والصبيان من الكفرة .

والأكثرون على أنها نزلت فى كفرة اتصفوا بما فى الآية أى : (لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ) .

٩ ـ (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

أى : إنما ينهاكم الله عن الذين حاربوكم فى الدين ليصدُّوكم عنه وأجبروكم على الخروج من دياركم وعاونوا على إخراجكم كمشركى مكة ، فإن بعضهم سعوا فى إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا من أخرجوهم. إنما ينهاكم الله عن موالاتهم وأن تتخذوهم أنصارا لكم وأعوانا ويأمركم بمعاداتهم ، ثم أكَّد الوعيد على موالاتهم فقال : (وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أى : ومن يتخذوهم أولياء لهم وأعوانًا فأولئك الظالمون المتجاوزون الحد لوضعهم الولاية موضع العداوة ، أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ، وفى أسلوب القصر من المبالغة ما لا يخفى .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (١١))

المفـــردات :

(فَامْتَحِنُوهُنَّ) : فاختبروهن وابتلوهن .

(أُجُورَهُنَّ) : مهورهن .

(وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) العصم : جمع عصمة ، وهو مايعتصم به من عقد وسبب .

(فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ) : سبقكم.

(فَعَاقَبْتُمْ) : فكانت العقبي والنصر والغلبة لكم .

التفســـير

١٠ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ

مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

(يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ) .

تقدم فى سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذى وقع بين رسول الله وبين كفار قريش فكان فيه : على ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلَّا رددته إلينا ، وفى رواية . على ألَّا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك إلَّا رددته إلينا . وهذا قول عُروة والضحاك وغيرهما .

وفى هذه الآية أمر الله – عز وجل – عباده المؤمنين إذا جاءهم النساءُ مهاجرات من دار الشرك أن يختبروهن ليعلموا صدق إيمانهن ومبلغ يقينهن والله أعلم بذلك فإنه – سبحانه – هو المطلع على ما فى قلوبهن ، فإن علموهن مؤمنات فلا يردوهن إلى أزواجهن الكفار لئلا يفتنوهن عن دينهن .

روِى أنَّ أُم كلثوم بنت عُقبة بن أبى معيط كانت أول المهاجرات فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله فكلَّماه فيها أن يردها إليهما فنقض الله العهد بينه وبين المشركين فى النساء خاصة فمنعهم الله أن يردُّوهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان .

قال ابن جرير : سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساءَ ؟ فقال : كان يمتحنهن بأن يقلن : بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت عن أرض إلى أرض وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلَّا حبًّا لله ولرسوله ، ثم رواه من وجه آخر وذكر فيه أن الذى كان يحلفهن – عن أمر رسول الله له – عمر بن الخطاب .

(لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) : تعليل للنهى عن إرجاعهن إليهم .

والمعنى : لا المؤمنات حلال للكافرين ولا الكافرون حلال للمؤمنات ، الجملة الأُولى : (لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ) لبيان الفرقة الثابتة وتحقق زوال النكاح الأول ، والثانية :(وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) لبيان امتناع ما يستأنف ويستقبل من النكاح ، ويجوز أن يكون ذلك تكريرا للتأكيد ، والمبالغة فى الحرمة وقطع العلاقة .

قال ابن كثير : وهذه الآية هى التى حرَّمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزا فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، ولهذا كان حال أبى العاص بن الربيع زوج ابنة النبى ﷺ زينب - رضى الله عنها - وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع فى الأُسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة ، فلما رآها الرسول رق لها رقة شديدة وقال للمسلمين : (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا) ، ففعلوا فأَطلقه رسول الله على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده وبعثها إلى رسول الله مع زيد بن حارثة - رضى الله عنها - فأَقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردَّها عليه بالنكاح الأَوَّل ، ولم يُحدث لها صداقا .

(وَآتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ) أى : وأعطوا أَزواج المهاجرات من المشركين مثل ما دفعوا إليهن من المهور .

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أى : ولا حرج عليكم أن تتزوجوا هؤلاءِ المهاجرات إذا أَعطيتموهن صداقهن .

(وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) أى : ولا تتمسكوا بعقد زوجية الكافرات الباقيات فى دار الشرك أو اللاحقات بها ، والمراد نهى المؤمنين أن يكون بينهم وبين الزوجات المشركات الباقيات فى دار الحرب عُلْقة من عُلق الزوجية أصلًا ، قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتَد بها من نسائه (أى لا يعتبرها من نسائه) لأَن اختلاف الدينين والدارين قطعا عصمتها منه ، وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن إبراهيم النخعى أنه قال : نزل قوله - تعالى - : (وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) فى المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين فلا يمسك زوجها بعصمتها .

وتحقيقا لأَمر الله بمفارقة الكافرات نقل محمد بن إسحاق عن الزهرى : طلَّق عمر لذلك فاطمة بنت أَبى أُمية بن المغيرة فتزوجها معاوية ، وأُم كلثوم الخزاعية فتزوجها أَبو جهم .

(وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ) أى : واطلبوا من الكفار ما أَنفقتم من صداق على اللاحقات بدار الشرك ، وليطلبوا هم ما أَنفقوا على زوجاتهم المهاجرات إلى المسلمين .

(ذَٰلِكَ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) أى : ذلك الحكم السابق والتشريع الربانى العادل فى صلح الحديبية واستثناء النساء منه والأمر بما سبق ذكره هو حكم الله يفصل به بينكم ويحكم به بين خلقه .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أى : والله عليم بمصالح عباده حكيم فى تشريعه ، يشرع ما تقتضيه الحكمة ، روى أنه لما نزل هذا الحكم أدى المؤمنون ما أُمِرُوا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن وأبى المشركون أن يردُّوا شيئا من مُهور الكوافر إلى أزواجهن المؤمنين فنزل قوله تعالى :

١١ ـ (وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُواْ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِىٓ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) :

(وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ) أى : وإن لحق أحد من أزواجكم بالكفار أو فاتكم شىء من مهورهن ولزمكم أداءُ المهر كما لزم الكفار .

(فَآتُواْ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ) أى : فآتوا الذين ذهبت زوجاتهم مثل ما أنفقوا عليهن من صداق وهذا على أن معنى (فَعَاقَبْتُمْ) من العقبة لا من العقاب (وهى فى الأصل : النوبة فى ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده) أى : فجاءت عقبتكم أى : نوبتكم من أداء المهر .

وحمل الآية على هذا المعنى يوافق ما روى عن الزهرى أنه قال : يُعْطَى من لحقت زوجته بالكفار من صداق من لحق بالمسلمين من زوجاتهم !

وعن الزجاج أن معنى (فَعَاقَبْتُمْ) : فغنمتم ، وحقيقته : فأصبتم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم فكأنه قيل : وإن فاتكم شىءٌ من أزواجكم إلى الكفار ولم يؤدُّوا إليكم مهورهن فغنمتم منهم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الغنيمة .

وهذا هو الوجه دون ما سبق ، ولقد كان ﷺ كما روى عن ابن عباس ـ يعطى المهر الذى ذهبت زوجته من الغنيمة (قبل أن تُخمَّس) ولا ينقص من حقه شيئا ، (وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِىٓ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) فإن الإيمان به ـ عز وجل ـ يقتضى تقواه والعمل بأحكامه ، والتزام شريعته .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(يُبَايِعْنَكَ) : يعاهدنك .

(بِبُهْتَانٍ) : بزور وكذب بإلصاق اللقطاء بالأزواج .

(يَفْتَرِينَهُ) : يختلقنه .

التفســـير

١٢ - (يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى : يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات مبايعات لك ومعاهدات على هذه الأمور (عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) أى : على ألَّا يشركن بالله شيئا من الأشياء أو شيئا من الإشراك ، (وَلَا يَسْرِقْنَ) أى : ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فأما إن كان الزوج مقصرا فى نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها وإن كان من غير علمه عملًا بحديث هند بنت عتبة وسيأتى ، (وَلَا يَزْنِينَ) ولقد ذكر فى حديث رسول الله عقوبة الزنا بالعذاب الأليم فى نار جهنم ، ولقد روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله فأخذ عليها (أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ...) الآية - قال : فوضعت يدها على رأسها حياءً ، فأعجبه ما رآه منها ، فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلَّا على هذا . قالت : نعم إذن فبايعها بالآية (ابن كثير) .

(وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ) : وهذا يشمل قتلهم بعد وجودهم كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، وقتلهم وهم أجنة كما يفعله بعض الجهلة من النساء .

(وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ) قال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدى منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها .

وفى الكشاف ما يؤيد هذا المعنى .

وحمل الآية على ما ذكر هو الذى ذهب إليه الأكثرون ، وروى ذلك عن ابن عباس وقال بعض الأجلة : معناه لا يأتين ببهتان ، أى : بكذب وزور من قبل أنفسهن ، واليد والرجل كناية عن الذات ؛ لأن معظم الأفعال بهما ، وقيل : البهتان : السحر ، وللنساء ميل شديد إليه فنهين عن ذلك وليس بشىء . (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) أى : ولا يعصينك فيما تأمرهن به من معروف وتنهاهن عنه من منكر ، والتقييد بالمعروف مع أن رسول الله لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق ، ويرد به على من زعم من الجهلة أن طاعة أولى الأمر لازمة مطلقا ، وخص بعضهم هذا المعروف بترك النياحة لما أخرج الإمام أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجة وغيرهم عن أم سلمة الأنصارية ؛ قالت امرأة من هذه النسوة : ما هذا المعروف الذى ينبغى لنا ألا نعصيك فيه ؟ فقال ﷺ : « لَا تَنُحْنَ ... » الحديث ، ونحوه من الأخبار الظاهرة فى تخصيصه بما ذكر كثير ، والحق العموم ، وما ذكر فى الأخبار من باب الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة ، ويشهد للعموم قول ابن عباس وأنس وزيد بن أسلم : هو النوح . وشق الجيوب ووشم الوجوه ، ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها ، وتخصيص الأمور المعدودة بما ذكر فى حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن . (فَبَايِعْهُنَّ) أى : فعاهدهن بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء ، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها (وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ) واطلب لهن المغفرة من الله زيادة على ما فى ضمن المبايعة من ضمان الثواب . (إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى : واسع المغفرة عظيم الرحمة فيغفر – عز وجلَّ – لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه .

وهذه الآية نزلت على ما أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل يوم الفتح ، فبايع رسول الله الرجال على الصفا وعمر – رضى الله عنه – يُبايع النِّساءَ تحتها عن رسول الله ﷺ وجاءَ أنَّه – عليه الصلاة والسلام – بايع النساء أيضا بنفسه الكريمة ، أخرج الإمام أحمد والنسائى وابن ماجة والترمذى وصححه وغيرهم عن أُميمة بنت رُقيْقة قالت : أتيت النبى ﷺ لنبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن (أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) حتى بلغ (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) فقال : (فيما استطعن وأطقن) .قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألَا تصافحنا فقال : إنِّى لا أُصافح النساءَ ، إنما قولِى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة .

والمبايعة وقعت غير مرة ، ووقعت فى مكة بعد الفتح وفى المدينة .

وممن بايعه – عليه الصلاة والسلام – فى مكة هند بنت عتبة زوج أبى سفيان فنى حديث أسماءَ بنت يزيد بن السكن : كنت فى النسوة المبايعات وكانت هند بنت عتبة فى النساءِ فقرأ ﷺ الآية فلما قال : (علَىٓ أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) . قالت هند : وكيف نطمع أن يقبل منَّا ما لم يقبل من الرجال ، يعنى أَن هذا بيِّن لزومه ، فلما قال : (وَلَا يَسْرِقْنَ) قالت : والله إنِّى لأُصيب الهنة من مال أبى سفيان لا يُدرى أيحل لى ذلك ، فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىءٍ فيما مضى وفيما نجد فهو لك حلال فضحك رسول الله وعرفها فقال لها : (وإنك لهند بنت عتبة) . قالت : نعم فاعف عمَّا سلف يا نبى الله عفا الله عنك ، فقال : (وَلَا يَزْنِينَ) ، فقالت : أو تزنى الحرة ؟ فقال : (وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ) ، فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا – تعنى ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبى سفيان فإنه قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى ،وتبسم رسول الله ، وفى رواية أنها قالت : قتلت الآباءَ وتوصينا بالأولاد؟فضحك رسول الله فقال : (وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ) ، فقالت : والله إنَّ البهتان لأمر قبيح ولا يأمر الله إلَّا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) ، فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىءٍ ، وكان هذا منها دون غيرها لمكان أُم حبيبة – رضى الله عنها – من رسول الله مع أنها حديثة عهد بجاهلية ، ويروى أن أول من بايع من النساء أُم سعيد بن معاذ وكبشة بنت رافع مع نسوة أُخرى – رضى الله عنهن –

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾)

التفسير

١٣ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) :

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر هذه السورة كما نهى عنها فى أولها فقال : (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) وهم اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء . (قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ الْآخِرَةِ) أى : يئسوا من خيرها وثوابها لعنادهم الرسول المنعوت فى كتابهم المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات .

(كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) . قال ابن كثير : - فيه قولان - :

أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من أقربائهم الذين فى القبور - أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا فقد انقطع رجاؤهم فى لقائهم وذلك حسب اعتقادهم وبهذا القول قال ابن عباس ،وقال قتادة : كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا ، وكذا قال الضحاك .

والقول الثانى معناه : كما يئس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير ينالهم فى الآخرة فقوله ـ تعالى ـ : (مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) بيان للكفار . قال الأعمش عن أبى الضحى عن ابن مسعود (كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين عقابه واطلع عليه ، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وهو اختيار ابن جرير . ا هـ ابن كثير بتصرف .

وقال الزمخشرى : روى أن بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنزل قوله ـ تعالى ـ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ...) الآية .

سورة الصف
مدنية وآياتها اربع عشرة

اسماء هذه السورة :

وتسمى سورة الحَواريين ، وسورة عيسى - عليه السلام - وهى مدنيّة ، ويدل على ذلك ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه فأنزل - سبحانه - : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها ،

مناسبتها لما قبلها :

ومناسبتها لما قبلها اشتمالها على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفى ذلك تأكيد للنهى عن اتخاذ الكفار أولياء الذى تضمنته السورة السابقة (سورة الممتحنة) .

اهم مقاصد السورة :

تخبر السورة الكريمة فى افتتاحها بأنَّ الله - سبحانه - نزهه عمَّا لا يليق به كُل مافى السمٰوات وكُل مافى الأرض وهو العزيز الحكيم ، ثم تبين أنه لا يليق بالمؤمنين أن تخالف أفعالهم أقوالهم ؛ لأن هذه ليست طباع المؤمنين الصادقين ، بل هذا خلق يبغضه الله ويمحقه .

ثم ترسم السورة لوحة جميلة ، وصورة مشرقة يحبها الله للمؤمنين وهم يقاتلون فى سبيل الله لإعلان الدين صفًّا واحدًا كأنهم بنيان مرصوص ، فنى اجتماعهم قوتهم ، وفى اتحادهم عزتهم ثم تُسلِّى الرسول عمَّا يحدث له ، بما قد حدث لرسولين سابقين عليه جاءا إلى بنى إسرائيل وهما : موسى - عليه السلام - فآذوه مع علمهم بأنه رسول الله لكثرة ما جاءهم به من المعجزات فلما أصَروا على الانحراف أمال الله قلوبهم عن الهداية والله لايهدى القوم الفاسقين .

أما عيسى - عليه السلام - فقد أخبر بنى إسرائيل أنه رسول الله إليهم ، مصدقاً لِما قبله من التوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، فلما جاءهم الرسول المُبَشَّر به بالآيات كفروا به وقالوا : هذا سحرٌ مبين ، وتذكر السورة أن بنى إسرائيل لكفرهم وعنادهم وضلالهم

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) ، وهم فى سعيهم مخفقون وعاجزون ، فهل يستطيع أحد أن يطفىء نور الله بفمه ، هيهات هيهات « وَيَأْبَى اللهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »[1] ، كما تذكر أن الله ـ سبحانه ـ هو الذى أرسل محمدا بالقرآن ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم ترشد السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة التى تنجيهم من عذاب أليم ، وهى الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله بالأموال والأنفس ، وربحهم من هذه التجارة ، غفران الذنوب ودخولهم جنات النعيم ، ولهم نعمة أخرى يحبونها ، وهى نصرٌ من الله وفتحٌ قريب ، ثم تدعو السورة المؤمنين أن يكونوا أنصارًا لله كما كان الحَواريون مع عيسى أيضًا أنصارًا لله ، وتختم السورة ، بأن الله يؤيد بنصره أولياءه وأصفياءه حتى يصبحوا على عدوهم غالبين منتصرين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ) : نزهه عما لا يليق ، ومجده ، ودل عليه .

(الْعَزِيزُ) : الغالب على كل شىء .

(كَبُرَ مَقْتًا) : عظُم بغضا ، وكره كرها شديدا .

(صَفًّا) : صافين أنفسهم ، أو مصفوفين .

(بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) : بنيان متلاصق محكم لا فرجة فيه .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٣٢

التفسير

١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

يخبر الله تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من الحيوانات والنباتات وغيرهما يُسبحه - جلَّ وعَلَا - وينزهه عمَّا لايليق به ويمجده ويُقدسه ويُصلِّى له ويُوحِّده ويدلّ عليه وهو - سبحانه - وحده الغالب على كل شىء الذى خضع له كل شىء وهو ذو الحكمة البالغة يضع الشىء فى موضعه .

٢ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) :

المعنى : يا أيها الذين آمنوا لأى شىء تقولون بألسنتكم ما لا تصدقه أفعالكم ، وما لا تفعلونه من الخير والمعروف ، على أن مدار التوبيخ فى الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وُجِّه إلى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم .

قال الزمخشرى : هذا الكلام تناول الكذب وإخلاف الوعد ، روى أن المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه ، ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدَلَّهم الله على الجهاد فى سبيله فَوَلَّوْا يوم أُحد فعيَّرهم ، وقيل : لما أخبر الله بشهداء بدر قالوا : لئن لقينا قتالًا لنُفْرِغن فيه وُسْعَنا ففروا يوم أُحد ، ولم يَفُوا ، وقيل : كان الرجل يقول : قتلت ولم يقتل ، وطعنت ولم يطعن ، وقيل : كان قد آذى المسلمين رجل فقتله صُهيب وانتحل قتله آخر ، فقال عمر لصُهيب : أخبر الرسول أنك قتلته ، فقال : إنما قتلته لله ولرسوله ، فقال عمر : يارسول الله قتله صهيب ، قال : ذلك يا أبا يحيى . قال : نعم فنزلت فى المُنْتحِل ، وعن الحسن : نزلت فى المنافقين ، ونداؤهم بالمؤمنين فى الآية الكريمة (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ) تهكم بهم وبإيمانهم .

٣ - (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ) :

المعنى : كره الله كرها شديدا أن تقولواْ ما لا تفعلون وأن تخالف أفعالكم أقوالكم .

قال الآلوسى والزمخشرى : قصد فى (كَبُرَ) التعجب وتعظيم الأمر فى قلوب السامعين ؛ لأن التعجب لا يكون إلّا من شىء خارج عن نظائره وأشكاله ، واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه ، ومنه نكاح المقت لتزوج الرجل امرأة أبيه - ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا حتى جعله أشده وأقبحه وأفحشه ، وكونه (عِند الله) فيه دلالة على أنه أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله الذى يحقر دونه كل عظيم ، فقد تم كبره وشدته ، وتفسير المقت بما سمعت ذهب إليه كثيرٌ من أهل اللغة .

٤ - (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) :

هذا بيان لِمَا هو مَرْضِىٌّ عنه عنده سبحانه وتعالى بعد بيان ما هو ممقوت لديه جل شأنه والمشار إليه بقوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ...) الآية . وظاهره يرجح أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال دون غيره .

وهذا هو إخبار من الله - تعالى - بمحبته عباده المؤمنين إذا صُفُّوا مُواجهين أعداء الله فى حومة الوغى يقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثةٌ يضحَكُ اللهُ إليهم : الرجلُ يقومُ من الليل ، والقومُ إذا صُفُّوا للصلاة ، والقوم إذا صُفُّوا للقتال) .

وقوله تعالى -: (كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) أى : كأنهم فى تَراصهم والتحام بعضهم ببعض من غير فرجة ولا خلل (بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) رُصّ وضم بعضه إلى بعض .

والمرصوص على ما قاله الفراء : المعقود بالرصاص ، ويراد به المحكم ، وقال المبرد : رصصت البناء لاءمت بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة ، ومنه الرصيص وهو انضمام الأسنان ، وقيل : المراد استواء نياتهم فى الثبات حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة وتوحيد الرأى كالبنيان المرصوص ، والأكثرون على الأول .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾)

المفـــردات :

(زَاغُوا۟) : مالوا باختيارهم عن الحق وأصروا على الانحراف عنه .

(أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) : حرمهم الله التوفيق لاتباع الحق ، وأمال قلوبهم عن قبول الهداية .

(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) : مصدقا لما تقدمنى وجاء قبلى من التوراة .

التفســـير

٥ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى) هذا كلام مستأنف مقرر لِمَا قبله من شناعة ترك القتال .

والمراد : اذكر يامحمد لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى - عليه السلام - لقومه بنى إسرائيل حين ندبهم لقتال الجبابرة بقوله : « ادْخُلُواْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ

اللهُ لَكُمْ »[١] ، فلم يمتثلوا أمره وعصوه أشد عصيان حيث قالوا : « يَامُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا »[٢] ، وقولهم : « فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ »[٣] .

وأصرُّوا على ذلك كل الإصرار وآذوه - عليه السلام - كل الإيذاء فوبخهم على ذلك بما حكاه الله عنه بقوله : (يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي) أى : لم تؤذوننى بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه (وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ) أى : والحال أنكم تعلمون علما قطعيًّا بمشاهدة ما ظهر على يدىَّ من المعجزات الباهرة التى منها إهلاك عدوكم وإنجاؤكم منه ، تعلمون أنى رسول الله إليكم لأُرشدكم إلى خيرى الدُّنيا والآخرة وكان مقتضى علمكم بذلك أن تبالغوا فى تعظيمى ، وتسارعوا إلى طاعتى ، لا أن تؤذونى وتستهينوا بى ؛ لأن من عرف الله وعظمته عظَّم رسوله ، ولأن من آذى رسول الله كان وعيد الله لاحقا به .

(فَلَمَّا زَاغُواْ) أى : فلما أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - واستمروا على ذلك ، (أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) أى : صرفها عن قبول الحق وعن الميل إلى الصواب لصرف اختيارهم للعمى والضلال (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

تذييل مقرر لمضمون ما قبله - أى : والله لا يهدى القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المُصرِّين على الغواية .

والمراد بهم إما المذكورون خاصة ، والإظهار فى مقام الإضمار لذمّهم بالفسق وتعليل عدم الهداية ، أو جنس الفاسقين وهم داخلون فى حكمهم دخولًا أوليًّا .

وذهب بعضهم إلى أن إيذاءهم إياه - عليه السلام - بما كان من انتقاصه وعيبه فى نفسه وما ذكر أولًا هو الذى تقتضيه جزالة اللفظ الكريم لمناسبته لما قبله .

---

(١) سورة المائدة من الآية ٢١

(٢) سورة المائدة من الآية ٢٢

(٣) سورة المائدة من الآية ٢٤

٦ - (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِى إِسْرَآئِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِى إِسْرَآئِيلَ) : إذ معطوف على إذ الأُولى ، والمعنى : واذكر يامحمد حين أن قال عيسى ابن مريم : (يَابَنِى إِسْرَآئِيلَ) ولعله - عليه السلام - لم يقل : (يَاقَوْمِ) كما قال موسى ، بل قال : (يَابَنِى إِسْرَآئِيلَ) لأَنه ليس له النسب المعتاد وهو ما كان من قبل الأَب فيهم ، أو إشارة إلى أنه عامل بالتوراة وأنه مثلهم من قوم موسى - عليه السلام - هضما لنفسه بأَنه لا أتباع له ولا قوم ،وفيه من الاستعطاف ما فيه ، وقيل : إن التعبير بما ذكر لِمَا فيه من التعظيم لهم فقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل - عليه السلام - .

(إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) أى : إنى مرسل منه - تعالى - إليكم حال كونى مصدقا لِمَا تقدمنى وجاء قبلى من التوراة ، وذكر هذه الحال : لأَنه مِن أقوى الدواعى إلى تصديقهم إياه - عليه السلام - وقوله - تعالى - : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ) معطوف على مصدقا وهو داع أَيضا إلى تصديقه - عليه السلام - من حيث إن البشارة بهذا الرسول واقعة فى التوراة ويتضمن كلامه - عليه السلام - أن دينه التَّصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه وجملة (يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ) صفة لرسول الله ﷺ ، وهذا الاسم الجليل (أَحْمَدُ) علم لنبينا ، وصح من رواية مالك والبخارى ومسلم عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لى أسماءً ، أنا محمد وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب » .

والعاقب : الذى ليس بعده نبى ، وأحمد منقول من الفعل المضارع للمتكلم،أو من أفعل التفضيل من الحامدية أو المحمودية ، وبشارة عيسى - عليه السلام - بنبينا مما نطق به القرآن المُعجز فإنكار النصارى له ضرب من الجحود والهذيان .

ذكر الآلوسى أنه ورد فى إنجيل يوحنا ما هو بشارة بذلك عند من أنصف ، وسلك الصِّراط السَّوى وما تعسَّف، ففى الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح : (إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شىء) ، وقال يوحنا أيضا : قال المسيح : (من يحبنى يحفظ كلمتى وأبى يحبه وإليه يأتى وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم، والفارقليط روح القدس الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شىء ... إلخ) .

(والفارقليط) لفظ يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته ﷺ من كلام عيسى - عليه السلام - مما لا غبار عليه لمن كشف الله غشاوة التعصب عن عينيه ، وقد فسره بعض النصارى بالحمّاد وبعضهم بالحامد فى مدلوله إشارة إلى اسمه - عليه الصلاة والسلام - أحمد : (فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) أى : فلمّا جاءهم عيسى - عليه السلام - بالمعجزات الظاهرة قالوا مشيرين إلى ما جاء به عيسى ، وقيل : مشيرين إلى ما جاء به أحمد - عليه الصلاة والسلام - (هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) وتسميته سحرا للمبالغة ويؤيده قراءة طلحة والأعمش : هذا ساحر .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَمَنْ أَظْلَمُ) أى : لا أحد أشد ظلما .

(افْتَرَىٰ) : اختلق بادعاء الشركاء له .

(نُورَ اللهِ) : الحق الذى جاء به الرسول .

(بِالْهُدَىٰ) : بالقرآن .

(دِينِ الْحَقِّ) : الإسلام .

(لِيُظْهِرَهُ) : ليعليه ويرفعه .

(عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) : على جميع الأديان .

التفسير

٧ـ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ) :

أى : أىُّ النّاس أشد ظلما ممن يُدْعى إلى الإسلام الذى يُوصله إلى سعادة الدارين فتكون استجابته الافتراء والاختلاق على الله بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرا ، والمراد أنه أظلم من كل ظالم ، والآية فيمن كذب من هذه الأُمة على مايقتضيه السياق ، وهى وإن كانت فى بنى إسرائيل الذين جاءهم عيسى ـ عليه السلام ـ ففيها تأْييد لمن ذهب إلى عدم اختصاص الإسلام بالدين الحق الذى جاء به نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل الإسلام هو كل دين جاء به الأَنبياءُ والمرسلون (وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى : لا يوفقهم إلى ما فيه فلاحهم لسوءِ استعدادهم وعدم توجههم إليه .

٨ـ (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) :

هذا تمثيل لحالهم ـ وهم يجتهدون فى إبطال الحق ـ بحال من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها ؛ تهكمًا وسخرية بهم .

والمعنى : يفترى بنو إسرائيل الكذب على الله لكى يطفئوا نور دينه بأفواههم ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد إطفاء نور الشمس بنفخة من فيه ، والله مكمل الحق ومبلغه غايته بإتمام دينه ، وعن ابن عباس وابن زيد : يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول ، وقيل : يريدون إبطال شأن النبى وإخفاء ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم ، فقد روى عن ابن عباس : أن الوحى أبطأ أربعين يوما فقال كعب بن الأشرف : يامعشر يهود أبشروا أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره . فحزن الرسول فنزلت : (يُرِيدُونَ ...) الآية .

وقوله ـ تعالى ـ :(وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) أى : ولو كره الجاحدون ، وفيه إشارة إلى أنه ـ عز وجل ـ متم ذلك قسرا عنهم وإرغاما لهم .

٩ ـ (هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) :

أى : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسل رسوله محمدا ﷺ بالهدى أى : بالقرآن ، أو المعجزة عامة ،وجعل ذلك نفس الهدى مبالغة ،ودين الحق وهو الملة الحنيفية ودين الإسلام ليظهره على الدين كله أى : ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ، ولقد أنجز الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعده ، إذْ جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلَّا وهو مقهور مغلوب بدين الإسلام ، فقد هزم الأديان الباطلة ونسخ الأديان السماوية السابقة .

وعن مجاهد : إذا نزل عيسى ـ عليه السلام ـ لم يكن فى الأرض إلَّا دين الإسلام .

وقيل : المراد بالإظهار : الإعلاء بوضوح الأدلة وسطوع البراهين وذلك أمر مستمر أبدا .

(ولَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) أى :ولو كره المشركون ذلك لِمَا فيه من التوحيد الخالص وإبطال الشرك .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾)

المفـــردات :

(أَدُلُّكُمْ) : أرشدكم.

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : جنات إقامة .

(وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا) أى : ولكم من النعم نعمة أخرى تحبونها فى الدنيا .

التفســـير

١٠ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

جاء فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة - رضى الله عنهم - أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله - عزَّ وجلَّ - فأنزل الله هذه السورة ومن جملتها هذه الآية .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا هل أرشدكم إلى تجارة عظيمة الشأن تنجيكم وتخلصكم من عذاب شديد الألم يوم القيامة .

١١ - (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

استئناف بيانى كأنه قيل : ما هذه التجارة الجليلة الشأن ؟ دلنا عليها ، فقيل : « تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ) أى : هذه التجارة هى أن تثبتوا على الإيمان بالله ورسوله وتجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، والمضارع فى الموضعين (تُؤْمِنُونَ ، وَتُجَاهِدُونَ) كما قال المبرد وجماعة : خبر بمعنى الأمر ، أى : آمنوا وجاهدوا ، ويؤيده قراءة عبد الله كذلك ، والتعبير به للإيذان بوجوب الامتثال ، كأن الإيمان والجهاد قد وقعا فأخبر بوقوعهما (ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) أى : ذلكم ما ذكرته وأرشدتكم إليه من الإيمان والجهاد ، خيرٌ لكم على الإطلاق أو من أموالكم وأنفسكم .

(إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) أى : إن كنتم من أهل العلم ؛ إذ الجهلة لا يعتد بأعمالهم حتى توصف بالخيرية ، وقيل : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرا لكم حينئذ ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتم أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أموالكم وأنفسكم وتُخْلِصون وتفلحون .

١٢ - (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

(يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) أى : آمنوا وجاهدوا فى سبيل الله يغفر لكم ذنوبكم - فيغفر جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر فى قوله - تعالى - : (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ) ويجوز أن يكون التقدير : إن تؤمنوا وتجاهدوا فى سبيل الله يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً) أى : طاهرة زكية مستلذة ، وهذا إشارة إلى حسنها بذاتها ، وقوله - تعالى - : (فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ) إشارة إلى حسنها باعتبار محلها (ذَٰلِكَ) أى : الجزاء الذى ذكر من المغفرة وما عطف عليها (الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذى لا فوز بعده ..

١٣ - (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : ولكم أيها المؤمنون المجاهدون إلى ما ذكر من النعم من المغفرة والرضوان فى الآجلة نعمة أخرى عاجلة تحبونها ثم فسرها بقوله : (نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) أى : عاجل وهو فتح مكة ، وعطف (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) على (تُؤْمِنُونَ) ؛ لأنه خبر فى معنى الأمر كما قدمنا ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(الْحَوَارِيُّونَ) : أصفياء عيسى وخواصه .

(فَأَيَّدْنَا) : فقوينا .

(ظَاهِرِينَ) : غالبين ومنتصرين .

التفســـير

١٤ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِن بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ) :

يقول الله تبارك وتعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم كما كان الحواريون أنصار الله حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟ والحواريون : هم أتباع عيسى وأصفياؤه وأول من آمن به ، قيل : كانوا اثنى عشر رجلًا فرقهم فى البلاد وبعثهم دعاة إلى الناس فى البقاع المختلفة ، واشتقاق الحواريين من الحَوَرِ وهو البياض ؛ لأنه كان ملبسهم ، وقيل : لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب ، وقيل : لنقاء ظاهرهم وباطنهم ، وقيل : الحواريون هم المجاهدون .

وكذلك كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج : (مَنْ رجل يؤوينى حتى أبلغَ رسالةَ ربى ؟) حتى قيض الله له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه على أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم بمن معه من أصحابه ، ووفوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار وصار ذلك علما عليهم – رضى الله عنهم – وأرضاهم ، وقوله – تعالى – :(فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ)أى :لـما بلَّغَ عيسى – عليه السلام – رسالة ربه إلى قومه وآزر من آزره من الحواريين اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاء به وضلت طائفة ، فخرجت عما جاء به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم والأباطيل وهم اليهود – عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة – ونحلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل : إنه ابن الله ، ومن قائل : إنه ثالث ثلاثة – الأب والابن وروح القدس – وقوله – تعالى – : (فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ) أى : فنصرنا وقوينا الذين آمنوا بعيسى على عدوهم الذين كفروا به فصاروا بتقويتنا ومساعدتنا غالبين منتصرين . قال زيد بن على : ظاهرين بالحجة والبرهان .

وقيل : المراد (فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ) أى : فآمنت طائفة من بنى إسرائيل بمحمد – عليه الصلاة والسلام – وكفرت به طائفة أخرى ، فأيدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين ، والله أعلم .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السادس والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩١

سورة الجمعة

مدنية وآياتها إحدى عشرة

الجمهور على أن هذه السورة مدنية، ففى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: «كنا جلوسًا عند النبى ﷺ حين نزلت سورة الجمعة ..» الحديث.

وإسلام أبى هريرة بعد الهجرة بالاتفاق، ولأن أمر الانفضاض عند مجىء تجارة أو لهو الذى جاء فى آخر السورة، وكذا أمر اليهود المشار إليه بقوله تعالى: (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ ...) لم يكن إلا بالمدينة.

صلتها بما قبلها:

ووجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى: لَمَّا ذكر حال موسى - عليه السلام - مع قومه، ونعى عليهم إيذاءهم له، ذكر فى هذه السورة حال الرسول ﷺ وفضل أمته تشريفًا لهم؛ لينظر الفرق بين الأُمتين، ولذا تعرض فيها لذكر اليهود، ولأنه تعالى لَمَّا ذكر فى السورة السابقة قول عيسى - عليه السلام -: «وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ...» قال هنا: (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ..) إشارة إلى أنه هو الذى بشر به عيسى، ولأنه تعالى لَمَّا ختم السورة السابقة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة، ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة، وأخبر أنها خير التجارة الدنيوية، إلى غير ذلك من المناسبات.

بعض مقاصد السورة:

حكت سورة الجمعة أنه تعالى يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض، ووصفته بأنه الملك القدوس العزيز الحكيم، وأنه هو الذى بعث فى الأُمِّيِّين رسولًا منهم يُعَلِّمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا فى جاهليتهم فى ضلال مُبين، وضربت مثلًا للذين حملوا التوراة ولم يعملوا بها، أنهم كمثل الحِمَار يَحمل أسفارًا وكتبًا وهو لا يعلم ولا يعمل بها، وكذبت اليهود فى زعمهم أنهم أولياءُ لله من دون الناس، وتحدتهم بأن يطلبوا من الله الموت إن كانوا صادقين؛ ليكونوا فى رِحاب من أَحبُّوه، وذكرت أنهم لا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم من السيئات، وأنهم يَفِرُّونَ منه وسيلاقُونه ثم يعودون إلى الله - تعالى - فيحاسبهم ويجازيهم.

وحثت السورة المؤمنين على أن يستجيبوا لنداء صلاة الجمعة ويتركوا التجارة مدة الصلاة وما يتصل بها ؛ ليعودوا إليها بعد الصلاة إن شاءوا ، وحذَّرهم من إيثارها على الصلاة ، ولامهم على الخروج من المسجد أثناء خطبة الجمعة من أجل اللَّهو والتِّجارة التى وصلت إلى المدينة أثناء الخطبة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾)

المفــــردات :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ) التسبيح : التنزيه .

(الْقُدُّوسِ) : البالغ غاية الطهر ، وهو على وزن فُعُّول من القدس وهو الطهر والقدوس من أسماء الله الحسنى .

(الْأُمِّيِّينَ) : الذين لا يقرءُون ولا يكتبون .

(رَسُولًا مِّنْهُمْ) : رسولًا أُمِّيًّا مثلهم .

(وَيُزَكِّيهِمْ) : ويطهرهم من أقذار العقائد والأخلاق والعادات التى كانت لهم فى الجاهلية .

(الْكِتَابَ) : القرآن .

(وَالْحِكْمَةَ[1]) : السنة .

(لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) : لفى بُعْد واضح عن الحق والحكمة ، لجاهليتهم التى كانوا فيها.

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ) : وبعثه فى آخرين من الأميين لم يؤمنوا بعد وسيؤمنون مثلهم .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : الغالب .

(الْحَكِيمُ) : المتقن للأمور .

(فَضْلُ اللَّهِ) : إحسانه وعطاؤه .

التفسير

١ - (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

جاء التعبير بلفظ المضارع (يُسَبِّحُ) ليفيد أن تسبيح ما فى السموات وما فى الأرض لله تعالى متجدد فى كل وقت ، والمراد من (مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) جميع أجزائهما وما استقر فيهما ، وتسبيح ذلك إما تسبيح دلالة كما فى قول الشاعر :

وفى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِد

وإما تسبيح مقال ، وهو فى كلِّ شىءٍ بحسبه ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النور : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ »[2] ، وكقوله فى سورة سبأ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا

(١) وتطلق الحكمة أيضا على حسن التصرف فى الأمور .

(٢) الآية ٤١ .

يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ »[1] ، وكقوله فى سورة ص : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ »[2] ، وكقوله فى سورة الإسراء : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »[3] .

والمعنى الإجمالى للآية : يسبح لله وينزهه عن الشريك وجميع صفات النقص — يسبح له — ما فى السموات وما فى الأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، المالك لهما الغالب لكل ما سواه الحكيم المتقن لكل الأمور ، ومن كان شأنه ذلك فلا يصح أن يعبد سواه .

٢ — (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

الأُمِّيُّون هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، نسبوا إلى الأم للإيذان بأنهم على فطرتهم التى ولدوا عليها ، فقد ولدوا لا يقرءون ولا يكتبون ، ولم يطرأ على تلك الفطرة ما يغيرها ، وقد كانت هذه سِمَتَهُم التى عرفوا بها بين الأمم ، وإن كنت ترى فيهم الخطباء والبلغاء والفصحاء بفطرتهم ، وهذا المعنى أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما بأسانيدهم عن النبى ﷺ قال : « إنا أمَّةٌ أُمِّيَّة لا نقرأ ولا نحسب » ، وكان النبى ﷺ أُمِّيًّا مثلهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ »[4] .

قال الماوردى : فإن قيل : ما وجه الامتنان بأن بعث فى الأُمِّيِّين نبيًّا أُمِّيًّا ، فالجواب عنه من ثلاثة أوجه :

(أحدها) لموافقة ما تقدمت به بشارة الأنبياء .

---

(١) من الآية ١٠ .
(٢) الآيتان ١٨ ، ١٩ .
(٣) الآية ٤٤ .
(٤) العنكبوت ٤٨ ، ٤٩ .

(ثانيها) لمشاكلة حاله لأحوالهم فيكون أقرب إلى موافقتهم له .

(ثالثها) لينتفى عنه سوء الظن فى تعليمه ما دعا إليه من الكتب التى قرأها والحكم التى تلاها .

ونزيد على ذلك أن الله اختاره أميًّا ، لتكون أميَّته مؤكدة لإعجاز القرآن ، وكونه آية على صدقه ، وكان النبى ﷺ لأُمِّيَّته يحرك لسانه وينطق بالقرآن عقب سماعه من جبريل ليحفظه فلا يغيب عنه شئ منه فطمأنه الله ـ تعالى ـ إذ تعهد أن يجمعه فى صدره ، بعد فراغ جبريل ـ عليه السلام ـ من تبليغه ، وفى ذلك يقول سبحانه : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ »[1] . وقد تضمن القرآن علوم الأولين والآخرين ، وتحدث عن الماضى والحال والاستقبال ، وعن الآيات التى يستدل بها على الله ، وعن أدلة التوحيد والبعث ، وأسرار العلوم والفنون ، وعن التمكين لأُمته فى المشارق والمغارب ، ويرحم الله البوصيرى إذ يقول :

كَفَاكَ بِالعِلْمِ فى الأُمِّىِّ مُعْجِزة ... فى الجَاهِلِيَّة والتَّأْدِيب فى اليُتم

وقد اختار الله هذه الأُمة الأُمية ؛ ليكون الرسول منهم ؛ لأنهم أهل شجاعة وهمة ، قادرون على الثبات أمام الأَهوال ، ولتظهر بهم قدرة الله ، حيث حوَّل جاهليتهم إلى علم وعرفان ، يفوق ما عرفه البشر من العلوم والفنون .

وكان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة ، ولكن محمدًا الرسول الأُمىّ بُعث إلى الناس كافة ، فدان لرسالته العرب والفُرس والرُّومان وغيرهم من أهل المشارق والمغارب ، فسبحان الله القادر على ما يشاء .

وقد عينت الآية الأُمة التى بعث منها ، ولم تعين الأُمم الذين أُرسل إليهم ؛ ليفهم من ذلك أن رسالته مفتوحة لامحدودة ، وقد علم عموم بعثته للعالم من قوله : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[2] ، وقوله : « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... »[3] .

---

(١) سورة القيامة ١٦ ـ ١٩ . (٢) سورة التوبة من الآية : ٣٣ .
(٣) سورة سبأ من الآية : ٢٨ .

والمعنى الإجمالى للآية : هو الله الذى بعث فى الأُمِّيِّين رسولًا منهم أُمِّيًّا مثلهم ، يتلو عليهم آياته التى سمعها ووعاها من جبريل أمين الوحى الإلٰهى ، ويُعَلِّم هؤلاء الأُمِّيِّين هذا الكتاب فيقرؤه عليهم فيحفظونه لصفاء فطرتهم وقوة حفظهم ، ويكتبه الكتّاب منهم ويعلمهم السنة التى تشتمل على مختلف أنواع الحكم الشرعية والنقلية والعقلية كأسرار الكون ودلالتها على المكوِّن - سبحانه وتعالى - ويطهرهم من عقائد الجاهلية وأخلاقها ، وعاداتها ، وإنهم كانوا من قبل بعثه فيهم لفى ضلال عن الحق بيِّن واضح .

٣ - (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

لفظ (وَآخَرِينَ) معطوف على لفظ الأُمِّيِّين أو على الضمير فى (يُعَلِّمُهُمُ ، وَيُزَكِّيهِم) .

والآية صريحة فى أن هؤلاء الآخرين من الأُميين ، وأنهم لم يلحقوا بعد بمن قبلهم فى الالتقاء بالرسول وأخذ العلم عنه ، وسيلحقون بهم بعد نزول هذه الآية كما يفيده لفظ (لَمَّا) فإنها تفيد نفى ما دخلت عليه حالا ، وتوقع حصوله مستقبلًا ، فهى تخالف (لَمْ) فى ذلك ، إذ هى تفيد النفى دون توقع حصول المنفى بعدها .

وعملًا بظاهر الآية نقول : إنها نزلت قبل أن يسلم جميع الأُميين العرب ، فلا تزال حينئذ - بقية منهم فى جاهليتهم ، ولكنهم سيلحقون بمن قبلهم فى الإيمان بالرسول ﷺ فى حياته ، هذا ما عنَّ لنا فى فهم الآية الكريمة ، وهذا لا يمنع عموم رسالته المدلول عليه بما تقدم .

وقد اختلف المفسرون فى بيان المراد من هؤلاء الآخرين من الأُميين ، فقال ابن عمر وسعيد بن جبير : هم العجم ، واستشهدوا بما جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : (كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذ نزلت سورة الجمعة ، فلما قرأ « وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ » قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله ؟ فلم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا . قال : وفينا سلمان الفارسى . قال : فوضع النبى ﷺ يده على سلمان ، ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء) .

وقال عكرمة : هم التابعون ، وقال مجاهد : هم الناس كلهم - يعنى من بعد العرب الذين بُعِث فيهم محمد ﷺ ، وقال ابن زيد ومقاتل بن حيان : هم مَن دخل فى الإسلام بعد النبى ﷺ إلى يوم القيامة .

ويرد على هذه التأويلات أمران :

(أحدهما) أن الضمير فى (آخَرِينَ مِنْهُمْ) يعود على الأُميين فى الآية التى قبلها وهؤلاء الذين ذكروا فى التأويلات السابقة ليسوا أُميين ، والأُميون هم العرب كما تقدم .

(وثانيهما) أنه ﷺ لا يُعلِّم هؤلاء الآخرين ولا يزكيهم ، وإنما يعلمهم ويزكيهم المسلمون الذين ورثوا الكتاب والحكمة بعد رسول الله ﷺ .

ويجاب عن الأَول : بأَن الذين يتوقع منهم الإسلام بعده ﷺ أُميون من جهة العلم النافع ، فهم ما بين وثنيين وأَهل كتاب غيروه وبدلوه ، فهم فى حكم الأُميين ، فلما أَسلموا تعلموا الكتاب والحكمة وطهرت نفوسهم ، وبذلك زالت أُميتهم العلمية ، على أن غالبية الشعوب التى دخلها الإسلام كانوا لا يقرءُون ولا يكتبون فهم أُميون باعتبار أَغلبيتهم .

ويجاب عن الثانى : بأَن إسلام مَنْ بعده ﷺ ناشئ عما تركه فيهم من آثار رسالته من الكتاب والحكمة ، فكأَنه بُعِث فيهم ، ولا تغفل عما فهمناه أَولًا من نص الآية ، فهو أَظهر من تلك الآراءِ التى أَجبنا على ما وجه إليها من الاعتراضات ، والله ولى التوفيق .

وفى عموم رسالته ﷺ لمن عاصروه ولمن بعدهم إلى يوم القيامة يقول - سبحانه - : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ »[1] .

٤ - (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

أَى : ذلك الذى تقدم من بعث محمد ﷺ فى الأُميين وسواهم ؛ ليهتدوا - ذلك - فضل الله وعطاؤه العظيم ، يعطيه من يشاءُ وهو محمد ﷺ ولا يشاءُ - سبحانه - لأَحد بعده ،

---

(١) سورة الصف : ٩ .

فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، والله صاحب الإحسان والعطاء الجزيل الذى تُحتقر نعم الدنيا بالقياس عليه .

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ) : صفة اليهود الذين كلفوا العمل بالتوراة .

(ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا) : ثم لم يعملوا بها .

(أَسْفَارًا) : جمع سِفر وهو الكتاب الكبير ، وسمى بذلك؛ لأنه إذا قرئ يسفر عن معناه .

(الَّذِينَ هَادُوا) : الذين دانوا باليهودية .

(مُلَاقِيكُمْ) : موافيكم ومقابل لكم حيثما كنتم .

التفسير

٥ - (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، فهى تشير إلى أن ذلك الرسول المبعوث فى الأُميين ، قد نَعتَهُ الله هنا بما نعته به فى التوراة ، فقد نُعِت فيها بأنه النبى الأُمى المبعوث إلى أمة أميين .

والمعنى : مثل من جاءهم نعت الرسول فى التوراة وهم اليهود وقد علموه ولم يؤْمنوا به كمثل الحمار يحمل أسفارًا لا ينتفع بها ، فليس له منها إلا الحمل ، (بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ) أى ، بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا بآيات الله ولم ينتفعوا بها ، فالمثل المقدر هو المخصوص بالذم[1] .

وقد ختم الله الآية بقوله :(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى :لا يهدى اليهود الظالمين الذين وضعوا التكذيب فى موضع التصديق وأصروا على ذلك .

٦ - (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

قل أيها الرسول : يأيها الذين دانوا باليهودية إن زعمتم أنكم أحباء لله دون غيركم من الناس ، فاطلبوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى دار الكرامة إن كنتم صادقين فيما زعمتموه من أنكم مختصون بحب الله ، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة ، أحب أن يتخلص إليها من دار المحن والأكدار .

وقد أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم ذلك إظهارًا لكذبهم ، وإنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ،ويزعمون أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودًا ، إلى غير ذلك من سائر دعاواهم الكاذبة .

---

(١) راجع الآلوسى .

٧ - (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) :

ولا يتمنى الموت هؤلاء اليهود - لايتمنونه - أبدًا ، إيثارًا للحياة الدنيا على الآخرة وخوفاً من عقابهم على ماقالوه فى النبى ﷺ .

وجاء فى حديث عن النبى ﷺ قال لمَّا نزلت هذه الآية : « والذى نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقى على ظهرها يهودى إلا مات » .

٨ - (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ[١] ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

قل لهم أيها الرسول : إن الموت الذى تفرون من طلبه إياكم فإنه ملاقيكم عند مجىء آجالكم ، ثم تردون يوم البعث إلى الله عالم ماغاب وما حضر ، فينبئكم بما كنتم تعملون فى دنياكم من المساوىء ، ويجزيكم عليها أسوأ الجزاء .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ) : دُعِيَ بالأذان لصلاة الجمعة فى يومها .

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) : فامضوا إلى صلاتها التى يذكر فيها اسم الله ولا تتخلفوا عنها ، وأطلق لفظ (ذِكْرِ اللَّهِ) على الصلاة مجازًا ؛ لأنه أهم مقاصدها .

---

(١) جملة « فإنه ملاقيكم » خبر إن السابقة فى محل رفع ، واقترنت بالفاء؛لأن اسم إن وهو الموت لما وصف بالموصول وصلته (الذى تفرون منه) وهو فى معنى الشرط ، وما بعده فى معنى الجزاء ، فكأنه قيل : إن فررتم من الموت فإنه ملاقيكم .

(وَذَرُوا الْبَيْعَ) : واتركوا البيع والشراءَ حتى تُصَلُّوها .

(قُضِيَتِ الصَّلَاةُ) : أُدِّيت .

(وَابْتَغُوا) : واطلبوا.

التفسير

٩ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

المقصود من النداء لصلاة الجمعة الأَذان الشرعى المعهود لما فيه من قول المؤَذِّن:« حَيَّ عَلَى الصَّلَاة » أى :أَقبلوا عليها وتعالوا لأَدائها ، ولفظ الجمعة بضم الميم وتسكينها ، قال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل - أى : بالضم - والتخفيف أى : تسكينها ، فاقرءُوا جُمُعة - بضم الميم - وفتح ميمها جائز لغة ولكنه لم يرد قراءَة .

وكان يقال ليوم الجمعة يوم العَرُوبة - بفتح العين - واختلف فى أَول من سماه يوم الجمعة ، فقيل : هو كعب بن لؤى ، وهو أَول من قال : أَمَّا بعد - قاله أَبو سلمة .

وقيل : أَول من سماه جمعة الأَنصار ، قال ابن سيرين : جَمَّع أَهل المدينة من قبل أَن يقدم النبى ﷺ المدينة وقبل أَن تنزل (الجمعة) وهم الذين سموه يوم الجمعة ، وذلك أَنهم قالوا : إِن لليهود يوماً يجتمعون فيه فى كل سبعة أَيام وهو السبت ، وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأَحد ، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل لنا يوماً نذكر الله ونصلى فيه ونستذكر - أَو كما قالوا - فقالوا : يوم السبت لليهود ويوم الأَحد للنصارى ، فاجعلوه يوم العَروبة ، فاجتمعوا إِلى أَسعد بن زرارة (أَبو أُمامة)-رضى الله عنه- فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم ، فسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا ، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها لقلتهم ، فهذه أَول جمعة فى الإِسلام - ارجع إِلى الآلوسى وغيره . وروى أَنهم كانوا اثنى عشر رجلا ، وعلى أَى حال فإِنه سمى يوم الجمعة لاجتماع الناس فيه .

وأَما أَول جمعة جمّعها النبى ﷺ بأَصحابه فكانت فى قباء ، فقد قدم النبى ﷺ مهاجرًا حتى نزل بها ، على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة

خلت من شهر ربيع الأول فأقام بها إلى يوم الخميس وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، وكان المسلمون قد بنوا مسجدا ، فجمّع النبى ﷺ بهم فيه ، وخطب ، وهى أول خطبة خطبها بالمدينة ، وقال فيها : « الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه ، وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفر به ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد شكر ، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيدًا ، أوصيكم بتقوى الله فإنه خيرما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ... » إلى آخر الخطبة ، وهى خطبة عظيمة ومنهاج رشيد ، فارجع إليها فى القرطبى فى المسألة الثانية .

اذان الجمعة فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد عثمان - رضى الله عنه -

كان للرسول ﷺ أذان واحد للجمعة ، فكان إذا جلس على المنبر أذّن المؤذن على باب المسجد فإذا نزل ﷺ أقام المؤذن الصّلاة ، وكان أبو بكر وعمر على ذلك ، حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل ، زاد مؤذنا آخر ، فأمر بالتأذين الأول على داره التى تسمى زوراء ، تسمية لها باسم موضع مرتفع بسوق المدينة ، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثانى ، فإذا نزل أقام الصلاة ، فلم يُعبْ ذلك .

ومن محاسن الأذان الأول بالزوراء ، أنه كان ينبه الناس إلى ترك البيع والسعى لأداء صلاة الجمعة وهو الآن كذلك .

المراد من السعى وذكر الله :

المراد من السعى المشى بدون إفراط فى السرعة ، وقال قتادة : أن تسعى بقلبك وعملك .

وقد اتسع العمران فى هذا الزمان ، فينبغى عدم انتظار الأذان للسعى إلى المسجد ، وأن يبكر المصلى ليأخذ له مكاناً فيه قبل امتلائه بالمصلين بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب وتزين امتثالا لقوله تعالى : « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

وذكر الله هو الصلاة والخطبة قبلها ، والسعى إليها عند الأذان الأول واجب ، وقد أوجب الله فى الآية السعى إلى الجمعة من غير شرط ، وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة فى جميع الصلوات ، لقوله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ... »[1] وقال ﷺ : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » أما الغسل للجمعة فهو سنة وليس فرضاً لها ، قال ﷺ : « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغسل أفضل » أخرجه النسائى وأبو داود فى سننهما .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء ، ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت غفر الله ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، ومنْ مسَّ الحصا فقد لَغَا » والمقصود بمسّ الحصا الاشتغال عن سماع الخطبة بأى شاغل وإن صَغُر ، والمراد بكلمة (لغا) أتى بما لا يليق بالاستماع للخطبة وأضاع ثوابه ، وقال صاحب المختار : (لغا) أى :قال باطلا ، والمراد منه فى الحديث ما يشمل الكلام وغيره .

وقوله تعالى : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) أمر بتركه قُبَيْلَ خطبة وصلاة الجمعة ، وتحريم له فى وقتهما ، وكذلك الشراء ، ولم يصرح به ؛ لأنه لا يخلو بيع من شراء ، فالنهى عن أحدهما شامل لهما جميعاً ، ومع كونهما محرمين عند الأذان إلى تمام الصلاة فإنهما لا ينعقدان ويفسخ كلاهما ، وأجاز بعض العلماء البيع فى الوقت المذكور ، وحمل النهى على الندب ، واستدل بقوله تعالى : « ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى :أفضل لكم من البيع ، وهذا هو مذهب الشافعى ، وقال الزمخشرى فى تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لايؤدى إلى فسخ البيع ؛ لأن البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة فى الأرض المغصوبة : يعنى أنها تصح مع حرمتها ولا تسقط الجمعة لكونها يوم عيد ، خلافاً للإمام أحمد فإنه قال : إذا اجتمع عيد وجمعة سقط فرض الجمعة لتقدم العيد عليها واشتغال الناس به عنها ، واستدل على ذلك بما روى أن عثمان ــ رضى الله عنه ــ أذِن فى يوم عيد لأهل العوالى أن يتخلفوا

---

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٦ .

عن الجمعة ، وقول الصحابى الواحد إذا خولف فيه لا يعتبر حجة ، والأمر بالسعى إلى صلاة الجمعة متوجه يوم العيد كتوجهه فى سائر الأيام ، وفى صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال : « كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » و « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد يقرأ بهما أيضاً فى الصلاتين . أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة[1] .

المعنى الإجمالى للآية : ياأيها الذين آمنوا وكنتم من المقيمين فى بلد الجمعة المكلفين بالصلاة : إذا سمعتم أذان الجمعة فعليكم أن تمضوا إلى مكان أدائها وعليكم السكينة والوقار ، وأن تستمعوا إلى خطبة الجمعة ، وتصلوا صلاتها فى جماعة وأنتم متوضئون ، فإنه لاصلاة من غير وضوء ، وعليكم أن تمتنعوا عن البيع والشراء ابتداءً من الأذان الأول على الأقل؛ لتتفرغوا لسماع خطبتها وأدائها مع الجماعة ، فإن البيع والشراء حينئذ حرام ، ويقول بعض العلماء : إنهما باطلان ، ذلكم خير لكم فى دينكم ، فنى ذلك غفران لذنوبكم ومثوبة من الله لكم ، إن كنتم تميزون بين الخير والشر والنفع والضر .

١٠ ـ (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

فإذا فرغتم من صلاة الجمعة فمباح لكم أن تنتشروا فى الأرض للتجارة والتصرف فى حوائجكم ونحو ذلك واطلبوا من رزق الله بسعيكم ، واذكروا الله ذكرًا كثيرًا فى جميع الأحوال ، واشكروه على توفيقكم لأداء الفرائض ؛ لكى تفلحوا وتفوزوا فى دنياكم وأخراكم.

ويقول القرطبي : كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إنى قد أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » .

(١) انظر القرطبي فى شرح هذه الآية فى المسألة الحادية عشرة .

(وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١)

سبب نزول هـذه الآية

أخرج الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا – فى رواية : أنا فيهم – فأنزلت هذه الآية التى فى الجمعة (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا) وفى رواية : فيهم أبو بكر وعمر – رضى الله عنهما – .

وقد ذكر الكلبى وغيره أن الذى قدم بالعير دحية بن خليفة الكلبى من الشام عند مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما يحتاج الناس إليه من بُرٍّ ودقيق وغيرهما ، فنزل عند أحجار الزيت[1] وضرب بالطبل ؛ ليؤذن الناس بقدومه ، فخرج الناس إلاَّ اثنى عشر رجلا ، وقيل : ثمانية رجال ، وقيل : أربعون رجلا ، وقيل : غير ذلك ، وكانت هذه التجارة لعبد الرحمن ابن عوف ، وذكر الزمخشرى أنه ﷺ قال : « والَّذِى نفسى بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادى نارًا » كما جاء فى القرطبى .

والمراد من اللهو نفس التجارة ، فاعتبر خروجهم لتلقيها لهوًا تهجيناً له ، لما فيه من الإعراض عنه ﷺ ولهذا رجع الضمير مؤنثاً فى قوله : (إِلَيْهَا) – رجع – إلى التجارة ، ولم يذكر ليرجع إلى اللهو ؛ لأنه لم يقصد لذاته بل لتقبيح خروجهم للتجارة أثناء الخطبة لمشاهدة ما جاء فيها أو للشراء منها لهوا ، فإن رزقهم منها مكتوب عند الله تعالى ، فلا وجه لتركهم سماع الخطبة والانصراف إليها .

---

(١) اسم مكان فى سوق المدينة .

وقيل : إن المعنى : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف لدلالة ماقبله عليه ، كما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

أى : نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض .

وقال جابر بن عبد الله : كانت الجوارى إذا نُكِحْن – أى : تزوجن – يمرون بالمزامير والطبل فانفضوا إليها فنزلت ، وإنما ردَّ الكناية[1] إلى التجارة ؛ لأنها أهم ، أو لأن الخروج إليها حينئذ إذا كان مذموماً فهو للّهو أكثر ذما .

العدد الذى به تصح الجمعة

قال الحسن : تنعقد الجمعة باثنين، وقال الليث وأبو يوسف : تنعقد بثلاثة ، وقال أبو حنيفة : تنعقد بأربعة ، وقال ربيعة : باثنى عشر رجلا ، وقال الشافعى : بأربعين رجلا ، ولعل هؤلاء استند كل منهم إلى إحدى الروايات فيمن بقى مع الرسول بعد خروج من خرج لمشاهدة التجارة التى جاء بها دحية من الشام .

وفى حاضرى الصلاة بعد خروج من خرج منهم ، وفى البلد الذى تقام فيه الجمعة وغير ذلك بحث واسع النطاق ، فمن أراده فليرجع إليه فى القرطبى والآلوسى وغيرها من الموسوعات .

هل حضور الحاكم شرط فى صحة الجمعة ؟

فى ذلك خلاف بين الأئمة ، ففريق يقول بصحتها بغير إذن الحاكم أو حضوره ، وقال أبو حنيفة : منْ شرطها الإمام أو خليفته ، ودليل الرأى الأول أن الوليد بن عقبة والى الكوفة أبطأ يوماً ، فصلى ابن مسعود بالناس من غير إذنه ، وأن عليًّا صلى الجمعة يوم حُوصِر عثمان ولم ينقل أنه استأذنه ، إلى غير ذلك من الأدلة ، وفى ذلك يقول الإمام مالك : إن لله فرائض فى أرضه لا يُضَيِّعُهَا – ولِيهَا والٍ أو لم يَلِها .

---

(١) المقصود من الكناية الضمير فى (إليها) .

القيام شرط فى الخطبة

دلَّ قوله تعالى : (وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا) على أن القيام شرط فى أداء خطبة الجمعة ، وجاء فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائماً ثم يجلس ، ثم يقوم فيخطب ، فمن نَبَّأَك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب إلخ وعلى هذا الرأى جمهور الفقهاء .

وقال أبو حنيفة : ليس القيام بشرط فيها ، وهذا مخالف لظاهر النص (وَتَرَكُوكَ قَآئِماً) أو للحديث الصحيح الذى مرَّ ذكره .

احكام مختلفة

لا تصح الجمعة من غير خطبة ، وهو قول الجمهور ، وقال الحسن : هى مستحبة ، وبه قال ابن الماجشون وسعيد بن جبير ، ويرد هذا الرأى ظاهر قوله تعالى : (وَتَرَكُوكَ قَآئِماً) .

ومن السنة أن يتكىء الخطيب على قوس أو عصا ، فى سنن ابن ماجة بسنده (أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس ، وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا) .

ويسلم الخطيب على الناس إذا صعد على المنبر عند الشافعى وغيره ، روى ابن ماجة بسنده (أن النبى ﷺ كان إذا صعد المنبر سلَّم) .

ويجب فى الخطبة أن تكون على طهارة عند الجمهور ، وللشافعى قولان (أحدهما) الوجوب فى المذهب الجديد ، ولم يشترط فى المذهب القديم ، وهو رأى أبى حنيفة .

أركان الخطبة :

الحنفية قالوا : للخطبة ركن واحد وهو مطلق الذكر الشامل للقليل والكثير ، فتكفى تسبيحة أو تحميدة أو تهليلة ، وإن كره الاقتصار على ذلك .

والشافعية قالوا : أركانها خمسة : الحمد لله ، والصلاة على النبى ﷺ ، والوصية بالتقوى ، وقراءة آية فى إحدى الخطبتين والأولى أولى ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات فى الثانية .

والمالكية قالوا : لها ركن واحد وهو أن تكون مشتملة على تحذير أو تبشير .

والحنابلة قالوا : كقول الشافعية فيما عدا الدعاء للمؤمنين والمؤمنات .

والسكوت للخطبة واجب على من سمعها ومن لم يسمعها ؛ ليتمكن المصلى من الانتفاع بما جاء فيها ، ومن تكلم حينئذ فقد لغا وأتى بالباطل ، ولا تفسد صلاته .

وفى الصحيح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة فقد لَغَوْتَ » يعنى أن الصمت مطلوب من جميع المصلين أثناء الخطبة ، من غير حاجة إلى من ينبههم ، ومن دخل المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب فلا يصلى ، وهذا مذهب مالك ، وبه قال ابن شهاب ، وجاء فى الموطأ أن خروج الإمام من حجرته للخطبة يقطع صلاة المصلى ، وكلامه يقطع الكلام ، وقال الشافعى وغيره : لمن دخل المسجد والإمام يخطب أن يصلى ركعتين خفيفتين تحية المسجد قبل أن يجلس ، وحجتهم فى ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر عن النبى ﷺ : « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوَّز فيهما » أى : يخفف فى أدائهما .

سورة المنافقون

مدنية وآياتها احدى عشرة آية

صلتها بما قبلها :

جاءت هذه السورة بعد سورة الجمعة التى ذكر فيها المؤمنون ؛ لأنها تحكى أحوال المنافقين الذين هم أعداء المؤمنين ، أخرج سعيد بن منصور والطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن أبى هريرة قال : (كان رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة الجمعة سورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين ، وفى الثانية سورة المنافقون فيقرع بها المنافقين) .

وقال أبو حيان فى مجيئها بعدها : لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً من المنافقين ، واتبعهم ناس كثير من المؤمنين فى ذلك لسرورهم بالعير التى قدمت بالمِيرَة ، إذ كان الوقت وقت مجاعة ، جاء ذكر المنافقين وماهم عليه من كراهة أهل الإيمان ، وأتبع قبائح أفعالهم بقبائح أقوالهم .

مقاصد السورة :

اشتملت سورة (المُنافِقُونَ) على تكذيبهم فى دعوى الإيمان ، وفى أَيْمَانِهم التى أيدوا بها زعم إيمَانهم ، وما هم إلا كافرون فى الحقيقة صادون عن سبيل الله ، وبينت أنهم آمنوا ثم كفروا مُصِرِّين على كفرهم فطبع الله على قلوبهم وأغلقها عن قبول الحق .

وبينت أن مظهرهم يخالف مخبرهم ، فإن رأيتهم أعجبتك أجسامهم وحسبت أنهم أهل نجدة وهمة وصدق ، ولكنهم فى الحقيقة جبناء يحسبون كل صيحة عليهم ، فيجزعون لها ، وبينت أنهم هم العدو وحذرت الرسول ﷺ منهم ، وبينت أنهم لا يهمهم ما يثار ضدهم من ربهم من النفاق ، فهم إذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﷺ لووا رءوسهم واستكبروا ، وذكرت أن الله - تعالى - لن يغفر لهم نفاقهم ، سواء استغفر لهم الرسول أو لم يستغفر لهم ، وبينت أنهم الذين يقولون :(لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا) وأنهم هم الذين يقولون : (لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ

الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) وخُتمت السورة بنهى المؤمنين عن أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ، وتحريضهم على أن ينفقوا فى سبيل الخير مما رزقهم الله ، وأن يعجلوا بذلك قبل أن تأتيهم آجالهم فيندموا على عدم العمل لأنفسهم قبل أن يجىء أجلهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(الْمُنَافِقُونَ) : هم الذين كانوا يظهرون الإيمان ويخفون الكفر منذ عهد رسول الله ﷺ .

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) : اتخذوها سترة لنفاقهم .

(فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) : فختم عليها بالكفر .

التفسير

١ - (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) :

سبب نزولها كما رواه البخارى بسنده عن زيد بن أرقم قال : كنت مع عمى فسمعت عبد الله بن أُبَىّ بن سلول يقول : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » وقال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فذكرت ذلك لعمى ، فذكره عمى لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبى وأصحابه ، فحلفوا ماقالوا ، فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبنى ، فأصابنى همٌّ لم يصبنى مثله فجلست فى بيتى فأنزل الله — عز وجل — (إِذَا جَآءَكَ الْمُنَٰفِقُونَ) إلى قوله (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ) إلى قوله : (لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) فأرسل إلىَّ رسول الله ﷺ ثم قال : « إن الله قد صدقك » أخرجه الترمذى وقال : هذا حديث صحيح .

وقد رواه الترمذى عن زيد بن أرقم برواية أُخرى ، ومما جاء فيها أنهم كانوا فى إحدى الغزوات ، واختلف الأنصار مع المنافقين لمنعهم الماء عن الأنصار ، فقال ابن أُبى ماقاله . وهذه الرواية طويلة ومفصلة ، وقد ذكرها القرطبى ، فمن شاء قراءتها فليرجع إلى القرطبى وسواه ، وحسب القارىء ما رواه البخارى ووافقه فيه الترمذى ، وهو ما تقدم ذكره .

ويؤخذ من ذلك أن النفاق فى الدين أو فى غيره مذموم ، وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « آيةُ المنافق ثلاث : إذا حَدَّث كذَب ، وإذا وعَدَ أخلَف ، وإذا اؤتُمِن خَان » وعن عبد الله بن عَمْرو أن النبى ﷺ قال : « أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خَصلَةٌ منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَهَا ، إذا ائتمن خان ، وإذا حدثَ كذبَ ، وإذا عاهدَ غدرَ ، وإذا خاصَم فَجَر » .

قال الحسن : إنما هذا القول عن النبى ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين ، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال ، شفقا أن تفضى بهم إلى النفاق ، وليس المعنى أن مَنْ بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق .

ونحن نقول : إن المقصود مما جاء فى هذين الحديثين ، أن لايتصفوا بهذه الصفات أو بعضها ، فإنها شيمة المنافقين وسجاياهم ، وهى لا تليق بالمؤمنين ولا بأخلاقهم الرفيعة ، فمن اتصف بهذه الخصال أو ببعضها فهو منافق من جهة الخلق لا من جهة العقيدة ولهذا قال ﷺ : « المؤمنُ إذا حدَّث صَدَق ، وإذا وعَد أنْجَز ، وإذا ائتُمِنَ وفَّى » .

ومعنى الآية : إذا جاءكَ المُنَافقون – أيها النبى – قالوا نعترف بأنك رسول الله ونشهد بذلك ، يريدون بشهادتهم هذه نفى النفاق عنهم ، ودفعاً للشبه التى تحوم حولهم ، والله يعلم إنك لرسول الله كما قالوا بألسنتهم ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى ادعاء إيمانهم ، وكاذبون فى أن شهادتهم بألسنة توافق ما انطوت عليه قلوبهم .

وقال الفراء : وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون بضمائرهم ، فالتكذيب راجع إلى الضمائر .

وهذا يدل على أن الإيمان تصديق بالقلب ، وعلى أن الكلام الحقيقى هو كلام القلب ، ومن قال شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب : اهـ .

وتلخيصاً لما قيل فيه نقول : إن قولهم نشهد إنك لرسول الله صادق من جهة الواقع وكاذب بالنسبة لما فى قلوبهم التى لاتشهد بذلك ، فهم بشهادتهم هذه يكذبون على قلوبهم التى لا تشهد بذلك لكفرهم .

٢ – (اتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

هذه الآية استئناف مبين لعادتهم فى نفى الشبه عن أنفسهم ، حتى لايؤاخذوا بقول أو عمل ضد المؤمنين ومن ذلك شهادتهم بأنهم لم يقولوا ما نسب إليهم ، فالشهادة منهم فى حكم اليمين ، وقد أفادت الآية أن المنافقين اتخذوا أيمانهم الكاذبة سترة ووقاية عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل أو السبى أو غير ذلك ، قال قتادة : كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم ، وقال الآلوسى : ويجوز أن يراد بأيمانهم شهادتهم السابقة ، والشهادة وأفعال العلم واليقين أجرتها العرب مجرى القسم ، وتلقتها بما يتلقى به القسم ، ويؤكد بها الكلام كما يؤكد به ، فلهذا يطلق عليها اليمين ، ونحن نقول : إن الكلام السابق أعم وأشمل ، فتدخل فيه الشهادة كسائر الأيمان ، فإنهم لم يتخذوا الشهادة الكاذبة وحدها سترة لهم ، بل جميع أيمانهم .

والمعنى الإجمالى للآية : اتخذ المنافقون أيمانهم الكاذبة ستيرة ووقاية لهم من العقاب الذى يقتضيه ما نسب إليهم ، فصدوا من أراد الدخول فى الإسلام أو فعل الطاعة مطلقاً ، أو أعرضوا[1] عن الإيمان الذى هو السبيل إلى الله ، إنهم قبح ما كانوا يعملون من النفاق وآثاره

٣ ــ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) :

ذلك الذى حدث من المنافقين ضد الإسلام والمسلمين ، حاصل بسبب أنهم آمنوا باللسان ثم ظهر كفرهم بالقلب وتبين بما علم من قولهم . إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن حمير ، وقولهم فى غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر ، وغير ذلك ، وأصروا على النفاق ، فختم الله على قلوبهم وأغلقها على الكفر ؛ فهم لا يفقهون عظمة الإسلام وآثاره الجليلة فى الدنيا والآخرة ، فلذلك نافقوا وضلوا عن سواء السبيل ؛ والله أعلم .

* (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(تُعْجِبُكَ) : تروقك وتحسن فى عينك .

(قَاتَلَهُمُ اللهُ) : لعنهم وطردهم من رحمته .

(أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

---

(١) لفظ « صد » يستعمل متعديا للمفعول كالمثال الأول ، أو لازما بمعنى أعرض كالمثال الثانى .

التفسير

٤ - (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ...) الآية :

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة أن المنافقين لكاذبون ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم حيث يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام ، وأنهم اتخذوا الحلف والقسم وقاية من قتل وسبى المسلمين لهم جزاء ما يظهر منهم ، وهم مع ذلك قد منعوا غيرهم من الدخول فى الإسلام ونفروهم منه وأنهم قد بلغت أفعالهم درجةً كبيرة من الإساءة يتعجب منها ، وأنهم انقلبوا ونكسوا على رءوسهم فكفروا بعد إيمان ، بعد ذلك أبان الله - سبحانه وتعالى - بعض صفاتهم الخلقية والخلقية فقال : (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ) أى : وإذا نظرت إلى هؤلاء المنافقين راقك منظرهم ، واستحسنت هيأتهم ، وأخذتك فصاحة ألسنتهم وبلاغة حديثهم ، وكان عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين فى المدينة رجلًا جسيما صبيحًا فصيحا ذلق اللسان وقوم من المنافقين فى مثل صفته ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ، ولهم جهارة المنظر وفصاحة الألسن فكان النبى - عليه الصلاة والسلام - ومن حضر يعجبون بأجسامهم ويسمعون إلى كلامهم .

وفى قوله تعالى : (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ) ما يدل على أنهم فى حقيقة أمرهم لا ينتفع بهم ، والشأن فيهم أنهم ببسطة أجسامهم وذرابة ألسنتهم أهل لأن يذودوا عن الإسلام ، ويدافعوا عنه فى ساحة الوغى وميادين القتال مع قدرتهم على بيان ما أنزل الله على رسوله تبليغا لغيرهم ودعوة لسواهم إلى الإسلام ، ولكنهم لما نافقوا كانوا كالخشب المسندة التى لا تؤدى وظيفتها وما تصلح له من عمل فى سقف أو جدار أو باب أو نافذة إلى غير ذلك من مظان الانتفاع ثم هى فوق ذلك عبء على سواها ؛ لأنها تلقى بثقلها على ما تستند إليه ، وهم بذلك لا يسمعون ولا يعقلون ، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام . (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) أى : يظنون كل صوت عال واقع عليهم وضارٌ بهم لجبنهم وهلعهم وللرعب والخوف الذى تمكن من قلوبهم فإذا نادى مناد بصوت فى العسكر إبان الحرب أو انفلتت دابة أو أنشد وطلب شىء قد ضاع من صاحبه ظنوا ذلك إيقاعًا ، وإنزالًا للنكال بهم ، وقيل : كانوا على

وجل وخوف من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويكشف نفاقهم ويبيح دماءهم وأموالهم لكفرهم ونفاقهم .

(هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) أى :هم وحدهم الذين تناهوا فى العداوة وبلغوا فيها مبلغًا كبيرًا فخذ حذرك منهم ، ولا تغتر ولا تنخدع بإسلام ظاهرهم ؛لأن أعدى الأعداء العدو المداجى (١) الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوىّ . (قَاتَلَهُمُ اللهُ) هذا دعاء عليهم بالطرد واللعن والإبعاد من رحمته- تعالى- وهو أيضًا تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بمثل ذلك شريطة ألّا يكون اللعن لكافر أو منافق بذاته خشية أن يكون ممن كتب الله لهم الإيمان وختم به حياتهم .

(أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) هذا تعجيب من جهلهم وسفاهتهم أى :كيف يُصرفون عن الحق مع معرفتهم له وتحققهم منه . وقال ابن عباس : (أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) أنى يكذبون .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ) : يطلب لكم من الله الصفح عما بدر منكم من العصيان وفحش القول .

(لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ) : أمالوها تكبرًا وإعراضًا أو حركوها استهزاءً .

---

(١) المداجى : هو الذى يدارى ويستر العداوة ، يكاشرك : يبتسم لك .

(يَصُدُّونَ) : يعرضون متكبرين ، أو يصرفون سواهم .

(الْفَاسِقِينَ) : الخارجين عن طاعة الله البالغين في الفسق غايته .

التفسير

٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ...) الآية :

لمّا أعلم رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول أنه ما دعا قومه إلى منع الإنفاق على فقراء المسلمين حتى ينصرفوا عن رسول الله ﷺ ويرتدوا إلى الكفر ، وأنه ما قال عند رجوعه إلى المدينة :ليخرجنّ الأعز منها الأذل ، وقصد بالأعز نفسه ومن على شاكلته من المنافقين . وعنى بالأذل رسول الله - عليه الصلاة والسلام - والمسلمين ، وقال الحاضرون : يارسول الله شيخنا وكبيرنا لاتصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وَهِمَ ، وأن رسول الله ﷺ قال لزيد بن أرقم استيثاقا من كلامه . (لَعلّكَ غضبت عليه) ؟ قال : لا . قال : (فلعله أخطأ سمعك ؟) قال : لا . قال : (فلعله شبه عليك) ؟ قال : لا ، فلما نزلت (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) لحق رسول الله ﷺ زيدًا من خلفه فعرك أُذنه وقال : (وفت أُذنك يا غلام إن الله صدقك وكذب المنافقين) . قيل لعبد الله بن أُبي بن سلول : لقد نزلت فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أومن فآمنت وأمرتموني أن أزكي مالي فزكيت فما بقي إلَّا أن أسجد لمحمد فنزلت : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ...) الآية .

والمعنى : وإذا قيل لهذا المنافق وأضرابه كالجد بن قيس، ومعتب بن قشير تعالوا وأقبلوا تائبين معتذرين عما بدر منكم من سيئ القول وسفيه الحديث - يطلب لكم رسول الله ﷺ من ربه - جلت قدرته - أن يصفح ويعفو عنكم أبوا وأمالوا رءوسهم إعراضًا واستكبارًا أو حركوها استهزاءً وسخرية . (وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ) أي :وأبصرت منهم أو علمت من أمرهم إعراضًا عن التوبة ومنعًا وإبعادا لسواهم عن ذلك ، وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : (وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) للإشعار بأنهم لم يكرههم غيرهم ولم يجبرهم سواهم على ما هم فيه من كفر ونفاق وصدّ وإعراض وإنما كان حالهم وشأنهم أنهم في أنفة وعناد واستكبار .

٦ - (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ . .) الآية ..

أى : ما دام هذا شأنهم وحالهم فإن استغفارك لهم وعدمه يستويان لأنهم لا يرغبون فيه ولا يلتفتون إليه ولا يعتدون به أو لأن الله لا يغفر لهم . (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) أى لأنه - سبحانه - لا يمنح هدايته وتوفيقه للقوم الخالين فى الغش الخارجين عن دائرة الطاعة المنهمكين فى أنواع القبائح المترددين فى حمأة النفاق والشرك وعدم الإيمان بالله لبلوغهم النهاية فى ذلك وتربعوا على ذروتها وركبوا سنامها . لذلك سبق فى علم الله أنهم يموتون فساقا ؛ لأنهم اختاروا الفسق

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(يَنفَضُّوا) : يتفرقوا ويتركوا الرسول .

(لَا يَفْقَهُونَ) : لايفهمون ولايفطنون .

التفسير

٧- (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ...) الآية :

أى : هؤلاء الذين أخبرك الله عنهم - يا محمد - أنه لن يغفر لهم ، ولن يصفح عنهم هم أولئك الآثمون فى قولهم المدعون أن الأرزاق بأيديهم ، وأن المنة لهم على فقراء المسلمين بالإنفاق عليهم وأنهم لو كفوا أيديهم عن إعطائهم جاعوا وتفرقوا عن رسول الله ﷺ وهم فى زعمهم هذا واهمون ، فما هذا هو شأن المسلمين ؛ إنهم بايعوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - على بذل النفس والنفيس بأن لهم الجنة فكيف بهم يتفرقون عنه لعرض من أعراض الدنيا ؟ فضلًا على أنه - سبحانه - رازقهم وقائم بأسبابهم جميعا ، فإن خزائن السموات والأرض ومفاتيح الرزق والمطر والنبات لله وحده لا شريك له فيها يعطيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء لامكره له ولا معقب لحكمه (ولَكِنَّ الْمُنافِقِينَ لَايَفْقَهُونَ) أى : ولكن هؤلاء لا يفهمون ولا يفطنون لذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان وما تطوع لهم أنفسهم من سخف القول وسقط الكلام .

٨- (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : يقول عبد الله بن أبي رأس النفاق ومن معه عند العودة من غزوة بنى المصطلق : والله لئن عدنا إلى المدينة - لايكون فيها مقام ولا مأوى لأولئك المهاجرين الذين ضممناهم وآويناهم وأطعمناهم فتطاولوا علينا ونالوا منا وهم فى غربة وفقر وليس لهم ما يمنعهم منا فلنخرجنهم من ديارنا فنحن الأعز وهم الأذل .

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) أى : ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين ، وعزهم كان بنصرته - تعالى - إياهم وإظهار دينهم على سائر الأديان .

(وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ولو علموا ذلك ما قالوا مقالتهم هذه . قال صاحب الكشاف فى قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) وهم الأخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين ، وعن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أن رجلًا قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيها (كبرا) فقال : ليس بتيه ولكنه عزة ، فإن هذا العز الذى لا ذل معه والغنى الذى لا فقر معه وتلا هذه الآية . قال بعض العارفين

فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ؛ فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامه عن أن يضعها لأمور عاجلة دنيوية ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها ، فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة ، والكبر مذموم والعزة محمودة .

فإن قيل : قال تعالى فى الآية الأولى : (لَا يَفْقَهُونَ) وفى الآية الأخرى : (لَا يَعْلَمُونَ) فما الحكمة فيه ؟ فنقول : ليعلم بالأول (لَا يَفْقَهُونَ) قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثانى (لَا يَعْلَمُونَ) كثرة حماقتهم وجهلهم[1] .

قيل : عند العودة من غزوة بنى المصطلق أراد عبد الله بن أبى بن سلول أن يدخل المدينة فاعترضه ابنه حباب وهو عبد الله بن[2] عبد الله بن أبى ـ وكان مخلصا فقال لوالده : وراءك لا تدخلها حتى تقول : رسول الله الأعز وأنا الأذل فلم يزل حبيسا فى يده حتى أمره رسول الله ﷺ بتخليته ، وروى أنه قال لوالده : لئن لم تُقِر لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك فقال : ويحك أفاعل أنت ؟ قال : نعم فلما رأى منه الجد قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال رسول الله ﷺ لابنه : (جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا) .

---

(١) عن الفخر الرازى بتصرف يسير .

(٢) غير رسول الله ﷺ اسمه إلى عبد الله وقال : (إن حبابا اسم شيطان) .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(لَا تُلْهِكُمْ) : لا يشغلكم الاهتمام بها .

(لَوْلَا) : هلا والمراد بها هنا التمني .

التفسير

١٠ ـ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ...) الآية :

حذر الله المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين فنهاهم بقوله ـ سبحانه ـ : (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ) أى : لا تشغلكم أموالكم بالسعى فى تدبير أمرها والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة أو الحمل على زيادة غلتها ، والتلذذ بها والاستمتاع بمنافعها . (وَلَآ أَوْلَادُكُمْ) وذلك بفرط السرور بهم ، وشدة الشفقة عليهم والقيام بما يصلحهم فى أمر معاشهم فى حياتكم وبعد مماتكم ، وقد عرفتم ـ أيها المؤمنون ـ قدر منفعة الأموال والأولاد فى جنب ما عند الله لا يشغلكم ذلك (عن ذِكْرِ اللهِ) وأداء ما طلبه رب العزة منكم ، ولتعلموا أن لكلٍّ حقًّا ، والمؤمن الكيس من يؤدى لكل ذى حق حقه دون حيف أو تفريط . (وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ)

أى : اللَّهْو بها عن ذكر الله (فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى : فهؤلاء هم الذين أوغلوا فى الضياع وتناهوا فى الخسران حتى كأنه لا خسران إلا فيهم وذلك لأنهم باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى .

١٠ ـ (وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ) :

بعد أن نهى الله المؤمنين عن التلهى والاغترار بالمال والولد أمرهم ـ جل شأنه ـ أن يتحلوا ويتزينوا بالطاعة وذلك بإنفاق بعض ما أفاء الله عليهم ورزقهم به فى سبيله ـ سبحانه ـ فكان الأمر ـ كما يقولون ـ التخلية قبل التحلية أى : التبرى والتطهر من الذنب أولا ثم فعل الطاعات بعد ذلك على نقاء قلب وطهارة سريرة ؛ ليكون ذلك أرجى فى القبول لدى الله ، أى : ابذلوا وأعطوا من أموالكم قبل أن يشارف أحدكم الموت ويرى دلائله وأماراته فيكون منه أن يتمنى أن يرجئ الله أجله ويؤخر حينَهُ إلى أمد قريب وأجل قصير كى يتصدق ، ويكون من الصالحين الأتقياء .

وعن ابن عباس : تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل .

١١ ـ (وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

ولكن أنَّى له ذلك وكيف يتحقق ما يتمناه والله العلى القدير يقول : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »[1] .

أى : ولن يمهل الله نفسًا حان أجلها وانتهى الزمان الذى حدد الله لها من أول العمر ـ إلى آخره .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٨

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : عالم ببواطن أموركم أو خبير بمعنى مخبر أى : يخبركم وينبئكم بما تعملونه ويجازيكم عليه .

قال الفخر الرازى : فقوله : (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ) تنبيه على الذكر قبل الموت ، (وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) تنبيه على الشكر لذلك ، وقوله تعالى : (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : لو رُدَّ إلى الدنيا ما زكى ولا حج ويكون ذلك كقوله : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » [١] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٢٨ .

سورة التغابن

هذه السورة الكريمة مدنية وآياتها ثمانى عشرة آية

وسميت بهذا الاسم لورود كلمة التغابن فى الآية التاسعة منها.

مناسبتها لما قبلها :

أن الله ــ سبحانه ــ ذكر فى السورة التى قبلها حال المنافقين، وكذبهم فى أيمانهم واستكبارهم على الله ورسوله، وتهديدهم المؤمنين بمنع الإنفاق عليهم وإخراجهم من المدينة وفى سورتنا هذه قسم الناس إلى مؤمن وكافر، وأيضًا فقد جاء فى سورة (الْمُنَافِقُون) قوله ــ تعالى ــ : (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ) وذكر هنا قوله ــ تعالى ــ : (إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) فجاءت هذه الآية الأخيرة كالتعليل للآية السابقة ؛ فالمناسبة بين السورتين والارتباط بينهما واضح وبين.

بعض مقاصد هذه السورة :

١ ــ أكدت أنه ــ جل شأنه ــ هو صاحب الملك، وأنه وحده المستحق للحمد.

٢ ــ وجاءت مبينة آثار عظمة الله وقدرته فى خلقه.

٣ ــ وقسمت الإنسان إلى مؤمن بربه وكافر به.

٤ ــ ولفتت نظر الكافرين إلى مصير أمثالهم من الأمم السابقة، وما حل بهم فى الدنيا من الوبال والدمار، وأنهم فى الآخرة سيلقون جزاء عملهم فى النار خالدين فيها. كل ذلك بسبب كفرهم وعنادهم.

٥ ــ وأمرت بطاعة الله ورسوله وبينت أن الرسول ليس عليه تبعة أعمالهم (فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ).

٦ ــ وحذرت من طاعة بعض الأزواج والأولاد لعداوتهم حيث يحولون بينهم وبين عمل الخير، وقد يدفعونهم إلى الشر والباطل مع بيان أن الصفح والعفو والغفران عنهم أولى وأفضل (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

٧ـ وأمرت السورة الكريمة بالتقوى جهد الطاقة ، والبذل فى سبيل الله إذ أنه وقاية من الشح والحرص : (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(يُسَبِّحُ) : يقدس وينزه .

(وَصَوَّرَكُمْ) : وخلقكم وبرأكم على صور وهيئات شتى يتميز بها كل واحد عن سواه .

(الْمَصِيرُ) : المرجع والمـآل .

(ذَاتِ الصُّدُورِ) : ما انطوى واستتر فيها .

التفســير

١ ـ (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : ينزه اللهَ ـ تعالى ـ ويقدسه كل مخلوقاته عمَّا لا يليق به ، من كل نقص لا يتفق

وجلاله تنزيهاً مستمرًا يتجدد كلما نظروا فى بديع صنعه وعظيم فعله ،وله لا لغيره ـ جلت قدرته ـ الملك قديماً بلا ابتداء وأبدًا بلا انتهاء فهو ـ سبحانه ـ المبدئ لكل شىء القائم به المهيمن عليه ، أما ملك غيره فهو حادث وطارئ ومنتقل لا يدوم وهو فى الحقيقة عطاءُ الله وفضله وتسليط منه واستخلاف .

وهو ـ تعالت عظمته ـ وحده المستحق للحمد ؛لأنه هو المعطى لأصول النعم وفروعها ، أما حمد غيره ـ تبارك ربنا وتعالى ـ فلجريان إنعامه على يديه ، وهو ـ سبحانه ـ قدير مقتدر على كل شىء دق أو عظم فليس بعض الأمور أيسر عليه من غيره ؛ فالكل فى قبضته ووفق إرادته لا يعجزه أمر عن أمر ولا يشغله شأن عن شأن .

والتسبيح والتقديس يكون بهيآت المخلوقات وأشكالها البديعة التى تدل على كمال تصويره وعظيم خلقه ـ سبحانه ـ أو بلسانهم ونطقهم : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[1] .

٢ ـ (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

هذا بيان لبعض آثار قدرته الشاملة الغامرة ، أى : هو الذى أوجدكم كما شاء على فطرة سليمة وطريقة سوية مستقيمة يشير إلى ذلك قوله ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) .

(فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ) أى : فبعضكم مختار للكفر بالله وبنعمه ومقبل على الإلحاد راض به وذلك يكون منه انتقاضا وخروجا وتمردا على الفطرة التى فطره الله عليها ، وبعضكم مختار للإيمان به ـ سبحانه ـ ينشرح به صدره ويطمئن قلبه وهذا من المؤمن استجابة لفطرة الله وخلقته وإذعانا لمشيئته .

وفى الحق إن كلاً من كفر الكافر وإيمان المؤمن بإرادته ـ جل شأنه ـ فلا مكره له إذ هو الخالق والموجد لكل شىء ، قال تعالى : « ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) سورة الإسراء:من الآية ٤٤

فَاعْبُدُوهُ »[1] ولكونه – جلت قدرته – عليمًا بما خلق فقد كتب على كلّ ما تختار ، وتميل إليه نفسه إذ هو أحكم الحاكمين «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»[2] فلا يكره أحدًا على أمر ويعاقبه عليه . (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أى : وهو – سبحانه – بأعمال خلقه عليم علمًا تامًّا محيطًا لا يعتريه قصور ولا تشوبه شائبة من نقص ؛ بل يجازى كلاًّ بما يناسب ما قدّم فى دنياه إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، وقدم الكافر على المؤمن لكثرة الكافرين وقلة المؤمنين قال تعالى : « وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ »[3]

٣ – (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) :

أى : أوجد السموات والأرض جميعا بما فيهن ما ظهر لنا وبدا وما بطن وخفى ، خلقها بالحكمة العظيمة والغرض الصحيح المتضمن للمصالح الدينية والدنيوية .

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) أى : برأكم وأخرجكم فى أحسن تقويم وأجمل تركيب وشكلكم على صور شتى يتميز بها كل مخلوق عمن سواه ، وأودع فيكم القوى والقدر والمشاعر الظاهرة والباطنة التى تتعلق وتناط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة ، وزينكم بخلال وصفات من جميل مصنوعاته ، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته ، وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته فى هذه النشأة ،[وقد ذكر بعض المحققين : أن الإنسان جامع بين العالم العلوى والسفلى وذلك لروحه التى هى من عالم المجردات ، وبدنه الذى هو من عالم الماديات] .

وخص بعضهم الصورة بالشكل المدرك بالعين فكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن ، ولكنَّ الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب . .

فلانحطاط بعضها ونزوله عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيناً ، وإضافتها إلى الموفى عليها

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٠٢ .

(٢) سورة فصلت : من الآية ٤٦ .

(٣) سورة الأنعام : من الآية ١١٦ .

والأفضل منها قد لا تستملح ، وإلا فهى داخلة فى حيز الحسن غير خارجة عن حده ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ، ثم ترى أملح منها وأعلى فى مراتب الحسن ، فينبو عن الأولى طرفك وبصرك وتستثقل النظر إليها بعد افتنانك بها وتهالكك عليها .

قالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان[1] :

قال القرطبى : فإن قيل : كيف أحسن صورهم ؟ قيل له : جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورة بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب .

(وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) أى : إليه وحده لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكاً يكون مرجعكم ومآلكم فاصرفوا ووجهوا ما حباكم ربكم من النعم وآثركم به إلى ما خلقت تلك النعم له كما أمركم بذلك ولا تتخذوها عوناً على معصية الله حتى لا تتعرضوا لعذابه فى الآخرة ، وحتى لا يزيل الله حسنكم ويمحو جمال صوركم .

٤ ـ (يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : يعلم ـ سبحانه ـ كل ما فى السموات والأرض من الأمور الكلية والجزئية الجلية الواضحة والخفية المكنونة يعلمها ـ عزت قدرته ـ علماً تاماً محيطاً فى كل أطوارها وأحوالها ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ولا فى غيرهما مما استأثر الله بعلمه ولم يُطلع عليه أحدًا من خلقه ، كما يعلم ـ تعالى ـ ما يشتمل عليه كونه مما نراه من أجرام ومجرات وغيرها وما بداخل الإنسان نفسه وقد عجز عن إدراك كنهه والوقوف على حقيقته ، ويعلم ما يسر به الإنسان إلى غيره ويناجيه به « مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا »[2] ويعلم ويحيط

---

(١) الآلوسى بتصرف يسير .

(٢) سورة المجادلة من الآية ٧ .

بما يعلنه أى إنسان قبل أن يفضى به ويعلنه كما علمه بعد أن أبانه وأظهره (وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : بما يتردد وتنطوى عليه الصدور وما تتحدث به النفوس وما هو مضمر ومخزون فى طيات القلوب .

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(وَبَالَ) : عقوبة ونكال .

التفسير

٥ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

الخطاب هنا لأهل مكة والاستفهام فى قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) للتقرير أى : أنه - ولا شك - قد أتاكم خبر وشأن من كان قبلكم من الأمم التى كذبت برسلها كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فكانت عاقبة أمرهم ونهاية حالهم أنهم نالوا ضرراً ثقيلاً وخيماً من غير مهلة ولا إرجاء جزاء ما أحدثوه من أمر هائل وجناية عظيمة ، وهو كفرهم الذى أصروا عليه ، وكان عقابهم فى الدنيا الصيحة والرجفة والخسف والإغراق وغير ذلك قال تعالى : «فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»[1]

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٠

ولهم فى الآخرة مع هذا الخزى والنكال عذاب عظيم الإيلام لهم شديد الوقع عليهم .

٦ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ...) إلخ .

أى : هذا العذاب والتنكيل الذى ذاقوه ونالوه فى الدنيا وما سيلقونه وينزل بهم فى الآخرة بسبب أنه كانت تأتيهم رسلنا إليهم بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات (فَقَالُوٓا) . مستهزئين بأنبيائهم ساخرين منهم أو متعجبين منكرين : (أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا) أى : أيرشدنا ويدلنا بشر من جنسنا ، أنكروا أن يكون الرسول بشرًا ولم ينكروا أن يكون الإله حجرًا (فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا) أى : فأسرعوا وبادروا إلى الكفر دون تدبر ولا روية وأعرضوا وأوغلوا فى البعد عن التأمل والتفكر فيما جاءهم به الرسل من الآيات البينات (وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ)أى : أظهر الله غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم حيث لم يلجئهم إلى ذلك ولم يضطرهم إليه مع قدرته ـ سبحانه ـ على ذلك بل أهلكهم وقطع دابرهم واستأصل شأفتهم (وَاللَّهُ غَنِيٌّ) أزلاً وأبدًا غير محتاج إلى أحد من خلقه فضلا عن إيمانهم وطاعتهم فهو ـ سبحانه ـ قائم بذاته وقائم بأسباب مخلوقاته وهو القاهر فوق عباده . (حميد) أى : يحمده ويثنى عليه كل مخلوق بلسان حاله أو مقاله (فنى كل شئ له آية تدل على أنَّهُ الواحد) أو هو ـ سبحانه ـ حقيق بالحمد مستحق له وإن لم يحمده ـ جل شأنه ـ حامد .

وفى تذييل الآية الكريمة ، بهذه الفقرة ما يشير إلى أنه ـ تعالى ـ لم يطرأ عليه الاستغناء عن خلقه بل هو ـ جل شأنه ـ قديم الغنى أبدى الاستغناء عنهم حيث كان ، ولم يكن شيء معه .

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠))

المفـــردات :

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : الزعم ادعاء العلم أى : ادعوا ذلك كذبا .

(يَوْمُ التَّغَابُنِ) : التغابن تفاعل من الغبن وهو النقص وفوت الحظ ، وقال الراغب : الغبن أن يبخسك صاحبك فى معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء . وسمى يوم القيامة بذلك ؛ لأن الكافر غبن نفسه وظلمها بترك الإيمان ، أما المؤمن فقد غبن بتقصيره فى الطاعات والإتقان .

التفسـير

٧ ـ (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

أى : ادّعى هؤلاء الكفار دون دليل ، وقالوا من غير حجة ولا برهان أنهم لن يبعثوا من قبورهم ولن تكون لهم حياة أخرى بعد موتهم ، وقد حكى القرآن الكريم قولهم فقال تعالى : « وَقَالُوٓا إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] فقولهم باطل وإدعاؤهم كذب وافتراء وقد جاء فى الأثر : (زعموا مطية الكذب) وقال شريح : لكل شىء كنية وكنية الكذب زعموا . و (بَلَى) حرف جواب إثبات لما بعد (لَنْ) أى : ليس الأمر كما زعمتم وأقسم بربى لتخرجن من قبوركم أحياء ولتنشرن . ثم بعد البعث والنشور ينبئكم الله ويخبركم بما كنتم تعملون وذلك الإخبار إما عن طريق الملائكة من الله أو بما ترونه مسطورًا فى كتبكم التى تأخذونها بشمائلكم ومن وراء ظهوركم ، وتقولون عند ذلك : « يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »[2] ولتحاسبن وتجزون بأعمالكم (وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) أى : وأمر ذلك الذى يحدث يوم القيامة من البعث والجزاء هين على الله ؛ لتحقق قدرته - سبحانه - على ذلك ؛ فلا يصرفه عنه صارف ولا يحول دونه حائل .

٨ - (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

بعد أن تبين لكم واستقر فى نفوسكم ووعته قلوبكم - وإن كنتم تجحدونه عنادًا واستكبارا - أن ما أتى به الرسول ﷺ وما يخبر به صدق وحق لامرية فيه . فأولى بكم وأجدر أن تسارعوا وتبادروا بالإيمان بالله - سبحانه - ربا وبمحمد - عليه الصلاة والسلام - رسولا ، وبالقرآن الذى أنزلناه كتاباً هادياً ومرشدًا وسراجاً منيرًا . وفى تسمية القرآن نورًا ما يومىء ويوحى بأن الكافر به قد عمى قلبه ، وختم الله على سمعه وبصره وصار كالأنعام بل هو أضل ، وسمى بذلك أيضاً ؛ لأنه بإعجازه بيِّن بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى وهو - جلت قدرته - بالذى تعلمونه من بواطن أموركم مهما بالغتم فى إخفائه وأعملتم الحيل فى ستره هو - سبحانه - عليم به علماً كاملا تاماً لا تخفى عليه خافية ، وقيل : خبير بمعنى مخبر أى : يخبركم وينبئكم بما حدث منكم فى الدنيا ويحاسبكم عليه وعلى هذا يكون كالتأكيد لقوله تعالى فى الآية السابقة : (ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ) .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٢٩

(٢) سورة الكهف : من الآية ٤٩

٩ - (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ...) الآية .

المراد بيوم الجمع يوم القيامة ، وهوظرف والعامل فيه قوله (لَتُنَبَّؤُنَّ) أي : والله لتنبؤن وتخبرن بما عملتم يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين ؛ ليحاسب كلاً على ما قدم من خير أو شر (ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) أي : يوم القيامة هو يوم التغابن على الحقيقة ؛ لأنه لايستدرك أبدا أما تغابن الدنيا فهو زائل وإن جل وعظم ، وتغابن السعداء يوم القيامة على الزيادة في الإحسان وتغابن الكفار يظهر بترك الإيمان قال النبي ﷺ : « ما من أحد يموت إلا ندم ، قالوا : وما ندامته يارسول الله ؟ قال : إن كان محسناً ندم أن لايكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع » رواه الترمذي عن أبي هريرة[1] .

وقيل التغابن ليس على الحقيقة ؛ أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنهم قالوا يوم غبن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار فالتفاعل فيه ليس على ظاهره كما في التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد اختير للمبالغة وهو أمر واضح إذليس هناك غبن ولا بخس ولا نقص . من جانب أهل النار لأهل الجنة ، وقال بعضهم : يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداءِ منازل الأشقياءِ لوكانوا سعداءَ وبالعكس ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ (ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساءَ ليزداد شكرًا وما من عبد يدخل النَّار إلا أُرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة) وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة إذا غلب ونقص بعضهم بعضاً ، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم لايغلبون ولايغبنون السعداء بنزولهم منازل الأشقياء في النار (وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . هذا وعد من الله لمن يؤمن به - سبحانه - وتنطلق جوارحهم بالعمل الصالح والكلم الطيب بأن الله يغفر ذنوبهم ويمحو زلاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار مخلدين

---

(١) أخرجه الترمذي المجلد الرابع ص ٢٩ ، ٣٠ أبواب الزهد عن أبي هريرة وقال : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه .

وباقينَ فيها أبدًا لا ينفكون عنها ولا يزايلونها ، وأبان لهم ــ وقوله الحق ــ بأن ماسيلقونه فى الآخرة من النعيم الدائم فى الجنة هو الفوز والظفر العظيم والغُنْم العميم الذى لافوز ولامغنم وراءه إذ فيه النجاة من النار وهى أعظم المهلكات .

هذا مع الظفر بالجنة وهى أجل الرغبات ومنتهى السعادات قال تعالى : « فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ »[1] .

وهذا الجزء من الآية الكريمة يفتح باب الرجاء أمام الكافرين حيث يبين لهم أن رحمة الله عظيمة رحيبة تتسع وتشمل كل من يقبل عليه ــ سبحانه ــ مؤمناً به وقد قرن إيمانه وبرهن عليه بالعمل الطيب والفعل الحسن .

١٠ ــ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِأَيَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

بعد أن بين الله جزاء المؤمنين الصالحين أتبعه بمآل الكافرين المكذبين ؛ ليكون الناس على بصيرة من أمرهم ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، وحتى لاتكون لهم على الله حُجة ، أى : والذين جحدوا وأنكروا وجود الله المتفرد بالوحدانية والذى ليس كمثله شىءٌ ، وكذبوا رسوله فيما جاء به من عند ربه من آيات واضحات ومعجزات باهرات أولئك الذين تلازمهم النّار وتصاحبهم لايجدون عنها فكاكا ولا منها مخرجاً ولا مخلصاً .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : وقبح وساء المرجع : والمآل مصيرهم ونهاية أمرهم . وأى : مرجع أشد سوءا من أن تكون الجحيم هى المأوى ؟

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ١٨٥

(مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾)

التفسير

١١ - (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

قيل فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : إن الكفار قالوا : لوكان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله من مصائب الدنيا ، فبين الله - تعالى - أَنَّ ما أَصاب من مصيبة فى نفس أومال أو قول أو فعل يقتضى همًّا أو يوجب عقاباً عاجلا أو آجلا فبعلم الله وقضائه .

(وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) أى : ومن يصدق ويعلم أنه لا مصيبة إلاَّ بإذن الله وإرادته يثبت قلبه على الإيمان ويقول عند نزول المصيبة : (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وقال ابن عباس : هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين ؛ ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأَه لم يكن ليصيبه ، وقال الكلبى : هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . (وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) أى :فهو - سبحانه- بكل شىءٍ عظم وظهر أو خفى ودق محيط وعالم علماً تاماً فلا يخفى عليه تسليم من أذعن ورضى وانقاد لأَمره - تعالى - ولا سخط ولا كراهة من غضب وتمرد على قضائه وقدره .

١٢ - (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

(وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) أى :انقادوا لما طلبه ربكم منكم فأتمروا بأَمره وانتهوا عما نهاكم عنه وأطيعوا رسوله ﷺ فخذوا ما آتاكم به من عند الله واتقوا ماخوفكم

منه واحذروا أن تخالفوا عن أمره أو أن تتركوا سبيله ونهجه (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أي : فإن أعرضتم وأدبرتم وتركتم الإصغاء له والائتمار بأمره فليس هذا بضار الرسول شيئاً ، فلا تناله تبعة إعراضكم ، ولا ينقص ذلك من منزلته وحزائه لدى ربه ، إذ هو غير مكلف بهدايتكم ولا هو مسيطر عليكم ولا يملك إسعادكم ، وإنما ضرر التولى والإعراض عائد وراجع عليكم فليس على رسولنا الذى اصطفيناه واخترناه إلا أن يرشدكم ويدلكم على الصراط المستقيم وذلك بأن يبلغكم رسالتنا تبليغاً بيناً واضحاً ولا يكتم منها شيئاً وهو ﷺ قد بلّغ الرسالة وأدى الأمانة فجزاه الله عن أمته خيرا .

١٣ ـ (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) :

(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) أي : الله وحده هو الإله الذى لا معبود بحق سواه وكل ما خلاه باطل ومعبوداتكم كلها مخلوقة ومربوبة له ـ سبحانه ـ ولا تضر ولا تنفع : وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أي : وعلى الله وحده دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكاً يعتمد ويلجئ المؤمنون في جميع شئونهم لأنه ـ تعالى ـ هو وحده القادر على عونهم والقيوم بأمورهم كلها ، وليس لغيره من أربابكم وآلهتكم المزعومة ولا لسواها شيء من ذلك .

قال الصاوى : وهو تحريض وحث للنبي ﷺ على التوكل على الله والالتجاء إليه ، وفيه تعليم للأمة ذلك بأن يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده .

وفى هذه الآية إيماء إلى أن من لم يتوكل على الله ليس بمؤمن .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(فَاحْذَرُوهُمْ) : فكونوا منهم على حذر ولا تطيعوهم .

(تَعْفُوا) : تتركوا العقوبة .

(تَصْفَحُوا) : تعرضوا عن التعيير والتأْنيب .

(تَغْفِرُوا) : تستروا ذنوبهم وإساءاتهم .

(فِتْنَةٌ) : ابتلاءٌ واختبار .

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) : ومن يكن فى وقاية وحفظ من البخل والحرص .

(إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) : إن تبذلوا أَموالكم ابتغاءَ وجه الله .

(شَكُورٌ) : عظيم الفضل والإحسان بإعطاءِ الجزيل على القليل .

التفسير

١٤ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أخرج الترمذى والحاكم وصححاه وابن جرير عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعُوهم فلما أتوا رسول الله-عليه الصلاة والسلام - فرأوا الناس قد فقهوا فى دينهم همُّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله الآية وفى رواية أخرى عنه أنه قال : « كان الرجل يريد الهجرة فيحبسه امرأته وولده فيقول : أما والله لئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن فجمع الله - عز وجل - بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله - تعالى - الآية .

وهذا وإن كان سبب نزول تلك الآية فالعبرة بعموم لفظها لابخصوص سببها ؛ فتشمل كل زوج وولد يلحق الضرر بزوجه أو بوالده ، هذا ولا نزال نسمع ونرى من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ، ويجلبن عليهم الشر والضرر ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى ، وكما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدوًا كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوًا بهذا المعنى بعينه وقيل : إن عداوتهم من حيث أنهم قد تحملهم مودتهم والحرص عليهم على السعى فى اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة الأزواج والأولاد ويشير إلى ذلك قوله ﷺ : (يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك) (فَٱحْذَرُوهُمْ) أى : كونُوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرورهم (وَإِن تَعْفُوا) عن ذنوبهم وتتجاوزوا عن سيئاتهم التى تقبل العفو بأن تكون متصلة ومتعلقة بأمور الدنيا كإضاعة المال ونحوه ، أو مرتبطة بأمور الدين كالعقوق وسوء العشرة وترك مأمور به أو فعل منهى عنه ولكن أعقبتها التوبة . والعفو يكون بترك العقوبة (وَتَصْفَحُوا) أى :تعرضوا عن هذه الخطايا بترك التعيير بها والتأنيب والتثريب عليها (وَتَغْفِرُوا) أى :تستروها بإخفائها وتغطيتها تمهيدًا لنسيانها حتى لا يؤدى التذكير بها إلى العودة إليها والتمادى فيها . (فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ) المراد أنه يعاملكم بمثل ما عاملتم ويتفضل عليكم فإنه - عز وجل - عظيم الغفران واسع الرحمة ، واستدل بعضهم بهذه الآية على أنه لاينبغى للرجل أن يحقد على زوجه وولده إذا ألحقوا به ضررًا أو جنوْا معه جناية وأن لا يدعو عليهم .

١٥ - (إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) :

(إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) : أى : ما أموالكم ولاأولادكم إلا بلاء واختبار لكم قد يحملكم ويدفعكم إلى كسب المحرم ومنع حق الله ، ويوقعكم فى الإثم والشدائد والمصائب الدنيوية فلا تطيعوهم فى معصية الله .

وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم اللهم اعصمنى من الفتنة فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ولكن ليقل : اللهم إنى أعوذ بك من مضلات الفتن ، وقال الحسن فى قوله تعالى : (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ) أدخل من للتبعيض ؛لأن كلهم ليسوا أعداء ولم يذكر من فى قوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) ؛ لأنهما لايخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

روى الترمذى وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال :(رأيت النبى ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين - رضى الله عنهما - وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال :«صدق الله (إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما»ثم أخذ فى خطبته) .

وقدمت الأموال فى الآية الكريمة ؛ لأنها أعظم فتنة قال تعالى : « كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ »[1]. وأخرج الإمام أحمد وغيره وصححه الحاكم عن كعب بن فياض قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتى المال) (وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) أى :وعند الله فى الدنيا والآخرة ثواب جزيل وعطاء عظيم لمن آثر محبة الله

---

(١) الآيتان:٦ ، ٧ من سورة العلق .

ومرضاته على محبة الأموال والأولاد ، وقدم طاعة الله على السعى والكد فيما يعود على أولاده بالجاه والمال بوصفه يخرج به عن مرضاة ربهم .

وقيل :المراد من الأجر العظيم من الجنة فهى نهاية الأرب وغاية الطلب ولا أجر أعظم منها وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :(إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدًا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا : يارب وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا) .

١٦ ـ (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) أى : ابذلوا فى تقواه ـ جل شأنه ـ جهدكم وطاقتكم ولاتدخروا منها شيئاً ؛ فإن ما عند الله خير وأبقى .

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) اشتد على القوم العمل فقامُوا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله ـ تخفيفاً على المسلمين ـ (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فنسخت الآية الأولى . وعن مجاهد المراد أن يطاع ـ سبحانه ـ فلا يعصى ، قال الآلوسى ، والكثير على أن هذا هو المراد فى الآية .

(وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ) أى :اسمعوا كلام الله ورسوله سماع تدبر وتفكر وأطيعوا أوامره ـ عز وجل ـ واجتنبوا نواهيه وابذلوا فى وجوه البر التى أمركم ـ سبحانه أن تنفقوا فيها إنفاقا خالصاً لوجهه ـ تعالى ـ دون رياء أو سمعة ، وافعلوا كل عمل طيب يكن ذلك خيراً لكم وأنفع بكم (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى : والذين جعلهم الله فى وقاية وحفظ من بخل النفس وحرصها فأولئك هم فى فوز كبير وفلاح عظيم حتى كأنهم وحدهم هم الذين ظفروا بذلك ونالوه .

١٧ - (إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ) :

(إن تُقْرِضُوا الله قَرْضاً حَسَناً ...) أى : إن تعطوا أموالكم وتبذلوها ابتغاء وجه الله طيبة بها نفوسكم فإنها تكون محفوظة لديه - سبحانه - ينميها لكم ويربيها ، وتكون مخلوفة عليكم لايذهب ثوابها ولا يضيع جزاؤها فهى لدى أغنى الأغنياء وأكرم الكرماء وهو الوهاب المعطى وبيده خزائن السموات والأرض يجعل لكم بالواحد عشراً إلى سبعمائة ضعف أو أكثر قال تعالى : «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ»[1] وهو - سبحانه - مع ذلك يتفضل عليكم - جزاء إنفاقكم - بغفران ما فرط وبدر منكم من بعض الذنوب (وَاللَّهُ شَكُورٌ) أى : وهو - تعالت عظمته - وافر الفضل والعطاء لعباده الذين امتثلوا أمره وذلك بأن يعطيهم الجزيل العظيم على على النزر القليل والعمل اليسير ، (حَلِيمٌ) : عظيم الحلم يمهل عباده فلا يعاجلهم بالعقوبة على ما اقترفوه من آثام ويمد لهم كى يتوبوا ويرجعوا إليه وذلك رحمة بهم .

١٨ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : أنه - سبحانه - يعلم ما غاب وأخفته القلوب فى أثنائها كعلمه - جل شأنه - ما هو ظاهر وحاضر للعيان (العَزِيزُ) الذى لا يماثله ولايناظره أحد ولا يُقْهر ولا يُغلب بل هو القاهر فوق عباده (الحَكِيمُ) الذى يُجرى كل أمر على مقتضى حكمته وتدبيره وإرادته .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٦١ .

سورة الطلاق

مدنية وآياتها اثنتا عشرة

وتسمى سورة النساء القُصْرى . كذا سماها ابن مسعود كما أخرجه البخارى وغيره

مناسبتها لما قبلها :

لَمَّا ذكر ــ سبحانه ــ فى السورة السابقة « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » ، وكانت العداوة قد تفضى إلى الطلاق ذكر ــ جل شأنه ــ هذا الطلاق ، وأرشد إلى الانفصال منهن على الوجه الجميل ببيان الطلاق السنى وكيف يكون ؟ وذكر أيضًا مايتعلق بالأولا د فى الجملة .

اهم اغراض السورة :

دعت الأزواج إذا تعذر استمرار العلاقة الزوجية إلى سلوك أفضل الطرق فى الطلاق وذلك بأن يكون عند استقبالهن العدة ، وهو الطلاق السنى الذى يكون فى طهر لاجماع فيه كما دعت إلى ضبط العدة بدءًا ونهاية ، وحذرت من إخراج المطلقات من بيوتهن أو أن يخرجن بدون سبب يدعو إلى ذلك ، وتوعدت من يتعدّى شرائع الله ويستهين بها : (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) .

ثم تناولت الأحكام التى تترتب على قرب انتهاء العدة من إمساكهن بمعروف أو مفارقتهن بمعروف مع إشهاد ذوى عدل منكم شهادة خالصة لوجه الله فى حالتى الفرقة والإمساك : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ...) الآية .

وبينت العدة لمن لم تحض لصغرها أو انقطع الحيض عنها لكبرها . كما بينت العدة لأُولَات الأحمال : (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ ...) الآية .

وأبرزت الأمر بسكنى المطلقات والنهى عن الإضرار بهن ، وأكدت على وجوب نفقتهن حال الحمل ، ووجوب أجر الرضاع مع المسامحة والرفق والإحسان : (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ...) الآية .

وجهت النظر إلى أن تكون النفقة على قدر الطاقة سعة وضيقًا مع الرجاء فى فضل الله - « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ... » الآية .

وفى خلال تلك الأحكام التشريعية كما هى سنة القرآن دعت المؤمنين إلى تقوى الله ، وذكرتهم بإرسال رسول يتلو عليهم آياته ليدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وحذرتهم من تعدى حدود الله ، والتهاون فيها ، وأشارت أن لأولئك عقابا شديدًا ، وعذابًا نكرًا .

وختمت السورة بضرب الأمثلة بالأمم الباغية التى عتت عن أمر ربها فذاقت الوبال ، والدمار ، وببيان قدرة الله العظيمة التى تجلت فى خلق سَبْع سموات طِباق ومن الأرض مثلهن . وكلها براهين وحدانيته – جل وعلا – تبارك الله أحسن الخالقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾)

المفـــردات :

(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ) : أى : إذا أردتم تطليقهن .

(لِعِدَّتِهِنَّ) : أى : لاستقبالهن العدة بالابتداء فيها .

(لَاتُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ) : أى : من مساكنهن إلى أن تنقضى العدة .

(وَلَايَخْرُجْنَ) : بإذن أو بدونه فى مدة العدة .

(إِلَّاأَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) : وتشمل الفاحشة المبينة كما قيل : النشوز والبذاء على الزوج والأحماء ، كما تشمل الزنا والسرقة وغيرهما .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) : أى : محارمه وشرائعه التى عينها لعباده .

التفسير

١ ـ (يَٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَاتُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَاتَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) :

نزلت حينما طلق ابن عمر امرأته حائضًا على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر رسول الله ﷺ قال : ابن عمر طلق امرأته وهى حائض فقال رسول الله ﷺ : ليراجعها وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » وقرأ الآية .

وتخصيص النداء به ﷺ فى الآية مع أن الخطاب بالحكم عام ؛ لكونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إمام الأمة ونظير ذلك ما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كذا وكذا إظهارًا لتقدمه عليهم واعتبارًا لترؤسه فيهم ، وأنه المتكلم عنهم ، يصدرون عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه لعلو قدره ، وجلالة منصبه .

وقيل : إنه بعد أن خاطبه الله ـ سبحانه ـ بالنداء ، صرف عنه الخطاب لأمته تكريمًا له ﷺ لما فى الطلاق من الكراهة ، والكلام على هذا على تقدير القول ، أى : قل لأمتك :(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) .

فمعنى الآية : إذا أردتم تطليق النساء[1] وعزمتم عليه بتنزيل المشارف للأمر منزلة الشارع فيه (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) أى : مستقبلات لها بالدخول فيها ، فإن المرأة إذا طلقت فى طهر ، فإنه يعقبه القرء الأول من أقراء عِدتها على رأى من يرى أن العدة بالحيض[2] ، وهى القروء المذكورة فى سورة البقرة[3] وبذلك تكون قد طلقت مستقبلة لعدتها .

---

(١) المراد بالنساء المدخول بهن من المعتدات بالحيض على ما فى الكشاف وغيره .

(٢) كأبى حنيفة وكثير من علماء السلف والخلف ، وقال ابن القيم : لم يستعمل فى كلام الشارع إلا للحيض .

(٣) من الآية ٢٢٨

وفى الكشاف أن المراد من الآية أن يطلقن فى طهر لم يجامَعْن فيه حتى لا تطول العدة عليهن إذا حصل لهن حمل ، وهذا هو أحسن الطلاق ، وأدخله فى باب السنة حتى عرف بالطلاق السنى .

أما تطليقهن فى الحيض فهو الطلاق البدعى ، وهو محرم ، والآية تنهى عنه لما فيه من الإضرار بالمرأة لتطويل العدة عليها إذ أن الحيض الذى طلقت فيه لا يحتسب باتفاق ، وتفصيل تلك الأحكام تكفل بها علم الفقه .

(وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)[١] أى :اضبطوها بحفظ الوقت الذى جرى فيه الطلاق ، وأكملوها ثلاثة قروء كوامل .

(وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ) أى :خافوه وابتعدوا عن الإضرار بهن بتطويل العدة عليهن حين تختارون تطليقهن فى حيض أو فى طهر وقع فيه وطء .

وفى وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للأمر ومبالغة فى وجوب الاتقاء له ــ تعالى .

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ) من مساكنهن عند الفراق حتى تنقضى العدة ، وإضافة البيوت إليهن مع أنها للأزواج لتأكيد النهى عن إخراجهن ولبيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها مملوكة لهن وعدم العطف فى قوله : (لَا تُخْرِجُوهُنَّ) للإيذان باستقلال النهى عن الإخراج اعتناءً به ، والنهى عنه يتناول كل أسبابه من إكراه لهن على ترك المساكن أو لحاجة الأزواج إلى المساكن أو لغير ذلك (وَلَا يَخْرُجْنَ) من تلك المساكن التى كن فيها بإذن أو بدونه ، فكأنه قيل : لا تخرجوهن ولا تأذنوا لهن فى الخروج ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك[٢] ، وقيل : المعنى ولا يخرجن باستبدادهن أما إذا اتفقا عليه جاز إذ الحق لا يعدوهما .

---

(١) المراد بقوله : « وأحصوا » الأزواج أو الزوجات أو المسلمون ، والصحيح أنهم الأزواج ؛ لأن الضمائر كلها لهم .

(٢) هذا فى الرجعة ؛ لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأى فى ارتجاعها ما دامت فى عدتها فكانت تحت تصرف الزوج فى كل وقت ، وأما البائن فليس لها شىء من ذلك فيجوز لها أن تخرج إذا دعتها إلى ذلك ضرورة .

(إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) : استثناء من لا تخرجوهن أى :إلَّا أن يأتين بأمر ظاهر القبح وهو ما يوجب حدًّا كالزنى والسرقة ونحوهما فيُخرجن لإقامة الحد ، وكذلك إذا طالت ألسنتهن وتكلمن بالكلام الفاحش القبيح على أزواجهن أو أحمائهن،وأيد بما ورد عن أبي إلَّا أن يفحشن عليكم بفتح الياء وضم الحاء كما أخرجهجماعة من طرق عن ابن عباس ، وعن ابن عمر والسُّدى : الفاحشة خروجها من بيتها فى العدة .

ويرى الآلوسى أن المعنى : لا يطلق لهن فى الخروج إلَّا فى الخروج الذى هو فاحشة ومن المعلوم أنه لا يطلق لهن فيه فيكون ذلك منعا للخروج على أبلغ وجه وامتدح هذا الوجه الإمام ابن الهمام وقال : إنه ونظائره بديع وبليغ جدًّا نحو لا تزن إلَّا أن تكون فاسقا .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) إشارة إلى ما ذكر من الأحكام التى عينها لعباده ، وأُشير إليها بإشارة البعيد مع قرب العهد بها للإيذان بعلو درجتها ، وبعد منزلتها (وَمَن يَتَعدَّ حُدُودَ اللهِ) بالاستهانة بها ، والإخلال بشىء منها (فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) عرضها للضرر الشديد . وهذا تقبيح لمن تعدى حدود الله (لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْرًا . .) خطاب للتعدِّى بطريق الالتفات للزجر عن التعدى كأنه قيل : ومن يتعد حدود الله فقد أضر بنفسه فإنك لا تدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر لعلَّ الله يُحدث فى قلبك بعد الذى فعلت من التعدى أمرًا يقتضى خلاف ما فعلت فيكون بدل بغضها محبة ، وبدل الانصراف عنها إقبالٌ عليها وبدل عزيمة الطلاق نَدَمٌ عليه ولا يتسنى تلافيه برجعة أو استئناف نكاح كأنه قيل : التزموا حدود الله فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن لعلكم تندمون ، فتراجعون وإبقاء المطلقة فى منزل الزوج يساعد على ذلك ويجعل المراجعة أيسر وأسهل .

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) : شارفن وقاربن آخر عدتهن .

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ) : عند الحاجة إليها واجعلوا رسالتكم خالصة لوجه الله .

(يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا) : خلاصًا مما عسى يصيب الأزواج من الغموم والمضايق .

(مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) : من حيث لايخطر بباله .

(فَهُوَ حَسْبُهُ) : كافيه ومعينه فى كل أموره .

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ) : يبلغ ما يريد ولايفوته مراد ولايعجزه مطلوب .

(لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) : تقديرًا وتوقيتًا .

التفسير

٢ ، ٣ – (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ

الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) :

المعنى : فإذا شارف المطلقات آخر العدة ، وأصبحن على وشك الانتهاء منها فأنتم معهن بالخيار فيما بقى من زمن العدة إن شئتم فأمسكوهن بحسن معاشرة واتفاق لائق وود خالص وإن شئتم ففارقوهن بإيفاء الحق ، واتقاء الضرر مثل أن يراجعها المراجعة ثم يطلقها تطويلا للعدة (وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ) عند المراجعة او الفرقة قطعًا للتنازع . ومنعًا للشقاق . وهذا الأمر للندب نظير قوله تعالى : « وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » ويروى عن الشافعى وغيره أنه قال بالوجوب عند الرجعة : « وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ » بأن تجعلوها لوجهه خالصة لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ، ونصرة العدل ، ودفع الضرر .

(ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) الإشارة على ما اختاره الكشاف للحث على إقامة الشهادة لله تعالى والأولى كما فى الكشاف أن تكون الإشارة إلى جميع ما ذكر من إيقاع الطلاق على وجه السنة ، وإحصاء العدة ، والكف عن الإخراج والخروج ، وإقامة الشهادة للرجعة أو الفرقة ، وفى ذلك ملازمة قوية لقوله تعالى :(وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) فإنه اعتراض مؤكد لِمَا سبق من الأحكام التى تتمثل فى أمر إجراء الطلاق على السنة ووجوب مراعاة حدود الله باتقائه فى تعديها ، فلم يضار المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد على كل عمله ، ومن التزم بذلك يجعل الله له مخرجًا مِمَّا عسى أن يقع فى شأن الأزواج من الهموم والغموم ، ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب فى الدنيا والآخرة ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يتوقع أن تتفتح عنه أبواب الخير وتتيسر به أسباب الرزق ، وعن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب)(١) وروى أيضًا عن ابن عباس قال : إن عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنه سالمًا فأتى رسول الله ﷺ فقال : أُسر ابنى وشكا إليه الفاقة فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : (اتق الله وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلَّا بالله العظيم) ففعل ، فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه

(١) رواه الحاكم ٤ ــ ٢٦٢ .

الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت : (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) بأن يكل أمره إليه تعالى مؤثرًا له على الطمع فى غيره ، وعن تدبير نفسه ، إن فعل ذلك وتخلق به كان الله له معينًا وكافيًا فى الدنيا والآخرة(١) .

أخرج أحمد فى الزهد عن وهب قال : يقول الرب تبارك وتعالى : (إذا توكل على عبدى لو كادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج) .

« إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ » بمعنى منفذ أمره فى كل ما كان وما يكون يبلغ ما يريد ، ولا يفوته مراد ، ولا يعجزه مطلوب « قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » تقديرًا قبل وجوده أو مقدارًا من الزمان ينتهى إليه ، ويشير التعميم فى الجملة إلى وجوب التوكل عليه تعالى ، وتفويض الأمر إليه ؛ لأنه إذا عُلم أن كل شيء من الرزق وغيره لا يكون إلَّا بتقديره سبحانه ، لا يبقى إلَّا التسليم للقدر ، والتوكل على الله تعالى .

(وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ) : أى : انقطع عنهن الحيض لكبر سنهن ، وقدر بستين أو خمس وخمسين سنة .

(إِنِ ارْتَبْتُمْ) : إن شككتم وجهلتم كيف تكون عدة اليائس .

(١) رواه السيوطى فى الدر المنثور ٨ — ١٩٧ وعزاه لابن مردويه .

(يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) : يذهبها .

(وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) : بالمضاعفة .

التفسير

٤ - (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) :

روى أن أناسا قالوا : قد عرفنا عدة ذات الأقراء فما عدة اللائى لم يحضن ؟ فنزلت عدة الآيسة واللَّائى لم يحضن وأُولات الأَحمال ، فتذكر أن عدة اليائسة التى بلغت سن اليأس من الحيض وهى تقدر بستين سنة أو بخمس وخمسين ، ثلاثة أشهر . إن ارتبتم وأشكل عليكم حكمهن ، وجهلتم كيف يعتدون ؟ وكذلك تكون عدة الصغيرات اللاتى لم تحضن ثلاثة أشهر [1] ، وحذف بيان العدة فى النص الكريم مع اللاتى لم تحضن ثقة بدلالة ما قبله عليه .

وعدة أُولات الأَحمال أن يضعن حملهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن . فقد أخرج جماعة عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهى حامل فقال : إن وضعت حملها حلت فأَخبره رجل من الأَنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لحلَّت .

وذهب على - كرم الله وجهه - وابن عباس - رضى الله عنهما - إن الآية فى المطلقات ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها آخر الأَجلين أى :الأَشهر أو وضع الحمل وهو مذهب الإمامية كما فى مجمع البيان ، وقوله :

(وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) خصص به عموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » لتراخى نزوله عن ذلك لما هو المشهور من قول ابن مسعود - رضى الله عنه - من شاء باهلته أن سورة النساء القصرى

---

(١) فإذا رأت الدم فى زمن احتماله عند النساء، انتقلت إلى الدم لوجود الأصل كما أن السنة إذا اعتدت بالدم ثم ارتفع عادت إلى الأشهر وهذا إجماع كما قال القرطبي .

نزلت بعد التي في سورة البقرة ، وقد صح أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذاك لرسول الله ﷺ فقال لها : (قد حللت فتزوجي) .

(وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) أي : ومن اتقاه ــ سبحانه ــ في شأن أحكامه ومراعاة حقوقها يسهل عليه أمره ، ويوفقه للخير ، ولكل عمل نافع . وقيل : يجعل له يسرًا أي : ثوابا .

٥ ــ (ذَٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) .

إشارة إلى ما علم من حكم المعتدات ، وما في الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته في الفضل ، وقد أنزله إليكم من اللوح المحفوظ (وَمَن يَتَّقِ اللهَ) في تلك الأحكام بالمحافظة عليها (يُكَفِّرْ عنْهُ سَيِّئَاتِهِ) فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وفي الحديث : (وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)[1] .

(وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) بالمضاعفة ، « مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »[2] .

---

(١) رواه أحمد عن أبي ذر : ٥ ــ ١٥٣ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٦٠ .

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾)

المفـــردات :

(مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ) : الوجد مثلثة الواو الوسع والطاقة أى : أسكنوهن مكانًا من سكنكم وفق وسعكم وطاقتكم .

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ) : أى : المطلقات .

(وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ) : أى : تشاوروا وأن يأمر بعضكم بعضًا باليسر والتسامح فى الأجرة .

(وَإِن تَعَاسَرْتُمْ) : بأن كان من الأب مضايقة أو من الأم ممانعة .

(وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) : ضيق عليه فى رزقه .

التفســير

٦ ــ (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ) :

استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عمَّا قبله من الحث على التقوى كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات ، فأُجيب عن ذلك بقوله تعالى : (أَسْكِنُوهُنَّ ...) الآية .

أى : أسكنوا المعتدات مكانًا من مسكنكم الذى تسكنونه حسبا تطيقونه من وسع وقدرة ، وقد روى عن قتادة ما يؤيد ذلك حيث قال : ولتسْكُن إذا لم يكن إلَّا بيت واحد فى بعض نواحيه ، وهى واجبة باتفاق مع النفقة لكل مطلقة رجعية حاملًا كانت أو حائلًا ، أما المبتوتة وهى التى طلقت ثلاثًا ، وليست ذات حمل ، فقد اختلف فى شأنها العلماء ، فعند ابن المسيب ومالك والأوزاعى والشافعى وغيرهم ليس لها إلَّا السكنى ولا نفقة لها ، وعن الحسن ، وحماد وأحمد وغيرهم لا نفقة لها ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس قالت : إن زوجها أبتّ طلاقها فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال لها : لا سكنى لك ولا نفقة ، وأمرها أن تعتدّ فى بيت ابن أم مكتوم ، ثم أنكحها أسامة بن زيد .

وعن عمر – رضى الله عنه – أنه طعن فى هذا الحديث ، فقال : لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول لها : السكنى والنفقة ، وقد طعن فى حديث فاطمة أيضًا عائشة وسليمان بن يسار وأبو سلمة وغيرهم .

وقال أبو حنيفة والثورى : لها السكنى والنفقة ، بدليل قول عمر – رضى الله عنه – .

وقال ابن نافع : قال مالك فى قوله تعالى : (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ) يعنى المطلقات اللاتى بنَّ من أزواجهن ولا رجعة لهم عليهن ، ولسن ذوات حمل ، فلكل منهن السكنى ولا نفقة لها ولا كسوة ؛ لأنها بائن منه ، لا يتوارثان ولا رجعة له عليها .

فأما من لم تَبن منهن ، فإنهن نساؤهم يتوارثون ، ولا يخرجن إلَّا أن يأذن لهن أزواجهن ما كن فى عدتهن ، ولم يؤمروا بالسكنى لهن ؛ لأن ذلك لازم على أزواجهن مع نفقتهن وكسوتهن حوامل كن أو غير حوامل .

(وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ) أى : تجنبوا الإضرار بالمعتدات ، فلا تستعملوا معهن ما يؤذيهن لإلجائهن إلى الخروج كأن تنزلوا معهن من لا يوافقهن فى الجوار ، أو تشغلوا المكان بغيرهن أو نحو ذلك .

(وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) : وبوضع الحمل يخرجن من العدة .

قال كثيرٌ من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذا الحكم فى البائن – إن كانت حاملًا أنفق الزوج عليها مع السكنى حتى تضع حملها قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها حاملًا كانت أو حائلًا .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل ، وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالبا ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق عليها إلى الوضع ؛ لئلا يتوهم أنها لا نفقة لها نظرًا لذلك وليعلم حكم غيرها بالطريق الأولى .

أما أولات الحمل المتوفى عنهن أزواجهن فلا نفقة لهن عند أكثر العلماء ، ويرى على – كرم الله وجهه – وابن مسعود وجوب نفقتهن فى التركة من جميع المال حتى يضعن ، وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعى وأبو حنيفة لاينفق عليها إلّا من نصيبها .

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ) بعد انقطاع عصمة الزوجية بوضع حملهن (فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) على ما قمن به من إرضاع ثم خاطب – سبحانه – الآباء والأمهات ، ودعاهم إلى أن يتشاوروا ، فيأمر بعضهم بعضًا بمعروف أى : بجميل فى الأُجرة والإرضاع ، وذلك بحديث سمح بعيد عن المماكسة من الأَب والمعاسرة من الأُم فقال تعالى : (وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ) ، وقيل : المعروف الكسوة والدثار (وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ) أى : وإن ضيق أحدكم على الآخر بالمشاحة والمبالغة فى الزيادة أو النقص فى الأُجرة ، فسترضعه مرضعة أُخرى غير الأُم ، على معنى فليطلب الأَب هذه المرضعة ، فإن لم يقبل الولد ثديها ، أُجبرت الأُم على الإرضاع بأَجر المثل ، وفيه معاتبة للأُم على المعاسرة كقولك لمن تستقضيه حاجة ، فيتوانى سيقضيها غيرك ، بمعنى ستقضى وأنت ملوم ..

وخصت الأُم بالمعاتبة على ماقال ابن المنير ؛ لأَن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها وهو غير متمول ولا مضمون به فى العرف وخصوصاً من الأُم على الولد ، ولاكذلك المبذول من

الأب فإنه المال المضمون عادة ، فالأم إذن أحق باللوم ، وأولى بالعتب خصوصاً وهى أكثر حنوا وشفقة على الوليد ، ولذلك لو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

٧ - (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) :

المعنى : لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه وفق ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا » أى : بقدر ما أعطاها من الطاقة والقوة ، وقيل : بقدر ما آتاها من الأرزاق قلت أو كثرت ، وفيه تطييب واستمالة لقلب المعسر ، وترغيب له فى بذل مجهوده (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) وعد للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم عاجلا أو آجلا أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ماقدروا عليه ، ولم يقع منهم تقصير وهو على كلا الوجهين لتأكيد المعنى المراد من الترغيب فى الإنفاق قل مال المنفق أو كثر .

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾)

المفــردات :

(عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا) : استكبرت وطغت وعتا من باب قعد .

(عَذَاباً نُكْرًا) : منكرا شديدا والمراد عذاب الآخرة .

(فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) : أى : فتجرعت وخامة وسوء عاقبتها .

(خُسْرًا) : خسارا هائلا .

(قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) : جبريل أو النبى أو القرآن .

التفسـير

٨ – (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِساباً شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا) :

يتوعد الله ـ سبحانه ـ من خالف أمره ، وكذب رسله ، ويخبر عما حل بالأمم السابقة بسبب ذلك فيقول تعالى : (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ) أى : كثير من أهل قرية تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ، ومتابعة رسله (فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيدًا) بالاستقصاء والمناقشة لأهلها فى كل نقير[1] من الذنوب وقطمير[2] مما اقترفته جوارحهم فلا تجاوز لهم عن شئ مهما قل (وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا) أى : منكرًا عظيماً يفوق التصور حيث لم تخطر ببالهم شدته ، وتعدت الاحتمال قسوته ، والمراد حساب الآخرة مع ما عجل لهم فى الدنيا من العذاب بالجوع ، والقحط ، وسائر المصائب والبلايا .

والتعبير بالماضى فى قوله :(فَحَاسَبْنَاهَا) وفى قوله :(وَعَذَّبْنَاهَا) للدلالة على تحققهما كما فى قوله تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ » .

ويجوز أن يراد بالحساب إحصاء جميع ذنوبهم وكتابتها فى صحائف أعمالهم لدى الحفظة ، وبالعذاب ما أصابهم عاجلا فى الدنيا من العقاب ، ويكون الإتيان بالماضى فى (فحَاسَبْنَاهَا) وفى (وَعَذَّبْنَاهَا) على الحقيقة لوقوع الحساب والعقاب فى دنياهم .

٩ ـ (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) :

أى : فذاقت عقوبة عتوها وكفرها وتمردها على أوامر الله ، وكانت نتيجة ذلك خسارًا شديدًا لا خسار وراءه ، والمراد عقوبة الآخرة ، وجىء بلفظ الماضى ؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى وواقع فى الحقيقة فكأنه قد كان .

١٠ ـ (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَاأُولِى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) :

تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها بقوله تعالى : (فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ) .

---

(١) النقير : النكتة فى ظهر النواة . (٢) القطمير : القشرة الرقيقة التى على النواة كاللفافة .

كأنه قيل : أعد الله لهم هذا العذاب المترقب فليكن ذلك يا أولى الألباب داعياً لكم لتقوى الله ـ تعالى ـ وحذر عقابه ، وجملة (أَعَدَّ اللهُ) إلخ استئناف يشير إلى أن عذابهم ليس منحصراً فيما ذكر من الحساب الشديد والعذاب النكر بل لهم بعدهما عذاب شديد آخر مُعدّ لمزيد عقابهم ، وقوله :(الَّذِينَ آمَنُوا) بيان لأُولى الألباب « قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا » قيل : هو القرآن لقوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » .

وقيل : هو جبريل ـ عليه السلام ـ سمى ذكرًا لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر الذى هو القرآن .

كما ينبئ عنه إنزال قوله تعالى : (رَسُولًا) منه .

وقيل : هو النبى ﷺ وعليه الأكثر ، وإطلاق الذكر عليه لمواظبته ـ عليه الصلاة والسلام ـ على تلاوة القرآن الذى هو ذكر ، وتبليغه والتذكير به . وعبر عن إرساله بالإنزال ؛ لأن الإرسال مسبب عن إنزال بالوحى عليه ﷺ على سبيل المجاز .

١ ـ (رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً) :

(رَسُولًا) بدل جاء للبيان من قوله : (ذِكْرًا) . قال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر وتبيين له وقال أبو حبان : الظاهر أن الذكر هو القرآن ، والرسول هو محمد ﷺ .

وفى توجيه هذا الرأى أقوال : أشهرها أن رسولا منصوب بفعل محذوف تقديره أرسل دل عليه أنزل أى : أنزل لكم ذكرا ، وأرسل إليكم رسولا ونحا إلى هذا السّدى ، واختاره ابن عطية .

(يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ) نعت لقوله : « رَسُولًا » أى : أنه ﷺ يقرأ عليكم أو حال من اسم الله فى قوله تعالى : « قَدْ أَنزَلَ اللهُ ... » .

أى : أن الله تعالى يأمر أمين وحيه جبريل - عليه السلام - أن يقرأ على رسوله آيات الله . القرآن . واضحات جليات تبين لكم الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من أحكام دينكم (لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) المراد من الذين آمنوا المؤمنون بعد إنزال الذكر ، وقبل نزول هذه الآية ، أو من علم سبحانه وقدر أنهم سيؤمنون ، وعلى ذلك يكون المعنى على الأول ، ليخرج الله أو الرسول (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى : ليحصل لهم ماهم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح . وعلى الثانى ليخرج من علم الله وقدر أنه يؤمن (مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أى : من أنواع الضلالات إلى الهدى ، ومن ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم والتعبير بالماضى فى قوله سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا » عمن سيؤمن ، باعتبار علمه تعالى وتقديره سبحانه الأزلى ، أو باعتبار نزول هذه الآية[1] (وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً) وفق ما بُيِّن فى تضاعيف ما أنزل من الآيات الواضحات التى ورد بها الذكر الحكيم (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى : تنساب من بين قصورها الأنهار الصافية ، ليكمل لهم النعيم العظيم فى دار البقاء (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) بمعنى أن مكثهم فى تلك الجنات دائم حيث لايخرجون منها ولا يموتون (قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً) فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله - تعالى - المؤمنين من الثواب وسائر المطاعم والمشارب ، وكل مالذ وطاب مما تقر به الأعين ، وتطمئن إليه النفوس ، وإلا لم يكن فى الإخبار بما ذكر ههنا كثير فائدة .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾)

---

(١) إذا أريد بالذين آمنوا المؤمنون بعد إنزال الذكر وقبل نزول هذه الآية .

المفردات :

(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) : أي : يجرى أمر الله وقضاؤُه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن.

(قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيْءٍ عِلْماً) : أي : أنه سبحانه لا تخفى عليه خافية لإحاطة علمه بكل شيء لاستحالة صدور هذه الكائنات العظيمة ممن ليس كذلك .

التفسير

١٢ ـ (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيْءٍ عِلْماً) :

إخبار من الله ـ تعالى ـ عن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ؛ ليكون ذلك باعثاً وحافزا على تعظيم ما شرع الله من الدين القويم ، وما خلق من مخلوقات كونية على أقصى درجة من الإحكام والكمال ، لاتحيط بعظمتها منطقة الفكر ولا دائرة العقل ، ويضيق عنها نطاق الحصر ، ولا أدل على ذلك من أنه سبحانه هو الذى خلق سبع سموات طباقاً ومن الأرض مثلهن فى العدد بمعنى أنها طبقات سبع بعضها فوق بعض وهو رأى الجمهور وقد وصفه القرطبي بأنه أصح الأقوال وطبقات الأرض هى الطينية والصخرية والمائية والمعدنية ونحو ذلك . وقيل : المثلية بين السموات والأرض فى الخلق لا فى العدد ولا فى غيره فهى أرض واحدة مخلوقة كالسموات السبع ، وأُيدِّ بأن الأرض لم تذكر فى القرآن إلا موحَّدة ، ورُد بأنه صح فى رواية البخارى وغيره « اللهم رب السموات السبع وما أقللن . ورب الأرضين السبع وما أظللن » الحديث كما رُد بما ثبت فى الصحيحين « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرض خلق؟ قال : نعم قال : فما الخلق ؟ قال : إما ملائكة أو جن .

وأخيرا لعل القول بالتعدد هو المتبادر من الآية وتقتضيه الأخبار .

ويقول روح المعانى : ومع هذا هو ليس من ضروريات الدين فلا يكفر منكره أو المتردد فيه

وقد ذكروا تفصيلات عن جوهر كل سماء وعن المسافة بين كل سماء وأخرى وبين كل أرض وأخرى .

وهذا ونحوه حقيق بأن نكل أمره إلى الله عالم الغيب والشهادة .

(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) أى : يجرى أمر الله ـ تعالى ـ وقضاؤه وقدره ـ عز وجل ـ بينهن ، وينفذ حكمه فيهن ، وعن قتادة فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه وقضاء من قضائه ـ عز وجل ـ وقيل : (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) . بحياة وموت وغنى وفقر .

وقال مقاتل : (الْأَمْرُ) هنا الوحى و (بَيْنَهُنَّ) إشارة إلى ما بين هذه الأرض السفلى التى هى أدناها وبين السماء السابعة التى هى أقصاها (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) أى : أعلمتكم وأخبرتكم بذلك من خلق سبع سموات بعضها فوق بعض ومن الأرض مثلهن : لتعلموا أن الله قادر على كل شىء (وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً) لاستحالة صدور هذه المخلوقات العظيمة ممن ليس كذلك ، بل هى شواهد ناطقة ، ودلالات بينة .

على أن علمه الواسع قد أحاط بكل شىء ـ عز أو دقّ ـ وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

سورة التحريم

مدنية وآياتها اثنتا عشرة آية وكما تسمى سورة التحريم تسمى المتحرم ، ولم تحرم ؛ وسورة النبى ﷺ وعن ابن الزبير سورة النساء .

مناسبتها للسورة التى قبلها وهى سورة الطلاق :

أنها متواخية معها فى الافتتاح بخطاب النبى ﷺ وأن السابقة مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإماء وبينهما من الملابسة مالا يخفى .

ولما كانت السابقة فى خصام وطلاق نساء الأُمة ذكر فى هذه خصومة نساء النبى المصطفى ﷺ إعظاماً لهن أن يذكرن مع سائر النسوة فأُفردن بسورة خاصة ، ولذلك ختمت بذِكْر آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران . قاله السيوطى عليه الرحمة .

أغراض السورة :

عتاب الرسول ﷺ عتاباً رقيقاً لطيفاً فى التحريم والتحليل قبل ورود وحى سماوى (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ ؟) الآية .

تناولت أمرا على جانب من الخطورة ألا وهو إفشاء السر الذى يكون بين الزوجين والذى يهدد الحياة الزوجية بالتردى والتوقف ، وضربت المثل برسول الله ﷺ حين أَسَرَّ إلى حفصة حديثاً ، واستكتمها إياه فأَفشته إلى عائشة حتى شاع وذاع مما أغضبه ﷺ حتى هم بتطليق أزواجه (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ...) الآية .

حملت على أزواجه ـ صلوات الله عليه ـ حملة عنيفة حين حدث ما حدث بينهن من التنافس (عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْرًا مِّنكُنَّ ...) الآية .

أبرزت الأمر بالابتعاد عن جهنم ، وخوفت من عذابها بأشد أنواع الوعيد (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا قُوآ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ...) الآية .

دعت دعوة قوية إلى التوبة النصوح ، وأظهرت وعد المؤمنين بإتمام نورهم فى القيامة (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوٓا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ...) الآية .

رسمت الطريق لجهاد الكفار والمنافقين حيث يكون بطريق السيف مع الكفار ، وبالبرهان والحجة مع المنافقين (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...) الآية .

بينت أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة ، وأن القرب من المفسدين لايضر مع وجود الصدق والإخلاص (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا .. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ..) الآيتين .

ختمت السورة بذكر تصديق مريم ابنة عمران وما اتصفت به من عفة وتصون فكان لها من الله أعظم الجزاء (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ...) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥))

المفـردات :

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) : أى : شرع لكم تحليلها ، وهو حل ماعقدته الأيمان ، وذلك بالكفارة أو بالاستثناء متصلا حتى لايحنث ، وتحلة أصلها تحللة قبل الإدغام مصدر حلل المضعف كتكرمة من كرم .

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) : أخبرت .

(فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) أى : فقد مالت قلوبكما عن الحق ، يقال صغت الشمس مالت للغروب :

(وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ) أى : وإن تتعاونا بما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة ، والوقيعة بينه وبين نسائه بإفشاء سره .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) أى : فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاديه .

(قَانِتَاتٍ) : مُطيعات من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع .

(سَائِحَاتٍ) أى : صائمات ، وسمى الصائم سائحاً؛ لأنه يسبح فى النهار بلا زاد أو مهاجرات .

التفسير

١ ـ (يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

روى فى سبب النزول أن النبى ﷺ خلا بمارية فى يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها اكتمى علىّ فقد حرمت مارية على نفسى ، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان من بعدى أمر أمتى ، فأخبرت بذلك عائشة وكانتا متصادقتين. كما فى رواية الكشاف وقيل : خلا بها فى يوم حفصة وكانت قد استأذنته ﷺ فى زيارة أبويها فأذن لها فلما علمت قالت : فى بيتى وعلى فراشى فأرضاها بما حدثها به من تحريم مارية على نفسه وبما بشرها به من إمامة الشيخين أبى بكر وعمر واستكتمها ذلك فلم تكتمه فطلقها واعتزل نساءه فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : راجعها فإنها صوامة قوامة وإنها لمن نسائك فى الجنة .

وقال النووى فى شرح مسلم : الصحيح أن الآية نزلت فى قصة العسل لا فى قصة مارية المروية فى غير الصحيحين ولم تأت فى طريق صحيح ، وشرب العسل كان عند زينب بنت جحش فقد روى أنه ﷺ كان يمكث عندها ويشرب عسلا فتواصت عائشة وحفصة لما وقع فى نفسهما من الغيرة من ضرتهما أن أيتهما دخل عليها النبى ﷺ فلتقل له : إنى أجد منك

ريح مغافير[١] ، وكان ﷺ يحب الطيب ، ويكره الرائحة الكريهة ، للطافة نفسه الشريفة فحرم العسل على نفسه وقد حلف وقال : لن أعود فنزلت .

والمعنى : لم تحرم أيها النبي ما أحل الله لك من ملك اليمين أو شرب العسل ، وفى ندائه ﷺ أيها النبي فى مفتتح العتاب من حسن التلطف به والتنويه بشأنه مالا يخفى حيث خوطب غيره باسمه من سائر الرسل ، والاستفهام ليس على حقيقته بل هو معاتبة .

والمراد من التحريم الامتناع ، وبما أحل الله لك العسل على ما صححه النووى أو وطء سريته على مافى بعض الروايات (تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) استئناف لبيان أن الداعى إلى التحريم مؤذن بعدم صلاحيته لذلك كأنه قيل : إن الذى فُعل زلة ؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ابتغاء مرضاة أزواجه على أن التحريم فى نفسه محل عتب والباعث عليه كذلك(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) بالغ الغاية فى الغفران والرحمة فقد غفر الله لك ما بدر منك ، وفيه تعظيم له ﷺ بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى الكريم يعد كالذنب وإن لم يكن كذلك فى نفسه ، وأن عتابه ﷺ لم يكن إلا لمزيد العناية به .

هذا وإن تحريم الحلال على وجهين ، الأول : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل فى الحرام وهو محظور يوجب الكفر فلا يمكن صدوره عن المعصوم أصلا ، والثانى : الامتناع عن الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله ، وهذا مباح صرف ، وحلال محض .

وما وقع منه ﷺ كان من هذا النوع وإنما عاتبه تعالى على ما بدر منه رفقاً به ، وتنويهاً بقدره . وإجلالا لمنصبه ﷺ أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه مع أنه ألف لطف الله به .

٢ – (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) :

---

(١) المغافير بفتح الميم والغين جمع مغفور بضم الميم صمغ ينضحه شجر العرفط يؤخذ ثم ينضح بالماء فيشرب وله رائحة كريهة . والعرفط شجر أونبت له ورق عريض .

أى : قد شرع لكم سبحانه تحليل[١] أيمانكم بالكفارة أو بالاستثناء المتصل الذى يأتى به الحالف حتى لا يحنث ، والتحليل من الحل ضد العقد فكأنه باليمين على الشيء عقد عليه لالتزامه ، وبالكفارة يحل ذلك .

وعلى القول بأنه كان منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يمين كما جاء فى بعض الروايات وهو ظاهر الآية .

اختلف هل أعطى ﷺ الكفارة لمستحقيها أولا ، فعن الحسن أنه لم يعط ؛ لأنه كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين ، وعن مقاتل أنه ﷺ أعتق رقبة فى تحريم مارية ، وقد نقل مالك فى المدونة عن زيد بن أسلم أنه ﷺ أعطى الكفارة فى تحريمه أم ولده حيث حلف ألا يقربها ، ونقل مثله عن الشعبى .

(وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) أى : والله سيدكم ومتولى أموركم ، وهو جل شأنه عظيم العلم بما يصلح لكم فيشرعه لخيركم بالغ الحكمة والإتقان فى أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما فيه الاستقامة والصلاح فيما أحل وحرم .

٣ ـ (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) :

المراد من بعض أزواجه على المشهور حفصة لاعائشة كما زعم بعض الشيعة أى : واذكر حديثاً أسرَّه النبى ﷺ لبعض أزواجه ، وهو ماروى عنه ﷺ « ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب ابنة جحش فلن أعود إليه وقد حلفت لاتخبرى بذلك أحدا » أو هو حديث مارية أو حديث الإمامة كما قيل (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) أى : أخبرت بالحديث عائشة ، وكانتا متصادقتين ، وتناولتا نقصان حظ ضرتهما زينب من حبيبهما ﷺ حيث إنه كما فى البخارى وغيره : كان يمكث عندها يشرب العسل ، وقد اتخذ ذلك عادة وقد استخفها السرور فنبأت به[٢] ، (وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ) أى : جعل سبحانه نبيه ﷺ ظاهرًا على

---

(١) تحليل وتحلة مصدران : الأول قياسى والثانى سماعى لحلل المضعف العين ، وأصل تحلة تحللة قبل الإدغام للمثلين .

(٢) حيث إن وجوده عندها ليس لمودة قلبية كما تقصدان .

الحديث ، مطلعاً عليه بواسطة جبريل-عليه السلام- أو جعل الله الحديث ظاهرا على النبي ﷺ يتبينه ويدرك كنهه .

ولما أظهر الله نبيه على الحديث أعلم ﷺ حفصة بنصه الذى أفشته وهو قوله لها: « كنت شربت عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود » وأعرض عن بعضه فلم يخبرها به وهو قوله : « وَقَدْ حلفت » تكرماً من مزيد خجلها ، وهذا منه ﷺ اهتمام بمرضاة أزواجه وهو لايحب شيوع ذلك عنهن رعاية لحقهن وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، وابن أبي حاتم عن مجاهد أن النبي ﷺ أسر إلى حفصة تحريم مارية ، وأن أبا بكر وعمر يليان أمر الناس بعده فأسرت ذلك إلى عائشة فعرف ﷺ بعضه ، وهو أمر الإمامة . روى عن على كرم الله وجهه - وابن عباس قالا : إن إمامة أبي بكر وعمر لفى كتاب الله . (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً) .

وقيل : عرف أمر مارية ، وأعرض عن أمر الإمامة مخافة أن يفشو . روى أنه ﷺ قال لحفصة : ألم أقل لك اكتمى علىّ قالت : والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى فرحاً بالكرامة التى خص بها أبى .

وحين نبأها بما أفشته لتعرف هل التى كشفت الحديث عائشة أولا (مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا) قال ﷺ :(نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) الذى لا تخفى عليه خافية لإحاطته بخطرات النفوس ومكنونات الضمائر ، فإنه لذلك أوفق للإعلام[١] .

قال الآلوسى :وقصارى ما يمكن أن يقال : يحتمل أن يكون النبي ﷺ شرب عسلاً عند زينب كما هي عادته وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت فحرم العسل ، واتفق - له عليه الصلاة والسلام -قبيل ذلك أو بعيده أن وطىء جاريته مارية فى بيت حفصة وفى يومها وعلى فراشها ، فوجدت فحرم ﷺ مارية وقال لحفصة ما قال تطييبا لخاطرها واستكتمها ذلك فكان منها ما كان ، ونزلت الآية بعد القصتين فاقتصر بعض الرواة على إحداهما وبعضهم

---

(١) واستدل بالآية على أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى مَن يركن إليه من زوجة أو صديق، وأنه يلزمه كتمه ، وفيها على ما قيل دلالة على أنه يحسن العشرة مع الزوجات والتلطف فى العتب والإعراض عن استقصاء الذنب .

على نقل الأُخرى وهو كلام صادق إذ ليس فيه دعوى كلٍّ حصر سبب النزول فإن صح هذا هان أمر الاختلاف اهـ بتصرف .

٤ - (إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) :

ومما يدل على أن المرأتين اللتين وقع منهما التظاهر على رسول الله ﷺ هما عائشة وحفصة مارواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس[1] قال : لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ اللتين قال الله فيهما : (إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ثم أتانى فسكبت على يديه فتوضأ فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبى ﷺ اللتان قال الله تعالى : (إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) فقال عمر : واعجبا لك يا بن عباس هما عائشة وحفصة ثم أنشأ يحدثنى الحديث بطوله .

والآية خطاب لهما على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة فى العتاب ، فإن المبالغ فى العتاب يصير المعاتب بعيدًا أولا عن ساحة الحضور ، ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : (إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) أى : مالت عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله ﷺ ، وحب ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه إلى مخالفته . وجملة (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) تعليل لجواب الشرط ودليل عليه ، والتقدير إن تتوبا إلى الله فلتوبتكما موجب وسبب ؛ لأنه قد صدر عنكما ما يقتضيها من ميل قلوبكما عنه ﷺ ، وقيل : الجواب محذوف والتقدير إن تتوبا إلى الله يمح إثمكما وقوله : (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) بيان لسبب التوبة وقيل : غير ذلك .

والجمع فى قلوبكما دون التثنية لكراهة اجتماع تثنيتين مع ظهور المراد ، وهو فى مثل ذلك أكثر من التثنية والإفراد (وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ) أى : فلن تتعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) بمعنى أنه لا يعدم من يظاهره ؛ فإن الله مؤيده وناصره ، وجبريل رئيس الكروبيين[2] قرينه ، وكل من آمن وعمل صالحاً أتباعه وأعوانه .

---

(١) وقد أخرجه أيضا البخارى ومسلم والترمذى وابن حبان وغيره عن ابن عباس .

(٢) الكروبيون بالتخفيف سادة الملائكة .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - وبه قال عكرمة ومقاتل وهو اللائق بتوسطه بين جبريل والملائكة - عليهم السلام - وقيل : أريد به من برىء من النفاق ، وقيل الصحابة ، (وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) بمعنى أن الملائكة على كثرة عددهم ، وامتلاء السماء بهم فوج مظاهر بعد ذلك له قدره وشأنه بما فيهم جبريل - عليه السلام - وإن كانت نصرتهم من نصرة الله فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه وأعظم جل جلاله شأن النصرة لرسوله ﷺ على هاتين الضعيفتين إما للإشارة إلى عظم مكر النساء ، أو للمبالغة فى قطع حبال طمعهما لعظم مكانتهما عند النبى وعند المؤمنين لأمومتهما لهم ، وكرامة له ﷺ ورعاية لأبويهما فى أن تظاهرهما يجديهما نفعاً ، فكأنه قيل :فإن تظاهرا عليه فلا يضره ذلك فإن الله تعالى هو مولاه وناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه (وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ) مظاهرون له ومعينون إياه كذلك .

٥ - (عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) :

أى :إن تحقق طلاقكن فحق وواجب أن يبدل الله رسوله أزواجاً خيراً منكن ، والخطاب لهن جميعاً على سبيل الالتفات ، وأصله لاثنتين ، ولكنه ورد عاما :لأنهن فى منزل الوحى أو على التغليب أو لاجتماعهن فى الغيرة عليه ﷺ لما أخرجه البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه فقلت : عسى ربه إن طلقهن أن يبدله خيراً منهن فنزلت هذه الآية وفق قول عمر .

وكون المبدلات خيراً منهن مع أن أمهات المؤمنين خير نساء على وجه الأرض ؛لأنه إن طلقهن لإيذائهن إياه لم يبقين كذلك ، وكان غيرهن من الموصوفات فى الآية بالصفات الكاملة خَيْراً منهن إن تزوجهن الرسول ، وهذا وعد من الله لرسوله لو طلقهن فى الدنيا أن يزوجه نساءً خيراً منهن تخويفاً لهن كما فى القرطبى .

وليس فى الآية ما يدل على أنه لم يطلق حفصة ولا ما يدل على أن فى النساء خيرا منهن فإن تعليق طلاق الكل لا ينافى تطليق واحدة ، والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه .

وقد روى أنه ﷺ طلق حفصة فغلب ما لم يقع من الطلاق على الواقع .

وقد وصف الله هؤلاء الزوجات اللاتى سيبدل رسوله ﷺ بهن فقال : (مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ) مقرات مخلصات أو منقادات مصدقات (قَانِتَاتٍ) مواظبات على الطاعة — أو مصليات (تَائِبَاتٍ) مقلعات عن الذنب (عَابِدَاتٍ) متذللات لأمر الرسول ﷺ متعبدات (سَائِحَاتٍ) صائمات . سمى الصائم سائحا ؛ لأنه يسيح فى النهار بلا زاد ، وإنما يأكل حيث يجد الطعام أو مهاجرات . قال ابن زيد : ليس فى الإسلام سياحة إلا الهجرة ، وقيل : ذاهبات فى طاعة الله كل مذهب (ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) والثيبات جمع ثيب وهى التى زالت عذرتها وسميت بذلك ؛ لأنها ترجع إلى الزوج بعد زوال عذرتها .

والأبكار جمع بكر وهى التى لم تفتض ووسط العاطف بينهما لتنافيهما ولو سقط لاختل المعنى . إن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان ، وترك العطف فى الصفات السابقة ؛ لأنها صفات تجتمع فى شخص واحد ، وبينهما شدة اتصال يقتضى ترك العطف .

وذُكِرَ الجنسان ؛ لأن فى أزواجه ﷺ من تزوجها ثيبا ، وفيهن من تزوجها بكرا وجاء أنه لم يتزوج بكرا إلا السيدة عائشة — رضى الله عنها — .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾)

المفــردات :

(قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) : وقاية النفس بترك المعاصى ، ولزوم الطاعات ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتوجيه، ويراد بالحجارة الأصنام .

(غِلَاظٌ شِدَادٌ) : أى : غلاظ الأقوال شداد الأفعال أو الخَلق والخُلُق .

(تَوْبَةً نَصُوحًا) : بمعنى بالغة الغاية فى النصح وقيل : هى من نصاحة الثوب أى : خياطته بمعنى أنها توبة قوية ترفو خروقك فى دينك ، وترم خللك .

(يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) : يقال : أخزى الله ــ تعالى ــ فلانًا فضحه وقال الراغب : يقال : خزى الرجل لحقه انكسار إما من نفسه وهو الحياء المفرط ومصدره الخزاية وإما من غيره وهو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزى .

التفسير

٦ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) :

ينادى الله المؤمنين فيدعوهم إلى الابتعاد عن نار لا تشبه نيران الدنيا فى اتقادها وقسوة أثرها ، بل تربو وتزيد على ذلك حيث إنها تتقد بالناس والحجارة كما يقول سبحانه : (قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) وذلك بأن تأخذوا أنفسكم بترك المعاصى وفعل الطاعات وتأخذوا أهليكم بما تأخذون به أنفسكم بجعلهم موضع عنايتكم بما تولونهم من نصح وإرشاد حتى لا تكونوا فى أشد العذاب كما قيل : من أشد الناس عذابًا يوم القيامة من جهل أهله ، روى أن عمر - رضى الله عنه - قال حين نزلت : يا رسول الله نقى أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - : « تنهوهن عمَّا نهاكم الله عنه ، وتأمروهن بما أمركم الله به فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار » والمراد بالأهل كما قيل ما يشمل الزوجة والولد والعبد والأمة ، وأدخل بعضهم الولد فى الأنفس ؛ لأنه بعض أبيه واستدل بالآية على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء ويشير قوله تعالى : (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) إلى أن أمر تلك النار يدعو إلى العجب والاهتمام لأنها لا تتقد بالحطب كما هو شأن نيران الدنيا وإنما تتقد بالأجساد والأحجار .

قيل : المراد بها الأصنام التى كانت تعبد من دون الله لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[1] . وقال ابن مسعود وغيره : هى حجارة من كبريت زاد مجاهد أنتن من الجيفة ، ونقل عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها » وقد أمر المؤمنون باتقائها ؛ لأنها معدة للكافرين .

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ) أى : أنه موكل عليها ملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها . قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، وفى أجسامهم غلظة وشدة (لَا يَعْصُونَ اللهَ

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٩٨ .

مَا أَمَرَهُمْ) بمعنى أنهم لا يمتنعون من الأمر ، ويلتزمونه (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فيؤدونه ، ويبادرون إليه من غير تثاقل فيه ولا توان عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله فى شدة وقوة وهؤلاء هم الزبانية ، والجملتان ليستا فى معنى واحد ، إذ الأولى : (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ) لنفى المعاندة والاستكبار عنهم ، والثانية : (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) لنفى الكسل والتثاقل عنهم وأنهم يفعلون الأمر فى وقته فلايقدمون ولا يؤخرون وعلى ذلك فلاتكرار .

وفى المحصول المعنى لا يعصون الله فيما مضى والإتيان بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، ويفعلون ما يؤمرون فى الآتى .

٧ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إيَّاهم النار حسبما أمروا به من الله تعالى ويراد من اليوم ، اليوم المعهود وهو يوم الجزاء ، ونهيهم عن الاعتذار ؛ لأنهم لا عذر لهم أو لأن العذر منهم يذهب سدى ولا ينفعهم إذ ذاك ، يوم لا ينفع المرء حينئذ إلَّا ما قدمت يداه .

وهذا النهى لإدخال اليأس فى قلوبهم (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : تجزون وتعاقبون على الكفر والمعاصى التى اقترفتموها فى الدنيا بعد ما نهيتم عنها نهيًا شديدا زاجرا وأمرتم بالإيمان والطاعة أمرًا كاملًا فلم تنتفعوا بترك ما حذرتم منه وفعل ما وجهتم إليه ، بل استمرأتم الضلال ، وتمسكتم بالعصيان .

٨ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوٓا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : توبوا معشر الذين انقادت قلوبهم إلى الله توبة بالغة الغاية فى النصح وقد وصفت التوبة بذلك على المجاز ؛ لأن النصح وصف التائبين ، وهو أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة ، فيأتوا بها على طريقها المرسوم ، وذلك بأن يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين على فعلها مغتمين أشد الاغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعودون إليها ، موطنين أنفسهم على ذلك

بحيث لايصرفهم عنه صارف أصلًا ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال : (أن يندم على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لايعود إليه كما لايعود اللبن إلى الضرع) .

وروى تفسيرها بما ذكر عن عمر وابن مسعود وأُبىّ والحسن وغيرهم ، وعن عمرو بن العلاء قال : سمعت الحسن يقول : التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته .

وقال الإمام النووى : التوبة ما استجمعت ثلاثة أُمور : أن يقلع عن المعصية ، وأن يندم على فعلها ، وأن يعزم عزماً جازما ألَّا يعود إلى مثلها أبدا ، فإن كانت المعصية تتعلق بآدمى لزم أمر رابع وهو رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه أو تحصيل البراءة منه ، وركنها الأَعظم الندم ، وعلامة الندم طول الحسرة والخوف ، وانسكاب الدمع .

وفى شرح المقاصد قالوا : إن كانت المعصية فى خالص حق الله تعالى فقد يكفرها الندم كما فى ارتكاب الفرار من الزحف ، وترك الأَمر بالمعروف ، وقد تفتقر إلى أمر زائد كتسليم النفس للحد فى الشرب وتسليم ما وجب فى ترك الزكاة ، ومثله فى ترك الصلاة .

وظاهر الأَخبار قبول التوبة ما لم تظهر علامات الموت ، ويتحقق أمره عادة ، ومقتضى كلام النووى والمازنى وغيرهما وجوبها عند التلبس بالمعصية ولايجوز تأْخيرها سواءٌ أكانت صغيرة أم كبيرة . وقيل : المراد توبوا إلى الله توبة ترفو خروقك فى دينك ، وترم خللك من نصاحة الثوب أى : خياطته ، وقيل : توبة خالصة من الذنوب من قولهم : عسل ناصح إذا خلص من الشمع .

(عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : قيل : إن المراد أنه سبحانه يفعل ذلك على التحقيق ، وورود بتلك الصيغة للإطماع جريا على سنن الملوك من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ، وللإشعار بأن تكفير الذنوب تفضُّل والتوبة غير موجبة ، وأن العبد ينبغى أن يكون فى خوف ورجاء وإن بالغ فى وظائف العبادة .

وقبول توبة غير الكافر مسألة خلافية بين المعتزلة القائلين : بأنه يجب على الله قبولها عقلًا ، وبين إمام الحرمين والقاضى أبى بكر حيث يقولان :بأنه يجب اعتقاد قبولها سمعا ووعدا لكن بدليل ظنى إذ لم يثبت فى ذلك نص قاطع فى غفران ذنوب المسلم بالتوبة لايقبل التأويل ، والدليل الظنى كقوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ »[1] ، وأما حديث التوبة تجبُّ ما قبلها فليس بمتواتر ، وقيل غير ذلك ، والتفصيل تكفل به علم الكلام .

وأما توبة الكافر فالإجماع على قبولها قطعا بالسمع لوجود النص كقوله تعالى : « قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »[2] ولأنه إذا قطع بقبول توبة الكافر كان ذلك فتحا لباب الإيمان ، وسوقًا إليه ، وإذا لم يقطع بتوبة المؤمن كان ذلك سدًّا لباب العصيان ومنعا منه .

وبالتوبة النصوح يدخلكم الله - جل شأنه - جنات تجرى من تحت قصورها وبين أشجارها أنهار تجد فيها النفس ما تهواه وما تشتهيه وذلك (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) .

والمراد بنفى الإخزاء إثبات الكرامة والعز ، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق ، وحث للمؤمنين على مضاعفة الحمد والثناء على الله حيث عصمهم من مثل حال الكفار ،ويقصد بالإيمان نوره الكامل على ما ذكره الخفاجى (نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين عند مرورهم على الصراط . قال الضحاك : ما من أحد إلَّا يُعطى نورا يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين فقالوا : (رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا) ، وكون هذا القول يقوله المؤمنون إذا طفىء نور المنافقين نقل أيضا عن مجاهد وابن عباس وغيرهما ، وعن الحسن أنهم يقولون ذلك تقربا إلى الله مع تمام نورهم ، وقيل : تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامها تفضلًا ، وقيل : السابقون إلى الجنة

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٥٣

(٢) سورة الأنفال : من الآية ٣٨

يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبوا وزحفا وأولئك هم الذين يقولون : (رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا) .

(إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى : إنك البالغ القدرة على كل شىء من المغفرة والعذاب ، والرحمة والعقاب واستجابة الدعاء وتحقيق الرجاء .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) : من الغلظة وهى الشدة أى : واستعمل الشدة والخشونة مع الفريقين فى جهادهما .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) : المأوى المسكن أى : ومسكنهم جهنم .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : جهنم أو مأواهم .

التفسير

٩ـ (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

المعنى : جاهد أيها النبى الكفار بالقتال ، والمنافقين بالحجة وإقامة الحدود ، واستعمل مع الفريقين الشدة والخشونة فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة ، وعن الحسن أكثر ما كان يصيب الحدود فى ذلك الزمان من صيغ المنافقين ، فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يغلظ عليهم فى إقامة الحدود .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : بمعنى أن مسكنهم الذى يرجعون إليه فى الآخرة جهنم التى سيذوقون فيها أشد العذاب ، وأقساه ، وقبح ذلك المسكن الذى كبكبوا فيه هم والغاوون لما اشتمل عليه من شدائد وأهوال تجعل الولدان شيبا .

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(فَخَانَتَاهُمَا) : من الخيانة وهى مخالفة الحق نقضا للعهد بما صدر عنهما من كفر وعصيان ، ونقيضها الأمانة . ولاتفسر الخيانة بالفجور لما يأتى فى الشرح .

(فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) أى : من عذابه شيئا من الإغناء .

(ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) أى : مع سائر الداخلين الذين لاصلة لهم بالأنبياء .

(أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) أى : صانته عن دنس المعصية .

التفسير

١٠ ـ(ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) :

ضرب المثل فى مثل هذا عبارة عن إيراد حالة غريبة لتُعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها فى الغرابة .

والمعنى : مثَّل الله ـ عز وجل ـ حال الكافرين فى أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة ، ولا يجديهم نفعًا مع عداوتهم لهم ، ما كان بينهم من النسب والمصاهرة ، وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر نبيًّا . مثل الله ذلك بحال امرأة نوح وامرأة لوط حالًا ومآلًا (كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ) أى : فى عصمة نبيين عظيمى الشأن رفيعى القدر عندهما ليلًا ونهارًا يواكلانهما ويعاشرانهما متمكنين من تحصيل خيرى الدنيا والآخرة ، وحيازة سعادتهما (فَخَانَتَاهُمَا) بما صدر عنهما من كفر وعصيان مع تحقق ما ينافيهما من مرافقة كلتيهما لنبى كريم ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس عنه : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على ضيف زوجها إذا نزل به .

رُوى ذلك عن جمع وصححه الحاكم عن ابن عباس .

وأخرج ابن عدى والبيهقى فى شعب الإيمان وابن عساكر عن الضحاك أنه قال : خيانتهما النميمة ، وتمامه فى رواية أخرى كانتا إذا أوحى الله تعالى بشىء أفشتاه للمشركين . ولا تفسر الخيانة بالفجور لما أخرج غير واحد عن ابن عباس ما زنت امرأة نبى قط ورفعه أشرس إلى النبى ﷺ قال صاحب الكشاف : لا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور ؛ لأنه سمج فى الطبع نقيصة عند كل أحد .

وفى هذا تصوير لحال المرأتين المماثلة لحال الكفرة فى خيانتهم لرسول الله ﷺ بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة .

وقوله تعالى : (فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا) بيان لما أدى إليه خيانتهما أى : فلم يغن الرسولان الكريمان عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من صلة الزواج إغناءً مَا من عذاب

الله لكفرهما بالرسولين وإفشاءِ أسرارهما ، وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة : ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط .

١١ - (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

المعنى : مثّل الله حال المؤمنين فى أن وصلة الكفار لا تضرهم ، ولا تنقص شيئًا من أجورهم وزلفاهم عند الله ، بحال امرأة فرعون ، منزلتها العظيمة ، ومكانتها الرفيعة عند الله ولم ينقصها أنها كانت تحت أعدى أعداء الله وذلك (إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) أى : قريبًا من رحمتك : لأنه تعالى منزه عن المكان ، وجوز أن يكون المراد بعندك أعلى درجات المقربين ؛ لأن ما عند الله خير لإرادة القرب من العرش ، قالت ذلك وهى تعذب بالأوتاد الأربعة .

أخرج أبو يعلى والبيهقى بسند صحيح عن أبى هريرة أن فرعون أوتد لإمرأته أربعة أوتاد فى يديها ورجليها . فكانت إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة - عليهم السلام - فقالت : (رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) .

وفى رواية عبد بن حميد عن أبى هريرة عنه أنه قال : إنه وتد لها أربعة أوتاد وأضجعها على ظهرها وجعل على صدرها رحى ، واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء فقالت : (رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) .

روى أنها لمَّا قالت ذلك أُريت بيتها فى الجنة درة ، وانتزعت روحها ، وهى آسية بنت مزاحم آمنت بموسى - عليه السلام .

(وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ) أى : من نفسه الخبيثة ؛ لأنه بجوهره عذاب ودمار يطلب الخلاص منه ثم طلبت ثانيًا النجاة من عمله تنبيهًا على أنه الطامة الكبرى فهو الكفر ،

والظلم ، والتعذيب ، وغير ذلك من القبائح (وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ) من القبط كلهم فهم تابعون له فى الظلم قاله مقاتل وهم أهل مصر إذ ذاك .

١٢ - (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ) :

عطف قوله - سبحانه - : (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ) على امرأة فرعون أى : ضرب الله مثلًا للذين آمنوا حالها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء عالمى زمانها مع أن أكثر قومها كانوا كافرين ، وجمع فى التمثيل بين من لها زوج ومن لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييبًا لقلوبهن كما قيل وهى من أعقاب هارون أخى موسى - عليهما السلام - وقد صانت فرجها وحفظته من الرجال أو من دنس المعصية (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) المخلوقة لنا بلا توسط أصل ، والنافخ جبريل - عليه السلام - وإسناده إليه - تعالى - على المجاز أو على حذف مضاف بمعنى فنفخ رسولنا فيه أى : فى الفرج . والذى اشتهر بين العلماء أن جبريل نفخ فى جيبها[1] فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى - عليه السلام- ، وقد روى عن قتادة ، وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها[2] وهو محتمل ؛ لأن الفرج فى اللغة فرجة بين الشيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ فى مدحها والثناء عليها ؛ لأنها إن منعت جيب درعها فهى للنفس أمنع وفى ذلك من الوصف بالعفة ما فيه وفى مجمع البيان عن الفراء أنها منعت جيب درعها عن جبريل - عليه السلام - لَمَّا تمثل لها بشرًا سويًا . وكان ذلك على ما قيل: قولها : « إِنِّىٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا »[3] .

(وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ) أى : آمنت بصحفه المنزلة على إدريس وغيره ، أو بما أوحى منها إلى أنبيائه ، وسماها كلمات لقصرها وصدقت كذلك بجميع كتبه والمراد بها ما عدا الصحف مما فيه طول أو يراد بها جميع ما كتب مما يشمل اللوح وغيره ، وكما قيل

---

(١) جيب القميص ما ينفتح على النحر ا هـ مصباح .

(٢) الدرع القميص .

(٣) سورة مريم : من الآية ١٨

يجوز أن يراد بالكلمات وعده - تعالى - ووعيده أو ذلك وأمره - عز وجل - ونهيه إلى غير ذلك من أقوال .

(وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) . من عداد المواظبين على الطاعة المؤثرين لها ، والتذكير على التغليب حيث لم يقل من القانتات ، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم وهذا أبلغ من التأنيث ، وجوز أن يكون المعنى وكانت من نسل القانتين لأنها من سلالة هارون أخي موسى - عليهما السلام - (وعليه تكون مِنْ لابتداء الغاية لا للتبعيض) ومدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع يتبع أصله ، وهي على ما في بعض الأخبار سيدة النساء ومن أكملهن .

روى أحمد في مسنده سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية ثم عائشة ، وفي الصحيح كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، وهي حَرِيَّة بمزيد من الفضل .

وحسبك أنها عقلت من النبي ﷺ ما لم يعقل غيرها من النساء ، وروت عنه ما لم يرو مثلها أحد من الرجال .

ثم لا يخفى أن فاطمة - رضي الله عنها - وهي بضعة من الرسول ﷺ لا يعدلها في الفضل أحد .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب١٦٧٩/١٩٨٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
١٣٤١ — ١٩٨٩ — ٢٥٠٠٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السابع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٩٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٦٧٧٨ — ١٩٨٩ — ٢٥٠٠٤

سورة الملك

مكية وآياتها ثلاثون آية

مقاصدها :

تتضمن هذه السورة تنزيه الله الذى فى قدرته الملك وهو على كل شىء قدير ، كما تصفه بأنه – سبحانه – خلق الموت والحياة ليختبرهم ويجزيهم على أعمالهم ، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وتصفه بأنه خلق سبع سموات طباقاً لاعيب فيها ، وأنه زين السماء الأُولى بمصابيح وهى النجوم ، وتوعدت السورة الذين كفروا بربهم بعذاب جهنم ، وتصف حالهم فيها واعترافهم بخطئهم فى الكفر ، وتعقب ذلك ببيان حسن المصير للمتقين ، وأنه – تعالى – يعلم أعمال عباده خفية كانت أو علنية ، وأنه ذلَّل الأَرض ومدَّها لكى تتيسر لهم الأَرزاق بسيرهم فيها طلبًا للرزق ، وحذرت الكفار من أن يخسف الله بهم الأَرض ، أو يرسل عليهم ريحًا ترميهم بالحصباء ، ووجهت نظرهم إلى أنه – تعالى – سَهَّل للطير أسباب الطيران فى الجو ، ولولا ذلك ما استطاعت ، وأنه تعالى لو أمسك رزقه عن الناس فلا رازق لهم سواه ، وبينت أنه – سبحانه – خلقهم ومنَّ عليهم بالسمع والأَبصار والقلوب ، وأنه خلقهم فى الأَرض وإليه البعث والنشور بعد الموت ، وبينت أن الكفار يسأَلون رسولهم عن موعد هذا البعث وأنه – تعالى – أمر رسوله بإبلاغهم أن علم ذلك عند الله وحده ، وذكرت أنه لو أهلك النبىَّ ومن معه كما تمنى الكفار ، أو رحِمهم بالإبقاء فمن الذى يجير الكافرين من عذاب أليم ينتظرهم يوم القيامة لكفرهم ، وبينت أنه – سبحانه – هو الرحمن لمن آمن به ، وهو الذى يجيرهم من عذاب أليم ، وأن الماءَ لو أذهبه الله من الآبار فمن الذى يأْتيهم بماء معين سواه ، ومن كان هذا شأْنه فى ملكه فلا بد من الإيمان به .

صلة هذه السورة بما قبلها :

لما ضرب الله مثلًا للكفار فى آخر السورة التى قبلها بامرأة نوح وامرأة لوط الكافرتين ، وأنه لم يشفع لهما كونهما زوجتين لرسولين ، وضرب مثلا للمؤمنين بآسية امرأة فرعون ،

ومريم ابنة عمران ، ولم يضر الأولى كفر زوجها ، كما لم يضر الثانية كون أكثر قومها كفاراً ، افتتح هذه السورة بما يدل على تصرفه الكامل فى ملكه فقال - سبحانه - : (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) إلى غير ذلك من الأمور المشتركة بينهما .

أسماء السورة وفضلها :

جاء فى تعدد أسمائها أحاديث يؤخذ منها أنها تسمى « تبارك » و « المانعة » و « المنجية » و « المجادلة » كما تسمى سورة « الملك » ، وقد ذكر هذه الأحاديث الآلوسى فى مستهل كلامه عنها ، ولم نذكرها تجنباً للإطالة .

وقد جاء فى فضلها حديث أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، وغيرهم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سورة من كتاب الله ماهى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل حتى غُفِر له : (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) » .

وفى حديث رواه الطبرانى ، وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود « مَنْ قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطيب » . . إلى غير ذلك من الأحاديث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(تَبَارَكَ) : تعالى وتقدس .

(بِيَدِهِ الْمُلْكُ) : تحت قدرته وطوع أمره ملك السموات والأرض .

(لِيَبْلُوَكُمْ) : ليختبركم .

(سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً) : بعضها فوق بعض ، جمع طبق أو طبقة .

(فُطُورٍ) : شقوق وخروق .

(كَرَّتَيْنِ) أى : رجعة بعد أخرى ، فالمراد من الرجعتين التكرار بكثرة .

(خَاسِئًا) : صاغرًا متباعدًا عن أن يرى شيئاً من ذلك .

(حَسِيرٌ) : [illegible] الإعياء والتعب .

التفسير

١ - (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : تعالى الله الذى تحت قدرته وطوع مشيئته ملك السموات والأرض ، يدبره ويزيد فيه بحكمته ، وتعاظم عن كل ما سواه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وتقدس وتنزه عن الشريك والنظر فى إبداع هذا الملك العظيم ، فكل ما سوى الله مخلوق له - جل وعلا - ، وهو على كل شىء لم يوجد من الممكنات عظيم القدرة على إيجاده وتحقيقه[1] .

٢ - (الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) :

هذه الآية استئناف لتفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم واستتباعهما لغايات جليلة .

والموصول هنا (الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) بدل من الموصول السابق (الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ، وصلته كصلته فى الشهادة بتعاليه - عز وجل - .

وجوز الطبرسى كونه خبرًا لمبتدأ محذوف ، أى : هو الذى .

وبين الله - تعالى - الحكمة فى خلقهما بقوله : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) أى : ليعاملكم معاملة المختبر ليظهر أيكم أصوب عملًا وأخلصه ، فيجازيكم بمراتب مختلفة من الجزاء حسب تفاوت أعمالكم ، وهو عليم أزلا بما سوف يحصل منكم باختياركم : والمراد من العمل ما يشمل عمل القلب والجوارح ، ولذا قال ﷺ فى الآية : (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) وأورعكم عن محارم الله - تعالى - وأسرع فى طاعة الله - عز وجل - .

وعلق عليه الآلوسى بقوله : أى : أيكم أتم فهما لما يصدر عن جناب الله - تعالى - وأكمل لما يؤخذ من خطابه - سبحانه - .

وأجيب بأن المقصد الأصلى للابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقيق أصل الإيمان والطاعة فى الباقين أيضاً - ، لكمال تعاضد الموجبات له ، وأما العمل القبيح فبمعزل

---

(١) هكذا فسر صاحب الكشاف جملة: (وهو على كل شىء قدير) لتتضمن معنى جديدا غير ما تضمنه صدر الآية .

عن الاندماج تحت الوقوع ، فضلاً عن الانتظام فى سلك الغاية أو الغَرضِ ـ عند من يراه لأفعال الله ـ عز وجل ـ وإنما هو عمل يصدر عن عامله لسوء اختياره من غير مصحح له ، وفيه من الترغيب فى الترق إلى معارج إلى العلوم ومدارك الطاعات مالا يخفى .

انتهى من الآلوسى بتصرف يسير .

وختم الله الآية بقوله : (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) :

أى : الغالب الذى لا يعجزه عقاب من أساء ، الغفور لمن أساء منهم أو تاب .

٣ ـ (الَّذِى[١] خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّاتَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ) :

كل ما علاك سماء ، من السمو بمعنى الرفعة ، ولهذا يطلق لفظ السماء على الغلاف الجوى الأزرق الذى يعلو الأرض ، ويحيط بها ، ويطلق أيضاً على السحب المطرة أوغيرها ، بل يطلق على المطر نفسه مجازًا ، لأنه نزل من السماء بمعنى السحاب ، يقول بعض العرب : ما زلنا نطأُ السماء حتى أتيناكم ، أى نطأ المطر الذى فوق الأرض ، وكذلك يطلق على النجوم والكواكب لارتفاعها .

والمراد من السموات السبع غير هذا كله فهى من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وهى التى عرج بالنبى ﷺ إليها .

ولا سبيل إلى أن يراد منها النجوم والكواكب ، لأنها زينة للسماء الدنيا ـ أى : الأولى ـ لقوله تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)[٢] وقوله :(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)[٣] .

ولا شك أن زينة الشيء غير هذا الشيء ، فمثلا زينة الفتاة غير الفتاة نفسها ، والله ـ تعالى ـ يقول فى سورة الكهف الآية ٧ : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا) فالأشجار والزروع والجبال ونحوها زينة للأرض وليست هى الأرض .

---

(١) لفظ (الذى) نعت للعزيز الغفور ، أو بيان ، أو بدل ، ولفظ (طباقا) صفة لسبع .
(٢) من الآية الخامسة لهذه السورة . (٣) الآية السادسة من سورة الصافات .

كما أن النجوم والجبال ليست سبعاً ، لا فى نفسها ولا فى المجرات التى تتبعها ، فهى ملايين الملايين التى لايحصيها إلَّا الله ـ تعالى ـ ، كما أن عدد المجرات وعدد طبقاتها لايحصيه إلَّا الله ـ تعالى ـ وليست سبعاً .

وهذه الآية من أعظم الآيات على تعاليه ـ سبحانه ـ فوق كل شىء .

والمراد من التفاوت فى قوله ـ سبحانه ـ : (مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ)[1] المراد منه الاختلاف وعدم التناسب ، وفسره السُّدِّى بالعيب ، وإليه يرجع قول من قال : أى : من تَفَاوُتٍ يورث نقصًا ، والفطور هى الشقوق ، جمع فَطْرٍ بمعنى شقٍّ يقال : فطره فانفطر أى : شقه فانشق ، والمراد نفى الخلل والعيب فى خلقها ، والخطاب فى الآية لكل من يصلح له من المكلفين .

والمعنى الإجمالى للآية : الذى خلق سبع سموات بعضها فوق بعض طباقاً ، ما ترى فيها أيها الناظر من عيب أو اختلاف فى درجات الإتقان والإبداع ، فإن كنت فى شك من ذلك فَرَدِّدْ طرفكَ فى نواحيها وقلبه فى أرجائها فانظر هل ترى فى خلق الرحمن من عيوب ؟ .

والتعبير بلفظ (مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ) بدلاً من أن يقال : مَا تَرَى فِى خَلْقِ القادر ، للإيذان بأنه ـ تعالى ـ خلقها بقدرته رحمة بعباده .

٤ ـ (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) :

أى : ثم ردِّد البصر وقلبه فى أرجاءِ السماء ، يرجع إليك بصرك بعدهما بالصغار وعدم إصابة الغرض من رؤية خلل أو عيب فيها ، كأنما طردته السماءُ عن أن يعود إلى البحث عن عيب فيها ، من خسأَ الكلبَ أى : طرده .

وفسر بعض اللغويين لفظ (خَاسِئاً) بـ « متحيرًا » .

---

(١) هذه الجملة نعت ثان للعزيز الغفور .

وليس المقصود من الكرتين المرتين فقط ، بل المراد منه كثرة التكرير ، أى : رجعات كثيرة بعضها فى إثر بعض ، كما قالوا فى لبيك وسعديك : أى إجابات كثيرة لك يا الله لدعوتك إيانا للحج إلى بيتك المحرم ، ومن تفسير المثنى بالكثير قول الشاعر :

لو عُدَّ قَبرٌ وقبرٌ كان أكرمَهُم   بيتاً وأبعدهم عن منزل الذّامِ

لأنه يريد : عُدَّت قبور كثيرة .

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾)

المفـردات :

(السَّمَآءَ الدُّنْيَا) : السماء القربى منكم وهى الأُولى .

(بِمَصَابِيحَ) : جمع مصباح وهو السراج ، والمراد منها النجوم ، سميت بذلك لإضاءتها .

(وَجَعَلْنَاها رُجُومًا) : رجوما جمع رجْم ، وهو مصدر سمى به مايرجم به ، أى : وجعلنا شهبها التى هى مصدرها .

(وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) : أى : وأعددنا للشياطين أشد الحريق ، يقال : سعرت النار فهى مسعورة وسعيرة أى : أوقدتها فهى موقدة .

التفسير

٥ ـ (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) :

دلت الآية السابقة على أن هذه المصابيح زينة للسماء الدنيا وليست هى السماء الدنيا كما تقدم بيانه .

وكلها تدور بقدرة الله فى الفضاء على وجه مخصوص تقتضيه الحكمة ، ومجاريها فيه هى أفلاكها ، وقد ارتبط بعضها ببعض برباط الجاذبية ، ولكل منها حركات حول نفسها وحركات غير ذلك ، وهى متفاوتة قرباً وبعدًا تفاوتاً لا حد له ، وإن منها مالا يصل شعاعه إلينا إلا بعد عدة سنين ، فى حين أن شعاع شمسنا يصل إلينا فى ثمانِ دقائق وثلاث عشرة ثانية ، مع أن بيننا وبينها أربعة وثلاثين مليوناً من الفراسخ[1] فما أعظم قدرة الله وحكمته فى إبداع هذا الكون العظيم .

وجاء فى الآية أن الله تعالى جعل هذه المصابيح رجومًا للشياطين ، والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمى به ما يرجم به ـ كما تقدم فى بيان المفردات ـ والمقصود أنها مصدر رجم الشياطين ، للحيلولة بينهم وبين استراق السمع من الملائكة الذين حول الأرض ، وهم يتحدثون فى بعض أمور الغيب التى وكلت إليهم ، ولكن هذه المصابيح لاتترك مدارها ، فهى باقية فيه حتى تنفطر السماءُ وتنتثر الكواكب ، وتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، وفى كون الرجم بأجزاء صغيرة جدًّا من تلك الكواكب وتسمى شهباً يقول الله ـ تعالى ـ فى سورة الصافات : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَّايَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ »[2] وفى سورة الجن : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا

---

(١) هذه المعلومات عزاها الآلوسى لعلماء الهيئة وقد نقلناها عنه . بتصرف يسير .
(٢) الآيات من ٦ ـ ١٠ .

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا »[١] . والمقصود من السماء التى كانوا يقصدونها الجو الذى يعلو الأرض ، فإنه يسمى سماء لغة ، لِسُمُوِّهِ ، أى : لارتفاعه .

وقد عرفنا من هاتين الآيتين وغيرهما من الأحاديث أن الجن كانوا يسترقون السمع قبل نبوة محمد ﷺ من الملائكة فى جو الأرض ، وينقلون ما يسمعون من الغيب إلى كهان الأصنام من أجواف هذه الأصنام ، فيستغله الكهان ويضيفون إليه ما شاءوا من الأكاذيب تقوية لزعامتهم الدينية .

وقد دلت الآيتان على أن السماء - أى : الجو الذى حول الأرض - ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا وأن من يستمع الآن يجد له شهاباً يرصده فيقتله ، وذلك بعد بعثة النبى ﷺ حتى يسلم الوحى من أراجيف الشياطين ، كما دل عليه قوله تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »[٢] وكما دلت عليه السنة .

وهذه الظاهرة التى وجدوها فى حراسة السماء جعلتهم يبحثون عن سببها حتى سمعوا النبى ﷺ يقرأ القرآن ، ويدعو إلى عبادة الله - تعالى - وحده فآمن منهم من آمن ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - حكاية عن هؤلاء الجن : « وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »[٣] .

ونزول الشهب المضيئة المحرقة ظاهرة كونية قديمة ناشئة عن انفصال أجزاء صغيرة من هذه الكواكب وجذب الأرض لها فتشتعل من سرعة وقوة احتكاكها بالهواء ، والله - تعالى -

---

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الجن من الآية ٢٦ إلى آخر السورة .

(٣) سورة الجن الآيات من ١٣ - ١٥ .

هو الذى يعلم لماذا كانت تنزل قبل البعثة المحمدية ويعلم مختلف مصادرها ، وقيل فى معنى الآية : وجعلناها ظنوناً ورجوماً لشياطين الإنس وهم المنجمون المعتقدون تأثير النجوم فى السعادة والشقاوة ونحوهما ، ولكن الآلوسى رفض هذا الرأى ، ونحن كذلك نرفضه لأنه مخالف للنصوص الأخرى التى مرّ ذكرها .

وقد ذكر القرطبي ردًّا على ذلك قول محمد بن كعب : والله مالأحد من أهل الأرض فى السماء نجم ، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا ، ويتخذون النجوم عِلَّة ، ونقل أيضاً عن قتادة تعليقاً على الآية قوله : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها فى البر والبحر والأوقات ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به وتعدى وظلم .

وتعقيباً على ما قاله قتادة نقول : إن هذه الأمور الثلاثة مأخوذة من نصوص فى القرآن الكريم ، ولكنها لا تمنع أن تكون لها غايات أعظم غير هذه الأمور الثلاثة ، ولكن الله ـ تعالى ـ لم يصرح بها لأنها من شئون الغيب الذى استأثر الله بالعلم به لأن البشر ليسوا بحاجة إلى علمها ، ولأنها فوق مستوى عقولهم .

والمعنى الإجمالى للآية : ولقد زينا السماء الأولى بأجرام شبه المصابيح فى إضاءتها فتخفف ظلام الليل ، وجعلنا المصابيح مصادر للشهب التى يرجم بها الشياطين الذين يحاولون استماع الغيب من الملائكة الذين يوجدون فى سماء [illegible] إذ لا قدرة لهم على الوصول إلى أى كوكب من كواكبها ، فضلا عن [illegible] إلى السماء نفسها . وأعتدنا لهؤلاء الشياطين ولأمثالهم فى الكفر عذاب النار المشتعلة فى الآخرة بعد الإحراق فى الدنيا لمسترق السمع منهم بالشهب ، فإن قيل : إن الشياطين خلقوا من النار فكيف يعذبون بها ؟ قلنا : إن النار هى مادة خلقهم ، ولكنهم تحولوا إلى أجسام أخرى قابلة للاحتراق بها ، كما تحول بنو آدم من الطين إلى أجسام خالية من الطين .

٦ ، ٧ ـ (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [illegible]

أى : وللكافرين بربهم من الإنس عذاب جهنم مثل ما للجن من عذاب ، وبئس المآل والمرجع لكليهما جهنم ، إذا طرح فيها هؤلاء الكافرون ، سمعوا لها وهى تغلى وتفور - سمعوا لها - صوتاً منكرًا يشبه فى فظاعته ونكره صوت الحمير .

وكما يعذب الكافرون بالنَّار يعذب عصاة المؤمنين بها ، كما تدل عليه النصوص الواردة بشأنهم فى آيات أُخرى ، فلا حُجَّةَ للمرجئة فى الاستدلال بالآية الأُولى على أن التعذيب بالنَّار خاص بالكفرة دون عصاة المؤمنين .

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾)

المفــــردات :

(تَمَيَّزُ[١] مِنَ الْغَيْظِ) : تتقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة الغيظ على أعداء الله ، وفى هذه الجملة استعارة تصريحية أومكنية تخييلية ، وقيل : إنه حقيقة ، وذلك بأن يخلق الله فيها إدراكاً فتغتاظ .

(فَوْجٌ) : جماعة من الكفار ، (خَزَنَتُهَا) : حراسها من الملائكة .

(نَذِيرٌ) : رسول ينذركم .

(بَلَى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ) : نعم قد جاءنا نبى ينذرنا سوء عاقبة الكفر .

(فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) : فبعدًا لهم عن رحمة الله .

---

(١) أصله تتميز فحذفت التاء الأولى تخفيفا وهى تاء المضارعة .

التفســير

٨ ، ٩ - (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ❊ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ) :

استئناف لبيان أحوال أهل النَّار بعد بيان حال النَّار نفسها .

والمعنى : تكاد جهنم تتقطع من شدة غضبها على الكفار ، كلما أُلقى فى النَّار جماعة منهم سأَلهم حراسها - وهم مالك وأَعوانه من الملائكةِ - سأَلوهم - موبخين قائلين : أَلم يأْتكم رسول يتلو عليكم آيات الله ، وينذركم لقاءَ يومكم هذا ؟ أَجابوا معترفين قائلين : نعم قد جاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا فيما جاءَنَا به من الآيات : ما أنزل الله على بشر من شىءٍ وكما قلنا لهؤلاءِ الرسل : ما أَنتم فى ادعاءِ رسالتكم عن الله إلا فى ضلالٍ وبعد كبير عن الحق والصواب ، وجوز الزمخشرى أَن يكون هذا من كلام خزنة النَّار للكفار .

١٠ ، ١١ - (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ❊ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) :

هذا اعتراف آخر من أَهل النَّار ، وكأَن خزنة النَّار قالوا لهم : أَلم تسمعوا آيات ربكم وتعقلوها ؟ فقالوا معترفين : لوكنا نسمع كلام الرسل سماع فهم وتدبر أَو نعقله ، ما كنا فى أَصحاب النار ، أَى : فى عدادهم ومن جملتهم ، فكلام الرسل كان أَولى بتصديقنا لكونه جارياً على سُنَّة الحجة ، ومبنياً على البرهان ، فكان هذا اعترافاً من الكفار بذنبهم فى الإعراض عن الحق المبين ، فبُعْدًا لهم عن رحمة الله .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) : عليم بما انطوت عليه الصدور من الخير والشر .

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) : ألا يعلم الله مَن خلقه ذاتاً وأحوالاً .

(وَهُوَ اللَّطِيفُ) : العالم بالخفيات .

(الْخَبِيرُ) : العالم بما يكون قبل أن يكون .

التفسير

١٢ ـ (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) :

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أحوال أهل النَّار من الكفرة ، جاءت هذه الآية لتبشر المتقين بأن لهم فى الآخرة مغفرة وأجرًا كبيرًا .

والمعنى : إن الذين يخافون عذاب ربهم غائباً عنهم أو غائبين عنه لأنه مستقبل وغيب لاسبيل إلى رؤيته ، أو غائبين عن أعين النَّاس غير مرائين بخشيتهم لربهم ، أو يخشونه بما خفى منهم وهو قلوبهم ، لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم ، وثواب كبير لا حد لكبره .

١٣ ، ١٤ ـ (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) :

الخطاب هنا لجميع عباد الله لتعريفهم سعة علمه ـ تعالى ـ من غير حدود ، وأنه لافرق عنده ـ سبحانه ـ بين السر والجهر ، فهما عنده على سواء .

ومعنى الآيتين : وأسروا ياعباد الله قولكم واجعلوه خفيًّا أو اجهروا به وأعلنوه فإن الله تعالى بكليهما عليم ؛ فهو ـ سبحانه ـ واسع العلم بمضمرات جميع الخلائق وأسرارهم المستكنة فى صدورهم لا تفارقها ، فكيف تخفى عليه أعمالكم وأقوالكم التى يجازيكم عليها .

ألَا يعلم ذلك من أوجد بحكمته جميع الأشياء التى هى من جملتها ، والحال أنه تعالى هو العالم بخفايا الأمور ، الخبير بما يستجد منها .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(ذَلُولًا) : سهلة تستقرون عليها ، والذلول : المنقاد الذى يذل ويخضع لك ، والمصدر الذُّل وهو اللين والانقياد .

(فِى مَنَاكِبِهَا) : فى جبالها كما قاله ابن عباس ، أوطرقها وفجاجها كما قاله الحسن ، قال القرطبى : وأصل المنكب الجانب ، ومنه منكب الرجل ، والريح النكباءُ ، وتنكب فلان عن فلان ـ أى : اجتنبه ـ والأمر بالمشى فيها للإرشاد والطلب .

التفسير

١٥ ـ (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) :

والمراد من هذه الآية ـ على تفسير ابن عباس للمناكب ـ أنه تعالى جعل الأرض كلها سهلة السلوك لطلب الرزق سهولًا وجبالا .

والمعنى عليه : هو الله وحده الذى جعل الأرض حين خلقها سهلة منقادة للإنسان فى إقامته وفى مشيه لطلب الرزق وسواه من الأغراض ، فلا يمتنع عليه شىء فيها حتى جبالها ، فقد أوجد فيها مسالك للمشى فيها ، فامشوا فى مناكبها وجبالها ، وكلوا من رزقه بسعيكم إليه فى إقامتكم وفى أسفاركم ، وإليه تعالى رجوعكم بعد بعثكم فبالغوا فى شكر نعمه التى منها تذليل الأرض وتمكينكم منها وبث الرزق فيها ، ليحسن ثوابكم على شكركم ، وتفسير الآية على رأى الحسن : فامشوا فى طرقها وفجاجها ... إلخ .

(ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾)

المفـردات :

(يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ) : يهبطها بكم إلى أسفل مما جاورَها .

(تَمُورُ) : ترتج وتهتز اهتزازًا شديدًا ، وأصل المور : التردد فى المجىء والذهاب .

(حَاصِباً) : ريحاً تحمل الحصباء تقذفون بها .

(نَكِيرِ) : إنكارى عليهم بإنزال العذاب .

التفسـير

١٦ ـ (ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ) :

الخطاب هنا لأهل مكة ، فالسورة مكية ، وهم الذين كانوا يحاربون الإسلام ، والاستفهام توبيخى يقصد به النهى ، كأنه قيل لهم : لا تأمنوا عقاب من فى السماء .

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى فى السماء ، مع أنه سبحانه موجود قبل خلقها ، وللعلماء فى هذا وأمثاله مذهبان : أحدهما (مذهب السلف) وهم يسلمون بدلالة النص [1] ، وعليه أئمة السلف ، والآية عندهم من المتشابه ، وفيه يقول ﷺ : « آمنوا بمتشابهه » ولم يقل أوّلوه ، فهم مؤمنون بأنه عز وجل فى السماء على المعنى الذى أراده الله سبحانه مع كمال

---

(١) مع تنزيهه عن مشابهة الحوادث .

التنزيه ، أسند البيهقى بسند صحيح عن أحمد بن أبى الحوارى عن سفيان بن عيينة : كل ماوصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه.

وهذه طريقة الشافعي وأحمد بن حنبل ، ويقول الآلوسى : إن هذا هو رأى العصر الثالث ، وهم فقهاءُ الأمصار ، كالثورى والأوزاعى ومالك والليث ومن عاصرهم .. إلخ .

(المذهب الثانى) مذهب الخلف ، وهم يؤولون فيقولون : من فى السماء أمره وقضاؤه فالسماء مصدر أوامره إلى ملائكته ، ومنها يصدر قضاؤه ، فكأنه قيل : أأمنتم من ملكوته ومصدر أحكامه فى السماء ، والذى دفعهم إلى التأويل هو تنزيهه سبحانه عن المكان .

ومعنى الآية إجمالاً : هل أمنتم ياكفار مكة مَنْ عزه ومصدر قضائه فى السماء أن يخسف بكم الأرض ويهبطها وأنتم فوقها لتهلكوا فى جوفها ، فإذا هى حين الخسف ترتج وتهتز اهتزازًا شديدًا .

١٧ - (أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) :

بل أأمنتم مَنْ ملكوته فى السماء أن يرسل عليكم ريحًا تحصبكم بالحجارة كقوم لوط ، فستعلمون ما حال إنذارى وقدرتى على إيقاع العذاب بكم عند مشاهدتكم للمنذر به ، ولكن لاينفعكم العلم حينئذ ، وقد نجاهم الله من هذا والذى قبله بإيمانهم جميعاً فى السنة الثامنة من الهجرة .

١٨ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [1]) :

ولقد كذب الذين من قبل كفار مكة مثل قوم نوح وعاد ، فكيف كان إنكارى عليهم بإنزال العذاب بهم ؟! أى : كان فى غاية الهول والفظاعة ، وفى الكلام من المبالغة فى تسلية رسول الله ﷺ وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى .

---

(١) الاستفهام فى (كيف) للتهويل .

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(صَافَّاتٍ) : باسطات أجنحتهن .

(وَيَقْبِضْنَ) : ويضممنها إلى جنوبهن .

(مَا يُمْسِكُهُنَّ) : ما يحفظهن من الوقوع .

التفسير

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) :

أغفلت قريش التى عبدت الأصنام ، وتركت عبادة القادر الرحمن - أغفلت ولم تنظر إلى الطير فوقهم باسطات أجنحتهن صافات ريشهن ويضممنها[1] إلى جنوبهن للاستظهار بهذا القبض على التحرك ، ما يحفظهن من الوقوع عند البسط والقبض إلا الله الواسع الرحمة حيث خلقهن على أشكال وخصائص ، وألهمهن حركات مكّنتهنّ من السباحة فى الهواء ، إنه تعالى بكل شيء دقيق العلم ، فيعلم سبحانه كيفية إبداع مخلوقاته حتى تؤدى وظائفها التى خلقت لها ، وفى هذا المعنى يقول موسى لفرعون وقد سأله : (فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى) يقول له : (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) كما حكاه الله تعالى فى سورة (طه) .

ولو شاء الله أن يسقطهن على الأرض ، لعطل أجنحتهن فيسقطهن فإن الأرض تجذب

(١) مرة بعد أخرى .

ما فوقها إليها ، ولو شاء أن يبقيهن سابحات فى الجو بدون أجنحة لفعل ومنع الأرض من جذبها ، كما منع النّار من إحراق إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ولكنه تعالى علمنا ربط المسبّبات بأسبابها كما يفعل الله بمصنوعاته .

(أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(جُندٌ) : حزب ومنعة ، ولفظه مفرد ومعناه جمع ، فيصح عود الضمير عليه مفردًا باعتبار لفظه كما فى الآية كما يصح عوده عليه جمعاً[1] .

(يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ) : من غير الرحمن .

(إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ) : ما الكافرون إلّا فى خداع وضلال فاحش .

(إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) : إن حبسه عنكم .

(لَجُّوا) : تمادوا وأصروا .

(عُتُوٌّ) :طغيان وعناد .

(نُفُورٍ) : شراد عن الحق وشدة بعد عنه .

(مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ) : منكسًا رأسه لا ينظرأمامه ولا يمينه ولاشماله .

(سَوِيًّا) : معتدلا .

---

(١) كأن يقال فى غير القرآن : جند لكم ينصرونكم .

التفسير

٢٠ - (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ) :

هذه الآية تبكيت لقريش على عبادتهم مَن لايقدر على نصرهم إن حاربهم غيرهم ، و(أم) فى قوله (أم من) بمعنى بل ، وذلك للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن عجيب آثار قدرته - عز وجل - إلى التبكيت بما ذكر ، والانتقال من الغيبة إلى الخطاب للتشديد فى ذلك .

والمعنى : بل من هذا الحقير الذى - هو فى زعمكم - ينصركم متجاوزًا نصر الرحمن؟! ما الكافرون فى زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم ، لابحفظه تعالى وحده لاشريك له - ما الكافرون فى زعمهم هذا - إلا فى غرور وخداع فاحش من جهة الشيطان ، وليس لهم من نصيب فى الحق فيما يزعمون .

٢١ - (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) :

بل من هذا الرازق المزعوم الذى يرزقكم إن حبس الله رزقه عنكم ؟! إن هؤلاء الكافرين لم يتأثروا بآيات الله الَّذِى لا يرزقهم سواه ، بل تمادوا فى عناد وشراد عن الحق .

٢٢ - (أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

هذا مثل ضرب للمؤمن والكافر فى الدنيا توضيحاً لحاليهما ، والفاءُ فى قوله : « أَفَمَنْ » لترتيب ما بعدها على ما قبلها والهمزة للإنكار : والمعنى : ليس الكافر والمؤمن متساويين فى حاليهما فى الدنيا ، أهما متساويان فيها؟ ليس الأمر كذلك ؛ فمن يمشى منكساً رأسه لاينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله لا يأمن من العثار والانكباب على وجهه فهو ليس كالرجل الذى يمشى سويًا معتدلا ناظرًا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، فإنه يأمن العثار ، وقال قتادة : هو الكافر أكب على معاصى الله فى الدنيا فحشره الله يوم القيامة على وجهه .

(قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(الْأَفْئِدَةَ) : القلوب .

(ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ) : خلقكم ونشركم فيها .

التفسير

٢٣ ، ٢٤ - (قُلْ هُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ • قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

قل لهم أيها الرسول : هو الله الذى أنشأكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأصوات ، والبصر لتنظروا به المرئيات ، والقلوب لتعقلوا وتفهموا بها الأصوات والمرئيات فهلا استعملتموها وانتفعتم بها فى إدراك الآيات الدالة على صاحب تلك النعم ؟! إنكم تشكرون الله على ذلك شكرًا قليلًا مع اعترافكم بأنه تعالى هو الذى خلقها لكم .

وقيل المعنى : لا تشكرون هذه النعم أبدًا كقولهم : قلما أفعل كذا ، أى : لا أفعله ، قل لهم أيها الرسول : الله هو الذى خلقكم فى الأرض ونشركم فيها وإليه تحشرون بعد البعث للجزاء لا إلى غيره ، فلماذا لاتعتبرون ؟

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾)

المفـردات :

(مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ) : فى أى وقت يتحقق الوعد بالحشر .

(نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر ومخوف لكم من سوء العاقبة واضح الإنذار ، من أبان بمعنى أوضَح .

(زُلْفَةً) : قريبًا .

(سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أصابها السوءُ بأن علتها الكآبة والذلة .

(تَدَّعُونَ) : تتمنونه وتطلبونه فى الدنيا وتستعجلون أن يأتيكم .

التفسـير

٢٥ ـ (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

ويقول الكافرون من فرط عتوهم وتكذيبهم : متى يحدث ويتحقق الوعد بالحشر ، أخبرونا بزمانه أيها المؤمنون إن كنتم صادقين فى دعوى البعث والحشر .

٢٦ ـ (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

قل لهم أيها الرسول جوابًا على سؤالهم : ما العلم بوقت القيامة إلّا عند الله تعالى ، فهو من الغيب الذى استأثر الله به ، لأن الحكمة تقتضى ذلك ، وليس من وظائف النبوة إلّا الإنذار بتحققه دون بيان وقته .

٢٧ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ) :

أى فلما رأى الكفار الحشر بعد البعث قريبًا منهم ظهرت الذلة والكآبة على وجوههم ، لأنهم أدركوا ما ينتظرهم من العذاب ، وقيل لهم - على سبيل التبكيت والتوبيخ - : هذا العذاب الذى يلى الحشر هو الذى كنتم به فى الدنيا تطلبون كقولكم ساخرين : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ »[1]. أى : عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة ، وكقولهم : « اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[2]

والتعبير عن العذاب الذى سوف يرونه بأنهم رأوه فعلًا ؛ لتنزيل وعد الله لهم بالعذاب المحقق منزلة الذى تحقق فعلًا .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾)

المفـــردات :

(أَوْ رَحِمَنَا) : بالنصر عليكم .

(فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) : فمن يحميكم منه .

(غَوْرًا) : غائرًا ذاهبًا فى الأرض .

(بِمَآءٍ مَّعِينٍ) : بماء جار ، أو صاف ، فهو بوزن فاعل مِنْ مَعَنَ الماءُ ، أى : جرى ، أو صفا ، أو بوزن مفعول - وأصله معيون - من عين الماء : استنبطه واستخرجه .

(١) من الآية ١٦ من سورة (ص) . (٢) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

التفسير

٢٨ ـ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

قل أيها الرسول لقريش : أخبرونى إن أماتنى الله كما قلتم كذبًا : « شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » أو أهلك من معى من المؤمنين كما تمنيتم ، أو رحمنا فأبقانا ونصرنا عليكم ، فمن هذا الذى يجيركم ويحميكم من عذاب شديد الإيلام فى الآخرة ؟ !

وحاصل المعنى : لا مجير لكم من عذاب النار لكفركم إن انقلبنا إلى رحمة الله بالهلاك كما تمنيتم ، لأن فيه الفوز لنا بنعيم الآخرة ، أو بالنصرة عليكم وإعزاز الإسلام كما نرجو ، لأن فيه الظفر بالحسنيين ، ويتضمن ذلك حثهم على طلب الخلاص من الكفر بالإيمان .

٢٩ ـ (قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

قل لهم أيها الرسول ـ جوابًا لتمنيهم هلاكك ـ : هو الله الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فيجيرنا برحمته من عذاب الآخرة ، ولم نكفر مثلكم حتى تمتنع إجارته لنا ، فستعلمون بعد البعث من هو مِنّا فى الدنيا والآخرة فى بعد واضح عن الحق .

٣٠ ـ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ) :

قل لهم : أخبرونى إن أصبح ماؤكم الذى تشربون منه وتسقون غائرًا فى الأرض واغلًا فى جوفها ، فمن الذى يأتيكم بماء جار أو ظاهر للعيون سهل المأخذ ، لا تستطيع أصنامكم الإتيان به أو بمثله ، والآية كما روى ابن المنذر والفاكهى عن ابن الكلبى ، أنها نازلة فى بئر زمزم وبئر ميمون بن الحضرمى . والله تعالى أعلم .

سورة القلم

هى أول ما نزل من القرآن بعد العلق ، فقد روى عن ابن عباس أن أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم هذه (أى : سورة القلم) ثم المزمل ، ثم المدثر ، وهى مكية وآيُها ثنتان وخمسون آية بالإجماع .

ومناسبة سورة القلم للسورة السابقة (سورة الملك) :

أن سورة الملك اخْتُتمت بالوعيد : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ) [1] واشتملت سورة القلم فى أوائلها عليه .

قال الجلال السيوطى فى ذلك : لما ذكر فى آخر سورة الملك التهديد بتغوير الماء استظهر عليه فى سورة القلم بإذهاب ثمر أصحاب البستان فى ليلة بطائف طاف عليها وهم نائمون ، فأصبحوا ولم يجدوا لجنَّتهم أثرًا حتى ظنوا أنهم ضَلُّوا الطريق إليها .

المعنى العام للسورة

فى السورة الكريمة قسم بالقرآن وما يُسطَّر به ، والمُقْسَم عليه : ما أنت يا محمد وقد أَنعم الله عليك بالنّبوة وفضَّلك بالرِّسالة بمجنون ولا سفيه الرأى كما يدَّعى المشركون .

ثم ساقت بِشارة له : وإنَّ لك يا محمد على ما تبذله فى تبليغ الدعوة لأَجرًا غير مقطوع ومَدْحًا كأَبلغ ما يكون المدح والثَّناءُ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فقد أَدَّبك ربّك فأَحسن تأْديبك ، وتسلية له .

وعن قريب ستبصر ويبصر الكافرون أيكم المجنون ، وإنَّ ربَّك أعلم بمن ضَلّ عن سبيله وحاد عن طريق الحق فكفر ، وهو أعلم بالعقلاء المهتدين المؤمنين .

---

(١) سورة الملك الآية : ٣٠ .

ثم ذكرت السورة توجيهاتها للرسول : فدم يا محمد على طريقتك مِنْ مُخَالفة المكذبين ، لقد تَمَنّوا لو تلين لهم بعض الشيء وتعبد ما يعبدون ولو زمنًا قليلًا فهم يَلِينُون لك لا حُبًّا فى الإسلام ولكن طمعًا فى ضَمِّك إلى صفِّهم .

ثم نهت عن طاعة كل مَن اتَّصف بهذه الصِّفات الذَّميمة ، والنُّعوت القبيحة فقالت : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ) ولِأنَّه صاحب مال وبنين كذب بآياتنا وأعرض عنها فجعل الكفران مكان الشكر والعرفان ، سنسمه بسمة ونجعل على أنفه علامة ليكون مفتضحًا بها بين الناس .

واشتملت السورة على تشبيه ما وقع لأهل مكة من العذاب والقحط بما وقع لأصحاب الجنة الَّذين جاءت قصتهم فيها ، وعلى تبشير المؤمنين بما أُعِدَّ لهم عند ربّهم مِنْ جزاءٍ وثواب وعدم التَّسوية بينهم وبين الكافرين ، وأنكرت على المكذبين ما يدَّعون لأنفسهم بغير حق (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) كما جاء فيها وصف حال الكافرين والمُعرضين وما ينالهم من العقاب ، والنُّصح لرسول الله بالصبر والاحتمال ولا يكون كأخيه يونس - عليه السلام - فى سرعة غضبه والغضب على قومه ، وذكرت السورة ما كان الكفَّار يُضْمِرُونه لرسول الله من بُغْض وعداوة وقد ظهر هذا على وجوههم وهم ينظرون إليه شزرا حين يتلو القرآن ، ويرمونه بالجنون .

وختمت بتمجيد القرآن وبيان فضل الرسول وقدره (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ).

بسم الله الرحمن الرحيم

(نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(وَالْقَلَمِ) : قَسَمٌ بالقلم الذى يكتب به الملائكةُ والناس .

(غَيْرَ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع يقال : مننت الحبل : إذا قطعته .

(بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) : فى أى الفريقين منكم المجنون .

التفسير

١ - (نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) :

(نٓ) حرف من حروف المعجم التى بُدئت بها بعض السُّور وهى من المتشابه ، ومذهب السلف أنهم يقولون فى هذا ومثله : الله أعلم بمراده ، وقيل : اسم للسُّورة ، وقيل : اسم للدَّواة . وأنكر الزمخشرى ذلك وقال : لا دليل عليه من لغة ولا نقل صحيح ، وقيل غير ذلك ممَّا لا يُلتفت إليه .

(وَالْقَلَمِ) أقسم الله بالقلم الذى يكتب به الملائكة والناس وبما يكتبونه من الخير والنفع وغير ذلك ، وإنما استحق قلم الملائكة أن يُقْسَم به لأنَّهم يكتبون به ما فى اللَّوح المحفوظ ، ويُسجِّلون به فى صحائفهم أعمال الناس ،وأمَّا استحقاق القلم الذى يكتب به الناس ذلك الشرف فلكثرة منافعه وعظيم فوائده ، ولو لم يكن له مَزِيَّة سوى تسجيل كتب الله ــ عز وجل ــ لكفى به فضلًا مُوجِبًا لتعظيمه ، كيف لا وهو الذى يُنْشَر به العلم ، وتُحَرَّر به الفنون والآداب وتذاع به المعارف والأخلاق والفضائل . قال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطـال يومًا بسيفهم وعَدّوه مما يُكْسِب المجد والكرم

كفى قلم الكتَّاب عِزًّا ورفعة مدى الدهر أنَّ الله أقْسَم بالقلم

٢ ــ (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) :

هذا هو الْمُقْسم عليه ، أى : انتفى عنك الْجنون بسبب نعمة ربك عليك ورحمته بك ، وهو الذى اصطفاك للرسالة ، وأهَّلك للنبوة لتخرج الناس من الظُّلمات إلى النور ومن الشرك إلى الإيمان ، والآية نزلت ردًّا على كفار مكة وتكذيبًا لهم فيما يقولون وما ينسبونه إليه من الجنون حسدًا وعداوة ومكابرة ، والمقصود أنت مُنَزّه عما يقولون لأنك أُعْدِدت لتكون هادى البشرية كلها والقائد الخاتم للمسيرة الإلٰهية .

٣ ــ (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ) :

أى : وإنَّ لك لِمُقَاسَاتِك ألوان الشَّدائد وأنواع المتاعب ، وتحمُّلك أعباء الرسالة ومشاق الدَّعوة لثوابًا عظيمًا وأجرًا جسيمًا غير مقطوع مع عظمه ، أو غير ممنون به عليك مِن الناس لأنَّه عطاؤه تعالى بلا وساطة ، أو من الله لأنَّك حبيبه ، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ومن شِيمة الكرام ألَّا يَمُنُّوا بإنعامهم ، لا سيما إذا كان على أحبابهم .

٤ ــ (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) :

أى : وإنك لمستمسك بمكارم الصِّفات ومحاسن الخلال التى طبعك الله عليها وأدَّبك بها ، لك خلق لا يُدرِك شَأْوه أحد من الخلق ، تحتمل من جهتهم ما لا يحتمل أمثالك من أولى العزم

وعن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) أى : وإنك لعلى دين عظيم هو الإسلام ، وليس أحبّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه ، وقال عطية : لَعَلَى أدب عظيم .

وفى صحيح مسلم سُئلت عائشة - رضى الله عنها - عن خُلُق رسول الله ؟ قالت : كان خلقه القرآن . ومعنى هذا أنه تأدب بآدابه وتحلَّى بأخلاقه وأحلّ حلاله وحرَّم حرامه ، هذا مع ما طبعه الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحكمة وكل خلق جميل كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أُفٍّ قط ، ولا قال لشىء فعلته لم فعلته ؟ ولا قال لشىء لم أفعله ألَا فعلته ، وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا » . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب الشمائل

٥ ، ٦ - (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) :

أى فستعلم يا محمد علمًا يقينيا وسيعلم مخالفوك أيكم المفتون أى المجنون لأنه فُتِن ، أى مُحِنَ بالجنون ، وقيل المعنى : فستبصر ويبصرون بأى الفريقين منكم الفتنة أى الجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين وفى أيِّهما يُوجد منْ يستحق هذا الاسم ، وهو تعريض بأبى جهل والوليد بن المغيرة وأحزابهما وهو كقوله تعالى : « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ[1] » .

والمراد فستعلم ويعلمون ذلك يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل ، وروى ذلك عن ابن عباس ، وقيل : فستبصر ويبصرون فى الدنيا بظهور عاقبة الأمر بغلبة الإسلام وانتصارك عليهم وعلو شأنك وصيرورتهم أذلة صاغرين .

٧ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

استئناف لبيان ما قبله وتأكيد لما تضمَّنه من الوعد والوعيد ، فهو سبحانه أعلم بمن

---

(١) سورة القمر الآية : ٢٦ .

حاد عن طريقه المؤدى إلى سعادة الدارين وهام فى تيه الضَّلال المُفْضِى به إلى الشَّقاوة ومزيد النَّكَال وهذا هو المجنون الذى لا يفرق بين النفع والضر ، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين إلى سبيله الفائزين بكلّ مطلوب النّاجين من كل محذُور وهم العقلاء ، فيَجْزِى كُلاًّ من الفريقين بما يستحق من العقاب والثواب .

وفى الكشاف : إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون .

(فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ) : تمنوا لو تلين لهم بعض الشيء وتصانعهم فى الدين .

(مَهِينٍ) : وضيع حقير ، قال القرطبى : من المهانة بمعنى القلة وهى هنا القلة فى الرأى والتمييز .

(هَمَّازٍ) :طعَّان عيَّاب للناس فى وجوههم أو مُغتاب لهم (قتَّات) .

(مَشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ)[1] : نقَّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم .

---

(١) قيل النميم جمع نميمة يريدون الجنس ، وأصل النميمة : الهمس والحركة الخفيفة .

(عُتُلٍّ) : غليظ القلب جاف الطَّبع ، وقيل : الذى يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب مأخوذ من الْعتْل وهو الجرّ ومنه قوله تعالى : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ الْجَحِيمِ » [١]

(زَنِيمٍ) [٢] : دعىّ مُلصق بقوم ليس منهم ، أو شِرِّير .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم المسطَّرة فى كتبهم .

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) : سنجعل له سمة وعلامة على الأنف ، والمراد : سنلحق به عارا لا يفارقه كالرسم على الأنف

التفسير

٨ - (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ) :

الفاءُ فى الآية لترتيب النهى على ما ينبىء عنه ما قبله من اهتدائه ﷺ وضلالهم ، وفى هذا حث له على التَّصميم والعزم على عصيانهم ومخالفتهم .

والمعنى : فَدُمْ على ما أنت عليه من مخالفة المكذبين وعدم طاعتهم ، وتَشَدَّد فى ذلك ، ويجوز أن يكون نهيًا عن مُداهنتهم ومُداراتهم بإظهار خلاف ما فى ضميره ﷺ استجلابًا لقلوبهم ، لا نهيًا عن طاعتهم حقيقة ، وعُبِّر عن المداهنة بالطاعة للمبالغة فى التنفير .

٩ - (ودُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) :

المعنى : تمنّوا وأحبوا لو تُلاينهم وتُصانعهم وتنزل على رغبتهم أحيانًا (فَيُدْهِنُونَ) أى فهم يدهنون ويلاينونك ويصانعونك حينئذ ، فالفاءُ للسببية داخلة على جملة اسمية مسببة عمَّا قبلها .

وقيل المعنى : أنهم يدهنون الآن طمعًا فى ادهانك واستجابتك لهم ومشاركتهم فى بعض عبادتهم .

---

(١) سورة الدخان ، الآية : ٤٧ .

(٢) أصله من الزنمة (بفتحات) وهى ما يتدلى من الجلد فى العنق ، أو الفلقة من أذنه تشق فتترك معلقة ، شبه بها الدعى لأنه زيادة معلقة فى غير أهله . ا هـ . آلوسى .

١٠ - (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ) :

المعنى : وتمسك بما أنت عليه من عدم طاعة كل كثير الحلف فى الحق والباطل ، وكفى بهذا النهى زجرًا لمن اعتاد الحلف لأنه جُعِل فاتحة العيوب وأساس الباقى من الذنوب ، وكثرة الحلف تدل على عدم استشعار عظمة الله - عز وجل - وذلك أصل كل شر . (مَّهِينٍ) أى : حقير وقال الرمانى : المهين : الوضيع ، لإكثاره من القبيح . وعن ابن عباس : الكذاب .

١١ - (هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ) :

(هَمَّازٍ) أى : عيَّاب طعَّان أو مغتاب . (مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ) : نقَّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم ، فهو يحرض بعضهم على بعض لفساد ذات البين وهى الحالقة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : [إنَّهُمَا يُعذَّبان ومايعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لايستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة] ، وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : [لايدخل الجنة قَتَّات] : أى : نَمَّام . والأحاديث فى ذلك كثيرة .

١٢ - (مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) :

(مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ) أى : بخيل ممسك بالمـال ، من منع معروفه عنه : إذا أمسكه ، أو منَّاع أهله الخير وهو الإسلام ، قيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومى كان مُوسِرًا وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم ولأقربائه : من أسلم منكم منعته رِفْدِى وعطائى .

روى ذلك عن ابن عباس ، وعنه أيضًا أنه أبو جهل ، وقيل غيرهما

(مُعْتَدٍ) : مجاوز فى الظلم حَدَّه . (أَثِيمٍ) أى : كثير الآثام ، والمراد بها المعاصى والذنوب .

١٣ - (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ) :

(عُتُلٍّ) أى : غليظ جاف ، وإنَّمَا نهى - سبحانه - عن طاعة العُتُلّ وجعل غلظته أشد معايبه لأنه لقسوة قلبه وغلظ طبعه يجترىء على كل معصية .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ) أى : بعدما عدّ له من المثالب والنقائص . (زَنِيمٍ) دَعِيّ مُلْحق بقوم ليس منهم ، والمراد به ولد الزّنا كما جاء بهذا اللفظ عن ابن عباس ، وكذا جاء عن عكرمة وأنشد :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغىّ الأم ذو حسب لئيم

وإنما نهى عن طاعة الدّعىّ لأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشىء منها ، وعن سعيد بن جبير : الزّنيم الذى يُعْرَف بالشر كما تُعْرف الشاة بزنمتها وهى مايتدلى من رقبتها كما سبق بيانه فى المفردات : والزنيم ، الملصق .

قال ابن كثير : والأقوال فى الزنيم كثيرة ، وغالبها يرجع إلى ما ذهب إليه سعيد بن جبير ، وكثيرًا مايكون دعيا ولد زِنا فإنّه فى الغالب يتسلّط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره . اهـ بتصرف .

١٤ - (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) :

هذا الكلام متصل بقوله - سبحانه - : (لَا تُطِعْ ...) إلخ أى : لا تطع مَن هذه عيوبه ونقائصه بسبب كونه مُوسرًا معتدًا بماله مُنْجبًا مُعْتزًا ومتقويًا بأبنائه .

١٥ - (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

استئناف جرى مجرى التعليل للنّهى عن اتباعه ، والمعنى : إذا يُقْرأ عليه القرآن كَذَّب ولم يؤمن بما جاء به وقال : هذا قصص الأولين وخرافاتهم وأكاذيبهم الواردة فى كتبهم ، ويجوز أن يكون قوله - تعالى - : (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) متصلًا بما بعده .

والمعنى : لأَنْ كان صاحب مال ومستظهرا بالبنين كذب بآياتنا ، وأعرض عنها إذا يتلى عليه القرآن قال : أساطير الأولين وأباطيلهم ، فجعل الكفر مكان الشكر والتكذيب موضع التصديق والإيمان .

١٦ - (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) :

أى : سنجعل على أنفه سمة دائمة وعلامة لازمة لاتفارقه ، يُعيّر ويفتضح بها أمام الناس فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والمهانة ، لأنّ السّمة على الوجه شين حتى إنه ﷺ نهى[1] عنه فى الحيوانات ، فكيف بها فى الإنسان وعلى أكرم موضع منه وهو الأنف

(١) ذكر الزمخشرى أن العباس عم النبى وسم أباعرة فى وجوهها فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «أكرموا الوجوه» فوسمها فى جواعرها (جمع جاعورة وهى ماحول الدبر كما جاء فى الصحاح) .

لتقدمه ، لذا جعلوه مكان العز والحميّة واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا : فلان شامخ الأنف ، وفى لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة ، لأنه لايستعمل إلا فى الفيل والخنزير ، فنى التعبير عن الأنف بهذا الاسم تقوية لما دل عليه الوسم على العضو المخصوص من الإذلال ، والمراد : سنهينه فى الدنيا ونذله غاية الإذلال .

وكون الوعيد المذكور فى الدنيا هو المروى عن قتادة وذهب إليه جمع ، وقيل : هو فى الآخرة ، يُوسم يوم القيامة على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره .

(إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾)

المفـــردات :

(إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ) : إنَّا امتحنا أهل مكة واختبرناهم بالقحط .

(الْجَنَّةِ) : البستان المشتمل على أنواع الأشجار والثمار والفواكه .

(لَيَصْرِمُنَّهَا) : ليقطعنَّ ثمرها بعد نُضجها .

(مُصْبِحِينَ) : داخلين فى وقت الصباح مبكرين .

(وَلَا يَسْتَثْنُونَ) أى : ولا يقولون : إن شاء الله ، وقيل : ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم .

(طَآئِفٌ) : بلاءٌ وعذاب محيط بها ــ نار محرقة ــ .

(كَالصَّرِيمِ) : كالليل الأسود ، وقيل : كالبستان إذا صرمت أى : قطعت ثماره .

(صَارِمِينَ) : قاصدين للصرم وقطع الثمار .

(يَتَخَافَتُونَ) : يتسارّون ويتشاورون فيما بينهم بطريق المُخافتة .

(حَرْدٍ) : منع ، أو انفراد عن المساكين ، أو غيظ وغضب .

(إِنَّا لَضَآلُّونَ) أى : إنَّا لضالُّون طريق جنتنا .

(أَوْسَطُهُمْ) : أحسنهم رأيا ، أو أوسطهم سِنا .

(لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) : هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم .

(يَتَلَـٰوَمُونَ) : يلوم بعضهم بعضا .

(إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ) : إنا إلى ربنا لا إلى غيره راجون العفو طالبون الخير .

التفســير

١٧ ــ (إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) :

أى : إنا اختبرنا أهل مكة وأصبْناهم ببليّة وهى القحط بدعوة رسول الله ﷺ حيث قال : (اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) .

(كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ) أى : مثل مابلونا أصحاب الجنة المعروف خبرها عندهم ، قيل : كانت بأرض اليمن قريبا من صنعاء لرجل كان يؤدى حق الله منها فمات فصارت إلى ولده فمنعوا النَّاس خيرها وبخِلوا بحق الله منها ، فكان ماذكره الله تعالى .

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) أى : إذ حلفوا ليقطعن ثمارها بعد نضجها واستوائها وقت الصباح قبل أن يخرج المساكين كى لا يشعر بهم المساكين ، فلا يعطونهم منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها .

١٨ ــ (ولَا يَسْتَثْنُونَ) :

قيل : أى : ولايقولون إن شاءَ الله ، وقيل : المعنى ولايستثنون منها حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم (وعليه هو معطوف على قوله تعالى : « لَيَصْرِمُنَّهَا » ومقسم عليه مثله) .

١٩ ــ (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ) :

المعنى : نزل على الجنة وأحاط بها من كل جانب بلاءٌ محيط وعذاب .

وعن الفرّاءِ : تخصيص الطائف بالأمر الذى يأْتى بالليل . وكان ذلك ــ على ماقال ابن جريج ــ عُنُقا من نار خرج من وادى جنتهم (وَهُمْ نَآئِمُونَ) فى موضع الحال ، والمراد : أتاها ليلا كما روى عن قتادة ، وقيل : المراد أنهم غافلون غفلة تامة عما جرت به المقادير .

٢٠ ــ (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) :

أى فأصبحت جنتهم كالبستان الذى صُرِمت ثماره وقطعت بحيث لم يبق فيها شئٌ وقال منذر والفرّاء وجماعة : الصّريم : الليل ، والمراد : أصبحت محترقة تشبه الليل فى السواد ؛ ذكر ابن كثير عن ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : (إياكُمْ والمعاصى ، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هُيِّئ له) ثم تلا رسول الله ﷺ : (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) .

٢١ ، ٢٢ - (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ) :

أى : فنادى بعضهم بعضا وقت الصباح وذلك للقسم السابق : أن اخرجوا مبكرين مقبلين على بستانكم إن كنتم مصرين على الصرم وقطع الثمار ، ويحتمل إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم من قولهم : سيف صارم .

٢٣ ، ٢٤ - (فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ) :

أى فاندفعوا مسرعين وهم يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والمسارّة متواصين قائلا بعضهم لبعض : لايمكن أحد منكم اليوم مسكينا من دخول الجنة عليكم ، فالنهى عن الدخول للمسكين نهى عن تمكينه منه حتى لايناله من الثمار شىء .

٢٥ - (وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ) :

أى وساروا فى أول النهار إلى جنتهم قادرين على (حرد) فيه عدة أقوال :

(١) هو المنع كما قال أبو عبيدة وغيره ، من حَردت السنة : منعت خيرها ، وحاردت الإبل : منعت درها .

والمعنى : وغدوا إلى جنتهم قادرين على منع لاغير عاجزين عن النفع .

(٢) وقيل الحرد : الغيظ ، أى : لم يقدروا إلاَّ على إغضاب بعضهم لبعض كقوله تعالى : (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ)[1] وروى هذا عن السّدىّ .

(٣) وقيل الحرد : القصد والسرعة ، وللحرد معان أخرى ذكرها القرطبى والآلوسى والزمخشرى .

٢٦ ، ٢٧ - (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) :

فأول ماوقع نظرهم عليها ورأوها سوداء محترقة لاشىء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد ، أنكروها وشكّوا فيها وقالوا مضطربين متحيرين : إنَّا لضالُّون طريق

(١) سورة القلم ، الآية : ٣٠ .

جنتنا ، وماهى بها (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) قالوا ذلك بعد ماتأملوا ووقفوا على حقيقة الأمر وتيقنوا مافُعِل بجنتهم مُضربين عن قولهم الأول ، أى : لَسْنا ضَالِّين بل نحن محرومون حُرِمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا وسوء نيتنا وقصدنا حرمان الفقراء .

٢٨ ـ (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) :

قال أعدلهم وخيرهم : (أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) أى : لم أقل لكم ؟ وفى التسبيح قولان :

(١) قيل : المراد الذكر ، أى : هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، كان أوسطهم قال لهم حينما عزموا على حرمان الفقراء : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فوبّخهم. والدليل على ذلك قولهم بعد هذا : (سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على إثر مقارفة الخطيئة وارتكاب الإثم .

(٢) وقيل : المراد بالتسبيح ـ الاستثناء : وهو أن يقولوا إن شاء الله، ويلتقى هذا مع الأول فى معنى التَّعظيم ، لأن الاستثناء تفويض إلى الله ، والتَّسبيح تنزيه له ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم .

٢٩ ـ (قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ) :

قالوا بعد أن ثابوا إلى رشدهم ورجعوا إلى عقولهم : نُسبّح الله ونُنَزّهه عن الظلم وعن كل قبيح ، ثم اعترفوا بظلمهم ومنع المعروف عن مستحقيه والبخل بما كان يعطيه والدهم للفقراء والمساكين ، وفى تركهم الاستثناء قال ابن كثير : وهكذا أتوا بالطاعة حيث لا تنفع أو اعترفوا حيث لاينجع .

٣٠ ـ (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ) :

أى : فأقبل بعضهم على بعض يلوم كل منهم الآخر فى القسم والحلف على منع المساكين أى يقول : بل أنت أشرت علينا بهذا ، فإن منهم ـ على ماقيل ـ مَن أشار بذلك ، ومنهم من استحسنه ومنهم من سكت راضيا ومنهم من أنكره .

٣١ - (قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ) :

أى قالوا : ياعذابنا وهلاكنا إنا كنا طاغين - اعتدينا وبغينا وتجاوزنا الحد عاصين بمنع الفقراء : وقال ابن كيسان : طغينا نِعَم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل حتى أصابنا ما أصابنا .

٣٢ - (عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ) :

نرجو الله أن يعوضنا خيرا من جنتنا ويعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة إنَّا إلى ربنا - لا إلى غيره - راغبون : راجون العفو طالبون الخير .

وعن مجاهد أنهم تابوا فأُبدلوا خيرا منها .

٣٣ - (كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) :

أى : مثل ذلك العذاب الذى بلونا به أهل مكة من الجدب الشديد ومثل ماقصه الله علينا مما أصاب أهل هذه الجنة - عذاب الدنيا ، والكلام وارد لتحذير أهل مكة - وتخويفهم كأنه لما نهى - سبحانه وتعالى - نبيه عن طاعة الكفار ورؤسائهم ، ذكر - عز وجل - أن تمردهم هو بسبب ما أوتوه من المال والبنين ، وعقّب - جل وعلا - بأنهم إذا لم يشكروا المنعم عليهم يؤول حالهم إلى حال أصحاب الجنة مشيرا إلى أن خُبث النّية وإنكار حق الفقير إذا أفضى بهم إلى ماذكر من العذاب فإن إنكار الحق بمعاندة الرسول ذى الخلق الكريم وقطع رحمه أولى بأن يُفْضِى بأهل مكة إلى البوار والخسران والعقاب .

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - عذابهم فى الآخرة فقال : (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) أى : أعظم وأشد وأشقّ وهو تحذير عن العناد ، وقوله تعالى : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) نَعْىٌ عليهم بالغفلة وتقريع لهم ، أى : لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنه أكبر ، ولأخذوا منه حِذْرهم ولما وقعوا فيما وقعوا فيه .

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾)

المفـــردات :

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ) أى : بل لكم كتاب منزل من السماء .

(فِيهِ تَدْرُسُونَ) : فيه تقرأون .

(إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) أى : إن الذى تختارونه وتشتهونه لكم مذكور فى ذلك الكتاب .

وتَخَيَّر الشيء واختاره : أخذ خَيْرَه ، وشاع فى أخذ مايريده مطلقا .

(أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ) أى : بل ألكم عهود ومواثيق مؤكدة بالأَيْمَان .

(إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) أى : إنَّ لكم لَلَّذى تحكمون به لأنفسكم .

(زَعِيمٌ) : كفيل وضمين .

التفسير

٣٤ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ) :

لَما ذكر - تعالى - حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله - عزَّ وجلَّ - وخالفوا أمره ، بيّن أنَّ لمن اتَّقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم ، أى : جنات ليْس فيها إلاَّ النَّعيم الخالص من شائبة ماينغِّصه من الأكدار وخوف الزوال .

٣٥ ، ٣٦ - (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) : تقرير لما قبله من فوز المتقين وردّ لما يقوله الكَفَرة من صناديد قريش حين سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله به المؤمنين ، يقول الكفرة : إنْ صَحَّ أنَّا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ماهى فى الدنيا وإلَّا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا ، فقيل لهم : أنَحِيف ونظلم فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ؟! ثم قيل لهم على طريق الالتفات تأكيدا للرد وتعجبا من حكمهم واستبعادا له وإيذانا بأنه لايَصْدُر عن عاقل : (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) : إذ معنى مالكم : ماذا أصابكم ، وأى شىء حصل لكم مِنْ خَلَلِ الفكر وفساد الرأى حتى حكمتم هذا الحكم الجائر ، كأَنَّ أَمر الجزاء مُفَوَّض لكم حتى تحكموا فيه بما شئتم .

٣٧ ، ٣٨ - (أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) :

يقول - تبارك وتعالى - : بل أفبأيديكم كتابٌ مُنَزَّل من السماءِ تقرءُونه وتدرسونه وتحفظونه وتَتَداولونه بنقل الخلف عن السلف يتضمن أنَّ ماتختارونه وتشتهونه لكم ؟ قال الآلوسى والظَّاهر مقابل لما قبله ومُلَخَّصه : أَفسد عقلكم حتى حكمتم بهذا أم جاءكم كتاب فيه تخييركم وتفويض الأَمر لكم ؟ !

٣٩ - (أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) :

المعنى : بل ألكم عهود علينا ومواثيق مؤكدة بالأَيْمان باقية ثابتة إلى يوم القيامة ؟ إنَّ لكم لَلَّذِى تحكمون به وتقضون وسيصل إليكم ماتحبون وما تشتهون .

وقوله تعالى : (إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) جواب القسم ؛ لأن معنى (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ) أم أقسمنا لكم.

٤٠ ـ (سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ) :

المعنى : سل المشركين يامحمد مُبَكِّتاً لهم : أَيُّهم بذلك الحكم الذى يحكمون به لأنفسهم من أَنَّهُم يعطون فى الآخرة أفضل من المؤمنين ـ أيهم كفيل وقائم بتنفيذه وإمضائه وبالاحتجاج لصحته ، كما يقوم الزَّعيم المتكلِّم عن القوم المتكفِّل بأمورهم ، فضلا عن أنه حكم جائر ، خارج عن دائرة المعقول ، وكأنَّه بتوجيه الخطاب لرسول الله أسقطهم من رُتبة الخطاب إهمالا لهم .

٤١ ـ (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) :

أى : بل ألهم أناس يشاركونهم فى هذا القول ويوافقونهم عليه ، ويذهبون مذهبهم فيه فليأتوا بشركائهم إنْ كانوا صادقين فى دعواهم ، يعنى أَنَّ أَحداً لايُسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنهم لاكتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به ويتصدى لإنفاذه .

قال العلامة الآلوسى : وقد نَبَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الآيات على نفى جميع مايمكن أن يَتَعَلَّقُوا به فى تحقيق دعواهم ، حيث نَبَّه ـ سبحانه ـ على نفى الدليل العقلى بقوله سبحانه : (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وعلى نفى الدّليل النَّقْلى بقوله سبحانه : (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) وعلى نفى أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ) وعلى نفى التَّقْليد الذى هو أهْوَن الأشياء بقوله : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) إلخ ا هـ . آلوسى .

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ) : كناية عن شدة هول يوم القيامة .

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) : ذليلة منكسرة .

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) : تغشاهم ذلة مرهقة وخسران .

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) : سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإمهال حتى نوقعهم فيه .

(وَأُمْلِي لَهُمْ) : وأمهلهم بتأخير العذاب ليزدادوا إثماً .

(كَيْدِي مَتِينٌ) : تدبيرى قوىّ لايفلت منه أحد .

(مَغْرَمٍ) : غرامة مالية .

التفسـير

٤٢ - (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) :

لَـمَّا ذكر - جلَّ شأْنه - أَنَّ للمتقين عند ربهم جنات نعيم بيَّن متى يكون ويقع ذلك فقال : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ... إلخ) أى : يوم يكشف عن ساقٍ كان كذا وكذا فأُضمر للتهويل البليغ وأَنَّ ثمَّ من الحوادث والأَخطار مالا يوصف لعظمه ، والمراد بذلك اليوم عند الجمهور: يوم القيامة ، والساق : ما فوق القدم ، وكشفها : مَثَل فى شدة الأَمر وصعوبة الخطب

وقيل : ساقُ الشيء :أَصْلُه الذى به قوامه كساق الشجرة ، والمراد : يوم يُكْشف عن أَصل الأَمر فتظهر حقائق الأَشياءِ وأُصولها بحيث تصير عيانًا ، وإلى هذا يشير ما أخرجه البيهقى عن ابن عباس قال : حين يكشف الأَمر وتبدو الأَعمال .

وذهب بعضهم إلى أَنَّ المراد بالسَّاق ساقه ــ سبحانه وتعالى ــ وأَن الآية من المتشابه ، واستدل على ذلك بما أَخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن أَبى سعيد قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يَكشِفُ ربُّنا عن ساقِه فَيسجُدُ له كلُّ مؤمن ومؤمنة ، ويبقى مَنْ كان يسجد فى الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا) .

وأَنكر ذلك سعيد بن جبير فقد سئل عن الآية فغضب غضبًا شديدًا وقال : إن أَقوامًا يزعمون أن الله سبحانه يكشف عن ساقه وإنما يكشف عن الأَمر الشديد ، وعليه يحمل ما فى الحديث (الآلوسى) .

(وَيُدعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ)أى : ويدعون إلى السجود لا تعبدًا وتكليفًا ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم إِيَّاه فى الدُّنيا وتَحْسِيرا لهم على تفريطهم فى ذلك ، أَو امتحانًا لإِيمانهم .

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) لزوال القدرة عليه ، وفيه دلالة على أَنهم يقصدونه فلا يستطيعون ولا يتأَتى منهم ، والظاهر أَنَّ الداعى هو الله تعالى أَو الملائكة، وقيل : هو ما يرونه من سجود المؤمنين .

٤٣ ــ (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) :

بين الله ــ سبحانه ــ حال من يُدْعَوْن إلى السجود يوم القيامة فلا يستطيعون بأَنهم خاشعة أَبصارهم ، أَى : منكسرة ذليلة تلحقهم وتغشاهم مهانة وندامة وحسرة ، وقد كانوا يُدْعَوْن إِلى السجود فى الدنيا وهم سالمون مُعَافُون متمكِّنون منه أَقوى تمكُّن فلا يُجِيبون إِليه ويَأْبَوْنه ويَنْفِرون منه تكبرا أَو إِعْراضا ، لذلك عُوقِبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، روى أنه كلما أراد أحدهم أن يسجد خَرَّ لقفاه على عكس السجود بخلاف ما عليه المؤمن .

ذكر القرطبى أن سعيد بن جبير قال فى تفسير قوله تعالى : (وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ) : كانوا يسمعون (حى على الفلاح) فلا يجيبون ، وقال كعب الأحبار : والله مانزلت هذه الآية إلّا فى الذين يتخلفون عن الجماعات ، وكان الربيع بن خيثم قد فُلِج وكان يُهَادَى بين الرجلين إلى المسجد فقيل : يا أبا يزيد لو صليت فى بيتك لكانت لك رخصة . فقال : من سمع حَيّ على الفلاح فليُجب ولو حَبْوًا – ومعنى يُهَادَى – أى : يمشى بينهما معتمدًا عليهما لضعفه .

٤٤ – (فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) :

(فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ) أى : إذا كان حالهم ما سمعت فَكِلْ من يُكَذِّب بالقرآن إلَيّ فأنا أكْفِيكَه ، قال الزمخشرى : فكأنه يقول : حسبك إيقاعًا به وعقابا له أنْ تكل أمره إلَيّ وتُخَلِّ بينى وبينه فأنا عالم بما يجب أن يُفْعَل به مُطِيق له وقادر عليه .

وذلك تسلية للرسول وتهديد للمكذبين . (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) : استئناف مسوق لبيان كيفية العقاب والتعذيب ، أى : سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة . (مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) أى : من الجهة التى لا يشعرون أنَّ ذلك الإنعام عليهم استدراج بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع أنه سبب هلاكهم .

٤٥ – (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) :

(وَأُمْلِي لَهُمْ) : وأمْهلهم بتأخير العذاب وأمنحهم كثيرًا من النعم ليزدادوا إثما وهم يحسبون أن ذلك لإرادة الخير بهم . (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) إن تدبيرى وعذابى لقوىٌّ شديد لا يُدْفع بشىء فلا يفوتنى أحد ولا يعجزنى ، وسمّى إحسانه وتمكينه وإمهاله لهم كيدا كما سمّاه استدراجًا فيما سبق لكونه فى صورة الكيد والاستدراج ، حيث كان ذلك سببًا لتورطهم فى الهلاك والوقوع فيه ، والله سبحانه يفعل بهم ما هو نفع لهم ظاهرًا وهو ضرر لهم فى الحقيقة لِمَا عَلِم من خُبْث نِيّتهم وفساد طبيعتهم وتَمَادِيهِم فى الكفر والعصيان ، ووصف كيده بالمتانة لقوة أثره فى التّسبُّب للهلاك .

٤٦ ـ (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) :

عاد الكلام إلى ما تقدم من قوله تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ...) الآية ، أى : أم تلتمس وتطلب منهم على هدايتك لهم ودعوتهم إلى الله وإرشادهم إلى الإيمان أجرًا دنيويًّا وثوابًا ماديًّا فهم من غرامة ذلك مثقلون لِمَا يشق عليهم من بذل المال ، فيثبّطهم ذلك عن الإيمان بالله والاستجابة لما تدعوهم إليه فيُعرضون عنك بسبب ذلك ، والأمر ليس كذلك فليس عليهم كلفة ولا غرامة مالية ، بل سيستولون بمتابعتك على خزائن الأرض فى الدنيا ويصلون إلى جنات النعيم فى الآخرة .

٤٧ ـ (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أعندهم علم الغيب فهم يكتبون عنه ما يحكمون به لأنفسهم مِنْ أنهم أفضل منك وأنهم لا يعاقبون وغير ذلك مِمّا يدعون ، واستغنوا بذلك عن علمك ؟! وقيل المعنى : أينزل عليهم الوحى بهذا الذى يحكمون ؟ ! ليس عندهم شىء من ذلك .

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾)

المفـــردات :

(صَاحِبِ الْحُوتِ) : يونس عليه السلام .

(مَكْظُومٌ) : مملوء قلبه غيظًا وغضبًا ، وقيل : مغموم مكروب .

(لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ) : لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء المهلكة .

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ) : فاصطفاه بقبول توبته .

(وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ)أى : ينظرون إليك نظرًا شديدا يكاد يصرعك ويسقطك من مكانك لبغضهم لك .

التفسـير

٤٨ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ) :

المعنى : فاصبر يا محمد لحكم ربك : وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم مع ما تعانيه منهم من أذى وكرب وبلاء ، فإن الله سبحانه سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، روى أنه ﷺ أراد أن يدعو على ثقيف لَمَّا آذوه حين عرض نفسه على القبائل فنزلت .

(وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ)وهو يونس -عليه السلام- أى : لا تكن مثله فى العجلة والضجر والغضب على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له وشروده به فى البحار وظلمات اليم (إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ) حين دعا ربه فى بطن الحوت فقال : (لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) ، (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أى : وقلبه مملوء بالغيظ والغضب على قومه إذ لم يؤمنوا حين دعاهم إلى الإيمان فطلب من ربه تعجيل عذابهم ، والمراد : ولا يكن حالك كحاله وقت ندائه ،ولا يُوجد منك ما وُجِد منه من المغاضبة والدُّعاء على قومه بالعذاب ؛ فتُبتلى بنحو بلائه عليه السلام .

٤٩ - (لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ) :

المعنى : لولا أن تداركته نعمة من ربه - وهى توفيقه للتوبة وقبولها - لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء الخالية من الأشجار وغيرها مذمومًا مُعاقبًا على ما صدر منه ، ولكن أدركته رحمة ربه وعنايته به فَطُرِح سقيمًا غير مذموم : أى ، غير مبعد عن كل خير ، وقيل المعنى : لولا فضلُ الله عليه بقبول توبته وتسبيحه لبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ثم نُبِذ بعراء القيامة مذمومًا ، يدل عليه قوله تعالى : « فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ »[1] ذكره القرطبى .

٥٠ - (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ) أى فتداركته نعمة من ربه فاجتباه ، أى : اصطفاه بأن رد - عز وجل - إليه الوحى وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، وقيل : استنبأه إنْ صَحَّ أنَّه لم يكن نبيًّا قبل هذه الواقعة ، وإنَّما كان رسولًا لبعض المرسلين (فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) أى : من الكاملين فى الصَّلاح بأن عصمه - سبحانه - من أن يفعل فعلًا يكون تركه أولى .

٥١ - (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) :

المعنى :

١ - إنهم لِشدَّة عداوتهم وبغضهم لك ينظرون إليك شزرًا وحقدًا بحيث يكادون يزلُّون قدمك ويُزيلُونك من مكانك ، من قولهم : نظر إلى نظرًا يكاد يصرعنى أو يكاد يأكلنى ، أى : لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله .

٢ - وقيل المعنى : إنهم يكادون يصيبونك بالعين ، ولقد كان ذلك معروفًا فى بنى أسد ، ذكر الآلوسى وغيره أن الكفار سألوا رجلًا منهم أن يصيب رسول الله بالعين فأجابهم ، فلما مر النبى ﷺ أنشد الرجل :

قد كان قومُك يحسبونَك سيدًا ... وإخـالُ أنَّك سَـيِّدٌ معيون

(١) سورة الصافات ، الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤

فعصم الله نبيه ﷺ فنزلت هذه الآية ، وذكر نحوه الماوردى والقرطبي وكذلك الكشاف مع اختلاف فى بعض العبارات ، وعبارة الكشاف : فقال الرجل لرسول الله : لم أرَ كاليوم رجلًا – يريد بذلك أنه لم يَرَ رجُلًا مثلَ الرسولِ – فعصمه الله .

ولقد صَحَّ من عدة طرق أن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ، فالعين حق . وذلك من خصائص بعض النفوس ، ولله تعالى أن يخص ما شاء منها بما شاء .

قال العلامة الآلوسى فى تعقيبه على ذلك : وأنا لا أزيد على القول بأنه من تأثيرات النفوس (ولا أُكيِّف ذلك) فالنفس الإنسانية من أعجب مخلوقات الله – عز وجل – وكم طوى فيها أسرارًا وعجائب تتحيَّر فيها العقول ولاينكرها إلَّا مجنون أو جهول .

ولا يسعنى أن أنكر العين لكثرة الأحاديث الواردة فيها ومشاهدة آثارها على اختلاف الأعضاء .

ولابن كثير كلام كثير فى هذا المقام فليرجع إليه من أراد .

(لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) أى : يزلقونك بأبصارهم وقت سماعهم القرآن ؛ وذلك لشدة بغضهم وحسدهم لرسول الله حين سماعه (وَيَقُولُونَ) لغاية حيرتهم فى أمره – عليه الصلاة والسلام – ونهاية جهلهم بما فى القرآن من عجائب الحكم وبدائع العلوم ولتنفير الناس منه : (إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) أى : ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن ، أى : حكموا بجنونه لسماعهم القرآن منه وهم يعلمون أنه أعقل الناس وأحكمهم ، وحيث كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوا منه ﷺ من القرآن رَدَّ – سبحانه – ذلك ببيان علو شأن القرآن وسطوع برهانه فقال : (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) .

٥٢ – (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) :

الأسلوب يفيد بطلان قولهم وتعجيب السامعين من جرأتهم على التفوه بتلك الفرية العظيمة

أى : يقولون ذلك والحال أنَّ القرآن ذِكْرٌ للعالمين ، أى : تذكير لهم وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، فكيف يحكم على من أُنْزِل عليه ذلك بالجنون وهو مطلع على أسراره طُرًّا ، ومحيط بجميع حقائقه خبرًا ، وقيل : معنى الذكر : الشرف والفضل لقوله تعالى : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ»(1) لِما فيه من الاعتناء بما ينفعهم .

وقيل : الضمير (هُوَ) لرسول الله ﷺ وكونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مذكرًا وشرفًا لجميع العالمين لاريب فيه ما

(والله أعلم)

---

(١) سورة الزخرف من الآية ٤٤

سورة الحاقة

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها إحدى وخمسون آية . والدليل على أنها نزلت فى مكة المكرمة ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن وقلت : هذا والله شاعر ، فقال الرسول : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) قلت : كاهن ، فقال : (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ...) إلى آخر السورة ، فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

مناسبة هذه السورة لما قبلها :

جاء فى سورة (نون) ذكر يوم القيامة مجملًا فى قوله تعالى : (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) فبيّن - سبحانه - فى هذه السورة الكريمة نبأ ذلك اليوم وشأنه العظيم ، وذكر أحوال أمم كذبوا رسلهم - عليهم السلام - وما أصاب هؤلاء الأقوام بسبب ذلك التكذيب من التنكيل والعذاب ؛ ليزدجر ويرتدع المكذبون المعاصرون له - عليه الصلاة والسلام - .

بعض مقاصد السورة :

١ - بدأت بذكر صفة القيامة على صورة تبعث فى النفوس الهيبة والخوف والفزع منها قال تعالى : (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) .

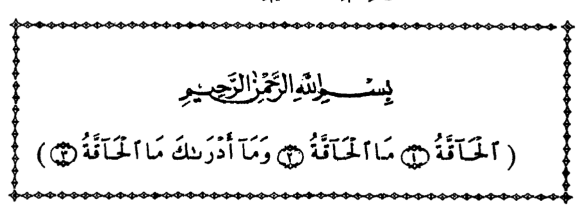
٢ - تحدثت عن أقوام من السابقين - عاد وثمود وفرعون ومن قبله وقوم لوط - وقد بلغوا فى البغى والطغيان غايته - قد نكل بهم فأبادهم وجعل بعضهم أثرًا بعد عين ، وبعضًا آخر ليس لهم من باقية ولا أثر .

٣ - جاء فيها ذكر بعض نعم الله على الإنسان وأنه نجّاه يوم لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ، وذلك للتذكرة والاعتبار ، قال تعالى : (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً) .

٤ ــ عرضت بعد ذلك لذكر أهوال قيام الساعة : من النفخ فى الصور ، ورفع الأرض والجبال وتفتتها ، وانشقاق السماء وتداعيها ، ووقوف الملائكة على جوانبها ، إلى غير ذلك من الأهوال والأحداث الجسام .

٥ ــ عرضت السورة لمآل من فاز ونجا وأوتى كتابه بيمينه ، وبينت فرحه وافتخاره بذلك قال تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) كما أظهرت عاقبة من بار وهلك وأوتى كتابه بشماله ، وأوضحت حسرته وندمه حيث لا ينفع ذلك ، قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ) .

وفى ختام هذه السورة الكريمة جاء التأكيد على أن القرآن الكريم من عند الله وليس شعرًا ولا كهانة ، بل إنه تنزيل من رب العالمين ، وأن محمدًا ﷺ لو افترى وتقول على الله شيئًا لأخذ الله بيمينه وقطع نياط قلبه ، فما يستطيع أحد أن يمنعه من تنكيل الله به ، وكانت نهاية الختام بيان أن القرآن يُذَكر المتقين فينتفعون ويعملون بما فيه ، وأنه ــ سبحانه ــ يعْلَم المكذبين فيجازيهم على ما اقترفوا وقدموا . ثم كان الأمر منه ــ سبحانه ــ لرسوله أن ينزهه عمَّا لا يليق به : (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) .



المفـــردات :

(الْحَاقَّةُ) : من حَق : إذا ثبت ووجب ، والمراد بها القيامة .

التفسـير

١ ، ٢ ــ (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ) :

الحاقة : هى القيامة : وسميت بهذا الاسم لأنها الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجىء ، فهى آتية

لا ريب فيها ، أو هى التى تثبت فيها الأُمور الحقة من الحساب والثواب والعقاب ، أو التى تعرف بها الأُمور على الحقيقة .

وافتتحت السورة الكريمة بذكر القيامة بهذا الأُسلوب ليزيد الله المؤمنين إيمانًا بها ؛ لأَنهم يعلمون أَنها الحق الثابت الذى لا يتغير ، وإن كانوا مشفقين منها وخائفين من وقوعها ، كما أَن هذا النسق البديع يقطع بأَن الذين يجادلون ويمارون فى وقوعها أَو يتشككون فى ذلك لفى بعد عن الحق وتجافٍ عن الصواب ، قوله : (مَا الْحَاقَّةُ) استفهام أُريد به التعظيم والتفخيم والأَصل : الحاقة ما هى ؟ أَىْ : أَىّ شىء هى فى صفتها وحالها ؟ فوضع الظاهر (الْحَاقَّةُ) موضع المضمر تعظيمًا لشأْنها وتهويلًا لأَمرها .

٣ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) :

هذا أَيضًا استفهام أُريد به التعظيم والتفخيم ، أَى : أَى شىء أَعلمك بذلك اليوم ؟

يعنى أَنك لا علم لك بحقيقتها ومدى عظمها وشدة هولها ؛ إذ إنها فى العظم والشدة بحيث لا يصل إلى ذلك علم أَحد ولا وهمه ، وكيفما قدرت حالها فهى أَعظم وأَشد من ذلك .

هذا والنبى ﷺ كان عالمًا بالقيامة ، ولكنه لمَّا لم يعاينها ولم يشاهدها فكأَنه ليس عالمًا بها ، قال يحيى بن سلام : بلغنى أَن كل شىء فى القرآن (وَمَآ أَدْرَاكَ) فقد أَراه الله إِيَّاه ، وعلمه ، وكل شىءٍ قال : (وَمَا يُدْرِيكَ) فهو ممَّا لم يُعَلِّمه ، كما روى عن سفيان بن عيينة : كل شىءٍ قال فيه : (مَآ أَدْرَاكَ) أُخبر به ، وكل شىءٍ قال فيه : (وَمَا يُدْرِيكَ) فإنه لم يخبر به . - ذكره القرطبى - .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(الْقَارِعَةِ): القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال التى تحدث فيها .

(الطَّاغِيَةِ) : الواقعة المجاوزة للحدود ، وهى الصيحة أو الرجفة ، وقيل غير ذلك .

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ) : شديدة الصوت ، من الصَّر ، أو شديدة البرد ، من الصِّر .

(عَاتِيَةٍ) : شديدة العصف والعتوّ فلايستطيع أحد ردها .

(حُسُومًا) : نحسات مشئومات حسمت وقطعت كل خير ، أو متتابعات ، وقيل غير ذلك .

(صَرْعَى) : هلكى لاحراك بهم .

(أَعْجَازُ نَخْلٍ) : أصول نخل قد تآكلت وخلت أجوافها ..

(الْمُؤْتَفِكَاتُ) : المنقلبات ، وهى قرى قوم لوط ـ عليه السلام ـ التى رفعها جبريل وقلبها هى ومَن فيها .

(الْخَاطِئَةِ) : القبيحة الشائنة .

(رَابِيَةً) : زائدة فى الشدة .

(طَغَى الْمَآءُ) : تجاوز حده حتى علا على أعلى الجبال .

(الْجَارِيَةِ) : سفينة نوح – عليه السلام .

(تَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) : تحفظها أذن من شأنها أن تحفظ ما سمعت به .

التفسير

٤ – (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ) :

لما ذكر الله – سبحانه – الحاقة وبين خطرها وعظم شأنها أتبع ذلك بذكر من كذب بها من الأمم السابقة ، مع بيان ما حل بهم من النكال والعذاب بسبب تكذيبهم وذلك تذكيرا لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة ماهم عليه من العناد والتكذيب .

والقارعة : هى التى تقرع الناس وتخيفهم وتفزعهم ، وتقرع السماء بالانشقاق ، والجبال والأرض بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والسقوط ، وجاءت (القارعة) موضع الحاقة أو ضميرها زيادة فى وصف شدتها وتهويل أمرها ، كذبت ثمود قوم صالح – عليه السلام – وكذبت عاد قوم هود – عليه السلام – بهذا اليوم .

٥ – (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) :

هذا بيان لما سبق وتفصيل لما أجمل ، وذلك بذكر ما حاق ونزل بهؤلاء وأولئك من العذاب فأخبر – سبحانه – أن ثمود قد أهلكهم الله بالطاغية ، وهى الواقعة المجاوزة للحد فى الشدة والقوة ، وهى الصيحة التى زادت وتجاوزت كل الصيحات ، وقال بعضهم : إنها الرجفة والزلزال المسبب عن الصيحة ، وقيل : إن المراد من الطاغية هو ذلك الرجل الذى أقدم على عقر الناقة واسمه قُدار بن سالف ، وقد أهلكهم الله جميعاً لأنهم رضوا بفعله ومالأوه .

٦ ـ (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) :

وهذا نوع آخر من العذاب أنزله الله على عاد قوم هود ـ عليه السلام ـ لما كذبوا رسولهم واستهانوا به وقالوا له : « إن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ »[١] فأهلكهم الله بريحٍ شديدةِ الصوت ، أو بريحٍ باردةٍ[٢] كأنها التى كرر فيها البرد وكثر حتى تحرق بشدة بردها ، وهذه الريح هى الدَّبُور ، ففى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم يقول ﷺ : « نُصرتُ بِالصَّبا وأُهلكَتْ عادٌ بِالدَّبُورِ » والمراد من وصفها بالعتو أنها قد بلغت منتهاها ووصلت غايتها فى القوة والشدة ، أو عتت على عاد فلم يقدروا على ردّها بحيلة من استتار ببناءٍ أو استناد إلى جبل أو اختفاءٍ فى حفرة ؛ فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم .

٧ ـ (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) :

هذا بيان لكيفية إهلاكهم بالريح ، أى : سلط الله تلك الريح وأرسلها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات دون فتور أو انقطاع حتى قطعت دابرهم واستأصلت شأفتهم ، أو أن تلك الليالى والأيام كانت نحسات مشئومات عليهم ، وقيل : إنها هى أيام العجوز وإنما سميت بذلك لأن عجوزا من عاد توارت فى سرب فانتزعتها الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها ، وقيل : هى أيام العجز وهى آخر الشتاء فترى وتبصر يامن تتأتى منك الرؤية ـ إن كنت حاضرًا حينئذ ـ ترى هؤلاء القوم فى تلك الليالى والأيام ، أو فى مهاب الريح موتى وهلكى ، يشبهون ويماثلون أصول نخل خالية الأجواف لاشىء فيها ؛ لأن الريح تسلطت عليهم فكانت تدخل أجوافهم فتصرعهم وتخرج أحشاءهم ، أو خاوية بمعنى بالية ؛ لأنها إذا بليت خلت أجوافها ، فشبهوا بعد أن هلكوا بالنخل الخاوية ، وتشبيههم بأعجاز النخل يشعر بأنهم كانوا عظاماً فى خلقِهِمْ وأجسامهم .

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة هود .

(٢) الصر ـ بالفتح ـ : مصدر (صرصرته) إذا شددته ، والصر ـ بالكسر ـ : البرد .

٨ - (فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) :

أى : فهل ترى وتبصر لهم من بقية ؟ أو من نفس باقية ؟ أو من بقاء؟! .

وذهب قوم إلى أن هؤلاء القوم لم يبق من نسلهم أحد واستدل بهذه الآية على قوله .

٩ - (وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ) :

أى وجاء فرعون - ذلك الجبار الطاغى - ومن سبقه من الأمم التى كفرت كثمود وعاد ومن تبعهما من الأعوان والجنود ، وجاء أيضاً أهل تلك القرى الذين كذّبوا نبى الله لوطا - عليه السلام - فكفأ وقلب جبريل - عليه السلام - تلك القرى ومن فيها ، جاء هؤلاء وأولئك جميعاً بالفعلة ذات الخطأ الجسيم والإثم العظيم .

١٠ - (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً) :

بيَّن الله فى تلك الآية ذلك الخطأ الشديد والفعلة الشائنة المنكرة وأبان عقوبتها ، بينها - سبحانه - بأنها كانت عصيان كل أمة لرسولها حيث لم ينتهوا عما نهاهم عنه مما كانوا يفعلونه من ألوان القبائح وضروب الفواحش ، فأنزل الله بهم من العذاب الشديد ما يتوافق ويتناسب مع قبح أفعالهم وشناعة عصيانهم ؛ فأخذهم أخذة زائدة شديدة .

١١ - (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ) :

هذا بيان لفضل من الله ومنة على المؤمنين ، وزجر وتهديد للكافرين ، أى : إننا وقت أن طغى الماء وتجاوز حده المعتاد حتى علا وارتفع فوق كل شىء ، وذلك بسبب إصرار قوم نوح - عليه السلام - على ضروب المعاصى والكفر ومبالغتهم فى الاستهزاء به ، وفى تكذيب ما جاء به من الأحكام والشرائع التى من جملتها أخبار وأحوال يوم القيامة ، إننا بقدرتنا - وتفضلا منا - جعلناكم ذرية من نجا من الغرق بسبب إيمانهم بالله وطاعتهم لنبيه نوح - عليه السلام - ورفعنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان ، ورفعنا آباءكم فى السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا ، وأغرقنا الكافرين ببغيهم وعصيانهم .

١٢ ـ (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) :

أى : لنجعل تلك الفعلة ـ وهى إنجاء المؤمنين وإغراقُ الكفرة ـ عظة وعبرة لكم ، ولكى تحفظها فى نفسها وتسمعها وتعمل بها أُذن من شأْنها أن تحفظ وتعى ما ينبغى حفظه ، وذلك بأَن تتفكر فيه وتتذكره وتشيعه ولا تضيعه بترك العمل به ، وعن قتادة : الواعية : هى التى عقلت عن الله ـ تعالى ـ وانتفعت بما سمعت من كتاب الله ـ عز وجل ـ .

وجاء قوله تعالى : (أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) على الإفراد والتنكير للإشعار بأَن الذين يعون ويعقلون ما يسمعون ويعملون به هم قلة فى هؤلاء القوم ، ولتوبيخ النَّاس ولومهم بقلة من يعى منهم ، وللدلالة ـ أيضاً ـ على أن الأُذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهى المكرمة عند الله ، وأَنَّ ما سواها لا يلتفت إليهم وإن امتلأَ العالم بهم .

(فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) : فضرب بعضها ببعض حتى اندقت وتفتتت .

(وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ) : انصدعت بعضها عن بعض .

(وَاهِيَةٌ) : مسترخية ساقطة القوى ضعيفة.

(عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا) الأَرجاءُ : جمع رجًى ، وهو الجنب ، أى : على جوانبها .

التفسير

١٣ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ) :

هذا شروع فى بيان نفس الحاقة وكيفية وقوعها إثر بيان عظمة شأنها بإهلاك مكذبيها والمراد من النفخة الواحدة - هى نفخة الملك فى البوق - وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ، والأولى أن يقال : إنها النفخة الأولى التى عندها يحصل خراب العالم . قال الإمام الفخر الرازى : فإن قيل : لماذا قال بعد ذلك : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية ؟ قلنا : جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ؛ فلذلك قال : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) كما تقول : جئتك عام كذا ، وإنما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته . اهـ .

١٤ - (وحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) :

أى : رفعت الأرض والجبال من أماكنها إما بالزلزلة ، أو بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال ، أو بملك من الملائكة ، أو بقدرة الله من غير سبب [1] فضربت الأرض والجبال بعضها ببعض ضربة واحدة حتى تندق وتتفتت وتصير كثيبا مهيلا : أى ، رملا رخوا ليناً بعد أن كانت قوية صلبة متماسكة ، وقيل : تتفرق أجزاؤها كما قال - سبحانه - « هَبَاءً مُنبَثًّا » [2] وقيل : المراد فبسطتا بسطة واحدة وسويتا فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا : أى ، لا تبصر فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً .

١٥ - (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) :

أى : فيوم إذ حدث ذلك من النفخ فى الصور ودك الأرض والجبال نزلت النازلة وقامت القيامة الكبرى .

١٦ - (وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) :

أى : وتفطرت السماء وتميز بعضها عن بعض ، فهى فى هذا اليوم مسترخية ساقطة القوة ، وذلك بعد أن كانت محكمة متماسكة .

---

(١) ذكر ذلك الإمام الرازى .

(٢) الواقعة ، من الآية : ٦ .

١٧ ، ١٨ - (وَالْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ) :

أى : والملائكة بعد انشقاق السماء وتداعيها - وهى مسكنهم - يقفون على جوانبها وأطرافها فزعين خائفين من عظمة الله ذى الجلال ، ومن هول ذلك اليوم ، ويحمل عرش الرحمن - جلّ وعلا - ثمانية من الملائكة العظام ، أو ثمانية صفوف ، ويكون العرش وحملته فوق الملائكة الذين على أرجاء وأطراف السموات ، وقيل : إن حمل العرش - يومئذ - يكون فوق ظهورهم أو على رءوسهم وليس بأيديهم .

وفى هذا اليوم العصيب الرهيب تعرضون على ربكم للمحاسبة والمساءلة ، قيل : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . (لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ) أى : غير خاف عليه - عز وجل سر من أسراركم لا فى هذا اليوم ولا فى غيره ، وقد جاء النظم الكريم على هذه الصورة لمزيد تهديدهم ، أى : تعرضون على من لا يخفى عليه شئ أصلا ، أو المراد لا يخفى يوم القيامة ما كان مستترا فى الدنيا بستر الله عليكم ؛ فإنه - سبحانه - فى هذا اليوم يظهر أحوال المؤمنين للملأ فى عرصات القيامة ، فيتكامل سرورهم ، ويبدى - جل شأنه - أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك خزيهم وفضيحتهم ، وهو المراد من قول الله تعالى : « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ »[1] .

روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ؛ فإنه أخف عليكم فى الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر .

(١) سورة الطارق ، الآيتان : ٩ ، ١٠

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾)

المفـــردات :

(هَآؤُمُ) : خذوا .

(قُطُوفُهَا) : جمع قِطف ، وهو مايجتنى من الثمر .

(دَانِيَةٌ) : قريبة التناول .

(بِمَآ أَسْلَفْتُمْ) : بما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا[1] .

(الْقَاضِيَةَ) : القاطعة لأمرى ولم أبعث بعدها .

(هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) : بطلت حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، وقيل غير ذلك .

١٩ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) :

هذا توضيح وتبيين لما سبق إجماله فى قوله : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) إذ بالعرض تظهر أحوال المؤمنين وغيرهم ، فأما الفريق المؤمن الذى يأخذ كتابه بيمينه فيعلم - آنئذ -

(١) جاء فى القاموس المحيط : السلف - محركة السين - : اسم من الإسلاف ، ثم قال : وكل عمل صالح قدمته .

أنه من الناجين الفائزين بالنعيم ؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والمراد بالكتاب هنا : ماكتبته الملائكة وسطرته على العبد من الأعمال خيرها وشرها ، أى فيقول كل واحد من هؤلاء السعداء لغيره أو لأهل قرابته ـ سرورا بنجاته ـ : (هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) أى : خذوا كتابى هذا فاقرءوه حتى ينالكم مانالنى من السرور والفرح ؛ ليكمل أنسى ويزداد ابتهاجى وحبورى .

٢٠ ـ (إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) :

أى : إنى كنت فى دنياى أعمل الخير وأحسن القصد وأتقن العمل وأرجو منه ـ سبحانه ـ أن يجعل عملى خالصا لوجهه غير مدخول برياء أو سمعة ، وإنى ظننت فى الدنيا أن ربى ـ جل شأنه ـ سيحاسبنى يوم القيامة حسابا يسيرا ، وقد حاسبنى ـ تبارك وتعالى ـ كما ظننت ؛ فالله ـ جلت قدرته ـ عند ظن عبده به ، وقيل : المراد بالظن هنا اليقين والعلم وذلك بناءً على أن الظاهر من حال المؤمن تيقن أمور الآخرة ، ولكن لمّا كان فيها من التفاوت كسهولة الحساب وشدته ـ مثلا ـ عبر عن العلم بالظن للإشعار والإشارة إلى ذلك .

٢١ ـ (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) :

أى : إن هذا الفريق صاحب اليمين فى عيشة وحياة قد رضى بها تمام الرضا واطمأن إليها كمال الاطمئنان ؛ وذلك لدوامها وعظمها وخلوصها من الشوائب والأكدار حتى كأن تلك العيشة نفسها راضية ، وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ : «أنَّهمْ يعِيشون فَلَا يمُوتون أبدا ويصِحُّون فلَايمْرضون أبداً ، وينْعمون فلَا يروْن بؤْسًا أبداً ، ويشِبُّون فَلَا يَهْرمُونَ أَبَدًا » .

٢٢ ـ (فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) :

أى : يعيش هذا الفريق تلك العيشة الراضية ويحيا هذه الحياة الهانئة فى جنة رفيعة القدر عظيمة المنزلة ، وهى ـ كما جاء فى تفسير ابن كثير ـ رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها . هذا والجنة فى ذاتها عالية فهى فوق السموات غير أن منازل بعضهم فيها فوق منازل الآخرين ، وذلك لتفاوت درجات أهلها .

٢٣ - (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) :

أى : ثمارها قريبة التناول يدركها ويأخذها القائم والجالس والمضطجع ، أو سهلة التناول ، أخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال : دنت فلا يرد أيديهم عنها بعدٌ ولا شوك :

٢٤ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) :

يقال لهم ذلك من قبل الله تعظيما لشأنهم وإدخالا للسرور فى قلوبهم ، أى : كلوا أكلا سائغا لذيذا بلا عناء ولامشقة ، واشربوا شربا رويًّا لاظمأ بعده ، ولا يعقب هذا الأكل والشرب شائبة من تنغيص أو ضرر ، وذلك بسبب ماقدمتم من الأعمال الصالحة فى أيامكم التى خلت ومضت وهى أيام الدنيا ، وهذا الجزاءُ جاء منه - سبحانه - تفضلا عليهم وإكراما لهم ، وإحسانا إليهم ، فقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسدِّدوا وقاربُوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخلَ بعمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : « ولا أنا إلاَّ أن يتغمدَنى اللهُ برحمةٍ منه وفضل » ، وقيل المراد من الأيام الخالية هى أيام الصيام التى تقلصت فيها شفاههم وغارت أعينهم وخمصت وجاعت بطونهم من ترك الطعام والشراب امتثالا لأمر ربهم وابتغاء لوجهه - سبحانه - فعوضهم عما فاتهم فى صومهم .

ولما بين الله حال أصحاب اليمين ومانالوه من سعادة أبدية فى الدار الآخرة أردفه وأعقبه ذكر أصحاب الشمال ومايقاسونه من ضروب الخزى وألوان العذاب وصنوفه ، فقال :

٢٥ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ) :

أى : أن هذا الصنف الذى يعطى كتابه بشماله - وهو أمارة النحس وشؤم الطالع - يقول - وقد ملأته الحسرة وجلَّله الخزى والذل - : ياليتنى لم أعط كتابى وصحيفة أعمالى التى تذكرنى بقبائح أفعالى ، إنه من شدة خجله وفرط هوانه يتمنى لو عُذِّب بالنار دون أن يعرض عليه كتابه حتى لايناله ذلك العذاب الروحانى الذى هو أشق وأشد من العذاب الجسمانى .

٢٦ ـ (وَلَمْ أَدْرِ مَاحِسَابِيَهْ) :

أى :ولم أعرف شيئا عن حسابى ؛ إذ لاطائل ولانفع من وراء ذلك ؛ فكتابه لم يضمماينجيه وليس فيه ما يغنيه من عذاب الله ، إنه قد حوى وشمل كل قبيح يشينه ، وسطر فيه مايهلكه ويرديه .

٢٧ ـ (يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ) :

أى : يقول ـ متمنيا ولاينفع التمنى ـ ليت الموتة التى متُّها وذقتها فى الدنيا كانت هى القاطعة لأمرى ولم أُبعث بعدها ولم أنل وألق ما ألقاه من العذاب المهين ، أو ليت هذه الحالة ـ وهى حالة مطالعته لكتابه يوم القيامة ـ كانت الموتة التى قضت علىّ ؛ لأنه قد صار إلى أمر أشد إيلاما ومرارة من الموت فتمناه عنده ، وقد قيل : أشد من الموت مايتمنى الموت عنده .

٢٨ ـ (مَآ أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ) :

أى :لم ينفعنى ولم يغن عنى ماكان لى فى الدنيا من المال الوفير فضةوذهبا وخيلا مسومة وأنعاما وحرثا وخدما وحشما ،فقد وفدت وجئت إلى ربى فردا وحيدا لانصير لى ولا معين .

٢٩ ـ (هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) :

أى : بطلت حجتى ، وضاع دليلى ،وضل برهانى الذى كنت أحتج به فى الدنيا على محمد ﷺ حيث كذبتنى الجوارح وشهدت على بالشرك والمعاصى !! أو ذهب ملكى وتسلطى وبطشى وجبروتى وبقيت ذليلا مهينا .

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾)

المفـــردات :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ) : شدُّوه بالأَغلال .

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) أَى : لاتدخلوه إلا النار يقاسى حرّها .

(فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً) : قياسها ومقدار طولها .

(فَاسْلُكُوهُ) : فأَدخلوه فيها ، أَى : تلف على جسده ، وقيل غير ذلك .

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) أَى : لايحث ولايحرض غيره على إطعام المساكين .

(حَمِيمٌ) : قريب مشفق يرق ويحترق قلبه له ، أَو يحميه مما نزل به .

(غِسْلِينٍ) : هو الدم والماءُ الذى يسيل من لحوم أَهل النار .

(الْخَاطِئُونَ) : جمع خاطىء ، وهو الذى يتعمد فعل الذنب ، وهم المشركون .

التفسير

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ - (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) :

هذا تفصيل لما يلقاه الأَشقياءُ يوم القيامة حيث يأُمر - سبحانه - الزبانية بأَن يأخذوا كل شقىّ فيشدوه بالأَغلال والقيود ويجمعوا بها يده إلى عنقه ، ثم يأمرهم بعد ذلك أَلّا يجعلوه إلا فى الجحيم وفى النار التى اشتد تأَججها وزاد سعيرها وأُوارها (ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ)

وهى حلق منتظمة كل حلقة منها فى حلقة ، أى : لاتدخلوه إلا فى سلسلة مقدارها سبعون ذراعا ولفُّوها عليه حتى تنتظمه وتضمه ، وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لايقدر على الحركة ، وقيل : إن المعنى لا تدخلوا السلسلة إلاّ فيه ، ويكون المعنى أن السلسة هى التى تسلك وتدخل فيه ، وهو مروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فمه أو من منخريه ، وعند الله علم مقدار هذا الذراع ، وجعلها سبعين ذراعا لإرادة الوصف بالطول لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد ، ونظير ذلك قوله تعالى : «إن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[1] يريد مرات كثيرة .

٣٣ ، ٣٤ - (إِنَّهُ كَانَ لَايُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَايَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

هذا بيان للسبب الذى استحق من أجله هذا العذاب ، أى : استوجب واستحق هذا النكال لأنه كان فى الدنيا مستمرا وقائماً على الكفر بالله العظيم ، وجاء وصفه - سبحانه - بالعظيم ليشعر ذلك بعظم وشدة عذابه - جل شأنه - واستحق العذاب أيضا لأنه لايحث ولايحرض غيره على طعام المسكين فضلا عن أن يبذل ماله ، فهو يجمع بين البخل بماله والشح على المساكين من مال غيره ، وقال صاحب الكشاف : وفى قوله تعالى : (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المساكين أحدهما عطفه على الكفر وجعله قرينا له ، والثانى : ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل ؟! وعن أبى الدرداء : أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر ؟ ! .

٣٥ - ٣٧ - (فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلِينٍ * لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَاطِئُونَ) :

أى : فليس له فى الآخرة قريب يدفع عنه ويحزن عليه لأنهم يتحامونه ويفرون منه كقوله تعالى : «وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً» والغسلين : هو غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من القيح والصديد والدم ، أى : ليس لهؤلاء الأشقياء التعساء طعام يطعمونه إلا هذا الصنف

(١) سورة التوبة من الآية ٨٠

البشع المنتن الذى لايأكله أحد إلَّا هؤلاء القوم الذين كانوا يتعمدون ويقصدون فعل الآثام والذنوب ، ولذا لايدخلون تحت عفو الله وغفرانه لأنهم جاهروا الله بالمعاصى ، وقد قال الرسول ﷺ : « كل أمتى معاف إلا المجاهرين » :

(فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) : فأقسم بالمشاهدات المرئيات ، والمغيبات المستورات ، وقيل غير ذلك .

(تَقَوَّلَ) : افترى وادَّعى .

(ٱلْوَتِينَ) : عرق فى القلب إذا قُطِع مات صاحبه .

التفســير

بعد أن بين – سبحانه – أن الساعة واقعة لا محالة ، وأن الناس جميعا محاسبون على أعمالهم ، وذكر – جلت قدرته – أحوال السعداء والأشقياء فى هذا اليوم – بعد أن بين ذلك – ختم الكلام فى هذه السورة الكريمة بتعظيم القرآن فقال :

٣٨ ، ٣٩ - (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) :

أى : فأُقسم وأَحلف بما تبصرونه وتشاهدونه مما خلق الله وأبدعه وجعله دليلا على كمال قدرته وعظيم إتقانه وإبداعه ، وأُقسم بما لا تبصرونه مما خفى واستتر عنكم من مثل : ذاته - سبحانه - وأسرار قدرته وبعض مخلوقاته التى لم يأْذن لكم فى الاطلاع عليها ، وما خفى ودق من نعمه الباطنة . وكلمة (لَا) على هذا فى قوله :(فَلَا أُقْسِمُ) لتأْكيد القسم وليست للنفى ، وقيل : إنها نافية للقسم ، كأَنه قال : لا أُقسم على أن القرآن قول رسول كريم لأَن الأَمر لوضوحه يستغنى عن القسم والحلف عليه .وقيل :(لَا) لكلام سبق ، أى : ليس الأَمر كما يقوله المشركون ، ثم ابتدىء بعد ذلك بالقسم .

٤٠ - (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) :

أى : إن القرآن الكريم يقوله ويتكلم به رسول من عند الله ، أى : يبلغه عن الله وليس لهذا الرسول بعد ذلك ولاقبله شأن فيه ، والظاهر أن المراد من الرسول فى الآية الكريمة هو سيدنا محمد ﷺ لأَنه هو الذى كان يصفه قومه بالشعر والكهانة وقيل هو جبريل - عليه السلام - .

٤١ - (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) :

أَى وليس القرآن بقول شاعر لأَنه يباين ويختلف عن ضروب الشعر وأَغراضه ؛ إذ إنه التشريع المحكم ، والقول الفصل ، والجد الذى ليس بالهزل ، أما الشعر فإنه يخوض فى الأُمور كلها جدها وهزلها ،فالشعراء فى كل واد يهيمون ، ويقولون مالا يفعلون (قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) أى :أنهم لايؤمنون أصلا ؛فالعرب تقول : قلَّما يأْتينا . وهم يريدون أنه لا يأْتينا ، أو أنهم يؤمنون ولكنهم سرعان ما يرجعون عن إيمانهم ، وذلك كما حدث من الوليد بن المغيرة فإنه بعد أن وصف القرآن الكريم ونعته بأَنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وأنه ليعلو ولا يُعلى عليه ... إلى آخر ماقال ، رجع واستكبر فقال : إن هذا إلَّا سحر يؤثر .

وقال الفخر الرازى فى قوله تعالى : (قَلِيلاً مَّاتُؤْمِنُونَ) : إلَّا أنكم لاتقصدون الإيمان فلذلك تعرضون عن التدبر ، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم : إنه شاعر لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر .

٤٢ - (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّاتَذَكَّرُونَ) :

أى : ليس القرآن - أيضا - بقول كاهن ؛ لأن الكهان تلهمهم وتمدهم الشياطين بالغى والضلال وقد نزل القرآن بسب الشياطين وشتمهم ؛ فلا يعقل أن يكون من مدهم وإلهامهم غير أنكم أيها المكذبون لاتتذكرون كيفية نظم القرآن واشتماله على شتم الشياطين ولعنهم والتحذير منهم ، ولو تذكرتم ذلك لأدركتم أنكم تتخبطون فى أقوالكم وتكذبون أنفسكم.

٤٣ - (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : أن القرآن العظيم كلام رب العالمين ؛ لأنه تنزيله ، أما أنه ينسب قوله إلى جبريل - عليه السلام - فلأنه نزل به من عند الله ، أو أنه قول سيدنا محمد ﷺ فلأنه أنذر وبشر الخلق به ، فكل من جبريل - عليه السلام - ومحمد ﷺ لادخل له فى القرآن الكريم إلا بالنزول به من عند الله بالنسبة لأمين الوحى جبريل - عليه السلام - وبتبليغ ما أنزل عليه للناس كافة بالنسبة لرسولنا محمد ﷺ .

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ - (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) :

أى : لو ادعى ونسب إلينا محمد من قبل نفسه شيئا لم نقله لمنعناه بالأخذ بيمينه ، وهذا تصوير للانتقام منه على أبشع صورة كما يفعل الجبابرة بمن يريدون التنكيل بهم ، من ذلك : بأن نسلبه قوته ، أو ننتقم منه بالحق بأن نقيض ونهيء له من يعارضه فيه ويبطل قوله حتى يظهر كذبه لئلا يشتبه الصادق بالكاذب ، ثم كانت عاقبته أننا نقطع العرق المتصل بقلبه حتى يقضى عليه ويموت (فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍعَنْهُ حَاجِزِينَ) أى : فلا يقدر أحد من الناس أن يحجزنا ويمنعنا ويحول بيننا وبينه فى أخذنا بيمينه ، أو فى قطعنا وتينه ؛ إذ ليس ذلك فى قدرة أحد أو فى إمكانه .

ولما لم يحدث من ذلك شيء كان محمد ﷺ رسولا من عند الله يبلغ عنه ـ سبحانه ـ إنذارا وتبشيرا ، وسميت الأقوال المفتراة المتقولة أقاويل تحقيرا لها وتصغيرا لشأنها ، كقولهم الأعاجيب والأضاحيك[1] .

(وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾)

المفـردات :

(تَذْكِرَةٌ) : عظة وتذكير .

(لَحَسْرَةٌ) : لحزن وندامة عظيمة .

(حَقُّ ٱلْيَقِينِ) : عين اليقين : وقيل غير ذلك .

التفسـير

٤٨ ـ (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) :

أى : وإن القرآن الكريم لتذكرة وعظة للمؤمنين الذين يخشون ربهم ويتقون المعاصى ، وخص ـ سبحانه ـ المتقين بذلك لأنهم هم المنتفعون بالقرآن العظيم .

٤٩ ـ (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ) :

هذه الآية الكريمة وعيد شديد وتهديد للمكذبين ، أى : ونحن نعلم أن منكم من يكذب بالقرآن مع وضوحه وإعجازه ويزعم أنه شعر وكهانة وأساطير الأولين ، وسنجازى هؤلاء المفترين على الله الكذب بما يستحقونه من عقاب ونكال .

---

(١) عن الفخر الرازى .

٥٠ ـ (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ) :

وإن هذا القرآن الكريم ليورث الكفار الأسف العظيم ويجلب لهم الندامة والحزن الشديد وذلك فى الآخرة إذا رأوا وشاهدوا ثواب المؤمنين به والقائمين على حدوده ، أو يصيبهم ذلك فى الدنيا عندما يشاهدون ماعليه المصدقون به من عز ومنعة ودولة وسلطان ، أوحين لم يقدروا على معارضته والإتيان بسورة من مثله عندما تحداهم بذلك .

٥١ ـ (وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ) :

أى : وإن القرآن العزيز لحق لابطلان فيه ، ويقين لاريب ولاشك فيه . ونقل الآلوسى عن بعضهم أنه قال : إن أعلى مراتب العلم حق اليقين ، ودونه عين اليقين ، ودونه علم اليقين ، فالأول كعلم العاقل الموت إذا ذاقه ، والثانى كعلمه عند معاينة ملائكته ـ عليهم السلام ـ والثالث كعلمه به فى سائر أوقاته .

٥٢ ـ (فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ) :

أى : فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيها له وتقديسا عمّا لايليق به من السوء والنقائص ، وإبعادا لعظمته عما لايتفق وجلاله وسلطانه ، واشكره شكرا جزيلا على ما أوحاه إليك من هذا القرآن الرفيع القدر الجليل الشأن ، وما حباك به ـ سبحانه ـ وأعطاك من آلائه الوفيرة ونعمه العظيمة .

سـورة المعارج

مكية وآياتها اربع واربعون آية

صلة هـذه السورة بما قبلهـا :

هذه السورة الكريمة كالمتممة والمكملة لسورة الحاقة إذ إن كلاً منهما تعرض وتبين أحوال البشر يوم القيامة .

بعض مقاصد السورة :

١ ـ إنها ـ فى أولها ـ تنذر الكافرين بعذاب نازل وواقع بهم لا محالة .

٢ ـ إنها تصور يوم الحساب بأنه شاق وعسير على الكافرين فمقداره عليهم خمسون ألف سنة ، أما المؤمن فإن الله يخففه عليه حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا .

٣ ـ تبين السورة فى بعض آياتها السماء يوم القيامة بأنها تكون بيِّنة الكدورة ، وأنها كعكر الزيت فى أسفل إنائه ، وأن الجبال تنفتت وتصير كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح .

٤ ـ توضح السورة أن كل واحد يوم القيامة ينشغل بنفسه (وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) ، وأن المجرم يتمنى لو كان بنوه وأهله ومن فى الأرض جميعًا تحت يده يبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك من عذاب الله ومقته ولكن هيهات أن تكون له نجاة .

٥ ـ تبين الآيات أن الإنسان جبل وفطر على الحزن والجزع عند المصيبة والبلاء كما خلق على الشح والبخل عند النعماء والاستغناء ، ولكن الله تعبَّده [1] بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره ، وأرشده إلى ما يثبته ويصبره عند النوازل فلا يجزع ، وإلى ما يدفعه إلى البذل والعطاء إذا استغنى فلا يشح ولا يمنع (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) .

---

(١) تعبده : أى اتخذه عبدا ، والتعبد : التنسك .

٦ ـ تجىءُ الآيات بعد ذلك معلنة أن الله قادر على أن يهلك الكافرين المكذبين ويستبدل بهم قومًا أفضل منهم ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لايفوته شىءٌ ولايعجزه أمرٌ أراده .

وفى ختام السورة يأمر الله رسوله ﷺ أن يترك هؤلاء الكفرة المكذبين ولا يلقى بالا إلى مايخوضون فيه من الباطل واللّهو حتى يصيروا إلى يوم الحساب الذى يخرجون فيه من قبورهم مسرعين وقد خضعت وذلت أبصارهم واتجهت إلى الأرض فلا يرفعونها خجلًا وخزيًا فضلًا عمَّا يغشاهم ويجللهم من الذل والمهانة ، وهذا هو اليوم الذى هُدِّدوا به فى الدنيا ولكنهم كانوا يسخرون به ويكذبون ، وفى هذا اليوم يشاهدون جزاء عملهم وعاقبة تكذيبهم : (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(سَأَلَ سَآئِلٌ) : طلب ودعا داعٍ .

(وَاقِعٍ) : نازل وحاصل .

(دَافِعٌ) : مانع يردّه .

(الْمَعَارِجِ) : جمع معرج ، وهو المصعد ، أى : صاحب المصاعد والدرجات التى تصعد فيها الملائكة من سماء إلى سماء ، وقيل غير ذلك .

(وَالرُّوحُ) : هو جبريل ـ عليه السلام ـ .

التفسير

١، ٢، ٣، ٤ ـ (سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) :

أى :دعا داعٍ وطلب كافر من كفار مكة لنفسه ولقومه نزول عذاب، من قولهم :دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، والسائل هو النضر بن الحارث ،فإنه لمَّا خوَّفهم رسول الله ﷺ نزول العذاب قال ـ استهزاءً وإنكارًا ـ : « اللَّهُمَّ إن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] فكانت عاقبته العاجلة فى الدنيا ـ جزاء استخفافه واستهزائه ـ أن أُهلك يوم بدر فضلًا عما ينتظره يوم القيامة من نكال هو أشد وأنكى .

وقال بعضهم : هذا السائل هو رسول الله ﷺ وكان قد استعجل عذاب الكافرين ، فبيَّن الله له أن هذا العذاب واقع بهم ولا دافع له ، قالوا : والذى يشير إلى هذا التفسير قوله بعد ذلك : (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) وهذا يدل على أن ذلك السائل هو الذى أمره الله بالصبر الجميل .

وهذا العذاب نازل بالكافرين فى الآخرة لا محالة ،وواقع بهم سواءٌ طلب أو لم يطلب ولا يدفعه عنهم أحد؛لأنه من جهته ـ تعالى ـ وهو صاحب الدرجات والمصاعد التى تصعد فيها الملائكة والروح وهو جبريل ـ عليه السلام ـ أُفرد بالذكر لتميزه وفضله ، وقال مجاهد : الروح ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبنى آدم لا تراهم الحفظة كما لا نرى نحن حفظتنا ، وقيل : ملك عظيم الخلقة يقوم وحده يوم القيامة صفًّا ويقوم الملائكة كلهم صفًّا . وهؤلاء الملائكة والروح تعرج وتصعد من سماءٍ إلى عرش الرحمن حيث تهبط منه أوامره ـ سبحانه ـ وقيل : المراد من المعارج هى الفضائل والنعم لأن لوجوه إنعامه وأياديه ـ جل شأنه ـ درجات وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة فهم فى نعم الله عليهم متفاوتون .

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٣٢

وفى قوله : (مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) مايدخل الخوف والرهبة فى قلوب الكافرين ؛ إذ إن كل المخلوقات تحت قهر سلطانه ، والملائكة ـ ذلك الخلق العظيم ـ تصعد إليه فى معارج السموات « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[1] فما أشد بطشه وما أعظم أخذه « إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »[2] .

(فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) من سنى الدنيا : أى ، أن هذا العذاب سيكون فى يوم قدره خمسون ألف سنة وهو يوم الحساب إلى أن يستقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، وإلَّا فيوم القيامة لانهاية له ، ثم بعد ذلك ينتقل الكفار إلى نوع آخر من العذاب .

وهذا الطول وتلك الشدة تكون على الكافرين والعاصين فحسب ، أما المؤمنون فإن الله يخفف عليهم ، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « والذى نَفْسِى بيده إنه لَيُخفَّفُ على المؤمنِ حتى يكونَ أهون عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

(فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾)

المفــردات :

(فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) الصبر الجميل : هو ما لاجزع فيه ولا شكوى لغير الله .

---

(١) سورة التحريم ، من الآية : ٦ (٢) سورة هود ، من الآية : ١٠٢

(كَالْمُهْلِ) :كالمعدن المذاب ،أو كعكر الزيت .

(الْعِهْنِ الْمَنفُوشِ) : كالصوف المتناثر ، أو المصبوغ الذى طيرته الريح .

التفسير

٥ ـ (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) :

أى : احبس نفسك يا محمد على تحمل أذى قومك ولا تضجر من استهزائهم وسخريتهم . أو فاصبر ولا تستعجل عذابهم الذى سألته لهم ؛ فإنه كائن ونازل بهم لا محالة ، والصبر الجميل : هو ما لا شكوى فيه لغير الله ، وقال بعضهم : إنه يكون معه صاحب المصيبة فى القوم بحيث لا يدرى من هو .

٦، ٧ ـ (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) :

أى :أن الكفار يرون العذاب الواقع بهم ،أو يرون يوم الحساب بعيدًا عن الإمكان ويعتقدون أن وقوعه محال ، أو أنه لا يقع أصلًا وإن كان ممكنًا فى ذاته ، ونحن بإحاطتنا وعلمنا نراه قريبًا هيِّنًا فى قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر .

٨، ٩ ـ (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) :

أى يقع هذا العذاب على هؤلاء المجرمين يوم تكون فيه السماء ـ بعد تشققها وتداعيها ـ قد تغير لونها من الخضرة إلى الحمرة .

والمهل : هو عكر الزيت فى أسفل إنائه ، أو هو ما يذاب من المعادن .

والمراد يوم تكون السماء واهية وتصير الجبال متناثرة متطايرة فى الجو تشبه الصوف المنفوش ، وعن الحسن : تسير الجبال مع الرياح ثم تنهدّ ثم تصير كالعهن ثم تنسف فتصير هباء .

وقال صاحب الكشاف : المراد بالعهن المنفوش : هو الصوف المصبوغ ألوانًا ؛ لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، فإذا بُسَّت وطيرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

هذا هو شأن الله فى السموات والأرض ، أما حال الخلائق فى هذا اليوم فقد بينته الآيات التالية :

(وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) الحميم : هو الصديق أو القريب المشفق ، قال الراغب : فكأنه الذى يحتد حماية لذويه .

(يُبَصَّرُونَهُمْ) : يرونهم ويعرفونهم .

(وَفَصِيلَتِهِ) : عشيرته الذين فصل عنهم .

(الَّتِى تُؤْوِيهِ) : تضمه انتماء إليها فى النسب ، أو يلجأ إليها ويتمسك بها فى النوائب .

التفســير

١٠ ــ (وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) :

أى : ولا يسأل صديق أو قريب مشفق صديقاً أو قريباً كان يعطف ويحنو عليه ويحتد حماية له ، لايسأله عن شأنه وحاله ، وعدم السؤال إما لاشتغال كل أحد بنفسه فهو كقوله تعالى : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ »[1] وقوله : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[2] أو : ولا يسأل حميم حميماً شفاعة أو إحساناً إليه أو رفقاً به

(١) سورة الحج ، من الآية : ٢ (٢) سورة عبس ، من الآية : ٣٧

أو نصرًا له لعلمه أنه لايجد ذلك عنده ، ونظرا إلى أنه قد يتبادر إلى الذهن أن عدم السؤال قد يرجع إلى أنه لا يرى بعضهم بعضاً فقيل : (يُبَصَّرُونَهُمْ) أى: يرونهم ويعرفونهم ولكنهم لتشاغلهم بأنفسهم لم يتمكنوا من تساؤلهم أو لأنهم لا يرون جدوى فى ذلك .

١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ـ (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ * وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ) :

أى : هذا المجرم الآثم الظالم الذى تناهى إجرامه بكفره بربه واستكباره عن عبادة مولاه يحب ويتمنى ــ فداءً لنفسه من العذاب ــ أن يقدم أبناءه وزوجه وأخاه وعشيرته الخارج منها المتفرع عنها التى تؤويه وتضمه إليها إذا ألمت به ملمة أو نزلت به نازلة ، ويقدم أيضًا جميع من فى الأرض ، والمراد أن ذلك الكافر والمذنب يود لو يفتدى نفسه بهذه الأشياء ثم يؤدى ذلك إلى نجاته .

وجاءت (ثُمَّ) فى قوله تعالى : (ثُمَّ يُنجِيهِ) لاستبعاد الإنجاء ، يعنى يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك ، ولكن هيهات أن تكون له نجاة .

(كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(لَظَى) : علم لجهنم منقول من اللظى بمعنى اللهب الخالص .

(لِلشَّوَى) : لجلدة الرأس ، وقيل : للأطراف وسيأتى .

(تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى) : تطلب من أعطى ظهره للحق وأعرض عن الطاعة للدخول فيها .

(وَجَمَعَ فَأَوْعَى) : جمع المال فجعله فى وعاء وكنزه ولم يؤد حقه[١] .

التفسير

١٥ ، ١٦ ـ (كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ) :

(كَلَّا) : ردع وزجر للمجرم عن أن يود ذلك ، وتنبيه له على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب (إِنَّهَا لَظَىٰ) أى : إن النَّار شديدة السعير عظيمة التلظى لا تأخذها رحمة ولا شفقة ولا هوادة فى أخذ المجرمين وتعذيبهم ؛ فتنزع وتقتلع أطرافهم أو جلدة رءوسهم تنزعها نزعاً فَتُبَتِّكُها وتقطعها ثم تعاد ؛ قال تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[٢] .

١٧ ، ١٨ ـ (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ) :

أى : تدعو جهنم وتطلب من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان ، تدعوهم بلسان حالها حيث هيأت لكل واحد من الكافرين جانباً وناحية منها يرجع إليها حتى كأن تلك المواضع تدعوهم وتحضرهم ، أو أن الله ـ سبحانه ـ يخلق لها لساناً تدعوهم به ؛ فتقول قولا صريحاً : إلىّ يا كافر ، إلىّ يامنافق ، ثم تلتقطهم التقاط الحب ، روى ذلك عن ابن عباس ، أو أن زبانية النَّار وحراسها تدعوهم ، أو أن معنى (تَدْعُو) تهلك ، وذلك من قول العرب : دعاه الله ، أى : أهلكه ، ومنه : دعاك الله من رجل بأفعى .

(وَجَمَعَ فَأَوْعَى) أى : جمع المال واختزنه وكنزه وأحكم وكاءه وأوثق وعاءه ، ومنع حق الله فيه ؛ فلم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيه ، وتشاغل به عن دينه ، وزها باقتنائه ، وتكبر وتجبّر فكان جموعاً منوعاً .

---

(١) قال الراغب : الوعى حفظ الحديث ونحوه ، يقال : وعيته فى نفسى قال تعالى : (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) والإيعاء : حفظ الأمتعة فى الوعاء ، قال : (وجمع فأوعى) .

(٢) سورة النساء من الآية ٥٦

* (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾)

المفـــردات :

(هَلُوعاً) الهلع : شدة الجزع وسرعته عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند حصول الخير ، من قولهم : ناقة هلوع : سريعة الجرى ، وهلع من باب فرح ، يقال : هو هلِع وهلوع .

(عَلَى صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) أى : مواظبون عليها مستمرون على أدائها لا يشغلهم عنها شاغل .

(فِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ) أى : قدر معين يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله وقيل : هو الزكاة .

(لِلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) أى : لمن يسأل النّاس الصدقة ولمن يتعفف عن سؤالهم فيُظن أنه غنى فيحرم .

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) : وهو يوم الجزاء ، والمراد من التصديق به : الإتيان بأعمال الطاعات البدنية فوق الاعتقاد القلبي .

(مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) أى : خائفون وجلون مع ما قدموا من عمل صالح .

(فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) : المتجاوزون الحلال إلى الحرام .

(لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) : لايُخِلُّونَ بشىء مما اؤتمنوا عليه ولا مما أعطوا عليه العهد للوفاء به .

التفسير

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ - (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) :

هذا إخبار من الله - تعالى - عن الإنسان ، وعما هو مجبول عليه من أخلاق ذميمة ، إلا من عصمه الله - سبحانه - ويراد بالإنسان الجنس ، أو الكافر ، أى : شأنه وطبيعته أن يكون سريع الجزع إذا مسه شر وضر أو لحق به ضيق وعنت ، شديد الحرص والمنع إذا صادفه رخاء ويسر [1] .

سئل ابن عباس عن الهلوع ، فقال : هو كما قال الله تعالى : (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) ، وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلبًا عنه ، فقال : قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه ، يعنى قوله تعالى :(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ...) الآية ، أى : إذا مسه الفقر أو المرض ونحوهما كان مبالغًا فى الجزع مكثرا منه ، لا صبر له على ما نزل به ، يتجرعه حزينًا كئيبًا تكاد تتقطع نفسه ، وينخلع قلبه . قال الراغب : الجزع أبلغ من الحزن ، فإن الحزن عام ، والجزع حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده ، ويقطعه منه لقوة أثره فيه حتى صرفه عمَّا عداه .

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) أى : كان مبالغًا فى البخل والإمساك ، لا ينفقه فى طاعة ، ولا يعرف فيه حق الله ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد العزيز بن الحكم قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « شَرُّ ما فِي الرجلِ شُحٌّ هالِع ، وجُبْنٌ خالِع » .

---

(١) لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه جعلا كأنهما أمر خلقى وضرورى غير اختيارى .

٢٢ ـ (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) :

لَمَّا وصف سبحانه فيما سبق كل من أدبر عن الحق وتولى عن الطاعة بما يستحقونه من النعوت القبيحة معللا ذلك بهلعهم وجزعهم . استثنى المصلين المتصفين بالأوصاف الجليلة الآتية التى تنبىء عن كمال تنزههم عن الهلع : من الاستغراق فى طاعة الحق ، والإشفاق على الخلق ، والإيمان بالجزاء ، والخوف من العقوبة ، وكسر الشهوة ، وإيثار الآجل على العاجل فقال عز من قائل مُعَدِّدًا تلك الصفات التى اتصف بها المصلون :

٢٣ ـ (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) :

أى : مواظبون مستمرون على أدائها فى وقتها ، لا يغفلون عنها ولا يشتغلون بغيرها ، وقد أخرج ابن حبان عن أبى سلمة قال : حدثتنى عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » . قالت : فكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ مادام عليه وإن قل ، وكان إذا صلى صلاة دام عليها ، وقرأ أبو سلمة :(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) ، وقيل : دائمون ، أى : لا يلتفتون فيها ، وروى ذلك عن عمران بن حصين وكذا عن عقبة بن عامر .

أخرج ابن المنذر عن أبى الخير أن عقبة قال لهم : من الذين هم على صلاتهم دائمون ؟ قال : قلنا : الذين لا يزالون يصلون . قال : لا ولكن الذين إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمين ولا شمال . وإليه ذهب الزجاج .

وقيل : المراد بالدوام السكون والخشوع كقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »[1] ، والمراد بالصلاة ـ على ما أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم التَّيْمى ـ : الصلاة المكتوبة ، وقيل : النافلة ، وقيل : ما أُمروا به مطلقًا منها ، على سبيل الوجوب أو الندب وهو الظاهر .

---

(١) المؤمنون (أول السورة) .

٢٤ ، ٢٥ - (وَالَّذِينَ فِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) :

أى : والذين يجعلون فى أموالهم نصيبًا معينا يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله ، وإشفاقا على العباد ، وهو ما يوظفه الرجل على نفسه يؤديه فى كل جمعة أو كل شهر مثلًا . كما روى عن الإمام أبى عبد الله - رضى الله تعالى عنه - وقيل : هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة ، ورد هذا بأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت وبُيِّنَ مقدارها فى المدينة ، وقبْل ذلك كانت مفروضة من غير تعيين ، وهذا القدر المعين الذى اختاره المتصدقون ، وجعلوا إخراجه لزاما عليهم يعطى (لِلسَّائِلِ) وهو حق له . قال رسول الله ﷺ فى مسند أحمد : « للسائلِ حقٌّ وإن جاءَ عَلَى فَرَس » (وَالْمَحْرُومِ) يعطى أيضًا ، وهو الذى يتعفف فلا يسأل الناس شيئًا ، وبذلك يخفى أمره فلا يُفطن له ، ويُحسب أنه غنى ، فيحرم ، ولا يتصدق عليه بما هو حق له ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ »[1] ، واستعمال المحروم فى المتعفف على سبيل الكناية .

٢٦ - (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) :

وهو يوم الجزاء والحساب ، والمراد من التصديق به : أن يشغلوا أنفسهم بأداء الأعمال الصالحة طمعًا فى المثوبة الأخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم الأكيد بيوم الجزاء وحبهم الصادق له ، لأن التصديق القلبى عام لجميع المسلمين ، لا امتياز فيه لأحد منهم على غيره .

٢٧ - (وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) :

أى : خائفون على أنفسهم أن يمسهم عذاب ربهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصارًا لها واستعظاما لجنابه - عز وجل - كقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ »[2] فهم بذلك قد بلغوا الغاية فى بلوغ أعلى مراتب الخشية ، وأسمى آيات الطاعة ؛ فكان جزاؤهم أن يكونوا من الآمنين يوم الفزع الأكبر .

---

(١) البقرة ، من الآية : ٢٧٣ (٢) المؤمنون ، آية رقم : ٦٠

٢٨ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) :

اعتراض بين الكلام المتصل فى وصف المصلين مؤذن بأنه لاينبغى لأحد أن يأمن مكر الله وعذابه ، وإن كان له فى الطاعة قدم ثابتة ، وفى الإخلاص جهد لايُبَارَى كهؤلاء ، ولذا كان السلف الصالح -وهم هم - خائفين وجلين حتى قال بعضهم : ياليتنى كنت شجرة تعضد ، وقال آخر : ياليْتَ أمى لم تلدنى .

٢٩ ، ٣٠ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) :

أى : أنهم ممسكون لفروجهم غير مرسلين لها على أحد إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وفيه إيذان بأن شهوتهم قوية دافعة تدعوهم إلى بذل الجهد فى صدها لمنعها من استيفاء مقتضياتها ، وبذلك يتحقق لهم كمال العفة .

والمراد بقوله تعالى : (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ): الإماءُ المملوكات .

(فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ): تعليل لما يفيده الاستثناءُ القاضى بعدم حفظ فروجهم عن الزوجات والمملوكات ، أى : فإنهم ليسوا أهلًا للوم والتأنيب على عدم حفظ فروجهم بإرسالها على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وفق نص الشارع الحكيم .

٣١ - (فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) :

أى فمن تجاوز الذى ذكر من القدر المعلوم وهو نكاح أربع من الحرائر ، وماشاء من الإماء ، فقد تعدى حدود ما أحل الله له إلى ماحرمه عليه . قال الطبرى : من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه ففاعلو ذلك هم العادون الذين تعدوا ما أحل الله لهم إلى ماحرمه عليهم ، وهم الملومون . أما الذين لم يقربوا سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، وما ملكت أيمانهم من السرارى ، فهم غير ملومين كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة .

٣٢ـ (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) :

أى : أنهم إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، بل كانوا مثالًا كاملًا فى حفظ الأمانة ، ورعاية حقوقها ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص فيه ، وبذلك تنزهوا عما اتصف به المنافقون فى الحديث الصحيح : « آيةُ المنافقِ ثلاثٌ : إذا حَدَّث كذبَ ، وإذا وَعَد أخْلفَ ، وإذا اؤْتمِنَ خان » وكأنه لكثرة الأمانة جمعت ، ولم يجمع العهد لأنه ليس كالأمانة كثرة ، ويدل على كثرتها ما روى عن الكلبى : كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد ، والأقوال ، والأحوال ، والأفعال ، ومن الحقوق فى الأموال وحقوق الأهل والعيال ، وسائر الأقارب ، والمملوكين ، والجار ، وسائر المسلمين . وقال السدى : إن حقوق الشرع كلها أمانات قد قبلها المؤتمن ، وضمن أداءها بقبول الإيمان ، ونص غير واحد أن الخيانة فى الأمانة ، وكذا الغدر بالعهد من الكبائر ، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس قال : ما خَطَبَنا رسول الله ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ إلا قال : « لا إيمانَ لمن لا أمانَةَ له ، ولا دينَ لمن لا عَهْدَ له » .

٣٣ـ (وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ) :

أى : أنهم محافظون عليها ، لا يزيدون فيها ، ولا ينقصون عنها ، غير منكرين لها أو لشىء منها ، وإنما يقيمونها على وجهها ، بدون ميل إلى قريب أو شريف ، أو ترجيح لقوى على ضعيف : إظهارًا للصلابة فى الدين ورغبة فى إحياء حقوق المسلمين ، وتعظيما لله ــ عز وجل ــ فيما يتعلق بحقوقه ــ سبحانه ــ من أنه واحد لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ، وخص بعضهم الشهادة بما يتعلق بحقوق العباد ، وذكر أنها مندرجة فى الأمانات إلَّا أنها خصت بالذكر لإبانة فضلها ، وعلو قدرها ، وجمعت لاختلاف الأنواع .

٣٤ـ (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

أى : يراعون شرائطها ، ويكملون فرائضها ، وسننها ، ومستحباتها ، وذلك باستعارة الحفظ من الضياع للإتمام والتكميل ، والحفظ غير الدوام فى قوله ــ سبحانه ــ فيما سبق : (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) فلا تكرار .

وفى افتتاح الأوصاف بما يتعلق بالصلاة أولًا وآخرا دلالة على الاعتناء بها ، والتنويه بشأنها وفضلها على سائر الطاعات لأنها معراج المؤمنين ، ومناجاة رب العالمين ، ولذا جعلت قرة عين سيد المرسلين .

٣٥ـ (أُولَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ) :

إشارة إلى أن الموصوفين بالأوصاف الكريمة التى تنبىء عن علو أقدارهم عند ربهم ، واستحقاقهم لإكرامه وفضله مكرمون فى جنات النعيم ، وما فى الإشارة من معنى البعد فى قوله تعالى : (أُولَٰٓئِكَ) مع قرب العهد بالمشار إليهم هو للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل ، وقوله تعالى : (فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ) أنهم مستقرون فى جنات لايقادر قدرها ، ولا يدرك شأنها . مكرمون فيها بكل أنواع التكريم .

(فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾)

المفـــردات :

(قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ) أى : مسرعين نحوك مادى أعناقهم إليك . مقبلين بأبصارهم عليك وفعله (أهطع) بمعنى مد عنقه ، وصوب رأسه ، ومهطع كمحسن : من ينظر فى ذل وخضوع لا يقلع بصره ، والمادة تدل على السرعة .

(عَنِ الْيَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) أى : جماعات فى تفرقة كما قال أبو عبيدة : كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تنتسب له الأخرى ، وهى جمع عزة بمعنى فرقة ، والفرقة من ثلاثة أشخاص أو أربعة .

(كَلَّا) كلمة لردع المشركين عن الطمع فى الجنة .

(بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) أى : مشارق الشمس والكواكب ومغاربها .

(وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أى : بمغلوبين إن شئنا تبديلهم بخير منهم .

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) أى : اتركهم للدخول فى باطلهم الذى تعودوا الدخول فيه واقترافه والحديث عنه ، ولا تعبأ بلعبهم فى دنياهم فإنه لايجدى .

(مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً) أى : مسرعين ، والأجداث : جمع جدث وهو القبر ، مثل سبب وأسباب ، وهى لغة تهامة ، ولغة نجد جدف بالفاء .

(إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) النصب : ما نصب فعبد من دون الله ، وهو عند الكثيرين مفرد ، وقيل : هو جمع نصاب ككتاب ، وقال الأخفش : جمع نصْب كرَهْن ورُهن ، والأنصاب جمع جمع ، و (يُوفِضُونَ) : يسرعون ، من الإيفاض ، وقيل : هو مطلق الانطلاق .

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) أى : تغشاهم ذلة شديدة تجعلهم فى منتهى الضعف والهوان .

التفسير

٣٦ ، ٣٧ ــ (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ • عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) :

كان النبى ﷺ يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن . فكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً وفرقاً يستمعون ويستهزئون بكلامه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ﷺ ، فلندخلنها قبلهم ، فنزلت الآيات .

والمعنى : أى دافع دفع هؤلاء الكافرين إلى أن يسيروا نحوك مسرعين مادى أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ، يحلقون عن يمينك وشمالك حلقاً متعددة ، ويكونون فرقاً شتى كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تعتزى له الأخرى . ينكر الله تعالى على المشركين الذين كانوا فى عهد النبى ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى ، وأيده به من المعجزات الباهرة ، ثم هم مع هذا كله معرضون عنه مبالغون فى تلمس ما يتخذونه هزءاً به ، وسخرية منه حينما يرونه يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن قائلين : إن دخل هؤلاء الجنة ـ كما يقول محمد ـ فلندخلنها قبلهم ، وقد رد عليهم سبحانه فأبطل زعمهم حيث يقول عز وجل :

٣٨ ، ٣٩ ـ (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ) :

إنكار لقولهم وردع لهم عن طمعهم الكاذب فى دخولها بلا إيمان ، لأنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة ، أما من لم يستكملها بذلك ، فهو بمعزل عن أن يتبوأ متبوأ الكاملين ، فمن أين لهم أن يطمعوا فى دخول الجنة ، وهم مكبون على الكفر والفسوق ، وإنكار البعث وهو معلوم لهم باعتبار سماعهم عنه من النبى ﷺ .

وقيل المعنى : إنا خلقناهم من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا ألا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان ، فلِم يطمع أن يدخلها من لا إيمان له ؟ وفيه من الإنكار عليهم والردع لهم ما فيه .

وقيل : الأقرب أنه كلام مستأنف[1] قد سيق تمهيدا لما بعده من بيان قدرته على أن يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء ، واستهزائهم بالرسول والقرآن ، وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية ، وأن ينشىء بدلهم قوماً آخرين خيراً منهم ، فإن قدرته سبحانه على ما يعلمون من أنه أنشأهم النشأة الأولى حجة واضحة على قدرته على ذلك . كما تفصح عنه فاء الفصيحة فى قوله سبحانه :

---

(١) وهو قوله :(إِنَّا خَلَقْنَاهُم) .

٤٠ ، ٤١ـ (فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) :

المعنى : إذا كان الأمر كما ذكرنا من أنه سبحانه أنشأهم إنشاءً من النطفة المذرة كما يعلمون ولم يكونوا شيئاً مذكورًا : فلا أقسم[1] برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها على قدرتنا البالغة على أن نهلكهم حسبما تقتضيه جناياتهم ، ونعيدهم يوم القيامة بأبدان أطوع لله ، وأمثل منهم ؛ وذلك لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق والتأكيد بالقسم لأن الإعادة أهون من البدء كقوله تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[2] أى : بالبعث .

أو أنَّ « لَا » رد لكلام سبق للمشركين واجهوا به الرسول وأصحابه سخرية منهم ، واستهزاءً بهم ، وطمعاً استحوذ عليهم فى دخول الجنة قبلهم ، ثم استؤنف فقيل : (أُقسم برب المشارق...) إلخ : أى ، أُقسم بأن قدرتنا العظيمة على البعث حقيقة لا شك فيها ، وقد شاهدوا من بالغ قدرتنا ماهو أكبر منه وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيها من المخلوقات كما قال تعالى : « لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »[3] فحقيق بهم أن يدعوا الجحد والعناد ، ويؤمنوا إيماناً لا مرية فيه ولا ارتياب بأننا قادرون على أن نبدلهم خيرًا منهم ، (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) بمغلوبين إن أردنا ذلك ، لكن إرادتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوبتهم .

٤٢ ـ (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

أى : فدعهم يا محمد غير مكترث بهم وبما يصنعون من تكذيبهم وباطلهم الذى تعودوا اقترافه ولا تعبأ بما يأتون به فى دنياهم من أعمال لا نفع فيها ، ولا خير منها ، وإنما هى لهو ولعب ، واشتغل بما أُمرت به ، والأمر فى الآية لتهديد المشركين ووعيدهم (حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم البعث عند النفخة الثانية ، وفى ذلك فسيلقون عاقبة ما عملوا ، ويذوقون وباله ، ويتجرعون أهواله التى لا تنفع معها توبة ولا يجدى عندها ندم

---

(١) على أن (لا) نافية للإقسام . (٢) الأعراف ، من الآية : ٢٩ . (٣) غافر ، من الآية : ٥٧.

٤٣ ، ٤٤ - (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) :

أى :إن يومهم الذى وقع لهم فيه الوعيد بما يلاقونه من أهوال وشدائد لخوضهم ولعبهم ، هو يوم قيامهم من القبور إذا دعاهم الرب - جل وعلا - إلى موقف الحساب ، فإنهم ينهضون مسرعين يسبق بعضهم بعضاً كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب الَّذِى نصبوه للعبادة من دون الله ، وقد كانوا إذا ما أبصروه (يُوفِضُونَ) أى : يسرعون إليه أيهم يستلمه أول وهذا مروىٌّ عن مجاهد ، ويحيى بن كثير وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وابن أبى زيد وغيرهم ، وكان الإسراع إلى المعبودات الباطلة وسائر الطواغيت من عادة المشركين ، وفى تشبيههم عند خروجهم من قبورهم للحساب بما ذكر تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) .

أى : خاضعة منكسرة لمهانتهم ، ووصفت الأبصار بالخشوع مع أنه وصف الكل ؛ لظهور آثاره فيها (تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) أى : تغشاهم ، وتعم ذواتهم ذلة شديدة وهوان فى مقابل ما استكبروا عنه فى الدنيا من الطاعة وتظاهروا به من المعصية ، وتمادوا فيه من العناد بإنكار البعث والمعاد .

(ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) أى : ذلك الذى ذكر ما سيقع فيه من الأحوال الهائلة والشدائد المذهلة هو اليوم الذى كان يقع لهم الوعيد به فى الدنيا[1] فكانوا يقابلون هذا الوعيد بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، واليوم يرون عذابهم واقعاً ، وجزاءهم محققاً ، وكل ماهددوا به ماثلا ، وقد عز عليهم النصير ، وامتنع المعين .

---

(١) بقوله تعالى :(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) .

سورة نوح عليه السلام

مكية ، وهى ثمان وعشرون آية

وسميت سورة نوح لذكره فى مفتتحها ومختتمها .

وجه اتصالها بما قبلها :

ووجه اتصالها بما قبلها – على ماقال جلال الدين السيوطى – وأشار إليه غيره بأنه : سبحانه كما قال فى المعارج : (إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ) عقَّبه تعالى بقصة نوح – عليه السلام – المشتملة على إغراقهم عن آخرهم ، فوقعت موقع الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى القاضية باستبدالهم خيرًا منهم .

أهم مقاصد السورة :

بدأت بأمر نوح – عليه السلام – أن يَدعُوَ قومه إلى عبادة الله وأن ينذرهم ويخوفهم من عذابه ، وقد وعدهم المغفرة على استجابتهم ، والتأخير إلى أجلٍ مُسَمًّى ، الآيات من أول السورة إلى قوله تعالى : (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) .

ثم ذكرت شكايته من إعراضهم عنه ، وعنادهم له بعد أن أمعن فى شغل جميع أوقاته بدعائهم ونصحهم واستنفد معهم كل وسائل الدعوة جهرية وسرية فلم تزدهم إلا فِرَارًا وإصرارًا (قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا) الآيات . ثم وجهت الأنظار إلى دلائل القدرة فى خلق السموات والكواكب ، وفى خلق الأرض وبسطها وما يتصل بها (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ..) الآيات .

ثم سجلت إصرارهم على عبادة الأصنام حتى استحقوا عذاب الله وكان ذلك بإغراقهم (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...) الآيات .

وختمت السورة ببيان أن نوحًا – عليه السلام – لما يئس من قبولهم الدعوة دعا عليهم بالهلاكِ والانقراض . (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ...) الآيات . ودعا لنفسه بالمغفرة ولأبويه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنينَ والمؤمنَاتِ .

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(إِلَىٰ قَوْمِهِ) : هم سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم .

(عَذَابٌ أَلِيمٌ) : شديد موجع عاجل ، وهو ما حل بهم من الطوفان أو آجل وهو عذاب النار .

(إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر موضح من أجل نفعكم من غير أن أسألكم على ذلك أجرا .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : بعض ذنوبكم التى سبقت فى الجاهلية .

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) أى : يمد فى أعماركم إلى الأمد الأقصى الذى قدره الله لكم .

(إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ) أى : ما قدره ــ عز وجل ــ لكم وأنتم على ما أنتم عليه إذا جاء لا يؤخر .

التفســـير

١ ــ (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

نوح ــ عليه السلام ــ اسم أعجمى معرب : معناه بالسريانية ، الساكن ، والمشهور أنه ــ عليه السلام ــ ابن لَمْك ــ بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف ــ بن مَتُوشَلَخ ــ بفتح الميم

وتشديد التاء مضمومة وفتح الشين واللام والخاء ـ بن أخنوخ ، وفيه عن ابن عباس : كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون . بعثه الله لأربعين سنة ، ومكث يدعو قومه ألف سنة إلّا خمسين عامًا ، ومع ذلك لم يؤمنْ به إلّا قليل ، وهو من أُولى العزم ، وكان فى زمن شاع فيه الكفر وذاع ، وقد اشتهر قومه بعبادة الأوثان ، وأكثروا من البغى والظلم والعصيان ، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وانتشروا ، وفى التهذيب للنووى ـ رحمه الله تعالى ـ أنه أطول الأنبياء عمرًا ، وقيل : إنه أطول الناس جميعًا عمرًا مطلقًا ، وهو ـ على ما قيل ـ أول من شرعت له الشرائع ، وسنت له السنن ، وأول رسول أنذر على الشرك ، وأهلكت أمته ، ويقول ابن كثير : الحق أن آدم ـ عليه السلام ـ كان رسولًا أُرسل إلى زوجته ثم إلى بنيه ، وكان فى شريعته الإنذار على الشرك ، ويقال لنوح : شيخ المرسلين ، لأنه أطولهم عمرًا ، وآدم الثانى .

أرسله الله إلى قومه وهم ـ كما قيل ـ : سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم ، لا أهل الأرض كافة ؛ لاختصاص نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعموم البعثة من بين الرسل جميعاً ، والذى كان لنوح ـ عليه السلام ـ بعد قصة الغرق حدث بمحض الاتفاق لعدم وجود أحد على الأرض سوى قومه الناجين معه فى السفينة . وفى إسناد الفعل فى قوله سبحانه : (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ) إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ، مالا يخفى من الاهتمام والاعتناء بإرساله عليه السلام (أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ) أى : بأن أنذرهم وخوفهم عاقبة كفرهم . من الإنذار ، وهو إخبار فيه تخويف وترويع ، وتكون (أن) مصدرية . فإن كانت مفسرة كان المعنى : إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، أى : قلنا له أمرًا ، أى : أنذر قومك لما فى الإرسال من معنى القول دون حروفه ، فلا محل للجملة من الإعراب . (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) موجع شديد عاجل وهو ماحل بهم بالطوفان كما قال الكلبى أو آجل وهو عذاب النار كما قال ابن عباس أو المراد خوف قومك ، وحذرهم مما ينزل بهم إن لم يؤمنوا حتى لا يكون لهم عذر أصلا يعتذرون به يوم يؤخذون أخذ عزيز مقتدر .

٢ ، ٣ ، ٤ - (قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

قول نوح - عليه السلام - استئناف مبنى على سؤال نشأ عن حكاية إرساله - عليه السلام - بالوجه المذكور وهو الإنذار ، فكأنه قيل : ماذا فعل - عليه الصلاة والسلام - ؟ فقيل : قال لهم (يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) بين النذارة ظاهر الأمر واضحه ، لم أدخر وسعاً فى سبيل نصحكم ، وهدايتكم إلى طريق الرشاد ؛ من أجل نفعكم من غير أن أسالكم على ذلك أجرا وقوله : (أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) متعلق بنذير فى قوله سبحانه : (إِنِّى لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ) على مصدرية (أن) أو تفسيريتها ، فعلى المصدرية يكون المعنى : إنِّى نذير لكم بعبادة الله وتقواه وإطاعتى إلى ما أدعوكم إليه من الصلاح والفلاح ، وعلى تفسيريتها يكون المعنى : إن نذارتى هى : أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، أى : قولى ، أى : اعبدوا الله وحده واجتنبوا مآثمه ، وأطيعونى فيما دعوتكم إليه ، وأمرتكم به وما نهيتكم عنه من عبادة الأوثان والأصنام .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : يمح الله عنكم بعض ذنوبكم وهى التى حصلت قبل الإيمان لأن الإيمان يجُبُّ ما قبله كما يرى بعض العلماء ، كما فى قوله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »[1] وقيل : إن المراد بالبعض المغفور قبل الإيمان ، هو ما يتعلق بحقوق الله فقط دون ما يتعلق بحقوق العباد كالقصاص ونحوه ، أو هى الذنوب العظام التى وعدكم الله عليها الانتقام - كما قال ابن كثير - وقيل المعنى : يصفح الله لكم عن ذنوبكم ، واختاره ابن جرير على أنَّ (مِنْ) بمعنى (عَنْ) وقد تابت عنها ، أو (من) بيانية بمعنى : يغفر لكم أفعالكم التى هى الذنوب ، كقوله تعالى : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ »[2] فهى لبيان مبهم وهو أفعالهم .

وللتوفيق بين هذه الآية (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) وقوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) ونحوها لايبعد أن الله يغفر الذنوب جميعها لقوم ، وبعضها لآخرين ، وقيل : جىء بمن مع الكفرة مطلقاً فى خطابهم دون المؤمنين فى جميع القرآن تفرقة بين الخطابين .

---

(١) الأنفال ، من الآية : ٣٨ (٢) الحج ، من الآية : ٣٠

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) المراد به الأمد الأقصى الذى قدره الله بشرط الإيمان والطاعة [1] ، وراء ما قدره الله لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان ، وكونهم لايؤخرون إلى الأمد المسمى إلا بشرط الإيمان والطاعة صريح فى أن لهم أجلا آخر لايجاوزونه وهو ما قدر لهم إن لم يؤمنوا ، وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة ، والبر ، وصلة الرحم تزيد العمر . ذكره ابن كثير ، لما ورد به الحديث : « صِلَةَ الرَّحِمِ تزيدُ فى العُمرِ » .

(إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) تعليل لما فهم من تعليقه سبحانه التأخير إلى الأجل المسمى على الإيمان ، أى : لأن أجل الله الذى قدره سبحانه لكم على تقدير بقائكم على الكفر إذا جاء وأنتم على حالكم لا يؤخر عن وقته المقدر له . فبادروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه وهو بقاؤكم على الكفر ، وقيل : المراد بتأخيرهم إلى الأجل المسمى تأخير وقت عذابهم ، وذلك بإمهالهم والتجاوز عنهم فى الدنيا ، فلا يوقع العذاب بهم مدة بقائهم إلى أن يأتيهم العذاب المذكور فى قوله تعالى : (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإنه أجل مؤقت حتماً ، وأما الأجل بمضى العمر ، فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر كما قال تعالى : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » [2] .

ولو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما أمركم به نبيكم من الإيمان والطاعة ليتحقق لكم البقاء إلى أجل مسمى ، ولكنكم لستم من أهله فى شئ ، فلذا لم تسارعوا لما أمرتم به وآثرتم الكفر والضلال ، أو لو كنتم من أهله لعلمتم بأن الأجل لايؤخر لوجاء وقته المقدر له ، ولكنكم جهلتم ذلك فظللتم فى غيكم سائرين .

---

(١) حثالهم على الإيمان بنوح — عليه السلام — وبترك الإمعان فى الكفر والعناد ، قيل : إن الله قضى لهم : إن آمنوا عمرهم ، وإن كفروا أهلكهم .

(٢) الأعراف ، الآية : ٣٤ .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيٓ إِلَّا فِرَارًا) : تباعدا من الإيمان وإعراضاً عنه .

(جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِيٓ آذَانِهِمْ) : سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ، ووضع أناملهم فيها كناية عن ذلك .

(وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) :بالغوا فى التغطى بها ، واستغشى على وزن استفعل . والصيغة تدل على المبالغة لما فيها من الطلب .

(وَأَصَرُّوا) أى : أكبوا وأقاموا على الكفر والمعاصى ، من الإصرار على الذنب : وهو الامتناع من الإقلاع عنه وأصله من الصَّرة . وهى الشدة .

التفســـير

٥ ، ٦ـ (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيٓ إِلَّا فِرَارًا) :

يخبرالله ـ عز وجل ـ عن عبده ورسوله نوح ـ عليه السلام ـ أنه توجه إليه ـ سبحانه ـ مناجياً وحاكياً له بقصد الشكوى ـ وهو أعلم بحاله ـ مالقى من قومه ، وصبره عليهم ، وماجرى بينه وبينهم من القيل والقال فى تلك المدد الطوال ، بعد ما بذل فى الدعوة غاية المجهود ، وجاوز فى الإنذار كل حد معهود ، وسلك معهم مختلف الحيل بعزم وتصميم فلم يُجْدِ

معهم كل ذلك نفعاً ، ولم يؤت ثمرا ، حكى كل هذا لربه مناجيًا وشاكياً فقال : (رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا) أى : دعوتهم إلى الإيمان والطاعة دعاء متواصلا . شغل ليلى ونهارى من غير فتور ولا توان امتثالا لأمرك (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا) أى : هَرَباً منى وبعدا عنى ، وعما نصحتهم به ، ودعوتهم إليه ، وإسناد الزيادة إلى الدعاء لسببيته لها على سبيل المجاز ، كما فى قوله تعالى : « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً »[1] .

٧ ، ٨ ، ٩ ـ(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً) :

تتابع الآيات ذكر تمادى هؤلاء الكفرة فى الضلال واندفاعهم فى الإعراض والتكذيب مما جعله ـ عليه السلام ـ يستمر فى حكاية شكواه لربه فيقول : (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ..) إلخ أى : كلما دعوت قومى إلى الإيمان وللاستجابة إلى ما أدعوهم إليه من ترك الشرك والعصيان لتغفر لهم ذنوبهم ، وتتجاوز عن سيئاتهم ، وتدخلهم يوم الجزاء مدخلا كريماً (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) أى : سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة إلى الحق . فجعلهم الأصابع فى الآذان كناية عن انصرافهم عن الحق ، وقد أخبر الله عن كفار قريش أنهم كانوا يصنعون مثل هذا عند استماعهم للقرآن الكريم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »[2] .

ولا مانع من حمل قوله سبحانه : (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) على إرادة الحقيقة بسدها بالأصابع . (وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) بالغوا فى التغطى بها . كأنهم طلبوا منها أن تغشاهم كراهة النظر إليه من فرط نفورهم من الدعوة ، ومقتهم لها ، وقال ابن جريج عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم ، وقال سعيد بن جبير والسّدى : غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

---

(١) الأنفال ، من الآية رقم : ٢ .

(٢) فصلت ، آية رقم : ٢٦ .

(وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) أى : أكبوا على ماهم عليه من الكفر بإصرار والتزام ، وقد صار الإصرار حقيقة عرفية فى الملازمة ، والانهماك فى الأمر . قال الراغب : الإصرار : التعمد فى الذنب ، والتشديد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه ، وقد استكبروا عن اتباع نبيهم ـ عليه السلام ـ استكبارا عظيما ، وقيل : استكبروا نوعا من الاستكبار غير معهود قبلهم ، والاستكبار : طلب الاتصاف بالكبر من غير استحقاق له .

وحاصل المعنى : أن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان كلما دعاهم إلى دين الحق ليظفروا بمغفرة ربهم عطلوا مسامعهم عن سماع الدعوة فجعلوا فيها أصابعهم على الكناية أو على الحقيقة . وبالغوا فى التغطى بثيابهم كراهة النظر إليه ، ولئلا يعرفهم فيدعوهم إلى ترك الكفر الذى أقاموا عليه ، وتمسكوا به ، واستكبروا عن اتباعه ـ عليه السلام ـ والانقياد لدعوته استكباراً عظيماً ليسوا أهلا له .

(ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) أى : إنى دعوتهم تارة بعد أخرى ومرة عقب غيرها . يعنى أنها دعوات متتابعة ، على وجوه متخالفة ، وأساليب متغايرة ، بعد أن دعاهم فى أوقات متنوعة ، وفى ذلك تعميم لوجوه الدعوة بعد تعميم أوقاتها ، و (ثُمَّ) لتفاوت وجوه الدعوة وأساليبها لا للتراخى الزمنى ، وقوله سبحانه : (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا) يشعر بأن الجهر وقع مسبوقاً بالسر وهو الأليق بمن همه الاستجابة ؛ لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو عند دعوته به . أى : أنه ـ عليه السلام ـ افتتح الدعوة بالمناصحة فى السر فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان .

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢))

المفـــردات :

(يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) : غزيرًا متتابعاً ،وهى من صيغ المبالغة التى يشترك فيها المذكر والمؤنث .

(وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ) : أى حدائق وبساتين .

التفسيـــر

١٠ ـ (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) :

روى أن رجالا أتوا إلى الحسن ، فشكوا إليه ما نزل بهم ، فقال لكل منهم : استغفر الله ، فقيل له أتاك رجال يشكون ألواناً ، ويسألون أنواعاً ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فقال : ما قلت من نفسى شيئاً إنما اعتبرت قول الله ـ عز وجل ـ حكاية عن نبيه نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) الآية . أى : استغفروه بالتوبة عن الشرك والمعاصى ، لتنعموا بخيرى الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : (رَبَّكُمْ) تحريكاً لداعى الاستغفار (إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) بمعنى أنه غفار للتائبين دائم المغفرة وكثيرها ، كأنهم تعللوا وقالوا : إن كنا على الحق فكيف نتركه ؟ وإن كنا على الباطل فكيف يقبلنا ويتلطف بنا بعد ما عكفنا على الباطل دهرًا طويلا ؟ كأنه استبعاد منهم ، فأمرهم بما يمحق ما سلف منهم من المعاصى ، ويجلب إليهم المنافع ، وذلك هو الاستغفار الذى وعدهم عليه تحقيق أمور هى أحب إلى نفوسهم ، وأوقع فى قلوبهم من الأمور الأخروية لديهم ، وهى الرغبات الدنيوية التى جبلوا على حبها ، والتعلق بها لما فيها من الفوائد العاجلة التى يشير إليها قوله تعالى :

١١ ـ (يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) :

قال قتادة : كانوا أهل حب للدنيا ، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التى يحبونها ، وقيل : لما كذبوا بعد تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة وقيل : سبعين سنة ، فوعدهم إن آمنوا أن يرزقهم الله تعالى الخصب ، ويرفع عنهم ماكانوا فيه ، ولا شك أن نزول المطر ـ ولا سيما إذا كان غزيرًا ـ من أعظم النعم التى تتعلق بها نفوسهم

وتهفو إليها قلوبهم فى مواطنهم التى يشيع فيها الجفاف ، وينتشر بها القحط ، وقد استدعاهم بذلك إلى الآخرة ، ويراد من السماء : السحاب أو المطر .

١٢ - (وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا) :

أى : ويزدكم الله مالا وبنين ، وكانوا يحبونهما ، ويعملون على الاستكثار منهما ، فحركوا بما يُفيئه الله عليهم منهما إلى الإيمان ، كما حركوا كذلك بأن يجعل سبحانه لهم فى ديارهم بساتين وحدائق فيها أنواع الثمار التى تحقق لهم كل مناعم الحياة ويجعل لهم أنهارًا جارية أو مطلقة لتحيا بها مزارعهم ، وبساتينهم ، وليجدوا فيها كل منافعهم ، وأُعيد الفعل (يَجْعَلْ) مع الأنهار للاعتناء بها ، لما أن لها مدخلا عادياً أو أكثريا فى وجود الجنات ورعاية فى بقائها الذى هو أهم من أصل وجودها ، وترك إعادة (وَيُمْدِدْكُم) مع البنين لأنه لا تكمل المنفعة والسعادة إلا باجتماع كل من الأموال والبنين معاً ؛ لذلك ترك إعادة العامل (يمدِدْكم) بينهما لأنهما كالشيء الواحد . قال البقاعى : المراد بالجنات والأنهار فى الآخرة ، والجمهور على أن ذلك فى الدنيا تحريكاً لهم على الإيمان . وبعد أن دعاهم بالترغيب، عدل بهم إلى الدعوة بالترهيب فقال :

(مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) أى : لاتعتقدون لله عظمة ،على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد . والوقار بمعنى العظمة : أو ، لاتخافون لله عظمة . فيكون الرجاءُ بمعنى الخوف ،قال الأخفش : الرجاءُ هنا : الخوف ؛ لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف : ونقل أيضاً عن ابن عباس كونه بمعنى الخوف.

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) : جمع طور ،أى : تارات وكرات ،حيث خلقكم أولا تراباً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خلقاً آخر .

التفسير

١٣ ، ١٤ - (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) :

إنكار لأن يكون لهم سبب ما فى عدم رجائهم لله وقارًا ، أى : عظمة ، بمعنى أى سبب حصل لكم حتى جعلكم غير خائفين عظمة الله .

أو غير معتقدين لله عظمة موجبة لتعظيمه - سبحانه - بالإيمان به والطاعة له ، وقيل : المعنى مالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم فى دار الثواب ، ويراد على هذا بالوقار التوقير ، وهو التعظيم ، وكونه من الله بمعنى رضاه عنهم وتفضله عليهم بأسمى الجزاء (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) أى : والحال أنكم تعلمون أنه - عز وجل - خلقكم مُدرجاً لكم فى كرات وأدوار متعاقبة ، وحالات مختلفة . فبدأكم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وبمثل هذا قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم ، والإخلال بتوقير مَنْ هذا شأنه فى القدرة القادرة والإحسان العام مع العلم به ، لا يكاد يصدر من عاقل ، والجملة (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) مقررة لإنكار أى سبب مبرر لما وقع منهم من عدم رجائهم لله وقارًا ، بعد أن تفضل عليهم بالتكوين والإيجاد ، وبكل مقومات حياتهم من نعم وآلاء .

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾)

المفـــردات :

(سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً) : متطابقة بعضها فوق بعض كالقباب من غير مماسّة .

(وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً) أى : مصباحاً يستضىء به أهل الدنيا كما يستضىءُ النَّاس بالسراج فى بيوتهم .

(وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً) : أى كالبساط فى رأى العين ؛ لأن الكرة العظيمة يرى كلٌّ من عليها ما يليه مسطحاً .

(سُبُلاً فِجَاجًا) أى : طرقاً واسعات . والفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواسعة ، وقيل : هو اسم للمسلك بين جبلين .

التفسير

١٥ ، ١٦ ـ (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) :

بيان لآيات كونية للاستدلال بها على ما يوجب توقير الله وتعظيمه ـ جل شأنه ـ والمعنى : ألم تشاهدوا أيها القوم عظمة الله ، وكمال قدرته فيما أبدع من آيات كونية ، وتنظروا إليها نظر تفكر واعتبار ، كيف خلق الله العظيم سبع سموات متطابقة من غير مماسّة ، بعضها فوق بعض ، وهى فى غاية الإحكام والإتقان وإبداع الصنع ، كما قال ـ سبحانه ـ فى سورة الملك « مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ » الآية . (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) ليزيل ظلمة اللَّيل تمكيناً للنَّاس من أداءِ مهامهم وفق ما تدعو إليه شئون حياتهم . « قال الفخر : القمر فى السماءِ الدنيا وليس فى السموات بأسرها » وإنما قال : فيهن لأنها محاطة بالسموات كلها ، فما فيها يكون كأنه فى جميعها[1] ، وقدَّر ـ سبحانه القمر ـ منازل وبروجًا وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يتناقص حتى يستتر ؛ ليدل على مضى الشهور والأعوام كما قال تعالى : « وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »[2] .

---

(١) أو ، لأن كل واحدة منها شفافة ، فترى كلها كأنها سماء واحدة . فساغ أن يقال : فيهن .

(٢) يونس ، من الآية رقم : ٥ .

(وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) أى : كأنها مصباح مضىء لوجه الأرض وسائر الآفاق كما يستضيئون بالسرج فى بيوتهم ليبصروا فى ضوئها ما يحتاجون إليه . ولما كان نور الشمس أشد وأتم وأكمل فى الانتفاع به من نور القمر عبَّر عنها بالسراج لأنه يضىءُ بنفسه ، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره ، ويؤيد هذا ـ كما قيل ـ ما تقرر فى علم الفلك من أن نور الشمس ذاتى فيها ، ونور القمر عرض مستمد من نورها ، وتلك ولا شك آيات ناطقة بالقدرة البالغة ، والعظمة الكاملة التى تدعو إلى توقير الله وتعظيمه .

١٧ ، ١٨ ـ (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) :

بعد أن ذكر ـ عز وجل ـ الأدلة الكونية أتبعها بذكر ما فى الأنفس من براهين وآيات ، وفى ذكر هذه الأُمور دلالة بينة على عظمة الله ، وكمال قدرته ، والمعنى : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنشأكم من الأرض ، وأخرجكم منها ، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوّن من حيث إنه محسوس مشاهد ، وقد أكد (أَنبَتَ) بقوله : (نَبَاتًا) أى : أنشأكم منها إنشاء لاشك فيه ، وأخرجكم من ترابها كما يخرج النبات من خلاله ، وهم وإن لم ينكروا الإنشاء والحدوث ، فقد جعلوا بإنكار البعث كمن أنكر الإنشاء والحدوث ، وفى ذلك إشارة إلى خلق آدم ـ عليه السلام ـ حيث خلق من ترابها ثم جاءت من آدم ذريته

قال المفسرون : لمَّا كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر المواد الغذائية النباتية والحيوانية المستمدة من الأرض ، كانوا مشابهين للنبات الذى ينمو بامتصاص غذائه من الأرض فلذا سمى سبحانه خلقهم وإنشاءهم إنباتًا (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا) أى : فى الأرض بالمواراة فيها إذا متم (وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) محققًا لا ريب فيه عند البعث وكان العطف بثم فى قوله سبحانه : (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا) لما بين الإنشاء والإعادة من الزمن المتراخى الواقع فيه التكليف الذى استحقوا به الجزاء بعد الإعادة ، وكان العطف بالواو دون ثم فى قوله : (وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) مع ما بينهما من الزمان المتراخى ، لأن أحوال البرزخ والآخرة فى حكم شىْ واحد ، فهى لاتصالها وتحقق وقوعها لا محالة ، لم يعتبر فيها التراخى فى الزمن لأنها تشبه أن تكون قضية واحدة .

١٩ ، ٢٠ ـ (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) :

أى : إنه سبحانه جعل الأرض فسيحة ممتدة كالبساط تتقلبون عليها كما تتقلبون على بطنكم فى بيوتكم ، وليس فى الآية مايدل على أن الأرض ليست كروية كما فى البحر وغيره لأن الكرة العظيمة يرى كلٌّ من عليها ما يليه مبسوطًا (لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجَاجًا) أى : خلقها الله لكم لتستقروا عليها ، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها ، وأقطارها طرقًا واسعات فى أسفاركم وتنقلكم ، وقيل : هى المسالك بين جبلين : وكل هذا مما ينبههم به نوح ـ عليه السلام ـ على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، وفى إنشائهم من الأرض ، ثم إعادتهم إليها ، وإخراجهم منها بالبعث ؛ لذلك فهو وحده الذى يجب أن يعبد ، ويوحد ، ولا يشرك به أحد حيث إنه لا نظير له ، ولا كفء ، ولا ند ، ولا صاحبة ، ولا ولد ، ولا وزير ، ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

(قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾)

المفـــردات :

(مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ) : ولَد محركة مفردة ، ووُلْد ـ بضم الأول وسكون الثانى ـ قيل : هو مفرد كذلك ، وقيل : هو جمع ولد كأسد وأُسْد .

(مَكْرًا كُبَّارًا) : بالغ الغاية فى الكِبر .

(وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) أى : التزموا عبادتها ولا تتركوها على الإطلاق .

(وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...) : هى أصنام خمسة من أصنامهم وخصت بالذكر مع أن لهم غيرها لأنها أعظم معبوداتهم وأكبرها .

التفسير

٢١، ٢٢ - (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) :

يقول تعالى مخبرًا عن نوح - عليه السلام - : إن نوحًا أنهى إلى ربه - وهو العليم الذى لا يعزب عنه شىء - أن قومه عصوه مع أنه سلك معهم فى دعوته إلى الله الأساليب المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى، ومع كل ذلك لم يتبعوه، بل خالفوه ، وأسلموا قيادهم لأبناءِ الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومُتع بأموال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإمهال وليست لتفضيل وإكرام . لهذا قال مناجيًا ربه وشاكيًا : (رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى) أى : داوموا على عصيانى .

(وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً) أى : استمروا فى إقبال ورغبة على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم وصار ذلك سببًا لزيادة خسارهم فى الآخرة زيادة جعلتهم أهلًا لأن يكونوا أسوة وقدوة لأتباعهم فى الخسار ، وفى أنهم استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الحياة الفانية على الدار الباقية ، وفى وصفهم بما ذكر إشعار بأن الأتباع إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد ، لا لما شاهدوا فيهم من نهج قويم يدعو إلى اتباعهم .

(وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) باتباعهم . قال ابن زيد : أى كبيرًا فى الغاية ، ويراد به احتيالهم فى الدين ، وصدهم الناس عنه وإغراؤهم وتحريضهم على أَذِيَّة نوح - عليه السلام - ولهذا كان (كُبَّارا) أبلغ من (كبير) ، وإذا اعتُبر التنوين فى (مَكْراً) للتفخيم زاد أمر المبالغة فى مكرهم وفى عطف هذه الجملة على جملة الصلة وهى قوله تعالى : (لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ ...) إشارة إلى أنهم ضموا إلى ضلالهم إضلال الأتباع فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى، وأنهم على شىء نافع . روى أن بعض الأعراب الجفاة سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية فقال : ما أفصح ربك يا محمد .

٢٣ ، ٢٤ - ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ :

أى : وقالوا : لا تتركوا عبادة آلهتكم مطلقًا إلى عبادة رب نوح - عليه السلام - ولا تتركوا عبادة هؤلاء الأصنام المذكورة ، وخصوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق من النهى عن ترك عبادة الآلهة جميعًا لأنها كانت أكبر معبوداتهم الباطلة وأعظمها ، وإن كانت متفاوتة فى العظم حسب زعمهم كما يوحى إليه إعادة (لا) مع بعضها وتركها مع بعضها .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى كَلَاع ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح - عليه السلام - فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انْصِبُوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها انصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أُولئك ونسخ العلم عبدت . . . اهـ : ابن كثير .

وقيل : هى أسماء رجال صالحين كانت بين آدم ونوح - عليهما السلام - ، وقيل : هم من أولاد آدم ، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبركون بهم ففعلوا . فلما مات أُولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم .

وذكر المفسرون فى ذلك روايات وقِصصا كثيرة ، فمن أرادها فليرجع إليها فى كتب التفسير .

(وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) أى : أضل هؤلاء الرؤساء خلقًا كثيرًا قبل الذين أوصوهم بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام ، فهم ليسوا بأول من أضلوهم ، ويشعر بذلك المعنى فى قوله تعالى : (وَقَدْ أَضَلُّوا) والاقتران بعد حيث أشار ذلك إلى أن الإضلال استمر منهم إلى زمن الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة . وقال الحسن : وقد أضلوا ، أى : الأصنام التى اتخذوها آلهة خلقًا كثيرًا من الناس . فهو كقول الخليل – عليه السلام – : « رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ »[1] وعود ضمير العقلاء عليها وهو واو الجماعة فى قول الحسن لتنزيل الأصنام منزلتهم عندهم وفى زعمهم .

(وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) أى : قال : رب إنهم عصونى ... إلخ ، وقال : (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) والغرض الشكاية وإبداء العجز واليأس منهم وطلب النصرة عليهم ، والمراد بالضلال الذى دعا عليهم بزيادته : إما الضلال فى ترويج مكرهم ومصالح دنياهم ، فيكون دعاء عليهم بعدم الاهتداء إلى تيسير أمور أخراهم ، وإما الضلال بمعنى الضياع والهلاك كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ »[2] ، وهو مأخوذ من الضلال فى الطريق لأن من ضل فيها هلك . ووضع الظاهر وهو قوله : (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ) موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، ولتعليل الدعاء عليهم به .

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٣٦ (٢) سورة القمر ، الآية : ٤٧

(مِمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(رَبِّ لَاتَذَرْ) أى : لاتترك من الكافرين .

(دَيَّارًا) : من يسكن دارا ، أو من يدور ويتحرك فى الأرض ذهابًا وإيابًا من الدار ، أو الدوران ، والمراد : لاتترك منهم أحدا ، والدّيار من الأسماء التى لاتستعمل إلّا فى النفى العام يقال : مابالدار ديار ، أى : ما بها أحد .

(إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) أى : من سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما يصيرون إليه لوثوقه بذلك نتيجة لتجربته الطويلة .

(وَلَاتَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّاتَبَارًا) أى : هلاكًا ، يقال : تبر يتْبَر من بابى : قتل وتعب : إذا هلك ، ويعدى بالتضعيف فيقال : تبّره الله : إذا أهلكه .

التفسير

٢٥ - (مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَارًا) :

المعنى : إن هؤلاء الكفار بسبب كثرة ذنوبهم وعتوهم ، وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أُغرقوا بالطوفان (فَأُدْخِلُوا نَارًا) هى نار البرزخ ، ويراد بها عذاب القبر ، أى : انتقلوا من برودة الماء إلى حرارة النار ، ومن مات فى ماءٍ أو نارٍ أو أكلته السباع أو الطير مثلًا أصابه مايصيب المقبور من العذاب أو النعيم ؛ قال الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب ، ولا غرابة فى ذلك ؛ فالله يجمع بين الماء والنار كما قال ابن الأنبارى والتعقيب ظاهر على أن المراد إدخالهم بعد الإغراق ناراً هى نار البرزخ ، أما إذا أُريد بها نار الآخرة كما قيل : فيكون التعقيب لعدم الاعتداد بما بين الإغراق وإدخال نار جهنم من زمن لاتصاله وتحقق الإدخال . وتنكير النار إما لتعظيمها وتهويلها أو لأنه - عز وجل - أعد لهم نوعًا من العذاب على حسب خطيئاتهم .

(فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَارًا) أى : لم يكن لأحد منهم مغيث ولا معين ولا مجير ينقذه من عذاب الله كقوله تعالى : « لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ »[1] وفيه تعريض بأن آلهتهم التى اتخذوها آلهة من دون الله تعالى غير قادرة على نصرهم ، وفى ذلك من التهكم بهم ما فيه .

٢٦ - (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) :

معطوف على نظيره (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى) وقوله تعالى : (مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا ...) الآية . اعتراض بين الدعاءين للإيذان من أول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلَّا من أجل خطيئاتهم التى عدها نوح - عليه السلام - وأشار إلى استحقاقهم العذاب لأجلها ، والمعروف أن هذا الدعاء كان قبل هلاكهم .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٤٣

والمعنى : ربِّ لا تترك على الأرض من الكافرين أحدًا يسكن دارًا ، أو لا تترك منهم من يدور ويتحرك على الأرض لأنهم استحقوا الهلاك بما اقترفوا من آثام وبما استمسكوا به من كفر وطغيان ، ويراد بالكافرين قومه الذين دعاهم إلى الإيمان والطاعة فلم يجيبوا .

٢٧ - (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) :

أى : إنك إن تترك أحدا منهم يضلوا عبادك عن طريق الحق ، ولعل المراد بهم من آمن به - عليه السلام - وبإضلالهم إياهم : ردهم إلى الكفر بنوع من الخداع والمكر ، أو المراد بهم من ولد من المؤمنين ، وبإضلالهم إياهم : صدهم عن الإيمان ، أو من ولد من الكافرين ولم يبلغ حد التكليف ، فكانوا يحولون بينهم وبين الإيمان بغرس العداوة والبغض فى قلوبهم لنوح - عليه السلام - وفى بعض الأخبار : أن الرجل منهم كان يأتى بابنه إلى نوح - عليه السلام - ويقول : احذر هذا فإنه كذاب ، وأبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك . قيل : ومن هنا قال - عليه السلام - : (وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) أى : من سيفجر بعمله ويكفر بقلبه ، فوصفهم بما يصيرون إليه من الفجور والكفر لاستحكام علمه بما يكون منهم ، ومن أعقابهم بعد ما جربهم واستقرأ أحوالهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا ، ومثله قوله - عليه السلام - : (إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ) ، وقيل : أراد بقوله : (وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) أى : من طبع وجُبل على الكفر والفجور ، وقد علم ذلك بوحى كقوله - سبحانه - : « وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ »[1] وكأنَّ قوله : (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ...) الآية . اعتذار منه - عليه السلام - مما عسى يرد عليه من أن الدعاء عليهم بالاستئصال مع احتمال أن يكون من ذريتهم من يؤمن ، وذلك مما لا يليق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام .

وعن قتادة ومحمد بن كعب والربيع وغيرهم أنه - عليه السلام - ما دعا عليهم إلَّا بعد أن أخرج الله كل مؤمن من الأصلاب وأعقم أرحام النساء ، وقد استجاب الله دعاءه ، فأهلك

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٣٦

جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولده من صلبه الذى اعتزل عن أبيه وقال : (سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)[1] الآية .

٢٨ - (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) :

خص - عليه السلام - والديه أولًا بالدعاء بالمغفرة ، ثم عمم المؤمنين والمؤمنات ؛ لأنهما أحق وأولى نسبًا ودينًا وكانا مؤمنين ، ولولا ذلك لم يجز الدعاء لهما بالمغفرة ، وقيل : أراد بهما آدم وحواء .

(وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا) قال الضحاك : يعنى دخل مسجدى ، وبه قال الجمهور وابن عباس ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا بالمغفرة لمن دخل منزله وهو مؤمن كما قال ابن كثير ، وقيل : المراد بالدعاء لمن دخل سفينته أو شريعته ، وقيد الداخل بكونه مؤمنًا ، لأنه علم أن من دخل مؤمنًا لا يعود إلى الكفر ، وبهذا القيد خرجت امرأته ، وابنه كنعان ، ولكن لم يجزم بخروجه إلَّا بعد ما قيل له : إنه ليس من أهلك . (وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) من كل أمة إلى يوم القيامة ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات وهو تعميم بعد تخصيص ، واستغفر ربه - عز وجل - إظهارًا لمزيد الافتقار إليه سبحانه وحبًّا للمستغفر لهم من والديه والمؤمنين . (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) قال السدى : إلَّا هلاكًا ، وقال مجاهد : إلَّا خسارًا فى الدنيا والآخرة . قيل : هلك معهم أولادهم أيضًا لكن لا على وجه العقاب لهم ، بل لتشديد عذاب آبائهم وأمهاتهم بهلاك أطفالهم الذين كانوا أعز عليهم من أنفسهم ، وسئل الحسن عن ذلك فقال : قد علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب لهم .

وقيل : لم يكن معهم أطفالهم حين غرقوا ؛ لأن الله سبحانه أعقم أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين عاما ، وقد دعا - عليه السلام - دعوتين : دعوة على الكافرين بالتبار ، ودعوة للمؤمنين بالمغفرة ، وحيث استجيبت له الأولى فى حق الكفار ، فاستحال ألَّا تستجاب له الثانية فى حق المؤمنين ، وهو سبحانه أكرم الأكرمين .

والله أعلم .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٤٣



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الثامن والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٢

سـورة الجن

مكية وآياتها ثمان وعشرون آية

صلتها بما قبلها :

لَمَّا ذكر الله تعالى فى سورة نوح قوله : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) ، وقال فى هذه السورة فى شأن كفار مكة : (وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا) . فالاتصال بالله سبب لرغد العيش .

كما أن هناك توافقًا بين قوم نوح والعرب فى أن كلاًّ منهما كانوا عبدة أوثان ، وتزيد سورة الجن أنَّها جاءت لتبكت العرب وتوبخهم على تباطئهم فى الإيمان برسول الله ﷺ وكان الجن خيرًا منهم إذْ أقبل على الإيمان مَن أقبل منهم وهم من غير جنس الرسول – عليه الصلاة والسلام – .

بعض مقاصد هـذه السورة :

١ - تحدثت السورة فى أولها عن أن الله - سبحانه - أوحى إلى رسوله ﷺ أن فريقًا من الجن استمعوا إلى القرآن الكريم وأنه قد أعجبهم ، وأخذتهم قوة بلاغته وجميل هدايته فدفعهم ذلك إلى الإيمان به فور سماعهم له ، وعاهدوا أنفسهم ألَّا يشركوا بالله أحدًا ، وأنهم عظموا ربهم وقدسوه ونزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

٢ - أبانت السورة بعد ذلك أن الجن - بعد بعثة الرسول ﷺ أرادوا أن يَصلوا إلى السماء لاستراق السمع فوجدوها قد ملئت بالملائكة لحراستها ، وأن الشهب الثاقبة ترصدهم ، وترجمهم إذا ما حاولوا الدنو منها .

٣ - أوضحت السورة أن كُلاًّ من الجن والإنس فريقان ، فريق مؤمن تقى قد اهتدى إلى الصراط المستقيم ، وفريق كافر شقى .

٤ - نبهت السورة مشركى مكة على أن رسول الله ﷺ لا يملك لهم ضرًّا ولا رشدًا ، وإنما الذى يملك ذلك هو الله وحده ، وأنه لا يمنعه ولا ينقذه من عذاب الله أحدٌ إن عَصَاه

وخالفه ، وأنه لن يجد له ملجأً ومَعاذًا يلجأُ إليه وينتصر به من دون الله إلَّا إذا قام بتبليغ رسالة ربه فأَنذرهم وبشرهم .

٥ - وجاءت خاتمة السورة ونهايتها ببيان أن الله وحده - جل شأْنه - هو العليم بمعرفة الغيب فلا يظهر أَحدًا على غيبه إلَّا من اختاره واصطفاه لنبوته ورسالته فيظهر له ما يريد من الغيب ، وأنه يحفظ الرسول ﷺ ويصون رسالته من استراق الشياطين وتخليطهم : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) .

ونرى قبل التفسير أن نعرض لمسائل :

١ - الملائكة :

وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أَمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، خلقهم الله من نور وفطرهم على الطهر وناط بهم أُمورًا كثيرة ؛ فمنهم رسل الله إلى أنبيائه ، ومنهم حملة عرش الرحمن ، والحفظة ، والكتبة ، وملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلَّا الله ، وأنهم - عليهم السلام - قد أمدهم الله بالقدرة الشديدة على الأَعمال العظيمة التى لا تدانيها قدرة ولا يصل إليها الإِنس والجن ، وقد أمكنهم الله من التشكل والتصور بالأَشكال الجميلة التى لا تحكم عليهم ، ويراهم الناس عليها ، أما صورهم الأَصلية فلا يبصرهم عليها إلَّا من شاءَ الله من عباده كالأَنبياء والمرسلين .

٢ - الجن :

واحده (جنى) كروم وروى وترك وتركى : وهم جنس من خلق الله ذوو أَجسام عاقلة تغلب عليها النارية كما يشهد لذلك قوله تعالى : « وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ » ، وهى قابلة للتشكل بالأَشكال المختلفة التى تحكم عليهم ، ومن شأْنها الخفاء ، وترى بصور غير صورها الأَصلية التى لا يراهم عليها إلَّا الأَنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومن شاءَ الله - تعالى - من خواص عباده ، ولها قوة على الأَعمال الشاقة العظيمة التى يعجز عنها عامة

البشر ، قال تعالى : « يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ » ، ومنها طوائف كريمة محبة للخير ، وأخرى دنيئة خسيسة محبة للشر . (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) ، ولا يعرف أنواعهم وأصنافهم إلَّا الله ومن أطلعه الله على ذلك من عباده .

وأكثر الفلاسفة ينكرون الجن ،ونفى وجودهم كفر صريح ؛ لأن الله قد ذكرهم فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ،ومنه ما هو مذكور فى هذه السورة الكريمة.

وجمهور أرباب الملل معترفون بوجودهم كالمسلمين ، وإن اختلفوا فى حقيقتهم ويسمونهم بالأرواح السفلية .

٣- الشياطين :

ذهب قوم إلى أنهم ولد إبليس - عليه اللعنة - ولا يموتون إلَّا مع أبيهم ، فهم على هذا القول جنس مستقل ، أشرار بجبلتهم وطبعهم .

وذهب آخرون إلى أن الشياطين هم الأشرار والمَرَدة من الجن ، ويطلق اسم الشيطان على الشرير المتمرد من الإنس أيضًا ، قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا » ولكل وجهة . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(أُوحِيَ) : الوحى : بمعنى الإيحاء لغة : الإعلام بالشىء على وجه الخفاء والسرعة ، ومعناه فى الشرع : إعلام الله لأنبيائه ما يريد إبلاغه إليهم من الشرائع والأخبار بطريق خفى ، ويكون بطريق الإلقاء فى القلب دفعة ، أو بالكلام من وراء حجاب بحيث يسمع النبىُّ كلَامَ الله ولا يراه ، أو بإرسال الملك إلى الرسول وهو المراد هنا .

(نَفَرٌ) : جماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة .

(عَجَبًا) : بديعًا مباينًا لسائر الكتب فى حسن نظمه وصحة معانيه .

(الرُّشْدِ) : الصواب ، وقيل : التوحيد والإيمان .

(جَدُّ رَبِّنَا) : عظمته وجلاله ، أو ملكه وسلطانه ، أو غناه .

(سَفِيهُنَا) : السفه : خفة العقل ، أو الحمق والجهل .

(شَطَطًا) : الشطط : مجاوزة الحد فى الظلم وغيره .

التفسير

١ - (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوٓا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) :

أى : قل لهم يامحمد : إن الله أخبرنى على لسان جبريل - عليه السلام - أن نفرًا من الجن قد ألقوا بسمعهم إلى القرآن الذى كنت أتلوه ، فلما سمعوه قالوا : إنا سمعنا كلامًا جليل القدر عظيم الشأن ليس على نمط غيره من الكتب ، بديعًا فى حسن نظمه ودقة معانيه .

٢ - (يَهْدِيٓ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا) :

أى : وهو مع علو منزلته يدل ويرشد إلى الطريق الحق والصراط المستقيم ، ويدعو إلى الإيمان بالله وتوحيده فبادرنا فور سماعنا له باعتقاد ماجاء به ، ولرسوخ ذلك فى قلوبنا ، واطمئناننا إلى أنه منزل من عند ربنا لن نعود إلى الإشراك بالله أبدًا ، بل نفرده وحـده بالألوهية والربوبية .

٣ - (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) :

الجد معناه : العظمة ، وفيه الحديث : « كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدَّ فينا » أى : جل قدره .

أى : وأنه - سبحانه - تعالت عظمته وتسامى جلاله قد تنزه عن أن يتخذ صاحبة أو ولدًا يحتاج إليهما ويستأنس بهما ؛ فالشأن فيهما ذلك ، إذ الرب - جل شأنه - يتعالى عن هذا وأمثاله كما يتعالى ويتعاظم ويتنزه عن الأنداد والنظراء .

٤ - (وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا) :

أى : وأن الأحمق فينا والجاهل منا - وهو الذى خف عقله وذهب صوابه - كان يقول على الله قولا شططًا بعيدًا عن الحق والصدق والصواب ؛ إذ قد أشرك به ، ونسب إليه الصاحبة والولد . والله - سبحانه - منزه عن ذلك . وقيل : المراد من السفيه هو إبليس ، أو كل مارد من الجن كافر بالله .

٥ـ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ :

أى : وأننا حسبنا وظننا أن أحدًا من الإنس والجن لن يجترئ على الله ويفترى عليه وينسب إليه الصاحبة والولد كذبًا ، فلما سمعنا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون ويفترون ، وهذا يشير إلى أن الجن قبل سماعهم القرآن كانوا يظنون أن إبليس أو المتمرد من الإنس والجن صادق فى نسبة الصاحبة والولد لله ، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبًا فى ذلك فسموه سفيهًا .

وهنا يجمل بنا أن نتعرض لاجتماع الرسول ﷺ بالجن ورؤيته لهم لوثوق الصلة بينه وبين ما جاء فى هذه السورة فنقول :

اختلفت الروايات فى أنه ﷺ رأى الجن وكلمهم على قولين :

فالقول الأول : وهو مذهب ابن عباس : أنه - عليه الصلاة والسلام - ما رآهم ، قال : إن الجن كانوا يقصدون السماء فى الفترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - فيسمعون أخبار السماء ويلقونها إلى الكهنة ، فلما بعث الرسول ﷺ حرست السماء وحيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت الشهب عليهم فرجعوا إلى إبليس - عليه اللعنة - فأخبروه بالقصة ، فقال : لا بد لهذا من سبب ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها واطلبوا السبب ، فوصل جمع من أولئك الطالبين إلى تهامة فرأوا رسول الله ﷺ فى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا والله هو الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم وقالوا : يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ فأخبر الله نبيه محمدًا ﷺ عن ذلك الغيب وقال : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ كذا وكذا ، قال : وفى هذا دليل على أنه ﷺ لم ير الجن ، إذ لو رآهم لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحى ، فإن ما عرف وجوده بالمشاهدة لا يسند إثباته إلى الوحى .

والقول الثانى : وهو مذهب ابن مسعود : أن الرسول ﷺ أتاه داعى الجن فذهب معه وقرأ عليهم القرآن ، وأن ابن مسعود سار مع رسول الله ﷺ حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجن وآثار نيرانهم .

وطريق التوفيق بين المذهبين أن ما ذكر ابن عباس وقع أولًا ، فأوحى الله إلى رسوله بهذه السورة ، ثم أمر ﷺ بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود .

هذا ، وفى أمر الله رسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحاه الله إليه به فى واقعة الجن فوائد : منها أن يعرف الصحابة أنه - عليه الصلاة والسلام - كما بعث إلى الإنس بعث إلى الجن ، وأن تعلم قريش أن الجن مع تمردهم لَمَّا سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - وفى هذا تعريض بهم لأنهم يعرفون ذلك فإنَّ القرآن الكريم قد نزل بلغتهم ولم يستطيعوا معارضته والإتيان بمثله أو بسورة من مثله مع تحديهم بذلك ، ولكنهم - لظلمهم بآيات الله يجحدون ، ومنها أن المؤمن من الجن يدعو غيره من قبيله إلى الإيمان به « يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ »[1] ، ومنها أن الجن يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

(وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(يَعُوذُونَ) : يلتجئون ، من العَوْذ ، وهو الالتجاء إلى الغير والتعلق به .

(رَهَقًا) : الرهق : غشيان المحارم وإتيانها .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الأحقاف .

(لَمَسْنَا السَّمَآءَ) : اللمس : المس ، فاستعير للطلب ؛ لأن الماسَّ طالب متعرف ، أى : طلبنا بلوغ السماء .

(شُهُبًا) : جمع شهاب ، وهو النجم المحرق .

(رَصَدًا) : راصدًا ومستعدًّا ومترقبًا له .

التفسير

٦ - (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) :

قيل : إن الرجل من العرب فى الجاهلية كان إذا أمسى فى قفر من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادى أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فيبيت فى جواره حتى يصبح .

قال مقاتل : كان أول من تعوذ من الجن قوم من أهل اليمن ثم من بنى حنيفة ، ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم .

أى : وأنه كان رجال من الإنس يلجأون ويستجيرون بالجن رجاء رعايتهم وأملًا فى حفظهم من شرور سفهاء الجن ومردتهم فزاد الإنسُ الجنَّ بسبب استعاذتهم بهم تكبرًا وصلفًا وعتوًّا حيث قالت الجن : سُدنا الإنس والجن ، أو أن الجن زادوا الإنس بسبب هذا الالتجاء من الإنس زادوهم فرقًا وخوفًا ، بل زادوهم كفرًا بالله ، إذ الاستعاذة بغير الله كفر .

٧ - (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا) :

أى : وقال الجن بعضهم لبعض : إن كفار الإنس حسبوا وظنوا كما حسبتم - يامعشر الجن - أن الله - سبحانه - لن يبعث أحدًا بعد الموت ، وأنهم كانوا يقولون : « إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »(١) فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم ، أو : أن الإنس ظنوا كظنكم أن الله لن يرسل رسولًا إلى أحد من العباد ، وقد أخطأ الإنس وأخطأتم معشر الجن ؛ فالله قد أرسل محمدًا ﷺ وأنزل عليه هذا القرآن الكريم .

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الأنعام .

٨ - (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا) :

أى : وأننا طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها فأصبناها وصادفناها ملئت بالحفظة من الملائكة الشداد الذين يحرسونها ، وبالشهب والنجوم المحرقة التى كانت تنقض على الجن عند استراق السمع ، قال بعضهم : إن رمى الجن بالشهب كان بعد مبعث الرسول ﷺ وهو إحدى آياته ، والصحيح أن ذلك كان قبل مبعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - فلما بعث زاد ذلك إنذارًا بحاله وتنبيهًا إلى إرساله ، أى : زيد فى حرس السماء حتى امتلأت من الملائكة والنجوم كما يشعر بذلك قوله تعالى : (مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا) .

قال ابن عباس : بينما النبى ﷺ جالس فى نفر من أصحابه إذْ رُمِىَ بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية » ؟ قالوا : كنا نقول : يموت عظيم ، أو يولد عظيم ، فقال النبى ﷺ : « إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا - سبحانه وتعالى - إذا قضى أمرًا فى السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء حتى ينتهى التسبيح إلى هذه السماء ، ويستخبر أهل السماء حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه فيتخطف الجن فيرمون ، فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه » ، وقال ابن قتيبة : كان (الرمى) ولكن اشتدت الحراسة بعد المبعث ، وكانوا من قبل يسترقون ويرمون فى بعض الأحوال فلما بعث محمد ﷺ منعت (الجن) من ذلك أصلًا .

٩ - (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا) :

أى : وأنا كنا قبل ذلك نتخذ من السماء مواضع للسمع نجدها خالية من الحرس والشهب ، أو صالحة للترصد والاستماع ، فالآن ملئت المقاعد والمواضع كلها بالملائكة والشهب فمن يحاول أن يقترب للاستماع يجد له شهابًا قد أُرصد له ليرجم به . وقال مقاتل : رميًا بالشهب ورصدًا من الملائكة

(وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾)

المفـــردات :

(دُونَ ذَٰلِكَ) : أقل منهم صلاحًا ، أو غيرهم فى الصلاح .

(طَرَآئِقَ قِدَدًا) طرائق : مذاهب ، قددًا : جمع قِدَّة ، من قَدَّ ، كالقطعة من قَطَع أى : كنا ذوى مذاهب مختلفة .

(نُعْجِزَ اللَّهَ) : نفوته ونتفلت منه .

(بَخْسًا) البخس : نقص الشىء على سبيل الظلم .

(رَهَقًا) : ظلمًا ومشقة عليه بالزيادة فى آثامه وسيئاته .

(الْقَاسِطُونَ) : الجائرون والمائلون عن طريق الحق .

(تَحَرَّوْا) : قصدوا وتوخَّوْا طريق الحق والصواب .

١٠ - (وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) :

أى : وأننا - معشر الجن - لا نعلم ما الله صانع بأهل الأرض بسبب امتلاء السماء بالحرس والشهب وانقضاضها وتهافتها ، وتغير الحال عما ألفناه ، أَحَدَثَ ذلك لعذاب وشر يريد - سبحانه - أن ينزله بأهل الأرض ؟ أم لخير يريده الله لهم ؟ أو أننا لا ندرى أن إرسال محمد الذى من أجله منع استراقنا للسمع وقعودنا فى مواضع فى السماء ، أيكون ذلك نذير عذاب لهم ؛ فإنهم قد يكذبونه فيهلكون بتكذيبه كما هلك من كذَّبوا رسلهم من الأُمم السابقة أم يكون ذلك بشير خير لهم فإنهم قد يؤمنون به ويهتدون ، ولا يخفى ما فى قول الجن : (أَشَرٌّ أُرِيدَ) من الأدب حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله - عز وجل - كما صرحوا به فى الخير والرشد وإن كان فاعل الكل هو الله - تعالى - فقد جمعوا بين جم الأدب وحسن الاعتقاد .

١١ - (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) :

أى : وأنا منا الأبرار المتقون ، ومنا قوم دون ذلك فى الصلاح وهم المقتصدون غير الكاملين فيه ، أو : ومنا سوى ذلك وهم الطالحون الفاسدون الذين ليس لهم صلاح وهم الكافرون .

(كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) أى : كنا فى اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا ذوى مذاهب متفرقة ؛ فالطرائق - وقد وصفت بالقِدَد - تدل على معنى التقطع والتفرق والاختلاف كأن كل طريق لامتيازها مقطوعة عن غيرها .

١٢ - (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِى الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا) :

أى : وأننا علمنا وتيقَّنَّا بالاستدلال والتفكر فى آيات الله وبما شاهدناه من قدرته أننا فى قبضته وقهره ، ولن نعجزه فى الأرض مع بسطها وسعتها وكثرة فجاجها وتشعب طرقها ، فلا نفوته إذا أراد بنا أمرًا أينما كنا فيها ، ولن نستطيع أن نفلت منه - عز وجل - هربًا إلى السماء ، وإن هربنا فلن نخلص منه ؛ وذلك لشدة قدرته وعظيم سلطانه .

١٣ - (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) :

هذا عود ورجوع من الجن إلى تذكر نعمة الله عليهم بالإيمان به واهتدائهم بسماع آيات القرآن وافتخارهم بذلك ، وفى الحق إنه لمفخرة وشرف رفيع لهم .

أى : وأننا حين سمعنا القرآن العظيم اهتدينا به وآمنا بالله الذى أنزله ، وصدقنا محمداً ﷺ فى رسالته من غير تردد ولاتريث (فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) أى : فمن يصدق بالله فإنه لايخشى نقصاناً من حسناته ، وإنما يجازى عليها كلها الجزاء الأوفى ، ولا يخاف - كذلك - أن يرهق ويشق عليه بالزيادة فى آثامه وسيئاته أو تغشاه ذلة ، فَعَدْلُ الله يأْبى ذلك ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا »[1] .

١٤ ، ١٥ - (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ[2] فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) :

أى : وأننا - معشر الجن بعد سماعنا القرآن - مختلفون ومتفرقون ؛ منا من انقاد وأسلم وصدق برسالة محمد ﷺ ومنا من جار وعدل عن الحق ، وحاد عن الطريق القويم .

وقد رُوى عن سعيد بن جبير - رحمه الله - أن الحجاج بن يوسف الثقفى - قال لسعيد حين أراد قتله : ماتقول فىَّ ؟ قال سعيد : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ؛ حسبوا أنه يصفه بالقِسط والعدل ، فقال الحجاج : ياجهلة ؛ إنه سمانى ظالماً مشركاً ، وتلا لهم قوله تعالى : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) ، وقوله - عز شأْنه - : « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » .

(فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) أى : فمن انقاد واختار الإسلام واتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فأُولئك الذين قصدوا الصواب والحق ، وتوخَّوْا سبيل النجاة حتى اهتدوا إلى رشد عظيم لايبلغ كنهه ومداه إلَّا الله .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٢) من قسط قسطاً بالفتح ، وقسوطاً : إذا جار وعدل عن الحق ، والقسط بالكسر ، والإقساط : العدل.

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) أى : وأما الكافرون الجائرون البعيدون عن الحق والإيمان فكانوا فى سابق علم الله الأزلى ، كانوا حطبًا للنار التى وقودها الناس والحجارة ؛ تسعر بهم كما تسعر بكفرة الإنس .

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾)

المفـــردات :

(غَدَقًا) : كثيرًا .

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنعاملهم معاملة المختبر الممتحن لنعلم علم ظهور ما يكون من أمرهم : أيكفرون أم يشكرون .

(وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ) : هو من قولهم : أعرضت عنه ، بمعنى أضربت وتوليت وصددت عنه ، أى : أخذت عَرْضًا ، أى : جانبًا غير الجانب الذى هو فيه .

(يَسْلُكْهُ) : يدخله

(صَعَدًا) : شاقًا يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

(كَادُوا) : قاربوا .

(لِبَدًا) : جمع لِبدة ، وهى الجماعات ، شبهت بالشيء المتلبد المتراكم بعضه فوق بعض ، من ازدحامهم عليه .

(لَن يُجِيرَنِى) : لن يمنعنى ولا يغيثنى من الله أحد .

(مُلْتَحَدًا) : ملجأً وحرزًا .

التفسير

١٦ ، ١٧ - (وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) :

أى : وأن لو سار الكفار من الجن والإنس معتدلين دون ميل أو جور على الطريقة المثلى والنهج القويم والصراط السوى وهو ما جاء به محمد ﷺ من عند ربه لأسقاهم الله المطر الغدق الكثير ، والغيث العميم الذى يحيي الله به نفوسهم ، وينبت لهم به الزرع ، ويدر الضرع ، ويغمرهم فى دنياهم بوافر النعم وجليل الخيرات ، (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنعاملهم معاملة المختبر لنعلم ما يكون من أمرهم : أيكفرون أم يشكرون ، أى : لنعلم ذلك حاصلًا وواقعًا منهم بعد أن علمناه قديماً وأزلا ، حتى لا يكون للناس على الله حجة ، بعد أن يظهر ذلك للخلائق ، والقول بإغداق الخير عليهم لاستقامتهم مصداقه قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »[١] ، وقوله : « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم »[٢]

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦٦ من سورة المائدة .

وقيل المعنى : وأن لو استقام الجن على طريقتهم التي كانوا عليها قبل سماع القرآن ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام واستمروا على كفرهم لوسعنا عليهم الرزق ، وأغدقنا عليهم من الخير استدراجاً لهم وإمهالاً وإملاءً حتى يأْخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، قال تعالى : « وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ »(١) وقال - سبحانه - : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »(٢)

والرأى الأول أولى وأحق بالاعتبار لأن كلمة (الطريقة) المعرَّفة بالألف واللام إنما ترجع إلى الطريقة المعروفة المعهودة وهى طريقة الهدى والرشاد . (وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا) .

أى : ومن يتولَّ وينْأَ عن عبادة ربه ويتجافَ عنها فيجعلها فى جانب وهو فى جانب يدخله الله فى عذاب يعلو طاقة ذلك الشقى المعذب ويشق عليه ويغلبه فلا يطيقه .

١٨ - (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) :

قال مجاهد : كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بِيَعَهُمْ وكنائسهم أشركوا بالله فيها ؛ وذلك أن النصارى تقول : المسيح ابن الله ، واليهود يقولون : عزير ابن الله ، فأَمر الله - عزَّ وجلَّ - نبيَّه والمؤمنين أن يخلصوا العبادة لله وحده ، وألاَّ يدعوا مع الله أحدًا إذا دخلوا المساجد كلها ، هذا وإن الأَرض جميعاً مساجد للرسول ﷺ ولأُمته ، فقد ورد فى حديث جابر بن عبد الله الذى أخرجه البخارى : « وجعلت لىَ الأَرض مسجدًا وطهورًا ، فأَيما رجل من أُمتى أَدركته الصلاة فليصل » وعلى هذا قال : فالمساجد جمع مسجِد - بكسر الجيم - وقيل : المراد بها الأَعضاء السبعة التى يسجد عليها ، واحدها مسجَد - بفتح الجيم -

(١) الآيات - ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ١٧٨ من سورة آل عمران .

وهى القدمان والركبتان والكفان والوجه ، وروى أن المعتصم سأل أبا جعفر محمد بن على ابن موسى الكاظم - رضى الله عنهم - عن ذلك فأجاب بما ذكر ، وقيل : المراد المساجد السجدات ، على أن المسجَد - بفتح الجيم - مصدر ميمى ، قال الحسن ؛ من السنة إذا دخل الرجل المسجد أن يقول : لا إله إلاّ الله : لأن قوله : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا) فى ضمنه أمر بذكر الله ودعائه .

و قيل المعنى : أفردوا المساجد لذكر الله ولا تتخذوها هزوًا ومتجرًا ومجلساً ولا طرقاً ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً ، وفى الصحيح : « من نشد ضالة فى المسجد فقولوا : لا ردّها الله عليك ؛ فإن المساجد لم تبن لذلك » .

هذا ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ كان ، إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال : « (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا) اللهم أنا عبدك وزائرك ، وعلى كل مَزُور حق ، وأنت خير مَزُور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار » وإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال : « اللّهم اصْبُبْ علىّ الخير صبا ، ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدًا ، ولا تجعل معيشتى كدًّا ، واجعل لى فى الأرض جَدًّا) أى : غِنًى وقال ابن عباس : المساجد هنا مكة التى هى القبلة ، وسميت مكة المساجد لأن كل أحد يسجد إليها ، أى : يتخذها قبلة له .

١٩ - (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) :

أى : وأن الله أوحى إلى رسوله أنّه حين قام ﷺ عابدًا ربّه - عزّ وجَلّ - فى صلاة الفجر فى بطن نخلة ، أو فى سوق عكاظ يؤم أصحابه كاد الجن يلتصقون يركب بعضهم بعضاً تزاحماً وتراكماً عليه ؛ متعجبين مما رأوه من عبادته واقتداء الصحابة به قائماً وراكعا وساجدًا ، وإعجاباً بما تلاه من القرآن العظيم ، لأنهم رأوا مالم يروْا مثله وسمعوا ما لم يسمعوا مثله ، وقيل : المراد أن الرسول لما قام يعبد الله تلبدت وتجمعت الإنس والجن ، أو المشركون ، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذى جاء به ويطفئوا نور الله ، فأبى الله إلاّ أن يتم نوره وينصره ويظهره على من عاداه .

٢٠ - (قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) :

سبب نزولها : أن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن بخيرك ؛ فنزلت . فأمر الله رسوله أن يجيبهم على قولهم هذا : بأن ما ترونه من عبادتى لله ورفضى الإشراك به ليس مما يتعجب منه ، وإنما يتعجب ممن يدعو غير الله ويجعل له شريكاً ، أو أن يقول لمن تظاهروا وتمالئوا عليه ليبطلوا الحق الذى جاء به : (إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى) يريد ما جئتكم بأمر مستنكر ولا مستهجن إنما أعبد ربى وحده (وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) وليس ذلك مما يوجب اجتماعكم على مقتى وعداوتى .

٢١ - (قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا) :

أى : قل يا محمد فى محاجة هؤلاء وجدالهم : إنى لا أقدر أن أضركم ولا أن أدفع عنكم ضراً ، ولا أستطيع أن أجلب لكم نفعاً ، إنما الضار والنافع والمرشد والمُغوى هو الله - عز وجل - وأن أحدًا من الخلق لا قدرة له على ذلك .

٢٢ ، ٢٣ - (قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ، إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) :

أى : قل لهم يا محمد : إنّى لن يستطيع أحدٌ أن يأخذنى فى جواره ويعيذنى ويمنعنى من الله إن أراد بى أمرًا وهذا لأنَّهُمْ قالوا له : اترك ما تدعو إليه ونحن بخيرك . وإننى لن أظفر بملجأ أركن إليه أو معاذٍ أحتمى وألوذ به من غير الله ؛ إذ لا ملجأ ولا منجى منه إلّا إليه ، وأن المخلَص والنجاة لا تكون إلا بأن أتبع ما أمرنى به ربى ، فأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولا أكتم شيئاً كلفنى به - سبحانه - وأوجب علىَّ أن أسْمِعَه لكم من غير زيادة أو نقصان أمَّا عياذى بكم والتجائى إليكم - كما تؤملون وترجـون - أو اعتمادى على نفسى فى الفِرار من جزاء ربى وحسابه فإنه لا جدوى منه ولا نفع فيه ، وقيل المراد : قل لا أملك لكم إلاَّ أن أُبلغكم رسالة ربى ، أما الكفر والإيمان فلا أملكهما . (وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) أى : ومن يتمرد على الله ويأْبَ الإيمان به ربًّا

وبمحمد رسـولا فإن له لا لغيره - من الطائعين الأتقياء - له عذاب جهنم يخلد ويبقى فيه لاينفك عنه ولا يزول ولا يبيد .

(حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(نَاصِرًا) : معيناً .

(أَمَدًا) : زماناً بعيدًا أو قريباً .

(الْغَيْب) : ما خفي واستتر .

(ارْتَضَى) : اختار واصطفى .

(يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) : الرصد : الحفظة .

(أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) : علمه علمًا تامًّا .

(وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) : ضبط كل شيء معدودًا محصورًا .

التفسير

٢٤ - (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا) :

هؤلاء الكفار لايزالون يستضعفون المؤمنين ويستهزئون بهم ويستقلون عددهم ، حتى إذا رأى هؤلاء المشركون ما تهددهم الله وتوعدهم به من صنوف العذاب وفنونه فى الآخرة ، أو من خذلانهم وهزيمتهم فى الدنيا - كما حدث فى غزوة بدر الكبرى - فسيتبين ويظهر لهم من هم الأضعف ناصرًا ومعينًا وأقل نفرًا وجندًا وعددًا ؟ - هل هم أم المؤمنون بربهم المصدقون برسالة نبيهم ؟ لا شك ولا مرية أن الكافرين لا ولىّ ولا ناصر ولا شفيع لهم ، قال تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ »[1] ، وأنهم هم الذين ينصرف وينفض عنهم أهلوهم وذووهم يوم القيامة .

أما المؤمنون فلهم فى الآخرة العزة والكرامة والكثرة . قال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ »[2] ، والملك القدوس - جل شأنه - يسلم عليهم ، قال تعالى : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ »[3] ولهم عز النصر واجتماع الشمل وعلوّ الشأن .

٢٥ - (قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا) :

عندما سمع المشركون ما نزل فى الآية السابقة قالوا - إنكارًا له واستهزاءً به - : متى يكون ذلك الموعود ؟ فأمر الله رسوله أن يبلغهم - تبكيتاً لهم وتهديدًا - أن العذاب الذى أوعِدُوا وهُددوا به كائن وحاصل ، لامحالة ، وأن وقوعه متيقن ، أما وقته وزمن نزوله بهم فلا أعلم متى يكون : أهو حالٌّ متوقع فى أية ساعة أم مؤجل قد ضرب الله له غاية وَوَقَّتَ له زمناً معيناً ؟ إن الله - سبحانه - قد استأثر بعلم ذلك .

---

(١) من الآية ١٨ من سورة غافر

(٢) من الآية ٢٣ والآية ٢٤ من سورة الرعد .

(٣) الآية ٥٨ من سورة يس .

هذا ، والأمد : الزمان مطلقاً بعيدًا كان أو قريباً ، والمراد به هنا : البعيد ؛ بقرينة المقابلة بالقريب .

٢٦ ، ٢٧ - (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) :

أى : أنه - سبحانه - هو الذى يعلم كلَّ ماخفى واستتر ؛ لأنه خالق كل شىء : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[(١)] ومن ذلك الغيب : العذاب والنكال الذى يقع عليهم ويلحق بهم ، وأنه - جل شأنه - لايطلع ولا يظهر على غيبه أحدًا إلاَّ من يختاره ويصطفيه للنبوة والرسالة فيطلعه على بعض ما يريد - سبحانه - أن يظهره له ، لأن الرسل - عليهم السلام - مؤيدون بالمعجزات ومنها الإخبار عن بعض الغيبيات ، قال تعالى - حكاية عن عيسى - عليه السلام - « وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ »[(٢)] وفى قوله تعالى : (إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) إشارة إلى إبطال الكهانة والسحر والتنجيم لأنَّ أصحابها أبعد شىء عن ارتضاء الله وأدخل ما يكون فى سخطه وغضبه .

روى أن مسافر بن عوف قال لأمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - لمَّا أراد لقاء الخوارج : يا أمير المؤمنين ؛ لا تَسِرْ فى هذه الساعة وَسِرْ فى ثلاث ساعات يمضين من النهار ، فقال له على - رضى الله عنه - : ولم ؟ قال : إن سرتَ فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت فقال علىٌّ - رضى الله عنه - : ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده ، فمن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نِدًّا أو ضِدًّا ، اللَّهم لاطير إلاَّ طيرك ولا خير إلاَّ خيرك ، ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس : إياكم وتعَلُّمَ النجوم إلاَّ ماتهتدون به فى ظلمات البر والبحر ، وإنما المنجم كالساحر ، والساحر

---

(١) الآية ١٤ من سورة الملك .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة آل عمران .

كالكافر ، والكافر فى النار ، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيتَ وبقيتُ ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان ، ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها ، ولقى القوم فقتلهم وهى وقعة (النهروان) الثابتة فى الصحيح لمسلم ، ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل : سار فى الساعة التى أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ثم قال : يا أيها الناس : توكلوا على الله وثقوا به ؛ فإنه يكفى عمن سواه .

(فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) ، أى : فإذا أراد الله إظهار شىء من غيبه على رسوله فإنه يحيط الرسول إحاطة تامة من جميع جوانبه بحرس وحفظة من الملائكة يحفظونه من تعرض الجن لما يريد إطلاعه عليه ؛ لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول ، وذلك ليصل الوحى إلى الناس خالصاً من تخليط الجن وعبثهم .

٢٨ - (لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) :

أى : أخبرنا وأنبأنا محمداً ﷺ أن الرسل قبله كانوا على مثل حاله من التبليغ بالحق والصدق ، وأنه حفظ كما حفظوا من الجن ، أو ليعلم النَّاس أن الرسول والرسل قبله - عليهم السلام - قد أبلغوا رسالات ربهم كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان ، أو ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة كاملة لم يكتموا منها شيئاً ، أى : ليعلم ذلك مشاهداً وحاصلا وواقعاً كما علمه غيباً وأزلًا فى علمه القديم .

(وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) أى : علم - سبحانه - بما عند الرسل ظاهراً وباطناً من الأحكام والشرائع وغير ذلك لا يفوته منها شىء ولا ينسى منها حرفاً ؛ فهو المهيمن عليها والحافظ لها (وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) أى : ضبط كل شىء ضبطاً تاماً لايعتريه خلل ولا يناله نقص ، أحصاه - سبحانه - معدوداً محصوراً ، وذلك مثل القطر والمطر والرمال وورق الأشجار وزبد البحار وأنفاس خلقه وغير ذلك مما نعلمه ومما لا نعلمه ، ومَنْ هذا شأنه كيف لايحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه ؟ إنَّه - سبحانه - المحصى المحيط العالم الحافظ لكل شىء لا تأخذه سنة ولا نوم .

سورة المزمل

هذه السورة الكريمة مكيَّة وآياتها عشرون آية

مناسبتها لما قبلها :

لما ختم الله - سبحانه - سورة الجن بذكر الرسل- عليهم الصلاة والسلام - فى قوله تعالى : (لِيَعْلَمَ أن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ) افتتح هذه السورة بما يتعلق ويتصل بخاتمهم محمد ﷺ حيث بدأها بقوله : (يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) وقال الإمام الآلوسى : لا يخفى اتصال أولها (قُمِ اللَّيْلَ) . إلخ بقوله - تعالى - فى آخر تلك (سورة الجن) : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ) وبقوله - سبحانه - : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ) الآية .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ - إن هذه السورة الكريمة تتصل برسول الله ﷺ فى بدء الرسالة ، وأنه أمر فيها بقيام الليل وترتيل القرآن فيه ، ليكون ذلك أعون له على تحمل أعباء الرسالة : (يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ...) إلى قوله : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) .

٢ - جاءت السورة تأمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالصبر على إيذاء قومه له ، وعدم التعرض لهم بأذى أو تعييب أو شتم ، وذلك قبل أن يؤذن له فى قتالهم ، وأن يتركهم لله وحده ينتقم له منهم فى الدنيا بالهزيمة والقتل كما حدث فى غزوة بدر ، وفى الآخرة بالأنكال والجحيم والطعام الذى يعترض فى حلوقهم فلا يخرج ولا ينزل : (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً) إلى قوله : (إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا) إلخ .

٣ - جاء ختام السورة ببيان فضل الله ورحمته على رسوله وعلى المؤمنين ، وذلك بالتخفيف عنهم فى التهجد وقيام الليل ، لأنه - سبحانه - علم أنهم لن يطيقوه لمرض بعضهم ، وحاجة آخرين إلى السعى فى الأرض ابتغاء الرزق أو للقتال فى سبيل الله ، ورفع عنهم وجوب ذلك وأمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً ، وذلك بفعل الطاعات ابتغاء وجه - سبحانه - دون رياء أو سمعة ، ووعدهم بأنهم سيجدون عند الله خير الجزاء

وجزاء الخير على ما يقدمونه من بر وطاعة : (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾)

المفردات :

(الْمُزَّمِّلُ) : المتزمل الذى تزمل بثيابه ، أى : تلفف بها ، وقيل : غير ذلك .

(اللَّيْلَ) : هو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

(وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (الترتيل) : التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، ومنه ثغر رتل إذا كان حسن التنضيد .

التفسير

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - (يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) :

ما جاء فى سبب النزول :

ورد فى حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى - : « بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك

الذى جاءنى بحراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى ، فأنزل الله : « يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ » إلى قوله : « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » فحمى الوحى وتتابع ، وقال المفسرون : وعلى أثرها نزلت (يَـٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) .

أى : يا أيها المتلفف بثيابك ، وكان رسول الله ﷺ نائماً بالليل متزملا فى قطيفة فناداه ربّه بذلك تأنيساً له وملاطفة على عادة العرب فى اشتقاق اسم للمخاطب من صفته وحالته التى هو عليها ، كقوله ﷺ - لعلىّ - كرم الله وجهه - حين غاضب زوجه فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب : « قم أبا تراب » وكذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - لحذيفة : « قم يانومان » وكان نائماً ، ونداء الله له بذلك قصدا لرفع الحجاب وطيًّا لبساط العتاب وزيادة فى الإدلال والترأف تنشيطاً له ﷺ ليتلقى ما يكلف به من عمل يشق عليه بهمة عالية وعزيمة صادقة لا تعرف كلالا أو تعبا .

وقيل : يا أيها المزمل بالنبوة والملتزم بالرسالة . وقيل : المزمل بالقرآن .

(قُمِ اللَّيْلَ) أمره - سبحانه - بالقيام والتشمر فى الليل لإحيائه بالصلاة والعبادة وتلاوة القرآن، وترك الهجوع إلى السجود والركوع ، وهجر المنام إلى ما فيه نيل البغية وبلوغ المرام ، إنه - عزّ وجلّ - يعدُّه ويهيئه بقيام الليل وفيه ما فيه من المجاهدة والمصابرة ليؤهله إلى أداء الرسالة لقوم قوى مراسهم واشتد عنادهم .

(إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ) أى : قم نصف الليل[١] أو أقل من النصف أو أزيد منه واختلف فى المراد من ذلك : فذهب أكثر المفسرين إلى أنه ﷺ خُيِّر بين قيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه ، وقال آخرون : هو مخيّر بين قيام نصف الليل أو ربعه أو ثلاثة أرباعه[٢] . والرأى الأول أجدر وأولى لوضوحه وبيانه ولاتّفاقه مع ما جاء فى آخر السورة : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) .

---

(١) هذا على أن كلمة (نصفه) بدل بعض من كل من الليل .

(٢) أى : قم نصف الليل أو انقص من هذا النصف قليلا يعنى انقص نصفه فيكون الربع ، أو زد على النصف قليلا ، يعنى نصفه ، فيكون المجموع ثلاثة أرباعه .

وفى قوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ • قُمِ ٱلَّيْلَ) تنبيه لكل متزمل راقد ليله أن يقوم الليل ويذكر الله فيه ؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة .

هذا . وهل كان قيام الليل فرضاً على رسولنا ﷺ وحده ؟ أو كان فرضاً عليه وعلى الأنبياء قبله ؟ أو كان فرضاً عليه وعلى أمته ؟ أقوال أرجحها أنه كان فرضاً عليه وعلى أمته ، وهو قول عائشة وابن عباس - رضى الله عنهما - فقد ورد فى صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى : : أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله ... وفى هذا الحديث : فقلت (أى : سعد بن هشام) لعائشة : أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ فقالت : ألست تقرأ (يَٰٓأَيُّها ٱلْمُزَّمِّلُ) قلت : بلى ، فقالت : فإن الله - عزَّ وجلَّ - افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام ﷺ وأصحابه حولا ، وأمسك خاتمتها اثنى عشر شهرًا فى السماء حتى أنزل الله - عز وجل - فى آخر هذه السورة التخفيف (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة .

نقول : والظاهر أن النسخ والتخفيف كان فى حق الأمة وبقيت فريضة قيام الليل على رسول الله ﷺ بدليل قوله تعالى : (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا) وهذا رأى كثير من المفسرين والفقهاء .

(وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا) أى : اقرأ القرآن على تمهل وتؤدة وذلك بإشباع الحركات وتبيين الحروف بحيث يُمَكِّنُ السامع من عدها ، وذلك من قولهم : ثغر رتل إذا كان مفلجاً لم تتصل أسنانه بعضها ببعض ، وعن علىٍّ - كرم الله وجهه - أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال : « بيِّنْهُ تبيينا ولا تنثره نثر الدقل[1] ولا تهذّه هذَّ الشِّعر ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة » .

---

(١) الدقل : أردأ التمر .

هذا ، ومراتب التلاوة الصحيحة للقرآن الكريم أربع :

١ - الترتيل : وهو القراءة بطمأنينة وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه من جميع الصفات والمخارج ، ومع التدبر فى معانى القرآن الكريم والتأمل لما فيه من حكم ومواعظ .

٢ - التحقيق : وهو مثل الترتيل إلّا أنه أكثر اطمئناناً منه ، وهو المأخوذ به فى مقام التعليم .

٣ - الحدْر : وهو الإسراع فى القراءة مع مراعاة أحكام التجويد وضبطها .

٤ - التدوير : وهو مرتبة تتوسط الترتيل والحدْر مع مراعاة الأحكام كذلك .

وقال علماء القراءات والتجويد : إن أفضل هذه المراتب هو الترتيل ؛ للأمر به فى قوله : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) .

ولقراءة النبى ﷺ به ، فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها » وعنها - وقد سئلت عن قراءة النبى ﷺ فقالت : « لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه لعدّها » وعن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت : « كان يقطع القرآن آية آية » أى : يقف على آخر كل آية ليعلم أصحابه - رضى الله عنهم - أن الآية قد تمت .

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾)

المفردات :

(قَوْلًا ثَقِيلاً) : يثقل حمله ، والمراد به قيام الليل ، أو القرآن .

(نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) : العبادة فى الليل ، وقيل غير ذلك .

(أشد وَطْئاً) : أثقل وأغلظ وأشد على المصلى من صلاة النهار .

(وَأَقْوَمُ قِيلاً) : وأثبت قراءة وأبين مقالا .

(سَبْحاً) : تصرفاً وتقلباً فى شواغلك .

التفسير

٥ - (إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً) :

أى : إنا سنوحى إليك بافتراض قيام الليل قولا ثقيلا يثقل حمله ، لأن مِنْ شأن الذى يقوم به أن يجهد بذلك وينوء بحمله ، لأن الليل وقت الإخلاد إلى الراحة والنوم ، فمن أُمر بقيامه لم يتهيأ له ذلك إلا برياضة شديدة لنفسه وتذليل وقهرلها ، ومجاهدة للشيطان ، وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن العظيم وهو ثقيل بثقل العمل بشرائعه وأحكامه ووعده ووعيده وحلاله وحرامه ، أو أنه ثقيل ، أى : مبارك فى الدنيا على صاحبه ويثقل ميزانه يوم القيامة ، وقيل : ثقيل تلقيه ؛ فقد روى عن عائشة - رضى الله عنها - « أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها [1] فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه » أى : الوحى ، وتلت قوله تعالى : (إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً) .كما روى الشيخان ومالك وغيرهم أنها قالت : « لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عَرَقاً » هذا ، وإن النص القرآنى الكريم ليتسع لذلك كله ولغيره .

٦ - (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً) :

أى : إن قيام ساعات الليل وإحياءها بالعبادة من ذكر وصلاة وتفكر وتدبر ، أو : إن العبادة التى تحدث وتنشأُ فى الليل هى أشد وأثقل على القائم ليله من عبادة النهار ؛ لأن القائم فى الليل يجاهد نفسه ويهجر مهده ، ويتجافى عن المضجع جنبه ، وهى كذلك أصوب قولا وأحسن لفظاً ؛ لأن الليل فيه تهدأ الأصوات ، وتنقطع الحركات ، ويخلص القول ويفرغ

(١) الجران : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، فاذا برك ومد عنقه على الأرض قيل : ألقى جرانه بالأرض .

القلب ، ولا يكون هناك مانع أو حائل دون تفهم القرآن وتدبره ، وفى هذه الآية الكريمة بيان لفضل صلاة الليل ، وأن الاستكثار منها وزيادة القراءة فيها يعظم الثواب ويجزل الأجر . وقيل : المراد بالناشئة هى النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة ، أى : تنهض ، وذلك دون ناشئة النهار .

واختلف العلماء فى وقت (ناشئة الليل) فقال ابن عمر وأنس بن مالك - رضى الله عنهما - : هى ما بين المغرب والعشاء تمسكاً بأن لفظ (نشأ) يعطى الابتداء ، وكان على بن الحسين - رضى الله عنهما - يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : هذه ناشئة الليل ، وقيل : هى الليل كله ، وقيل : هى القيام بالليل بعد النوم ، وهذا مروى عن عائشة وابن عباس - رضى الله عنهما - وهذا يتفق مع ماروى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله - عز وجل - يمهل حتى يمضى شطر الليل الأول ، ثم يأمر منادياً يقول : هل من داع يستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من سائل يعطى ؟ » فهذا الحديث بيّن الأوقات التى هى جديرة بالإحياء والإقامة ، وأيضاً فإنه يتناسب مع قوله تعالى : (هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً) لأن الصلاة بعد نوم فيها الكثير من أخذ النفس بالشدة والحزم ورياضتها على الأعمال الشاقة التى تكسب صاحبها ثواباً عظيماً وأجرا جزيلا ، فقد ورد فى الأثر : « أفضل العبادات أحمزها » أى أشقها .

٧ - (إن لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً) :

أى : إن لك فى النَّهار سعة من الوقت تتصرف فيها فى مهامك وشواغلك ونومك وراحة بدنك ، فاجعل ليلك خالصاً لعبادة ربك ، وعليك بمناجاته التى تقتضى فراغ البال وانتفاء الشواغل ، أو : إن لك تصرفاً فى أمور معاشك وتقلباً فى حوائجك وما يعرض لك من أمر دنياك ، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة الخالصة فى النهار فعليك بها فى الليل ، وقيل : إن فاتك فى الليل شىء من العبادات فلك فى النهار فراغ تقدر على تداركه فيه ، ويؤيد هذا المعنى ماروى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من

النهار ثنتى عشرة ركعة » هذا من حديث طويل رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث قتادة بنحوه .

وهذه الآية الكريمة تبين الداعى والدافع الخارجى إلى قيام الليل وهو اتساع النهار لأمر الدنيا فضلا على ما فى قيام الليل من الدافع الذاتى وهو ما يناله القائم ليلا من رضا الله وثوابه .

(وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾)

المفــردات :

(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) : وانقطع إلى ربك بعبادته ، وجرد نفسك عما سواه .

(وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) : جانبهم ودارهم ولا تكافئهم على إيذائهم لك .

التفسير

٨ - (وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) :

أى : ودم واثبت على ذكر ربك ليلا ونهارا ، أى : ادعه بأسمائه الحسنى ليكون لك مع صلاة الليل العاقبة المحمودة والدرجة العالية الرفيعة ، وقيل : اذكره على أى وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك من ألوان الطاعات وصنوف العبادات ، وفسر الأمر فى قوله : (وَٱذْكُرْ) بالدوام والاستمرار ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام حتى فى منامه لم ينس ربه - عز وجل - حتى يؤمر بذكره . (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) : هذا أمر منه - سبحانه - لرسوله أن ينقطع لله ويخلص له العبادة ويفرده بها ، ويراقبه مراقبة

تستغرق قلبه وتسيطر على باطنه ، كما أمره - عز وجل - أن يعبده ظاهرا ويذكره بلسانه فى قوله : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ) يكون الظاهر والباطن مشغولا بالله وحده .

هذا ، واتفق أئمة الإسلام وعلماؤه على مشروعية طلب ذكر الله ، كما اتفقوا على أن كلمة : (لا إله إلا الله) هى أفضل ما قاله الرسول والنبيون من قبله - ﷺ ولكن ما المراد من ذكر الله ؟ هل يشمل ويضم كل العبادات ؟ أو هو نوع معين منها ؟ ثم ما مقداره ؟ وما هى أفضل الأوقات التى يطلب فيها وتكون أرجى فى الإجابة ؟ وهل هو مطلوب على سبيل الندب أو على سبيل الحتم والوجوب ؟ وما الحالة التى ينبغى أن يكون عليها الذاكر عند ذكر ربه ؟ أمور اختلفوا فيها ولكل وجهة .

والذى يتضح لنا أن الذكر هو عمل من أعمال اللسان ، وأن لكل جارحة عبادتها الخاصة بها ، وذلك عملا بقول الرسول ﷺ فى حديث : « أوصانى ربى بتسع ... » إلخ الذى جاء فيه : « وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرا » ، وأيضاً فإن إطلاق الذكر على كل ما نطق به اللسان من العبادات فيه ضرب من التجوز ؛ إذ قد عطف الأمر بالتسبيح (وهو من عمل اللسان أيضاً) على الأمر بالذكر فى قوله تعالى : (يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) والعطف - كما يقولون - يقتضى المغايرة ، نسأل الله حسن التوفيق إلى ما يحبه الله ويرضاه

٩ - (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) :

أى : هو - سبحانه - رب المكان الذى تشرق فيه الشمس وتغرب ؛ فهو رب الأرض جميعاً ومالكها ، ومدبر أمرها وأمر ما فيها ، لا معبود بحق إلا هو ، وما دام - سبحانه - مختصاً بالربوبية والألوهية فقد وجب على كل عاقل أن يتخذه وكيلاً ؛ فيسلم نفسه إليه ، ويعتمد ويتوكل عليه ، ويفوض كل أمره إليه ، فهو - جل شأنه - نعم الوكيل ونعم المولى والنصير ، قال بعضهم : من رضى بالله - تعالى - وكيلا وجد إلى كل الخير سبيلا .

١٠ - (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً) :

أى : احبس نفسك على ما يصيبك من أذى قومك وسفاهتهم التى يرمونك بها من صفات التعييب والتنقيص كقولهم : ساحر ، شاعر ، كاهن ، مجنون إلى غير ذلك مما

كانوا ينسبونه إليه استهزاءً به وسخرية منه ﷺ . واجعل نفسك فى جانب وهم فى جانب ، واصبر على مايبدر منهم ؛ فالهجر الجميل : هو أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة .

(وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) : خل بينى وبينهم ، وارض بى لعقابهم .

(أُوْلِي النَّعْمَةِ) : أصحاب التنعم وغضارة العيش .

(أَنكَالًا) : جمع نكل ، وهو القيد الثقيل أو الشديد .

(وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ) : وطعاماً يعترض وينشب فى الحلوق .

(تَرْجُفُ الْأَرْضُ) : تضطرب وتتزلزل .

(كَثِيباً) : رملا مجتمعاً .

(مَهِيلاً) : رخوًا ليِّناً .

التفسير

١ - (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) :

أى : خل بينى وبين هؤلاء المكذبين المفترين أرباب التنعم وغضارة العيش وكثرة الأولاد ، وارض بى لعقابهم وإنزال النكال بهم ؛ فإن لدى ما يفرغ بالك ويجلى همك ،

والمراد من المكذبين أولى النعمة : هم صناديد قريش وزعماؤها (وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) أى : ولا تضق ذرعاً بهم واتركهم زماناً قليلاً وهو مدة حياتهم فى الدنيا ، أو المدة الباقية لهم إلى يوم بدر ، وبعدها فسيهلكهم الله ويكفيك شرهم .

وفى قوله تعالى :(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) إدخال مزيد اطمئنان على قلب الرسول الكريم بأنه - سبحانه - آخذ هؤلاء لامحالة بشديد عقابه جزاء تكذيبهم ، وإلاّ فهل يستطيع الرسول ﷺ أو غيره مهما علا سلطانه واشتد جبروته وقوى طغيانه أن يحول بين الله وأحد من خلقه ؟ !

١٢ ، ١٣ - (إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً) :

أى : إن عندنا ما ننتقم به منهم ، إن لدينا قيودًا ثقيلة لا يستطيعون منها فكاكاً ولا معها تحركاً ، كما اعتدنا لهم نارًا شديدة الاشتعال والاتقاد يلقون فيها وتسعر بهم ، وهيأنا لهم طعاماً من الضريع والغسلين والزقوم يأخذ بالحلق يدخل ولا يخرج ، كما أن لهم نوعاً آخر من العذاب شديد الإيلام لايعرف كنهه ولا قدره إلاّ الله - عزّ وجلّ - .

١٤ - (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً) :

أى : ننكل بالكافرين ونعذبهم يوم تضطرب الأرض والجبال وتتزلزل حتى تصير الجبال رملا مجتمعاً رخوًا لينا بعد أن كانت صخرًا صلباً وحجارة صماء .

هدد الله - سبحانه - المشركين وخوفهم بهذا العذاب الأليم وذلك المآل المخزى يوم القيامة إذا استمروا على شركهم وعنادهم .

(إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(وَبِيلاً) : ثقيلاً غليظاً رديء العاقبة .

(مُنفَطِرٌ بِهِ) : متشقق ومتصدع بشدة ذلك اليوم .

التفسـير

١٥ ، ١٦ – (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۞ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً) :

أى : إنا بعثنا إليكم أيها المكذبون من أهل مكة رسولا يخبرنا يوم القيامة بما شاهده وعاينه من كفركم وعنادكم وعصيانكم ؛ حتى لا تكون لكم حجة ، وستواجهون بما قدمتم من جرائم الأعمال وقبيح الفعال ، وتكذيبكم له ﷺ وفِعْلُنا هذا هو سنة قد أجريناها على الأمم قبلكم « سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »[1] فقد أرسلنا إليكم محمدًا ﷺ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا وهو موسى – عليه السلام – (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) كما عصيتم رسولكم وكذبتموه (فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً) أى : انتقمنا منه انتقاماً ذريعاً وعذبناه عذابا ثقيلا غليظاً ، وسيكون عقاب المكذبين منكم أشد وأقسى

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

من عقاب ذلك الفرعون وقومه : لأن رسولكم يشهد عليكم عند ربكم ، ولو آمنتم لكانت شهادته لكم .

وقد جاء فى هذا الوضع ذكر قصة موسى وفرعون دون سائر الرسل والأمم ؛ لأن أهل مكة استهزأوا برسول الله ﷺ واستخفوا به لأنه ولد فيهم وتربى بينهم ، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه وولد – عليه السلام – فيما بينهم ، وهو قوله : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ »(١) .

١٧ – (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) : هذا توبيخ وتقريع ، أى : إذا بدا لكم وجال بخاطركم أنكم لن تؤخذوا بأعمالكم السّيئة وفعالكم القبيحة وتكذيبكم رسول الله كما أخذ فرعون أخذاً شديداً وعذّبه عذاباً غليظاً ، فكيف تَقُونَ أنفسكم وتحفظونها من هول يوم القيامة وما أعد لكم فيه من القيود والأغلال إن دمتم على ما أنتم فيه حتى زهقت أرواحكم وأنتم كافرون ؟ ! وما ينبغى لكم يا أولى الأحلام والنُّهَىٰ أن تكونوا كذلك وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، أو : كيف لكم بالتقوى ، وأنّى لكم بها يوم القيامة إن كفرتم فى الدنيا (يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) هذا مثل فى الشدة ، يقال فى اليوم الشديد : يوم يشيب نواصى الأطفال ، والأصل أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت واشتدت على الإنسان أسرع فيه الشيب ، قال أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

وقيل : إن الكلام على الحقيقة استناداً إلى ماجاء فى حديث الشفاعة ، وفيه أن الله – سبحانه – يأمر آدم – عليه السلام – (أن يخرج بعث النار من كل ألف : تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيخرجون ويساقون إلى النار سوقاً مُقَرَّنين زُرْقاً) قال ابن مسعود : « فإذا خرج بعث النار شاب كل وليد » .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الشعراء .

١٨ - (السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) :

المراد من السماء : كل مافوقك من السموات والكواكب والنجوم وغيرها مما أظلك وعلاك ، والمعنى : السماء مع عظمها وإحكامها تتصدع وتتشقق وتتداعى من هول ذلك اليوم ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟ أو : أن السماء مثقلة به إثقالا يؤدى إلى انفطارها وتصدعها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه ، كقوله تعالى : « ثَقُلَتْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »[1] (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) أى : كان وعد ذلك اليوم واقعاً لا محالة ؛ لأن حكمة الله وعلمه يقتضيان إيقاعه وحصوله ، أو أن وعد الله واقع لامحالة لأنه - سبحانه - منزه عن الكذب « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً »[2] .

١٩ - (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً) :

أى : إن هذه الآيات التى سبقت فى هذه السورة وفيهامافيهامن القوارع والزواجرهى تذكرة ومواعظ اشتملت على أنواع الهداية والرشاد ، فمن شاء وأراد اتعظ بها واتخذ طريقاً إلى الله بالتقوى والخشية والتقرب والتوسل إليه - سبحانه - بالاشتغال بالطاعات والاحتراز والبعد من المعاصى والسيئات .

(١) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ١٢٢ من سورة النساء .

* (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۙ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾)

المفـردات :

(تَقُومُ) : تصلى .

(أَدْنَىٰ) : أقل .

(عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ) : علم أن لن تطيقوا ضبط وقت قيام الليل .

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ) : فخفف عليكم ورفع التبعة عنكم فى ترك قيامه المقدر .

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) أى : فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، وقيل : الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن .

(يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ) : يسافرون فيها للتجارة ونحوها .

(وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) : وذلك بإنفاق ما سوى المفروض من المال فى سبيل الخير عن طيب نَفس .

(هُوَ خَيْرًا) : هو خيراً مما خلفتم وما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

التفسير

٢٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

فى أول السورة الكريمة جاء الأمر الإلٰهى لرسول الله بقيام قدر من اللَّيل ، وخضع الرسول ، لأمر ربه ، ولبى نداء السماء ، ومعه جماعة من أصحابه اقتدوا به ، ثم خفف الله عنهم فى آخرها بقوله تعالى : (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) وأمرهم بالصلاة والزكاة والصدقة والاستغفار .

ومعنى الآية : إن ربك الذى رباك على موائد كرمه يعلم أنك يا محمد تقوم من الليل أقل من ثلثيه حيناً وتقوم نصفه حيناً وتقوم ثلثه حيناً آخر ، وتقوم معك طائفة من أصحابك تأدبوا بآدابك وحَذَوْا حَذْوَك ونسجوا على منوالك واهتدوا بهديك ومنهم من كان لا يدرى كم صلَّى فى الليل وكم بقى منه ، ولا يدرى متى نصف اللَّيل من ثلثه فكان يقوم الليل كله احتياطيًّا مخافة أن يخطىء حتى انتفخت أقدامهم ، وامتقعت ألوانهم سنة أو أكثر فرحمهم الله وخفف عنهم فقال :(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أى : يعلم مقادير اللَّيل والنهار على حقائقها وأنتم تعلمون بالتَّحَرِّى والاجتهاد الذى يقع فيه الخطأ ، ولا يقدر على تقدير الليل والنهار وضبط ساعاتهما كما هى إلا الله وحده (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ) علم الله أَنَّ الشَّأْن لن تقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ، ولايتأتى لكم حسابها إلا أن

تأخذوا بالأكثر والأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى : فرجع بكم إلى التخفيف بالترخيص فى ترك القيام المُقَدَّر ورفع التبعة عنكم فى تركه كما ترفع التبعة عن التائب ، وعاد إليكم بالعفو ، وهذا يدل على أَنَّه كان فيهم من ترك بعض ما أُمِر به ، وقيل : فتاب عليكم من فرض القيام إن عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع ، فالمعنى رجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر ، وكانوا أمروا بحفظ الأوقات على سبيل التحرى فخفف عنهم ذلك التحرى .

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ) أى : فَصَلُّوا مايتيسر لكم من صلاة الليل ، وعبَّر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها ببعض أركانها فقال تعالى : « يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا »[1] . أى : أَقيموا الصلاة ، وقيل : الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن بينها قال السدى : مائة آية ، وقال سعيد : خمسون .

ومن ذهب إلى الأَول قال : إن الله فرض قيام مقدار معين من الليل فى قوله تعالى : (قُمِ اللَّيْلَ) الآية إلى قوله : (أَوزِدْ عَلَيْهِ) ثم نسخ بقيام مقدار ما منه فى قوله سبحانه : (فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) فالأَمر فى الموضعين للوجوب إلا أن الواجب أولا كان معيناً محدودًا ، والثانى كان بعضاً مطلقاً ثم نسخ وجوب القيام على الأُمة مطلقاً بالصلوات الخمس وغيرها .

ومن ذهب إلى الثانى قال : إن الله رخص لهم فى ترك القيام وأمر بقراءة شيء من القرآن ليلاً فكأَنه قيل : فتاب عليكم ورخص فى التَّرك فاقرءوا ما تيسر من القرآن إن شق عليكم القيام فإن هذا لايشق وتنالون بهذه القراءة ثواب القيام ، وصرح جمع أن قوله تعالى : (فَاقْرَءُوا) على هذا أمر ندب بخلافه على الأَول .

قال العلامة الآلوسى : واعلم أنهم اختلفوا فى أمر التهجّد :

١ - فعن مقاتل وابن كيسان أنه كان مفروضاً بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ثم نسخ بها إلا ما تطوعوا به ، ورواه البخارى ومسلم فى حديث جابر ، وقد روى ذلك

---

(١) سورة الحج من الآية : ٧٧

أيضاً فى حديث سعد بن هشام عندما سأل السيدة عائشة عن قيام رسول الله وقد سبق ذلك فى أول السورة .

٢ ـ وقيل : كان نفلا بدليل التخيير فى المقدار . وبدليل قوله تعالى :

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ »[1] .

٣ ـ وعن ابن عباس : سقط قيام الليل عن أصحاب رسول الله ﷺ وصار تطوعاً وبقى ذلك فرضاً على رسول الله .

بقى هنا بحث : وهو أن الإمام أبا حنيفة ـ رضى الله عنه ـ استدل بقوله تعالى : (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) على أن الفرض ـ فى الصلاة مطلق قراءة ما تيسر من القرآن لا الفاتحة بخصوصها ـ وهو ظاهر على القول بأنه عبّر فى الآية عن الصلاة بركنها وهو القراءة . كما عبر عنها بالسجود والقيام والركوع فى مواضع ـ وقدّر ما تيسر من القرآن بآية .

وخص الشافعى ومالك ما تيسر من القرآن بالفاتحة واحتجوا على وجوب قراءتها فى الصلاة بحجج كثيرة . فعن أبى هريرة عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال : « لاتجزىء صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » ا هـ آلوسى مع التلخيص والتصرف (عَلِمَ أن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى) استئناف مبين لحكمة أخرى غير ما تقدم من عسرة ضبط الأوقات التى يطلب منكم قيام الليل فيها : أى علم أن الشأن سيكون منكم مرضى يشق عليهم الليل (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ) .

أى : وآخرون يسافرون فى الأرض وينتقلون بين أجزائها للتجارة والعمل يطلبون رزق الله وخيره ، وقيام الليل يشق عليهم (وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ) أى : وآخرون يجاهدون فى سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دعوته . وفى قرن المُسَافرين لابتغاء فضل الله الطالبين للتجارة والعمل بالمجاهدين فى سبيل الله إشارة إلى أنهم كمثلهم فى الأجر وهكذا

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

الإسلام جعل العمل عبادة بل جعله من أعظم أنواع العبادات وأفضلها لأنه قرن العمل بالجهاد في سبيل الله .

وهكذا الإسلام سعى لإقامة حياة سعيدة قوامها العمل الجاد النافع للناس ، والجهاد لنشر دين الله ، وحاول الفلاسفة والمصلحون من البشر إقامتها فعجزوا وأقامها محمد ﷺ وأصحابه الذين نشروا دعوته وأقاموا منهج السماء في الأرض .

أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : ما من حال يأتيني عليه الموت - بعد الجهاد في سبيل الله - أحبّ إليّ من أن يأتيني وأنا بين شعبتي جبل ألتمس من فضل الله - ثم تلا هذه الآية : (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ) ... إلخ .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه لسعر وقته إلّا كانت منزلته عند الله ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ) » .

قال ابن كثير : وهذه الآية - وهي قوله تعالى - : (وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ) بل السورة كلها مكية ، ولم يكن القتال شُرِع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة ؛ لأنَّها من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية .

وإذا كان الأمر كما ذكر وتعددت مقتضيات الترخيص (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) أي : فاقرءوا ما تيسر من القرآن من غير تحمل مشقة ، وقال ابن كثير : قوموا بما تيسر عليكم منه ، وهو مذهب الحسن البصري كان يرى حقّاً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء قليل منه في الليل ، ولو بقراءة خمس آيات ، وقال القرطبي : أي : فَصَلُّوا ما أمكن فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر ، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدم (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) أي : واظبوا على أداء الصلاة المفروضة (وَآتُوا الزَّكَاةَ) أي : وأعطوا الزكاة الواجبة عليكم لمستحقيها ، وقيل : المراد من الزكاة : زكاة الفطر ، وقيل : صدقة

التطوع (وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً) يجوز أن يراد بهذه الآية الإنفاق فى سائر الصدقات . أو أن يُراد أداء الزكاة على أحسن وجه من إخراج أطيب المال وأكثره نفعاً للفقراء ، ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق ، أو أن يراد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال ، فالله يجازى عليه أحسن الجزاء وأوفره ، وعن عمر بن الخطاب : هو النفقة فى سبيل الله (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا) :

قال ابن كثير : أى : جميع ماتقدمونه بين أيديكم وأنتم أحياء فهو لكم حاصل ثوابه ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا ومما تركتم وخلفتم .

قال رسول الله ﷺ : « أيكم مالُهُ أحبُّ إليه من مال وارثه ؟ قالوا : يارسول الله مامنا أحد إلّا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : اعلموا ماتقولون ، قالوا : مانعلم إلّا ذلك يارسول الله ، قال : إنما مال أحدكم ماقدّم ومال وارثه ماأخر » رواه البخارى .

(وَأَعْظَمَ أَجْرًا):وأجزل ثوابًا - قال القرطبى : قال أبو هريرة : هو الجنة ، وقيل : لإعطائه بالحسنة عشرًا أو أكثر .

(وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ) أى : اطلبوا منه المغفرة فى كافة أحوالكم ، فإن الإنسان قلما يخلو مما يعد تفريطًا بالنسبة إليه ، وعَدّ من ذلك الصوفية رؤية العابد ، عبادته ، قيل : ولهذه الإشارة أَمَر بالاستغفار بعد الأوامر السابقة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض الحسن .

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ):وهو سبحانه يغفر ذنب من استغفره ، ويرحمه - عز وجل- وفى حذف المعمول دلالة على العموم ، نسأل الله عظيم مغفرته ورحمته ، قال القرطبى : (غَفُورٌ) لِمَا كان قَبْلَ التوبة (رَحِيمٌ) : لكم بعدها : قاله سعيد بن جبير .

سورة المدثر

سورة المدثر مكية ، وآياتها ست وخمسون آية

مناسبتها لما قبلها :

سورة المدثر متفقة مع سورة المزمل التي قبلها في الافتتاح بنداء النبي ﷺ في كل منهما ، كما بدئت سورة المزمل بالأمر بقيام الليل وهو عبادة خاصة ، وبُدِئت سورة المدثر بالأمر بالإنذار وفيه من التكميل ما فيه .

أول ما نزل من القرآن :

قال الآلوسي : أخرج أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) . قلت : يقولون : (اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) . قال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلتُ له مثلَ ما قُلتَ فقال جابر : لا أُحدثك إلّا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنُودِيت فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا ، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذى جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت[1] منه رعبًا ، فرجعت فقلت : دثروني ، فنزلت : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) وظاهر ذلك الخبر أن سورة (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) نزلت قبل سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

والمَرْوى في الصحيحين وغيرهما عن عائشة أنَّ قوله تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) أول ما نزل من القرآن ، وهو الذى ذهب إليه أكثر الأئمة ، حتى قال بعضهم : هو الصحيح ، ولصحة الخبرين احتاجوا للجواب للتوفيق بينهما فذكر (صاحب الإتقان) : خمسة أجوبة منها :

١ ـ أن السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة ، فتَبَيَّن أن سورة المدثر نزلت بتمامها قبل تمام سورة اقرأ ، فإن أول ما نزل منها صدرها : من أول السورة إلى قوله تعالى : (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

---

(١) فجئثت ـ أى : ذعرت وخفت .

٢ـ أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحى لا أولية مطلقة ـ انتهى ملخصًا .

من مقاصد السورة :

تبدأ السورة الكريمة بنداء النبى ﷺ ودعوته لإنذار قومه وتعظيم ربه وتخلقه بكريم الخصال ، ثم بحديث عن القيامة وأهوالها ، ثم بأمر من الله لنبيه بترك الجاحد لنعم الله عليه المكذب بالآيات ؛ لأن الله وحده سيكفى الرسول أمره وسيتولى عقابه ، وتُصَوِّر باقى السورة الكريمة أحوال هذا المكذب وهو يفكر فيما يقول فى القرآن تصويرًا دقيقًا فتقول : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) .

يا سبحان الله ؟ بعد كل هذا التفكير العميق عاد ذلك الجاحد يردد ما قاله المكذبون من قبله !! وتذكر الآيات عقابه سقر وأوصاف سقر ، ثم بينت السورة الحكمة فى جعل خزنة النار من الملائكة والسر فى كونهم على هذه العِدّة المذكورة فى القرآن ، ووضحت الآيات أن كل نفس مرهونة بعملها من خير أو شر ، وأن أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم تبكيتًا : (مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) فذكروا لهم ما فعلوه من ذنوب فى الدنيا عوقبوا عليها يوم القيامة ، وجاء فى الآيات تشبيه الكفار لإعراضهم عن الحق بهذا التشبيه المهين (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) .

وختمت السورة بالحديث عن القرآن ووصفه بأنه تذكرة لمن شاء أن يتذكر ، وبالثناء على الله بأنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(الْمُدَّثِّرُ) : لابس الدثار ، وهو ما فوق القميص ، وهو رسول الله ﷺ .

(قُمْ) : أى : قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم .

(فَأَنذِرْ) أى : فحذر الناس وخوفهم من عذاب الله .

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) : وخُص ربك بالتكبير والتعظيم ، أو بقول : الله أكبر .

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) : كناية عن التخلق بالأخلاق الحسنة ، أو تقصير الثياب لتسلم من النجاسة ومن الخيلاء .

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) : اترك المآثم الموجبة للعذاب كالشرك .

(وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) : ولا تعط مستكثرًا - أى : رائيًا ما تعطيه كثيرًا - أو طالبًا الكثير .

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) : ولوجه ربك وابتغاء مرضاته فتخلق بالصبر .

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ) : فإذا نُفِخ فى الصُّور للبعث والنُّشور - والنَّاقور - فَاعُول من النقر ، بمعنى التصويت - وأصله : القرع الذى هو سببه ، ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به .

التفسير

١ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ) :

أى : المتلفف بثوبه المتغشى به ، واللفظ - على ما قيل - دائر على معنى السَّتْر على سبيل الشمول .

نودى ﷺ باسم مشتق من صفته التى كان عليها وقت نزول الوحى عليه ؛ ملاطفة له ؛ وبعثًا للأنس فى نفسه ، وطلب تَدَثُّره - عليه الصلاة والسلام - لما اعتراه من خوف وأصابه من رعب حين رأى الملك الذى جاءه بحراء ، فرجع وقال لأهل بيته : (دثرونى) فنزل (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ) .

وقيل : المراد بالمدثر : المتدثر بالنبوة والكمالات النفسية ، على معنى : المتحلى بها ، والمتزين بآثارها ، وقيل : الظاهر أن يُرَاد بالمدثر وكذا بالمزَّمل ، الكناية عن المستريح الخالى البال البعيد عن الشواغل ؛ لأنه فى أول البعثة ، فكأنه قيل له - عليه الصلاة والسلام - : قد مضى زمن الراحة وجاءتك أعباءُ الدعوة .

٢ - (قُمْ فَأَنذِرْ) :

(قُمْ) أى : قم من مضجعك ، أو : قم قيام عزم وتصميم وشمر عن ساعد الجد ، فقد جاء الأمر الإلٰهى الآن باصطفائك رسولًا ، فقد جاء الأوان لتباشر مهمتك وتنشر رسالتك وتقود البشرية إلى بر السلامة ، وتلزمها منهج الله ، ولذا جاء قوله تعالى : (فَأَنذِرْ) أى : فحذِّر الناس وخوِّفهم من عذاب الله وعقابه إن لم يؤمنوا ، ولم يقل هنا : (وبشِّر) لأنه كان فى ابتداء الرسالة ، والإنذار هو الغالب إذ ذاك ، أو هو من باب الاكتفاء ؛ لأن الإنذار يلزمه التبشير .

٣ - (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) :

أى : واخصص ربك ومالكك ومتولى أمرك بالتكبير : وهو وصفه تعالى بالكبرياء ، والعظمة اعتقادًا وقولًا .

ويروى أنه لَمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : الله أكبر فكبَّرت خديجة ، وأيقنت أنه الوحى ، وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك ، وبعد الأمر السابق فى قوله : (قُمْ فَأَنْذِرْ) ذكرت جملة (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) مقدمة على سائر الجمل والأوامر التى تأتى بعدها إشارة إلى مزيد الاهتمام بأمر التكبير ، وإيماء - على ما قيل - إلى أن المقصود الأول مِن الأمر بالقيام أن يكبر ربه ويعظمه وينزهه عن الشرك : فإن أول ما يجب على العبد معرفة الله تعالى ، ثم تنزيهه عمَّا لا يليق به ، وقد يقال : لعل ذكر هذه الجملة أولا لتشجيعه - عليه الصلاة والسلام - على الإنذار وعدم مبالاته بما سوى الله - عز وجل - حيث تضمنت الإشارة إلى أن نواصى الخلائق بيده تعالى ، وكل ما سواه مقهور تحت كبريائه تعالى وعظمته ، فلا ينبغى أن يرهب إلا منه ، ولا يرغب إلَّا فيه ، فكأنه قيل : قم فأنذر ، واخصص ربَّك بالتكبير والتَّعظيم ، ولا يصدنك شىء عن الإنذار ، قيل : ويجوز أن يحمل قوله تعالى : (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) على التكبير فى الصلاة - ذكر ذلك القرطبى والآلوسى والزمخشرى.

٤ - (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) :

(١) أمر الله رسوله ﷺ أن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ؛ لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة ، وهى الأولى فى غير الصلاة ، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثًا .

(٢) وقيل : هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب فى تطويلهم الثياب وجرهم الذيول علامة الكبر والخيلاء ، فوق ما تتعرض له من الإصابة بالنجاسة .

(٣) وقيل : هو أمر بتطهير النفس مَّما يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات ، يقال : فلان طاهر الثياب : إذا وصفوه بالنقاء من العيوب ودنس الأخلاق ، وفلان دنس الثياب للغادر .

٥ - (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) :

أى : والعذاب فاترك ، والمعنى : دم على ترك ما يوصل إلى العذاب من عبادة الأوثان والتخلق بالأخلاق الرديئة ، فقوله سبحانه : (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) كلام جامع فى مكارم

الأخلاق ، فكأنه قيل : اهجر الجفاء والسّفه وسوء الخُلُق وكل شيء يقبح : كالأصنام وعبادة الأوثان ؛ فإنها تنتهى بصاحبها إلى العذاب .

٦- (وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) :

(١) قال ابن عباس : المعنى : لا تُعْطِ العطية تلتمس أكثر منها ، وهذا خاص بالنبى ﷺ لأنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب .

(٢) وقال الحسن البصرى : ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، واختاره ابن جرير .

(٣) وعن مجاهد : ولا تضعف أن تستكثر من الخير ؛ وقال : « (لا تمنن) فى كلام العرب : لا تضعف » .

(٤) وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليها عرضًا من الدنيا .

(٥) وقيل : ولا تعط مستكثرًا ، أى : رائيًا لما يعطيه كثيرًا . فهذه أقوال ، والأظهر القول الأول .

٧- (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) :

أى : ولوجه الله : مربيك ومالكك فاقصد جهته وجنابه وابتغاء مرضاته وطلب ثوابه ، فتجمل بالصبر على وجه العموم ؛ ليفيد كل مصبور عليه ومصبور عنه ، أو يراد : الصبر على أذى المشركين لأنه أحد ما يتناوله العام ، لا لأنه وحده هو المراد .

وفضائل الصبر لا تحصى ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ »[1] ، وقوله ﷺ : قال الله تعالى : « إذا وجهتُ إلى عبدٍ من عبيدى مصيبةً فى بدنِهِ أو مالِهِ أو ولدِهِ ثم استقبلَ ذلك بصبرٍ جميل استحييتُ منه يومَ القيامةِ أن أنصبَ له ميزانًا ، أو أنشرَ له ديوانًا » .

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الزمر .

٨، ٩، ١٠ـ (فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) :

الفاء فى قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ) للسببية ، كأنه قيل : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى فيه عاقبة صبرك . والفاء فى قوله تعالى : (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ) للجزاء ، والعامل فى (إِذَا) ما دل عليه قوله تعالى : (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ) أى : فإذا نقر فى الناقور صعب الأمر وعسر على الكافرين و (ذلك) إشارة إلى وقت النقر المفهوم من قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ) والمراد به يوم القيامة ، والمعنى :

فإذا نفخ فى الصور فذلك الوقت يومئذ شديد على الكافرين غير سهل ولا ميسر ، فلا يتسنى لهم أن يخلصوا مما هم فيه وما يلاقونه من مناقشة الحساب وغيره من الأهوال التى يجدونها فى ذلك الوقت العصيب الرهيب .

وفائدة قوله تعالى : (غَيْرُ يَسِيرٍ) بعد قوله تعالى : (عَسِيرٌ) ـ وهو مفهم له ـ تأكيد لعسره على الكافرين فهو يمنع أن يكون عسيرا عليهم من وجه دون وجه كما يشعر بتيسيره على المؤمنين ، كأنه قيل : عسير على الكافرين غير يسير عليهم ، كما هو يسير على أضدادهم المؤمنين ففيه جمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة للمؤمنين وتسليتهم ، ومع هذا لا يخلو قلب المؤمن من الخوف ، أخرج ابن سعد والحاكم عن بَهْزِ بن حكيم قال : أمَّنا زرارة بن أوفى فقرأ المدثر ، فلما بلغ قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ) خرَّ ميِّتا . فكنت فيمن حمله ، وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : لَمَّا نزلت (فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ) قال رسول الله ﷺ : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحَنَى جبهته يستمع متى يُؤْمر ؟

قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وعلى الله توكلنا ـ ذكر ذلك الآلوسى وغيره . واختلف فى أن المراد بذلك الوقت يوم النفخة الأُولى ، أو يوم النفخة الثانية ، ورجح أنه يوم الثانية لأنه الذى يختص عسره بالكافرين ، وأما وقت النفخة الأُولى فحكمه الذى هو (الصعق) يعم البر والفاجر ، وهو على المشهور مختص بمن كان حيًّا عند وقوع النفخة .

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾)

المفـــردات :

(ذَرْنِي) : اتركني ودعني .

(مَّمْدُودًا) : مبسوطًا كثيرًا دائمًا غير منقطع .

(وَبَنِينَ شُهُودًا) : وبنين حضورًا معه لا يفارقونه للتكسب لغناهم عنه .

(وَمَهَّدتُّ لَهُ) : وبسطت له النعمة والرياسة والجاه ، والتمهيد عند العرب : التوطئة والتهيئة ومنه مهد الصبي .

(كَلَّا) : كلمة زجر وردع له عن طمعه وقطع لرجائه الخائب ، أي : لست أزيده مع كفره بالنعم .

(لِآيَاتِنَا) أي : آيات الله المنعم ، وهي دلائل توحيده ، أو القرآن .

(عَنِيدًا) : جاحدًا لها مكذبًا بها مُعرضًا عنها .

(سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) : سأُكلِّفه بصعود عقبة شاقة المصعد ، وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق .

(إِنَّهُ فَكَّرَ) : إنه فكر ماذا يقول فى شأن القرآن والرسول من الاختلاق .

(وَقَدَّرَ) : وَرَتَّب وهيَّأَ فى نفسه قولا كاذبًا فى القرآن والنبى ، والعرب تقول : قدرت الشيء : إذا هيأْته .

(فَقُتِلَ) : لُعِن وكُذِّب وقُهِر وغُلب .

(كَيْفَ قَدَّرَ) : كيف هيأ هذا الطعن ، وذلك تعجيب من تقديره وإصابته الغرض الذى يرجوه قومه .

(ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) : ثمّ استحق الهلاك ، كيف أعد فى نفسه هذا الطعن .

(ثُمَّ عَبَسَ) : ثم قطّب وجهه وقبض بين عينيه

(وَبَسَرَ) : اشتد فى العبوس وكلوح الوجه .

(سِحْرٌ يُؤْثَرُ) : سحر يُرْوى ويُنقل عن السحرة .

(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) : سأُدخله جهنم ليحترق فيها . وسميت جهنم بسقر ، من : سَقَرَتْهُ الشمس : إذا أذابته ولوَّحته وأحرقت جلدة وجهه .

(وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) : مبالغة فى وصفها ، أىْ : أىّ شيء أعلمك ماجهنم ؟!

(لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) : لا تبقى شيئًا يلقى فيها إلَّا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكًا حتى يعاد .

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) أى : يتولى أمر النار ، ويلى تعذيب أهلها تسعة عشر ملكًا ، أو صَفًّا ، أو صنفًا .

التفسير

١١ - (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) :

قال ابن عباس وغيره : نزلت هذه الآية ومابعدها فى الوليد بن المغيرة ، بل قيل : إن هذا القول متفق عليه ، والمعنى : يقول الله تعالى متوعدًا هذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا فجحد بها وبدَّلها كفرًا وقابلها بالإنكار لها والافتراء عليها .

(وَحِيدًا) أى : دعنى وحدى مع من خلقته فأنا أكفيك أمره وأُغنيك فى الانتقام منه عن كل منتقم . وفى الأسلوب مافيه من التهديد والوعيد ، حسبك أن الذى سيتولى جزاءه وعقابه هو الله . أو المعنى : اتركنى مع من خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر ومساعد فى إهلاكه ، أو ذرنى ومن خلقته وحيدًا فريدًا لا مال ولا ولد ، ولقد كان الوليد يلقب فى قومه بالوحيد ، فتهكم الله به وبلقبه وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه من مدحه والثناء عليه إلى جهة ذمه وعيبه ، وهو أنه خلق وحيدًا لا مال له ولا ولد ، فأبَاه الله ذلك ، فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه !! أو : وحيدًا فى الخبث والشر ، أو وحيدًا عن أبيه لأنه كان لم يعرف نسبه للمغيرة حقيقة .

١٢ - (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا) :

أى : ووليته وأعطيته مالا مبسوطًا كثيرًا ، أو ممدودًا بالنماء ، قيل : كان له الضرع والزرع والتجارة ، وعن ابن عباس : هو ما كان له بين مكة والطائف من النعم والجنان ، والعبيد ، وقيل : كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره صيفًا ولا شتاء .

١٣ - (وَبَنِينَ شُهُودًا) :

أى : ومنحته ورزقته بنين شهودًا ، أى : حضورًا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه بالسفر فى عمل أو تجارة ، لوفور نعمهم وكثرة خدمهم ، أو حضورا فى الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم ، أو تسمع شهادتهم فيما يُتَحَاكم فيه ، واختلف فى عددهم : فعن مجاهد

أنهم عشرة ، وعن السدى والضحاك : كانوا اثنى عشر ، سبعة ولدوا بمكة ، وخمسة ولدوا بالطائف ، وقيل غير ذلك ، وكلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة :

١ - الوليد بن الوليد . ٢ - وخالد . ٣ - وهشام .

١٤ - (وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا) :

أى : وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى أقام ببلدته مطمئنًا مترفهًا يُرْتجع إلى رأيه ، فأتممت عليه نعمة المال والجاه ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ، وأصل التمهيد فى التسوية والتهيئة ، وتُجُوِّزَ به عن بسطة المال والجاه ، وكان لكثرة غناه ونضارة حاله الرائقة فى الأعين يلقب ريحانة قريش ، وكذلك كانوا يلقبونه بالوحيد ، بمعنى : المتفرد باستحقاق الرياسة .

١٥ - (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) :

أى : ثم يطمع أن أزيده على ما أعطيته وأديته له من المال والولد والجاه مع عدم الشكر ، وهو استبعاد لنيله ما يريد ، واستنكار لشدة طمعه وحرصه ، إما لأنه فى غنى تام لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة ، أو لأنه مناف لما هو عليه من كثرة النعم ومعاندة المنعم ، واستعمال (ثم) للاستبعاد كثير ، وقيل : معنى (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) أى : يطمع أن أترك ذلك فى عقبه .

١٦ - (كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) :

(كَلَّا) : ردع وزجر له عن طمعه وقطع لرجائه ، أى : لست أزيده (إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) : جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا لتعليل ما سبق ، كأنه قيل : لِمَ زُجِر عن طلب المزيد وما وجه عدم لياقته ؟ فَقِيل : إنه كان معاندًا لآيات المنعم كافرًا بها ، وآيات الله هى دلائل توحيده ، أو الآيات القرآنية حيث قال فيها ما قال ، والمعاندة تمنع من الزيادة ، بل هى تستوجب الحرمان ، قال مقاتل : ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك ، وعن مجاهد : (عَنِيدًا) : مجانبًا للحق معاندًا له معرضًا عنه ، والعرب تقول : عَنَد الرجل : إذا عتا وجاوز قدره .

١٧ - (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) :

الإرهاق فى كلام العرب : أن يُحمل الإنسان على الشيء . والمعنى : سأُكلفه فى النار بما لا يقدر عليه ، وأحمله على صعود عقبة شاقة المصعد ، أو : هو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق ، وروى أن النبى ﷺ قال : يكلف أن يصعد عقبة فى النار كلما وضع عليها يده ذابت ، وإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، فإذا رفعها عادت .

وذكر القرطبى أن معنى الآية - كما قال ابن عباس : سأُكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه .

١٨ - (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

تعليل للوعيد السابق واستحقاقه له ، كأن الله عاجله بالفقر بعد الغنى والذل بعد العز فى الدنيا لعناده ، ويعاقبه فى الآخرة أشد العذاب وأعظمه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه فى تفكيره ، وتسميته القرآن سحرًا ، والمعنى : أن الوليد فكر وزوّر فى نفسه وأعد وهيأ ما يقوله من الطعن فى القرآن والرسول ، فاستحق بذلك العذاب وذلك أنه لما نزل قوله تعالى : (حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) إلى قوله تعالى : (إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) على النبى ﷺ سمعه الوليد يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا هو من كلام الجن وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وما يقول هذا بشر ، فقالت قريش : صبأ الوليد لَتَصْبُوَنَّ قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فمضى إليه حزيناً فقال له : مالى أراك حزيناً ؟ فقال له : ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن أبى كبشة - يعنى بذلك رسول الله - وابن أبى قحافة - يقصد أبا بكر - لتنال من فضل طعامهما ، فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه ؟ ! فأنتم تعرفون قدر مالى ، واللات والعُزّى مالى حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه قط يَخْنُق ، قالوا : لا والله ، قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟ قالوا : لا والله ،

قال : فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذباً قط ؟ قالوا : لا والله ، قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ، وقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتَخَالُجاً[1] فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله .

وكان النبي يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه ، فقالت قريش للوليد : من هو ؟ ففكر فى نفسه ثم نظر ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحاً وتفرقوا مُعْجَبِين بقوله مُتَعَجِّبِين منه ، فذلك قول الله : (إِنَّهُ فَكَّرَ) أى : فى أمر محمد والقرآن . (وَقَدَّرَ) فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما .

١٩ - (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) :

تعجيب من تقديره وإصابته المحزَّ ورميه الغرض الذى كانت تتمناه وتتوقعه قريش وتتطلبه منه ، أو ثناء عليه تهكماً ، أو حكاية لما كرروه على سبيل الدعاء عليه عند سماع كلمته الحمقاء ، فالعرب تقول : قتله الله ما أشجعه ، وأخزاه الله ما أشعره : يريدون أنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ، ويدعو عليه حاسده بذلك . ومعنى (قُتِلَ) أى : لُعِن ، وكان بعض أهل التأويل يقولون معناها : فقُهِر وغُلِب ، وقال الزهرى : عُذِّب ، وهو من باب الدعاء .

٢٠ - (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) :

ثم استحق العذاب واللعن والهلاك كيف أعد فى نفسه هذا الطعن على القرآن ؟ ! أو على أى حال قدر ، والتكرير للمبالغة كما هو عادة من أعجب غاية الإعجاب ، والعطف بثم للدلالة على تفاوت الرتبة وأن الثانية أبلغ من الأولى ، فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا : بل قتل بأشده وأشده ، والإطراء فى الإعجاب بتقدير الوليد بن المغيرة يدل على غاية التهكم به وبمن فرح بخلاصة تفكيره .

---

(١) تخالجا : تجاذبا يميناً وشمالا .

٢١ - (ثُمَّ نَظَرَ) :

أى : ثم نظر فى وجوه قومه ، أو فيما يقدح به فى القرآن ويعيبه عليه ويذمه به ، وقيل : نظر بمؤخر عينه تكبرًا وتغيظاً ، أو : فكر فى أمر القرآن وبأى شىء يرده ويدفعه .

٢٢ - (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ) :

(ثُمَّ عَبَسَ) أى : ثم قطب فى وجوه الناس لمّا لم يجد فى القرآن مَطْعَناً وضاقت به السبل وأعيته الحيل ، ولم يدر ماذا يقول فى القرآن . وقيل : نظر فى وجوه القوم ثم قطب وجهه ، وقيل : نظر إلى رسول الله ثم قطب فى وجهه - عليه الصَّلاة والسَّلام - (وَبَسَرَ) أي : أظهر العبوس قبل أوانه أو فى غير وقته ، من الْبَسْر : وهو الاستعجال بالشىء ، وفسره بعضهم بأشد العبوس ، من بسر ؛ إذا قبض ما بين عينيه كراهة للشىء واسود وجهه منه ، ويستعمل البسر بمعنى العبوس .

٢٣ - (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ) :

أى : ثم رجع معرضاً وانْصَرَفَ عن الحق مدبرًا وتولى مستكبرًا عن الانقياد للقرآن ، والاتباع لمحمد لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء : قوله : (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) وهم أن يرمى بها - وصف القرآن أشكاله التى تشكل بها حتى استنبط ما استنبط استهزاء به ، وقيل : قدر ما يقوله ، ثم نظر فيه ، ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ، ولم يدر ما يقول ، ثم أدبر عن الحق وأعرض عنه وتكبر وتعاظم أن يعترف به وقال ما قال فيه .

٢٤ - (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) :

السحر : الخديعة ، وقيل : السحر : إظهار الباطل فى صورة الحق ، والمعنى : ماهذا الذى أتى به محمد ﷺ إلا سحر يأثره عن غيره ويتعلمه منه ، ويروى وينقل عن الأولين مثل سحرة بابل وغيرهم ، والفاء فى قوله تعالى : (فَقَالَ) للدلالة على أن هذه الكلمة الكاذبَة كما خطرت ببال ذلك المكذب بها من غير تلعثم ومُكْث وانتظار ؛ فهى للتعقيب من غير مهملة .

٢٥ - (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ) :

أى : ما هذا إلا كلام المخلوقين تعلمه محمد منهم ، ثم ادعى أنه من عند الله ، وخدع به القلوب كما تُخْدع بالسحر ، وهذه الجملة كالتأكيد للجملة الأولى ؛ لأن المقصود منهما نفى كونه من كلام الله تعالى ، ثم الذى يظهر من تتبع أحوال الوليد أنه قال ما قال عنادًا وحمية جاهلية لا جهلا بحقيقة الحال .

٢٦ - (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) :

أى : سأُدخله جهنم كى يصلى حرها ويحترق بنارها ، وقال ابن كثير : سأغمره فيها من جميع جهاته ، وإنما سميت جهنم سقر من : سقرته الشمس : إذا أذابته ولوحته وأحرقت جلدَ وجهه .

٢٧ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) :

أىْ : أىّ شىء أعلمك ما سقر ؟ ! وهذا الأُسلوب مبالغة فى وصفها ، وتهويل وتعظيم بشأْنها ، ثم وصفها وفسر حالها فقال :

٢٨ - (لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) :

أى : لا تترك لهم عظماً ولا لحما ولا دماً إلا أحرقته ، وكرر اللفظ تأْكيدًا ، وقيل : لا تُبْقِ منهم شيئاً إلا أهلكته ، ثم يعادون خلقاً جديدًا فلا تلبث أن تعاود إحراقهم هكذا أبدًا .

٢٩ - (لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ) :

أى : مُغَيِّرة للبشرات مُسَوِّدة للجلود ومحرقة لها ، وفى بعض الآثار أنها تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادًا من الليل ، واعترض بأَن لا يصح وصفاً بما ذكر من تسويدها لظاهر الجلود مع قوله سبحانه : (لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) الصريح فى الإحراق . وأجيب بأَنها فى أول الملاقاة تُسَوِّد الجلد ثم تحرقه وتهلكه ، وقد يجاب بأَن المراد ذكر أوصافها الفظيعة من

غير ترق من شديد إلى أشد ، وكونها « لواحة » وصف من أوصافها ، ولعله باعتبار أول الملاقاة .

وقال الحسن وابن كيسان والأصم : (لواحة) بتاء مبالغة من (لَاحَ) إذا ظَهَرَ ، والبشَرُ بمعنى الناس ، أى : تظهر للناس لعظمها وهو لها كما قال تعالى : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ »[1] .

٣٠ ـ (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) :

أى : يلى أمرها ويتسلط على أهلها بالعذاب تسعة عشر ملكاً ، ألا ترى العرب الفصحاء كيف فهموا منه ذلك ؟ فقد روى عن ابن عباس أنها لما نزلت (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع أن ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدُّهْم (أى : العدد) والشجعان ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل فيهم ؟ ، فقال أبو الأشد بن أسيد كَلَدَة الجُمَحى : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين ، فأنزل الله (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون ، والجمهور على أن المراد بهم النقباء ، فمعنى كونهم عليها : أنهم يتولون أمرها وتعذيب أهلها وإليهم رئاسة زبانيتها ، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » .

وذهب بعضهم إلى أن التمييز المحذوف : صفاً ، أو صنفاً أى : عليها تسعة عشر صَفًّا أو صنفاً .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النازعات .

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾)

المفــردات :

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون .

(فِتْنَةً) : اختبارًا وامتحاناً ، أو سبب فتنة وضلال .

(لِيَسْتَيْقِنَ) : ليستبين ، أو ليوقن .

(وَلَا يَرْتَابَ) : ولا يشك .

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) أى : شك ونفاق .

(مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً) : ما الذى أراده الله بهذا العدد المُسْتَغْرب استغراب المثل .

(كَذَلِكَ) أى : مثل إضلال المنكر لهذا العدد كأبى جهل وأحزابه ، وهدى مُصَدِّقه .

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) الجنود : جمع جند اشتهر فى العسكر ، اعتبارا بالغلظة ، من الجند ، أى : الأرض الغليظة التى فيها حجارة ، ويقال لكل جمع : جند" أى : وما يعلم جموع خلقه التى من جملتها الملائكة إلا هو -عز وجل- .

(وَمَا هِيَ) أى : وما سقر - كما قال مجاهد .

(إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) : إلا تذكرة للبشر وتخويف لهم

(كَلَّا) : ردع لمن يُنْذَرُ بسقر ولم يخف ، وقيل : زجر عن قول أبى جهل وأصحابه .

(وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) : قسم بالليل إذْ ولى وذهب .

(وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) : قسم بالصبح إذا أضاء وانكشف وأشرق

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ) أى : إن سقر لإحدى الدواهى العظيمة .

(نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ) : تخويفاً للبشر .

(أَن يَتَقَدَّمَ) أى : إلى الجنة أو الخير بالإيمان .

(أَوْ يَتَأَخَّرَ) : إلى النَّار أو الشر بالكفر .

التفسير

٣١ - (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ) :

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلنا خزنة النَّار إلا ملائكة لأنهم خلاف جنس للمعذَّبين من الإنس والجن فلا يأخذهم ما يأخذ المُجَانِس من الرأفة والرحمة ولا يستروحون إليهم ، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوادتهم ، ولأنهم أشد خلق الله بأساً وأقواهم بطشاً فلا يقدر أهل النار عليهم ولا يستطيعون مغالبتهم .

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) أى : وما جعلنا عدتهم تسعة عشر إلا اختبارًا منا للذين كفروا .

(لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) أى : ليحصل اليقين للذين أوتوا الكتاب من النصارى واليهود بأن ما يقوله القرآن على لسان محمد عن خزنة جهنم وعددهم إنما هو حق من الله تعالى ، حيث وافق ذلك ما فى كتبهم .

(وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً) أى : ويزداد إيمانهم بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أن عدد الخزنة كذلك ، أو بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل .

(وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ) : هذا الكلام تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان ، ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة وشك ، أى : ولا يشك فى ذلك الذين أعطوا الكتاب والمؤمنون المصدقون من أصحاب محمد فى أن عدَّةَ خزنة جهنم تسعة عشر ، فإذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك كان آكد وأبلغ لوصفهم بسكون النفس ، ولأن فيه تعريضاً بمن عداهم كأنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكين والمرتابين من أهل النفاق والكفر .

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ) أى : وليقول الذين فى صدورهم شك ونفاق من منافقى المدينة الذين سينجمون ويظهرون بعد الهجرة والكافرون بمكة المصرون على التكذيب ، ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب .

(مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً) أى : ما الذى أراده الله بهذا العدد (تِسْعَةَ عَشَرَ) المستغرب استغراب المثل .

قال الزمخشرى : أى : أى شىء أراد الله بهذا العدد العجيب ؟ وأى حكمة قصدها فى أن جعل الملائكة تسعة عشر لاعشرين ؟ ومرادهم إنكار هذا الأمر من أصله وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص . اهـ : بتصرف .

وعنوا بالإشارة (بهذا) التحقير ، وغرضهم نفى أن يكون ذلك من عند الله على أبلغ وجه ، وليس مرادهم الاستفهام حقيقة عن الحكمة .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ) ذلك : إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهداية ، أى : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهداية يضل الله ويخزى الكافر لصرف اختياره حسب السماع إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالهدى ، ويهدى ويرشد المؤمن لصرف اختياره الحسن عند مشاهدة تلك الآيات .

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) أى : وما يعلم جنود ربك وما عليه كل جند من العدد ، والحكمة فى كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عقد ناقص ، لايعلم ذلك إلا هو سبحانه ، ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا تعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرض وأيام السنة والشهور والبروج وعدد الصلوات والركعات ، أو ما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها ، وهو يعلمها .

روى الترمذى أن النبى ﷺ قال : « أطَّت[1] السماء وحُقّ لها أن تَئِطّ ؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضع جبهته لله ساجدًا » ـ ذكره القرطبى ـ .

قال الآلوسى : وهذه الآية وأمثالها من الآيات والأخبار تشجع على القول باحتمال أن يكون فى الأجرام الأخرى جنود من جنود الله لا يعلم حقائقها وأحوالها إلا هو ـ عزَّ وجل ـ ودائرة ملك الله ـ جلَّ جلاله ـ أعظم من أن يحيط بها نطاق الحصر ، أو يصل إلى مركزها طائر الفكر ، وفى كل يوم تظهر لنا الكشوف عجائب وغرائب وبدائع من عجيب خلق الله وصنعه ، وصدق الله : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

واختلف فى المخصص لهذا العدد ـ أعنى تسعة عشر ـ والذى مال إليه أكثر العلماء أن ذلك مما لا يعلم حكمته على التحقيق إلا الله ، وهو كالمتشابه يؤمن العبد به ويفوض علمه

(١) الأطيط : صوت الأقتاب ـ وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها .

إلى الله (وَمَاهِىَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) أى : وما سقر إلا تذكرة وعظة للبشر وتخويف للخلق ، وقيل : وما هذه العدة (إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ) ليتذكروا بها ويعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .

٣٢ - (كَلاَّ وَالْقَمَرِ) :

(كَلاَّ) : ردع وزجر لمن أُنذر بسقر ولم يخف . (وَالْقَمَرِ) وما بعده مقسم به .

٣٣ ، ٣٤ - (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ) :

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) : قسم بالليل إذ ولى وذهب .

(وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ) : قسم بالصبح إذا أضاء وانكشف ، وفى الحديث « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر » أى : صلوا صلاة الصبح مسفرين ، ويقال : طولوها إلى الإسفار ، أى : الإنارة وظهور الضوء .

٣٥ ، ٣٦ - (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ) :

أى : إن سقر لإحدى الدواهى الكبر إنذارًا وتخويفاً للبشر ، على معنى أن البلايا الكبيرة كثيرة وسقر واحدة منها ، قال الآلوسى :فيكون فى ذلك إشارة إلى أن بلاءهم غير محصور فيها ، بل تحل بهم بلايا غير متناهية ، وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشىء أدهى منها ! !

٣٧ - (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) :

أى : نذيرًا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية قال الحسن : هذا وعيد وتهديد ، وإن خرج مُخْرَج الخبر كقوله تعالى : « فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ »[1] وكان ابن عباس يقول : هذا تهديد وإعلام : أن من يتقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزى بثواب لا ينقطع ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمدًا - ﷺ - عوقب عقاباً لا ينقطع .

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(رَهِينَةٌ) : مرهونة عند الله بكسبها مأخوذة بعملها .

(يَتَسَآءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ) : يسألون عن الكافرين ، أو يسأل بعضهم بعضاً عنهم .

(مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) : ما أدخلكم فى النار ؟

(نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ) : نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه لا نبالى به ، والخوض فى الأصل : ابتداء الدخول فى الماء والمرور فيه ، ويستعمل مجازاً فى الشروع فى الباطل .

(الْيَقِينُ) : الموت ومقدماته .

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) : فما لأهل مكة عن العظة بالقرآن منصرفين .

(حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ) : حمر وحشية شديدة النفار .

(مِن قَسْوَرَةٍ) : من مُطَارديها من أسد أو صائد ، وقيل : القسورة : الأسد ، فَعْوَلة من القسر والغلبة .

(صُحُفاً مُّنَشَّرَةً) : قراطيس واضحة مكشوفة .

(كَلَّا) : ردع لهم عما أرادوه ، وزجر لهم عن اقتراح الآيات ، أو بمعنى : حقّاً ، أى حقّاً إن القرآن عظة .

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى) أى : الله - سبحانه - حقيق بأن يُتَّقى عذابه ويؤمَنَ به ويُطَاعَ .

(وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) : حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

التفسير

٣٨ ، ٣٩ - (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) :

رهينة مصدر بمعنى الرهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم . والمعنى : كل نفس محاسبة على كسبها مأخوذة بما قدمت من خير أو شر ، رهن بعملها إمَّا خلَّصها وإما أوبقها وأهلكها . (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) : وهم المسلمون المخلصون كما قال الحسن وغيره ، ورواه ابن المنذر عن ابن عباس فإنهم فاكُّون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفكُّ الراهن رهنه بأداء الدَّيْن ، ونقل عن على بن أبى طالب وابن عمر أنهم أطفال المسلمين . وعن ابن عباس أنهم الملائكة ، قال العلامة الآلوسى : الظاهر سياقاً وسباقاً أن يراد بهم طائفة من البشر المكلفين .

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ - (فِى جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) :

(فِى جَنَّاتٍ) : الجملة استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ مما قبله ، كأنه قيل : ما بالهم ؟ فقيل : هم فى جنات وبساتين لا يكتنه كنهها ولا يدرك وصفها . (يَتَسَاءَلُونَ

عَنِ الْمُجْرِمِينَ) أى : يسألون عن الكافرين ، أو سأل بعضهم بعضاً عن المجرمين قائلين : (مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) أىْ : أىّ شىء أدخلكم النّار ؟ ! والسؤال سؤّال توبيخ وتحسير ، وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن هؤلاء المجرمين ، فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم : (مَاسَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) .

٤٣ ، ٤٤ - (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) :

أى : قال المجرمون من أهل النار مجيبين للسائلين مبينين لهم أسباب دخولهم النار بقولهم : لم نك من المصلين كما كان يصلى المسلمون المخلصون .

(وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) أى : ولم نك نعطى المسكين مايجب إعطاؤه ، ولم نك نتصدق عليه ونطعمه ، وهو من بنى جنسنا وإخوتنا فى الإنسانية - كما يفعل المسلمون - وهكذا لم يقوموا بالواجب عليهم نحو الله بعبادته بالصلاة ، ولا بالواجب الاجتماعى نحو إخوتهم بالزكاة كما يفعل المسلمون الصالحون ، وهدموا بذلك ركنين من أركان الإسلام وهما الصلاة : حق الله ، والزكاة : حق العباد .

٤٥ - (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ) :

ومن أخلاق المجرمين الذين استحقوا بها دخول النار ماحكاه الله عنهم فى قوله تعالى : (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ) أى : وكنا ننغمس فى الباطل والزور ونندفع فيه ، ونخالط أهله دون اكتراث أو مبالاة .

والمراد بالخوض هنا : الشروع فى الباطل ، وأُريد بالباطل مالا خير فيه وما لاينبغى من القول والفعل ، وعُدّ من ذلك حكاية مايجرى بين الزوجين فى الخلوة مثلا ، وحكاية أحوال الفَسَقَة على وجه الالتذاذ بها ، ونقل الحروب التى جرت بين الصحابة لغير غرض شرعى ، بل لمجرد أن يتوصل بها إلى طعن وتنقيص ، والتكلم بالكلمة الفاحشة يُضحك بها الرجل جلساءه ، إلى غير ذلك مّما لا يُحصى ، وكان ذكر قوله تعالى : (مَعَ الْخَآئِضِينَ) إشارة إلى عدم اكتراثهم بالباطل وترك مبالاتهم به ، فكأنهم قالوا : كنا لا نبالى بباطل

٤٦، ٤٧ـ (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) :

(وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ): هذه هى الصفة الرابعة من صفات المجرمين التى بها استحقوا دخول النار ، وهى تكذيبهم بيوم الدين وهو يوم البعث والحساب والجزاء ، وتأخير جنايتهم هذه فى الذكر مع كونها أعظم من الكل لتفخيمها كأنهم قالوا : وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم القيامة ولبيان كون تكذيبهم به مقارنًا لسائر جناياتهم المعدودة إلى آخر عمرهم جاء قوله تعالى : (حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) أى : حتى نزل بنا الموت ومقدماته ، كما ذهب إليه جُلُّ المفسرين ، ومنه قوله تعالى : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »[1] ، وقول رسول الله ﷺ : (أما هو) يعنى عثمان بن مظعون (فقد جاءه اليقين من ربه) ، وقال ابن عطية : اليقين عندى : صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة ، والظاهر أن مجموع ما ذكر من الصفات هو سبب لدخول مجموعهم النار ، فلا يقدح فى ذلك أن بعض أهل النار من لم يكن قد وجب عليه إطعام مسكين كفقراء ـ الكفرة المعدمين .

٤٨ـ (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) :

أى : لو شفع لهم الشافعون جميعًا من الملائكة والنبيين وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم ، والكلام على الفرض ؛ لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله ، وأمَّا من لَقِيَ الله كافرًا يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالدًا فيها ، لأنه مسخوط ومغضوب عليه ، والمعنى المقصود : لا شفاعة لهم .

٤٩ـ (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) :

أى : فما لهؤلاء الكفرة عمَّا تدعوهم إليه من الدين وتذكرهم به من القرآن وغيره من المواعظ معرضين ومنصرفين ـ قال مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين :

١ ـ الجحود والإنكار .

٢ ـ والوجه الآخر ترك العمل به .

---

(١) الآية ٩٩ آخر سورة الحجر .

٥٠ ، ٥١ - (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) :

المعنى : تشبيه هؤلاء الكفار فى فرارهم من الرسول وإعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشِرَادهم عنه ونفورهم منه بحُمُر وحشية جَدَّت فى نِفارها ممن طاردها من أسد ، أو روَّعها من قانص ، أو أفْزَعَها من صائد أو حبالة ، وقال ابن الأعرابى وثعلب : القسورة : أول الليل ، أى : كأنهم حمر وحشية فرت من ظلمة الليل ، وجمهور اللغويين على أن القسورة الأسد - فَعْوَلَةٌ : من القسر ، وهو القهر والغلبة ، وروى ذلك عن ابن عباس كما روى عنه غير ذلك ، وفى تشبيههم بالحمر مَذَمَّة ظاهرة وتهجين بيِّن لحالهم وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل .

٥٢ - (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً) :

الآية معطوفة على مقدر يقتضيه المقام - كأنه قيل : إنهم لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضون بها ، بل يريد كل واحد منهم أن يُؤْتَى قراطيس مفتوحة واضحة مكشوفة تنشر وتقرأ ، أو كتبًا كتبت فى السماء ونزلت بها الملائكة عليهم ساعة كتبت منشرة ومبسوطة على أيديها غضة رطبة لم تُطْو بعد .

وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد ائتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها : إنى قد أرسلت لكم محمداً - نظيره « وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ »(١) ، وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب من السماء فيه من رب العالمين : إلى فلان بن فلان ؛ يؤمر فيه باتباعك .

٥٣ - (كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) :

(كَلَّا) : ردع لهم عمَّا أرادوا وزجر لهم عن اقتراح الآيات .

(بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) أى : لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة اغترارًا بالدنيا ، وإنما أفسدهم عدم إيمانهم بالآخرة وتكذيبهم بوقوعها ؛ فلذلك يعرضون عن التذكرة ويفتَنُّونَ فى طلب الآيات واقتراحها ، وليس ذلك ناشئًا عن الامتناع عن إيتاء الصحف وحصول مقترحهم كما يزعمون .

---

(١) من الآية ٩٣ من سورة الإسراء .

٥٤- (كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ) :

(كَلَّآ) : ردع لهم عن إعراضهم (إِنَّهُۥ) أى : القرآن ، أو التذكرة السابقة فى قوله تعالى : (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) و (ذكر) لأنه بمعنى القرآن أو الذكر .

(تَذْكِرَةٌ) أى : عظة وأى عظة ، وقيل : المعنى : حقًّا إن القرآن لعظة بالغة نافعة كافية .

٥٥- (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ) :

أى : فمن شاء قرأه فاتعظ به ، وقيل : فمن شاء أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينيه فعل ذلك واتعظ به ؛ فإن نفع ذلك راجع إليه .

٥٦- (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) :

(وَمَا يَذْكُرُونَ) أى : ومايذكرون بمجرد مشيئتهم للذكر كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ) إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته فى أفعاله . (إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ) وهذا تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله - عز وجل - ومثله : « وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ »[1] .

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ) أى : هو حقيق بأن يتقى عذابه ويؤمن به ويطاع .

(وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) وحقيق بأن يَغفِر لمن آمن به وأطاعه .

أخرج أحمد والترمذى - وحسنه - والحاكم - وصححه - والنسائى وابن ماجة وخلق آخرون :

عن أنس : أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) فقال : « قالَ رَبكُم : أنا أهل أنْ أُتَّقَى ؛ فلا يُجْعَلْ معى إلٰه ، فَمَنِ اتقانى فلم يَجْعَلْ معى إلٰهًا آخَرَ فأنا أهلٌ أنْ أَغفِرَ لَه » والله أعلم .

---

(١) الآية ٢٩ آخر سورة التكوير .

سـورة القيـامة

ويقال لها سورة (لَا أُقْسِمُ) وهي مكية وعدد آياتها أربعون .

مناسبتها لما قبلها :

لمَّا ذكر تعالى فى السورة التى قبلها وهى (سورة المدثر) قوله سبحانه : « كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ »[1] بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم من الآخرة لإنكارهم البعث ، ذكر جلّ وعلا فى هذه السورة (سورة القيامة) الدليل على البعث بأتم وجه وأقوى حجة .

بعض مقاصد السورة :

١ - بُدِئت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنَّفس اللَّوَّامة على أنَّ البعث حق وآتٍ لَا ريب فيه ، ووصفت يوم القيامة وأحواله وأهواله : (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ...) إلخ .... فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ...) إلخ .

٢ - ولمَّا كان الرسول حريصًا على تلقى الوحى وحفظ القرآن فقد طمأنته الآيات على أن الله قد تكفَّل له بأن يجمع القرآن فى صدره ، وأن ييسره لتلاوته على الوجه الذى تلقاه عن جبريل ،وأن يُفَسِّره ويوضِّح معناه له :(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ...) إلخ .

٣ - ثم زجرت الآيات المنكرين للبعث وبينت أن سببَ إنكارهم له حُبُّهم للعاجلة ، وإقبالهم على ملذَّاتها الفانية وتركهم للآخرة ونعيمها الباق : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ..)إلخ .

٤ - وتحدثت السُّورة الكريمة عن المؤمنين يوم القيامة وأن وجوههم تكون ناضرة ، كما تحدثت عن أن وجوه الكافرين تكون باسرة كالحة :(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ....) إلخ . وذكرت أحوال المُحْتضر ومايلاقيه من أهوال عظام وشدائد جسام جزاء عصيانه لله وللرسول وتقصيره فى الواجبات حتى إنه ظن ألَّا حساب عليه : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ...) إلخ .

---

(١) سورة المدثر الآية ٥٣ .

٥ - وختمت السورة بذكر الدليل الذى يوجب الإيمان بالبعث لأن الذى خلق الإنسان من نطفة وسوّاه بشرًا سويًا قادر على أن يحيىَ الموتى يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم لأنّ الإعادة أهون من البدء فى قياس العقل وهو سبحانه على كل شيء قدير : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ...) إلخ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) : قيل : إن (لَا) نفى لكلام وردّ له قبل القسم.. والمعنى : أقسم - على سبيل التوكيد - بيوم القيامة ، وقيل : إن (لَا) هنا لتوكيد القسم وتقويته .

(بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) : النفس التى تلوم صاحبها على الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه وعلى الشر لِمَ فعلته ؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) : أيظن الكافر أنَّا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة .

(نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ) : فى القاموس البنان : الأصابع أو أطرافها وتسويتها إعادتها كما كانت مع صغرها

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) : يريد الكافر أن يدوم على الفجور مدة عمره .

(يَسْأَلُ) : أى يسأل سؤال استهزاء وتكذيب .

(أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) : متى تقوم الساعة ؟

(بَرِقَ الْبَصَرُ) : بفتح الراء وكسرها : دهش وتحير فزعًا ممَّا رأى من أهوال يوم القيامة .

(وَخَسَفَ الْقَمَرُ) : ذهب ضوؤه أو غاب .

(وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) : قُرِن بينهما فى الطلوع من المغرب .

(أَيْنَ الْمَفَرُّ) : المَفَرّ بفتح الفاء وبه قرأ الجمهور مصدر أى أين الفرار من أهوال يوم القيامة ؟ وبكسر الفاء وبها قرأ ابن عباس المكان الذى يُفَرّ إليه من ملجأ أو موئل .

(كَلَّا) : ردع عن طلب الفرار أو المَفرّ .

(لَا وَزَرَ) : لا ملجأ وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتحصنت فهو وَزَر .

(إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) : أى استقرار العباد أو مستقرهم أى موضع قرارهم من جنة أو نار فى يوم القيامة إلى ربك وحده .

(يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) : أى يُخبر الإنسان يومئذ بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه فلم يعمله .

(عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) : حجة واضحة بينة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الأعمال .

(وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) : أى ولو جاء بكل معذرة ما قبلت منه .

والمعاذير : جمع مَعْذِرة بمعنى العذر على خلاف القياس ، وقيل : اسم جمع ، وقال السدى والضحَّاك :

المعاذير : السُّتور بلغة أهل اليمن واحدها مِعْذار .

التفسير

١ - (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) :

قال الزمخشرى : إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس :

فلا وأبيكِ ابنة العامِرىِّ لا يَدَّعِى القوْم أنى أفر

وفائدتها توكيد القسم ، والوجه أن يقال : هى للنفى ، والمعنى فى ذلك أنه لا يُقسم بالشىء إلَّا إعظامًا له بذلك ، وعليه قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ[1] » فكأنَّهُ بإدخاله حرف النفى يقول : إن إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام ، يعنى أنه يستأْهل فوق ذلك ، وقيل : إن (لَا) نفى لكلام ورَدٌ له قبل القسم ، كأنَّهم أنكروا البعث فقيل : (لَا) أى ليس الأَمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أُقسم بيوم القيامة ... ا هـ كشاف ملخصًا بتصرف .

قال القرطبى: حكى أبو الليث السمرقندى أنه قال: أَجمع المفسرون أن معنى (لَا أُقْسِمُ) : أُقسم والإتيان بلا صلة ، أَى زيادة يجرى كثيرًا فى كلام العرب وقد ورد منه فى القرآن قوله تعالى : « قَالَ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »[2] أى أن تسجد : والمعنى أُقسم وأُؤكد القسم بيوم القيامة أى بيوم يقوم الناس فيه لربهم للجزاء والحساب .

---

(١) سورة الواقعة الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) سورة الأعراف من الآية ١٢ .

٢ - (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) :

أى : أقسم وأؤكد القسم بالنفس اللّوامة ، والنفس اللّوّامة (كما قال مجاهد) : هى النفس الخَيِّرة التى تلوم صاحبها على الشر لِمَ فعله ؟ وعلى الخير لِمَ لَمْ يستكثر منه فهى لم تزل لائمة وإن اجتهد فى الطاعات . فالمبالغة جاءت لدوام اللّوم .

وقيل : المراد بالنفس اللّوامة ، نفس آدم فإنها لم تزل تلوم نفسها على فعلها الذى خرجت به من الجنة ، قال الآلوسى : وأكثر الصوفية على أن النفس اللّوامة فوق الأمّارة وتحت المطمئنة وعرفوا اللّوامة بأنها هى التى تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت عن سِنة الغفلة فكلما صدر عنها سيئة بحكم جِبلّتها الظلمانية أخذت تلوم نفسها ونفرت عنها - اهـ آلوسى .

وقيل : المراد باللّوّامة : المَلُومة المذمومة وهى النفس الفاجرة الجشعة اللّوامة لصاحبها على ما فاته من سعى الدنيا وأغراضها . وجاء نحوه فى رواية ابن عباس ، وهذا قول من نفى أن يكون الكلام قسمًا إذ ليس للمعاصى قدر وشرف يقسم به .

وقيل : المراد بالنفس : جنس النفس الشاملة التقية والفاجرة ، وضعف الآلوسى القولين الأخيرين .

٣ - (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) :

هذا جواب القسم أو دليل الجواب ، أى لتبعثن بعد جمع ما تفرق من عظامكم وصيرورتها رميمًا رُفاتًا مختلطًا بالتراب .

والمراد بالإنسان الجنس والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه ، أى : أيحسب الإنسان أن الشأن ألن نجمع عظامه بعد تفرقها ، والمعنى لِمَ يكون هذا الحسبان الكاذب المُنَافِى لحق اليقين وصريحه ، والنسبة إلى الجنس لأن فيه من يحسب ذلك ، بل لعله الأكثرون ، وقيل : المراد بالإنسان جنس الكافر المنكر للبعث ، وجوز أن يكون التعريف للعهد . والمراد بالإنسان هنا عدى بن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق - وهما اللذان كان النبى ﷺ يقول فيهما : (اللّهم اكفنى جارى السوء) فقد روى أنّ عَديًّا جاء إليه

عليه الصلاة والسلام فقال : يا محمد ، حدثنى عن يوم القيامة متى يكون ؟ وكيف يكون أمره ؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن به ، أو يجمع الله هذه العظام ؟ فنزلت ، وقيل : هو أبو جهل فقد روى أنه كان يقول : أيزعم محمد أن يجمع الله هذه العظام بعد بلائها وتفرقها فيعيدها خلقًا جديدًا فنزلت . قال الآلوسى : وذكر العظام - وإن المعنى على إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة - لِمَا أنها قالب الخلق .

٤ - (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ) :

أى : نجمع العظام بعد تفرقها وصيرورتها رميمًا ورفاتًا فى بطون البحار وبين الأودية ، والقفار حال كوننا قادرين على تأليف جمعها وإعادتها إلى التركيب الأول وعلى أن نسوى أصابعه التى هى أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، أو على أن نسوى ونضم سلامياته على صغرها بعضها إلى بعض كما كانت أولًا من غير زيادة ولا نقصان ولا تفاوت ، فكيف بكبار العظام وما ليس فى الأطراف منها ، وقيل المعنى : بل نجمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ، أى : نجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والقبض والبسط والتأتى لما يريد من الحوائج ، وروى هذا عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة - اهـ آلوسى والكشاف - .

ولا يخفى أن فى الإتيان بلا أولاً فى (لَا أُقْسِمُ) مما يزيد فى تأكيد الكلام وتقويته ، وحذف جواب القسم لتأخذ النفس فيه كل مأخذ ، والإتيان بقوله : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ) من إيثار لفظ الحسبان على لفظ العلم ، والإتيان بهمزة الإذكار سندًا إلى الجنس وبحرف الإيجاب فى (بَلَى) والحال بعدها (قَادِرِينَ) - فى الإتيان بهذه من المبالغات فى تحقيق المطلوب وتفخيمه وتوبيخ المعرض عن الاستعداد ما تبهر عجائبه ، ثم الحسن كل الحسن فيما يتضمنه حرف الإضراب فى قوله تعالى : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) . - آلوسى - بتصرف .

٥ - (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) :

عطف على أيحسب - جيء به للإضراب عن إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال الإنسان الحاسب بما هو أدخل فى اللوم والتوبيخ من الأول ، كأنه قيل : دع تعنيفه فإنه أشط من ذلك وأنّى يرتدع وهو يريد أن يقيم ويستمر على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه . وعن مجاهد وابن جبير وغيرهما فى معنى الآية : إن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضى فيها أبدًا قدمًا راكبًا رأسه ومطيعًا أمله ومسوفًا لتوبته حتى يأتيه الموت على شر حاله وأسوأ أعماله ، وروى عن ابن عباس فى معنى الآية : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . قال ابن كثير وهذا هو الأظهر ولهذا قال بعده :

٦ - (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) :

قال ابن كثير : أى يقول : متى تكون القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه . وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ • قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ »[1]

قال العلامة الآلوسى : وفيه أن من أنكر البعث يرتكب أشد الفجور لا محالة .

٧ - (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ) :

فإذا تحير بصرهم فزعًا فهم ينظرون من الهلع هكذا وهكذا لا يستقر لهم بصر على شىء من شدة الرعب ، وأصله من بَرِق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ، ومنه قول ذى الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت لعينيه مَىٌّ سافرًا كاد يَبْرَق

وقيل : هو من البريق ، والمعنى لمع من شدة شخوصه .

والمراد أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من أمور . ونقل عن مجاهد أنه قال : فإذا بَرِق البصر عند الموت والاحتضار .

---

(١) سورة سبأ الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

٨- (وَخَسَفَ الْقَمَرُ) :

أى : وذهب ضوء القمر ، والخسوف فى الدنيا إلى انجلاء بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوؤه ، ويحتمل أن يكون المعنى ذهب واختفى ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[1] .

٩ - (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) :

قال القرطبى : أى يجمع بينهما فى ذهاب ضوئهما ، وعن ابن عباس يجمع بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مُكَوَّرين ، وقيل : تجمع الشمس والقمر فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار .

قال الآلوسى : وأحوال يوم القيامة على خلاف النمط الطبيعى ، وحوادثه أمور وراء الطبيعة .

١٠ - (يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ) :

أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر . ويقول : أين المفر ؟ أى هل من ملجأ أو موئل ، قال الماوردى : ويحتمل هذا وجهين ، أحدهما : أين المفر من الله حياءً منه ، الثانى : أين المفر من النار حذرًا منها ، ويحتمل أن يكون هذا القول من الإنسان على وجهين ، أحدهما : أن يكون من الكافر خاصة فى عرصة القيامة دون المؤمن ليتنعَّم المؤمن ببشرى ربه ، الثانى : أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها .

١١ - (كَلَّا لَا وَزَرَ) :

(كَلَّا) ردع عن طلب المفر وتمنِّيه . (لَا وَزَرَ) : أى لا ملجأ يُتَحصن به وليس لكم مكان تعتصمون فيه - وأصل الْوَزَر محركة - الجبل المنيع ، وقد كان مفرًا فى الغالب لفرار العرب ، واشتقاقه من الوِزْر وهو الثِّقْل[2] ، وصار حقيقة لكل ملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غير ذلك .

---

(١) سورة القصص من الآية ٨١ .

(٢) فى القاموس المحيط الوزر : الثقل والسلاح والحمل الثقيل .

١٢ - (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) :

أى : إليه تعالى وحده لا إلى غيره استقرار العباد ، أى : لا ملجأ ولا منجى لهم غيره عز وجل ، أو إلى حكمه استقرار أمرهم لا يحكم فيه غيره ، أو إلى مشيئته تعالى موضع قرارهم من جنة أو نار ، فمن شاء أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار .

والظاهر أن قوله تعالى : (كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) من تمام قول الإنسان ، كأنه بعد أن يقول : أين المفر ؟ يعود على نفسه فيستدرك ويقول : (كَلَّا لَا وَزَرَ ...) إلخ

وقيل : هو من كلام الله تعالى ، يقال للقائل : أين المفر ؟ لا حكاية عن الإنسان ؛ ويجوز أن تكون (كَلَّا) فى قوله تعالى : (كَلَّا لَا وَزَرَ) بمعنى ألَا الاستفتاحية أو بمعنى حقًّا.

١٣ - (يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) :

المعنى : يخبر الإنسان يومئذ - وذلك عند الأكثرين - عند وزن الأعمال بما قدم وأخَّر ، أى : بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه فلم يعمله ، أو بما قدّم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه للورثة ، أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده . وعن مجاهد بأول عمره وآخره .

١٤ - (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) :

أى : بل الإنسان حجة واضحة على نفسه شاهدة بما صدر عنه ، تلزمه بما فعل أو ترك ، وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها بصير بها ، أو هى بمعنى دالة مجازًا ، كما وصفت الآيات بالإبصار فى قوله تعالَى : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً »[1] . والتاء فى بصيرة للمبالغة مثلها فى علَّامة ونسَّابة ، أو لتأنيث الموصوف ، أى حجة ، وقيل : لأن المراد بالإنسان هنا الجوارح : أى جوارحه على نفسه بصيرة ، أى شاهدة عليه بعمله ، ونسب هذا للعتبى والمعنى : يُنَبَّأُ الإنسان بأعماله ، بل فيه ما يُجزئ عن الإنباء لأنه عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه بما عملت ، لأن جوارحه تنطق بذلك . ومثله فى كتاب الله قوله تعالى :

---

(١) سورة النمل من الآية ١٣ .

«يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[١] ، وقال القرطبي :قيل المراد من البصيرة الكاتبان اللّذان يكتبان الأعمال .

١٥ – (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ) :

أى : هو على نفسه حجة وهو شاهد عليها ولو طرح معاذيره وبسطها لا يمكنه أن يتخلص منها ، أو ينبأ بأعماله ويجازى لا محالة ولو أتى بكل عذر ، فهو تأكيد لما يفهم من مجموع قوله تعالى :(يُنَبَّأُ الإِنسَانُ) إلخ – والمعاذير جمع معذرة بمعنى العذر على خلاف القياس ، والقياس معاذر ، وأطلق عليه الزمخشرى اسم الجمع فالمراد بالمعاذير الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب .

وقال السُّدِّى والضحاك : المعاذير الستور بلغة أهل اليمن واحدها معذار ، وحكى ذلك عن الزجاج قال الشاعر :

ولكنها ضنت بمنزل ساعة علينا وأطت[٢] فوقها بالمعاذر

فيكون قوله تعالى :(وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ) أى : ولو أرخى ستوره ، والمعنى أن احتجابه فى الدنيا واستتاره لا يغنى عنه شيئاً ، لأن عليه من نفسه بصيرة .

قال الزمخشرى : سمى الستر بلغة أهل اليمن معذارًا لأنه يمنع صورة المحتجب به كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب .

---

(١) سورة النور الآية ٢٤ .
(٢) حركت .

(لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(لِتَعْجَلَ بِهِ) : لتأخذه على عجلة لئلا ينفلت منك .

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) : أى إن علينا جمعه فى صدرك أى تكفلنا بذلك .

(وَقُرْآنَهُ) : أى جريانه على لسانك - والقرآن - القراءة .

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) : أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل المبلّغ عنا .

(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) : فكن مقفيًا له، وقيل : فاستمع لقراءته وأنصت له ثم اقرأه كما أقرأك جبريل .

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) : ثم إن علينا توضيح ما أُشكل عليك من معانيه وأحكامه .

(كَلَّا) : أداة استفتاح بمعنى ألا ، أو ردع لمن أنكر البعث .

(نَاضِرَةٌ) : حسنة مشرقة متهللة من النضرة أو النضارة ، يقال : نضرهم الله ينضرهم نضارة ونضرة ، وهو الإشراق والعيش الناعم والغنى ، ومنه الحديث : (نضّر الله امرأً سمع مقالتى فوعاها) .

(بَاسِرَةٌ) : متغيرة الألوان مسودة شديدة الكُلُوحة والعبوس .

(فَاقِرَةٌ) : داهية عظيمة تقصم فقار الظهر من فَقَرَهُ أصاب فِقاره ، وقال أبوعبيدة : فاقرة – من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار .

التفسير

١٦ – (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) :

قال ابن كثير : هذا تعليم من الله – عز وجل – لنبيه ﷺ فى طريقة تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق المَلَك فى قراءته ، فأمره الله – عز وجلّ – إذا جاءه المَلَك بالوحى أن يستمع إليه ، وتكفل له سبحانه أن يجمعه فى صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه .

قال الآلوسى : أخرج الإمام أحمد والبخارى وغيرهم عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله سبحانه : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلخ .

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل – عليه السلام – أطرق ، وفى لفظ استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله – عز وجل – فالخطاب فى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) للنبى ﷺ والضمير فى (بِهِ) للقرآن للدلالة عليه من السياق ، مثل قوله تعالى : «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ»[1] أى : لاتحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى عليك من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه (لِتَعْجَلَ بِهِ) أى : لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك على ما يقتضيه كلام ابن عباس ، وقيل : لمزيد حبك له وحرصك على أداء الرسالة ، فكان ﷺ لا يحرك لسانه بقراءة القرآن مادام جبريل يقرأ بل ينصت إليه ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يُقضى إليه وحيه ثم يُقَفِّيه ويتبعه بالقراءة والدراسة حتى يرسخ فى نفسه .

١٧ – (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ) :

ثم علل النهى عن العجلة بقوله : إن علينا جمعه أى : جمعه فى صدرك بحيث لايذهب

---

(١) سورة القدر الآية ١ .

ولا يتفلت شيء منه عليك (وَقُرْءانَهُ) أى: وإثبات قراءته فى لسانك بحيث تقرأه كما شئت وقيل: وقراءتك إياه أى جريانه على لسانك، فالقرآن هنا وكذا فيما بعد مصدر كالرجحان بمعنى القراءة كما قال الشاعر:

ضحوا بأشمط[1] عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

١٨ - (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءانَه):

المعنى: فإذا أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل - عليه السلام - المبلغ عنا فكن مقفيا لا مباريا له، وقيل: فإذا قرأناه فاتبع بفكرك وذهنك قرآنه، أى: فاستمع وأنصت. وصح هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابن عباس، وعنه أيضًا وعن قتادة والضحاك أى فاتبع فى الأوامر والنواهى قرآنه، وقيل: اتبع قرآنه بالدرس على معنى فكرّره حتى يرسخ فى ذهنك، وفى الإسناد المجازى فى قوله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) واختيار نون العظمة مبالغة فى إيجاب التأنى فى قراءة القرآن.

١٩ - (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ):

أى: ثم إن علينا بعد حفظه وتلاوتك له أن نبيّنه ونوضحه لك ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا ونبين لك ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه.

قال الزمخشرى، كأنه كان يعجل فى الحفظ والسؤال عن المعنى جميعًا كما ترى بعض الحُرّاص على العلم، ونَحْوُه قولُه تعالى: (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ)[2].

٢٠، ٢١ - (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ):

(كَلَّا) إرشاد من الله - جل وَعَلَا - لرسوله ﷺ، وأخذ له وبعد به عن عادة العجلة وترغيب له فى الأناة، ولمزيد حبه إياه أتبعه قوله تعالى: (بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ

---

(١) أشمط من الشمط وهو بياض الرأس يخالط سواده والمراد أنه كبير السن.
(٢) سورة طه من الآية ١١٤.

الْآخِرَةَ) وذلك تعميم الخطاب للكل كأنه قيل : بل أنتم يابنى آدم لما خلقتم من عجل ، وجُبِلتم عليه تعجلون فى كل شىء ، ولهذا تحبون العاجلة أى الدار الدنيا والحياة فيها ، وتذرون الآخرة أى : وتتركون الآخرة والعمل لها ، وقيل: الآخرة الجنة ويتضمن استعجالك حين تتلقى الوحى : لأن عادة بنى آدم الاستعجال ومحبة العاجلة ، وفيه أيضاً أن الإنسان وإن كان مجبولا على ذلك إلا أن مثله ﷺ ممن هو فى أعلى منصب وهو مقام النبوة لا ينبغى أن يحمله مقتضى الطباع البشرية على ذلك .

ومن هذا يعلم أن هذا متصل بقوله سبحانه : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) فإنه مشير ومُلَوِّح إلى معنى بل تحبون العاجلة ... إلخ .

وقوله عز وجل : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلخ متوسط بين حُبَّى العاجلة – حبها الذى تضمنه (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) تلويحاً ، وحبها الذى آذن به قوله تعالى : (بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) إلخ تصريحاً – لحسن التخلص منه إلى المفاجأة والتصريح فى التفريع .

قال العلامة الآلوسى : والصحيح المأثور الذى عليه الجمهور أن الخطاب فى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) للرسول ﷺ والظاهر أن التحريك قبل النهى إنما صدر عنه عليه السلام بحكم الإباحة الأصلية فلا يتم احتجاج من جوز الذنب على الأنبياء بهذه الآية – ا هـ آلوسى بتصرف – .

٢٢ – (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ) :

لما ردع الله – سبحانه وتعالى – عن حب العاجلة وترك الآخرة عقب ذلك بما يتضمن تأكيد هذا الردع بما يشير إلى حسن عاقبة حب الآخرة وسوء مغبة حب العاجلة فقال تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ) أى : وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة حسنة جميلة متهللة من عظيم المسرة يشاهد عليها نضرة النعيم .

٢٣ – (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) :

أى : وجوه المؤمنين إلى ربها ناظرة يوم القيامة بدون تحديد بصفة أوجهة أو مسافة ، أى يرى المؤمنون ربهم عياناً يوم القيامة .

وقد ثبتت رؤية المؤمنين ربهم –عز وجل– فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها ، وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال :(إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) وأخرج مسلم والترمذى عن صهيب عن النبى ﷺ أنه قال :(إذا دخل أهل الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الله تعالى الحجاب فما أعطوا شيئاًأحب إليهم من النظر إلى ربهم)– ذكره الآلوسى– .

وقيل : الكلام على تقدير مضاف أى إلى مُلك أو رحمة أو ثواب ربها ناظرة ، والنظر يكون على معناه المعروف ، أو على تقدير مضاف والنظر يكون بمعنى الانتظار فقد جاء لغةً بهذا المعنى أى إلى نعم ربها منتظرة ، وتعقب بأن الحذف خلاف الظاهر ولا داعى إليه ، وبأن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بإلى بل بنفسه ، وبأن لا يسند إلى الوجه فلا يقال وجه زيد منتظر ، والمتبادر من الإسناد إسناد النظر إلى الوجوه الحقيقية ، وهو يعنى إرادة الوجه على الحقيقة.

٢٤ – (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ) :

أى :ووجوه يوم القيامة كالحة شديدة العبوس متغيرة الألوان مسودة وهى وجوه الكفار .

٢٥ – (تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) :

أى : تتوقع أن يفعل بها فعل هو فى شدته وفظاعته فاقرة أى داهية تقصم فقار الظهر كما توقعت الوجوه الناظرة إلى ربها أن يفعل بها كل خير .

والظن : قيل :أريد به اليقين واختاره الطيبى ، وقيل : على معناه الحقيقى والمراد أن الوجوه تتوقع ذلك .

قال العلامة الآلوسى : وجىء بفعل الظن هنا دلالة على أن ما هم فيه وإن كان غاية الشر فإنهم يتوقعون بعده أشد منه وهكذا أبدًا ، وذلك أن المراد بالفاقرة مالا يُكْتَنَهُ ولا يتصور من العذاب ، فكل ما يفعل بهم من أشده ينبىءُ بتوقع أشد منه ، وإذا كان ظاناً كان أشد

عليه مما كان عالماً موطّنا نفسه على هذا الأمر ، فهذا وجه الإتيان بفعل الظن ، ولم يؤت بفعل ظن أو علم بالنسبة للمؤمنين لأنهم وصلوا إلى ما لا مطلوب وراءه ، وهو النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.ا هـ . بتصرف .

(كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَلَّا) : ردع عن إيثار العاجلة على الآجلة .

(بَلَغَتِ) أى : الروح أو النفس .

(التَّرَاقِيَ) : أعالى الصدر وهى العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال - جمع ترقوه ، وقيل : عظام الحلق .

(مَنْ رَاقٍ)؟ : أيكم يرقيه ليشفى- من الرُّقية- : وعن ابن عباس مَنْ يَرْقَى بروحه إلى السماء - مِنَ الرُّقِي . (وَظَنَّ):وتيقن المحتضر .

(أَنَّهُ الْفِرَاقُ) : أن هذا الذى نزل به هو فراق الدنيا .

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) : والتصقت ساقه بساقه والتوت عليها عند رعدة الموت ، فالساق حقيقية ، وقيل : عبارة عن الشدة ، قال القرطبى : لا تذكر الساق إلا فى المحن والشدائد العظام ، ومنه قامت الدنيا على ساق وقامت الحرب على ساق .

(الْمَسَاقُ) : المرجع – أو سوق العباد إلى الجزاء .

(يَتَمَطَّى) : ينبختر فى مشيته اختيالا وعجبا ، وأصله يتمطط أى يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه ، وقيل : من المطا وهو الظهر لأنه يلويه .

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) : تهديد ووعيد أى : هلاك لك أيها المكذب فهلاك ، ثم هلاك دائم لك فهلاك ، أو وليك ما تكره ثم وليك ما تكره . وفى الصحاح عن الأصمعى : قاربه ما يهلكه أى نزل به .

(سُدًى) : مهملا فلا يكلف بالشرائع ولا يجازى – يقال: إبل سدى أى مهملة ترعى حيث شاءت بلا راع .

(نُطْفَةً) : قال القرطبى : النطفة الماء القليل ، يقال نطف الماء إذا قطر ، والمراد بها نطفة الرجل يصب ويراق من الأصلاب فى الأرحام .

(فَسَوَّى) فعدله وكمله ونفخ فيه الروح (الزَّوْجَيْنِ) : النوعين .

التفسير

٢٦ – (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ) :

(كَلَّا) ردع عن إيثار العاجلة على الآجلة ، كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذى ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة ، وتنتقلون إلى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين .

(إِذَا بَلَغَتِ) : الضمير فى بلغت للنفس أو الروح وإن لم يَجْرِ لها ذكر ، لأن الكلام يدل على ذلك ، كما قال تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »[1] أى الشمس ولم يتقدم لها ذكر وقول حاتم :

أما وىّ ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

أى الروح أو النفس (التَّرَاقِى) : العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال .

ذكَّرهم صعوبة الموت الذى هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقى ويدنو خروجها وزهوقها وقال الحاضرون لصاحبها وهو - الْمُحْتَضَر - : (مَنْ رَاقٍ) .

٢٧ - (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) :

أى : قال من حضر صاحبها - الَّذِى أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ - : من يرقيه وينجيه مما هو فيه - من الرُّقية - وهى ما يستشفى به الملسوع واللديغ والمريض من الكلام المعد لذلك ومن آيات الشفاء ، ولعله أريد به مطلق الطبيب ، أعم من أن يُطِب بالقول أو بالفعل ، والاستفهام عند بعض العلماء حقيقى ، وقيل : هو استفهام استبعاد وإنكار أى بلغ مبلغا لا أحد يرقيه ، كما يقال عند اليأس : من الذى يقدر أن يرقى هذا المشرف على الموت ؟ وروى ذلك عن عكرمة وابن عباس ، وقيل : هو من كلام الملائكة - أى أيكم يَرْقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ من - الرُّقىّ - وهو العروج ، وروى هذا عن ابن عباس وسليمان التيمى ، والاستفهام عليه حقيقى .

٢٨ - (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ) :

أى : وظن الإنسان المُحتضر أن ما نزل به هو الفراق للدنيا ونعيمها ، وقيل : فراق الروح للجسد ، والظن هنا عند أبى حيان على بابه ، وأكثر المفسرين على تفسيره باليقين ، قال الإمام الرازى : ولعله إنما سمى اليقين هنا بالظن لأن الإنسان مادامت روحه متعلقة ببدنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها ، فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة ، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم .

---

(١) سورة ص من الآية ٣٢ .

٢٩ - (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) :

الساق بمعناها الحقيقى والمعنى : والتصقت ساق بساق والتوت عليها عند هلع الموت .

وقال ابن عباس : التفَّتْ شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، ونحوه قول عطاء : اجتمع عليه شدة مفارقة المألوف من الوطن والأهل والولد والصديق وشدة القدوم على ربه - عز وجل - لايدرى بماذا يقدم عليه ، فالساق عبارة عن الشدة وهى مثل فى ذلك .

٣٠ - (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) :

أى : سوق العباد إلى الله - عزوجل - لا إلى غيره ، والكلام على تقدير مضاف هو حكم أو موعد . والمراد به الجنة أو النار ، وقيل : سوق هؤلاء العباد للجزاء مُفَوَّض إلى ربك لا إلى غيره. وقال ابن كثير : (الْمَسَاقُ) المرجع والمآب . وذلك أن الروح ترفع إلى السماء فيقول الله - عز وجل - : ردوا عبدى إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى بعض الأحاديث وكما قال تعالى : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ »[1] وجواب إذا فى قوله تعالى : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ) مضمر دل عليه ما ذكر ، أى كان ماكان أو انكشفت للمرء حقيقة الأمر ، أو وجد الإنسان ما عمله من خير أو شر .

٣١ - (فَلَاصَدَّقَ وَلَا صَلَّى) :

(فَلَا صَدَّقَ) : أى : فلاصدق ما يجب تصديقه بما جاء به الله - عز وجل - والرسول ﷺ والقرآن الذى أنزل عليه (وَلَا صَلَّى)أى : ولا صلى ما فرض عليه ، أى : لم يصدق ولم يصل والضمير فى الفعلين فى قوله تعالى : (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى) للإنسان المذكور فى قوله تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) والجملة عطف على قوله تعالى : (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) على ماذهب إليه الزمخشرى ،فالمعنى بناء على ما علمت من أن السؤال فى قوله تعالى : (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)سؤال استهزاء واستبعاد ، استبعد هذا الإنسان البعث وأنكره فلم يأت بأصل الدين وهو التصديق بما يجب تصديقه بهولا بأهم فروعه وهو الصلاة ثم أكد ذلك بذكر ما يضاده ويخالفه بقوله : (وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى) وأثبت له التكذيب .

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٦٢ .

٣٢ - (وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) :

أى : ومع ذلك أظهر الجحود والتولى عن الطاعة فكذب بالقرآن وأعرض عن الإيمان والعمل بالشريعة .

٣٣ - (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ) :

أى : ثم ذهب إلى أهله يتبختر مباهياً بذلك مختالا مفتخرًا به ، ومن صدر عنه هذا ينبغى أن يخاف من حلول غضب الله عليه فيمشى خائفًا متطامنا لا فرحا متبخترا .

قيل : نزلت الآية فى أبى جهل وكادت تصرح به فى قوله تعالى : (يَتَمَطَّىٰ) فإنها كانت مشيته ومشية قوم من بنى مخزوم .

٣٤ ، ٣٥ - (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) :

(أَوْلَىٰ) من الولى بمعنى القرب فهو للتفضيل فى الأصل ، غلب استعماله فى قرب الهلاك ودعاء السوء كأنه قيل : هلاكا أولى لك ، بمعنى أهلكك الله تعالى هلاكًا أقرب لك من كل شر وهلاك ، واختار قوم أنه أفعل تفضيل ، والتقدير:النار أولى لك أى أنت أحق بها وأهل لها (فَأَوْلَىٰ)[1].

(ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) تكرير للتأكيد ، والظاهر أن الجملة تذييل للدعاء .

قال القرطبى : (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) تهديد بعد تهديد ووعيد بعد وعيد ، فهو وعيد أربعة لأربعة كما روى أنها نزلت فى أبى جهل الجاهل بربه فقال تعالى :

١ - فلا صدق . ٢ - ولا صلى . ٣ - ولكن كذب . ٤ - وتولى .

أى أنه لا صدق رسول الله ، ولا وقف بين يدى ربه فصلى ، ولكن كذب رسول الله وتولى ، فترك التصديق خصلة وترك الصلاة خصلة والتكذيب خصلة والتولى عن الله خصلة ، فجاء الوعيد أربعة (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ...) إلخ ــ مقابلة لترك الخصال الأربعة والله أعلم .

---

(١) أولى فعل ماض مستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق واللام مزيد كما قيل ،وقيل فعل ماض دعائى من الولى أيضا إلا أن الفاعل ضميره تعالى واللام زائدة أى :أولاك الله ما تكره وقيل :اسم فعل مبنى ومعناه وليك شر بعد شر. إه آلوسى .

قيل : إن رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم فاستقبله أبو جهل على باب المسجد مما يلى باب بنى مخزوم فأخذ رسول الله بيده فهزه مرة و مرتين ثم قال : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) ، فقال أبو جهل : أتهددنى ؟ فوالله إنى لأعز أهل الوادى وأكرمه فنزل على رسول الله كما قال لأبى جهل ، وهى كلمة وعيد .

٣٦ - (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) :

أى : أيظن الإنسان أن يترك مهملًا فلا يكلف ولا يبعث ، قال ابن كثير : والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى لا يترك فى هذه الدنيا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا محشور إلى الله فى الآخرة ، والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، والاستفهام إنكارى ، وكان تكريره بعد قوله تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنسانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) لتكريرهم إنكار الحشر مع تضمن الكلام الدلالة على وقوعه ، حيث إن الحكمة تقتضى الأمر بالمحاسن والنهى عن القبائح والرذائل ، والتكليف لا يتحقق إلا بمجازاة ، وهى قد لا تكون فى الدنيا فتكون فى الآخرة ، وجعل بعضهم هذا استدلالًا عقليًا على وقوع الحشر .

٣٧ - (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى) :

استئناف وارد لإبطال الحسبان المذكور فى الآية السابقة فإن مداره : لما كان استبعادهم للإعادة والبعث دفع ذلك ورد عليه ببدء الخلق وكيفية النشأة الأولى فقال :(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى) أى : ألم يك الإنسان ناشئًا من قطرة ماء مهين يمنى ويراق ويصب فى الأرحام فالاستفهام للتقرير .

٣٨ - (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى) :

أى : ثم صار المنى علقة وهى قطعة من دم ثم مضغة وهى قطعة من لحم ثم شكله الله ونفخ فيه الروح وعدله وكمله فصار خلقًا آخر سويًا سليم الأعضاء فى أحسن تقويم بإذن الله وتقديره .

٣٩ - (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) :

(فَجَعَلَ مِنْهُ) : أى : فجعل من الإنسان أو المنى (الزَّوْجَيْنِ) الصنفين والنوعين (الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) بدل من الزوجين ، يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر تارة أخرى .

٤٠ - « أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) :

أليس ذلك العظيم الشأن الذى أنشأ هذا الإنشاء البديع من هذه النطفة الضعيفة قادرًا أن يعيده كما بدأه ، ويحيي الموتى بعد جمع عظامهم للحساب والجزاء ، ولقد جاءت عدة أخبار أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك وبلى ، وفى بعضها سبحانك اللهم فبلى ، ومن حديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :(من قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فليقل بلى) والله أعلم .

سـورة الإنسـان

مدنية وآياتها إحدى وثلاثون نزلت بعد الرحمن
وتسمى سورة الدهر والأبرار والأمشاج ، وهل أتى

مناسبتها لما قبلها :

ختمت السورة السابقة (سورة القيامة) بذكر بعض أطوار خلق الإنسان للدلالة على البعث لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، كما ذكرت جزاء المؤمنين وما أعد من عذاب للكافرين ، وفى هذه السورة (سورة الإنسان) تضمنت الكلام على خلق الإنسان وذكرت ما أعد للعاصين ، وفصلت ما هيأه الله للمتقين .

بعض مقاصدها :

١ ـ بدئت السورة الكريمة بالكلام على خلق الإنسان واختباره بالتكاليف .

٢ ـ بينت السورة بعض أنواع عِقاب العصاة ، وما هُيِّئَ للمتقين من أنواع النَّعيم بتفصيل وإسهاب .

٣ ـ فى السورة أمر للرسول بالصبر لحكم الله وعدم طاعة الكافرين بعد أن امتنت عليه بنزول القرآن .

٤ ـ وضحت السورة أنها عِظَة (وكذلك القرآن) وعلَّقت الانتفاع بها على مشيئته سبحانه وتعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(هَلْ أَتَى) : هل بمعنى قد ، والمعنى قد أتى ، على التقرير والتقريب جميعًا

(الْإِنسَانِ) : آدم ـ عليه السلام ـ أو الجنس من ذريته .

(حِينٌ) : وقت وزمان غير محدود وقد يجىء محدودًا .

وقال الآلوسى : طائفة محدودة من الزمان شاملة للكثير والقليل .

(الدَّهْرِ) : الزمان الممتد غير المحدود ، ويقع على مدة العالم جميعها وعلى كل زمان طويل غير معين .

(مِن نُّطْفَةٍ) : أي من ماء يقطر وهو المنى - وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة .

(أَمْشَاجٍ) : جمع مَشَج بفتحتين كسَبَب وأسباب أو مَشِج بفتح فكسر ككَتِف ، وأكتاف ـ أى أخلاط جمع خِلْط بمعنى مختلط ، يقال : مشجت الشىء إذا خلطته ، وعن مجاهد أمشاج : أى ألوان ، وعن عكرمة وابن عباس أمشاج : أى أطوار .

(هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : بيَّنَّا ووضَّحْنَا له طريق الحق والضلال .

(إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) : إما مؤمنًا وإما كافرًا .

التفسير

١ - (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) :

قال الآلوسى : أصله على ماقيل - أهل- على أن الاستفهام للتقرير ، أى الحمل على الإقرار بما دخلت عليه والْمُقَرَّر والذى يطلب تقريره هو من ينكر البعث ، وقد علم أنهم يقولون : نعم قد مضى على الإنسان حينٌ من الدَّهر لم يكن كذلك ، فيقال فالذى أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته ، وقيل : هل بمعنى قد ، وهى للتقريب ، أى تقريب الماضى من الحال .

والمعنى : قد مضى على الإنسان ومر عليه أزمنة مختلفة قبل أن ينفخ فيه الروح وما كان شيئًا مذكورًا باسم ولا يعرف مايراد منه . والمراد أنه معدوم لم يوجد بنفسه-بل كان الموجود أصله مما لا يسمى إنسانًا ولا يعرف بعنوان الإنسانية ، وقيل : المراد بالإنسان آدم-عليه السلام- وأيد الأول بقوله تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ) ونُقل القول بأن المراد بالإنسان آدم- عليه السلام- عن جماعة منهم ابن عباس ، وحكى الماوردى عنه أن الحين المذكور هنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره ، وروى نحوه عن عكرمة فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه قال : إن من الحين حينًا لايدرك وتلا الآية فقال : والله ما يدرى كم أتى عليه حتى خلقه الله تعالى ، وقيل : إن المراد من الحين مدة الحمل وهى تسعة أشهر .

والذى فهمه أجلة من الصحابة - رضوان الله عليهم- من الآية الإخبار الإيجابى (أى قد أتى).

٢ - (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) :

أى : إنَّا خلقنا الإنسان من نطفة مختلطة ذات عناصر شتى ، ومعنى نطفة مختلطة عند الأكثرين نطفةٌ اختلط فيها وامتزج الماءان ماء الرجل وماء المرأة .

وعن عكرمة وابن عباس (أَمْشَاجٍ) : أى أطوار - أى ذات أطوار مختلفة ، فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة .. وهكذا إلى تمام الخلقة ونفخ الروح (نَّبْتَلِيهِ) : أى نختبره بالتكليف فيما بعد (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) :أى فجعلناه بسبب ذلك الابتلاء ذا سمع يسمع به الهدى وذا بصر يبصر به الحق ليختار الطاعة والمعصية بعد التكليف .

٣ - (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : جملة استئنافية تعليلية لِمَا قبلها فى معنى لأنا هديناه : أى بَيَّنَّا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعث الرسل والآيات الكونية والدلائل النفسية فآمن أو كفر كقوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »[1] ، وقال مجاهد : السبيل إلى الشقاء والسعادة ، وقيل : منافعه ومضاره التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله ، وعن مجاهد وغيره أنهم قالوا : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : أى سبيل الخروج من الرحم (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) : أى أيهما فعل فقد بَيَّنَّاهُ له ، يقال :هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل ، والمشهور الأول أى هديناه إلى ما يوصل إلى البغية فى حالتيه جميعًا من الشكر والكفر .

قال القرطبى : لم يأت بصيغة المبالغة فى الشكر فيقول :(إِمَّا شَكُورًا) كما أتى بها فى الكفر فقال :(وَإِمَّا كَفُورًا) نفيًا للمبالغة فى الشكر وإثباتًا لها فى الكفر ، فإن شكر الله تعالى لا يؤدى على الوجه الأكمل فانتفت عنه المبالغة ولم ينتف عن الكفر المبالغة فقلة شكره لكثرة نعم الله عليه وعجزه عن القيام بشكرها ، وكثرة كفره وإن قل لعظم الإحسان إليه - حكاه الماوردى - اهـ قرطبى بتصرف .

ولَمَّا ذكر الفريقين (الشاكر والكفور) أتبعهما الوعد والوعيد فقال :

---

(١) سورة البلد : الآية ١٠ .

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(سَلَاسِلَ) : قيوداً بها يسحبون فى جهنم .

(وَأَغْلَالًا) : جمع غل – تغل بها أيديهم إلى أعناقهم .

(الْأَبْرَارَ) : جمع بَرّ أو بار ، وهم المطيعون .

(كَأْسٍ) : خمر ، أو زجاجة فيها خمر . قال الراغب : (الكَأْس) : الإناء بما فيه من الشراب ، ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأسًا .

(مِزَاجُهَا) : ما تمزج الكأس به وتخلط .

(كَافُورًا) : ماء كافور .

(يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) : يُجْرُونها حيث شاءوا من منازلهم إجراءً سهلًا .

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) : أى إذا نذروا طاعة فعلوها .

(شَرُّهُ) : عذابه وضرره .

(مُسْتَطِيرًا) : فاشيًا منتشرًا .

(يَوْمًا عَبُوسًا) : اشتد عبوس من فيه ، أو تكلح فيه الوجوه لهوله .

(قَمْطَرِيرًا) : شديدًا صعبًا كأنه التف شره بعضه ببعض .

التفسير

٤ - (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) :

بين سبحانه حال الفريقين وأنه تعبّد العقلاء وكلّفهم ومكّنهم ممّا أمرهم به ، فمن كفر فله العقاب ، ومن وحّد وشكر فله الثواب ، وفى هذه الآية الكريمة يخبر الله عمّا أعدّه وهيّأه للكافرين به من خلقه سلاسلَ يقادون بها فى جهنم ،كل سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا كما فى فى سورة (الْحَاقَّة) ، وأغلالًا تُغَلّ بها وتقييد أيديهم إلى أعناقهم وكان أبو الدرداء يقول : ارفعوا هذه الأيدى إلى الله قبل أن تُغَلّ بالأغلال ، قال الحسن : تجعل الأغلال فى أعناق أهل النار لالأنهم أعجزوا الله ، ولكن إذلالًا لهم ، كما أَعَدَّ تعذيبًا لهم نارًا موقدة مُسَعَّرة بها يُحرقون ، وتقديم وعيدهم مع تأخرهم فى الذّكر فى قوله تعالى : (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) للجمع بينهما فى الذّكر كما فى قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)[1] ، ولأن الإنذار أنسب بالمقام ، وحقيق بالاهتمام ، ولأن تصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أنسب ،ولـمّا ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من العذاب والسعير قال بعده :

٥ - (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) :

شروع فى بيان حسن حال الشاكرين إثر بيان سوء حال الكافرين (وَالْأَبْرَارَ)جمع بار أو بَرّ وهو المطيع المتوسع فى فعل الخير ، وقيل : من يؤدى حق الله ويوفى بالنذر- هؤلاء الأبرار يشربون فى الآخرة من خمر أو من زجاجة بها خمر ،(كَانَ مِزَاجُهَا) : أى ما تمزج

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٠٦ .

بها الخمر وتخلط (كَافُورًا) أى : ماء كافور فى أحسن أوصافه ، وهو اسم عين فى الجنة ، ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبروده لأن الكافور لا يشرب .

٦ ـ (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) :

قال ابن كثير :أى هذا الذى مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج ويروون بها ، وقوله تعالى : (يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) :أى يتصرفون فيها حيث شاءوا ، وأين شاءوا من قصورهم وديارهم ومجالسهم ومحالهم ،ويُجْرونها كما أرادوا إجراء سهلًا لا يمتنع عليهم .

٧ ـ (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) :

استئناف مسوق لبيان ما لأجله يرزقون هذا النعيم. مشتمل على نوع تفصيل لما ينبئ عنه اسم الأبرار إجمالًا ، كأنه قيل : ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية ، فقيل : (يُوفُونَ...)إلخ وأفيد أنه استئناف للبيان ومع ذلك فلعل السر فى أنه عدل عن أوفوا إلى المضارع (يُوفُونَ) للاستحضار والدلالة على الاستمرار .

والوفاء بالنذر : كناية عن أداء الواجبات كلها فإن من أوفى بما أوجبه على نفسه كان إيفاؤه بما أوجبه الله تعالى عليه أهم له وأحرى ، وجعل هذا كناية هو الذى يقتضيه ما روى عن قتادة حيث قال : يوفون بما فرض عليهم من الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من الواجبات ، وعن عكرمة ومجاهد إبقاؤه على الظاهر : أى إذا نذروا طاعة فعلوها ، ولا يخلفون إذا نذروا ، والنذر ما أوجبه المكلف على نفسه من شىء يفعله (وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا): أى يخافون يومًا كان عذابه وضرره البالغ فاشيًا منتشرًا فى الأقطار غاية الانتشار ، من استطار الحريق والفجر ، وفى وصفهم بذلك إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم المعاصى لأنهم يتركون المحرمات التى نهاهم الله عنها خيفة من سوء الحساب يوم الميعاد ، وهو اليوم الذى ضرره خطير وشره مستطير : أى منتشر عام على الناس إلّا من رحم الله . قال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض..

٨ - (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) :

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)أى : ويطعمون الطعام على حب الطعام :أى مع اشتهائه والحاجة إليه والرغبة فيه ، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد .

أو على حب الإطعام : بأن يكون ذلك بطيب نفس وعدم تكلف ، وإليه ذهب الحسن ابن الفضل وهو حسن ، أو على حب الله تعالى ولوجهه سبحانه وابتغاء مرضاته ، وإليه ذهب الفضيل بن عياض وأبو سليمان الدارانى ، ورجح الآلوسى وابن كثير الأول .

قال ابن كثير : والأظهر أن الضمير فى قوله تعالى :(عَلَى حُبِّهِ) عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له ، قال مجاهد ومقاتل واختاره ابن جرير كقوله تعالى : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ »[1] ، وكقوله تعالى : (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »[2] ، وفى الصحيح : (أفضلُ الصدَقةِ أنْ تَصدقَ وأنت صحيحٌ شحيح تأملُ الغنَى وتَخشَى الفقرَ) : أى فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه .

والظاهر أن المراد بإطعام الطعام حقيقته ، وقيل : هو كناية عن الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأى وجه كان وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه ، فكأنهم ينفعون بوجوه المنافع .

(مِسْكِينًا)أى : فقيرًا عاجزًا عن الكسب ، (وَيَتِيمًا) : صغيرًا فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ولا مال له (وَأَسِيرًا) قال سعيد بن جبير وغيره :الأسير من أهل القبلة يكون عند الكفار ، وقال ابن عباس : كان أسراهم يومئذ مشركين ، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء ، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك ، واختاره القرطبى أيضًا ، وقال : ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله غير أنه من صدقة التطوع ،أما المفروضة فلا ،وقال عكرمة هم العبيد ، ولقد وصى رسول الله بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث ،حتى إنه كان آخر ما أوصى به أن جعل يقول : (الصلاة وما ملكت أيمانكم) ، وقيل الأسير : - المحبوس فى حق - وقال مقاتل :نزلت فى رجل من الأنصار أطعم فى يوم واحد مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٧٧ . (٢) سورة آل عمران من الآية ٩٢ .

٩ - (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا) :

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ) أى : إنما نطعمكم لطلب ثواب الله ورجاء جزائه ورضاه قائلين ذلك فى أنفسهم بلسان الحال لما يظهر عليهم من أمارات الإخلاص .

وعن مجاهد : أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى به عليهم أيُرغب فيه راغب ، أو بلسان المقال دَفْعاً وإزاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر وعن عائشة -رضى الله عنها- أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل البيت ثم تسأل الرسول : ماقالوا فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصاً عند الله - عز وجل - .

(لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) أى : لانطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها لا بالأفعال كعوض وهديّة ، ولا بالأقوال كشكر وثناءٍ علينا عند الناس ، وهذا تقرير وتأكيد لما قبله .

١٠ - (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) :

أى : إنا نخاف من ربنا يوماً اشتد عبوسُ وكلوحُ وَجْهِ مَن فيه وقطبوا وجوههم وجباههم من هول شدته وشدة قسوته وصعوبته وطوله ، ووصف اليوم بالعبوس لعبوس أهله ، روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، قال الآلوسى : وهذه الجملة وهى قوله تعالى : (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)جوز أن تكون علة لإحسانهم وفعلهم المذكور ، كأنه قيل : نفعل بكم ما نفعل لأننا نخاف يوماً صفته كيت وكيت ، فنحن نرجو بذلك أن يقينا ربنا-جل وعلا-شر ذلك اليوم ، وأن تكون علة لعدم إرادة الجزاء والشكور ،أى : إنا لانريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة على الصدقة .

١١ - (فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) :

(فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ) أى : فحفظهم الله وصانهم من شدائد ذلك اليوم وآمنهم مما خافوا منه (وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)أى : وأعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة

وحسنا وبهجة ونورًا فى الوجوه وسرورًا فى القلب ، لأن القلب إذا سرَّ استنار الوجه ، قال كعب ابن مالك : (كان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر) .

١٢ - (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) :

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا) أى : وكافأهم وأعطاهم بسبب صبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس فى اجتناب المحرمات (جَنَّةً) بستاناً عظيماً يأكلون منه ما شاءوا (وَحَرِيرًا) لباساً حسناً ناعم الملمس يلبسونه ويتزينون به ، وهذا يدل على أن الآية بسبب صبرهم أدخلهم الله الجنة وألبسهم الحرير عوضاً عن حرير الدنيا .

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾)

المفردات :

(الْأَرَائِكِ)[1] جمع أريكة وهى سرير منجد مزين فى قبة أو بيت وقيل : الأرائك : الفراش على السرر .

(زَمْهَرِيرًا) : بردًا شديدًا أو قمرًا .

---

(١) وقيل : الأرائك : هى كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة ، وكانت تسميته كذلك لكونه مكانا للإقامة أخذا من قولهم : أرك بالمكان أروكا : أقام ، وأصل الأروك : الإقامة على رعى الأراك وهو الشجر المعروف ثم استعمل فى غيره من الإقامات . ا هـ آلوسى .

(دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) : قريبة منهم ظلال أشجارها .

(وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً) : أدنيت وسخرت ثمارها لهم ، والقُطُوف : الثمار جمع قِطْف بكسر القاف سمى به لأنه يقطف .

(بِآنِيَةٍ) : الآنية جمع إناءٍ ككساءٍ وأكسية وهو ما يوضع فيه الشيء ، والأوانى جمع الجمع .

(وَأَكْوَابٍ): جمع كوب وهو قدح لاعروة له كما قال الراعب ، وفى القاموس:كوز لا عروة له أو لا خرطوم له .

(قَوَارِيرَ) : جمع قارورة وهى إناءٌ رقيق من الزجاج يوضع فيه الأشربة .

(قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)أى : قدرها السُّقاة أو الشاربون فى أنفسهم فجاءت كما قدروا لاتزيد على ذلك ولا تنقص .

(زَنجَبِيلاً): قال الدينورى : الزنجبيل نبت فى أرض عمان وهو عروق تسرى فى الأرض وليس بشجرة يوجد لذعا فى اللسان إذا مزج بالشراب ، وعن قتادة ومجاهد اسم لِعَيْنٍ فى الجنة (سَلْسَبِيلاً) قال القرطبى : السلسبيل : الشراب ، اللذيذ وهو فَعْلَلِيل من السلاسة تقول العرب هذا شراب سلسل وسَلِسل وسلسال وسلسبيل بمعنى- أى :طيب الطعم لذيذه . وفى الصحاح ماءٌ سلس وسلسال سهل الدخول فى الحلق لعذوبته وصفائه .

التفسير

١٣ - (مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا) :

يخبر الله عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أُسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال : متكئين فى الجنة على السرر وهم فى تمام الراحة والنعيم (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيرًا) أى : لايجدون فى الجنة حرًّا شديدًا يؤذى ولا بردًا قارساً يؤلم ، فهواؤها معتدل وفى الحديث هواءُ الجنة سجسج لاحر ولا قُرّ ،وقيل :الزمهرير:القمر فى لغة طيء ، والمعنى على هذا أن الجنة ضياءٌ ونور لايحتاج فيها إلى شمس ولا إلى قمر .

١٤ ـ (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا) :

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) أى : قريبة منهم ظلال أشجارها ، والمراد أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم وذلك زيادة فى نعيمهم (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا) . أى : سُخِّرت ثمارها لتناولها ، وسهل أخذها ، من الذُّل ضد الصعب . قال قتادة ومجاهد وسفيان : إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة ، وإن كان قاعدًا أو مضجعاً فكذلك فهذا تذليلها لايَرُدُّ اليد عنها بُعْدٌ ولا شوك ، قال الماوردى وذكره القرطبى : يحتمل أن يكون تذليل قطوفها . أن تبرز لهم من أكمامها وتخلص لهم من نواها .

١٥ ، ١٦ ـ (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) :

أى : ويدور الخدم فى الجنة على هؤلاء الأبرار بأوانى الطعام وأوعيته وهى من الفضة وبأكواب الشراب كُوِّنت قوارير شفافة ، قوارير مخلوقة ومصنوعة من فضة فلها بياض الفضة وحسنها وصفاءُ القوارير وشفيفها ، قال ابن عباس وغيره فى هذه الأكواب : هى من الفضة ومع هذا شفافة يُرى مافى باطنها من ظاهرها وهذا مما لا نظير له فى الدنيا .

قال الآلوسى : أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : ليس فى الجنة شىء إلا أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة ، قال الزمخشرى : ومعنى (كانت) فى الآية الكريمة هو من (يكون) فى قوله تعالى : « كُن فَيَكُونُ »[1] أى : تكونت قوارير بتكوين الله تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفة الجوهرين المختلفين .

(قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) أى : قدروا تلك القوارير فى أنفسهم فجاءت حسبما قدروا واشتهوا وتمنَّته أنفسهم ، والضمير فى قدروها للأبرار المُطَاف عليهم ، أو قدروا شرابها على قدر الرى وهو ألذ للشارب ـ قال ابن عباس : أتوا بها على الحاجة لا يفضلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً ، وعن مجاهد تقديرها أنها ليست بالملأى التى تفيض ولا الناقصة التى تغيض فالضمير على ماهو الظاهر للسقاة الطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى : (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ) .

---

(١) سورة مريم الآية ٣٥ .

١٧ ـ ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ :

أى : ويسقى الأبرار فى الجنة فى هذه الأكواب خمرًا كان يُمْزَج بها ويُخْلط الزنجبيل فتارة يمزج الشراب للأبرار بالكافور وهو بارد ، وتارة يمزج بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر ، وأما المقربون فإنهم يشربون من الكافور والزنجبيل صرفاً ، قال قتادة وغيره : وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته ولأنه يُحْذِيها لذعاً فى اللسان ويهضم المأكول ولهذا يذكرون فى وصف رضاب النساء فَرُغِّبُوا فى نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب ، وقال قتادة ، الزنجبيل اسم للعين التى منها شراب الأبرار .

١٨ ـ ﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ :

أى : عينًا فى الجنة تسمى سلسبيلا لطيب شرابها وسهولة مساغه ، وانحداره فى الحلق بسهولة ويسر ، قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة اسم لما كان فى غاية السلاسة فكأن العين سميت بصفتها ، وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميت سلسبيلا لأنها تسيل عليهم فى الطرق وفى منازلهم .

وقال الزمخشرى : سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه (وَسَلْسَبِيلاً) لسلاسة انحدارها فى الحلق وسهولة مساغها ، يعنى أنها فى طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة ، يقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل وقيل : تسمى (سَلْسَبِيلاً) أى : أنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم جعلنا الله من أصحابها بمَنِّهِ وكرمه آمين .

* ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

المفـــردات :

(يَطُوفُ) من قولهم : طاف بالشىء : دار حوله ، ومنه الطائف ، وهو الذى يخدمك برفق وعناية .

(وِلْدَانٌ) : جمع وليد ، وهو الصبى والعبد .

(مُخَلَّدُونَ) : باقون دائمون لا يهرمون ، وقيل : غير ذلك .

(ثَمَّ) : هناك فى الجنة .

(سُندُس) : مارقَّ من ثياب الحرير .

(إِسْتَبْرَقٌ) : ما غلظ من ثياب الحرير .

(طَهُورًا) : بالغًا فى الطهر غايته ، وقيل : غير ذلك وسيأتى .

(مَشْكُورًا) : مقبولًا لدى الله مُثابًا عليه منه .

التفسير

١٩ - (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا) :

أى : ويدور حولهم ويقوم على خدمتهم بلطف ورفق وحسن عناية غلمان وصبيان ؛ ولعل الحكمة فى أن الله فطرهم وخلقهم على تلك الصورة .

أنهم فى سنهم هذه يكونون أخف فى الخدمة وأسرع فى الاستجابة ؛ تلبية لمخدوميهم وإرضاء لهم ، وهم مع ذلك باقون ودائمون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقيل : مزينون ومحلَّوْنَ بالأساور والأقراط ليكون ذلك أدخل فى إيناس مخدوميهم ، وإذا نظر إليهم ورآهم أى راء ظنهم وحسبهم - لفرط حسنهم وجمالهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وتفرقهم فى مجالس مخدوميهم - ظنهم دُرًّا منثورًا مفرقًا فى جنبات المجلس وباحاته وساحاته فالدر المنثور يكون أكثر صفاء منه منظومًا فى سلك ، أو مسلوكًا فى خيط .

وفى التعبير بلفظ : (إِذَا رَأَيْتَهُمْ) للدلالة على حصول هذا الأمر ووقوعه ، أى أنه حاصل لامحالة .

٢٠ - (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) :

أى : وإذا نظرت أيها الرائى هنالك فى الجنة التى عرضها السموات والأرض رأيت من أنواع النعيم وألوانه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم يتوج ذلك ويجمله ويرتفع ويسمو به أن وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة .

(وَمُلْكًا كَبِيرًا): والملك الكبير ينظر فيه صاحبه فيرى أقصاه كما يرى أدناه ، يبصر فيه ما يملؤه بهجة ويزيده سرورًا ، وأى ملك أكبر وأبهى من ملك تدخل عليهم الملائكة فيه من كل باب قائلة تحية لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ » ويرسل الله لهم ملائكته بالتحف والحلل ويدعوهم إلى النظر إلى وجهه الكريم . فسبحانك ربى صاحب الفضل العظيم والعطاء الجليل ، ما أكثر منّك وما أجلَّ نعمك .

٢١ - (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) :

أى : ويعلوهم ويجمل أبدانهم ثياب من رقيق الحرير ، وثياب أُخرى فوقها من عظيمه وغليظه لونها أخضر ، ليكون ذلك أكمل لسرورهم ؛ لأن الخضرة تكسب النفس اطمئنانًا وتملأُ الجوانب فرحًا وحبورًا ، كما يزينهم ويجملهم بالحلىِّ من أساور الفضة . هذا وقد جاء فى آيات أُخرى أنهم يحلون بالذهب واللؤلؤ ، وذلك إما أن يكون على المعاقبة فتارة يحلَّون بهذا وتارة يحلَّون بذاك أو كانت الزينة هنا بالفضة ليناسب ذلك ويتوافق مع مايطاف به عليهم من آنية الفضة وأكوابها (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ) :وذلك ليكمل التناسق ويتم التوافق بين مايأكلون ويشربون فيه ، ومايلبسون ويتزينون به ، وقيل : يكون لكل قوم ماتميل إليه نفوسهم ، أو أنه يجمع لهم بين الذهب والفضة واللؤلؤ .

(وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) أى : وكما جمل ظاهرهم باللباس والحلى طهر باطنهم بشراب قد تناهى فى الطهر وبلغ فيه الغاية حتى إنه يطهر سواه وينقيه ويُذْهِبُ ما به من كَدَر وأذى وقذر وغل وحسد لِيَكْمُلَ ويَتمّ لهم جمال الظاهر ونقاء الباطن . وفى تفسير الإمام القرطبى : قال علىٌّ - رضى الله عنه - فى قوله تعالى : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرُّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما فتجرى عليهم نضرة النعيم ، فلا تتغير أبشارهم ولا تتشعث أشعارهم أبدًا . ثم يشربون من الأُخرى فيخرج مافى بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » .

وفى نسبة السقى إلى الله - سبحانه - فى قوله : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ) مايدل على مزيد فضل هذا الشراب على ماسواه من الكافور والزنجبيل والسلسبيل ؛ إذ إنه إتحاف منه - جل شأنه - دون وساطة أحد من خلقه .

٢٢ – (إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) :

أى : إن هذا الذى أنعم الله به عليكم فى الجنة كان جزاءً وثوابًا على ما قدمتم من أعمال صالحة وأفعال مبرورة فى دنياكم ، نظيره قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »[1] .

يقال لمن يعاقب : هذا بعملك السيء الردئ فيزداد غمه وألم قلبه ، ويقال للمثاب : هذا لك بطاعتك ، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة فى سروره .

(وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) أى : وكان عملكم الذى عملتموه فى الدنيا مقبولاً لدى الله ومرضيًّا منه – سبحانه – فيكون بهذا قد جمع الله لعباده الطائعين بين منزلة رضاهم عن ربهم بالثواب العظيم فى الجنة : وبكونه – عز شأنه – رضى عنهم بقبول عملهم وشكرهم عليه فتكون نفوسهم فى تلك الحالة قد وصلت إلى أنها راضية مرضية ، وهذه هى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ؛ فكانت جديرة أن يختم الله بها مراتب الأبرار وأحوال المتقين والصديقين الأطهار .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾)

المفـــردات :

(آثِمًا) : ذا إثم وذنب ، أو المبالغ فى ارتكاب الذنوب .

(كَفُورًا) الكفور : المتناهى فى الكفر الداعى إليه .

(بُكْرَةً) : أول النهار .

(أَصِيلًا) : الأصيل : هو الوقت بعد العصر إلى المغرب .

٢٣- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ :

أى : إننا نحن - لا غيرنا - قد نزلنا عليك هذا القرآن العظيم فهو من لدنَّا ، وما افتريتَه ولا جئتَ به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يدَّعى المشركون والمكذبون ذلك ويزعمون أنه من عندك ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وقد أُنزل هذا الكتاب الجليل الكريم بما يشتمل ويتضمن ما يحتاج إليه الناس فى أمر معاشهم ومعادهم ، وليس بسحر ولا كهانة ولا شعر ، بل إنه الحق ، وفى ذلك من إزالة الوحشة الحاصلة لرسول الله ﷺ بسبب طعن الكفار فى القرآن الكريم ، فيكون المعنى : إذا كان بعض الجهال قد طعن فيما أنزلته عليك إلَّا أن جبار السموات والأرض قد عظمه وصدقه .

قال الإمام ابن عباس : أنزل الله القرآن مفرقًا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة ؛ فلذلك قال : ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ .

٢٤- ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ :

أى : فاحبس نفسك واصبر على كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفًا خاصًا بك من العبادات والطاعات ونحوها ، أو متعلقًا بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة وتحمل المشاق الحاصلة والناشئة عن ذلك .

﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أى : ولا تتبع سبيل من كان منهم مغرقًا فى الإثم مفرطًا فيه ولا من تناهى فى الكفر ودعا إليه ، سواء أُريد شخص بعينه أو كان مرادًا به كل آثم وكفور . وقد جاءت ﴿ أَوْ ﴾ هنا للعطف بدل الواو ؛ للإيذان بأن كلاًّ من الآثم والكفور وحده حقيق وجدير أن يُعصى ولا يُطاع ؛ فكيف وقد جمع بينهما فى النهى عن طاعتهما معًا .

قال الزجاج : إن ﴿ أو ﴾ هنا أوكد من الواو ؛ لأنك إذا قلت لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص ، فإذا أبدلتها بأو فقد دللت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، ويعلم منه النهى عن إطاعتهما معا كما لا يخفى .

٢٥- ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ :

أى : وداوم على ذكر ربك بلسانك مستحضراً ربوبيته ورعايته لك وأنك مخلوق له يقوم على أمرك ويتولى شأنك إذ هو قيوم السموات والأرض ، وأن يكون الذكر فى أول النهار مبتدئًا به يومك ليعمك الخير وتُهدى إلى البر ويشملك التوفيق ، وتذكره كذلك فى وقت الأصيل وهو من العصر إلى المغرب ، أو من الزوال إلى غروب الشمس ، أى : املأ نهارك كله بذكر الله .

٢٦- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ :

أى : وفى جزء من الليل اخضع لربك وصلِّ له واقترب منه ؛ فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، وقيل : المراد من الذكر فى البكرة صلاة الصبح ، وفى الأصيل صلاة الظهر والعصر ، ومن قوله : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ صلاة المغرب والعشاء .

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أى : سبح ربك وقَدِّسْهُ ونَزِّهْهُ عمَّا لا يليق بجنابه الكريم ، ومقامه السامى الرفيع فى هزيع وجزء من الليل ؛ لأن الليل وقت المناجاة ، وصفاء النفس ، والبعد عن شواغل الحياة ، وهو أيضًا وقت نزول الرحمات ، وبخاصة فى آخره - فإن رحمة الله تنزل إلى سماء الدنيا ليغفر ربنا - سبحانه - لمن استغفره ، ويعطى من سأله ، ويستجيب لمن دعاه ، ولعل المراد من السجود المأمور به فى الآية هو صلاة الليل وهى التهجد الذى هو مندوب إلَّا فى حقه ﷺ فإنه واجب عليه ، اختصه الله به ليرفعه إلى الدرجات العلا والمنزلة العظمى ، قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا »[1] .

---

(١) الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

(إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾)

المفــــردات :

(الْعَاجِلَةَ) : الدنيا .

(يَوْمًا ثَقِيلًا) : عسيرًا شديدًا وهو يوم القيامة .

(وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ) الأَسر فى الأَصل : هو الشد والربط ، والمراد : وأحكمنا ربط أجزائهم بعضها ببعض .

التفسير

٢٧ - (إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) :

هذا تقريع وتوبيخ للمشار إليهم وهم أهل مكة ، وقيل : إنها نزلت فى يهود ، أى أنهم بسبب الشهوة والمحبة لهذه اللَّذات الجسدية والمتع الدنيَّة البدنية يفرحون ويحبون الدنيا العاجلة التى تُؤذِنُ بانصرام ، وتُعْلِمُ بانقضاء وانتهاء ، ويتركون ويدعون خلف ظهورهم دون انتباه إليه أو التفات نحوه يدرون يومًا شديدًا عسيرًا يثقل حمل مافيه ، ويضعف الإنسان عن تحمل مشاقه وصعابه وهو يوم القيامة ومافيه من نشر وحشر وحساب .

٢٨ - (نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا) :

أى : نحن - لا غيرنا - خلقناهم من طين بدءًا من آدم - عليه السلام - وفى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ، وأعطيناهم القُوَى والقُدَرَ وشددنا وربطنا مفاصلهم وأوصالهم بعضهم ببعض ربطناها بالأَعصاب والعروق ، وذلك فى إحكام حكيم وربط وثيق لا يهتدى إليه أحد

سوانا ، فكل المخلوقات قَهْر عظمتنا ، والأَسر فى الأَصل : هو الشد والربط ، وأُطلق على مايشد ويربط به ، وكانت الأَعصاب والعروق للشد والربط لأَنها تشبه الحبال التى يربط بها ، والمراد : شدة الخلق وكونه موثقًا حسنًا ، قال تعالى : « الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ »[١] والكلام هنا جاء للامتنان وبيان فضل الله عليهم ، وذلك بإسداء النعم الجليلة التى قابلوها بالمعصية ، أى : سويت خلقكم وأحكمته ومددتكم بالقوى وكَرَّمتكم ثم تكفرون بى ؟!

(وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا) : هذا تهديد لهم بالإهلاك ، أى : وإذا أردنا إهلاكهم وتدميرهم جئنا بأَمثالهم فى شدة الخلق وإحكام الصنع ممن يطيعنا ويمتثل أمرنا ؛ فقدرتنا صالحة لذلك لايتأَبَّى عليها شىءٌ من الممكنات ما دامت إرادتنا قد تعلقت به .

(إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾)

المفردات :

(تَذْكِرَةٌ) : موعظة .

(سَبِيلًا) : طريقًا إلى مرضاة الله .

(أَعَدَّ لَهُمْ) : هيأه لهم .

---

(١) الآية ٦ من سورة الانفطار .

٢٩ - (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) :

أى : إن هذه السورة بما فيها من الترتيب العجيب والنسق البديع والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب تذكرة وموعظة للمتأملين ، وتبصرة للمستبصرين ، فمن شاء وأراد الخير لنفسه فى الدنيا والآخرة اتخذ وسلك طريقًا إلى ربه بالتقرب إليه بما يحبه ويرضاه .

٣٠ - (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) :

أى : لايقع ما تريدونه ولا يتم ما تشاءونه بإرادتكم ؛ فأعمالكم التى لكم فيها الاختيار لا تتم ولا تقع وفق اختياركم لها ، وإنما ذلك مرهون وموقوف على مشيئة الله لذلك ، فما شاء - سبحانه - كان وحصل ، وما لم يشأ لا يكون ولا يحدث ، قال تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »[1] . وقال ابن كثير : لا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل فى الإيمان ، ولا يَجُرّ لنفسه نفعاً إلاَّ بمشيئته - تعالى - .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيمًا) أى : أنه - سبحانه - حكيم فى تدبيره يحيط إحاطة تامة ويعلم علمًا كاملاً بمن هو أهل لأن يمنحه الهداية ويذلل له طريقها فييسرها له ، كما يعلم - جل شأنه - من ليس أهلا لإكرامه وإنعامه - وقد اختار الضلالة وآثر المعصية - فييسر له سبيل الغواية ، ويمهد له طريق الضلال ، قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ »[2] :

٣١ - (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

هذه الآية كالمترتبة على ما سبق من قوله تعالى : (وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ) أى : أن دخول الجنة يكون بمحض مشيئته وفضله ورحمته - سبحانه - وأن تعذيب الله للظالمين من عصاة وكافرين يكون أيضاً بعدل الله وإرادته ؛ فلا مكره له - سبحانه - وقد أعد وهيأ لهؤلاء الفاسقين الظالمين عذاباً موجعًا شديد الإيلام ينتظرهم وهو - جل شأنه - لامعقب لحكمه ولا راد لقضائه وهو أحكم الحاكمين .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

سورة المرسلات

مكية ، وآياتها خمسون

هذه السورة الكريمة من السور الخمس التي قال فيها رسول الله ﷺ : « شيبتني هود وأخواتها » وهذه السور هي : هود ، والواقعة ، والمرسلات ، والنبأ ، والتكوير ؛ وذلك لما في تلك السور من إظهار عدل الله المطلق وبطشه ، وشديد عذابه ، وقوة سلطانه .

قال ابن مسعود : نزلت تلك السورة على رسول الله ﷺ ليلة الجن ونحن نسير معه حتى أوينا إلى غار بمنى فنزلت ، فبينما نحن نتلقاها منه وإن فاه لرطب بها - إذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت ، فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : (وقيتم شرها كما وقيت شركم) وهذا الغار يعرف بغار المرسلات .

وهذه السورة هي التي قرأها رسول الله ﷺ في صلاة المغرب وما صلى بعدها حتى قبض[1] .

صلتها بما قبلها :

أن الله قد ذكر في آخر سورة الإنسان طرفاً من تهديد الكفار بالعذاب في الآخرة « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً » وأتى في أول سورة (والمرسلات) بمزيد من الوعيد والعذاب للكفار حتى استغرق هذا أكثر السورة ، وذلك من أولها إلى الآية الأربعين ، فكأن هذه الآيات من سورة (المرسلات) امتداد لآخر سورة الإنسان ، كما أن سورة الإنسان قد ضم أكثرها جزاء المحسنين بدءا من الآية الخامسة « إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا » إلى الآية الثانية والعشرين : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا » .

وفي سورة والمرسلات جاء ذكر ثواب المتقين في صورة مجملة : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ...) فالسورتان تلتقيان في وعد المؤمنين ووعيد الكافرين .

---

(١) حديث قراءته - صلى الله عليه وسلم - في المغرب بالمرسلات وهي آخر صلاة صلاها متفق عليه من حديث أم الفضل.

اهم مقاصد السورة :

١ ـ جاء أولها مبيناً لعظيم قدرة الله وأنه هو ـ سبحانه ـ المالك لجميع خلقه ، يرسل ماشاء على من يشاء ، وينشر من شاء فى فسيح ملكه وملكوته ، وينزل الرحمة والآيات بوساطة الذين يريدهم ويختارهم من خلقه على من اصطفى من عباده وارتضاهم لرسالته : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ...) .

٢ ـ جاءت السورة بعد ذلك تهدد المكذبين وتبين لهم أن الله أباد وأهلك قوماً بعد قوم من الضالين المكذبين : (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ..) .

٣ ـ أبانت السورة الكريمة أن أمر العباد إليه وحده من أول خلقهم إلى نهاية آجالهم : (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) :

٤ ـ ذكرت السورة بعضاً من نعم الله على عباده ، ثم أنذرت من كذب منهم بالعذاب الشديد :

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا) . إلى قوله تعالى : (فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) .

وكان ختام السورة ضرباً من إرخاء العنان للمكذبين المجرمين وإمهالهم ليتمتعوا ويأكلوا ثم تكون عاقبتهم الويل والثبور والهلاك والبوار (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧))

المفردات :

(وَالْمُرْسَلَاتِ) : الريح ، وقيل غير ذلك .

(عُرْفًا) : متتابعة بعضها فى إثر بعض .

(فَالْعَاصِفَاتِ) : الريح الشديدة .

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) : الملائكة تنشر أجنحتها عند نزولها ، أو تنشر وتحيى نفوس الجهلة والكفار ، وقيل غير ذلك .

(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا) : الملائكة تفرق بين الحق والباطل .

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا) : الملائكة تلقى الوحى من عند الله وتنزل به على أنبيائه .

(عُذْرًا) : من عذر : إذا محا الإساءة ، وقيل غير ذلك .

(نُذْرًا) : من أنذر : إذا خوَّف .

التفسير

١ – ٧ – (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) :

أقسم الله – سبحانه – فى أول تلك السورة الكريمة بأشياء عظيمة من خلقه ذكر – عز وجل – صفاتها ولم يذكر أسماءها ، لذا اختلف المفسرون فى تعيينها وبيان المراد منها اختلافاً كثيراً ،

والذى يتضح أن المقسم به هنا شيئان ، وهما : الريح ، والملائكة ؛ لأن الله قد فصل بينهما بالعطف بالواو لإشعار ذلك بالمغايرة ، لأن الشأن أن يكون المعطوف بالواو غير المعطوف عليه .

أقسم - عز شأنه - أولاً بالريح المرسلة على الكفار لعذابهم واستئصالهم ، والريح - كما بين القرآن الكريم - يرسلها الله للعذاب ، قال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[١] كما توصف الريح بالعصف - وهو الشدة - لإهلاكها من ترسل عليهم ، أولأنها تأتى بالعصف.وهو ورق الزرع وحطامه ، أو تُنْعَتُ بذلك لسرعتها فى مُضِيِّهَا لتنفيذ أمره قال تعالى : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا »[٢] ويجوز أن يراد من المرسلات ما يشمل ويضم - أيضا - رياح الرحمة التى تسوق وتثير السحاب وتلقح النبات وتكون مبشرات بالخير ؛ لأن هذه الرياح قد ورد فى القرآن الكريم أن الله يرسلها كما يرسل ريح العذاب ، قال تعالى : « اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »[٣] وقال : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ »[٤] وقال :- « وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ »[٥]. فكل من ريح العذاب ورياح الخير والرحمة جند من جند الله « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ »[٦].

هذا ، وعطف العاصفات على المرسلات بالفاء للإيذان والتنبيه على أنه من عطف الصفات أى : من عطف صفة على صفة أخرى لموصوف واحد .

---

(١) من الآية ١٦ من سورة فصلت .
(٢) من الآية ٨١ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية ٤٨ من سورة الروم .
(٤) من الآية ٢٢ من سورة الحجر .
(٥) من الآية ٤٦ من سورة الروم .
(٦) من الآية ٣١ من سورة المدثر .

وأقسم - سبحانه - ثانياً بالملائكة وهى من أشد خلق الله قوة ، ووصفها بالناشرات لأنها تنشر أجنحتها فى الجو عند نزولها بالوحى ، أو لنشرها وإحيائها النفوس التى تشبه الموتى بسبب مافيها من الكفر والجهل ، وذلك بما تنزل به من لدن ربها على الأنبياء والرسل من الوحى الذى تحيا القلوب به ، كما نعتها بالفارقات لأنها تفرق بين أصالة الحق وزيف الباطل ، وذلك بما تنزل به من عند ربها إلى الرسل ، ووصفها كذلك بالملقيات ذكرا لإلقائها الذكر وهو الوحى على الأنبياء ليبلغوا ذلك لأممهم إعذارًا وإنذارًا ، وهنا أيضاً عطف (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً) و (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا) على (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) لبيان أن تلك الصفات لموصوف واحد وهم الملائكة .

والمعنى : أقسم - سبحانه - بكل من الريح التى يرسلها لعباده عذابًا لهم أو رحمة بهم متتابعة ومتتالية كالعرف وهو ما يكون من شعر وريش على العنق من الفرس ونحوه ، وأقسم - كذلك - بالملائكة التى تنشر أجنحتها عند النزول بأمر الله أو تنشر رحمته وتفرق بين الحق الأبلج والباطل الزائف « عُذْرًا » أى : تلقى بالوحى على رسل الله لإزالة إساءة المسيئين الذين : أخلصوا التوبة وأنابوا إلى ربهم ، وذلك بقبول الله لأعذارهم ، قال الراغب : عذرت فلاناً : أزلت نجاسة ذنبه بالعفو عنه ، كقولك : غفرت له ، أى : سترت ذنبه .

أو المراد أن الله يزيل عذرهم ويقطع حجتهم التى قد يحتجون بها لدى الله كادعائهم أن الله لم يرسل لهم من يرشدهم ويهديهم ، فأرسل إليهم الرسل وذلك على حد قوله : « رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[1] . (أَوْ نُذْرًا) أى : لإنذار المبطلين والعصاة وتخويفهم وترهيبهم .

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ): هذا هو جواب القسم ، أى : إن الذى توعدون به على لسان الرسل من مجىء يوم القيامة وما فيه من نشر وحشر وحساب ثم إلى جنة أو إلى نار هو واقع بكم ونازل عليكم لا محالة لأنه الحق .

---

(١) من الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(طُمِسَتْ) : محقت ومحيت .

(فُرِجَتْ) : فتحت وشقت فكانت أبواباً .

(نُسِفَتْ) : فرقتها الريح بسرعة .

(أُقِّتَتْ) : بلغت وانتهت إلى ميقاتها الذى كانت تنتظره ، وهو يوم القيامة .

(أُجِّلَتْ) : أُخِّرَتْ .

(وَيْلٌ) : هلاك ، وقيل : هو واد فى جهنم .

التفسير

٨- ١٥ - (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

هذا بيان لأمارات يوم القيامة وعلامات عليه ، أى : إذا النجوم قد ذهب ضوؤها ومحى نورها ، أو محقت ذواتها وانتثرت وانكدرت ، وإذا السماء فتحت وشقت وتصدعت فكانت أبواباً ، وإذا الجبال نسفت كما ينسف الحب بالمنسف ، وذلك كقوله تعالى : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا » وقيل : إزالتها من مقارّها وأماكنها بسرعة ، من : انتسفت الشىء :

إذا اختطفته ، وإذا الرسل بلغت ميقاتها الذى كانت تنتظره وهو يوم القيامة ، أو : وإذا الرسل عُين وحُدد لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أممهم ، إذا حصل هذا ووقع ما سبق كان ذلك أمارة وعلامة على أن القيامة قد أظلتهم ونزلت بهم ، فهذه الأمور هى مقدماتها وسابقتها .

(لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ) الضمير فى قوله : (أُجِّلَتْ) راجع إلى ما جاءت به الرسل - عليهم السلام - أى : لم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل من تعذيب الكفرة وتنعيم المؤمنين وما كانت الرسل تذكره وتحدث به من أمور الآخرة وأحوالها وأهوالها ؟ ويجوز أن المراد من الضمير (أُجِّلَتْ) لما سبق من طمس النجوم وتشقق السماء ونسف الجبال وتأقيت الرسل . وهذه الآية الكريمة جاءت وسيقت على طريق الاستفهام الذى يفيد التعظيم والتعجيب من هول وشدة ذلك اليوم (لِيَوْمِ الْفَصْلِ) أى : أجلت هذه الأمور ليوم الفصل والقضاء بين الخلائق ، وذلك مثل قوله تعالى : (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)[1]

(وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) : هذا تهويل وتعظيم آخر ، أى : وما أعلمك بيوم الفصل وشدته ومهابته وقوة وقعه على النفوس (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) : وهذا أيضاً تهويل ثالث لما يحدث فى هذا اليوم ، أى : هلاك كبير وبوار عظيم للمكذبين بالتوحيد والجاحدين للنبوة والمعاد ، وبكل ما ورد عن الأنبياء والرسل وأخبروا به .

وجاءت هذه الآية : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) فى السورة الكريمة عشر مرات ، ولعل سر تكرارها أنها تذكر فى كل مرة متصلة بالجرم والذنب الذى جاءت للتحذير والتخويف منه والتهديد والوعيد عليه ، فيكون لها بذلك أكبر الأثر فى الزجر والمنع ؛ لأن الذنب إذا قارنه عقابه واتصل به عذابه كان ذلك آكد فى الزجر وأقوى فى الردع ، وأدعى إلى البعد والتنائى عنه .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الدخان .

هذا والمعهود فى مثل هذا المقام أن تأتى كلمة (ويل) وما يماثلها منصوبة على أنها مصدر ساد مسد فعله ، أى : نائب عنه يقصد به الدعاء ، كأن يقال مثلا : ويلا لهم ، أى هلاكا لهم ، ولكنه عدل به إلى الرفع على الابتداء « ويل » للدلالة على أن الهلاك والثبور ثابت لهم ودائم عليهم لا يزايلهم ولا يتجاوزهم ؛ لأن الجملة الاسمية - كما هو معروف - تدل على الثبوت والدوام .

ومعلوم أن هذه الآية فى كل مرة قد جاءت مهددة ومنذرة من ذنب وجرم غير الذى جاءت به فى أى من المواضع الأُخرى .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى عند تفسير هذه الآية : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) ما نصه : وكرره فى هذه السورة عند كل آية لمن كذّب ، لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشىء عذاباً سوى تكذيبه بشىء آخر ، ورُبَّ شىء كذّب به هو أعظم جرماً من تكذيبه بغيره لأنه أقبح فى تكذيبه وأعظم فى الرد على الله ، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك وعلى قدر وفاقه وهو قوله : (جَزَاءً وِفَاقاً) اهـ .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ جهنم فلم أر فيها وادياً أعظم من الويل » وعلى كل حال فمآل الكافرين الهوان والعذاب والثبور والهلاك .

(أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(أَلَمْ) : هذا استفهام عن انتفاء إهلاك الله للمجرمين ، جاء على وجه الإنكار ، فأفادَ إثبات الإهلاك وإيجابه ، فكان معناه : أهلكنا الأولين . وقال الراغب : (لم) نفىٌ للماضى وإن كان يدخل على الفعل المستقبل ، ويدخل عليه ألف الاستفهام للتقرير .

(ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ) أى : نلحق الآخرين بالأولين .

التفسير

١٦ – ١٩ – (أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أي : قد أهلكنا الأولين السابقين جميعاً ممن كذبوا بالرسل ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ، وإهلاكُهم وتدميرُهم أمر ثابت مقرر قد وقع وحصل .

(ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ) : هذا وعيد وزجر لأهل مكة ومن على شاكلتهم من المشركين والكافرين ، أى : سنفعل بكم مثل هذا النكال ، وننزل بكم نظير هذا العذاب إن بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك والضلال ، فهذه هى سنتنا وطريقتنا فى عقاب كل من يجرم ويكفر : نأخذه ونهلكه مثل إهلاكنا من سبق من المجرمين المكذبين ، وعلى هذا فالمراد من (الْأَوَّلِينَ) كل من كذّب من الأمم السابقة ، والمراد من (الْآخِرِينَ) هم أهل مكة وأضرابهم .

وقيل المعنى : إننا أهلكنا الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ، ثم فعلنا ذلك بالآخرين ممن أتى بعدهم ونهج نهجهم كقوم شعيب وقوم لوط وقوم موسى ، ومثل ذلك الفعل الباطش الشديد والعذاب الأليم نفعل بكل مجرم عات جبار ، وعلى هذا الرأى الأخير يكون المقصود من (الْأَوَّلِينَ) أقواماً سبقوا بالكفر كقوم نوح وغيرهم ، وبالآخرين أقواماً سواهم ممن سلف من المجرمين كقوم شعيب ولوط ومن كان يناظرهم ، ويكون قوله تعالى : (كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) قد جاء إنذاراً وتخويفاً من عاقبة الكفر وسوء أثره كى يرتدع وينزجر أهل الشرك والكفر بعد بعثته ـ ﷺ وإلاّ كان مآلهم التدمير والهلاك ؛ لأن الله قد أهلك من أهلك لكونهم مجرمين ، فهذا الحكم عام فى جميع المجرمين ؛ لأن عموم العلة ـ وهى الإجرام ـ يقتضى عموم الحكم وهو العذاب .

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى : إن هؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا فى الدنيا فلن يكون هذا نهاية هوانهم وعذابهم ، فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدة ومهيأة لهم تنتظرهم يوم القيامة .

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(مَّآءٍ مَّهِينٍ) : ماء ضعيف حقير وهو النطفة .

(قَرَارٍ مَّكِينٍ) : مكان حصين حريز وهو الرحم .

(إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) : إلى أن نصوِّره ونسويه ، أو إلى وقت الولادة .

(فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) : قدَّرنا ذلك وأحكمناه ، أو قَدَرْنا على ذلك وتمكنا منه .

التفسير

٢٠ - ٢٤ - (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : خلقناكم من ماءٍ حقير وهو النطفة المذرة ، وجعلنا هذه النطفة وثبتناها فى مكان حصين وهو رحم المرأة ، إلى أن يتم خلقه وتصويره وتسويته فينزل من ذلك الرحم فى وقت معلوم وزمن مقدر وهو وقت الولادة (فَقَدَرْنَا) أى : قَدَّرنا ذلك ودبرناه وأحكمناه فجاء بشرًا سويًّا ، أو تمكنا من ذلك وقدرنا عليه لأنه فى قبضتنا وتحت سلطاننا وقهرنا (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) : فنعم المقدرون لذلك نحن ، أى : قدرتنا هى المدح والثناء على الله منه - سبحانه - لأنه صاحب المن والفضل ، وهو مولى النعم والحكيم الخبير ، فليس أحد يدانيه فى ذلك ، أو : فنعم القادرون على ذلك نحن إذ لا يقدر عليه أحد سوانا ، فإلينا يرجع الأمر كله . (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) : بعد أن بين الله لهم عظيم إنعامه عليهم بخلقهم وتصويرهم فى أحسن هيئة وأبدع صورة جاء تخويفهم بالويل والهلاك ؛ لأن النعمة إذا

جلّت وعظمت كانت جنايتهم فى حقه - تعالى - بالإنكار والتكذيب أقبح وأفحش. وكان العقاب على ذلك أشد وأفظع .

(أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَاتًا) : ضامة وجامعة للأحياء على ظهورها. وللأموات فى بطنها .

(رَوَاسِيَ) : ثوابت .

(شَامِخَاتٍ) : طوال .

(مَآءً فُرَاتًا) : عذبًا حلو المذاق .

التفســير

٢٥ - ٢٨ - (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : قد جعلنا الأرض ضامة وجامعة لكم فى حياتكم ؛ فذللها لتمشوا فى مناكبها وتسيروا فى جنباتها وطرقها . وتسكنوا فى منازلها ودورها ، وجعلها أيضًا جامعة لما تحتاجون إليه من أمر معاشكم . كما جعلها ضامة وكافتة للأموات يدفنون فى جوفها . وجاء التنكير فى قوله : (أَحْيَآءً وَأَمْوَاتًا) للتفخيم والتكثير . أى : تضم وتكفت أحياء لا يعدّون وأمواتًا لا يحصرون . كما أوجدنا وخلقنا فى الأرض جبالًا ثوابت عاليات كى لا تميد الأرض ولا تضطرب بكم ؛ لتسلكوا فيها سبلًا فجاجًا وطرقًا كثيرة . وذلك فى أمن ويسر فضلًا عن

أن فى الجبال بعد ذلك من الفوائد الجليلة مايعطف القلب ويلفت النظر إلى التفكر فى مزيد فضل الله على الإنسان ، إذ أن هذه الجبال تنزل الأمطار عليها وترتطم بها السحب الركامية ويحدث من ذلك السيول الجارفة التى تشق طريقها فى الأرض وتتكون الأنهار العذبة فيسقى الله منها الإنسان والحيوان ، وينبت الزرع ويدر الضرع ، وتحيا الأرض بعد موتها ، وذلك مما يدعو إلى التبصر والاعتبار . وجاء قوله تعالى : (وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا) أى : عذبًا سائغًا شرابه ، جاء كالأثر الطيب المبارك المترتب على تذكير الله لهم بنعمة خلق الجبال وإيجادها .

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى : عذاب شديد للمنكرين لهذه النعم التى لا يخفى نفعها ولا ينكر أثرها العظيم إلا كل مكذب جاحد .

(ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(انطَلِقُوا) : سيروا واذهبوا .

(ظِلٍّ) : دخان .

(لَا ظَلِيلٍ) : غير مظل من حر الشمس .

(وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ) اللهب : مايعلو على النار إذا اضطرمت ، أى : لا يدفع من لهب جهنم شيئًا .

(بِشَرَرٍ) : جمع شررة ، وهو مايتطاير من النار متبددا فى كل جهة .

(كَالْقَصْرِ) : كالبناء العالى العظيم ، وقيل : غير ذلك .

(جِمَالَةٌ) : جمع جمل ، وقيل : غير ذلك وسيأتى .

التفسير

٢٩ - ٣١ - (انطَلِقُوٓا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوٓا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ) :

أمر الله هؤلاء المكذبين - أمر إهانة وتوبيخ وتقريع - أن يذهبوا ويسيروا إلى ما كانوا يجحدون به وينكرونه من عذاب يوم القيامة ؛ أمرهم بذلك أولا أمرًا عامًّا ولم يبين لهم فيه كنه العذاب ولا صفته ولا صورته ، ثم أمرهم - ثانيًا - بقوله : (انطَلِقُوٓا .) أى : اذهبوا لتلقى أول مراتب هذا العذاب ومنازله ، الذى وضحه - سبحانه - بقوله : (إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ) أى : إلى الاستظلال بدخان جهنم الذى قد انقسم وتفرق - لعظمه وشدته - إلى ثلاث شعب ؛ شعبة وطائفة منه تكون من فوقهم ، وأخرى من تحتهم ، وثالثة تحيط بهم من كل جانب ، وذلك كقوله : « لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »[1] ، وقوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »[2] أو شعبة على يمينهم ، وشعبة على يسارهم ، وشعبة ثالثة من فوقهم .

ويحتمل أن تكون تلك الشعب الثلاث للمنافقين ، وللكافرين ، وللعصاة من المؤمنين ، لكل فريق شعبة توافق وتناسب جرمه وذنبه ، فتظلهم تلك الشعب حتى يفرغ من حسابهم ، أما المؤمنون فهم فى هذا الوقت فى ظل عرش الله .

(لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ) : جاءت هذه الآية قاطعة لرجائهم ومخيبة لآمالهم من أن يكون فى ذلك الظل راحة لهم ؛ إذ قد بين - سبحانه - أنه غير مظل وغير مفيد ولا معد من يستظل به من حر الشمس ، ففى الأثر : إن الشمس تقرب يوم القيامة من رءوس

(١) من الآية : ١٦ من سورة الزمر .

(٢) من الآية : ٥٥ من سورة العنكبوت .

الخلائق ، وليس عليهم يومئذ لباس ولا كفان فتلفحهم الشمس وتسفعهم[١] ، وتأخذ بأنفاسهم ، ويمتد ذلك اليوم ، ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظلٍّ من ظلّه ، فهنالك يقولون : فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، ويقال للمكذبين : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه : كذلك لا يدفع عنهم هذا الظل لهب النار ، وقيل : لا يحول بينهم وبين العطش[٢] الذى تنالهم شدته وإنما سمى ما هم فيه ظلاً على طريق التهكم بهم والسخرية منهم .

٣٢ - ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ :

أى : إن النار ترمى وتقذف بشرر - وهو ما يتطاير من النار متبددًا فى كل جهة - كل شررة منه فى عظمها كالقصر . وهو البناء العالى العظيم ، أو الحِصن المنيع - وقيل : المراد من القصر : جمع قَصْرة ، وهى الحطب الجزل الغليظ ، أو هو أصول النخل والشجر العظام وأيًّا ما كان الأمر فإنها النار التى وقودها الناس والحجارة التى تكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غضبها على الكفار « تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ »[٣] .

٣٣ - ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ :

الجمالة : جمع جمل ، لحقت به التاء لتأنيث الجمع . أو أن جمالة : جمع جمال ، وجمال : جمع جمل ، فيكون من قبيل جمع الجمع .

وإذا كانت الشررة مثل القصر الضخم أو الحصن العالى العظيم أو كأصول الشجر العظام فكيف يكون حال النار التى ترمى بذلك ؟ أعاذنا الله منها .

وشبه الشرر - أولاً - بالقصر لعظمه وضخامته ، ثم شبه - ثانيًا - فى اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر ، أى : السود التى تضرب إلى الصفرة ، قال

---

(١) الكفان : وقاء كل شىء . ولفحت النار بحرها : أحرقت . وسفع السموم وجهه : لفحة لفحا يسيرا .
(٢) قال قطرب : اللهب هنا : العطش . يقال : لهب لهبا ورجل لهبان ؛ و امرأة لهبى .
(٣) من الآية : ٨ من سورة الملك .

الفراء : لا ترى أسود من الإبل إلّا وهو مشوب بصفرة ، والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه بالجمل الأسود الذى يشوبه شئ من الصفرة . وقال الإمام الفخر الرازى : وزعم بعض العلماء أن المراد هو الصفرة لا السواد ؛ لأن الشرر إنما يسمى شررًا ما دام يكون نارًا ، ومتى كان نارًا كان أصفر ، وإنما يصير أسود إذا انطفأ ، وهناك لا يسمى شررًا ، وهذا القول عندى هو الصواب . اهـ .

٣٤ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : خزى وهوان وعذاب لهؤلاء الذين ينكرون ويجحدون هذا الوعيد أو يسخرون منه .

(هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾)

المفـردات :

(لَا يَنطِقُونَ) : لا يتكلمون ولا ينطقون بشىء ينفعهم .

(فَيَعْتَذِرُونَ) : فليس لهم عذر يعتذرون به ويحتجون .

التفسير

٣٥ - (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ) :

الإشارة فى قوله : (هَٰذَا يَوْمُ) إلى وقت دخولهم النار ، أو مشاهدتهم لها ، أى : هذا يوم لا يتكلمون فيه بشىء وذلك لعظم دهشتهم وفرط حيرتهم واضطرابهم ، ولا ينافى أن لهم نطقًا وكلامًا فى موطن وموضع آخر ؛ لأن يوم القيامة طويل ، له مواقيت ، فنى بعضها ينطقون وفى بعضها لا ينطقون ، أو أنهم لا ينطقون بشىء ينفعهم ؛ فجعل نطقهم كلا نطق قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون .

٣٦ - (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) :

أى : أنهم لا يؤذن لهم فى العذر والتنصل مما أتوا به من جرائم وقبائح (فَيَعْتَذِرُونَ) وهم أيضًا لم يعتذروا ؛ وكونهم لم يعتذروا ليس راجعًا إلى عدم الإذن لهم فى الاعتذار ، ولكنه راجع إلى عدم العذر فى نفسه ، أى أنه لا عذر لديهم يعتذرون ويحتجون به ، ويستندون إليه . وقال الزمخشرى : (فَيَعْتَذِرُونَ) عطف على (يُؤْذَنُ) منخرط فى سلك النفى . أى : أن النفى يشملهما وينصب عليهما معًا .

٣٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هوان لهم ، وخزى يلحقهم من انقطاع عذرهم وافتضاح أمرهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، بالإضافة إلى رؤيتهم المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم فى الدنيا ، وقد فازوا بالثواب العظيم من رب العالمين ، أما هم فقد باءوا بالنكال والذل بمشاهدتهم النار وأهوالها التى هى مثواهم وبئس المصير .

(هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(وَالْأَوَّلِينَ) : السابقين لكم .

(كَيْدٌ) : حيلة ومكر تمكرون به .

التفسير

٣٨ - (هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) :

أى : هذا يوم يفصل الله فيه بين الخلائق ، فيتبين المحق من المبطل ، ويفصل بين الرسل وأممهم ؛ كيلا يكون لأحد حُجَّة .

(جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) أى : جمع الذين كذبوا محمدًا والذين كذبوا النبيين من قبله .

٣٩ـ (فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) :

هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى : فإن قدرتم على الكيد والمكر والخداع والتلبيس فافعلوا ، وأنَّى لكم ذلك ؛ فإن الحيل والمخادعة فى هذا اليوم قد انقطعت وأصبحت غير ممكنة أو فإن تمكنتم من أن تتخلصوا من قبضتى وتنجوا من حكمى فافعلوا ، ولكنكم لا تقدرون ، وذلك كقوله تعالى : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »[1] ، وقوله ـ سبحانه ـ فى الحديث القدسى : « يَاعبادِى إنكمْ لَنْ تَبْلُغوا نَفْعِى فَتنفعونِى ، ولَن تَبلغُوا ضُرى فَتَضرونِى » . فخطاب الله لهم فى هذه الحالة نهاية فى تخجيلهم وتقريعهم وتوبيخهم ؛ لذا جاء عقيبه قوله تعالى :

٤٠ ـ (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هوان وإيلام لهم ، لأن التوبيخ لهم فى هذا الموطن ضرب ولون من ألوان العذاب .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(مِمَّا يَشْتَهُونَ) : مما يتمنون .

(هَنِيئًا) : لا يشوبه سقم ولا تنغيص .

التفسير

بعد أن أبان ـ سبحانه ـ ما ينتظر الكفار والعصاة من بعثهم ودفعهم (إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ...) إلخ ما جاء فى تهديدهم ووعيدهم ، أخبر

(١) الآية ٣٣ من سورة الرحمن .

- جل شأنه - بما يصير إليه المتقون وينعمون به ، فبيَّن أنه - سبحانه - قد أعدَّ وهيأ لهم أنواعًا من نعمه فقال :

٤١ ، ٤٢ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ) :

كأنه قيل : ظلال الكافرين ما كانت ظليلة ، وما كانت مغنية لهم عن اللهب والعطش أما المتقون فظلالهم ظليلة ؛ لأنهم فى ظلال الأشجار وظلال القصور فى الجنة وفيها عيون عذبة مغنية لهم من العطش ، ومانعة وحاجزة بينهم وبين اللهب ، ومعهم الفواكه التى يشتهونها ويتمتعونها .

٤٣ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أمرهم - جل شأنه - أمر تكريم وإعزاز فقال لهم : (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : كلوا أكلا ، واشربوا شربًا خالص اللَّذة لا يشوبه سقم ولا تنغيص وذلك جزاء عملكم الحسن وطاعتكم لله فى الدنيا دار التكليف ، وفى هذا من إدخال السرور والرضا على نفوس المؤمنين ، وفيه ما فيه من التبكيت والتحسير للمكذبين ؛ لأنه يذكِّرهم بما فاتهم من النعم العظيمة ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا وظفروا بمثل تلك الخيرات ، ونالوا عظيم الدرجات ، ولكنهم كانوا فى سخط الله وغضبه وعظيم عذابه ؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم .

٤٤ - (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

أى : مثل هذا الجزاء الحسن العظيم نكافئ ونجزى المحسنين لا بخس ولا نقص . والمحسنون : هم الذين أحسنوا فى تصديقهم بمحمد - ﷺ - وأحسنوا فى أعمالهم فى الدنيا .

٤٥ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : نكال وخزى على الكافرين حيث يرون السعادة للمؤمنين ، أما هم ففى العذاب خالدون .

(كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(مُجْرِمُونَ) : كافرون أو عاصون .

التفسير

٤٦ - (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ) :

أى : الويل ثابت لهم فى حال مايقال لهم ذلك يوم القيامة ؛ تذكيرًا لما كان يقال لهم فى الدنيا وتحسيرًا وتخسيرًا لهم ؛ وهم جديرون أن يخاطبوا بذلك حيث تركوا الحظ الوفير ، والنصيب الجليل الكثير الدائم ، إلى القليل الحقير ، والنزر اليسير ، وآثروه وهو الزائل الفانى على الدائم الباقى ، و (المجرمون) هم الكافرون ، وقيل : كل مكتسب فعلًا يضره فى الآخرة من الشرك والمعاصى ، وفيه دلالة على أن كل مجرم نهايته تمتع أيام قليلة ثم يبقى عذاب وهلاك أبدًا .

٤٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هلاك لهم يوم القيامة بسبب أكلهم وتمتعهم فى الدنيا بطعام وشهوات ذهبت لذاتها ، ويذوقون الآن حسراتها وشدائدها .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾)

المفـــردات :

(ارْكَعُوا) : صلوا ، وقيل : غير ذلك .

التفسير

٤٨ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) :

أى : وإذا قيل لهؤلاء المشركين : أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له - عز وجل - وذلك بقبول وحيه - تعالى - واتباع دينه ، وارفضوا الاستكبار وحمية الجاهلية ، لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ، ويصرون على ما هم عليه من التولى والإعراض والاستكبار ، وهذه حكاية

عمّا كانوا عليه فى الدنيا يذكرون بها فى الآخرة ؛ ليشتد ندمهم وتزيد حسرتهم وألمهم ، وقيل : وإذا قيل لهم : صلوا لا يصلون ؛ إذ المراد من الركوع هو الصلاة ؛ لأنه من أهم أركانها ، ويطلق عليها – كثيرًا – فى لسان الشرع .

روى عن مقاتل : أن الآية نزلت فى ثقيف ، فقالوا للرسول ﷺ : حط عنا الصلاة فإننا لا ننحنى ؛ فإنها مسبّة علينا ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : « لَا خَيْرَ فى دِينٍ لَيْسَ فيهِ ركوعٌ ولا سجودٌ » ، وعن ابن عباس أنه قال : هذا يوم القيامة يدعون إلى السجود فلا يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون فى الدنيا .

ويذكر أن الإمام مالكًا – رحمه الله – دخل المسجد بعد صلاة العصر – وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر – فجلس ولم يركع ، فقال له صبىٌّ : ياشيخ قم فاركع ، فقام فركع ولم يحاجّه بما يراه مذهبًا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : خشيت أن أكون من الذين (إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) .

٤٩ – (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : ويل وثبور لمن يكذب هؤلاء الأنبياء الذين يرشدونهم إلى ما يجمع لهم من خيرات الدنيا والآخرة .

٥٠ – (فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) :

أى : إن لم يصدقوا بهذا القرآن العظيم الذى جاء بلغتهم وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ثم هاجهم وأثارهم بقوله : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[1] ولكنهم أصابهم العمى والحصر ، وعمهم وشملهم العجز ، أى : إن لم يصدقوا ويؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليتها ووضوحها فبأى شىء يصدقون ويذعنون له بعد ذلك ؟! إنه العمى فى أبصارهم ، والرَّانُ والطمس على قلوبهم ، والجحد والحسد فى نفوسهم ، وصدق الله العظيم : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ »[2] .

والله أعلم .

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنعام .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٩٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٤٠٨ — ١٩٩٠ — ٢٥٠٠٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب التاسع والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٢

سورة النبـأ

مكية ، وعدد آياتهـا اربعون آية

وتسمى ايضا « عم » وعم يتساءلون

مناسبتها لمـا قبلها :

أنها ركزت على إثبات القدرة على البعث ، وكان محور السُّورِ السابقة عليها هو تكذيب الكفرة به وذلك بالرد عليهم وإثبات جهالتهم ، كما أنها تشترك مع ما قبلها فى الاشتمال على وصف الجنة والنار ووصف يوم الفصل الذى ذكر هنا مفصلا وفيما قبلها مجملا .

مقاصد السورة :

ابتدأت بالحديث عن يوم القيامة ، والبعث والجزاء ، ذلك الموضوع الذى شغل الكثيرين من كفار مكة حتى صاروا ما بين مصدق به وشاكٍّ ومكذب ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ... ﴾ الآيات .

أقامت الأدلة على إمكان البعث بما عرضت من مظاهر القدرة التى تشير إلى أن من قدر على هذا الإبداع ، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ... ﴾ الآيات .

أبرزت تأكيد البعث بذكر بعض علاماته التى تنبىء بوقوعه لامحالة ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ... ﴾ الآيات .

تحدثت عن جهنم التى أعدها الله للطاغين ، وما فيها من ألوان العذاب وصنوف العقاب : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ... ﴾ الآيات .

تحدثت عن المتقين ببيان ما يتمتعون به من أنواع النعيم الدائم ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ... ﴾ الآيات .

أشارت إلى قيام الروح والملائكة بين يدى رب العالمين ، وبينت حالهم فى هذا الموقف العظيم : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ... ﴾ الآية .

وختمت السورة بالإنذار والتخويف من هذا اليوم الرهيب الذى حمل رُعْبُهُ كلَّ كافر على أن يقول : ياليتنى كنت تراباً ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً .. ﴾ الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾)

المفردات :

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) الأصل : عن ما يتساءلون ، أُدغمت النون فى الميم ، وحذفت ألف ما فى الاستفهام تخفيفاً لكثرة الاستعمال .

(عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) : عن الخبر الذى له شأن وخطر .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا) : ممهدة للخلائق ذلولاً لهم .

(وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) أى : كالأوتاد أرسينا بها الأرض حتى قرَّت وثبتت كما يرسى البيت من الشعر ونحوه بالأوتاد .

(نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) : قاطعاً عن الحركة ، من السبب : وهو القطع ؛ لأنه يقطع الإحساس والحركة .

(اللَّيْلَ لِبَاساً) : يستركم بظلامه كما يستركم اللباس .

(النَّهَارَ مَعَاشاً) : تتقلبون فيه فهو وقت تحصيل عيشكم .

(سَبْعاً شِدَادًا) أى : سبع سمٰوات قوية الخلق بديعة الصنع .

(سِرَاجاً وَهَّاجاً) : مشرقاً متلألئاً من وهجت النار إذا اتقدت ، والمراد به : الشمس .

(وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ) : وهى السحائب حانت وقاربت أن تعصرها الرياح فتمطر .

(مَآءً ثَجَّاجًا) : شديد الانصباب ، يقال : ثَجَّ الماء : إذا سال بكثرة ، وثجه : أساله ، ورد لازماً ومتعديا .

(حَبًّا وَنَبَاتًا) الحب : ما يقتات به نحو الحنطة والنبات : ما يؤكل خضراً رطباً من التبن والحشيش .

(وَجَنَّاتٍ) المراد بها : كل بستان يستر بأشجاره الأرض ، ، من الجَنّ وهو الستر .

(أَلْفَافاً) : ملتفة تداخل وتشابك بعضها ببعض ، وهو اسم جمع لا واحد له ، أوجمع لفيف بمعنى ملفوف ، كشريف وأشراف ، أو ليف كجِذْع وأجذاع .

التفسير

١ – ٣ – (عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) :

أى : عن أى شىء يتساءلون . والضمير لكفار مكة وإن لم يسبق ذكرهم وفى ترك ذكرهم إهانة واحتقار لهم ، وكانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويخوضون فيه إنكارًا له واستهزاءً به لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذى هو حال من أحواله ، ووصف من أوصافه .

وقيل : كانوا يتساءلون ، أى : يسألون النبى ﷺ والمؤمنين بطريق السخرية والتكذيب ويجىء (تفاعل) بمعنى فَعَل كتوانى زيد ، بمعنى ونَى ، وتَدانَى الأمرُ ، بمعنى دنَا ، وتعالى الله عما يشركون ، بمعنى علا ، ومنه تساءَل بمعنى سأل .

وليس المراد بالاستفهام فى بدء السورة الاستعلام وإنما أريد به تفخيم المسئول عنه بإبهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه ، وتشويقهم إلى معرفة شأنه ، فإن إيراده من علام الغيوب الذى لاتخفى عليه خافية ، تنبيه على أنه خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بأن يعتنى بمعرفته ، ويسأل عنه ، كأنه قيل : عن أى شىء يتساءلون ؟ ثم قيل بياناً للمسئول عنه بطريق الجواب يتساءلون (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) أى : عن الخبر الذى له شأنه وخطره وهو البعث ، ثم وصف بالعظيم لتأكيد ذلك وقد ورد الجواب على منهاج قوله تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ »(١) حيث كان السؤال والجواب من الله تعالى .

(الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) : وصف ثان للنبأ بعد وصفه بالعظيم تأكيدا لخطره ؛ فهو تأكيد إثر تأكيد للمبالغة ، أو إشعارًا بالباعث على التساؤل عنه ، وإيثار أن تكون صلة الموصول جملة اسمية للدلالة على الثبات ، أى : هم راسخون فى الاختلاف فيه فمنهم منكر جازم باستحالته يقول :

« إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »(٢) ومنهم شاكٌّ يقول :

« مَانَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ »(٣) ومن الاختلاف أن منهم من ينكر الْمعَادَيْنِ : البعث والقيامة كهؤلاء ، ومنهم من ينكر البعث الجسمانى فقط ، وحمل بعضهم الاختلاف على الاختلاف فى كيفية الإنكار ، فمنهم من ينكر البعث لإنكار الصانع المختار ، ومنهم من ينكره بناءً على استحالة إعادة المعدوم بعينه ، وقيل : إن الضمير فى (يَتَسَآءَلُونَ) للمسلمين والكافرين ، وكانوا جميعاً يتساءلون عنه : فالمسلم يسأل ليزداد خشية واستعدادًا ، والكافر يسأل ليزداد كفرًا وعناداً .

٤ ـ (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) :

بدأت الآية الكريمة بقوله ـ سبحانه وتعالى ـ : (كَلَّا) لردع منكرى البعث عن التساؤل عنه ، وعن مخالفتهم لرسول الله ﷺ فيه بإنكارهم له أو شكهم فى وقوعه ،

---

(١) غافر ، الآية : ١٦

(٢) المؤمنون ، الآية : ٣٧

(٣) الجاثية ، من الآية : ٣٢

وقوله تعالى : (سَيَعْلَمُونَ) وعيد لهم وزجر على ما حدث منهم من تساؤل ، واستهزاء وتعليل للردع بطريق الاستئناف ، والسين للتقريب والتأكيد ، أى : ليرتدع هؤلاء عمّا هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حل بهم العذاب والنكال ، ونزلت بهم الدواهى ومختلف العقوبات وفى ذلك من الوعيد ما فيه ، وقيل المعنى : سيعلمون ما يتساءلون عنه وهو البعث فيخجلون استخزاءً من تساؤلهم واستهزائهم بين يدى ربهم - عز وجل .

٥ - (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) :

تكرير لما قبله من الردع والوعيد للمبالغة فيها ، فكأنه قيل : لهم يوم القيامة ردع وعذاب شديدان ، ثم قيل : بل لهم يومئذ عذاب أشد وأشد ، وثم للتفاوت فى رتبة العذاب بين الردع الأول والثانى ، وقيل : إن الجملة الأولى تشير إلى ما يكون عند النزع ، وملاقاة كربات الموت وشدائده وانكشاف الغطاء ، والجملة الثانية تشير إلى ما يكون فى القيامة من زجر ملائكة العذاب ، وملاقاة شديد العقاب ، وعلى هذا فـ (ثُمَّ) فى مكانها من إفادة التراخى لما بين الأمرين من البعد الزمانى .

٦ - (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا) :

استئناف مَسوق لتحقيق النبأ العظيم بتعداد بعض الدلائل الناطقة بكمال قدرته - تعالى - والتى لا يسعهم إنكارها ، ولا مناص لهم من الإقرار بها فكيف يُنكرون على هذه القدرة إعادة خلق الإنسان علماً بأن مَنْ قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر .

وجوز أن يكون بتقدير (قُلْ) كأنه قيل : قل كيف تنكرون البعث أو تشكون فيه وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة ، والعلم المحيط ، والحكمة الباهرة المقتضية لا يكون ما خُلِق عبثاً ؟ !

والاستفهام فى الآية للتقرير بما بعده ، كأنه قيل لهم : قد جعلنا الأرض التى تسكنونها موطأة لكم كالفراش للاستقرار عليها ، والتقلب فى أنحائها للانتفاع بسهولها الواسعة ، واستخراج كنوزها المتنوعة ، فَأَقِرُّوا بفضل الله عليكم .

٧ - (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) :

أى : هى للأرض كالأوتاد التى تُشَد بها البيوت من الشعر ونحوه ، صيانة لها من أن يتقاذفها الرياح ، أو تتلاعب بها العواصف ، وعلى ذلك فالجبال لتثبيت الأرض واستقرارها ، حتى لا تميد بكم أو يختل توازنها فى دورانها فلا تصلح لسكناكم ، مع ما فى الجبال من المنافع الجمة التى لم تخلق الأرض لمثلها ، وشبهت بالأوتاد لبروزها ، أو لأنها تحفظ الأرض من الْمَيَدَانِ والاضطراب .

٨ - (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً) :

أى : مزدوجين ذكرًا وأنثى ليتم الائتناس ، والتعاون ، وحفظ الجنس ، وينتظم أمر المعاش ، وقيل : أصنافاً من اللون ، والصورة ، واللسان .

٩ - (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً) :

أى : جعلناه كالسبات - وهو الموت - من السبْت : وهو القطع ، ووجه تشبيه النوم به لما فيه من قطع الحركة والعمل ، وعلى ذلك قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ »[١] وهذا اختيار المحققين ، وقد قيل : النوم أحد الموتتين ، وفى البحر : جعلناه سباتاً ، أى : سكوناً وراحة .. يقال : سبت الرجل : إذا استراح .

١٠ - (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً) :

أى : ساترا لكم بظلمته كما يستركم اللباس ، ويقول الآلوسي : (ولعل المراد بهذا اللباس المشبه به ، ما يُستتر به عند النوم كاللحاف ونحوه ، فإن تشبيه ستر الليل به أكمل ، واعتباره فى تحقيق المقصد أدخل) وهو كون الظلام محيطاً بكم كإحاطة ما يستتر به عند النوم .

والرأى الذى اختاره غير واحد : إرادة الأعم من الذى يستتر به عند النوم وغيره ، وأن المعنى : جعلناه ساترًا لكم بظلمته عن العيون ، وللناس فى هذا الستر فوائد اللباس ، فكما

---

(١) الأنعام ، من الآية : ٦٠

أن اللباس يستر العورات عن النظر كذلك اللَّيل يستركم عن العيون إذا أردتم هرباً من عدو ، أو فرارًا من حيوان مفترس ، ويختفى فيه الكامن للوثوب على عدوه للتخلص منه ، والنجاة من شره ، ويتقى به كل من أراد ألا يُطلع الناس على كثير من أموره .

١١ ـ (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً) :

أى : وقت حياة تُبْعثون فيه من نومكم الذى هو أخو الموت ، ولما جعل ـ سبحانه ـ النوم موتاً مجازًّا جعل ـ سبحانه ـ اليقظة حياة كذلك . والنهار زمن هذه الحياة ، فهو وقت معاش ، يستيقظون فيه ويتقلبون فى حوائجهم ومكاسبهم ، قال ابن كثير : أى : جعلناه مشرقاً منيرًا وضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك .

١٢ ـ (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا) :

وهى السمٰوات السبع جعلها ـ سبحانه ـ محكمة متقنة وزينها بالكواكب ، ومع اتساعها وارتفاعها لايسقط منها شىءٌ ، ولا تتأثر بمرور الأزمان ، وتتابع الدهور لشدتّها البالغة ، والتعبير عن خلقها بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق عند النظر إليها .

١٣ ـ (وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً) :

أى : وخلقنا وأبدعنا كوكباً مضيئاً متلألئاً ، وهو الشمس التى يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم دائمة الحرارة والتَّوقُّدِ ، قال المفسرون : الوهاج : المتوقد الشديد الإضاءة ويلتهب من شدته ، وقال ابن عباس : المنير المتلألىءُ .

١٤ ـ (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً) :

أى : أنزلنا الماء من السحائب التى أعصرت ، بمعنى قاربت وشارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ، ومنه : أعصرت الجارية : إذا قاربت أن تحيض . قال فى التسهيل : المعصرات : هى السحب ، مأخوذة من العصر لأنها تنعصر فينزل الماءُ . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة :

إن المعصرات الرياح ؛ لأنها ، تعصر السحاب فيمطر ، ولما كان المطر بسببها سميت معصرات والأصل فى المطر تكاثف أبخرة المياه المتصاعدة من المحيطات والبحار ونحوها على شكل سحب ، وتحويلها إلى نقط من الماء أو حبات من الثلج ، أو هما معاً .

(مَآءً ثَجَّاجاً) أى : منصباً بكثرة متتابعاً كما قال مجاهد وقتادة والثورى وابن زيد .

١٥ - (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً) :

أى : لنوجد بهذا الماء الكثير النافع مايدخر للأناسى والأنعام ويقتات به كالقمح والشعير وما يؤكل خضرًا ويابساً كالحشيش والتبن ، وتقديم الحب مع تأخره فى الإخراج عن النبات لأصالته وشرفه ؛ لأن غالبه غذاء الإنسان .

١٦ - (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً) :

أى : ولنخرج به بساتين وحدائق ، وأطلق عليها (جَنَّاتٍ) لأن بكل منهما أشجارًا تستر وجه الأرض ، وقال الفراء : الجنة : ما فيها النخيل ، والفردوس : ما فيه الكرْم .

(أَلْفَافاً) أى : إن هذه الجنات ذات الثمار المتنوعة والألوان المختلفة والطعوم المتميزة والروائح الطيبة قد التفت أغصانها ، وتشابكت أفنانها وتداخل بعضها ببعض ، لتقارب أشجارها وتكامل نموها .

(إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ) : وهو يوم القيامة ؛ لأن الله يفصل فيه بين خلقه .

(يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ) المراد : النفخة الثانية ، والصور : البوق وهو معروف .

(أَفْوَاجاً) أى : ، أمما كل أمة معها إمامها ، أو زُمَرًا وجماعات متباينة .

(فَكَانَتْ أَبْوَاباً) أى : شقوقاً وشروخاً كالأبواب .

(فَكَانَتْ سَرَاباً) أى : مثل سراب ، وهو ما تراه نصف النهار كأنه ماء فإذا جئته لم تجده شيئاً .

(كَانَتْ مِرْصَادًا) أى : موضع رصد وترقب ، ترقب فيه خزنة النَّار الطاغين لتعذيبهم.

(مَآباً) أى : مآلا ومرجعاً .

(مَاكِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً): دهورًا متتابعة لا نهاية لها ، جمع حُقُبٍ – بضم وسكون ، وبضمتين – وفسر بالدهر أو السنة أو السنين ، وعن ابن مسعود أنه ثمانون سنة ، وعن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وابن عباس وغيرهم أنه سبعون سنة .

(حَمِيماً) : الحميم : هو الماء البالغ الغاية فى الحرارة .

(وَغَسَّاقاً) : وهو ما يسيل من أهل النار من الصديد ، وفى القاموس : البارد المنْتِن .

(كِذَّاباً) أى : تكذيباً شديدًا ، ومجيء (فِعَّال) بمعنى (تفعيل) فى مصدر (فَعَّلَ) سائغ فى الفصيح ، وعن الفراء أنها لغة يمانية .

التفسير

١٧ – (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) :

بعد أن بين الله لهم بهذه الدلائل المشاهدة قدرته الباهرة ليلزمهم الحجة فى أمر البعث حتى لايجدوا سبيلا إلى جحوده ، بعد ذلك هددهم أشد التهديد ببيان أن الساعة آتية لا محالة ، وفيها فصل القضاء بين الحق والباطل ، والحساب والجزاء ، فقال تعالى:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً) أى : إن يوم القيامة مؤقت بأجل محدود فى علم الله لبعث الأولين والآخرين لا يزاد عليه ولا ينقص عنه كما قال - سبحانه - : « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ »[1] وفى ذلك رد على من كانوا يستعجلون قائلين : « مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[2] .

١٨ - (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) :

الآية وما يتلوها نوع تفصيل لكيفية وقوع يوم القيامة وما يقع فيه من أهوال ، و (يَوْمَ) فى قوله تعالى : (يَوْمَ يُنفَخُ) وقع بدلا من يوم الفصل ، أو عطف بيان مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ، أى : أن يوم الفصل هو يوم النفخ فى الصور الذى يحدث فيه ما يحدث ، والمراد ، النفخة الثانية لإسرافيل - عليه السلام - فى الصور ، وهو القرن الذى أعد لذلك . وقيل : هذا تصوير لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلاَّ نفخة فى بوق يصدر عنها صوت عظيم بعيد المدى .

وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور ، وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة هذا الصور ، والبحث فى هذا لا يسوغ ، وليس علينا من حرج فى تركه ، ولا ضير فى تأخير الفصل عن النفخ حسب وقوعه - فإن زمان القيامة زمن ممتد يقع النفخ فى أوله ، وفى بقيته الفصل ومباديه وآثاره (فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) أى : فتبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف - عقب ذلك بغير مهلة أصلا - أمما ، كل أمة بإمامها كقوله تعالى : « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ »[3] أو زُمَرًا وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوصاف حسب اختلاف الأعمال وتباينها .

١٩ - (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً) :

أى : شقوقاً اتخذها الملائكة طرقاً ومسالك لنزولهم ، كقوله تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

(١) هود ، آية : ١٠٤

(٢) يس ، من الآية : ٤٨

(٣) الإسراء ، من الآية : ٧١

السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَٰئِكَةُ تَنزِيلاً »[١] فإذا شققت السماء لوقوع الاضطراب فى نظامها وذهاب التماسك بينها ، فهى كالأبواب ، وقد فسر الفتح بالشق لقوله تعالى : « إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ » وقوله : « إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ » ولعل نكتةَ التعبير بالفتح عن الشق الإشارةُ إلى كمال قدرته – تعالى – حتى كان شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة ، أو على التشبيه البليغ ، أى : فصارت شقوقها لسعتها كالأبواب ، أو فصارت من كثرة شقوقها كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة ، وفى هذا تصوير لما يحدث فى هذا اليوم من شدائد وخطوب .

٢٠ – (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً) :

تمثيل لِمَوْرِ الأرض فى ذلك اليوم حيث تفتتت الجبال بعد اقتلاعها من مقارها ، وسيرت فى الجو على هيئاتها ، كما يعرب عنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »[٢] .

أى : أنك تراها رأى العين فتحسبها ساكنة فى أماكنها مع أنها تمر مر السحاب الذى تسيره الرياح سيراً حثيثاً ، وذلك أن الأجرام العظيمة إذا تحركت نحواً من الأنحاء لاتكاد تظهر حركتها وإن كانت فى غاية السرعة ، ولاسيما من بعيد ، ويشير تشبيه سرعة الجبال فى سيرها بسرعة السحاب إلى تشبيه آخر ، وهو تشبيه حالها بحال السحاب فى تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما ينطق بذلك قوله تعالى : « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ »[٣] . وهذا الصنيع العظيم عند حشر الخلائق ليشاهدوها ثم يفرقها – سبحانه – فى الهواء ، وذلك قوله تعالى : (فَكَانَتْ سَرَاباً) أى : فصارت بعد تسييرها مثل سراب ، فترى كأنها جبال ، وليست بجبال ، وإنما هى غبار عظيم متراكم يحسبه الناظر إليه من بعيد جبلا ، ولكنه ليس بشىء كالسراب يحسبه الرائى وقت الظهيرة ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

---

(١) الفرقان ، الآية : ٢٥

(٢) النمل ، من الآية : ٨٨

(٣) القارعة ، الآية : رقم ٥

فالكلام على التشبيه البليغ ، والجامع بين المشبه والمشبه به أن كلا من الجبال والسراب يُرَى على شكل شيء وليس هو بذلك الشيء ،والجبال وإن اندكت انصدعت عند النفخة الأُولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكون عند النفخة الثانية ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ »(١) واتباع الداعى وهو إسرافيل – عليه السلام – يكون بعد النفخة الثانية .

٢١ – (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) :

شروع فى وعيد المكذبين ، وبيان ما يلاقونه من عذاب ونكال فى جهنم دار إقامتهم التى لايبرحونها أبدًا أى : إنها موضع ترصُّد وترقُّب ، ترصد فيه خزنة النَّار الكافرين ليعذبوهم ، وترصد الجنة المؤمنين ليحرسوهم من قبحها فى مجازهم عليها ، وقيل : ترصد الملائكة الطائفتين ، لتنقذ إحداهما وهى المؤمنة ، وتعذب الأُخرى وهى الكافرة ، وقد يفسر المرصاد بمطلق الطريق ، وهو أحد معانيه ، فيكون للطائفتين ، قال الحسن ، وقتادة فى قوله تعالى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) أى : إنه لايدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإذا كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس ، وقيل : اعلموا أنه لاسبيل إلى الجنة حتى تقطع النار . ذلك لأَنها مجاز وممر للجميع .

٢٢ – (لِلطَّاغِينَ مَآباً) :

أى : إنها تكون للمردة العصاة المخالفين للرسل مقرًّا ومرجعاً يرجعون إليه ، ويقيمون فيه . يتجرعون فيه عذاباً غليظاً ، وعقاباً شديدا كلما نضجت جلودهم بدلهم الله غيرها ليستمر إحساسهم بالأَلم وشعورهم به .

٢٣ – (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً) :

أى : ماكثين فيها يصلون سعيرها دهورًا متتابعة ، كلما مضى منها حقب تبعه آخر

---

(١) طه ، الآيات :١٠٥ – ١٠٧ وصدر الآية : ١٠٨

إلى مالا نهاية فلا يخرجون منها أبدًا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ويؤيد ذلك ماروى عن الحسن أنه قال : الحقب زمان غير محدود .

٢٤ ، ٢٥ ــ (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَاباً * إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً) :

أى : لا يذوقون فى جهنم شيئاً ما من برد ، ويراد به برد النسيم الذى يريحهم ، وينفس عنهم حر النار . وقيل : يراد به النوم ، فقد ورد عن بعض العرب : منع البردُ البردَ ، أى : النوم ، ولا يذوقون شيئاً من شراب يروى غلتهم ، ويسكن عطشهم فيها ، (إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) : لكن يتجرعون فيها حميماً ، وهو الماء الحار البالغ غاية الحرارة ، وغساقاً وهو ما يسيل من جلود أهل النار من صديد ، وقيح ، وعرق ، ودموع ، وفى الحديث : (إنَّ الرجلَ منهم إذا أدنَى ذلكَ من فيهِ سقطَ أديمُ وجْهِه حتى يبقَى عظاماً تَقَعْقع) ذكره الآلوسى.

٢٦ ــ (جَزَاءً وِفَاقاً) :

أى : الذى صاروا إليه من العذاب جزاء موافق لأعمالهم السيئة فى الدنيا ، بمعنى أنَّه يقدرها فى الشدة والضعف لايزيد عليها ولا ينقص عنها ، كما يقتضيه عدل الله ورحمته .

٢٧ ــ (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً) :

تعليل لاستحقاقهم هذا العذاب ، أى : لأنَّهم كانوا لا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم التى اقترفوها . إمعاناً منهم فى الكفر والطغيان ، أو لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون .

٢٨ ــ (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً) :

المعنى : أنهم كانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث ، أو التى أنزلها على رسله تكذيباً شديدًا مفرطاً .

٢٩ ــ (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) :

أى : وكل شىء من الأشياء التى من جملتها أعمالهم . قال أبو حيان : وكل شىء مما يقع

عليه الحساب والعقاب فهو عام مخصوص (أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً) أى : حفظناه وضبطناه بإحصائنا له إحصاء تاماً ، وقد جعل قوله : (كِتَاباً) مصدرًا مؤكدًا لأحصينا ، لأن الكتابة والإحصاء يتشاركان فى معنى الضبط ، وأصل الإحصاء : من لفظ (الحصا) وكانوا يعتمدون عليها فى العد ضبطاً قويًّا تاماً .

ويجوز أن يكون المراد : وكل شىء أحصيناه مكتوباً فى اللوح المحفوظ ، أو فى صحف الحفظة ، والظاهر أن الكلام على حقيقته ، والكتابة هنا على النحو الذى يليق بتنزيه الله تعالى ، وهو أعلى من كتابتنا التى نعرفها ، وأشد ضبطا ، وقال بعضهم : إنه تمثيل لصورة ضبط الأشياء فى علمه تعالى بضبط المحصى المجد المتْقن للضبط بالكتابة ، وهذا التمثيل لتفهيمنا ، وإلا فالانضباط فى علمه تعالى أجل وأعلى من أن يمثل بشىء . والجملة اعتراض لتأْكيد الوعيد السابق الذى بدىء به بقوله تعالى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) لبيان أن ذلك كان لامحالة لأن معاصيهم مضبوطة مكتوبة يواجهون بها يوم الجزاء .

٣٠ - (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً) :

ذلك مسبب عن كفرهم بالحساب والجزاء ، وتكذيبهم الآيات . روى قتادة عن أبي أيوب الأزدى عن عبد الله بن عمر أنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه ، فهم فى مزيد من العذاب أبدًا ، وأخرج عبد بن حميد ، وجماعة عن الحسن أنه قال : سأَلت أبا برزة الأسلمى عن أشد آية فى كتاب الله تعالى فقال : (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً) ووجه الأشدية على ما قيل : إنه تقريع فى يوم الجزاء ، وغضب من أرحم الراحمين ، وتأْييس لهم .

واستشكل أمر زيادة العذاب بمنافاتها كون الجزاء موافقاً للأعمال كما فى قوله تعالى : (جَزَآءً وِفَاقاً) وأجيب بأن العذاب لما كان للكفر والمعاصى ، وهى متزايدة فى القبح فى كل آن ، وعلم الله لسوء استعدادهم استمرارهم على ذلك ، اقتضى حالهم زيادة العذاب وشدته يوماً فيوماً وقيل : لما كان كفرهم أعظم كفر ، اقتضى أشد عذاب ، والعذاب المزيد يوماً فيوماً من أشد العذاب ، وقيل غير ذلك .

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) : أى : فوزًا وظفرًا بطلباتهم ورغباتهم ، أو محل فوز بذلك وهو الجنة .

(وَأَعْنَابًا) : جمع عنب ، ويقال للكرم نفسه ولثمرته .

(كَوَاعِبَ) : جمع كاعب ، وهى التى برز ثدياها واستدارًا مع ارتفاع يسير .

(أَتْرَاباً) : متساويات فى العمر تشبيهاً لها فى التساوى والتماثل بالترائب وهى ضلوع الصدر.

(كَأْساً دِهَاقاً) : مملوءة . يقال : دهقت الكأس وأدهقتها ، والكأس إناء يشرب فيه أو مادام الشراب فيه كما فى القاموس .

(لَغْوًا) : ما لا يعتد به من الكلام .

التفسير

٣١ ـ (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) :

شروع فى بيان أحوال المؤمنين الأبرار إثر بيان سوء أحوال الكافرين أهل النار ، أى : إن للمتقين الذين تمسكوا بطاعة ربهم ، واتقوا الكفر ، إن لهؤلاء فوزًا وظفرًا فى الدنيا بكل محبوب ، ونجاة وسلامة من كل مكروه ، أو أن لهم موضع فوز وظفر بجنات النعيم ، وخلاص ونجاة من عذاب الجحيم .

ثم يبين سبحانه هذا الفوز فقال :

٣٢ ـ (حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً) :

أى : بساتين فيها أنواع من الأشجار المثمرة ، والأزهار المتفتحة ، وأعناباً وهى الثمار المعروفة أو أشجارها وخصت بالذكر مع اندراجها فى البساتين إشارة لأهميتها والاعتناء بها .

٣٣ ـ (وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً) :

أى : بنات قد استدارت نهودهن مع ارتفاع يسير ، متساويات فى العمر مع التماثل فى صفات الجمال والكمال ، والتمتع بالبنات المتصفات بذلك فى الجنة على صورة لا نعلم حقيقتها ، وغاية ما يجب أن نصدق به ، أنه تمتع فائق اللذة على وفق ما يناسب ذلك العالم الأخروى .

٣٤ ـ (وَكَأْساً دِهَاقاً) :

أى : وكأساً من الخمر مملوءة مترعة . صحح الحاكم عن ابن عباس ما رواه غير واحد أنه قال : هى الممتلئة المترعة المتتابعة ، وأخرج ابن جرير عن عكرمة أنه قال : دهاقاً : أى صافية ، ، وقال القرطبى : المراد بالكأس الخمر ، كأنه قال : وخمر ذات دهاق : أى : عُصِرت وصُفِّيت .

٣٥ ـ (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّاباً) :

أى : إن أسماع أهل الجنة مصونة عن سماع ما لا يعتد به من الكلام ، وهو الذى يُورد وينقال لا عن رَوِيَّة وفكر كما قال الراغب ، لأنه يجرى مجرى اللُّغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير ، وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا ، وكذا كل ما لا يعتد به مطلقاً عن روية أو غيرها ، كما أنها مصونة عن سماع الكذب من القول لأنها دار السلام وكل مافيها نقى من الباطل والنقص ، وقد تضمنت هذه المذكورات أنواعاً من اللذات الحسية كما هو واضح .

٣٦ - (جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً) :

أى : إن الجزاء الذى جوزى به المتقون حصل لهم بتوفيق ربك - أيها النبى - وتأييده ويشير إضافة الرب إليه ﷺ دونهم إلى تشريفه - صلوات الله عليه - (عَطَآءً) أى : تفضلا وإحساناً منه تعالى : إذ لايجب عليه - سبحانه - شىء (حِسَاباً) أى : كافياً لهم وافرًا شاملا ، من قولهم : أحسبهُ الشىء : إذا كفاه حتى قال حسبى ، ومنه : حسبى الله . وقيل : معناه : كون الجزاء على حسب أعمالهم .

أى : مقسطاً على قدرها ، وروى ذلك عن مجاهد ، وكأن المراد بذلك مقسط بعد التضعيف، وبذلك يندفع ما قيل : إنَّه غير مناسب لتضعيف الحسنات ، ولهذا لم يقل هنا (وِفَاقاً) كما قيل فى الآية السابقة : (جَزَاءً وِفَاقاً) .

(رَّبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(خِطَاباً) أى : لا يقدر أحد أن يخاطبه سبحانه فى رفع بلاء أو دفع عذاب فى ذلك اليوم ، هيبة وجلالاً .

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ) : هو جبريل - عليه السلام - وقد ورد ذكره كثيرًا بذلك . واختلف المفسرون فى المراد من الروح ما هو ، على أقوال ، منها ما روى عن ابن عباس أنه قال : إنهم أرواح بنى آدم ، وقيل : إنه ملك عظيم أو إنهم أشراف الملائكة ، أو إنه جبريل - عليه السلام - قاله الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، ويستشهد لهذا القول بقوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ »[1] وهذا الرأى أوفق الآراء .

(فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا) أى : مرجعاً .

(يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا) : يتمنى الكافر أن لو كان فى الدنيا تراباً فلم يُخلق بشرًا ، ولم يكلف

التفسير

٣٧ - (رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) :

أى : إن هذا الجزاء الموفور من ربك العظيم فاطر السموات والأرض وما بينهما على غير مثال يحتذيه (الرَّحْمَٰنِ) الذى وسعت رحمته كل شىء ، ولاشك أن فى ذكر ربوبيته تعالى لجميع الخلق ، ورحمته الواسعة إشعارًا بمقدار الجزاء المذكور (لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) استئناف مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء ، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء ، فلا يكون لأحدنا قدرة عليه ، وضمير (لَا يَمْلِكُونَ) لأهل السموات والأرض ، والمراد نفى قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشىء من نقص العذاب أو زيادة الثواب بغير إذنه على أبلغ وجه وآكده ، كما قال تعالى : « يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[2]

٣٨ - (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا) :

---

(١) الشعراء ، الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤

(٢) هود ، من الآية رقم : ١٠٥

المعنى أنه فى هذا اليوم الرهيب ، يقف جبريل ـ عليه السلام والملائكة ـ مخلوقات الله الغيبية ـ مصطفّينَ ، فيقف جبريل وحده صفًّا ، والملائكة صفًّا آخر ، وقيل : صفوفاً ؛ لقوله تعالى : « وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »[1] وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق سلطانه وكبرياء ربوبيته ، وتهويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى آخرها .

(لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَاباً) الضمير فى (لَا يَتَكَلَّمُونَ) لأهل السموات والأرض الذين من جملتهم الروح والملائكة ، والآية استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى : (لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً) ومؤكد له على معنى أن أهل السموات والأرض إذا لم يقدروا حينئذ على أن يتكلموا بشىء من جنس الكلام إلا من أذن الله له منهم فى التكلم مطلقاً ، وقال ذلك المأذون قولا صوابا أى : حقاً من الشفاعة لمن ارتضى .

وإظهار (الرَّحْمَٰنُ) فى موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن الرحمة البالغة ، لا أن أحدًا يستحق ذلك عليه سبحانه وتعالى .

٣٩ ـ (ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَئَاباً) :

ذلك إشارة إلى يوم قيام الروح والملائكة على الوجه الذى ذكر ، وما فى الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو درجته ، وبعد منزلته فى الهول والفخامة أى : إن ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير قادرين هم ولاغيرهم على التكلم فيه من الهيبة والجلال ، هو يوم القيامة الذى أخبر عنه ـ سبحانه ـ بأنه الحق ، أى : الثابت المتحقق الذى لا ريب فى وقوعه من غير صارف يلويه ، ولاعاطف يثنيه .

(فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَآباً) أى : إذا كان الأمر كما ذكر من تحقيق اليوم وإتيانه بلا شك فى وقته المعين له ، فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه فليفعل ذلك بالإيمان والعمل الصالح ، وهو حث وترغيب ، فى سلوك الطريق القويم ، وتقدير المضاف وهو لفظ (ثَوَاب) قبل لفظ (رَبِّهِ) لاستحالة الرجوع إلى ذاته تعالى .

---

(١) سورة الفجر ، الآية رقم : ٢٢

٤٠ - (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً) :

الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث .

والمعنى : إنا خوفناكم بما ذكر فى السورة من الآيات الناطقة بما فى البعث وما بعده من الدواهى .

أو بها وبسائر القوارع الواردة فى القرآن العظيم (عَذَاباً قَرِيباً) هو عذاب الآخرة ، وقربه لتحقق وقوعه حتماً ، فقد قيل : ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت ، أو لأنه قريب بالنسبة إليه تعالى : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيباً »[1] .

(يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) أى : إن الذى أنذرناكم به عذاب كائن يوم يشاهد المكلف مؤمناً أو كافرًا ما قدمه من خير أو شر مثبتاً فى صحائف أعماله كقوله تعالى : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا »[2] وقوله سبحانه : « يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[3] وقوله : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ »[4] إلى غير ذلك من الآيات ، وما اليوم الذى يحدث فيه ذلك إلا يوم القيامة . (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً) أى : ويتمنى الكافر فيه أن لو كان تراباً فى الدنيا فلم يخلق ولم يكلف ، أو يتمنى ذلك فى هذا اليوم فلم يبعث حتى ينجو من الحساب والعقاب ، وعن أبى هريرة وابن عمر ومجاهد أن الله يحضر البهائم فيقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها : كونى تراباً ، فتعود جميعاً تراباً ، فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله ، وفى ذكر قول الكافر تخصيص لأحد الفريقين اللذين تناولهما لفظ (الْمَرْءِ) الذى ذكر فى الآية وأريد منه الكافر والمؤمن كما قيل على المشهور .

---

(١) المعارج ، الآيتان : ٦ ، ٧
(٢) الكهف ، من الآية : ٤٩
(٣) القيامة ، الآية : ١٣
(٤) آل عمران ، من الآية : ٣٠

سـورة النازعات

مكية وعدد آياتها ست وأربعون آية
وكما تسمى النازعات تسمى أيضا الساهرة ، والطامة

مناسبتها لمـا قبلها :

قال ابن عباس : إن أولها يشبه أن يكون قسماً لتحقيق ما فى سورة عَمَّ ، أو ماتضمنته كلها من بعث النَّاس وقيامهم للحساب والجزاء ، وفى البحر : لما ذكر سبحانه فى آخر ما قبلها الإنذار بالعذاب يوم القيامة أقسم ـ عزو جل ـ فى هذه على البعث فى ذلك اليوم الذى يقع الإنذار بالعذاب فيه .

أهم مقاصـــد السورة :

افتتحت بالقسم بطوائف الملائكة الأبرار على تحقق البعث ، تُزَلزِل النفخة الأُولى جميع الكائنات ، تتبعها النفخة الثانية لتهب الخلائق قياماً للجزاء والحساب : (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ....) الآيات .

ثم تحدثت عن استبعاد المشركين للبعث والنشور ولا سيا بعد أن بليت أجسام الموتى وتفتت عظامهم ، وصاروا أثرًا بعد عين ، ثم ذكرت الرد عليهم بما يسقط حجتهم ، ويبطل عجبهم أمام القدرة العظيمة . (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ..) إلخ . ثم تناولت قصة فرعون الذى ادعى الأُلوهية ، وتمادى فى الطغيان والجبروت ، فكانت عاقبته الدمار والهلاك وعذاب الآخرة والأُولى هو وقومه الذين كانوا أعواناً له فى ظلمه وبغيه ، وذلك لتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من أهل مكة : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ..) الآيات ، ثم ذكَّرت الإنسان بسعيه ، وأظهرت ما ينتظر الطغاة أهل مكة ، وما أُعد لمن خاف مقام ربه (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ..) الآيات ، ثم أنكرت ونعت على منكرى البعث تكذيبهم به ، وهم فى منطق الحق والواقع ليسوا بأشد خلقاً من السماء والأَرض وتوابعهما من مظاهر القدرة البالغة (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ..) الآيات .

وضحت السورة بالحديث عن وقت الساعة ، وأن بيانه لله وحده ، أما وظيفة الرسول ﷺ فهى الإخبار – عن قربها ، والتذكير بها وبما يكون فيها من أهوال لا يُعيِّن وقتها (يسْئلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ...) الآيات .

كما أشارت فى الختام أيضاً إلى أن ما أصابهم من فزع ، أنساهم الزمن الذى مر بهم حتى حسبوا أن الوقت بين إنذارهم بالبعث إلى قيامهم من قبورهم للجزاء ، عشية أو ضحى من يوم واحد (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ..) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً) أى : الملائكة التى تنزع أرواح الكفار من أقاصى أجسامهم نزعاً بالغ الشدة ، يقال : أغرق فى الشىء يغرق فيه : إذا أوْغَل وبلغ أقصى غايته .

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً) : الملائكة تنشط وتقبض أرواح المؤمنين برفق ولين من النشط وهو الإخراج بيسر وسهولة ، ومنه بئر أنشاط : قريبة القاع يُخرج منها الدلو بجذبة واحدة .

(وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً) : الملائكة تسرع بما أمرت به ، ومنه قيل للجواد المسرع : سابح .

(الرَّاجِفَةُ) : النفخة الثانية التى تردف وتتبع الأُولى ، وبها يبعث الموتى بأَمره تعالى ، يقال : ردفه كسمع ونصر : إذا أتبعه كأَردفه .

(وَاجِفَةٌ) : شديدة الاضطراب من الخوف والفزع يقال : وجف القلب يجف وجْفاً ووجيفاً : إذا اضطرب من شدة الفزع .

(أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) يقال : رجع فلان فى حافرته وعلى حافرته ، أى : طريقه التى جاء فيها .

(نَخِرَةً) : بالية متفتتة ، من نخر العظم ينخر من باب تعب : إذا بلى وتفتت .

(خَاسِرَةٌ) أى رجعة غير رابحة من الكر وهو الرجوع .

(بِالسَّاهِرَةِ) : وهى وجه الأَرض ، والعرب تسميه ساهرة ؛ لأَن فيه نوم الحيوان وسهره.

التفسير

١ ـ (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً) :

هذه أولُ الطوائف الخمس من الملائكة الموكلين بأَعمال جسام بأَمره تعالى ، وهم الذين أقسم سبحانه بهم على أن الخلق لا بد أن يبعثوا ويحاسبوا ، وجواب القسم أشار إليه مضمرا ، كأَنه قال : لتبعثن ولتحاسبن ، وذلك لمعرفة السامعين بالمعنى ، وقيل غير ذلك .

والطائفة الأُولى هى ملائكة العذاب التى تنزع أَرواح الكفار بقسوة وشدة من أقاصى أجسامهم نزعاً بالغا غاية الصعوبة والعسر كما يشير إلى ذلك قوله : (غَرْقاً) أى : إغراقاً ومبالغة فيما يؤلمهم ويؤذيهم ، وتختص هذه الطائفة بأُولئك الكفار على ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وعن على ـ كرم الله وجهه ـ وقال ابن مسعود : تنزع الملائكة روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأَظافر وأُصول القدمين ، ثم تفرقها فى جسده ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج تردها فى جسده وهكذا مرارًا .

٢ - (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً) :

وهى ملائكة الرحمة التى تنشط أرواح المؤمنين برفق ولين ، وذلك مما يشير إلى سرعة الإخراج وعدم حاجته إلى معالجة وجهد ، يقال : بئر أنشاط ، أى : قريبة القاع يخرج منها الماء بجذبة واحدة .

فالمادة تدل على الرفق والسهولة .

٣ - (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً) :

الملائكة التى تنزل من السماء بأمر الله ووحيه كالذى يسبح فى الماء مسرعين لتنفيذ أمره ، وقال بعض السلف : همُ الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلًّا رقيقاً ، ثم يتركونها حتى تستريح رويدًا ثم يستخرجونها برفق ولطف ، كالذى يسبح فى الماء ، فإنه يتحرك برفق ، فهم يرفقون فى هذا الاستخراج لئلا يصل إلى المؤمن ألم وشدة .

٤ - (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا) :

الملائكة تَسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة بسرعة ، قال الحسن : هى الملائكة التى سبقت إلى الإيمان والتصديق بالبعث .

٥ - (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) :

الملائكة تدبر شئون الكون من السماء إلى الأرض بأمره تعالى من الرياح ، والأمطار ، والأرزاق ، والأعمار ، وغير ذلك من شئون الدنيا ، وتنكير قوله : (أَمْرًا) للتهويل والتفخيم ، وعطف الآيتين بالفاء للإشارة إلى ترتيبها على ما قبلها من غير مهلة ، وقيل : إن الإقسام هو بِخَيْل الغزاة التى تنزع فى أعنتها نزعاً تفوق الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب ، وبالتى تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب من قولك : ثورنا شط : إذا خرج من بلد إلى بلد ، وبالتى تسبح فى جريها فتسبق إلى الغاية ، فتدبر أمر الغلبة والظفر ، وإسناد أمر التدبير إليها لأنها من أسبابه .

وقيل : إن الإقسام بالنجوم السيارة التى تنزع من المشرق إلى المغرب ، أى : تسير ، وإغراقها فى النزع : أن تقطع الفلك كله على ما يبدو للناس حتى تنحط فى أقصى الغرب ، وبالتى تنشط ، أى : تخرج من برج إلى برج ، وبالتى تسبح فى الفلك فتسبق ، فتدبر أمرًا نيط بها كاختلاف الفصول ، وتقدير الأزمنة ، وظهور مواقيت العبادات ، والمعاملات المؤجلة إلى غير ذلك ، وقيل غير ما ذكر ، إلاَّ أن القسم بطوائف الملائكة هو ماعليه أكثر المفسرين بل قال ابن عطية : لا أحفظ خلافا فى أنها الملائكة ، وليس فى تفسير شىء مما ذكر خبر صحيح عن رسول الله ﷺ فيما أعلم . ويقول الآلوسى : وما ذكرته أولا من الإقسام بالملائكة هو المرجح عندى نظرًا للمقام .

٦ ، ٧ – (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) :

أى : لتبعثن يوم تتحرك الراجفة رجفة شديدة تهتز وترجف عندها الأجرام الثابتة كالأرض والجبال ، وبها يختل الأمر ، ويضطرب النظام ، ويصعق كل شىء بأمره تعالى ، وهى النفخة الأولى (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) أى : الواقعة والصيحة التى تردف الأولى .

وإسناد الرجف إليها على أنها فاعلته إسناد مجازى. وجوز أن تفسر الراجفة بالمحركة ويكون ذلك حقيقة ، لأن (رجف) يكون بمعنى حرك وتحرك كما فى القاموس .

وتتبعها وهى النفخة الثانية التى بها يسرع الخلق قياماً من قبورهم ينتظرون الجزاء والحساب

والمراد لتبعثن فى اليوم الذى تقع فيه النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها لاقبلها باعتبار امتداد ذلك اليوم لاحتواء النفختين واعتبار امتداده مع أن البعث لايكون إلا عند وقوع النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظيمتين ، لايبقى عند وقوع الأولى حىّ إلاَّ مات ، ولا عند وقوع الثانية ميت إلا بعث ، وقيل المعنى : لتبعثن ، كأنه قيل لرسول الله ﷺ : اذكر لهم يوم النفختين فإنه وقت بعثهم .

٨ ، ٩ – (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) :

أى : قلوب منكرى البعث فى ذلك اليوم مضطربة خائفة وجلة ، وعن السدى : زائلة من أماكنها كما فى قوله تعالى : « إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ [1] » يعنى تزول من مكانها لتصل إلى الحناجر .

---

(١) غافر ، من الآية : ١٨

(أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) أى : أبصار أصحاب هذه القلوب ذليلة حسيرة مما عانت من الأهوال والشدائد ، وقد أريد من وجيف القلوب شدة الخوف الواقع بأربابها فهى كناية عنهم .

١٠ - (يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) :

حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمى ، وذكر مقدماته الهائلة ، وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار .

والمعنى : إن منكرى البعث يقولون - إنكارًا له ، واستبعادًا لوقوعه إذا قيل لهم فى الدنيا إنكم مبعوثون : (أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) يعنون الحياة التى كانوا عليها أول الأمر قبل موتهم يقال لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع فى حافرته ، أى : فى طريقه التى جاء منها فحفرها ، بمعنى أثر فيها بمشيه ، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة ، لنسبتها إلى الحفر ، أو على المجاز كما فى قوله تعالى : « فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ »[1] أى : منسوبة إلى الرضا ، أو على المجاز وقيل : إنه - تعالى شأنه - لما أقسم على البعث ، وبين ذُلَّهم وخوْفَهم ذكر هنا إقرارهم بالبعث ، وردهم إلى الحياة بعد الموت ، فالاستفهام لاستغراب ما شاهدوه بعد الإنكار والجملة استئناف لبيان ما يقولون إذ ذاك .

١١ - (أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً) :

تأكيد لإنكار البعث بذكر حالة منافية لحصوله أى : أئذا كنا عظاما باليت وتفتت واختلطت بتراب الأرض نُرد ونُبعث مع كون تلك الحالة أبعد شىء من الحياة ، ذلك أمر بعيد الحصول .

وفرق بين العظام الناخرة والنخرة - حيث إن النخرة فسرت بالأشد بِلًى ، قال عمرو بن العلاء : النخرة : التى بليت ، والناخرة التى لم تنخر بعدُ ، ونقل اتحاد المعنى عن غيره .

---

(١) الحاقة ، آية ٢١ . والقارعة آية : ٧

١٢ - (قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) :

حكاية لكفر آخر من منكرى البعث متفرع عن كفرهم السابق الذى أنكروا فيه البعث ، أى : قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين إلى ما أنكروه من الرد فى الحافرة مشعرين بغاية بعده عن الوقوع : (تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أى : رجعة ذات خُسْر ، أو خاسر أهلها ، بمعنى إذا صحت تلك الرجعة وعدنا إلى ما كنا عليه من الحياة فنحن خاسرون لتكذيبنا بها ، وأبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته فى صورة ما يغلب على الظن وقوعه لمزيد من الاستهزاء والسخرية .

١٣ - (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ) :

تقليل لإنكارهم إحياء الموتى الذى عبروا عنه بالكرَّة ولما كان مدار إنكارهم للكرَّة استصعابهم لها ، رد عليهم سبحانه بالآية الكريمة : لا تحسبوا تلك الكرَّةَ صعبة على الله - عز وجل - فإنها سهلة هينة لأنها ما هى إلا صيحة واحدة تحصل بها الرجعة وتتحقق ، وهى النفخة الثانية ، وعبر عنها بالزجرة تنبيها على كمال اتصالها بها كأنها عينها ، وبهذه النفخة التى ينفخها إسرافيل - عليه السلام - فى الصور يبعث الله الأولين والآخرين فإذا هم قيام بين يدى الرب - عز وجل - ينظرون ، كما قال - سبحانه - : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا »[1] وكما قال جل وعلا : « وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ »[2] .

١٤ - (فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) :

بيان لترتيب الرجعة على الزجرة مفاجأة ، أى : فإذا هم حضور فى الموقف على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً فى جوفها ، قال ابن عباس : الساهرة : الأرض كلها ، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة ، وحكى الراغب فى الساهرة قولين : الأول : أنها وجه الأرض ، والثانى أنها أرض القيامة ، وفى الكشاف : الأرض البيضاء التى لا نبات فيها المستوية ، سميت

---

(١) الإسراء ، الآية : ٥٢

(٢) سورة القمر ، الآية : ٥٠

بذلك لأن السراب يجرى فيها من قولهم : عين ساهرة : جارية الماء ، وفى ضدها : عين نائمة ، أى : أن سالكها لا ينام خوف الهلكة ، إلى غير ذلك من الأقوال التى ذكرها المفسرون .

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ) الوادى المطهر المبارك .

(طُوًى) : اسم للوادى المقدس على الصحيح .

((إِنَّهُ طَغَىٰ) : جاوز الحد فى الظلم والطغيان .

(إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ) : إلى أن تسلم وتطيع وتطهر من الذنوب .

(الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ) : هى قلب العصا حيّة ، أو هى اليد البيضاء .

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ) : ثم تولى وأعرض عن الإيمان مجدًّا فى معارضته .

(فَحَشَرَ) : فجمع السحرة من المدائن ، أو الجند ، أو هما معاً (فَحَشَرَ) : من الحشر ، وهو إخراج الجماعة من مقرهم ، وتوجيههم إلى الحرب ونحوها .

(نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ) : وهو عذاب الآخرة بالإحراق ، وعذاب الأُولى بالإغراق ، والنكال : مصدر بمعنى التنكيل .

التفسير

١٥ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ) :

يخبر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ عن عبده ورسوله موسى - عليه السلام - أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات البينات ، ومع ذلك استمر عدو الله على كفره وعصيانه سادرًا فى بغيه وظلمه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك ، وكذب بما جئت به ، وفى هذا تسلية لرسوله - ﷺ - من تكذيب قومه ، وتهديدهم له بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوى منهم وأعظم . ولهذا قال سبحانه فى آخر القصة : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ) والاستفهام فى الآية لحمل رسوله ﷺ أن يستمع إلى أمر يعرفه قبل ذلك ، كأنه قيل : أليس قد أتاك حديث موسى - عليه السلام - ؟ ! أو الاستفهام ترغيب لسماع القصة إن اعتبر أن هذا أول ما أتاه من حديثه - عليه السلام - كأنه قيل : هل أتاك حديثه ؟ أنا أخبرك به ، والأول هو المتبادر .

١٦ - (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) :

أى : كان حديث موسى فى الوقت الذى : ناداه ربه سبحانه بالوادى المبارك المطهر وهو واد فى أسفل جبل طور سيناء من برية الشام ، (طُوًى) : اسم لذلك الوادى المقدس مرة بعد أخرى .

١٧ - (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) :

على إرادة القول ، أى : قائلا له : (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) الآية ، أو تفسير للنداء ، أى : ناداه (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) ... إلخ . (إِنَّهُ طَغَىٰ) : جاوز الحد فى الطغيان على رعيته من بنى إسرائيل ، وعلا فى الكبر والعظمة ظنًا منه أن هذا من مظاهر الألوهية ، والجملة تعليل للأمر بالذهاب إليه ، أو لو جود الأمر بالامتثال بما أمر به .

١٨ - (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ) :

أى : فقل له : هل لك رغبة فى أن تتطهر من دنس الكفر والعصيان ، ورذائل الأخلاق والعادات ؟ وهو استفهام يقصد به العرض والطلب ، وهو أفضل أنواعه ، وأوفقها باللطف والأدب فى الدعوة ، وقدّم طلب التطهر على طلب الهداية فى الآية التالية ، لأنها تخلية ، وهى مقدمة على التحلية .

١٩ - (وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) :

أى : وهل تحب أن أدلك وأرشدك إلى معرفة ربك فتعرفه ؟ (فَتَخْشَىٰ) : بأن يصير قلبك خاضعاً لله مطيعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً عن الخير ، وبأن يمتلىء علماً بجلاله وعلو شأنه كما قال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[1] فمن اتقاه أمن عقابه ، والخشية : ملاك الأمر ، وغاية الهداية ، من تمسك بها أتى منه كل خير ، ومن تركها اجترأ على كل شر ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى عن أبى هريرة : « مَنْ خافَ أَدلجَ[2] ومَن أَدلجَ بلغَ المنزلَ » وعن بعض الحكماء : اعرف الله ، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيَهُ طرفةَ عين.

٢٠ - (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ) :

أى : لما لم يقتنع فرعون بالدليل القولى ، أظهر - سبحانه - له آية ودليلا يراه بعينه بعدما جرى بين موسى - عليه السلام - وبينه من المحاورات إلى أن : « قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[3] والمراد بالآية الكبرى على ما روى عن ابن عباس : قلب العصا حيَّة ، فإنها كانت المقدمة والأصل ، والأخريات كالتبع أو على ماروى عن مجاهد : ذلك واليد البيضاء ، فإنها باعتبار الدلالة كالآية الواحدة ، وقد عبر عنهما بصيغة الجمع فى قوله تعالى فى سورة طه : « اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي » باعتبار مافى تضاعيفهما من بدائع الأمور التى كُلٌّ منها آية لقوم يعلمون ، وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله

(١) سورة فاطر : من الآية ١٢٨

(٢) الدلج محركة ، والدلجة بالضم والفتح : السير من أول الليل ، وقد أدلجوا . اهـ : قاموس ، والمراد مواصلة العمل لبلوغ الغاية .

(٣) الأعراف ، الآية : ١٠٦

من الرسل - عليهم السلام - ولا مساغ لحمل « آياتى » فى الآية المذكورة على مجموع معجزاته فإن ماعدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهرت على يده - عليه السلام - على مهل بعد ما غلب السحرة . وترتيب حشد السحرة لم يكن إلا على إرادة هاتين الآيتين .

٢١ - (فَكَذَّبَ وَعَصَى) :

أى : فكذب فرعون بموسى - عليه السلام - واعتبر معجزاته الباهرة سحرًا (وَعَصَى) الله - عز وجل - بالتمرد على نبيه بعدما علم صحة الدعوة أشد عصيان وأقبحه ؛ مما دعاه إلى إنكار وجود الله رب العالمين ، وكان هو وقومه مأمورين بعبادته عز وجل ، وترك العظمة التى يدعيها ويقبلها من فتنه الباغية .

٢٢ - ٢٤ - (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) :

أى : ثم تولى عن موسى ، وأمعن فى تكذيبه مجتهدًا فى مكايدته ، أو لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا يسرع فى مشيته من هول ما رأى ، حيث رآه ضخماً قويًّا ، فاغرا فاه متجها نحوه وتبعه قومه - يعلوهم الفزع والاضطراب منهزمين(فَحَشَرَ فَنَادَى) أى : فجمع السحرة ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ »[1] وقوله تعالى : « فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى »[2] أى : فجمع ما يكاد به من السحرة وآلاتهم ، وقيل: جنوده ، ويجوز أن يراد جميع النَّاس فى مملكته ، وبعد أن جمعهم وقف فيهم خطيبا ، فنادى بنفسه أو بواسطة المنادى ، والأول هو المناسب لقوله تعالى: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) لا رب فوقى ، وكانت لهم أصنام يعبدونها .

٢٥ - (فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) :

أى : فأهلكه الله ونكل به تنكيل الآخرة ، وهو الإحراق ، وتنكيل الأُولى ، وهو الإغراق ، وعمل الآخرة والأُولى على الدارين هو الظاهر .

---

(١) الشعراء ، الآية : ٥٣

(٢) سورة طه ، الآية : ٦٠

وروى عن الحسن وابن زيد وغيرهما ، وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك والشعبي أن الآخرة قولته : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) والأولى قولته : « مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي » وعن مجاهد أنهما عبارتان عن أول معاصيه وآخرها ، وعلى ذلك ، فالتنكيل به والتعذيب له بسببهما ما وقع منه ، وما سيقع .

٢٦ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ) :

أى : إن فيما ذكر من قصة فرعون ، وما اقترف من آثام ، وما عوقب به من تنكيل وتخذيل لموعظة لمن شأنه أن يخشى ، أى : لمن له عقل يتدبر به عواقب الأمور ومصائرها ، فينظر فى حوادث الماضين ، وأحوال الحاضرين ويتعظ بها .

(ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(رَفَعَ سَمْكَهَا) السَّمْكُ : العلو والارتفاع ، يقال : سَمَكْتُ الشىء : رفعتُه فى السماء ، وبناءٌ مَسْموكٌ : عال مرتفع .

(فَسَوَّاهَا) : جعلها ملساء مستوية .

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا) أى : أظلمه ، يقال : غطش اللّيل من باب ضرب ، وأغطش : صار مظلما وأظلمه الله .

(دَحَاهَا) : بسطها ومدّها من الدحو أو الدحى يعنى البسط .

التفسير

٢٧ ، ٢٨ - (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) :

الاستفهام للتقريع والتوبيخ لأَهل مكة المنكرين للبعث بناءً على صعوبته فى زعمهم ، أى : أَخَلْقُكُمْ بعد موتكم أَشق وأَصعب أم خلق السماء على عظمها ، وانطوائها على الأَعاجيب والبدائع التى يحار العقل فى إدراك كنهها؟! (بَنَاهَا) : بضم أَجزائها المتفرقة بعضها لبعض بعد أن خلقها بقدرته مع ربطها بما يمسكها حتى تكون بنية واحدة ، وهكذا صنع - سبحانه بالكواكب ، ووضع كلا على نسبة من الآخر مع ما يمسكه فى مداره التى كان منها عالم واحد فى النظر سمى باسم واحد وهو السماء التى تعلونا ، وعدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف عليه من الأَفعال للتنبيه على تعينه وتفخيم شأْنه - عز وجل - ما لا يخفى (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) بيان للبناء ، أى : رفع جرمها ، وأعلى قبتها وجعل مقدار ارتفاعها من الأَرض ، وذهابها إلى جهة العلو مديدًا رفيعاً ، قال ابن كثير[1] : أى : جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأَرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء (فَسَوَّاهَا) بوضع كل جرم فى موضعه حسبما اقتضته الحكمة ، وقيل : فسواها بجعلها ملساء مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

٢٩ - (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) :

أى : وجعل الله ليلها مظلماً ؛ لأَنه يقال : أغطش الليل ، كما يقال : أظلم ، ونسبة الليل إلى السماء لأَنه يكون بمغيب كوكبها وهو الشمس (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) أى : وأَبرز نهارها ، والضحى فى الأَصل على ما يفهم من كلام الراغب : انبساط الشمس ، وامتداد النهار ، ثم سمى به الوقت المعروف ، وشاع فى ذلك وتجوز به عن النهار بقرينة المقابلة بالليل ، وعبر عن النهار بالضحى لأَنه أَشرف أَوقاته وأَطيبها وفيه من انتعاش الأَرواح ما ليس فى سائرها فكان أَوفق لمقام تذكير الحجة على منكرى البعث ، وإعادة الأَرواح إلى أَبدانها ، وإضافة الضحى إلى السماء لأَنه يحدث بسبب طلوع الشمس .

---

(١) فى مختصره .

٣٠ - (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) :

أى : بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإغطاش اللّيل ، وإخراج النهار (دَحَاهَا) أى : بسطها ومهدها لسكنى أهلها وتقلبهم فى أقطارها ، ويشير إلى أن معنى الدحْو أو الدحى البسط قول أمية بن أبى الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم قطّانها حتى التنـــادى

وقيل : دحاها : سواها .

والأكثرون على الأول ، والظاهر أن دحوها بعد خلقها ، وقيل : معه ، أى : خلقها مدحوة ، وروى الأول عن ابن عباس ، ولعل المراد من خلقها أولا ثم دحوها ثانياً ، خلق مادتها أولا ثم تركيبها وإظهارها على هـــذه الصورة والشكل مدحوة مبسوطة ، كما قيل فى قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ » إلى قوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ »[1] أى : إن السماء خلقت مادتها أولا ثم سويت وأظهرت على صورتها اليوم .

٣١ - (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا) :

أى : أخرج - سبحانه - من الأرض الماء وذلك بتفجير الينابيع والعيون ، وإجراء الأنهار ، كما أخرج منها المرعى ، ويقع على الرِّعْى وهو الكلأُ ، أو المراد به كل ما يرعى المرعىّ مما يـأكله الناس والأنعام ، وتجريد الجملة عن العاطف لأنها بيان وتفسير لـ (دَحَاهَا) وتكملة له ، فإن السكنى لاتتأتى بمجرد البسط والتمهيد ، بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب .

٣٢ - (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) :

أى : أثبت الله الجبال فى مكانها ، وجعلها وقاية للأرض أن تميد بأهلها ، والتعبير

(١) فصلت ، من الآية رقم ١١ ومن الآية رقم ١٢ .

عنها بالرواسى فى كثير من آيات التنزيل ليس لأن الرسو المنسوب إليها من مقتضيات ذواتها ، بل هو بإرسائه - عز وجل - ولولاه لما ثبتت فى أنفسها فضلا عن إثباتها للأرض :

٣٣ - (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) :

أى : فعل - سبحانه - ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام ، حيث إن فائدة البسط والتمهيد ، وإخراج الماء والمرعى واصلة إليهم ، وعائدة عليهم وعلى أنعامهم .

وحاصل المعنى : أفلا يكون خالقكم وواهبكم مابه تَحْيَوْنَ ، ورافع السماء فوقكم وباسط الأرض تحتكم قادرًا على بعثكم ؟ ! وهل يليق به - سبحانه - أن يتركَكم سُدًى بغير حساب وجزاء بعد أن دبركم هذا التدبير ووفر لكم ذلك الخير الكثير ، وهو لايصعب عليه بعثكم - كما تزعمون - بعد أن شاهدتم الأعاجيب التى أوجدتها قدرة القادر العظيم ؟ !

(فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) : كالْعَلَم على يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تطم على كل أمر مفظع ، أى : تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهى الدنيا ، من طمَّ الشىء ، يطُمُّه طَمًّا : غمره ، وكل ما كثر وعلا حتى غلب فقد طم .

(فَأَمَّا مَن طَغَى) : جاوز الحد فى العصيان والكفر .

(هِيَ الْمَأْوَى) : المقر والمرجع .

(وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) : أصل الهوى : مطلق الميل ، وشاع فى الميل إلى الشهوات .

(أَيَّانَ مُرْسَاهَا) أى : متى يقيمها الله ويثبتها ، والمرسى : من رسا بمعنى ثبت .

(فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق .

التفسير

٣٤ - (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) :

شروع فى بيان معادهم إثر بيان معاشهم ، كقوله عز وجل : (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) . والطامة الكبرى : هى الداهية العظمى التى تطم على ما سواها ، أى : تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهى الدنيا ، وهى كالْعَلَم ليوم القيامة ، وروى كونها اسماً من أسمائها عن ابن عباس ، وروى عنه أيضاً وعن الحسن أنها النفخة الثانية ، وقيل : إنها الساعة التى يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، وقيل : هى ساعة يساق أهل النار ، ووصفت بالكبرى لأنها أعظم الدواهى مطلقاً .

٣٥ - (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى) :

المراد : يوم يتذكر كل امرئ ما عمله من خير أو شر بأن يشاهده مدونا فى صحيفة أعماله ، وقد كان نسيه من فرط الغفلة ، أو طول الأمد ، أو لشدة ما لقى ، أو لكثرته التى تعجز الحافظ عن الضبط لقوله تعالى : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ »[1] .

---

(١) المجادلة ، من الآية رقم ٦

٣٦ - (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى) :

عطف على (جَآءَتْ) من قوله سبحانه : (فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَى) أى : أظهرت إظهارًا بيناً فلا تخفى على أحد (لِمَن يَرَىٰ) أى : لمن شأنه الرؤية كائنا من كان ، روى أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذى بصر .

٣٧ - ٣٩ - (فَأَمَّا مَن طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) :

تفصيل لجواب (إِذَا) من قوله تعالى : (فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَى) وهو مقدَّر بنحو : وزع الجزاء على العمل ، أو ظهرت الأعمال ونشرت الصحف ، أو وقع مالا يدخل تحت حصر .

(فَأَمَّا مَن طَغَى) أى : عتا وتمرد على الطاعة ، وجاوز الحد فى العصيان (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أى : فضل لذائذها وشهواتها ، وأتبع نفسه هواها ، ولم يستعدّ للحياة الأخروية الأبدية بالإيمان والتقوى (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) أى : دارُ العذاب مأواه ومستقره ، يتجرع فيها نارًا يتأجج لظاها تشوى الوجوه ، وتنضج الجلود ، وكلما نضج جلده بدله الله جلدًا غيرهُ ليذوق العذاب ، قيل : نزلت الآية فى النضر وأبيه الحارث المشهورين بالغلو فى الكفر والعصيان .

٤٠ ، ٤١ - (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) :

أى : وأما من عرف بسطة السلطان الإلٰهى ، فخاف مقامه بين يدى ذى الجلال الرفيع يوم الطامة الكبرى وزجر نفسه عن هواها الباطل الذى يميل بها إلى اقتراف الآثام بحكم الجبلة البشرية ، وأهمل متاع الحياة الدنيا وزخارفها التى تعمى وتصم ، ولم يغتر بزهرتها وزينتها علماً منه بوخامة العاقبة . هذا وقد شاع الهوى فى الميل إلى الشهوة ، وسمى بذلك - على ما قال الراغب - لأنه يَهْوِى بصاحبه فى الدنيا إلى كل واهية ، وفى الآخرة إلى الهاوية ، ولذلك مدَح مخالفه ، قال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه . وقال الفضيل : أفضل الأعمال مخالفة الهوى ، إلى غير ذلك من الأقوال الداعية إلى مجافاته

والبعد عنه (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) له لا غيرها أى : نزله الذى يتمتع فيه بالنعيم المقيم ، والسعادة الدائمة ، وعن ابن عباس أن الآيتين نزلتا فى أبى عزيز بن عمير وأخيه مصعب ابن عمير – رضى الله عنه – كان الأول كافرًا مؤثرًا الحياة الدنيا ، وكان مصعب خائفاً مقام ربه ناهياً النفس عن الهوى ، وقد وقى رسولَ الله ﷺ بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه ، حتى نفذت السهام فى جسمه ، فلما رآه – عليه الصلاة والسلام – متشحطاً[1] فى دمه قال : عند الله أحتسبك .. إلخ القصة ، رواها الآلوسى .

٤٢ – ٤٤ – (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) :

كان أهل العناد والكفر من قريش يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة متى إرساؤها ؟ أى : إقامتها وإثباتها . يريدون بسؤالهم له ﷺ أن يبين لهم الزمان الذى يقيمها فيه ويثبتها جل وعلا .

وجوز أن يكون السؤال عن المكان الذى تنتهى إليه ، أى : متى مستقرها ومنتهاها ؟ كما أن مرسى السفينة حيث تنتهى .

وكان النبى ﷺ يردد فى نفسه ما يقولون ، ويتمنى لو أمكنه الجواب عما يسألون كما هو شأن الحريص على الهداية ، الجاهد فى الإقناع ، فنهاه ربه عن تمنى مالا يرجى ، وجاء النهى على صورة الاستفهام ، حيث قال – سبحانه : (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) بمعنى فى أى شىء أنت من مداومة تذكرها والتطلع إلى إخبارهم بوقتها؟! فإن ذلك ليس من شأنك[2] ، أو الاستفهام إنكار ورد لسؤال المشركين عنها ، أى : فى أى شىء أنت من أن تذكر لهم

---

(١) مضطرباً فيه . ومنه تشحط الطفل فى السلى – وزان الحصى : اضطرب فيه ، والسلى: هو ما يكون فيه الولد . المصباح المنير .

(٢) أخرج النسائى وغيره عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يكثر من ذكر الساعة حتى نزلت (فيم أنت من ذكراها) فكف عنها ، وعلى هذا فالاستفهام تعجيب من كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم .

وقتها . وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها - فما أنت من ذلك فى علم به ، كقولك : ليس فلان فى شىء . أى : فى علم . وقيل : (فِيمَ) إنكار ورد لسؤالهم ، وما بعده (أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) استئناف لتعليل الإنكار ، وبيان لبطلان السؤال ، أى فيم هذا السؤال ، ثم ابتدئ فقال : (أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) أى : إرسالك وأنت خاتم النبيين المبعوث فى نسم الساعة[1] علامة من علاماتها ودليل يدلهم على العلم بقرب وقوعها ، فحسبهم هذه المرتبة من العلم . (إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) أى : إلى ربك وحده ينتهى علمها ، ليس لأحد منه شىء كائنا من كان ، أو إليه تعالى يرجع العلم بكنهها ، وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى غيره سبحانه ، وإنما وظيفتهم أن يعلموا بقربها ومشارفتها ، وقد حصل لهم ببعثك الذى هو علامة من علاماتها ، فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك ؟ !

٤٥ - (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا) :

جاء هذا لدفع ما قد يتوهم - حسب الظاهر - من أنه ﷺ ليس له أن يذكرها بوجه من الوجوه ، فأزيح ذلك ببيان أن المنفى عنه - عليه الصلاة والسلام - ذكرها بقصد تعيين وقتها لهم حينما كانوا يسألونه عنها ، والمراد إنما شأنك أن تنذر من يخشاها فتنبهه من غفلته حتى يستعد لما يلقاه يومها من أهوال وشدائد ، فوظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها لا تعيين وقتها الذى لم يفوض إليك ، فلا تشغل نفسك بما عنه يسألون .

وتخصيص الإنذار بمن يخشى - مع عموم الدعوة - لأنه المنتفع بالإنذار بها ، والتخويف منها .

٤٦ - (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) :

أى : كأنهم يوم يرون الساعة لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلا عشية يوم واحد أو ضحاه ، والعشية : من الزوال إلى الغروب ، والضحى : من طلوع الشمس إلى الزوال ، والمراد : أنهم يستقصرون بعد قيامهم من قبورهم وذهابهم إلى المحشر - يستقصرون - مدة الحياة

---

(١) فى أوائل علامات الساعة .

الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحاه ، وقال قتادة : ذلك وقت الدنيا حين عاينوا الآخرة وما فيها .

قيل : إذا جاءت الساعة ذهبت صورة كل زمان مضى من أذهانهم سواء طال أو قصر، فحسبوا أنهم لم يمكثوا من يوم خلقهم إلى بعثهم إلا عشية أو ضحاها ، أى : طرف من أطراف النهار لا نهارًا كاملا ؛ لما هم فيه من خوف وهلع .

وإنما صح إضافة الضحى إلى ضمير العشية لما بينهما من الملابسة لكونهما فى نهار واحد .

والآية رد لما أدمجوه فى سؤالهم ، فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء لها قصدًا إلى الاستهزاء بها كما حكى عنهم « وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[١] ومثل هذه[٢] قوله تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ »[٣] والله أعلم .

---

(١) يس ، الآية رقم : ٤٨

(٢) الإشارة إلى قوله تعالى : (كأنهم يوم يرونها . . .) الآية .

(٣) سورة الأحقاف من الآية : ٣٥

ســورة عبس

مكيــة وعدد آياتها اثنتان وأربعون آية

وتسمى أيضـا الصاخة ، والسفرة

صلتها بمـا قبلها :

لما ذكر سبحانه فى السورة التى قبلها (سورة النازعات) « إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا » ذكر – عز وجل – فى هذه مَنْ ينفعه الإنذار .

أهم مقاصد الســورة :

بدأت السورة بعتاب النبى ﷺ على ما كان منه من إعراضه عن ابن أم مكتوم وعبوسه فى وجهه حين جاءه راغباً فى العلم والهداية ، وكان – صلوات الله عليه – مشغولا بدعوة سادات قريش إلى الإسلام رجاء أن يسلموا ، فيسلم بإسلامهم خلق كثير . (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَآءَهُ الْأَعْمَى ...) الآيات .

ثم ذكرت شرف القرآن وأنه محفوظ مصون من عبث العابثين ، وتطاول المفتونين (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ...) الآيات .

ثم أظهرت جحود الإنسان وإنكاره البعث والقيامة ، وأنه بذلك أهل لأن يلعن ويطرد من رحمة الله لشدة كفره بربه الذى خلقه ، وتفضل عليه بنعمه التى لاتعد ولاتحصى : (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ...) الآيات .

ثم أقامت البرهان من حال النبات على البعث وإحياء الموتى ، وتناولت دلائل القدرة فى هذا الكون حيث يسر الله للخلق سبيل العيش فى هذه الحياة بما أخرجه لهم من زروع وفواكه وأعشاب متاعاً لأنفسهم ودوابهم : (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا ...) الآيات .

ثم تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من فزع شديد يحمل المرء على أن يتنكر لأحب الناس إليه ، وأقربهم منه : (فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ...) الآيات .

وخُتمت ببيان حال المؤمنين وحال الكافرين فى هذا اليوم العصيب، وما بينهما من تفاوت : فأهل الدرجات يعلو وجوههم النور والسرور والبشر بنعيم الله ، وأهل الدركات تغشى وجوههم الظلمة والسواد من غضب ربهم ، وهم الكفرة الفجرة : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ...) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(عَبَسَ) : قطَب ، من باب ضرب ، أى : جمع بين عينيه .

(يَزَّكَّىٰ) : يتطهر بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة .

(أَوْ يَذَّكَّرُ) : يتعظ بنصائحك .

(تَصَدَّىٰ) : تتعرض له مقبلا عليه مهتماً به .

(وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَى) أى : مسرعاً يبتغى ما عندك من الهدى .

(تَلَهَّى) : تُعرض وتتشاغل ، يقال : لهى عنه كرضى ورمى ، والتهى وتلهّى : تشاغل .

(إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) : أى إن آيات القرآن الكريم موعظة يجب أن يتعظ بها .

(ذَكَرَهُ) أى : حفظ القرآن الكريم فاتعظ به .

(مَرْفُوعَةٍ) عالية القدر ، أو مرفوعة إلى السماء .

(سَفَرَةٍ) أى : كَتَبَةٍ ، جمع سافر بمعنى كاتب ، وهم الملائكة الكرام الكاتبون ، أوهم السفراء بين الله ورسله ، جمع سافر بمعنى سفير .

التفسير

١ ــ ٤ ــ (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَآءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى) :

روى أن ابن أم مكتوم ــ واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرون ــ وينتهى نسبه إلى لؤى القرشي ، وقيل : هو عبدالله بن شريح بن مالك بن أبى ربيعة الفهرى ، وقيل غير ذلك ، والأول هو المشهور كما يقول الآلوسى .

وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها : عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وقد أسلم بمكة قديماً وكان أعمى ، وقد عمى بعد إبصار ، وقيل : ولد أعمى ، أتى رسولَ الله ﷺ وعنده صناديد قريش وأشرافها : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، وكان مجتمعاً بهم يدعوهم إلى الإسلام ــ رجاء أن يسلم بإسلامهم خلق كثير ــ فقال : يارسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم ، فَكَرِهَ ــ صلواتُ الله عليه وسلامه ــ قطعَهُ لكلامه ، وظهرت الكراهيةُ فى وجهه ، فعبس وأعرض عنه ، فنزلت هذه الآيات عتاباً

للرسول ﷺ بعد انقضاء حديثه معهم ، وذهابه إلى أهله . وقيل : نزلت فى أثنائه فكان الرسول بعد ذلك يكرمه إذا رآه ، ويقول له : « مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى » ويبسط له رداءه ويقول : « هل لك من حاجة ؟ » واستخلفه على المدينة مرتين ، فكان يصلى بالناس ، وهو من المهاجرين الأولين . هاجر قبل النبى ﷺ ومات شهيداً بالقادسية يوم فتح المدائن فى عهد عمر – رضى الله عنه – وقيل : رجع إلى المدينة فمات بها .

والمعنى : قطب رسول الله ﷺ وجهه وأعرض عن ابن أم مكتوم بجسمه أو بترك الإصغاء إليه حينما جاءه يطلب منه أن يقرئه ، ويعلمه مما علمه الله ليزداد هداية ، فقطع بطلبه كلامه ﷺ أثناء تشاغله مع أشراف قريش ، والتعبير عنه بالأعمى للإشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه ﷺ مع القوم ، وفى ذلك عتاب له ﷺ مع أن الالتفات إلى الخطاب فى قوله – سبحانه – : (وَمَا يُدْرِيكَ) إيناس بعد إيحاش ، وإقبال بعد إعراض ، أى : ولوكنت دارياً بحاله لما بدر منك من عبوس وإعراض ، ولعلمت بما هو مترقب منه من تزكٍّ وتذكر ، والتعبير عنه بالأعمى فى الآية مقترناً بأل الجنسية دفع لتوهم الاختصاص بالأعمى المعين ، وإيماء إلى أن كل ضعيف من مثله يستحق الإقبال عليه والرأفة به (لَعَلَّهُ يزَّكَّى) أى : يتطهر من أوضار الإثم بما يسمع منك من نصح وإرشاد ، وعلم ومعرفة (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى) أى : يتعظ بتذكيرك إياه ، فتنفعه ذكراك وموعظتك وإن لم تبلغ إلى درجة التزكى التام .

والترجى فى الآية للدلالة على أن رجاء تزكيه أوكونه ممن يرجى منه ذلك كافٍ فى الامتناع عن العبوس له ، والإعراض عنه ، فكيف وقد كان تطهره محققاً لأنه من السابقين إلى الإسلام ؟

وفى الآية تعريض وإشعار بأن من تعرض ﷺ لتزكيتهم وتذكيرهم من أشراف قريش لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلا .

٥ – ٧ – (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى) :

تفصيل لما وقع منه ﷺ أى : (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) بماله وقوته عن سماع القرآن ، والاتعاظ به ، وعما عندك من العلوم والمعارف التى تهدى إلى خيرى الدارين (فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى)

أى : تتعرض بالإقبال عليه ، والاهتمام بإصلاحه وإرشاده مع أنه معرض عن دعوتك ، وفى ذلك مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبة هؤلاء : (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ) أى : ليس عليك بأس فى ألا يتطهر بالإسلام ، حتى تحرص على الاهتمام بأمره ، والإعراض عمن أسلم وتطهر ، مع أن المستغنى قد رضى لنفسه دنس الكفر والعصيان ظانًّا فى ماله غنًى عن هداية الله وطاعته ، ويقول الآلوسى : « والممنوع عنه فى الحقيقة الإعراض عمن أسلم لا الإقبال على غيره ، والاهتمام بأمره حرصاً على إسلامه » .

٨ - ١٠ - (وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ) :

أى : وأما الذى جاءك مسرعاً يبتغى عندك ماتتوق إليه نفسه ، ويتعلق به قلبه من أحكام الدين ، وخصال الخير (وَهُوَ يَخْشَىٰ) الله تعالى ، ويخاف الغواية ، وما دفعه إليك إلا حبه لأن يتطهر من الجهل ، وخوف الوقوع فى ظلمات الضلال ، وقيل : يخشى أذى الكفار فى إتيانه إليك . وقيل : يخشى العثار والكبوة إذ لم يكن معه قائد (فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ) أى : تتشاغل - عن إجابته إلى طلبه - بصناديد قريش ، بمعنى : لا ينبغى أن تتصدى للمستغنى عما عندك من الحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتتلهى به عن الفقير الطالب للخير .

وفى تقديم ضميره ﷺ وهو « أنت » على الفعلين : (تَصَدَّىٰ) و (تَلَهَّىٰ) تنبيه على أن مناط العتاب خصوصيته - عليه الصلاة والسلام - وتقديم (لَهُ) و (عَنْهُ) على الفعلين أيضاً للعناية والاهتمام بمضمونهما : لأنهما منشأ العتاب له ﷺ روى أنه - صلوات الله عليه - : ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ، ولا تصدى لغنى .

وبعد أن فصّل - سبحانه - فى الآيات السابقة حاله ﷺ مع المستهدى والمستغنى أتبعهما بقوله جل شأنه :

١١ ، ١٢ - (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ) :

المعنى : كلمة « كَلَّا » للردع والزجر ، أتى بها للمبالغة فى إرشاده ﷺ إلى عدم العودة . إلى ما عوتب عليه من الاهتمام بمن استغنى عما دعوته إليه من الإيمان والطاعة ،

وما يوجبها من القرآن الكريم ، والإعراض عمن جاءك مستهدياً ومسترشدًا ، أى : لا تعد إلى مثل ما وقع منك .

(إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) أى : القرآن الكريم تذكرة وموعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها ، وأنث الضمير العائد عليه لتأنيث الخبر ، وقيل : الضمير المؤنث يراد به الهداية المودعة فى سائر الكتب السماوية وأجلُّها القرآن جعلها الله تذكرة وإرشادًا إلى الطريق المستقيم .

وهذه الجملة المؤكدة تعليل للردع (بكَلّا) عما ذكر ، ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى ﷺ له ، وتحقيق أن شأنه أن يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ ، فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ) أى : حفظه واتعظ به ، ومن رغب عن حفظه والاتعاظ به - كما فعل المستغنى - فلا حاجة لك إلى الاهتمام بأمره ، وذكّر الضمير لكونه عائدًا على القرآن أو على التذكرة لأنها بمعنى التذكير والوعظ ، والجملة جىء بها للترغيب فى القرآن ، والحث على حفظه والاتعاظ به .

١٣ - ١٦ - (فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ) :

أى : إن آيات القرآن مثبتة فى صحف منتسخة من اللوح المحفوظ مكرمة عند الله - جل وعلا - وقيل : مثبتة فى صحف الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام - كقوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » هذه الصحف (مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ) أى : عالية القدر شريفة ، وقيل : مرفوعة فى السماء السابعة منزهة عن مساس أيدى الشياطين ، أو من كل دنس ، كما روى عن الحسن ، أو عن الشُّبه والنقص (بِأَيْدِى سَفَرَةٍ) وهم الملائكة - عليهم السلام - ومعنى كونها بأيديهم أن الله - سبحانه - جعلهم سفراء بينه وبين رسله يحملون إليهم الكتب المنزلة عليهم ، جمع سافر بمعنى سفير ، أو هى بأيدى الأنبياء - عليهم السلام - لأنها تنزل عليهم بالوحى ، وهم يبلغونها للناس . فكل من الملائكة والأنبياء يصح إطلاق السفير عليه ، كما يصح إطلاق الرسول على كل منهما ، أو السفرة : الكتبة من الملائكة ، قال مجاهد وجماعة : فإنهم ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، جمع سافر ، أى : كاتب .
(كِرَامٍ بَرَرَةٍ) أى : مكرمين معظمين عند الله - تعالى - من الكرامة بمعنى التوقير ، أو أنهم

متعطفون على المؤمنين يستغفرون لهم ويرشدونهم إلى الخير والكرامة ، وهم كذلك متصفون بصنع المكارم ، أتقياء أو مطيعون لله تعالى ، من قولهم : فلان يبر خالقه ، أى : يطيعه .

(قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(قُتِلَ الْإِنسَانُ) أى : لعن وطرد .

(مَآ أَكْفَرَهُ) : ما أشد كفره ، وهو تعجيب من إفراطه فى الكفران ، وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه .

(فَقَدَّرَهُ) أى : فهيأه لما يصلح له ويليق به ، أو فقدره أطوارًا من حال إلى حال .

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) أى : سهل له طريق الخير ، وطريق الشر ، وأقدره على اختيار أيهما .

(فَأَقْبَرَهُ) أى : جعله ذا قبر يُوَارَى فيه ، يقال : قَبَرَ الميتَ يَقْبُرُهُ ، وَيَقْبِرُهُ من بابى : نصر وضرب : إذا دفنه بيده ، ويقال : أقبره : إذا أمر بدفنه أو مكّن منه .

(أَنشَرَهُ) أحياه بعد موته للحساب والجزاء .

التفسير

١٧ - (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ) :

دعاء عليه بأشنع دعواتهم على ما هو المعروف فى لسانهم ، وهو كناية عن قبح حاله وأنه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحق معه أن يبقى حيا . (مَآ أَكْفَرَهُ) : تعجيب من إفراطه فى الكفر

والتكذيب بالمعاد ، وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه ، أى : ما أشد كفره الذى حمله على نسيانه لما يتقلب فيه من النعم ، وذهوله عن مسديها ومانحها حتى إذا ذكر به ، فهو يعرض عن الذكرى . والمراد بالإنسان إما أن يكون من استغنى عن القرآن العظيم ، فكفر بربه الذى نُعت بالصفات الجليلة التى تستوجب الإقبال عليه والإيمان به ، وإما أن يكون للجنس باعتبار انتظامه واشتماله على من استغنى وعلى أمثاله من أقرانه ، ويرجح هذا أن الآية نزلت على ما أخرج ابن المنذر عن عكرمة : فى عتبة بن أبى لهب : غاضب أباه فأسلم ثم استصلحه أبوه ، وأعطاه مالاً ، وجهزه إلى الشام ، فبعث إلى رسول الله ﷺ أنه كافر برب النجم إذا هوى ، فدعا عليه رسول الله ﷺ ... إلى آخر القصة ، وقد تحقق فيه الدعاء .

ويقول الآلوسى : ثم إنَّ هذا كلام فى غاية الإيجاز إشارة إلى الآية ، وقال جار الله : لا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أدل على سخطه ، ولا أبعد شوطاً فى المذلة مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للائمة على قصر متنه ، وقال الإمام : إن الجملة الأولى (قُتِلَ الْإِنسَانُ) تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفاً ، والثانية (مَآ أَكْفَرَهُ) تدل على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعاً .

١٨ - ٢٠ - (مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) :

شروع فى بيان إفراطه فى الكفران ، ببيان ما أفاض الله عليه وتفصيله من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لأن تقابل بالشكر والطاعة ، بدل ما تمسك به هذا الإنسان من الإمعان فى الكفر والتكذيب ، وفى الاستفهام التقريرى عن مبدأ خلقه ثم بيانه بقوله تعالى : (مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ) تحقير له وتوبيخ ، أى : من أى شىء حقير مهين خلق الله ذلك الكافر الجحود الذى يتكبر ويتعظم على ربه بترك الإقرار بتوحيده ؟ خلقه من نطفة قذرة (فَقَدَّرَهُ) أى : فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال ، أو فقدره أطوارًا من حال إلى حال إلى أن تم خلقه واكتمل تكوينه بأعضاء متناسبة تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خلقت له ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود على ما يقتضيه كمال نوعه . (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) أى : ثم سهل له

مخرجه من البطن بأن فتح له رحم أمه ، وألهمه أن ينتكس فتكون رأسه إلى أسفل ، وأحاطه بكل أنواع الرعاية ، أو ثم سهل له طريق الخير والشر ، ومكنه من السلوك فيهما بأن أقدره - عز وجل - على كلٍّ ومكَّنَهُ منه . والإقدارُ على ما يريده الإنسان نعمة ظاهرة بقطع النظر عن خيريته وشريته فى ذاته وبهذا الاعتبار كان تيسيرالسبيل إليهما نعمة من نعمه - جل وعلا - وهذا مثل قوله تعالى : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا »[1] .

٢١ - ٢٣ - (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) :

أى : جعله ذا قبر يوارى فيه بعد موته تكرمة له ، حتى لايبقى مطروحاً علىوجه الأرض ، فيصير جيفة يستقذرها كل من يراها ، ويتأذى بما ينبعث منها من روائح كريهة ، ويكون نهباً للسباع والطير وغيرهما .

والمراد من جعله ذا قبر أنه - عز وجل - أمر بدفنه ومكّن منه ، كما ينطق به معنى (فَأَقْبَرَهُ) .

وفى الآية إشارة إلى مشروعية دفن الميت من الأناسى بلا خلاف ، أما حرقه - كما يفعل بعض الوثنيين - فمناف للتكرمة ، ومجافٍ للسنة الإسلامية ، على ما فيه من البشاعة والشناعة ، وأما دفن غير الإنسان من الحيوانات فقيل : هو مباح ، وقد يطلب على سبيل الوجوب لأمر مشروع يقتضيه ، وذلك لدفع الأذى البالغ الذى يترتب على ترك جيفها مطروحة ، فتفسد الجو بروائحها الكريهة ، وتتكاثر عليها الجراثيم الضارة التى تفتك بصحة الإنسان ، وتودى بحياته .

والإتيان بالفاء فى قوله تعالى : (فَأَقْبَرَهُ) للإشارة بتعجيل دفن الميت عقب موته فهى فى موضعها ، وَعُدَّتِ الإماتة من النعم لأنها وصلة فى الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم .

(ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ) :

أى : إن الله تعالى ينشره ويبعثه بعد موته وإقباره فى الوقت الذى تتعلق به مشيئته ، وفى تعلق الإنشار بالمشيئة إيذان بأن وقته غير معين أصلا ، بل هو راجع للمشيئة ، بخلاف

---

(١) سورة الإنسان الآية ٣

الإماتة فإن وقتها فيه نوع تعيين فى الجملة على ما هو المعهود فى متوسط الأعمار الطبيعية.

(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) :

(كَلَّا) ردع للإنسان الكافر عما هو عليه من الطغيانُ البالغ ، أى : ليس الأمر كما يقول من أنه أدى حق الله عليه فى نفسه وماله (لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) بيان بسبب الردع ، أى : أنه لم يؤد شيئاً مما أمره به ربه من ترك الكبر المفرط ، ومن ترك التأمل فى الآيات ، والإيمان بالله مع ما يتقلب فيه من النعم العظيمة .

روى عن مجاهد وقتادة أن المراد أنه لم يقض جميع ما أمره الله به من أول زمان تكليفه إلى زمان إماتته وإقباره .

(فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا) : أنزلناه من السماء إنزالا عجيباً كأنه مراق من إناء ، يقال : صب الماء يصبه ، أى : أراقه ، من باب قتل .

(ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا) أى : ثم شققناها بالنبات شقًّا بديعاً ملائماً له فى حجمه .

(قَضْباً) أى : علفاً رطباً ، وسمى قضباً لأنه يقضب بعد نموه ، أى : يقطع مرة بعد أخرى كالبرسيم مثلا .

(غُلْباً) : كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان ، جمع غلباء .

(وَأَبًّا) الأَبُّ : الكلأُ والمرعى ، وهو ما تأْكله البهائم ، من أَبَّهُ : إذا أَمَّه وقصده ، أو مِنْ أَبَّ لكذا : تهيأَ له .

التفسير

٢٤ ، ٢٥ - (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) :

بعد أن ذكر - سبحانه - الأُمور المتعلقة بخلق الإنسان امتنَّ عليه بذكر الأُمور المتعلقة ببقائه فى الدنيا ليعتبر ويقابل النعمة بالشكر ، فقال سبحانه : (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ) بمعنى : إذا كان حاله وهو أنه لايزال إلى الآن سادرًا فى غيه ، لم يؤد شيئاً مما أُمر به مع أن النعم السابقة من أقوى الدوافع إلى الامتثال والاستجابة ، فحتم عليه أن ينظر نظر تفكير وإمعان إلى طعامه الذى عليه يدور أمر بقائه كيف دبرناه وهيأْنا له أسباب وجوده وعددنا أنواعه ليكون متاعاً له ولأَنعامه . ويشير إلى ذلك قوله تعالى : (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا) أى : أنزلناه من السماء إنزالا عجيباً ، ينبئ بقدرة القادر العظيم ، وظاهر الصب يقتضى تخصيص الماء بالغيث وهو المروى عن ابن عباس . وجوز بعضهم الأَعم كماء العيون ونحوه وتأْكيد الجملة للاهتمام بمضمونها ، والظاهر أن المراد من الطعام : المطعوم بجميع أنواعه ، واقتصر عليه ، ولم يذكر المشروب ، لأَن آثار القدرة فيه أكثر من آثارها فى المشروب .

٢٦ - (ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا) :

أى : شققناها شقاً بديعاً لائقاً بما يشقها من النبات : صغرًا وكبرًا ، وشكلا وهيئة ، وشق الأَرض بالنبات بعد نزول المطر يكون على التراخى المعهود كما يتضح ذلك من التعبير بـ (ثم) .

٢٧ - ٣٢ - (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) :

هذا استمرار فى تعداد النعم التى أفاضها الله - سبحانه - على وجه بديع خارج عن العادات امتناناً على هذا الكافر الذى بالغ فى الإعراض والجحود ، وأهمل ما تستدعيه تلك

النعم من الامتثال والإقبال على خالقه الذى أنزل الغيث من السماء ، فصبه صَبًّا على الأرض التى انشقت بالنبات المتنوع ، فنما وترعرع ، فكان منه كما يقول تعالى : (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا) يقتات به الناس ويدخرونه ، من نحو القمح والشعير (وَعِنَباً وَقَضْباً) أى : عنبا يتفكه به ، وقضبا ، أى : علفا رطبا للدواب ، وقيده بذلك الخليل وقال : إذا جف فهو التبن ، وسمى قضبا لأنه يقضب ، ويقطع مرة بعد أخرى كالبرسيم ونحوه . وقيل : هو ما يقضب ليأْكله ابن آدم غضا كالبقول وبعض الخضروات . (وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً) الزيتون معروف ويؤكل بكل أنواعه ، ويؤتدم بعصيره ، ويستشفى به ، والنخل تؤكل ثمرته بلحاً كانت أو بسرا ، أو رطباً أو تمرًا .

(وَحَدَائِقَ غُلْباً) وهى الأشجار المثمرة التى أُحيطت بسور يجمع بين أجزائها . فإن لم تحط به ، فليست بحدائق بل هى بساتين ، ومنه قيل : أحدقوا به ، أى : أحاطوا ووصف الحدائق بقوله تعالى : (غُلْباً) لتكاثفها ، وكثرة أشجارها ، وتشابك أغصانها ، أو لأنها ذات أشجار ضخمة عظيمة ، وكونها كذلك للإشعار بأن النعمة فى جملتها لا فى ثمرتها فحسب ، فمن أخشابها ما ينتفع به فى الإحراق والصناعة ، ومن أوراقها ما تأْكله الحيوانات حفاظاً على حياتها ، وهذا أكمل فى الانتفاع بها . (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) ذكرت الفاكهة مع أنها تدخل فى الامتنان بالحدائق ؛ للاعتناء بشأْن ما يتفكه به من ثمارها المتنوعة ، من كل ما حسن مذاقه ، وطاب ريحه ، وكبر حجمه ، ولا شك أن ذلك أَدْخَلُ فى الامتنان .

والأَبُّ : كما نقل عن ابن عباس وجماعة . أنه الكلأُ والمرعى ، وسمى بذلك لأنه يُؤَمُّ ويُقصد ، والأَبّ : القصد ، وقيل : هو ما أنبتته الأرض مما تأكله الدواب ولا يأْكله الإنسان ، وقال الضحاك : كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة .

روى أن أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – سئل عن الأَبِّ فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به ؟ ! وفى صحيح البخارى فى رواية

عن أنس أن عمر – رضى الله عنه – قرأ هذه الآية وقال : فما الأبُّ ؟ ثم قال : ما أمرنا بهذا ، أو ما كلفنا بهذا ، أى : بتتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ، بمعنى : لاتتشاغلوا عن أعمالكم بطلب معنى الأبِّ والبحث عنه ، ومعرفة النبات الخاص به إلى أن يبين لكم فى غير هذا الوقت ، واكتفوا بالمعرفة الجملية[1] ، ثم وصى الناس أن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن ، ليكون أكبر همهم ما هو أهم : من الشكر له – عز وجل – على نعمه العظيمة (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) : فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ، فاشكروه على آلائه ، وجزيل عطائه فقد ضمن لكم ولأنعامكم الحياة والمتاع .

(فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(الصَّآخَّةُ) : هى الداهية العظيمة التى يصخ لها الخلائق ، من صخ لحديثه : إذا أصاخ واستمع لشدة صوت ذى النطق كما يقول الراغب .

(وَصَاحِبَتِهِ) أى : وزوجته .

(شَأْنٌ يُغْنِيهِ) أى : له شأن يكفيه فى الاهتمام به ، ويشغله عن غيره .

التفسير

٣٣ – (فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ) :

شروع فى بيان معادهم إثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم ، أى : إذا جاء وقت الصاخة ،

---

(١) ليس فى ذلك نهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على ذلك .

وهى صيحة القيامة سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها ، وقال الخليل : هى صيحة تصخ الآذان صخا لشدة وقعها ، وأيًّا ما كان فهى اسم من أسماء يوم القيامة كما يقول ابن عباس: الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده ، وقد وصفت بها النفخة الثانية لأن النَّاس يصيخون لها ، أى : يستمعون ، تدفعهم شدتها إلى أن يسرعوا قياماً ينظرون ، وجواب (إذا) مقدر ، والمعنى : فإذا صخت الصاخة شغل كل إنسان بنفسه .

٣٤ ـ ٣٦ ـ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ :

يوم : تفسير للصاخة ، أى : فى هذا اليوم الذى ذهبت فيه هذه الحياة الدنيا ، وجاءت الصاخة يكون شأن ذلك الإنسان مع المذكورين فى الآيات ، أنه يعرض عنهم حينما يراهم ، ويفر منهم ولا يسأل عنهم كما فى الدنيا ؛ لأن الهول عظيم والخطب جسيم . قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : ياهذه أى بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نِعْمَ البعل كنتَ ، وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلب إليكِ اليوم حسنة واحدة تهبينها لى لعلى أنجو مما ترَيْنَ . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئاً ؛ فإنى أتخوف مثل الذى تخاف . وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى أى والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير ، فيقول له : يا بنى إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو مما ترى ، فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . يقول الله تعالى . ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ...﴾ الآيات .

وفى الحديث الصحيح : « إذا طلب إلى كلٍّ من أُولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق يقول : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ... إلى آخر الحديث » قال فى التسهيل : ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه ورتبهم على مراتبهم فى الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكبر ، وذلك بذكر الأخ والأبوين لأنهما أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين لأنهما أحب .

قيل : أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ،

ومن ابنه نوح – عليه السلام – وفرار هؤلاء ليس من قبيل هذا الفرار؛ لأنه وقع بغضا لهم وحذرا من لقائهم ، كما يروى عن ابن عباس .

٣٧ – (لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) :

استئناف لبيان سبب الفرار . أى : لكل ممن ذكروا فى الآيات السابقة شغل شاغل ، وخطب هائل يكفيه فى الاهتمام به ، ويصرفه عن غيره ، أخرج الطبرانى وابن مردويه والبيهقى والحاكم وصححه عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة قالت : قال النبى ﷺ : « يحشر النّاس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً [1] ، قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان ، قلت : يا رسول الله واسوأتاه ! ! ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : شُغل النَّاس عن ذلك ، وتلا : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ...) الآية وفى حديث آخر : « ما أشغل النَّاس عن النظر » وهناك أحاديث أخرى تدور حول هذا المعنى فمن أرادها فليرجع إلى تفسير ابن كثير وغيره .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(مُّسْفِرَةٌ) : مشرقة مضيئة .

(غَبَرَةٌ) : عليها غبار ودخان .

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) تغشاها ظلمة وسواد .

---

(١) جمع (أغرل) وهو غير المختون .

التفسير

٣٨ ، ٣٩ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) :

الآيات الخاتمة للسورة تبين حال الناس يوم يقفون بين يدى رب الأرباب ، وأنهم ينقسمون إلى السعداء والأشقياء ، وقد بدأت بالقسم الأول الذى آثر الحياة الباقية فعمل لها وأقبل عليها ، ورغب فيها رغبة الحريص عليها : فقال سبحانه : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ) أى : مضيئة متهللة من البهجة والسرور ، وعن ابن عباس : إن ذلك من قيام الليل ، وعن الضحاك : من آثار الوضوء فيختص ذلك بهذه الأمة نظرًا لأن الوضوء من خواصها بالنسبة إلى الأمم السابقة ، وقيل : من طول ما اغبرت فى سبيل الله (ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة جزاء إيمانها ، وما قدمت من صالح أعمال ، وشكر آلاء ونعم.

٤٠ - ٤٢ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) :

بيان لحال القسم الثانى الذى أهمل عقله ، وشغل نفسه بالأهواء والأباطيل فرضى جَهْلَه ، واتبع حُمْقَه ، واختار الفانية ، وأفرغ جهده فى الإقبال عليها ، والتمسك بها ، حتى كان شأنه ما يفصح عنه قوله تعالى : (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) أى : يعلوها غبار ودخان ويكون ذلك على الحقيقة ، أو يراد المجاز ، أى : مذلة وهوان . (تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) أى : يعلوها سواد وظلمة على الحقيقة ، أو غم وحزن على المجاز ، وقيل : لا ترى أقبح من اجتماع الغبار والسواد فى الوجه ، بمعنى أن على وجوههم غبارًا وكدورة فوق غبار وكدورة : إظهارا لشدة القبح (أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) أى : أولئك المتصفون بالكدورة والسواد الجامعون بين الكفر والفجور .

سورة التكوير

مكية وآياتها تسع وعشرون آية

ويقال لها سورة كورت ، او سورة إذا الشمس كورت

صلتها بما قبلها :

أنها شرحت حال يوم القيامة ، وبينت ما يقع فيها من أحداث عند قيام الساعة وبعد قيامها ، وذلك ما تضمنته آخر السورة التى تقدمت عليها (سورة عبس) .

اهم مقاصدها :

بدأت بتصوير الأحداث الهائلة التى تقع يوم القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كونى ، يشمل الشمس والنجوم ، والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والإنسان والحيوان ، والجنة والنار حتى لا يبقى شىء إلا وقد تغير وتبدل إبرازًا لمظاهر القدرة العظيمة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ...) الآيات .

ثم أكدت بالقسم شأن القرآن الكريم ، ونفت عنه الفرية ، وبينت أنه منزل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين جبريل - عليه السلام - الذى وصف بأنه ذو قوة عند ذى العرش مكين (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ...) الآيات .

ثم نزهت الرسول ﷺ عما يقوله المتقولون عليه كذباً وبهتاناً ، وأكدت بالقسم أنه ﷺ رأى جبريل - عليه السلام - فى صورته الملكية بالأفق الأعلى الواضح ، ونفت عنه أن يكون مقصرًا أو متهماً فى تبليغ رسالة ربه التى أداها بصدق وأمانة (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) .

ثم كذبت مزاعم المشركين حول القرآن العظيم ، وأبطلتها ببيان أنه موعظة من الله لعباده ، ينتفع بها أهل الاستقامة ، وهم بصنيعهم كمن ترك الطريق المستقيم الموصل للغاية ، وسلك طريق المخاوف والمهالك (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ...) الآيات .

ثم ختمت السورة برد أمر الناس جميعاً لمشيئة الله (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(كُوِّرَتْ) أى : لُفَّتْ ، ويلزم ذلك ذهاب ضوئها المنتشر فى الآفاق ، ومنه تكوير العمامة أى : لفها على الرأس .

(انكَدَرَتْ) : سقطت وتناثرت .

(وَإِذَا الْعِشَارُ) : جمع عُشَرَاء ، كنفاس جمع نُفساء ، وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهذا اسمها إلى أن تضع لتمام السنة .

(عُطِّلَتْ) أى : أهملت لاشتغالهم بأنفسهم وكانت موضع عنايتهم واهتمامهم لأنها أنفس أموالهم .

(حُشِرَتْ) أى : جمعت من كل جانب ، وقال ابن عباس : حشرها : موتها .

(سُجِّرَتْ) : ملئت نارًا ، من سجر التنور : إذا ملأه بالحطب .

(الْمَوْءُودَةُ) : التى دفنت حية .

(كُشِطَتْ) : نزعت وقلعت ، يقال : كَشَطْت جلد الشاة : إذا نزعته وفصلته عنها .

(سُعِّرَتْ): أوقدت إيقادًا شديدًا .

(أُزْلِفَتْ) : قربت وأدنيت من المتقين .

التفسير

١ - (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) :

هذه الآية والآيات التالية لها تصوير لأهوال القيامة ومبادئها ، وما يصاحب ذلك من شدائد وآلام ، وما يعترى الكون والوجود من مظاهر التبديل التى صورت تصويرًا رائعاً ، وبينت بياناً واضحاً .

والمعنى : أن الشمس قد أزيل نورها فأظلمت حينما كورت بلفها ، على أن المراد بذلك إما رفعها وإزالتها من مقرها ، فإن الثوب إذا أُريد رفعه يلف ويطوى ، ونحوه قوله تعالى : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَآءَ » وإما بلف ضوئها بعد انتشاره وانبساطه فى الآفاق ، وقال مجاهد : كورت ، أى : اضمحلت وذهبت ، وذلك يحصل عند خراب العالم الذى يعيش فيه الحى حياته الدنيا ، فإن عالمه الآخر الذى ينقلب إليه لايبقى فيه شىءٌ من هذه الأجرام .

٢ - (وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ) :

أى : انتثرت وتساقطت ، كقوله تعالى : « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ »[1] فذهب نورها ، وانمحى لألاؤها .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - لا يبقى يومئذ نجم إلا سقط فى الأرض ، أو تغيرت وانطمس ضوؤها لما غشيها من كدرة وسواد .

---

(١) الانفطار ، الآية رقم ٢

٣ - (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) :

أى : اقتلعت وأبعدت عن أماكنها بالرجفة الأُولى التى تنشق لها الأَرض ، وتضمحل ، وتتزلزل زلزالا شديدًا ، فتتقطع أوصالها ، وتنفصل منها جبالها ، وقيل : تسير مقذوفة فى الفضاء ، وقد تمر على الرءوس مع السحاب .

٤ - (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) :

أى : أهملت وسيبت ، وتركها أهلها بلا راع ، تسير حيث تشاءُ مع أنها أنفس أموالهم وأكرمها ؛ وذلك لاشتغالهم بأَنفسهم لشدة الكرب ، وعظم الهول ، وقيل : العشار من من السحائب فإن العرب تشبهها بالحوامل ، ومنه قوله تعالى : « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا »[١] وتعطيلها عدم إمطارها ، وقال القرطبى : الكلام على التمثيل ؛ إذ لا عشار حينئذ . والمعنى : أنه لو كانت عشار لعطلها أهلها واشتغلوا بأَنفسهم .

٥ - (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) :

أى : جمعت من كل ناحية كما قال تعالى : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »[٢] قال ابن عباس : حشرها : موتها وهلاكها . وقال قتادة : يحشر كل شىء حتى الذباب للقصاص ، فإذا قضى بينها ردت تراباً . وقال حجة الإسلام الغزالى وجماعة : إنه لايحشر غير الثقلين لعدم كونه مكلفاً ولا أهلا للكرامة بوجه ، وليس فى هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليه يدل على حشر غيرهما ، ويقول الآلوسى : وإلى هذا القول أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأَول وهو حشر الجميع لأَن لهم مايصلح مستندًا فى الجملة ، ويشير بذلك إلى الحديث الذى أخرجه مسلم والترمذى عن أبى هريرة فى هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة

(١) الذاريات ، الآية : ٢

(٢) الأنعام ، الآية : ٣٨

القرناء » وزاد أحمد بن حنبل : « حتى الذرة من الذرة » ويقول ، حجة الإسلام وجماعة : الحديث المروى عن مسلم والترمذى وإن كان صحيحاً إلا أنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام .

٦ – (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) :

أى : ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى يكون ملحها وعذبها بحرًا واحدًا ، من سَجَرَ التنور : إذا ملأهُ بالحطب ليوقده ، وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل عليها الدَّبُور فتسعرها وتصير نارًا تأجج لتعذيب أهل النار ، وقيل : أحميت بالنار حتى تبخر ماؤُها وظهرت النَّار فى مكانها ، وقريب من هذا قول الضحاك وقتاده : غاص ماؤها فذهب ولم يبق منه قطر ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون المعنى مُلكت وقيد اضطرابها حتى لايخرج عن الأرض من الهول ، وأنسب المعانى لمقام الوعيد قول ابن عباس وغير واحد .

٧ – (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) :

أى : قرنت كل نفس بشكلها : الصالح منها مع الصالح فى الجنة ، والطالح مع الطالح فى النَّار ؛ أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن النعمان بن بشير عن عمر – رضى الله عنه – أنه سئل عن ذلك فقال : يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فذلك تزويج الأنفس .

وقيل : تقرن نفوس المؤمنين بالحور العين ، ونفوس الكافرين بالشياطين ، وقيل : تقرن كل نفس بكتابها . وقيل : الأزواج بأزواجهم .

وقيل : بعملها . وأيًا ما كان فالنفس بمعنى الذات ، والتزويج بمعنى الاقتران ، ويحصل الاقتران عند البعث .

٨ ، ٩ – (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) :

كان من عادات بعض العرب الفاشية فيهم . أنه إذا ولد لأحدهم بنت وأراد أن يستحييها ولا يقتلها أمسكها مهانة لها واستخفافا بها إلى أن تقدر على الرعى ، ثم ألبسها جبة من

صوف أو شعر وأرسلها فى البادية ترعى له إبله وغنمه ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية[1] فيقول لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها[2] ، وقد حفر لها بئرًا فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر فيقول : انظرى فيها ، فيدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض ، وقيل : كانت الحامل إذا أوشكت على الوضع حفرت حفرة ، فتمخض على رأس الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها فيها ، وإن ولدت ابناً حسبته .

وكان الدافع لهم على تلك الجريمة الشنعاء ، التى اقترفوا إثمها ، وباءوا بقبحها ، الدافع لهم خشية الإملاق ، وخوف الاسترقاق لهن ، وإنها لقسوة شديدة وغلظة بالغة ، زينت لهم دفن فلذات أكبادهم أحياءً ، وهن ينظرن إليهم نظرة ضراعة واستعطاف ، ولكن هيهات للقلوب المتحجرة أن تلين ، واستمروا مستمسكين بفعلتهم المنكرة إلى أن جاء الإسلام فاقتلع عن قلوبهم بذور الشر والطغيان وملأها رأفة ورحمة . فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها .

(سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) :

توجيه السؤال لها دون وائدها مع أنه مقترف الذنب . لتسليتها ، وإظهار كمال الغيظ منه والسخط عليه بإسقاطه عن درجة الخطاب مبالغة فى تبكيته ، فإن المجنى عليه إذا سئل بمحضر الجانى عن الذنب الذى من أجله استحق هذه الجناية والعقاب الذى نزل به ، كان ذلك باعثاً للجانى على التفكير فى حال نفسه ، وحال المجنى عليه ، فيرى براءة ساحة المجنى عليه وأنه هو المستحق للعقاب ، وهذا نوع من الاستدراج وقع عن طريق التعويض .

وسؤال الموءودة عن سبب القتل هو سؤال تلطف ، لتقول : قتلت بلا ذنب ، أو لتدل على قاتلها ، أو لتوبيخ ذلك القاتل بصرف الخطاب عنه تهديدًا له ، فإذا سئل المظلوم فما بال الظالم ؟ !

---

(١) سداسية ، أى : بلغت ست سنوات .

(٢) أقارب الزوج أو الزوجة .

قال ابن عباس -: أطفال المشركين فى الجنة فمن زعم أنهم فى النار فقد كذب ، يقول الله - عز وجل - :(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)- ا هـ .

١٠ - (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) :

أى : وإذا فتحت صحف الأعمال ؛ لأن صحيفة كل إنسان تطوى عند موته ثم تنشر عند الحساب ، فيعطى صحيفته بيمينه أو شماله وفق عمله الذى سجلته عليه الملائكة ، وقيل : نشرت ، أى : فرقت بين أصحابها ، وعن مرثد بن وداعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن فى يده فى جنة عالية ، وتقع صحيفة الكافر فى يده فى سموم وحميم ، أى : مكتوب فيها ذلك ، وهى صحف غير صحف الأعمال . كذا قيل .

١١ - (وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ) :

أى : قطعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، والغطاء عن الشىء المستور به .

١٢ - (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) :

أى : أوقدت إيقادًا شديدًا للكفار ، قال قتادة : سعرها غضب الله ، وخطايا بنى آدم .

١٣ - (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) :

أى : أدنيت وقربت من المتقين ، كقوله تعالى : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ »[1] .

١٤ - (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ) :

أى : تبين لكل نفس جميع ما عملته من خير وشر وذلك بإحضار تلك الأعمال مدونة فى الصحف ويراد من إحضارها : اطلاع صاحبها عليها مفصلة فى صحفها بحيث لايشذ

(١) سورة ق ، الآية رقم ٣١

منها شىء ، كما ينبىء عنه قوله - تعالى - حكاية عنهم : « مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »[١] .

وقد يراد من إحضارها أنها تشاهدها على ما هى عليه فى الحقيقة ، فإن كانت صالحة على صورة أحسن مما كانت تدركها فى الدنيا ؛ لأن الطاعات لا تخلو فيها من نوع مشقة ، وإن كانت سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت عندها فى الدنيا فإنها كانت مزينة لها موافقة لهواها .

والآية جواب (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وما عطف عليها ، على أن المراد بها زمان ممتد يسع ما فى سياقها وسياق ما عطف عليها من الخصال مبدؤه النفخة الأُولى ، ومنتهاه فصل الخطاب بين الخلائق ، بمعنى أن علمها بما عملته وقع فى جزء من هذا الزمن وهو وقت نشر الصحف ، وإنما نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع كل هذه الدواهى تهويلا للخَطْبِ ، وتفظيعاً للحال .

ونسب الإحضار إلى النفس ، مع أنها تحضر بأمر الله - تعالى - كما يؤذن به قوله تعالى : «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ»[٢] لأنها لما عملتها فى الدنيا ، فكأنها أحضرتها فى الموقف .

وجوز أن يكون التعبير بقوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ ...) بالتنكير ... الآية ؛ للإشعار بأنه إذا علمت نفس من النفوس ما أحضرت عند قيام الساعة ، وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى التى عملت ، أى : إن العاقل يجب عليه أن يتجنب أمراً يخشى منه الندم والمؤاخذة .

---

(١) الكهف ، من الآية رقم : ٤٩

(٢) آل عمران ، من الآية رقم : ٣٠

(فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(الْخُنَّسِ) : جمع خانس . من خنس : إذا رجع . بينما ترى النجم فى آخر البرج ، إذْ كرٌّ راجعاً إلى أوله ، وقيل الخنوس : الانقباض والاستخفاء ؛ لأن هذه النجوم عند طلوعها يكون ضوؤُها خافتاً ، يقال خنس إبهامه : كنصر وضرب ، خنوساً : قبضه .

(الْجَوَارِى) : جمع جارية ، وهى النجوم السيارة ، من الجرى وهو المر السريع .

(الْكُنَّسِ) : جمع كانس وكانسة ، وهى التى تستتر وتغيب تحت ضوءِ الشمس ، يقال : كنس الظبى : دخل كناسه ، وهى مستترة فى الشجر الذى يأوى إليه .

(عَسْعَسَ) : أقبل ظلامه أو أدبر ، والمعنيَان مأثوران .

(تَنَفَّسَ) : أقبل وأضاء .

(لَقَوْلُ رَسُولٍ) الرسول : جبريل – عليه السلام – وقوله : تبليغه .

(بِضَنِينٍ) بكسر الضاد وفتحها – أى : ليس ببخيل ، بمعنى أنه لايبخل بالوحى ، ولا يقصِّر فى التبليغ والمراد به رسول الله – صلى الله عليه وسلم– .

(رَجِيمٍ) أى : مطرود من رحمة الله ، من الرجم : وهو الطرد ، أو مرجوم بالشهب ، أى : أنه ليس بعض المسترقة للسمع .

التفسير

١٥ ، ١٦ - (فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) :

شروع فى بيان شأن القرآن العظيم ، والنبوة الخاتمة ، بعد إثبات المعاد .

والمعنى : أنه - سبحانه - أقسم قسماً مؤكدًا على صدق القرآن ، وصحة رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - فقال : (فَلَا أُقْسِمُ) وهى عبارة من عبارات العرب يراد بها تأكيد الخبر وتقريره ، كأنه فى ثبوته وظهوره لايحتاج إلى قسم ، ويقال : إنه يؤتى بكلمة « لا » فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به .

(بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) وهى النجوم الجوارى التى تخنس بالنهار ، أى : ترجع ، ويختفى ضوؤها فيه عن الأبصار مع طلوعها وكونها فوق الأفق ، وتكنس بعد ظهورها فى الليل ، أى : تستتر فى مغيبها ، وتختفى فيه ، فتكون تحت الأفق بعد أن كانت فوقه . كما تستتر الظباء فى كُنُسِهَا ، وهى مُسْتَتَرِهَا فى الشجر الذى تأوى إليه ، فخنوس تلك النجوم : رجوعها وخفاؤها بحسب الرؤية ، وكنوسها : دخولها فى المغيب بعد ظهورها نهارًا . قال القرطبى : النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل وتكنس وقت غروبها ، أى : تستتر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الأمير - كرم الله وجهه - أنه قال : هى خمسة أنجم : زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، وصفت بما ذكر فى الآية لأنها تجرى وتسير مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس ، وتسمى المتحيرة لاختلاف أحوالها ، وعن ابن مسعود : أنها بقر الوحش ، وأخرج نحوه ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، وعبد بن حميد ، وروى ذلك أيضاً عن ابن جرير والضحاك قالوا : الخَنَس تأخر الأنف مع ارتفاع قليل من الأرنبة وتوصف به بقر الوحش والظباء .

وإنما أقسم ـ تعالى ـ بالخنس الجوارى الكنس لدلالتها بهذه الأحوال المختلفة ، والحركات المنسقة على عظيم قدرة مبدعها ومصرفها ـ عز شأنه ـ وإرشاد تلك الحركات على ما فى الكون من بديع الصنع ، وإحكام النظام .

١٧ ، ١٨ ـ (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) :

عطف على القسم السابق ، أى : لا أقسم بعظمة الليل إذا أقبل ظلامه أو أدبر ، فكلمة « عَسْعَسَ » من الأضداد ، قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى (عَسْعَسَ اللَّيْلُ) : أدبر وقيل : هى لغة قريش ، وقيل المعنى : أقبل ظلامه ، وذلك أوفق للآية التالية ، لما بين إقبال الليل وتنفس الصبح من المناسبة ، (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أى : لا أقسم كذلك بعظمة الصبح إذا تبلج وأضاء ، وامتدَّ حتى صار نهارًا بيِّنا أزال غمة الظلام الى كانت تغمر الأحياء فاستقبلوا يومهم مستبشرين بحياة جديدة فى يوم جديد .

والتعبير بقوله سبحانه : (تَنَفَّسَ) لأن الصبح إذا أقبل : أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ما يصاحبه نفساً له على المجاز .

١٩ ـ ٢١ ـ (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) :

ذلك جواب القسم وهو المقسم عليه المراد توكيده وتقريره ، أى : إن هذا القرآن العظيم الناطق بما ذكر من العظائم الهائلة ، (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) كرمه الله وعظمه ، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ كما قال ابن عباس وقتادة والجمهور ، وقد قاله من جهة ربه ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما أسند قوله إليه ، لأنه حامله إلى النبى ـ ﷺ ـ وناقله إليه من مرسله ـ عز وجل ـ (ذِى قُوَّةٍ) أى : قدرة على ما يكلف به لا يعجز ولايضعف ، كما قال ـ سبحانه ـ فى سورة النجم : « شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ » بمعنى أنه مع قوته يتصف بالحصافة فى العقل والرأى .

جاء فى قوته أنه ـ عليه السلام ـ بعث إلى مدائن لوط ، وهى أربع مدائن ، فى كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذرارى ، فحملها بمن فيها من الأرض السفلى ، ثم هوى

بها فأهلكها ، وقيل المراد : القوة فى أداء الطاعة لله – تعالى – وترك الإخلال بها . (عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ) أى : له مكانة رفيعة ، ومنزلة سامية ، وشرف عظيم عند صاحب العرش – جل شأنه – والعندية عندية تشريف وإكرام لاعندية مكان ، ولما كانت حال المكانة على حسب حال المكين قال – سبحانه – : (عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ) ليدل على عظم منزلته ومكانته بما لايدع مجالا لشك أو مماراة (مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) أى : مطاع هنالك فى العالم الإلهى بين الملائكة المقربين – عليهم السلام – يصدرون عن أمره ، ويرجعون إلى رأيه ، وهو أمين على الوحى ، لا يزيد فيه ، ولا ينقص مما أمر بتبليغه ، وفى رواية عنه – عليه السلام – قال : « أمانتى أنى لم أومَرْ بشىْء فَعَدَوْتُهُ إلى غيرِه »

٢٢ – (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) :

صاحبهم هو نبينا ﷺ نفى الله عنه الوصف بالجنون لأن بعض قريش كان يرميه بذلك عند ما يسمع منه غريب الخبر عن اليوم الآخر وغيره من مواضع العبر مما لم يكن معروفاً عندهم . ولا مألوفاً لعقولهم ، والتعبير عنه بصاحبكم أبلغ فى الاستدلال عليهم ، فإنه ﷺ نشأ بينهم من صغره إلى كبره ، وما عرفوا منه إلا كمال العقل ، والتبريز فى الفضل ، وأنه أكملهم وصفاً وأصفاهم ذهناً ، فكيف يوصف بالجنون عندما تأتيه الرسالة من ربه ؟ ولا يصفه بذلك إلا من سفه نفسه وتملكه الحمق والجنون .

٢٣ – (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) :

أى : وبالله إن محمدًا ﷺ قد رأى جبريل – عليه السلام – بالأُفق الأعلى الواضح المُظْهِر لما يُرى فيه (١) من جهة المشرق كما روى عن الحسن وقتادة ومجاهد وسفيان ، وهى الرؤية الأُولى بمكة ، الواقعة فى غار حراء ، رآه بالصورة التى خلقه الله عليها ، وعن مجاهد أنه ﷺ رآه نحو جياد وهو مشرق مكة ، وقيل غير ذلك .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى الآية : رآه بصورته عند سدرة المنتهى ، والأُفق – على هذا – بمعنى الناحيةِ ، أى : ناحيتها .

---

(١) الأفق بالضم وبضمتين : الناحية ، والجمع : آفاق . اهـ : قاموس .

٢٤ - ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ :

أى : وما رسول الله ﷺ ببخيل بما يأتيه من الوحى ، ولا بمقصر فى تبليغه لكم وتعليمكم إياه .

وسمى الوحى غيباً ، لأنه لا يعرفه . ولا يعلم حقيقته من البشر إلا الذى يوحى إليه . أو المعنى أنه ﷺ ليس بمتهم على الغيب ، بل هو صادق فى كل ما أخبر به عن الله تعالى - وكما لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متهم فيما يحكيه عن جبريل - عليه السلام - وذلك على قراءة بظنين .

٢٥ - ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ :

أى : ليس القرآن المنزل على محمد ﷺ بقول شيطان مسترق للسمع من الملأ الأعلى حتى تقولوا إنه كهانة ، ولا يتأتى أن يكون كذلك ، لأن صاحبكم قد عرف بصحة العقل وبالأمانة على الغيب ، فلا يكون ما يحدثكم به من أخبار الآخرة ، ومن الشرائع والأحكام قول شيطان رجيم ؛ قال تعالى : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ »[1] .

٢٦ - ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ :

يتهمهم بالضلال واعتبارهم ضلالا فيما يسلكونه فى أمر القرآن العظيم ، أى : فأى مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة بوضوح آياته ، وسطوع براهينه ، وأحاط بكم الحق من كل جوانبكم ، وذلك كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً فى بنيات[2] الطريق : هذا الطريق الواضح ، فأين تذهب؟ ! مثلت حالهم فى تركهم الحق مع وضوحه وظهوره ، وعدولهم عنه إلى الباطل مع قبحه ومقته ، بحالة من ارتكب شططاً فى سيره . وقيل : فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه من عند الله

---

(١) الشعراء ، الآيات : ٢١٠ - ٢١٢

(٢) وهى الطرق الصغيرة المتفرعة المتشعبة من الجادة .

عز وجل - كما قال الصديق - رضى الله عنه - لوفد بنى حنيفة حين قدموا مُسْلِمين ، وأمرهم فَتَلَوْا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة . فقال : ويحكم أين يذهب بعقولكم ؟ ! والله إن هذا الكلام لم يخرج من إله . وقال قتادة : (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) أى : عن كتاب الله وعن طاعته ، وقال الزجاج : معناه : فأى طريق تسلكونه أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ، وقال الجنيد : فأين تذهبون عنا وإن من شىء إلاَّ عندنا .

٢٧ ، ٢٨ - (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) :

أى : ماهذا القرآن إلاَّ ذكر لجميع الناس يتذكرون به ما وقر فى قلوبهم من الميل إلى الخير ، وإنما أنساهم ذكره ما طرأ على طباعهم من أنواع السوء التى تحدثها أمراض التقلب فى الحياة (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) بدل من العالمين ، أى : إنه ذكر يتذكر به من وجَّه إرادته للاستقامة على الجادة الواضحة ، بملازمة الحق والعدل ، وتحرى الصواب ، وأما من صرف نفسه عن ذلك ولم يرد إلاَّ الاعوجاج والانحراف ، فذلك الذكْرُ لا يؤثر فيه ، ولا يخرجه عن غفلته . هذا ، وقد فرض الله على المكلف أن يوجه فكره نحو الحق ليطلبه وأن يحفز عزمه إلى الخير ليكسبه .

٢٩ - (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

روى عن سليمان بن موسى والقاسم بن مخيمرة أنه لما نزلت (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) قال أبو جهل : جعل الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله تعالى : (وَمَا تَشَآءُونَ ...) الآية .

أى : وما تشاءون الاستقامة مشيئة نافعة لسبب من الأسباب ، أو فى وقت من الأوقات إلا أن يشاء الله تلك المشيئة المستتبعة للاستقامة ، فإن مشيئتكم لا تستتبع الاستقامة بدون مشيئة الله تعالى ، فهو سبحانه خلق العبد وأحاط علمه بكل ما يصدر عنه ويضمره من خير وشر . واستقامة وضلال وفق اختياره ، وبدافع من مشيئته واستعداده ، فإن فعل

بسبب ذلك خيرًا أعانه الله عليه ، وإن كان شرًّا لم يُعِنْهُ وتركه للشياطين يضلونه ، ولهواه يتحكم فيه ، ولهذا يكون مسئولا عن كل مايفعله لأنه فعله مختارًا حسب استعداده الذى عَلِمَهُ الله فيه عند خلقه ، كما قال تعالى : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[1] .

وهو سبحانه : (رَبُّ الْعَالَمِينَ) أى : مالك الخلق ومربيهم ، ومانحهم كل ما يتمتعون به من القوى والقُدَرِ ، وصاحب السلطان عليهم ، تبارك اسمه ، وعلا علوًّا كبيرًا ، والله أعلم.

---

(١) سورة الملك ، الآية : ١٤

سورة الانفطار

هى سورة مكية وآياتها تسع عشرة آية

صلتها بما قبلها :

هذه السورة الكريمة تتفق مع السورة التى قبلها وهى سورة التكوير فى أن كلا منهما تتحدث عمّا يصيب الكون من تغيّر وتبدّل قبيل القيامة ، فى التكوير يأتى قوله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » إلى قوله – جل شأنه : « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ » وفى سورتنا هذه يجىء قوله – عز من قائل – : (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) إلى قوله تعالى : (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) فهدف السورتين يكاد يكون متفقاً على غرض واحد : وهو بيان ما يحدث قبيل يوم القيامة من أحوال عظام وأحداث جسام .

بعض مقاصد السورة :

١ – تحدثت السورة فى أولها عما يحدث عند قيام الساعة من انفطار السماء وتشققها ، وانتثار الكواكب وتفرقها ، وانتزاعها من أماكنها ، وتفجير البحار وامتزاج مياهها وتفرقها فى جنبات الأرض ، وإزالة ما بينها من البرازخ والحواجز ، ثم بعثرة القبور وإخراج ما فيها من الأموات، وقد عادت لهم الحياة ، وما يعقب ذلك من حشر وحساب وجزاء (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) إلى قوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّاقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) .

٢ – ثم تذكر السورة الكريمة اغترار الإنسان وانخداعه بإمهال الله له وترك عقابه على ما يبدر منه من شرك ومعاص حيث لايقر له بنعمة ، ولا يعرف له – سبحانه – حقه فى إفراده بالوحدانية ، بل يصير كنودًا جحودًا لنعم الله عليه : (يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) ثم يوضح ويبين – سبحانه – سبب هذا الجحود والكفران وأنه هو التكذيب وعدم الإقرار بيوم القيامة ، أو بالإسلام فيقول : (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) .

٣ ـ ثم بعد ذلك قسمت النّاس إلى طائعين أبرار ، وإلى عاصين فجار ، وبينت مآل وعاقبة كل فريق منهم : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) .

وكانت نهاية السورة فى عرض أهوال اليوم الآخر :(وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) ، ثم ختمت بأن الملك له وحده ، وأن الأمر أمره ، فليس لأحد فى هذا اليوم حكم ولا أمر : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(انفَطَرَتْ) : تشققت وتصدعت .

(انتَثَرَتْ) : تساقطت متفرقة .

(فُجِّرَتْ) : من الفَجْرِ : وهو شق الشيء شقاً واسعاً ، والمراد : فتح بعضها على بعض فاختلط العذب بالملح .

التفسير

١ ـ ٥ ـ (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) :

أى : إذا السماء انشقت وتصدعت وصارت أبواباً وذلك لنزول الملائكة ، وإذا الكواكب تساقطت متفرقة منتثرة كجواهر ولآلىء قطع سلكها وبتر خيطها ، وإذا البحار فتحت وشقت جوانبها وزال ما بينها من الحواجز والبرازخ واختلط ماؤها العذب بمائها الملح الأجاج حتى صارت بحراً واحداً ثم تنشف الأرض جميعاً وتجف وتيبس فتصير بلا ماء ويقضى على أسباب الحياة فيها ، وإذا القبور قلب ترابها وصار أعلاها أسفلها ، وأخرج مَنْ دفن فيها (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) هذا جواب (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) وما عطف عليه ، أى : إذا حصل هذا علمت كل نفس مكلفة علماً تفصيليا عند نشر صحف أعمالها ما قدمته من عمل خير أو شر ، وما أخرته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعد ذلك ، أو ما قدمته من أموال لنفسها مما أنفقته فى سبيل الله ، وما أخرته وتركته لورثتها يستمتعون به وينتفعون وتحاسب هى عليه ، أما العلم الإجمالى لذلك فإنه يحصل قبل ذلك ؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاء فى أول الأمر .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) : ما خدعك وجرَّأك على عصيان ربِّك .

(فَسَوَّاكَ) : فجعل أعضاءك سويَّة سليمة مهيأة لمنافعها .

(فَعَدَلَكَ) : فساوى بين أعضائك فلم تتفاوت فى طول أو قصر ، أو لون أو شكل ، من : عدل فلاناً بفلان : إذا ساوى بينهما ، وقيل غير ذلك وسيأتى .

(فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) : وضعك وجعلك فى أى صورة اقتضتها مشيئته .

التفسير

٦، ٧، ٨ - (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ) :

هذا النداء للكافر الذى جحد بربه ، أو هو عام يشمل العصاة أيضاً ، أى : أى شىء خدعك وسوّل لك وجرأك على عصيان الله والمخالفة عن أمره ، وقد رباك بنعمه ورعاك بكرمه فى جميع أطوارك ومختلف أحوالك ، فجعلك خليفة فى أرضه ، وميزك بالعقل والتكليف وحمّلك الأمانة التى أشفقت السمٰوات والأرض والجبال من حملها ، وسخّر لك ما فى السمٰوات وما فى الأرض جميعاً منه ثم كان منك أن أعمتك النعمة وشغلتك عن المنعم حتى جحدته وكذبت رسوله ، والأجدر بك أن تقابل الإحسان بالطاعة ، والنعم بالشكر ، فالغرور أمارة الحمق وآية الجهل ، روى أن النبىّ ﷺ قرأ هذه الآية : «يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» فقال : «غره الجهل» ، وقاله عمر - رضى الله عنه - أيضاً وقرأ : «إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً» .

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) : هذه صفات مقررة للربوبية مبينة وموضحة لكرم الله على الإنسان ، مشيرة إلى أن ما كذبوا به من البعث والجزاء هو حق ثابت ؛ لأن من قدر على الخلق بدءًا كان أقدر عليه إعادة ، والتسوية : جعل الأعضاء سليمة سوّية معدّة لقيامها بمهامها وأدائها لمنافعها على وفق حكمته - تعالى - ومشيئته . قال ذو النون : سواك ، أى : سخّر لك المكونات أجمع ، وما جعلك مُسَخَّرًا لشىء منها . ثم أنطق لسانك بالذكر وقلبك بالعقل ، وروحك بالمعرفة ، وسرك بالإيمان ، وشرفك بالأمر والنهى ، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا (فَعَدَلَكَ) أى : فعدل أعضاءك ببعضها حتى اعتدلت وتساوت من غير تفاوت ، فلم يجعل إحدى اليدين أو الرجلين أطول ، ولا إحدى العينين أو الأذنين أو المنخرين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود ، بل لقد تم التناسق والتناسب بينها فى كمال إبداع ، وعظيم إحكام ، أو صرفك عن خلقة غير ملائمة لك إلى خلقة مستوية مستقيمة لا منكسة كالبهائم ، وجعلك تتناول طعامك بيدك ، وأكرمك بأمور كثيرة

ونعم عديدة : « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[1] أو صرفك عن خلقة غيرك وجعلك على صورة وخلقة حسنة مفارقة لسائر الخلائق .

هذا وإن تفاوت النّاس فى الحسن مما يدل على كمال اقتدار الله - سبحانه - وعظيم إبداعه .

(فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) أى : خلقك وكوّنك وجعلك فى أى صورة من الصور التى اقتضتها مشيئته ، وأرادتها حكمته من الصور المختلفة فى الحسن ، والذكورة والأنوثة ، والطول والقصر ، وغير ذلك من الصفات التى تتفاوت الناس فيها ، أو ركبك ماشاء من التراكيب تركيبا حسنا .

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(كَلَّا) : ردع وزجر وإبطال لقول من يقول .

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) : وإن عليكم من الملائكة لمحصين رقباء لأعمالكم لا يفوتهم منها شىء .

(كِرَاماً) : ذوى أفعال ظاهرة محمودة ومحاسن كبيرة .

التفسير

٩ - (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) :

(كَلَّا) حرف للردع والزجر ، أى : انزجروا وارتدعوا عن الاغترار بكرم الله والتعلق به وجعله وسيلة وذريعة إلى الكفر والعصيان مع كونه موجباً للشكر والطاعة ، ومانعاً من

(١) سورة إبراهيم - من الآية ٣٤ .

الفسوق والتمرد وذلك عند ذوى الفطر السليمة ، والطبائع المستقيمة أما أن تكون عاقبة ومآل إكرام الله لكم هو النكران والجحود فذلك آية على دنس النفس ، وخبث الطوية ، وسوء السريرة ، ولؤم الطبع ، وانحطاط الهمة ، ولله در القائل :

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تَمَرَّدَا

هذا ، وقد روى أن أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - دعا غلاماً له مرات فلم يجبه ، فنظر أمير المؤمنين فإذا الغلام بالباب ، فقال له : لِمَ لَمْ تُجِبْنِى ؟ فقال الغلام : لثقتى بحلمك ، وأمنى من عقوبتك . فاستحسن جوابه وأعتقه . ونقول : إن أغلب الظن أن أمير المؤمنين لم يستحسن جوابه وإنما أعتقه للؤمه وخسة طبعه ، ولعله - كرم الله وجهه - أعتقه رغبة عن معاشرة من يقابل الإحسان بالكفران ؛ إذ الطبائع السليمة والفطر المستقيمة يأسرها المعروف ، ويملكها ويأخذ بأعناقها إسداء الخير وجميل الفعل .

(بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) : الكلام يشير إلى أن هنا جملة مقدرة ، كأنه قيل : وأنتم لاترتدعون ولا تنزجرون عن الاغترار بكرم الله ، بل تجترئون وتسرعون بالهجوم على ارتكاب ماهو أشد منه وأعظم جرماً حيث تكذبون بالجزاء والبعث ، وفيه من الترقى والانتقال من الأهون - وهو الغرور - إلى ما هو أفظع وأغلظ وهو التكذيب ، أى : أنهم تجاوزوا الغرور إلى ما هو أدهى منه وأَمَرّ .

وقال الراغب : (بَلْ) هنا لتصحيح الثانى - وهو تكذيبهم بالجزاء والحساب - وإبطال الأول - وهو الاغترار بكرم الله - كأنه قيل : ليس هنا مقتض لغرورهم ، ولكن تكذيبهم حملهم على ما ارتكبوه .

١٠ - (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) :

أى : تكذبون وتجحدون بالجزاء يوم القيامة والشأن والحال أن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم لايغادرون صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصوها عليكم .

١١ – (كِرَاماً كَاتِبِينَ) :

أى إن هؤلاء الملائكة الحفظة كرام لدينا ذوو محاسن كبيرة ومنزلة عظيمة ومكانة رفيعة ، وهم يكتبون كل ما يصدر منكم ويسطرونه فى صحائف أعمالكم .

وفى تعظيم الله لهؤلاء الكرام الكاتبين بالثناء عليهم تعظيم وتفخيم لأمر الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأعمال ؛ حيث استعمل هؤلاء الكرام لديه – تعالى – فى ضبط وإحصاء ما يحاسب الناس عليه ، وحقاً :

إن العظائمَ كُفْؤُها العظماء .

وقال الإمام الآلوسى نقلا عن المهدوى : «ومن يكتب الأعمال ملكان : كاتب الحسنات وهو على المشهور على العاتق[1] الأيمن ، وكاتب ما سواها وهو على العاتق الأيسر ، والأول أمين على الثانى فلا يمكنه من كتابة السيئة إلا بعد مضى ست ساعات من غير مكفر لها ، ويكتبان كل شىء حتى الاعتقاد والعزم ، وحتى الأنين فى المرض ، وكذا يكتبان حسنات الصبى على الصحيح ، ويفارقان المكلف عند الجماع ، ولايدخلان مع العبد الخلاء ، أخرج البزار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ يَنهَاكُم عن التَّعرِّى ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل» .

١٢ – (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) :

من الأفعال قلَّ أو كثر ، دق أو عظم ، وليس ذلك إلَّا للجزاء وإقامة الحجة على الناس ، وإلَّا كان عبثاً يُنَزَّهُ ويُقَدس عنه – جل شأنه – .

---

(١) العاتق : موضع الرداء من المنكب ، والمنكب : مجمع عظم العضد والكتف .

(إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(الْأَبْرَارَ) : جمع بار ، مشتق من البر : وهو التوسع فى عمل الخير .

(لَفِى نَعِيمٍ) النعيم فى الأصل : النعمة الكثيرة ، والمراد هنا : الجنة لما فيها من ضروب النعم .

(الْفُجَّارَ) : جمع فاجر : وهو من شق ستر الدين وجاهر بالعصيان . من الفَجْرِ : وهو شق الشىء شقاً واسعاً .

(لَفِى جَحِيمٍ) الجحيم : مأخوذ من الجحمة : وهى شدة تأجج النَّار ، والمراد به هنا : النَّار فى الآخرة .

(يَصْلَوْنَهَا) : يقاسون حرها ، أو يدخلونها .

التفسير

١٣ - (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ) :

الأبرار : مشتق من البر ، وهو التوسع فى فعل الخير وأداء الطاعات ، وفى سنامها وقمتها طاعة الله ورسوله ، ثم بر الوالدين ، وقد روى أن رسول الله ﷺ سئل عن البر ؟ فتلا قوله تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

إلى قوله تعالى : « أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »[١] فهؤلاء الأبرار الطائعون الأخيار يشملهم الله برضوانه ويدخلهم فى نعيمه وجناته ، ويقيهم عذابه ، ويحفظهم من سخطه وعقابه .

١٤ - (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) :

أى : وإن الفجرة الذين شقوا وهتكوا ستر الدين ، وجاهروا الله بالمعاصى ولم يستحيوا منه - سبحانه - إن هؤلاء لمحاطون بالنار تضمهم وتشملهم وقد اشتد تأججها وعَظُمَ لهيبها .

١٥ - (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ) :

أى : يدخلونها ويقاسون حرها ولظاها يوم الجزاء والحساب الذى كانوا به يكذبون.

١٦ - (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) :

هذه الآية الكريمة قد جاءت قطعاً لرجاء الفجار وتيئيسا لهم من أن ينقطع عنهم العذاب ، أن ينالوا برد الراحة ، أى : أنهم ليسوا بمنأًى عن النار وعذابها طرفة عين ، وهو كقوله تعالى : « وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا »[٢] وذلك للدلالة على سرمدية العذاب ودوامه . وقيل معناه : وما كانوا غائبين عن النار قبل ذلك بالكلية ، بل كانوا يجدون سَمومها ولَفْحها ولظاها فى قبورهم ، يدل على ذلك قوله ﷺ : « القبرُ روضةٌ من رياض الجنة أو حُفْرةٌ من حُفَر النار » .

وفى تنكير النعيم والجحيم ما يشير إلى التفخيم والتعظيم فى شأن نعيم الأبرار ، وإلى التهويل والتبشيع فى حق عذاب الفجار . قيل : أخبر الله فى هذه السورة أن لابن آدم ثلاث حالات : حال الحياة التى يحفظ فيها عمله ، وهى حالته فى الدنيا ، وحال الآخرة التى يجازى فيها ، وحال البرزخ وهو قوله تعالى : (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ).

---

(١) من الآية : ١٧٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٣٧ من سورة المائدة .

١٧ - ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ :

هذا تفخيم وتعجيب وتعظيم لشأن يوم الجزاء وتهويل له ، أى : ما أعلمك ما هو يوم الدين ؟ وأى شىء هو فى شدته وهوله ؟

١٨ - ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ :

ذلك تفخيم لهذا اليوم إثر تفخيم وتعجيب منه بعد تعجيب أى : إن أمره لعجيب ، وشأنه لعظيم بحيث لا يستطيع أحد أن يدرك حقيقته أو يقف على كنهه لهوله وعظمته ، فهو فوق الوصف والبيان .

قال ابن عباس فيما روى عنه : كل شىء من القرآن من قوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ ﴾ فقد أدراه للرسول ، وكل شىء من قوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فقد طوى عنه .

١٩ - ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ :

أى : فى ذلك اليوم وهو ما هو من الشدة والهول لا يملك ولا يستطيع أحد أن يجلب لغيره نفعاً أو يدفع عنه ضرًّا ، بخلاف ما كان عليه الحال فى الدنيا ؛ فإن أهلها كانوا يتغلبون على الملك ، ويعين بعضهم بعضاً ، ويحمى بعضهم بعضاً ، فإذا كانت القيامة بطل ملك بنى الدنيا وزالت رياستهم ، فلا يحمى أحدٌ أحدًا ، ولا يغنى عنه شيئاً ولا يتغلب أحد على ملك غيره ، وهنا وعيد عظيم وتخويف شديد حيث عرفهم أنه لا يغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ دون سائر ما كان يغنى عنهم فى الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء ، فالأمر كله فى هذا اليوم لله وحده ، فقد انقطعت الأسباب وذهبت الوسائل ، وزالت الأغيار ، والله وحده هو صاحب الملك والسلطان ، وذلك كقوله : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ . لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ[1] » وقال قتادة : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ قال : والأمر - والله - اليوم لله - يريد فى الآخرة - وقال الواحدى : والمعنى أن الله - تعالى - لم يملِّكْ فى ذلك اليوم أحدًا شيئاً من الأمور كما ملكهم فى دار الدنيا .

---

(١) سورة غافر من الآية ١٦

هذا ، وقد قال رسول الله ﷺ : « يا بَنِى عبدِ المطلبِ اشتروا أنفسَكم مِن اللهِ ، يا صفيةَ عمةِ رسول الله ، يا فاطمةَ بنت رسول الله اشتريا أنفسَكما من اللهِ لا أُغنى عنكما من اللهِ شيئاً ، سَلَانِى من مالى ما شئتما » وصدق الله ورسوله .

سـورة المطففين

مكية وآياتها ست وثلاثون آية

صلة هـذه السورة بما قبلهـا :

أنها تنذر بالويل والثبور والعذاب بالنار فى الآخرة ، وتهدد الظالمين الذين ينتقصون حق غيرهم فهى تتلاقى مع السورة قبلها فى وعيد المخالفين الضالين ، كما أنها تبيِّن ما أجملته سورة الانفطار من عذاب الفجار ، وثواب الأبرار .

بعض مقاصد السورة :

١ ـ جاءت السورة فى أولها مهددة منذرة هؤُلاء الذين يجورون ويظلمون سواهم بالاستيلاء على حقهم ، واستلاب أموالهم ضاربين بعقاب الله لهم فى الآخرة عرض الحائط : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ...) إلى قوله : « أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) .

٢ ـ تحدثت السورة عن مآل الفجار ، وأَنَّهُمْ سيحاسبون على أعمالهم التى سجلت عليهم فى كتاب قد حفظ فى مكان حريز ضيق فى أسفل جهنم ، لايزاد فيه ولا ينتقص منه ، وأنهم لاينعمون بفضل الله ورحمته ولا يسعدون برؤيته يوم القيامة ، وأنهم مع ذلك يصْلَوْنَ جهنم ويعذبون بعذابها الأليم : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) إلى قوله : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) .

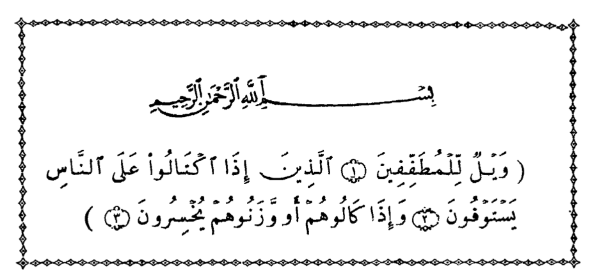
٣ ـ ثم أتت السورة بنعيم الأبرار الذين جمعوا خصال الخير ، وأبانت سعادتهم فى الآخرة ، وأنهم فى مرضاة ربهم وكرمه : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) إلى قوله : (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) .

٤ ـ وفى ختام السورة يجىء ويظهر ما يلقاهُ المجرمون من سخرية المؤمنين واستهزائهم بهم جزاءَ ما كان المجرمون يفعلونه بالمؤمنين فى الدنيا من الإيذاء والسخرية جزاءً وفاقاً :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ - هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

سبب نزول السورة :

عن ابن عباس قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا أخبث الناس كيلا فأنزل الله - عز وجل - : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فأحسنوا الكيل بعد ذلك » .



المفردات :

(وَيْلٌ) : هلاك وبوار ، أو مقر فى الجحيم .

(لِلْمُطَفِّفِينَ) المطففون : جمع مطفف ، وهو الذى يبخس وينقص فى الكيل والوزن ، وأصله : من الطفيف ، وهو الشيء اليسير .

(يُخْسِرُونَ) : ينقصون ويظلمون غيرهم .

التفسير

١-٣ - (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) :

أى هلاك وبوار ، أو مقر فى النار لهؤلاء الذين إذا أخذوا حقهم من سواهم أخذوه كاملا غير منقوص ، وهم بعملهم هذا يحرصون أن ينالوا حقهم دون حيف أو ظلم من أحد عليهم ،

ولو أدى ذلك إلى أن يحملوهم ويقسروهم على ذلك قسرًا وحملاً ، ومع ذلك فهم فى إيفاء سواهم مافى ذمتهم من حق وما عليهم من تبعة يخسرون غيرهم وينقصونهم ، ويناالون من حقهم لديهم ، لا يبرئون ذمتهم ، ولايتحللون من تبعتهم ؛ إذ قد تملكتهم الأَثرة واستولى عليهم حبهم لأَنفسهم ، وهذا آية جشع نفوسهم ، وتمكن الطمع منهم ، وتسلط الظلم عليهم ، وإلَّا لأنصفوا النَّاس منهم ، وأقاموا العدل فيهم ، فأَعطوهم مثل ما أخذوا منهم وهذا الوعيد بالويل والثبور وإن جاءَ فى حق البخس والنقص فيما يكال ويوزن إلا أن النص الكريم يتسع ويتناول غير ذلك من سائر الحقوق التى يتداولها الناس فيما بينهم .

قال القشيرى : لفظ المطفف يتناول التطفيف فى الوزن والكيل ، وفى إظهار العيب وإخفائه ، وفى طلب الإنصاف والانتصاف ؛ ويقال : من لم يرض لأَخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف والمعاشرة والصحبة من هذه الجملة ، والذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ، ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه لنفسه فهو من هذه الجملة ، والفتى من يقضى حقوق الناس ولا يطلب من أَحد لنفسه حقًّا . ا هـ .

وفى التعبير بالمطففين ما يشير إلى أن الذى يطمع فى حق سواه إنما يأْخذ حقيرًا وينال تافهاً قليلاً ؛ فالمطفف مأْخوذ من الطفيف : وهو النزر القليل ، وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفف ؛ لأَنه لايكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشىءَ الطفيف الخفيف .

وروى ابن قاسم عن الإمام مالك أنه قرأَ : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فقال : لا تطفف ولاتَخْلِبْ (لاتخدع) ولكن أرسل وصب عليه صبًّا ، حتى إذا استوفى أَرسل يدك ولا تمسك . وقال ابن الماجشون : نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطفاف وقال : « إن البركة فى رأْسه » وقال : بلغنى أَن كيل فرعون كان مسحاً بالحديدة .

ولعل السر فى مجىء (عَلَى) بدل (مِنْ) فى قوله تعالى : (إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ) للإِشعار والإيذان بأَن عملهم هذا فيه إضرار بالمكتال منهم وتحامل عليهم . وقال الفراءُ : (مِنْ) و (عَلَى) يتعاقبان فى هذا الموضع ؛ فإذا قال : اكتلت عليك ، فإنه قال : أَخذت ما عليك ، وإذا قال : اكتلت منك ، فكقوله : استوفيت منك .

هذا ، وقد تهدد الرسول ﷺ وتوعد من يفعلون ذلك والذين يماثلونهم من الفجرة بما رواه ابن عباس عن النبي – عليه الصلاة والسلام – قال : « خمس بخمس ، ما نقضَ قومٌ العهدَ إلَّا سلط اللهُ عليهم عدوَّهم ، وما حكموا بغيرِ ما أنزلَ اللهُ إلَّا فشا فيهمُ الفقرُ ، ولا ظهرتِ الفاحشةُ فيهم إلا ظهر فيهم الطاعونُ ، ولا طففوا الكيلَ إلاَّ مُنعوا النباتَ وأخذوا بالسنين ، ولا مَنعوا الزكاةَ إلَّا حبسَ اللهُ عنهم المطرَ » وقال مالك بن دينار : دخلت على جارٍ قد نزل به الموت فجعل يقول : جبلين من نار ! جبلين من نار ! فقلت : ما تقول ؟ أتَهْجُر ؟ (أتهذى) قال : يا أبا يحيى : كان لى مكيالان أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر ، قال مالك : فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، فقال : يا أبا يحيى : كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظما ، فمات من وجعه .

(أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾)

المفـــردات :

(أَلَا يَظُنُّ) الظن : هو إدراك الطرف الراجح ، ويراد به هنا : التردد والتخمين ، وقيل غير ذلك .

قال الراغب : الظن : اسم لما يحصل من أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جدًّا لم تتجاوز حد الوهم .

التفسير

٤ – (أَلَا يَظُنُّ أُولَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ) :

هذا إنكار لفعلهم وتقبيح لصنيعهم وتعجيب عظيم لحالهم فى الاجتراء على التطفيف حتى كأنهم لايخطرونه ببالهم ، ولا يمرونه بخاطرهم ، ولا يظنون ظنا أنهم مبعوثون ومنشورون من قبورهم أحياء فمحاسبون على مقدار الذرة والخردلة ، فالظن والحدس فى

هذا المقام كاف لمنعهم وردعهم عن اقتراف البخس والنقص فى الكيل والوزن أخذًا بالأحوط . ودفعاً لما عساه أن ينالهم من نكال وعقاب جزاء بخسهم ونقصهم ، فما بالهم لو علموا وأيقنوا أنهم ملاقون ربهم فمجازيهم على ما اقترفوه من ظلم وما فعلوه من جرم وإثم .

٥ - (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) :

وهو يوم القيامة ، فعظمه كبير لايقادر قدره . وقد وصف بذلك لعظم ما فيه من الأهوال والشدائد الجسام .

٦ - (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : يقومون لحكمه وقضائه ولمحض أمره وطاعته لا لشىء آخر ، وروى عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى هذه الآية قال : « حتى يغيبَ أحدُهم فى رشحهِ إلى أنصاف أذنَيْه » وقد ورد أنه المراد من قوله تعالى : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » . وقد روى عن النبى ﷺ : « إنه ليخفَّف عن المؤمنِ حتى يكونَ أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » وهو مروى عن ابن عباس وإسناده صحيح .

والآية تدل على التهديد والوعيد ؛ حيث أبانت أن الناس تقوم لرب العالمين ، والقيام فى هذا اليوم لايكون إلّا مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والخوف والرهبة من جلال الله وغضبه هذا مع وصف نفسه - جل شأنه - بأنه رب العالمين ؛ فهو مالك نواصيهم ، والقاهر فوقهم والمتصرف فيهم تصرفاً تاماً ولا معقب لحكمه .

(كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾)

المفـردات :

(الْفُجَّارِ) : جمع فاجر ، وهو من شق وهتك ستر الدين وتجرأ عليه .

(سِجِّينٍ) : جب فى جهنم ، وقيل : فى حبس وضيق شديد ، فِعِّيل من السجن ، وقيل غير ذلك .

(مَرْقُومٌ) : مكتوب كالرقم فى الثوب لا يمحى ، وقيل غير ذلك .

(مُعْتَدٍ) : فاجر جائر عن الحق .

(أَثِيمٍ) : كثير الإثم منهمك فى الشهوات .

(أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أكاذيب وخرافات الأوائل سطروها وزخرفوها فى كتبهم .

التفسير

٧-٩ – (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) :

(كَلَّا) : ردع وزجر وانتهار لهم ، أى : ارتدعوا وانزجروا عن تطفيف الكيل والوزن ، أو عن التكذيب بالآخرة (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) : هذا تهديد لهم وتأكيد على أن أعمال الفجار وهم من هتكوا ستر الدين وتجرأوا عليه وبارزوا الله وجاهروه بالمعاصى أى : أن أعمال هؤلاء مسطورة ومكتوبة فى شر موضع ، إنها فى جب أسفل الجحيم ، أو فى حبس وضيق شديد ، وكان أمره على هذا النحو للدلالة على خساسة وحقارة منزلتهم ، لأن كتابهم يحل وينزل بسبب الإعراض عنه والإبعاد له محل الزجر والهوان ، وقال القشيرى : سِجِّين : موضع فى السافلين يدفن فيه كتاب هؤلاء فلا يظهر ، بل يكون فى ذلك الموضع كالمسجون ، وهذا دليل على خبث أعمالهم ، وتحقير الله إياهم ، ولهذا قال فى كتاب الأبرار : يشهده المقربون (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) أى : مكتوب كالرقم فى الثوب لا ينسى ولا يمحى .

وقال قتادة : مرقوم ، أى : مكتوب رقم لهم بشر لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحدٌ .

١٠ - ١٢ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) :

أى : هلاك شديد وبوار ثابت لا يزول ولا يحول لهؤلاء المكذبين الجاحدين (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) وصفهم - سبحانه - وكشف عن حقيقة تكذيبهم ، وبيّن أنهم هم الذين يكذبون بيوم القيامة : يوم الحساب والجزاء (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) جاء سبحانه فى هذه الآية بما يؤكد ذمهم وتجريمهم ، أى : وما يكذب بهذا اليوم إلا كل متجاوز حدود النظر والاعتبار بآيات الله المتلوّة والمنظورة ، أو كل من تعدى حدود الله وفجر وجار عن الحق وطرحه وراء ظهره فلم يعمل به ، وكان كثير الإثم عظيم الذنب منهمكا فى شهوات الدنيا الفانية حتى شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية فى الآخرة ، وحملته ودفعته إلى جحدها وإنكارها .

١٣ - (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : إذا سمع ذلك الكافر الفاجر كلام الله - تعالى - من رسول الله ﷺ قال - مكذباً - : إنَّ ماتقوله وتتلوه يا محمد هو أكاذيب وخرافات الأوائل سطروها وزخرفوها فى كتبهم نَسَبْتَها زورًا وبهتاناً إلى الله ، فهى ليست منزلة من عنده - سبحانه - .

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : غطَّى وغَشَّى قلوبهم ما اقترفوه من الذنوب فلم يهتدوا إلى الحق .

(إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) : إِنَّهُمْ لممنوعون عن رؤْية الله فى الآخرة .

(لَصَالُوا الْجَحِيمِ) : لداخلو النار ، أو لمقاسون حرها وسعيرها .

التفسير

١٤ - (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أى : ليس الأَمر كما زعموا وادعوا أن القرآن أساطير وأكاذيب الأَولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله محمد ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإِيمان به ما عليها من الرين الذى قد لبس قلوبهم وغطاها من كثرة الذنوب والخطايا ، فعن أَبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إنَّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً كانتْ نكتة سَوداءَ فى قلبِهِ ، فإن تابَ صقلَ قَلبه ، فإنْ زادَ زادت » فذلك قول الله - تعالى - : (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت .

١٥ - (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) :

أى : حقًّا إِنَّهُمْ مع ما يلقونه من الضيق الشديد فى سجن مقيم وعذاب أليم هم أَيضاً محجوبون وممنوعون من رؤْية ربهم وخالقهم فى الآخرة ، قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله - عزَّ وجل - يُرى فى القيامة ، ولولا ذلك ماكان فى هذه الآية فائدة ، ولا خسَّت[1] منزلة الكفار بأَنهم يحجبون ، وقال - جل ثناؤُه - : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[2] فأَعلم الله - جل ثناؤُه - أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه .

وقال مالك بن أنس : لما حجب أعداءَه فلم يروه تجلى لأَوليائه حتى رأَوه . وقال الشافعى

---

(١) خس الشئُ يخس : من بابَى ضرب وتعب ، خساسة : حقرَ فهو خسيس . المصباح المنير .

(٢) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، ويرى قوم أنهم محجوبون وممنوعون عن رضاه ، قال مجاهد فى قوله تعالى : (لَمَحْجُوبُونَ) أى : عن كرامته ورحمته ممنوعون ، وقال قتادة : هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، والجمهور على الرأى القائل بأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه .

١٦ - (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) :

أى : ثم هم مع هذا الحرمان من رؤية الرحمن هم كذلك أيضاً من الملازمين لنار اشتد تأججها يحترقون فيها ، وغير خارجين منها .

١٧ - (ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) :

ثم يقال لهم من قبل الله القهار - وذلك على سبيل التقريع والتصغير والتحقير - : هذا العَذَاب الذى تَذوقونه وتصلونه وتتقلب وجوهكم فيه هو ماكان الرسول يحذركم ويخوفكم وينذركم به ، فكنتم تستكبرون وتستهزئون وتكذبون به ، وها هو ذا قد لحقكم فلا تستطيعون له دفعاً ولا منه فكاكاً .

(كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾)

المفـــردات :

(عِلِّيُّونَ) : عَلَم على ديوان الخير الذى كتب فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين ، وقيل غير ذلك .

(مَرْقُومٌ) : رقم وكتب فيه بالنجاة من الحساب يوم القيامة .

(يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) : يحضره ويحفظه المقربون من الملائكة ، أو يشهدون بما فيه يوم القيامة .

التفسير

١٨ - (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) :

لما ذكر - سبحانه - حال الفجار المطففين أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لايجورون ولا يظلمون فقال : (كَلَّا) أى : ليس الأمر كما يزعمه هؤلاء الفجرة من إنكار البعث ومن أن القرآن الكريم خرافات وأكاذيب الأولين ، ثم قال : (إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) أى : إن ما يفعله الأبرار من أعمال الخير والطاعة مسطور ومكتوب فى ديوان الخير الذى يكتب فيه كل ما عملته الملائكة وصالحو المؤمنين من الإنس والجن ، وسمى بذلك لأنه سبب الارتفاع إلى الجنات ؛ إذ يرقى الأبرار ويرتفعون من درجة إلى أخرى حيث يشاءُ الله من رضوانه وقربه ، وقيل : إن (عِلِّيِّينَ) جمع عِلِّيّ عَلى (فِعِّيل) من العلو للمبالغة فى سموه ورفعة شأنه ، وقال آخرون : هى مراتب عالية محفوفة بالجلالة قد عظمها الله وأعلى شأنها .

وقيل : إن لكل من الأبرار والفجار كتاباً خاصًّا بهم تكتب فيه أعمالهم ، ثم يضم كتاب الأبرار إلى كتاب أعظم وأشمل يحويه كما يحوى ويضم كل كتاب من كتب الأتقياء والصلحاء من الثقلين وكتب الملائكة .

أما كتاب الفجار فهو وما على شاكلته من كتب الأشقياء والمردة والشياطين فيوضع ويسجن فى كتاب خسيس حقير فى مكان ضيق مهين وهو سجِّين[1] .

١٩ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) :

أى : ما الذى أعلمك يا محمد أى شىء علِّيُّون ؟ وذلك تفخيماً لشأنه وتعظيماً لمنزلته ، إنه فى الدرجة الرفيعة والمنزلة السامية .

---

(١) فهو من ظرفية الكل للجزء ، قال الآلوسى : وقيل : الكتاب على ظاهره ، والكلام نظير أن تقول: إن كتاب حساب القرية الفلانية فى الدستور الفلانى ، لما يشتمل على حسابها وحساب أمثالها .

٢٠ - (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) :

أى : إن علِّيين كتاب قد رقم وسطر فيه ما أُعد لهم من الثواب ومما يوجب سرورهم وبهجتهم .

٢١ - (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) :

أى : يحضره ويشهده الملائكة المقربون ويحفظونه ، أو يشهدونه عند صعوده كرامة للأَبرار المتقين ، أويشهدون بما فيه يوم القيامة تزكية للأَبرار وتكريما لهم . أخرج ابن المبارك عن صخر بن حبيب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الملائكةَ يرفعونَ أعمالَ العبدِ من عبادِ اللهِ - تعالى - يستكثرونَهُ ويزكونَهُ حتى يبلغُوا به إلى حيثُ شاءَ اللهُ - تعالى - من سلطانِه ، فيوحِى الله - تعالى - إليهم : إنكم حفظةٌ على عملِ عبدِى وأنا رقيبٌ على ما فى نفسِه ، إن عبدِى هذا لم يُخلِصْ لى عملَه فاجعلوه فى سجِّين ، ويَصعدونَ بعملِ العبدِ يستقلونَهُ ويستحقرونَهُ حتى يبلغوا بِهِ إلى حيْث شاءَ اللهُ - تعالى - من سلطانِهِ فيوحِى اللهُ - تعالى - إليهم : إنكم حفظةٌ على عملِ عبدى وأنا رقيبٌ على ما فى نفسِه ، إن عبدِى هذا أخلص لى عملَه فاجعلُوه فى عِلِّيين » .

وقال الإمام الفخر الرازى : إن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة ، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة ، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار فى أسفل السافلين وفى أضيق المواضع إذلالَ الفجار وتحقيرَ شأْنهم ، كان المقصود من وضع كتاب الأَبرار فى عليين ،وشهادة الملائكة بذلك إجلالَهم وتعظيمَ شأْنهم .

(إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(نَعِيمٍ) : نعم كثيرة .

(الْأَرَائِكِ) : جمع أريكة ، وهى سرير منجّد فى بيت أو قُبَّة زينت بفاخر الثياب والستور سميت بذلك لأنها قد تتخذ من خشب شجر الأراك ، أو لكونها مكانا للإقامة من قولهم : أرك بالمكان أروكاً : أقام .

(نَضْرَةَ النَّعِيمِ) : بهجة التنعم وماءه ورونقه .

(رَحِيقٍ) الرحيق : الشراب الخالص الذى لا غشّ فيه ، وقيل غير ذلك .

(خِتَامُهُ مِسْكٌ) : خاتمة شربه وآخر طعمه مسك .

(فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) : التنافس ، أصله التغالب فى الشىء النفيس ، كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به .

(وَمِزَاجُهُ) : مزج الشراب خلطه ، والمزاج : ما يمزج به .

(تَسْنِيمٍ) : اسم لعين بعينها فى الجنة .

التفسير

٢٢ - ٢٤ - (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) :

لما عظم الله كتابهم فى الآية المتقدمة ، وأنه فى عليين ويشهده المقربون ، عظم بهذه الآية منزلتهم فبيّن - سبحانه - أنهم فى تنعم وتلذذ ، وتحيطهم السعادة ويغمرهم الفرح من كل جانب ، وأظهر ذلك - جل شأنه - فى أنهم وهم على الأرائك والسرر التى زينت وجمّلت بفاخر الفرش وعظيم الستور يرون وينظرون ما أعده الله لهم ، وهيأه من ألوان النعيم فى الجنة من الحور والولدان ، والقصور والأنهار والأشربة والأطعمة والملابس والمراكب ، أو ينظرون إلى أعدائهم وهم يعذبون فى النار ، أو إذا اشتهوا شيئاً نظروا إليه فيحضرهم ، ويرى الإمام الفخر الرازى : أنهم ينظرون إلى ربهم ، قال : ويتأكد هذا التأويل بما أنه

ـ تعالى ـ قال بعد هذه الآية : (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) والنظر المقرون بالنضرة : هو رؤية الله ـ تعالى ـ على ما قال : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » ، ومما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات وما هو إلا رؤية الله ـ تعالى ـ اهـ .

ويستبين ويظهر فرحهم وسرورهم ـ أيضاً ـ بما يبصره ويشاهده الرائى فى وجوههم من الضحك والاستبشار والبهجة ، قال تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ »[1] أو أن الله يزيد فى وجوههم من النور والحسن والبياض ما لا يستطيع أن يصفه واصف لتناهيه فى ذلك .

٢٥ ـ (يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ) :

وختم الله أمارات وعلامات تنعمهم بأنهم يسقون من خمر لا غش فيها ولا شىء يفسدها أو يغتال عقل شاربها ، أو من شراب خالص نقىّ ، وقد ختم على قواريره وأوانيه ـ تكريما له ـ بالصيانة والحفظ على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان ، وقد خص الله به الأبرار لشرفهم وعلو منزلتهم مع أن فى الجنة أنهارًا من خمر لذة للشاربين ؛ لأن هذا المختوم أشرف وأعلى قدرًا من الخمر الجارى فى الأنهار .

٢٦ ـ (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) :

أى : أن الذى يختم به ويسد به رأس قواريره وأوانيه هو المسك ، أو أن المراد من (خِتَامُهُ) هو أن عاقبته وآخره ريح المسك ، فإذا رفع الشارب فمه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك للذاذة وذكاء رائحة مع طيب الطعم ، فالختام آخر كل شىء ومنه ختمت القرآن والأعمال بخواتيمها .

(وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) أى : وفى ذلك الأمر العظيم والثواب الجزيل فليتسابق المتسابقون ، وليرغب ويبادر الراغبون ؛ لأنه النعيم الجليل الأبدى الدائم الذى

(١) الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ من سورة عبس .

يصيبه الفناء ، ولا يناله الكبر والفساد كشراب الدنيا ، والتنافس يكون بفعل الطاعات واستباق الخيرات والانتهاء عن المعاصى والسيئات .

٢٧ – (وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ) :

أى : ومزاج ذلك الرحيق من شراب ينصب وينهل عليهم من علوّ ، والتسنيم : هو أشرف وأطيب شراب فى الجنة ، وقد بين حاله وشأنه فقال – تعالى – :

٢٨ – (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) :

أى : تجرى من علوّ إلى أسفل كما يشعر به الاسم ؛ إذ التسنيم فى اللغة : الارتفاع ، ومنه سنام البعير لعلوه عن بدنه ، وهذه العين يشرب منها ملتذًّا بها أهل جنة عدن ، وهم أفاضل أهل الجنة يشربون منها صرفاً خالصاً لا يخالطها شىء ، ويمزج ويخلط منها كأس أصحاب اليمين فتطيب .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾)

المفـــردات :

(أَجْرَمُوا) الجرم : قطع الثمرة ، ثم استعمل لكل اكتساب إثم وذنب .

(يَتَغَامَزُونَ) أصل الغمز : الإشارة بالعين أو الحاجب أو اليد طلباً إلى ما فيه نقيصة يشار بها إليه .

(انقَلَبُوا) : انصرفوا ورجعوا .

(فَكِهِينَ) : معجبين بما هم فيه من الشرك ، أو من ذكر المسلمين بالسوء .

(هَلْ ثُوِّبَ) : من الثواب وهو الجزاء ، أى : هل جوزى الكفار وأثيبوا على فعلهم ؟ !

سبب النزول :

روى أن عليًا - كرم الله وجهه - وجمعا من المسلمين مروا بجمع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم ، فنزلت (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ...) إلخ ، قبل أن يصل علىٌّ - كرم الله وجهه - إلى الرسول ﷺ .

التفسير

٢٩-٣٢ - (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ) :

والمراد من الذين أجرموا أكابر المشركين كأبى جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص ابن وائل السهمى ، وقد حكى الله عنهم أفعالا قبيحة وأعمالا شائنة ، وذلك أنهم كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين وبدينهم ، ويشيرون إليهم بحواجبهم وأيديهم إمعاناً فى السخرية والتهكم بهم ، ويعيبونهم ، ويقولون فى حق المؤمنين: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون فى طلب ثواب لا يتيقنونه ، رمياً للمؤمنين بالسفه والحمق ، وإذا انقلب هؤلاء الكفار ورجعوا من مجالسهم إلى أهلهم انصرفوا معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم فى الدنيا ، أو يتفكهون بذكر المسلمين بسوء القول وفحش الحديث ، وهم كلما رأوا المؤمنين أينما كانوا أمعنوا فى سبهم ورميهم بالضلال والبعد عن الطريق السوى لاختيارهم الإسلام ديناً ، وترك عبادة الأصنام ! !

٣٣ - (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) :

أى : قال الكفار ما قالوه فى حق المؤمنين وتغامزوا عليهم وعابوهم والشأن والحال أن الكفار لم يبعثهم الله رقباء على المؤمنين يحفظون ويحصون عليهم أعمالهم وأحوالهم ،

ويتفقدون ما يصنعونه من حق أو باطل ؛ بل إنما أمر الله الكفار أن يقوموا على إصلاح أنفسهم والتبصر والتفكير فيما جاءهم به رسول الله ﷺ من عند ربهم .

٣٤ ، ٣٥ – (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) :

أى : فاليوم الذى تعرض فيه الأعمال وتنشر الكتب وتحاسب كل نفس بما كسبت وهو يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار – جزاءً وفاقاً – بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء ، مع ما لحقهم من الحسرة والندامة بعد ما علموا أنهم كانوا فى الدنيا فى ضلال وعمى عندما باعوا الآخرة الباقية بمتاع الدنيا الفانية ، فضلا عن أن المؤمنين قد فرحوا بفوزهم بالنعيم المقيم ، ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد ودخلوا الجنة ، وجلسوا على السرر المرفوعة ينظرون إلى الكفار وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ، وكيف يعذبون فى النار وهم يصطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضاً .

وقيل : يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم : اخرجوا إليها فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم ، يفعل ذلك بهم مراراً فيضحك المؤمنون منهم .

٣٦ – (هَلْ ثُوِّبَ[1] الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى : هل جوزى وأثيب هؤلاء الكفار على فعلهم ؟ ! وكأن الله يقول للمؤمنين : هل أثبنا وجازينا هؤلاء على ما كانوا يفعلونه بكم من الهزء والسخرية وذلك بالعذاب المقيم وتمكينكم من الضحك عليهم كما أثبناكم على ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة بهذا النعيم الجزيل الدائم والجزاء العظيم ؟ والثواب – وإن كان يستعمل فى المكافأة بالشر والخير إلاَّ أنه هنا يحمل على المجازاة بالخير ، وأطلق على عقاب الكفار تهكماً بهم وسخرية منهم كما فى قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »[2] .

والآية الكريمة تزيد فى سرور المؤمنين وتدل على كريم منزلتهم وعظيم مكانتهم . والله أعلم .

---

(١) ثوب : من الثوب ، وهو ما يثوب ، أى : يرجع إلى فاعله جزاء ما عمله من خير أو شر .
(٢) سورة الدخان الآية رقم : ٤٩

سورة الانشقاق

مكية وآياتها خمس وعشرون آية
ويقال لها سورة (انشقت)

مناسبتها لما قبلها :

قال بعض العلماء فى بيان وجه ترتيب السور الثلاث - الانفطار - المطففين - الانشقاق ما يأتى : جاء فى سورة (الانفطار) التعريف بالحفظة الكاتبين الذين يكتبون أعمال الناس فى قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ [(١)] » - وفى السورة التى تليها (سورة المطففين) بيان مقر كتبهم ، فى قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ » « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ » [(٢)] وفى هذه السورة (الانْشِقَاق) عرض هذه الكتب ، وإعطاؤها لأصحابها يوم القيامة فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) [(٣)] إلخ .

هذا ، مع ما اشتملت عليه سورة الانشقاق وما قبلها (سورة المطففين) من ذكر بعض مظاهر يوم القيامة وما يناله المؤمنون من تكريم ، وما يصيب الكافرين من عذاب أليم .

بعض مقاصد السورة :

١ - بُدِئت السورة الكريمة بذكر بعض علامات الساعة وأشراطها ، وخضوع كل ما فى السموات والأرض لأمر الله بتغيير نواميسها وقوانينها ، وعند ذلك يلقى كل إنسان جزاء ما عمل (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) إلى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ) .

٢ - بينت السورة أن عمل الإنسان فى الدنيا مسجل عليه فى كتاب سيلقاه يوم القيامة ، فمن أخذ هذا الكتاب بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا ، ومن أخذ كتابه وراء ظهره فسوف يتمنى هلاك نفسه لما يلقاه من عذاب شديد ، لأنه كان فى الدنيا لاهياً عن العمل

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الانفطار

(٢) الآيتان ٧ ، ١٨ من سورة المطففين .

(٣) الآية رقم ٧ من سورة الانشقاق .

للآخرة ظانًّا أنه لن يرجع إلى ربه فيحاسبه : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) إلى قوله تعالى : (بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) .

٣ - ثم أقسم - سبحانه - ببعض الآيات الكونية التى تشهد بقدرته وتدعو إلى الإيمان به والتصديق باليوم الآخر وبما يكون فيه من أهوال : (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) إلى قوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ) .

٤ - ثم بيّن - جل جلاله - أنه مع ما ذكر من آيات وأدلة بينات فى هذه السورة وفى غيرها من السور : فالكافرون يكذبون بالقرآن ولا يؤمنون به (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) إلى قوله : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ) .

٥ - وختمت السورة بتهديد الكفار بأن الله عليم بما يضمرون وقد أعدَّ لهم العذاب الأليم ، كما أعد للمؤمنين الطائعين الأجر الدائم الذى لا ينقطع (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) إلى قوله تعالى : (لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾)

المفــــردات :

(انشَقَّتْ) : انصدعت ، وذلك عند قيام الساعة .

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا) : استمعت له وانقادت ، من قولهم : أَذِن له ؛ أى : استمع وأطاع .

(وَحُقَّتْ) : انقادت وهى جديرة بالانقياد .

(مُدَّتْ) زيدت سعةً وذلك بِدَكِّ جِبَالِهَا وإزالة آكامها .

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا) : رمَت مافى جوفها .

(وَتَخَلَّتْ) : وَخَلَتْ عَمَّا فِيها غاية الخلو .

(إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ) أى : إنَّك مجتهد جَادٌّ فى عملك إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده ، والكدح كما قال الزمخشرى والآلوسى : جهد النفس فى العمل والكد فيه حتى يؤثر ذلك فى النفس ، من كَدَح جلدَه : إذا خدشه .

(فَمُلَاقِيهِ) أى : فملاقى جزاء عملك لامحالة .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) أى : وأما من يُعطاه ويؤْتاه بشماله من وراء ظهره وهو الكافر .

(يَدْعُو ثُبُورًا) : ينادى ويقول : ياثبوراه ، والثبور : الهلاك .

(ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ) : ظن أن لن يرجع إلى ربه فيحاسبه - يقال : لايحور ولا يحول ؛ أى : لا يرجع ولا يتغير قال :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رَمَادًا بعد إذ هو ساطع

أى : يرجع رمادًا .

وعن ابن عباس : ماكنت أدرى معنى (يحور) حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حورى ، أى : ارجعى . ذكره الكشاف .

التفسير

١ - (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) :

أى : إذا السماء انصدعت ، قيل : تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى : « وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ »[1] قال الزمخشرى : أضمر جواب (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) وما عطف عليه ، ولم يذكره ليذهب السامع فى تقديره كل مذهب ، وفى هذا من التهويل ما فيه ، وقيل : جوابها مادل عليه قوله تعالى : (فَمُلَاقِيهِ) أى : إذا السماء انشقت لاقى الإنسان جزاء عمله وكَدْحِهِ .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : ١٦

٢ ـ (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) :

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا) أى : واستمعت السماءُ لربها واستجابت له ، وأطاعت أمره فيما أمرها الله به من الانشقاق وذلك يوم القيامة (وَحُقَّتْ) أى : وحق لها أن تطيع أمره وتنزل على إرادته وحكمه ؛ لأنه العزيز الذى لا يُمَانع ولا يغالب قد قهر كل شىء وذل له لأنه القادر الحقيقى .

٣ ـ (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ) :

قال الضَّحَّاك : مُدَّت الأرض ، أى : بُسطت بِانْدِكَاكِ جبالها وآكامها وتسويتها فصارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أَمْتاً .

وقال بعضهم : مُدَّت أى : زيدت سعة وبسطة ، من مده بمعنى أمده ، أى : زاده .

أخرج الحاكم بسند جيد عن جابر ، عن النبى ﷺ أنه قال : « تُمد الأرضُ يومَ القيامةِ مَدَّ الأديم ، ثم لا يكونُ لابن آدمَ منها إلا موضع قدميْه » .

٤ ـ (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) :

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا) أى : ولفظت ما فى جوفها ورمت ما فى بطنها من كنوز وموتى .

(وَتَخَلَّتْ) أى : وتكلفت فى الخلو أقصى جهدها حتى لم يبق شىء فى بطنها .

وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها وأحيائها .

٥ ـ (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) :

أى : وانقادت الأرض لربها وأطاعته ونزلت على حكمه فى زيادة سعتها ، وإلقاء ما فيها وتَخَلِّيها عنه ، وحقيق وجدير بها ذلك ! !

وإذا حدث كل ما تقدم ـ وذلك يوم القيامة ـ لقى كل إنسان جزاء عمله .

٦ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ) :

أى : يا أيها الإنسان إنك ساع إلى ربك سعياً جادًّا ، وعامل عملا شاقًّا صعباً (فَمُلَـٰقِيهِ)

أى : فإنك ستلقى جزاء ما عملت من خير أو شر ، ويشهد لذلك ما روى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريلُ : يا محمدُ - عِشْ ماشئت فإنك ميِّت ، وأحبِبْ منَ شئتَ فإنك مفارقُه ، واعمَلْ ما شئتَ فإنكَ ملاقِيه » .

ومن الناس من يعيد الضمير وهو الهاء فى (فملاقيه) على الرب فى قوله تعالى : (رَبِّكَ) أى : فملاق ربك ، ومعناه : فيجازيك على عملك ويكافئك على سعيك .

قال الآلوسى : والمراد بالإنسان الجنس ، كما يؤذن به التقسيم فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ) ، (وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ) إلخ .

وقال مقاتل : المراد به : الأسود بن هلال المخزومى ؛ جادل أخاه أبا سلمة فى أمر البعث ، فقال أبو سلمة : والذى خلقك لتركبن الطبقة ، ولتوافين العقبة ، قال الأسود : فأين الأرض والسماء وما حال الناس ؟ ! وكأن مقاتلا أراد أنها نزلت فيه أولاً . وقيل : المراد أُبَىُّ ابن خلف؛ كان يكدح فى طلب الدنيا وإيذاء الرسول ﷺ والإصرار على الكفر .

٧ ، ٨ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) :

أى : فأما من أعطِى كتاب عمله بيمينه - وهو المؤمن - فسوف يحاسب حساباً يسيرا ، والحساب اليسير : السهل الذى لا مناقشة فيه كما قيل ، وفسره ﷺ بالعَرْض ، وبالنَّظَر فى الكتاب مع التجاوز ، فقد أخرج الشيخان والترمذى وأبو داود عن عائشة أن النبى ﷺ : قال : « ليس أحدٌ يحاسَبُ إلّا هلَك » قلت : يا رسول الله - جعلنى الله فداءك - أليس الله تعالى يقول : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) ؟ ! قال : « ذلك العرض ، يعرضون ، ومَن نوقش الحسابَ هلك » .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحاكم وصححه عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : « اللهمَّ حاسِبنى حساباً يَسيرًا » فلما انصرف

- عليه الصلاة والسلام - قلت : يا رسول الله : ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظرَ فى كتابه فيتجاوز له عنه » .

٩ - (وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا) :

المعنى : ويرجع إلى عشيرته المؤمنين فرحاً مبتهجاً بحاله قائلا : « هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ »[1] وقيل : يرجع إلى فريق المؤمنين مطلقاً وإن لم يكونوا عشيرته ؛ إذ كل المؤمنين أهل للمؤمن من جهة الاشتراك فى الإيمان .

١٠ - (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ) :

أى : وأما من أعطى كتابه بشماله من وراء ظهره - وهو الكافر - قيل : تُغَلُّ يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فَيُؤْتَى كتابه بشماله ، وروى أن شماله تدخل فى صدره حتى تخرج من وراء ظهره فيؤتى كتابه بها ، وإذا كان هذا وهو قوله تعالى :(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) واردًا فى الكفار ، وما قبله وهو قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) واردًا فى المؤمنين المتقين ، فلا تعرض هنا للعصاة من المؤمنين ، قال الآلوسى : لا بُعْدَ فى إدخال العصاة من المؤمنين فى أهل اليمين لأنهم يُعْطون كتبهم باليمين بعد الخروج من النار كما اختاره ابن عطية .

وقيل : إن العصاة المؤمنين يعطون كتبهم بشمالهم ، ويختص الكفرة بكونهم يعطون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم . اهـ : آلوسى مع التلخيص والتصرف .

ولعل السر فى إعطاء الكفار كتبهم من وراء ظهورهم لأن من يُعْطُونَهم كتبهم من الملائكة لا يُطيقون مُشَاهدة وجوههم لشدة بشاعتها ، أو لعظم بغضهم إياهم ، أو لأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فأخذوا كتبهم كذلك على هذه الصورة تحقيراً لهم وامتهاناً لشأنهم .

١١ ، ١٢ - (فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا) :

(فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا) أى : فسوف يدعو الكافر ويطلب ثبورًا وبناديه ويقول :

---

(١) الحاقة من الآية رقم ١٩

يا ثبوراه تَعَالَ فهذا أوانك ، والثُّبُور : الهلاك والخسران والويل ، وهو اسم جامع لأنواع المكاره ، والمعنى : أنه يتمنى موته وهلاك نفسه .

(وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا) : ويدخل جهنم يحترق بنارها ، أو يقاسى شدة حرها ولهيبها .

١٣ - (إِنَّهُ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِ مَسْرُورًا) :

أى : إنَّ الكافر الذى يدعو الثبور ويصلى السعير إنما استحق ذلك لأنه كان فى الدنيا بين عشيرته وأهله فَرِحاً بَطِراً مترفاً ، لا ينظر فى العواقب كعادة الفُجّار من أهل الدنيا الذين لايهمهم أمر الآخرة ، ولم يكن متفكرًا فى حاله ومآله كعادة وطبيعة الصلحاء المتقين الذين حكى الله عنهم فقال : « قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ »[1] وهذه الآية استئناف لبيان سبب ما استحقوه من عذاب .

١٤ - (إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ) :

هذه الآية تعليل لسروره فى الدنيا بين أهله وعشيرته .

أى : إن هذا الكافر كان مسرورًا فى الدنيا ولا يبالى بشىء لأنه كان يكذب بالبعث يعتقد أنه لن يرجع إلى الله تعالى ، فلا يعيده ربه بعد موته للحساب ، والحور : الرجوع مطلقاً ، والمراد هنا - كما قال ابن عباس وقتادة وغيرهما - : الرجوع إلى الله للجزاء بقرينة المقام .

١٥ - (بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا[2]) :

المعنى : بلى يحور ويرجع البتة ؛ لأن الله - عز وجل - الذى خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء بصيرًا بحيث لاتخفى عليه - سبحانه - منها خافية ، فلا بد من رجوعه وحسابه ومجازاته .

---

(١) سورة الطور ، الآية : ٢٦

(٢) (بلى) : إيجاب لما بعد النفى فى (لن يحور) و (إن ربه كان به بصيرا) تحقيق وتعليل له .

(فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ۩ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(الشَّفَقُ) الحمرة التي ترى بالأفق بعد غروب الشمس ، وقيل : البياض الذى يلى تلك الحمرة .

(وَمَا وَسَقَ) : وما جمعه الليل وستره وضمه إليه من الدواب وغيرها .

(اتَّسَقَ) : اجتمع نوره وتمّ .

(لَتَرْكَبُنَّ) : لتلاقن .

(طَبَقًا) : الطبق ما طابق غيره ، ومنه قيل للغطاء : الطبق ، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها : طبق .

(عَن) : بمعنى بَعْدَ ، كما فى قولهم : سادوك كابرا عن كابر ، أى : بعد كابر .

(بِمَا يُوعُونَ) أى : بالذى يضمرونه فى صدورهم من الكفر والحسد ، أو بما يجمعونه فى صحفهم من أعمال السوء .

(فَبَشِّرْهُمْ) : فأخبرهم .

والتبشير فى المشهور : الإخبار بِسَارٍّ ، والتعبير به هنا للتهكم بهم .

(غَيْرُ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع ولا منقوص .

التفسير

١٦ - (فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) :

أى : فأقسم قسماً مؤكدًا - كما يشعر بذلك ذكر « لَا » - (بِالشَّفَقِ) : وهو الحمرة التى تشاهد فى الأُفق بعد الغروب ، وبسقوط الشفق يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العشاء عند عامة العلماء ، إلا ماورد فى بعض الروايات عن أبى حنيفة ، وقيل الشفق : البياض الذى يلى تلك الحمرة ، وبه قال أبو هريرة ، وهو إحدى الروايات عن أبى حنيفة . وصح عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) قال : الشفق : هو النهار كله وإنما حمله على هذا قَرْنُ الشفق بقوله تعالى : (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) كأنه أقسم بالضياء والظلام .

١٧ - (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) :

أى : وأقسم على سبيل التأكيد بالليل وما جمعه وضمه وآوى إليه من الدواب وغيرها . وعن مجاهد : ما يكون فيه من خير أو شر ، وقيل : وما ستره وغطى عليه بظلمته .

١٨ - (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) :

أى : وأقسم قسماً مؤكدًا بالقمر إذا اجتمع نوره وتَمَّ وتكامل وصار بدْرًا وذلك - كما قال الزمخشرى - : هى ليلة أربع عشرة .

١٩ - (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ) :

هذا الكلام خطاب لجنس الإنسان المنادَى أولا فى قوله تعالى : (يَآ أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ) إلخ .. باعتبار شموله لجميع أفراد الإنسان ، والمراد بالركوب : الملاقاة ، وبالطبق الحال المطابقة لغيرها ، والمعنى : لتلاقن أيها النَّاس حالا بعد حال ، كل حال مطابقة لغيرها فى الشدة والهول .

وقيل : الطبق : جمع طبقة ، وهى المرتبة ، والمعنى : لتركبن أحوالا بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أعظم من بعض ، وهى الموت وما بعده من مشاهد القيامة وأهوالها .

وفسر بعضهم الأحوال التى يلاقيها النّاس بما يكونون عليه فى الدنيا من كونهم نطفة إلى الموت وما يكونون عليه فى الآخرة من البعث إلى حين استقرارهم فى إحدى الدارين الجنة أو النّار .

وأخرج البخارى عن ابن عباس أن الخطاب للنبى ﷺ وعليه يراد : لتركبن أحوالا شريفة بعد أخرى من مراتب القُرْبِ ، أو من مراتب الشدة فى الدنيا باعتبار ما يقاسيه فى تبليغ الرسالة ، أو الكلام عِدَةٌ بالنصر وتبشير بالمعراج ، أى : لتركبن سماء بعد سماء ، واختار ابن كثير هذا القول - وقال : والصواب من التأويل قول من قال : لتركبن يا محمد حالا بعد حال وأمرًا بعد أمر من الشدائد ، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله - جميع الناس ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالا - ا هـ : ابن كثير .

٢٠ - (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

الفاء فى قوله تعالى : (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) يجوز أن تكون لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة وأهوالها المشار إليها بقوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ) أى : إذا كان حالهم يوم القيامة كما أشير إليه فأى شىء يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله وسائر ما يجب الإيمان به بعد ذكر ما يلقاه كل مخالف من الأهوال؟! ويجوز أن يكون لترتيب ما بعدها على ما قبلها من عَظِيم شأنه - عليه الصلاة والسلام - المشار إليه بقوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) على أن المراد بالمخاطب رسول الله ﷺ أى : إذا كان هذا حاله ﷺ كما أشير إليه فأى شىء يمنعهم من الإيمان به - عليه الصلاة والسلام - ؟ !

٢١ - (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) :

هذه الآية معطوفة على الآية السابقة ، والمعنى : وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله

وسمعوا كلامه – وهو القرآن العظيم – لا يستكينون ولا يخضعون بأن يؤمنوا به لإعجازه ، فالمراد بالسجود : الخضوع والاستكانة ، وقيل : المراد به الصلاة ، وقيل : المقصود به سجود التلاوة ، ويكون المراد بما قبله (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ) أى : وفيه آية سجدة . أخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) و (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

٢٢ – (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) :

هذه الآية انتقال عن كونهم لايسجدون عند قراءة القرآن وسماعهم له إلى أنهم يكذبون به صريحاً ، وقيل المعنى : بل هؤلاء من سجيتهم التكذيب بالبعث وغيره . والعناد والمخالفة للحق تعالياً عنه وتكبرًا .

٢٣ – (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) :

أى : والله أعلم بالذى يضمرونه فى صدورهم من الكفر والحسد والبغضاء والبغى ، أو : والله أعلم بما يجمعونه فى صحفهم من أعمال السوء فيجازيهم عليها ، وقال بعضهم : المعنى – والله أعلم بما يضمرون فى أنفسهم من أدلة صدق القرآن فيكون المراد المبالغة فى عنادهم وتكذيبهم بالقرآن مع علمهم بصدقه .

٢٤ – (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

الفاء فى قوله تعالى : (فَبَشِّرْهُمْ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمعنى : فبشر الكفار يا محمد بأن الله – عز وجل – قد أعدَّ لهم عذاباً مؤلماً موجعاً لتكذيبهم بالقرآن ، أو لعلمه – سبحانه وتعالى – بما يضمرون فى أنفسهم من الشرور والآثام .

والتعبير بالتبشير فى هذا المقام مع أنه فى المشهور يكون للإخبار بأمر سارٍّ – للتهكم والسخرية بهم .

٢٥ - ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾:

لكن الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم لهم أجر فى الآخرة غير ممنون ، قال ابن عباس : أى : غير منقوص ، وقيل : غير مقطوع عنهم كما قال تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »[1] .

(١) سورة هود ، من الآية : ١٠٨

سورة البروج

وهى مكية ، وآياتها ثنتان وعشرون آية ، نزلت بعد الشمس

مناسبتها لما قبلها :

اشتمالها – كالسورة التى قبلها (سورة الانشقاق) على وعد المؤمنين . ووعيد الكافرين . والتنويه بشأن القرآن ورفعة شأنه .

كما اشتملت أيضاً – كالسورة التى قبلها – على بيان أن العاقبة والغلبة والظفر للمؤمنين الصابرين مهما لاقوا من عذاب وأهوال ، وأن الهزيمة والخيبة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة للكافرين المكذبين مهما اشتد بطشهم وعظم سلطانهم .

هذه السورة عظة وتحذير لكفار قريش وغيرهم ، وتثبيت لمن يعذبون من المؤمنين .

أهم مقاصد السورة :

١ – أقسم الله – سبحانه – فى أول السورة ببعض مظاهر قدرته على أن الكافرين الذين يؤذون المؤمنين ليردوهم عن دينهم مطرودون كما طرد من سلك مسلكهم ممن سبقهم : (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) إلى قوله تعالى : (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) .

٢ – بينت السورة أن الصامدين من المؤمنين الذين عُذبوا ما كان ذنبهم إلا إيمانهم بالله ، وذكرت الوعيد للكافرين ، والوعد للمؤمنين الصابرين : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) إلى قوله تعالى : (ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) .

٣ – ذكرت السورة بعض صفاته – تعالى – كقُوَّته وبطشه بالجبابرة ، وبالجموع الطاغية من قوم فرعون وثمود وغيرهم من المكذبين ، وأن قوم الرسول يكذبونه والله من ورائهم محيط : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) إلى قوله تعالى : (وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) .

٤ – وخُتِمت السورة ببيان عظمة القرآن وأنه فى لوح محفوظ لا تصل إليه يدٌ بتحريف ، ولا قوة بتغيير : (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(الْبُرُوجِ) : منازل الشمس والقمر وسائر الكواكب .

(الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) : يوم القيامة .

(وَشَاهِدٍ) : ومن يشهد يوم القيامة ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه .

(وَمَشْهُودٍ) : وما يحضر ويشاهد فى ذلك اليوم من العجائب .

(قُتِلَ) : لُعِن أشد اللعن .

(الْأُخْدُودِ) : الشق المستطيل فى الأرض ، ويجمع على أخاديد .

(إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) : إذ هم على حَافَّةِ النار وحولها قعود .

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ) : وما عابوا عليهم وأنكروا منهم – وفى مفردات الراغب : يقال : نقمت الشيء : إذا أنكرته بلسانك أو بعقوبة .

التفسير

١ - (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) :

أقسم الله - تعالى - بالسماء ذات البروج ، أى : ذات المنازل التى تنزلها الكواكب من شمس وقمر وغيرهما فى أثناء سيرها ، وقيل : البروج : الكواكب العظام .

٢ - (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) :

وأقسم - سبحانه - باليوم الموعود ، أى : الموعود به للحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين ، وقيل : لعله اليوم الذى يخرج الناس فيه من قبورهم ، فقد قال - سبحانه - : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ »[1] .

أو يوم طى السماء كطى السجل للكتب ، وقيل : يمكن أن يراد به يوم شفاعة النبى ﷺ على ما أشار إليه قوله تعالى : « عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا »[2] . ولا يخفى أن جميع ذلك داخل فى يوم القيامة .

٣ - (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) :

وأقسم - سبحانه وتعالى - بشاهد ، أى : بمن يشهد ذلك اليوم - وهو يوم القيامة - ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه . (وَمَشْهُودٍ) أى : وبما يحضر فيه من الأهوال والعجائب ، وهكذا يقسم الله - عز وجل - بيوم القيامة وما يكون فيه ؛ تعظيماً لذلك اليوم وإرهاباً لمنكريه .

أخرج الترمذى وجماعة عن أبى هريرة مرفوعاً : « الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة » وعن ابن عباس : الشاهد : محمد - عليه الصلاة والسلام - مستدلا بقوله

---

(١) سورة المعارج ، الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية ٧٩

تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »[1] (والمشهود) يوم القيامة مستدلا بقوله تعالى : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ».[2] قال الزمخشرى : قد اضطربت أقوال المفسرين فى المراد بهما .

وقال الآلوسى : جميع الأقوال فى ذلك - على ما وقفت عليه - نحو من ثلاثين قولا . وأختار القول الأول وهو أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة .

٤ - (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) :

هذه الجملة جواب القسم أو دليله . كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء : بالسماء ذات البروج ، وباليوم الموعود وبشاهد ومشهود أن كفار قريش المعذبين للمؤمنين لَمَلْعُونُونَ كما لعن أصحاب الأخدود الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات فيه .

وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة . وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من مؤمنى الأمم السابقة - من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى بهم ، ولكنهم صبروا ، وذلك لكى يقتدوا بهم . ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، وليعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المُعَذَّبين الْمُحْرِقين بالنار ، وهم ملعونون مطرودون من رحمة الله ، فالقتل هنا عبارة عن أشد اللعن والطرد والسخط .

وقال بعضهم : الأظهر أن يقدر : إنهم لمقتولون - أى : كفار قريش - كما قتل أصحاب الأخدود ، فيكون وَعْدًا له ﷺ بقتل الكفرة المتمردين - لإعلاء دينه - ويكون معجزة بقتل رءوسهم فى غزوة بدر .

قال ابن كثير : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) : أى ؛ لعن أصحاب الأخدود - وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله - عز وجل - فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدودًا وأجّجوا فيه نارًا وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به ، ثم أرادوهم على الكفر فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها .

---

(١) سورة النساء ، من الآية : ٤١

(٢) سورة هود ، من الآية : ١٠٣

٥ - (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ) :

(النَّارِ) : بدل اشتمال من الأُخدود ، أى : أصحاب النار (ذَاتِ الْوَقُودِ)، وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس ، وهى تلك النار التى أضرمها الكفار وسعروها لعذاب المؤمنين .

٦ - (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) :

أى : لُعِن الكفار الذين صنعوا الأخاديد حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها فى مكان قريب منها مشرفين عليها من حافات الأُخدود وجوانبه .

ف (عليها) : بمعنى (حولها) كقول الأعشى :

وبات على النار الندى والمحلق .

٧ - (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) :

(وَهُمْ) أى : الكفار على ما يفعلون بالمؤمنين من تعذيبهم بالإلقاء فى النار إن لم يرجعوا عن دينهم (شُهُودٌ) أى : حضور لا يَرِقُّونَ لهم ؛ لشدة قسوة قلوبهم ، وقيل : (شُهُودٌ) أى : يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحدًا لم يقصر فى أداء ما أمر به ، أو يشهدون على أنفسهم بذلك يوم القيامة : يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم .

٨ - (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) :

أى : وما أنكروا منهم وما عابوا عليهم وما كان ذنبهم عندهم إلا إيمانهم بالله ، إنْ عُدَّ ذلك ذنباً وجرماً يستحق الإنسان عليه العقاب والمؤاخذة ، وهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، على منهاج قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) : ذكر - سبحانه - الأوصاف التى يستحق الله بها أن يُؤمَن به وأن يُعْبَد ، وهو كونه عزيزا غالباً قادرًا يُخْشَى عقابه ، حميدًا مُنْعِماً يجب له الحمد على نعمته ويُرْجَى ثوابه .

٩ - (الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

الله الذى له - وحده - ملك السمٰوات والأرض ، فكل ما فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له - سبحانه - وما نقموه منهم هو الحق الذى لاينقمه إلا مبطل منغمس فى الغى ، وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب لا يَعْدِلُه عذاب .

(وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) : هذا وعد للمؤمنين ، ووعيد لمعذبيهم ، فإن علم الله - جل شأنه - الجامع لصفات الجلال والجمال شامل ومحيط بجميع الأشياء التى من جملتها أعمال الفريقين ، وسيجازى كلا منهما على عمله .

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) :

المعنى : إن الذين ابتلوا المؤمنين والمؤمنات فى دينهم بالأذى والإحراق بالنار ليرتدوا عن دينهم ثم لم يرجع هؤلاء عن فتنة المؤمنين وتعذيبهم ، ولم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا فلهم فى الآخرة عذاب جهنم جزاء كفرهم ، ولهم عذاب الحريق جزاء إحراقهم المؤمنين .

قيل : يجوز أن يكون المراد بـ (الَّذِينَ فَتَنُوا) أصحاب الأُخدود خاصة ، وبـ (الَّذِين آمَنُوا) المطروحين فى الأُخدود .

وقال بعضهم ، المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : كفار قريش الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات بكل أنواع العذاب كعمار وياسر وبلال ، والأصوب العموم ، ليشمل كل من صد عن سبيل الله وعذب المؤمنين ليرجعوا عن دينهم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾)

المفـــردات :

(بَطْشَ رَبِّكَ) : البطش : الأخذ بالعنف ، فإذا وصف بالشدة فقد تَضَاعف وتفاقم .

(هُوَ يُبْدِئُ) : إنه وحده يخلق ابتداءً بقوته .

(وَيُعِيدُ) : يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته .

(الْوَدُودُ) : المحب كثيرًا لمن أطاعه .

(ذُو الْعَرْشِ) : صاحب العرش وخالقه ومالكه .

(الْمَجِيدُ) : العظيم المستحق لكل صفات العلو والكمال .

(محِيطٌ) : عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه .

التفسير

١١ - (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) :

المعنى : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار لجمعهم بين الإيمان والعمل الصالح ، وذلك النعيم الذى جُوزُوا وكُوفِئوا به من دخولهم الجنات وتمتعهم بما فيها هو الفوز الكبير الذى يصغر عنده الفوز بالدنيا وما فيها من الْمُتَع والرغائب ، وكيف لا وقد ظفروا بكل خير ونجوا وسلموا من كل شر !

١٢ - (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) :

استئناف خوطب به النبى ﷺ إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً منه ؛ كما ينبئ عنه ذكر الرب مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - أى : إن أخذ ربك الجابرة والظَّلَمَة بالعذاب بالغ الغاية فى الشدة والقوة فى العنف والبطش ؛ لأنه بطش ربك القادر على كل شىء .

١٣ - (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) :

أى : إنه - عز وجل وحده - هو الذى يُبْدِئُ الخلق بالإنشاء ، وهو - سبحانه - يعيده بإحيائه يوم القيامة للحشر والجزاء ؛ ودل باقتداره على البدء والإعادة على شدة بطشه . أو يبدئُ البطش بالكفرة فى الدنيا ، ثم يعيده فى الآخرة .

١٤ - (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) :

وهو - سبحانه - الغفور لذنوب من يشاءُ من عباده المؤمنين ، وقيل : لمن تاب إليه وأطاع أمره . (الْوَدُودُ) :أى ، كثير المحبة لمن أطاعه وأحبه ، وعن ابن عباس : المتودد إلى عباده بالمغفرة .

١٥ - (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) :

(ذُو الْعَرْشِ) أى : صاحب العرش ، والمراد : مالكه أو خالقه ، والعرش أعظم المخلوقات ،

وجاء فى الأخبار عن عظمه ما يبهر العقول ، وقال القفال : ذو العرش : ذو الملك والسلطان.
(الْمَجِيدُ) : العظيم فى ذاته وصفاته – سبحانه وتعالى– فإنه – جلّ شأنه – واجب الوجود ، تام القدرة ، كامل الحكمة .

١٦ – (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) :

لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة ، وفى التنكير من التفخيم مالا يخفى ، أى : أنه – سبحانه – لايعجزه شئ ، ولا معقب لحكمه ، ولايسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته كما روى عن أبى بكر الصديق أنه قيل له وهو فى مرض الموت : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم ، قالوا فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فَعَّال لما أُريد – يريد أن الطبيب على الحقيقة هو الله – فهو سبحانه فعال لما يريد ؛ لايتخلف عن قدرته مراد .

١٧ – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) :

تقرير لكونه – سبحانه وتعالى – فعالا لما يريد ، وكذلك لشدة بطشه بالظَّلَمَةِ والعصاة والكفرة الْعُتاة ، وتسلية له ﷺ بالإشعار بأنه سيصيب كفار قومه ما أصاب الجنود ، والمراد بالجنود هنا : الأقوام والجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم .

والمعنى : هل بلغك يا محمد ما أحلّ الله بهم من البأس وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردّها عنهم رَادٌّ ولم يدفعها عنهم دافع ؟ ! وهذا تقرير لقوله تعالى : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) أى : إذَا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليماً شديدًا : أخذ عزيز مقتدر ، عن عمر ابن ميمون قال : مر النبى ﷺ على امرأة تقرأ : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) فقال : « نَعَمْ جَاءَنِى » .

١٨ – (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) :

قوم فرعون وثمود (بدل من الجنود) والمراد بحديثهم : ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

والمعنى : قد أتاك حديث قوم فرعون وثمود ، وعرفت ما فعلوا وما فُعِلَ بهم ، وما حل بهم من جزاء تماديهم فى الباطل ، فَذَكِّر قومك بأيام الله وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب

أمثالهم ممن خرجوا عن طاعته ، وحاربوا رسله ، وكذبوا بأنبيائه ، وهذا تنبيه لمن كفر بالنبى ﷺ وكذَّب بالقرآن ليتعظ .

١٩ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) :

أى : بل الذين كفروا من قومك فى تكذيب ، وهذا إضراب انتقالى عن مماثلة كفار قريش لمن سبقهم من الأُمم المكذبة ، وبيان لكونهم أشد منهم فى الكفر والطغيان كما ينبئ عنه العدول عن (يكذبون) إلى قوله تعالى : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) المفيد لإحاطة التكذيب بهم من كل جانب ، مع ما فى تنكير (تكذيب) من الدلالة على تعظيمه وتهويله ، فكأنه قيل : ليس قومك مثلهم ، بل هم أشد منهم فإنهم غرقى مغمورون فى تكذيب عظيم للقرآن الكريم ، فهم أدنى منهم فى استحقاق العذاب .

٢٠ - (وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) :

أى : والله - سبحانه وتعالى - متمكن منهم ، عالم بهم ، قادر عليهم ، قاهر لهم لا يفوتونه ولايعجزونه ، والإحاطة بهم من ورائهم قيل : لأنهم لايفوتونه كما لايفوت الشئ من الشئ المحيط به ، فالكلام تصوير لعدم نجاتهم من بأس الله .

٢١ - (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ) :

هذا رد لكفرهم ، وإبطال لتكذيبهم ، وتحقيق للحق ، أى : بل هذا الذى جئتهم فكذبوا به كتاب شريف عالى المنزلة فى الكتب السماوية فى نظمه وإعجازه ، فلا يحق تكذيبه والكفر به .

٢٢ - (فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) :

المعنى : أن القرآن محفوظ بعد التنزيل من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، كما قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] وقيل : مكتوب ومحفوظ فى ذلك اللوح عن وصول الشياطين إليه ، واللوح المحفوظ نحن نؤمن به ، ولايلزمنا البحث عن ماهيته وحقيقته وكيفية كتابته ونحو ذلك . والله أعلم .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

سورة الطارق

وهى مكية ، وآياتها سبع عشرة آية ، نزلت بعد سورة البلد

صلتها بما قبلها :

لما ذكر - سبحانه وتعالى - تكذيب الكفار للقرآن فى السورة السابقة (سورة البروج) فى قوله تعالى : « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ »[1] نبّه - سبحانه وتعالى - فى هذه السورة : (سورة الطارق) على نشأة الإنسان وبدء خلقه ، ثم ذكر قدر هذا القرآن وعلو شأنه الذى كذّب به هذا الإنسان الضعيف .

أهم مقاصد السورة :

١ - بُدئت السورة الكريمة بالقسم بالسماء وماحوت من نجم وكوكب على أن كلّ نفس عليها رقيب يحصى أعمالها (وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ) إلى قوله تعالى : (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) .

٢ - دعت السورة الإنسان أن يفكر وينظر فى نشأته ومم خلق ؟ ليعلم أن الذى أنشأه بقدرته قوى قادر على إعادته بعد موته للحساب (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) إلى قوله تعالى : (فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) .

٣ - فى السورة قسم آخر بالسماء ذات المطر ، والأرض التى تنشق عن النبات على أن القرآن فاصل بين الحق والباطل وهو خير كله ، ومن حقه - وقد وصفه الله بهذا - أن يكون معظّما يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح ، ومع ذلك فقد اشتد الكفار فى عداوته وإنكاره والكيد له ، وقد رَدَّ الله كيدهم بكيد أشد لا يقدرون على دفعه (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) إلى قوله تعالى : (وَأَكِيدُ كَيْدًا) .

٤ - ختمت السورة بطلب إمهال الكافرين حتى يأتيهم العذاب : (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) .

---

(١) سورة البروج الآية : ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(الطَّارِقِ) : كل آت ليلا ، والمراد النجوم ؛ لطلوعها ليلا ، والطارق فى الأصل : اسم فاعل من الطَّرق بمعنى الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت .

(النَّجْمُ الثَّاقِبُ) : النجم المضىء .

(حَافِظٌ) : رقيب ومحاسب .

(دَافِقٍ) : مدفوق ومصبوب بدفع وسرعة

(يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ) الصلب : الظهر .

(وَالتَّرَآئِبِ) : جمع تَرِيبة ، وهى عظام الصدر أو الأطراف .

(رَجْعِهِ) : إعادة خلقه بعد فنائه وموته .

(تُبْلَى السَّرَآئِرُ) : تكشف وتظهر مكنونات القلوب ، وأصل الابتلاء : الاختبار .

التفسير

١ - (وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ) :

أقسم الله - سبحانه وتعالى - بالسماء وما جعل فيها من الكواكب التى تضىء عند طلوعها ليلا ، وتختفى نهارًا .

٢ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) :

هذا الأسلوب للتنويه بشأن الطارق بعد تفخيمه وتعظيمه ، بالإقسام به ، وتنبيه على أن رفعة قدره وعلو شأنه مرتبة لا ينالها ولا يصل إلى معرفتها عقول الخلق ؛ فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم .

والمعنى : وأى شىء أعلمك بالطارق وما حقيقة هذا الكوكب ؟

٣ - (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) :

أى : النجم المضىء كأنه يثقب الظلام بضوئه وينفذ فيه ، وروى لأنه يدرأ الظلام ، أى : يدفعه ، وقال الفراء : الثاقب : المرتفع .

٤ - (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) :

المعنى : ما كل نفس إلا عليها حافظ ، أى : مهيمن ورقيب وهو الله - سبحانه وتعالى - كما فى قوله تعالى : « وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا »[1] .

وقيل : معنى (حَافِظٌ) : من يحفظ عملها من الملائكة ويحصى عليها ما تكسب من خير أو شر ، كما فى قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ »[2] ، وروى ذلك عن ابن سيرين وقتادة .

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية : ٥٢

(٢) سورة الانفطار ، الآيتان : ١٠ ، ١١

وقيل : (حَافِظٌ) أى : عقل يرشده إلى مصالحه ويكفه عمَّا يضره .

والجملة جواب القسم .

٥ـ (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) :

لَمَّا أثبت ـ سبحانه ـ أن على الإنسان حافظًا ورقيبًا منه ـ تعالى ـ أو من ملائكته ، حثه على النظر فى نشأته الأُولى حتى يعلم أن من أنشأهُ على هذه النشأة قادر على إعادته وجزائه ، فليعمل ليوم الإعادة والجزاء ، وليُرْضِ ربه ولا يُملى على حفظته إلا مايسره فى آخرته وعاقبة أمره .

وأما على تقدير أن المراد بالحافظ العقل ، فلأنه لَمَّا أثبت ـ سبحانه ـ أن للإنسان عقلًا يرشده إلى مصالحه ويكفه عن مضاره ، حثه على استعماله فيما ينفعه ، وعدم تعطيله وإلغائه ، كأنه قيل : فلينظر بعقله وليتفكر به فى مبدأ خلقه حتى تنضح له قدرة واهبه ـ سبحانه ـ وأنه إذا قدر على إنشائه من مواد ليس فيها حياة ظاهرة فهو ـ سبحانه ـ على إعادته أقدر وأقدر ، فليعمل بما يُسَر به حين الإعادة والرجوع إلى مولاه .

٦ ـ (خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ) :

أى : خُلق الإنسان من ماء دافق مصبوب بدفع وسرعة فى الرحم ، والمراد بالماء الدافق : المنى الذى يحمل الحيوانات المنوية التى تلقح بويضة المرأة ويتكون الجنين .

٧ ـ (يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ) :

أى : يخرج هذا الماءُ (مِن بَيْنِ الصُّلْبِ) وهو الظهر .

(وَالتَّرَآئِبِ) : وهى عظام الصدر . وقال الآلوسى : لو جعل ما بين الصلب والترائب كناية عن البدن كله لم يبعد .

ولعلماء العصر كلام فى ذلك يمكن الرجوع إليه لمعرفة الاجتهادات القديمة والحديثة ولا يجوز تفسير القرآن بما لا يصل إلى حد العلم القطعى ، مع الدعوة إلى الفكر والنظر ومداومة البحث الذى قد يوصل إلى الحقيقة التى لا تقبل الشك وذلك ممكن غير مستحيل . قال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »[1] .

٨ـ (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) :

أى : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى خلق الإنسان مما ذكر لقادر على إعادته بعد موته ، وبعثه بعد هلاكه ، لا يصعب عليه ذلك ولا يعجز عنه سبحانه .

٩ـ (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) :

فى يوم القيامة تبلى السرائر ، أى : تظهر وتبدو ، ويصير السر علانية والمكنون ، مشهودًا ، سواءٌ منه ما أُسِرَّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أُخفى من الأعمال ، حيث يميز بين ما طاب منها وما خبث .

١٠ ـ (فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) :

المعنى : فما للإنسان المنكر للبعث من قوة فى نفسه يمتنع بها من العذاب ، ولا ناصر يمنعه ويحميه فيدفع العذاب عنه .

(١) سورة فصلت من الآية : ٥٣

(وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾)

المفـــردات :

(ذَاتِ الرَّجْعِ) : ذات المطر لرجوعه كل حين ، أو لرجوعه إلى المصدر الذى تبخر منه وتكاثف ونزل ماء .

(ذَاتِ الصَّدْعِ) : ذات الانشقاق عن النبات .

(إِنَّهُ) أى : إن القرآن .

(لَقَوْلٌ فَصْلٌ) : لقول فاصل بين الحق والباطل ، كما قيل له : فرقان .

(وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) أى : وما القرآن باللعب والباطل .

(يَكِيدُونَ كَيْدًا) : يمكرون مكرًا بالغ الغاية لصد الناس عن القرآن .

(وَأَكِيدُ كَيْدًا) : أجازيهم على فعلهم بالاستدراج لهم .

التفسير

١١ ــ (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) :

أقسم ــ سبحانه وتعالى ــ بالسماء التى ينزل منها المطر ، وسمى المطر رجعًا لأن العرب كانوا يرون أن السحاب يحمل بخار الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض ، أو سموا

المطر بذلك تفاؤلا ليرجع ، أو لأن الله يرجعه بين الفينة والفينة ليشرب الناس ويسقوا زرعهم ودوابهم ، ولولا ذلك لهلك الجميع ، وعن مجاهد : تفسير السماء بالسحاب ، والرجع بالمطر ، وقيل : الرجع : الملائكة - عليهم السلام - سُمُّوا بذلك لرجوعهم بأعمال العباد .

١٢- (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) :

وأقسم - سبحانه - بالأرض ذات الصدع ، أى : ذات الانشقاق عن النبات الذى يخرج منها .

١٣- (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ) :

المعنى : إن القرآن الذى أنزل على الرسول لقول فاصل بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، قد بلغ الغاية فى ذلك حتى كأنه نفس الفصل .

١٤- (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) :

أى : ليس فى القرآن شائبة لعب ولا باطل ، بل كله جد محض ، فمن حقه أن يهتدى به الغُوَاة ، وتخضع له رقاب العُتَاة ، ومن الواجب نحو القرآن - وقد وصفه الله بذلك - أن يكون مَهِيبًا فى الصدور ، مُعَظمًا فى القلوب ، ويترفع به قارئه وسامعه أن يُلِم بهزل - أو يتفكه بمزاح ، وأن يلقى ذهنه إلى أن جبار السمٰوات يخاطبه فيأمره وينهاه ، ويقف عند وعده ووعيده ، حتى إنه إن لم يخف من الله ولم يخش عذابه فالأولى به أن يكون جادًّا غير هازل وفى الحكم على القرآن بأنه فصل أخرج الترمذى وغيره عن على - كرم الله وجهه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكونُ فتنةٌ ، قلتُ : فمَا المخْرجُ

منها يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : كتابُ اللهِ ؛ فيه نبأُ مَن قبلكُم ؛ وخبَرُ ما بعدكُم ، وحُكْمُ ما بينكم ، هو الفصلُ ليسَ بالهزلِ ... » إلخ الحديث .

١٥ - (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا) :

ثم أخبر - سبحانه - عن الكافرين المكذبين بالقرآن الذين يصدون عن سبيل الله وعن الحق فقال : (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ) أى : يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى مخالفة القرآن والإعراض عنه ، ويُعْمِلُونَ المكايد فى إبطال أمره وإطفاء نوره ويبذلون جهدًا كبيرًا فى هذا الكيد ، وهم وإن بلغوا الغاية فى كيدهم فقدرتهم ضعيفة ، وقوتهم محدودة .

١٦ - (وَأَكِيدُ كَيْدًا) :

أى أُقابل كيدهم بتدبير قوى لا يمكن رده ولا يستطاع دفعه وذلك بمثل إملائهم - واستدراجهم من حيث لا يعلمون ، وانتظار الميقات الذى وقَّته للبطش بهم والانتقام منهم ، وإعلاء شأن القرآن وانتشار الدين ورفعة قدر الرسول ﷺ .

١٧ - (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)[1] :

(فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ) أى : فتَأَنَّ وانتظر الانتقام منهم ، ولا تستعجل به ولا تدع عليهم بالهلاك ، ولا تيأس من عقابهم ، والفاء فى قوله تعالى : (فَمَهِّلِ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى : أن الله هو الذى سيتولى كيدهم ولن يهملهم ، فلا تشغل نفسك بالتصدى والتعرض لمكايدهم ، وذِكْرُ (الْكَافِرِينَ) وعدم الاكتفاء بضميرهم لذمهم ونعتهم بأبى الخبائث وأساس جميع الشرور وهو الكفر .

---

(١) (رويدا) : مصدر مؤكد لمعنى العامل - وهو فى الأصل مصغر (رود) أى: مهل - أو (إرواد) على الترخيم - أى: أمهلهم إمهالا قريبا ، أو قليلا . اهـ :

(أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) : بدل من (مَهِّل) والمعنى : أمهل الكافرين إمهالا رويدًا ، أى : قليلا ، أو قريبًا .

وعن السدى أنه قال : أمهلهم حتى آمر بالقتال ، وآتيك فيهم بأمر حاسم ، أى : أمهل الذين كفروا بدعوتك التى واجهتهم بها ، ولعله المراد بالإمهال القريب أو القليل ، واختار بعضهم أن يكون المراد الإمهال إلى يوم القيامة ليعم من واجههم بالدعوة ومن كفروا بها بعد ، لأن ما وقع بعد الأمر بالقتال - كالذى وقع بالكفار يوم بدر وفى سائر الغزو - لم يعم جميع الكفار ، وما يكون يوم القيامة يعمهم جميعًا ، والتقريب يكون باعتبار كل آت قريب .

والظاهر ما قاله السدى ، وقد أصابهم بعد الأمر بالقتال ما أصابهم من قتل أبطالهم وقهرهم وإذلالهم ، وظاهر كلام أبى حيان أن الأمر الثانى (أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) تأكيد للأمر الأول (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ) والمخالفة بين اللفظين بين « مَهِّل » و « أمْهِل » لزيادة تثبيته ﷺ وتصبيره - عليه الصلاة والسلام - ودلت الزيادة المشعرة بالتغاير على أن كلاًّ من اللفظين كلام مستقل بالأمر بالتأنى فهو أوكد من مجرد التكرار ، والله أعلم .



التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث
الحزب الستون

الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩٣

سـورة الأعلى

وتسمى سورة سبح ، وهى مكية ، وآياتها تسع عشرة آية

مناسبتها لما قبلها :

لما ذُكر فى سورة الطارق خلق الإنسان ، وأُشير إلى خلق النبات فى قوله تعالى : (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) وذُكر هاهنا خلق الإنسان فى قوله تعالى : (خَلَقَ فَسَوَّى) وخلق النبات فى قوله تعالى : (أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) ناسب أن يقرن بينهما .

مقاصد السـورة :

١ ـ تنزيه ذات الله الأعلى ، وصفاته ، عما لا يليق بها (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) .

٢ ـ بيان الإبداع فيما خلق ـ سبحانه ـ فجعله مستوياً فى إحكام وإتقان ، وقدر لكل شىء خلقه ما يصلحه ، فهداه إليه : (الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى) .

٣ ـ توجيه العقول والأبصار إلى صنيع القدرة فى إخراج النبات من الأرض التى تنشق عنه وتدرُجه من أخضر نافع إلى أن يصير يابساً أسود وجعله رعياً للدواب : (وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) .

٤ ـ إخبار الرسول ﷺ بأن الله سيقرئه القرآن فيحفظه ولا ينسى منه شيئاً إلا ما شاء الله ، وأنه ﷺ ميسر لليسرى (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ..) الآيات .

٥ ـ أَمْرٌ للرسول ﷺ أن يُذكِّر بالقرآن وبما يوحَى إليه ليذَّكر من يخاف الله ويرجو ثوابه :

(فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى) .

٦ ـ إعلامه ﷺ بأن الأشقى المصر على العناد والكفر سيرفض دعوتك ، ويعرض عنك فلا تحزن ، وسيصلى النّار الشديدة ، فلا يستريح من العذاب بالموت ، ولايحيا حياة نافعة : (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ...) الآيات .

٧ ـ تأكيد حصول الفلاح ، والظَّفَرَ بالنجاة لمن تطهر من الشرك والمعاصى وذكر اسم خالقه بقلبه ولسانه ، فصلى فى خشوع وامتثال :

(قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) .

٨ ـ التنصيص على أن الذى ذكَّر به ، ودعا إليه ﷺ ثابت فى الصحف الأُولى صحف إبراهيم وموسى . فهو مما توافقت عليه الأَديان ، وسجلته الكتب السماوية :

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾)

المفــردات :

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) : التسبيح ؛ التنزيه ، أى : نزه اسمه ـ عز وجل ـ عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائفة ، وعن كل مالا يليق به .

(فَسَوَّىٰ) أى : فجعل المخلوقات كلها سواء فى الإحكام والإتقان .

(الَّذِى قَدَّرَ) أى : جعل الأشياء كلها على مقادير مخصوصة .

(الْمَرْعَىٰ) : ما ترعاه الدواب أخضر غَضًّا .

(فَجَعَلَهُ غُثَآءً) أى : جافًا يابسًا ، وأصل الغثاء : الهالك البالى من ورق الشجر ، ومنه غثاء السيل .

(أَحْوَىٰ) : أسود من القدم .

(وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) أى : يبتعد عنها ولا ينتفع بها الكافر فكان أشقى الناس .

(يَصْلَى النَّارَ) : يدخلها ويذوق حرها .

التفسير

١ - (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ) :

أى : اجعل أسماءه - جل شأنه - منزهة عن كل ما لا يليق بها فلا تطلقها على غيره على وجه يشعر بتشاركهما فيها ، كأن تقول مثلا لمن أعطاك شيئاً : إنه رزقنى على وجه يشعر بالتشارك ، ولا تسم بها غيره - تعالى - إذا كانت متخصصة به كلفظ الجلالة « الله » والرحمن ، ولا تذكرها فى موضع لا يليق بها ، أو على وجه ينافى التعظيم والإجلال ، وهذا الوجه من التفسير مبنى على الظاهر من أن لفظ (اسم) غير زائد وذهب كثير إلى أنه زائد أى : ذكر تأكيداً لضرب من التعظيم على سبيل الكناية .

وعليه فالمعنى : نزه ربك عما لا يليق به من الأوصاف فى ذاته وأفعاله وأسمائه ، واستدل لهذا الرأى بما أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : لما نزلت : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »[1] قال لنا رسول الله ﷺ اجعلوها فى ركوعكم ، ولما نزلت : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قال : اجعلوها فى سجودكم ، ومن المعلوم أن المجعول

---

(١) سورة الواقعة ، آية : ٧٤ .

فيهما : سبحان ربى العظيم ، وسبحان ربى الأعلى دون ذكر لفظ (اسم) كما استدل أيضاً على أن (اسم) زائد بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ، والطبرانى ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ) قال : سبحان ربى الأعلى .

وقوله ـ سبحانه ـ (الْأَعْلَىٰ) صفة للرب ، وهو الأظهر ، وأُريد بالعلو : أنه ـ سبحانه ـ يعلو بقدره واقتداره لا بالمكان ؛ لاستحالته عليه ، ويجوز أن يكون لفظ الأعلى صفة للفظ (اسم) والمراد بعلوه حينئذ : تَرَفُّعُهُ عن أن يشاركه اسم فى حقيقته .

٢ ـ (الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ) :

صفة ثانية ، وحذف مفعول (خلق) لقصد التعميم . أى : خلق كل شىء فجعل خلقه متساوياً كما تقتضيه حكمته وإتقانه ، ويتسنى لهذا المخلوق أن يؤدى ما خلق له على أكمل وجه ، وقال فى البحر : خلق كل شىء فسواه بحيث لم يأْت متفاوتاً بل مناسباً فى إحكام وإتقان للدلالة على أنه من عالم حكيم .

٣ ـ (وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ) :

صفة أُخرى ، وكذا حال ما بعده ، أى : جعل الأشياء مقدرة على مقادير مخصوصة فى أجناسها . وأفرادها ، وأفعالها وآجالها ، وهدى كلا منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغى له طبعاً أو اختياراً ، وبسره لما خلق له بخلق الإلهامات ، ونصب الدلالات ، وإنزال الآيات ، ولو تأملت فى خلق الإنسان وأحوال النباتات والحيوانات لرأيت عجباً مما تحار فيه العقول ، وتعجز عن إدراك كنهه الألباب ، وحسبك أنه ـ سبحانه ـ أودع فى الإنسان عقلاً يميز به بين الخير والشر ، والضار والنافع ، وسخر له كنوز الأرض وخيراتها وجعل كل ما عليها طيِّعا له منقاداً ، ووجه الحيوانات إلى مراتعها ، والطيور إلى مآكلها ، والهوام إلى حاجاتها ، وأما فنون هداياته فى غير ذلك فمما لا يعلمه إلَّا العليم الخبير. وعن السدى : قدر للولد فى البطن تسعة أشهر أو أقل أو أكثر ، وهداه للخروج منه للتمام .

٤ ، ٥ ـ (وَالَّذِىٓ أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَى) :

أى : أنّه ـ جل وعلا ـ أنبت ما ترعاه الدواب أخضر غضًّا يكاد يبرق ويتلألأ من طراوته ، ثم جعله بعد ذلك (غُثَآءً) أحوى : يابساً جافًّا كأوراق الشجر البالية ، والحشائش والأخلاط مما يقذف به السيل على جانب الوادى ، ومنه : غثاء السيل . والعرب تسمى القوم إذا اجتمعوا من قبائل شتّى أخلاطاً وغثاءً (أَحْوَى) : من الحوة : وهى سواد يضرب إلى الخضرة ؛ إشارة إلى بلوغه الغاية فى القدم ، فهو صفة مؤكدة للغثاء لأن الغثاء إذا قدم وأصابته المياه حتّى اسود وتعفن صار أحوى .

وتفسر الحُوَّة بشدة الخضرة ، ولاينافى ذلك تفسيرها بالسواد ، لأن شدة الخضرة ترى فى بدء النظر إليها كالسواد ، والمعنى : أخرج المرعى حال كونه أحوى من شدة الخضرة ، فجعله غثاءً بعد ذلك .

٦ ، ٧ ـ (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٓ . إِلَّا مَاشَآءَ اللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ) :

بيان لهداية الله ـ تعالى ـ الخاصة برسوله ﷺ إثر بيان هدايته ـ تعالى ـ العامة لسائر مخلوقاته ، وهى هدايته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتلقى الوحى ، وحفظ القرآن الكريم الذى هو هدى للعالمين ، وتوفيقه لهداية الناس أجمعين .

والسين إما للتأكيد ، وإما لأن المراد : إقراءُ ما أوحَى إليه حينئذ ، وما سيوحى إليه بعد ذلك .

والمعنى . سنقرئك ما أُوحى إليك الآن ، وما يوحى إليك بعد ذلك على لسان جبريل ـ عليه السلام ـ وذلك بأن يقرأ جبريل ـ عليه السلام ـ ما يقرأ على الرسول ﷺ من الوحى وهو أُمىٌّ لا يكتب ولا يقرأُ فيحفظه ولاينساه فى وقت من الأوقات ؛ لقوة الحفظ والإتقان ، ليكون ذلك آية أُخرى للرسول ﷺ وجُوِّزَ أن يكون المعنى : سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة بدون تعليم أحد إياك كما هى العادة ، ولما كان الوعد بعدم الإنساء على وجه

قد يشعر بالتأبيد واللزوم وربما يوهم استحالة نسيانه ، جاء الاستثناءُ فى قوله – تعالى – : (إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ) أى : إنه – سبحانه – إذا أراد نسيانك شيئاً لم يعجزه ذلك وهو لم يشأ أن ينسيه شيئاً فيكون القصد نفى نسيانه رأساً .

روى أنه ﷺ أسقط آية فى قراءته فى الصلاة فحسب أُبَىٌّ أنها نسخت ، فسأله ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : نسيتها . والذى ذكره أُبَىٌّ عن نسيانه ﷺ إن صح ذلك فهو فى غير ما يتعلق بالأحكام التى أُمر بتبليغها ، وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدين التى جازت على عقول الغافلين .

والاستثناءُ بشارة من الله لنبيه ، وبالجملة : ففائدة هذا الاستثناء أن يعرِّف الله – تعالى رسوله ﷺ قدرته حتى يعلم – صلوات الله وسلامه عليه – أن عدم نسيانه من فضله وإحسانه – تعالى .

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ) : تأكيد لوعده – تعالى – لرسوله ﷺ أى : إن الذى وعدك بأنه سيقرئك ، وأنه سيحفِّظك ما تقرأ عالم بالسر والجهر فلا يفوته شيءٌ مما يكون فى نفسك ، وهو مالك قلبك وعقلك ، وخافى سرك .

وفى قدرته أن يحفظ عليك ما وهبك ، ولو شاء لسلبه ، ولن تستطيع دفعه لأنك لا تستطيع أن تخفى عنه شيئاً .

وقيل : إن الآية تعليل للآية السابقة ، أى : لأنه يعلم ما ظهر وما بطن من الأُمور التى من جملتها حالك وحرصك على حفظ ما يوحى إليك بأسره ، فينسيك ماشاء إنساءه ، ويبقى لك محفوظاً ما شاء إبقاءه لما يناط ويتعلق بكل منهما من المصالح والحكم التشريعية .

٨ – (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ) :

عطف على قوله – تعالى – (سَنُقْرِئُكَ) الآية ، أى : نوفقك توفيقاً مستمرًّا للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ، وعلى العقول فهمها فى كل باب من أبواب الدين علماً وتعليماً واهتداءً وهداية مما يتعلق بتكميل نفسه الشريفة ﷺ وتكميل غيره ، فيندمج فيه تيسير الطريق إلى تلقى الوحى ، والإحاطة بما فيه .

وتعليق التيسير به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل ـ كما فى قوله تعالى : « وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِى »[١] . للإيذان بقوة تمكينه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له ، كأنه ﷺ فطر عليها . كما فى قوله ـ صلوات الله عليه : (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) .

وبعد ماوعد الله ـ سبحانه ـ رسوله بذلك الفضل العظيم أخذ يأمره بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم ، وتوجيههم إلى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى والاستعداد لامتثال أوامره ، والتزام أحكامه فقال ـ سبحانه :

٩ ـ (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ) :

أى : فذكِّر الناس بما يوحى إليك من القرآن الكريم وغيره من الوحى ، واهدهم إلى مافى ثناياه وتضاعيفه من الأحكام الشرعية ودم على ما تفعله ، وأشار ـ سبحانه ـ بقوله : (إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ) إلى أن رسول الله ﷺ كان يُذَكِّرُ أهل الباطل ويفرغ فى تذكيرهم غاية الجهد ، ويتجاوز فيه كل حدٍّ معهود حرصاً على الإيمان وتوحيداً للملك الديان ، وما كان ذلك يزيد بعضهم إلَّا كفرًا وعنادًا وتمردًا وفسادًا ، فأُمِرَ ـ عليه الصلاة والسلام ، تخفيفاً عليه ـ بأن يخص التذكير بتوقع النفع فى الجملة ، وذلك بأن يكون من يذكِّره كلا أو بعضاً ممن يرجى منه الاستجابة والانتفاع ، ولا يتعب نفسه الكريمة فى تذكير من لايورثه التذكير إلا عُتُوًّا ونفورًا ، من الذين طبع الله على قلوبهم ، وتمسكوا بما ورثوا عن آبائهم من جهل وجحود ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ »[٢] وقوله ـ تعالى ـ : « فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا »[٣] وقد أعلم الله رسوله ﷺ بمن طبع على قلبه فلم تنفذ إليه الهداية .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٢٦ .
(٢) سورة (ق) من الآية : ٤٥ .
(٣) سورة النجم ، من الآية : ٢٩ .

وقيل : إن المعنى ليس كما ذكر ، وإنما هو استبعاد النفع بالنسبة إلى هؤلاء المذكورين والمطلوب تذكير الجميع سواء انتفعوا بالذكرى أو لم ينتفعوا كأنه قيل : افعل ما أمرت به لتؤجر وإن لم ينتفعوا به ، وفيه تسلية له ﷺ .

١٠ - (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ) :

أى إن الذكرى نافعة حتماً فى فريق من الناس ، وهو من يخشى الله تعالى - حق خشيته فيتفكر فى شأن ما تُذَكِّرُهُ به ، وتوجهه إليه فيقف على حقيقته ، فيؤمن به وبكل ما تدعوه إليه ، وترشده إلى اتباعه .

١١ - (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) :

أى : يتجنب الذكرى ويتحاماها ، ولا ينتفع بها الكافر المصر على كفره ، وهو الذى غلبه شقاؤه ، فأعرض عن النور الساطع ، والبرهان القاطع ، وخلا قلبه ، من خشية الله . فكان أشقى أنواع الكفرة .

وقيل : المراد به الكافر المتوغل فى عداوة الرسول ﷺ كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . وقيل : إن الآية نزلت فيهما . والمتوغل فى عداوة الرسول أشقى من غير المتوغل فيها .

١٢ - (الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ) :

أى : إن هذا الكافر الذى هو أشقى أنواع الكفرة : جزاؤه أن يعذَّب بالنَّار الكبرى التى هى الطبقة السفلى من أطباق النار ، كما قال الفراء ، ولا بُعْد فى تفاوت نار الآخرة وفى أن بعضها أكبر من بعض ، وأشد حرارة ، والنار الكبرى هى نار الآخرة ، والصغرى هى نار الدنيا ولا شك فى أن نار الآخرة أقوى أثرًا وأشد إيلاماً لمن يعذبون بها من هذه النار التى نعرفها ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً « ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم » .

ثم إن من شقى وذاق عذابه بتلك النَّار الكبرى يخلد فيها ولا ينقطع عذابه عند غاية ، ولا يجد لآلامه نهاية ، كما قال تعالى :

١٣ ـ (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) :

أى : لا يموت الأشقى فى نار جهنم فيستريح من العذاب ، ولا يحيا فيها حياة طيبة تنفعه كما قال ـ تعالى ـ : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا »(1) .

و (ثم) للتراخى فى مراتب الشدة ؛ لأن التردد فى النار بين الموت والحياة ، الذى أشير به إلى الخلود فى النار الكبرى أفظع من نفس الصلى وهو دخول النار ، فهو متراخ عنه أى : عن الصلى فى مراتب الشدة ، ونفى الحياة فى الآية لايناقض نفى الموت ، لأن الحياة المنفية هى الحياة التى يرغب فيها ، ويتمنى صاحبها أن تدوم ، وحياة المعذب بتلك النار الكبرى ممقوتة عنده ، يتمنى فى كل لحظة تمر عليه لوفقدها ، فكأنها ليست بحياة .

(قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾)

المفـــردات :

(قَدْ أَفْلَحَ) أى : نجا من المكروه ، وفاز بالمطلوب .

(مَن تَزَكَّى) أى : تطهر من الشرك واتعظ بالذكرى .

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) أى : كبر لافتتاح الصلوات الخمس ، أو هى وما يتيسر من النوافل .

التفسـير

١٤ ، ١٥ ـ (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) :

أى : قد فاز بالمطلوب ، وظفر بكل ما يرجوه فى دينه ودنياه مَنْ تطهر من الكفر والشرك بتذكره وامتثاله ، وحمْلُه على ذلك مروى عن أبى عباس وغيره ، وأخرج البزار وابن مردويه

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٣٦ .

عن جابر بن عبد الله ، عن النبي ﷺ أنه قال فى ذلك : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله » . واعتبر بعضهم فى التزكى أمرين ، فقال : أى تطهر من الشرك والمعصية .

وقيل : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) أى : تكثَّر من التقوى والخشية ، من الزكاء : وهو النماء ، وقيل : تطهر للصلاة ، وقيل : أتى الزكاة ، وروى هذا عن جماعة منهم أبو الأحوص وقتادة .

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ) أى : ذكر اسمه - تعالى - بلسانه وقلبه لا بلسانه مع غفلة القلب ، وقيل : المراد بهذا الذكر تكبيرة الإحرام (فَصَلَّىٰ) أى : الصلوات الخمس كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس ، وقيل : الصلوات الخمس وما تيسر من النوافل ، وإنما اقتصر على ذكر الصلاة ، لأن الفرائض والواجبات الدينية لم تكن تامة يوم نزول السورة وكانت الصلاة أهم ما نزل - إن كان نزل غيرها - كذا قيل وعن على - كرم الله وجهه (تَزَكَّىٰ) : تصدق صدقة الفطر (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) : كبَّر يوم العيد فصلى العيد ، وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدهم سائل وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدى صلاته زكاة ، فإن الله يقول : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ) .

١٦ ، ١٧ - (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) :

الخطاب لكفار مكة ، كأنه قيل لهم : أنتم الأشقياء لا تفعلون ذلك من التطهر من الشرك وذكر اسم الله تعالى ، بل تفضلون الحياة الفانية وترضون بها وتطمئنون إليها ، وتعرضون عن الآخرة إعراضاً كلياً كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا »[1] ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الناس ، والمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكر ، ومما لا يخلو عنه الناس غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة فى السعى والإقبال عليها ، وعن ابن مسعود ما يؤيد ذلك ، والالتفات من الغيبة حسبما يقتضيه السياق - إلى الخطاب لتشديد التوبيخ للأشقياء الذين وبخوا فيما سبق بقوله

---

(١) سورة يونس من الآية : ٧

ـ تعالى ـ : (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) على أن الخطاب خاص بهم ، أما إذا أريد بالخطاب مايعم ويشمل الكفار والمسلمين ، فيكون فى حق الكفار لتشديد التوبيخ كما سبق ، وفى حق المسلمين لتشديد العقاب .

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) أى : تؤثرون الدنيا على الآخرة والحال أن الآخرة خير فى نفسها ، فنعيمها مع كونه فى غاية اللذة وأنه خالص عن شائبة ما يكدر صفوه ، أبدىٌّ لا انصرام له ، والدنيا مع ذلك فانية لابقاء لها ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريباً ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟! قال ابن جرير فى روايته عن ابن مسعود أنه استقرىء (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فلما بلغ (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه فقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ؟! فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ، ونساءها ، وطعامها ، وشرابها ، وزُويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل ، وتركنا الآجل . وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى الأشعرى : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أحب دنياه ، أضرَّ بآخرته ، ومَن أحبَّ آخرتَه أضَرَّ بدنياه ، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى » .

(إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾)

التفسير

١٨ ، ١٩ - (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) : الإشارة إلى السورة كلها ، عن ابن عباس : لما نزلت (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قال : كلها فى صحف إبراهيم وموسى ، وقيل : الإشارة إلى قوله - تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى) حتى قوله - تعالى - : (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وروى ذلك عن قتادة . والإشارة إلى مافى السورة كلها ، أى : إلى مضمونها ومقاصدها ؛ فإن ذلك ثابت فى الصحف الأُولى التى هى صحف إبراهيم وموسى ، وفى إبهامها ووصفها بالأُولى ثم بيانها بقوله - سبحانه - : (صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) إشارة إلى أنها قد بلغت الغاية فى التفخيم ، وعلو الشأن ، وكانت صحف إبراهيم عشرة ، وكذا صحف موسى - عليه السلام - أُنزلت عليه قبل التوراة وكانت عبرًا ومواعظ ، روى عن أبى ذر أنه قال : قلت : يا رسول الله : فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت عبرًا كلها . قلت : فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : أمثال كلها . والله أعلم .

سـورة الغاشـية

هذه السورة مكية ، وعدد آياتها ست وعشرون آية

مناسبتها لما قبلها :

لَمَّا أشار – سبحانه وتعالى – فى السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالًا ، ناسب أن تأْتى هذه السورة عقبها لبسط هذا الكلام وتوضيحه .

مقاصد السـورة :

بدأت بالحديث عن يوم القيامة بأُسلوب يُشَوق إلى سماعه ؛ لبيانَ ما فيه من أهوال وشدائد ، وبلاءٍ وعناءٍ ، مشيرة إلى أن الناس يوم القيامة فريقان ، فمنهم من لا يرون فيه كرامة عند استقبالهم ، وإنما يلقون كل مهانة وعنت ومذلة ، ثم يدخلون نارًا حامية ، وَيُسْقَوْنَ من عين آنية ، ومنهم من يستقبلون ذلك اليوم فرحين مستبشرين بمظاهر الرحمة الواسعة والنعيم المعدّ لهم : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ..) الآيات .
ثم ساقت السورة الكريمة الأَدلة والبراهين الواضحة على قدرة الله الباهرة على البعث بما يشاهدونه بأَعينهم ، والسماء العظيمة ، والجبال الشاهقة ، والأَرض المنبسطة : (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ...) الآيات . ثم أبرزت أمر الله لرسوله ﷺ بالتذكير ؛ لأَن مهمته الأُولى بالنسبة إليهم مبينة أنه ليس مُسَلَّطًا عليهم فيجبرهم على الإيمان : (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ) .

وكان ختام السورة بيان أَن من تولى وكفر بعد هذا التذكير ، فسوف يأْخذه الله بذنبه ويعذبه العذاب الأَكبر حين يرجع إليه بعد الموت ، لأَن رجوعهم جميعًا إليه ، وحسابهم عليه : (إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ...) الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾)

المفردات :

(الْغَاشِيَةِ) : من أسماء يوم القيامة من غَشِيَهُ الأَمْرُ : إذا غطاه .

(خَاشِعَةٌ) أى : ذليلة ، يقال : خشع فى صلاته : إذا تذلل ونكّس رأسه .

(عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) أى : عملت عملاً شاقا تعبت فيه فى الدنيا ، ولاجدوى له فى الآخرة .

(تَصْلَىٰ) أى : تدخل .

(آنِيَةٍ) أى : بلغت أناها ـ بفتح الهمزة وكسرها ـ وهو غاية حرها .

(إِلَّا مِن ضَرِيعٍ) : وهو شجر فى النار يشبه الشوك أَمَرُّ من الصبر وأَنْتَنُ من الجيفةِ ، وقيل غير ذلك كما سيأتى فى الشرح .

التفسير

١ ـ (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) :

هل : استفهام أُريد به التعجيب من حديث القيامة ، والتشويق إلى سماعه والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التى حقها أن تتناقلها الرواة ، ويتنافس فى تلقيها الدعاة من كل

حاضر وباد . وهى اسم من أسماء القيامة.. قاله ابن عباس ، وقتادة وابن زيد وسفيان-والجمهور ، وأُطلق عليها (الغاشية) لأَنها تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأَهوالها .

وظاهر كلام قطرب أَن (هل) بمعنى (قد) حيث قال : قد جاءك حديث القيامة يا محمد .

٢ ، ٣ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) :

هاتان الآيتان وما بعدهما إلى قوله - تعالى : (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) استئناف وقع جوابًا عن الاستفهام التشويقى ، كأَنه قيل من جهته ﷺ : ما أَتانى حديثها فما هو ؟ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : لم يكن أَتاه - عليه الصلاة والسلام - حديثها ، فأَخبر الله رسوله - عليه الصلاة والسلام - عنها فقال : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) أَى : وجوه الكفار - يوم إذ غشيتهم الغاشية - ذليلة لما اعترى أَصحابها من الخزى والهوان ؛ لأَن المراد بخشوعها : ذُلُّهَا ، ولم توصف بالذل ابتداءً لما فى وصفها بالخشوع من الإِشارة إلى التهكم ، وأَنها لم تخشع فى وقت ينفع فيه الخشوع ، وإنما خص الوجوه بذلك ، لأَن الحزن والسرور إذا استحكما فى المرءِ أَثَّرَا فى وجهه . (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) أَى : تعمل فى النار عملًا شاقا تتعب فيه ، وهو جَرُّ السلاسل والأَغلال ، والخوض فى النار والصعود والهبوط فيها جزاءَ التكبر عن العمل وطاعة الله تعالى فى الدنيا .

وقيل : عملت فى الدنيا أَعمال السوءِ ، والْتَذَّتْ بها وتنعمت ، فهى فى نَصَبٍ منها فى الآخرة .

وعن زيد بن أَسلم أَنه قال : أَى : عاملة فى الدنيا ناصبة فيها ؛ لأَنها على غير هدى. فلاثمرة لها إِلَّا النَّصَبُ ، وخاتمتها النار .

٤ ، ٥ - (تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ) :

أَى : تدخل نارًا قد أُحميت مددًا طويلة ، فلا حر يعدل حرها ، لأَن أَعمالها فى الدنيا كانت خاسرة غلب عليها الشر والضلال . (تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ) أَى : من عين ماءِ بلغت أَناها بوصولها إلى أَقصى غايتها فى الحرارة ، قال ابن عباس ومجاهد والحسن والسّدى : قد

انتهى حرها وغليانها وحان شربها ، والتأنيث فى هذه الصفات والأفعال راجع إلى الوجوه ، والمراد أصحابها بدليل قوله – تعالى – :

٦ ، ٧ – (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ) :

بيان لطعامهم إثر بيان شرابهم ، أى : إن طعامهم فى النار الذى ليس لهم طعام سواه هو الضريع ، وهو كما قال عكرمة : شجرة ذات شوك لاصقة بالأرض ، وقال غير واحد : هو جنس من الشوك ترعاه الإبل رَطْبًا فإذا يبس تَحَامَتْهُ ، وهو شر الطعام وأبشعه لا تقربه دابة ، أو هو سُمٌّ قاتل ، وقريش تسميه فى الربيع الشِّبْرِق وفى الصيف الضَّرِيع ، والظاهر أنه يستحضر لهم حقيقة ، أشار إلى ذلك الآلوسى .

وقيل : هو شجرة نارية تشبه الضريع أَمَرُّ من الصبر وأَنْتَنُ من الجيفة ، وأشد حرارة من النار ، والله – سبحانه – الذى أخرج من الشجر الأخضر نارًا لا يعجزه أن ينبت فى النار شجر الضريع .

والمعذبون من الكفار طبقات ، فمنهم مَنْ طعامُه فى النار الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الزقوم ، فلا تناقض بين هذه الآية وبين قوله : « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ »[1] .

(لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ) أى : إن طعامهم ليس من جنس الطعام الذى يذهب الجوع ويمد بالسِّمَنِ ، وإنما هو من شوك ، والشوك مِمَّا ترعاه الإبل وتقبل عليه ، وهذا نوع منه تعرض عنه الإبل ولا تقربه ؛ فليس له من منفعة الغذاء شىءٌ ، وقيل : إنه طعام عنده يتضرع إلى الله – تعالى – ويطلب الخلاص عنه . وليس فيه منفعتا الغذاء أَصلًا ، وتنكير الجوع للتحقير ، أى : لا يغنى من جوع مَّا .

(١) سورة الحاقة ، الآية رقم : ٣٦ .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(نَاعِمَةٌ) : من النعومة ، وكُنّى بها عن البهجة وحسن المنظر .

(رَاضِيَةٌ) : أى قد رضيت بسعيها .

(عَالِيَةٌ) : مرتفعة ، أو عالية القدر ، فالعلو إما حسى وإما معنوى .

(لَاغِيَةً) أى : لا تسمع فيها نفسًا لاغية ، والمراد أنها لا تتحدث باللغو : وهو كل قبيح من الكلام ، أو كل ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ، أو هو الباطل .

(مَّرْفُوعَةٌ) : كثيرة الفُرُش عالية السمت .

(وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ) أى : معدة بين أيديهم ، والأكواب : جمع كوب ، وهو قدح لا عروة له .

(وَنَمَارِقُ) أى : وسائد صنعت للاتكاء عليها ، والنمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة ـ بضم النون والراء ، وبكسرهما وفتحهما .

(وَزَرَابِيُّ) أى : بُسُطٌ عراض فاخرة ، أو هى الطنافس التى لها خَمْل وهو الهدب ، واحدها زَرْبِيَّةٌ ـ مثلثة الزاى .

التفسير

٨ - ١١ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً) :

لَمَّا ذكر - سبحانه - حال الأشقياء شرع فى رواية حديث أهل الجنة ، وتقديم حكاية أهل النار لأنه أدخل فى تهويل الغاشية ، وتفخيم حديثها ، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة ، وما يتقبلونه فيها من النعيم بعد حكاية سوء حال أهل النار ، ممَّا يزيد المحكى - حسنًا وجمالًا .

والمعنى : أن وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ، أى : ذات بهجة ، وحسن ، وإشراق ونضارة ، كقوله - تعالى - : « تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ »[1] ولا تكون كذلك إلَّا إذا كانت فرحة بما لقيت من جزاءِ سعيها فى الدنيا ، وهذا المعنى على أن ناعمة من النعومة ، وأما إذا كانت من النعيم ، فيكون المعنى : وجوهٌ متنعمة فى الجنة يوم القيامة ، وهى وجوه المؤمنين ؛ جزاءَ طاعتهم ، وإيمانهم بالله تعالى ، ولم تعطف هذه الجملة (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ) على ما قبلها وهى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) إيذانًا بكمال تباين مضمونهما .

(لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) أى : راضية بعملها الذى عملته فى الدنيا تنفيذًا لأمر ربها ، واتباعًا لهدى الرسول ﷺ حيث شاهدت ثمرته (فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) أى : مرتفعة السمت ، ووصفها بذلك لأن خير الأماكن ما كان مرتفعًا شاهق البناء كقوله :

إن الذى سمك السماءَ بنى لنا ... بيتًا دعائمه أعز وأطول

أو فى جنة عالية القدر . فالعلو إما حسى أو معنوى ، وجمع بينهما أبوحيان ، وعلو القدر : أن تكون رفيعة فى أوصافها ومزاياها ، وبما اختصت به من ألوان النعيم ، وسميت دار النعيم بالجنة لأن اسمها مأخوذ من الاجتنان ، وهو الستر ؛ لتكاثف أشجارها ولتظليلها بالتفاف أغصانها (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً) الإسناد إلى الوجوه والمراد : أصحابها الذين يتأتى خطابهم أى :

---

(١) سورة المطففين ، الآية : ٢٤ .

لا تسمع فيها كلمة ذات لغو أو لا تسمع نفسًا تلغو ، فإن كلام أهل الجنة ذِكْر وطاعة وحمدٌ لله على ما رزقهم من النعيم الدائم ، ويراد باللَّغو : الباطل ، أو كل قبيح من الكلام ، أو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ، وفى تنزيه نعيم أهل الجنة عمَّا هو من لوازم نعيم غيرهم فى الدنيا تنبيه للمؤمنين إلى أنه لا يليق بهم أن يكونوا من أهل اللَّغو مهما فاض عليهم النعيم ، واتسعت لهم النعمة ، بمعنى أن نعيمهم ينبغى أن يكون نعيم أهل الفضل والجد لا نعيم أهل الجهل والحمق .

١٢ - ١٥ - (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ) :

أى : فى تلك الجنة عين عظيمة لا ينقطع ماؤُها عن الجريان ، أو عيون كثيرة ، كقوله - تعالى - : (عَلِمَتْ نَفْسٌ) أى : نفوس ، والتنوين فى (عين) للتعظيم ، أو التكثير ، ووصف ماء العيون بالجريان للإشارة إلى أنه بارد صاف ؛ لأن ماء العيون إذا كان جاريًا يكون فى العادة باردًا صافيًا مع ما فى منظر الماء الجارى من مسرة وارتياح . (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) أى : أن سرر الجنة مرفوعة عن الأرض ، أو رفيعة المقدار ، كثيرة الفرش ؛ زيادة لهم فى الراحة والنعيم . قالوا : فإذا أرادوا الجلوس عليها تواضعت لهم . (وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ) بين أيديهم لمن أرادها من أصحابها ، أو موضوعة على حافة العيون ، معدة للشرب ، لا تحتاج إلى من يملؤها . وهى قداح لا عُرى لها . (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ) وهى الوسائد التى صف بعضها إلى بعض للاستناد إليها ، والاتكاء عليها ، سواءٌ أكانت هذه على السرر أو فى جوانب المسكن ، فإذا أراد المؤمن أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى أُخرى .

والنمارق : جمع نُمْرُقَة ، وهى الوسادة الصغيرة .

١٦ - (وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ) :

أى : بسط عراض فاخرة ، مبسوطة هنا وهناك لمن أراد الجلوس عليها ، أو مفرقة فى المجالس . وقال الفراءُ : هى الطنافس التى لها خمل رقيق ، أى : هدب ، وقال الراغب : إنها فى الأصل ثياب محبرة منسوبة إلى موضع ، ثم استعيرت للبسط ، وواحد الزرابى : زربية - مثلثة الزاى .

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾)

المفـــردات :

(الْإِبِلِ) : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، يصدق على القليل والكثير ، وهو مؤنث ، والإبل : الجمال .

(سُطِحَتْ) أى : بسطت ومهدت للإقامة عليها .

(بِمُصَيْطِرٍ) أى : بمسلط عليهم قاهر لهم .

(إِيَابَهُمْ) أى : رجوعهم بعد الموت إلينا لا إلى سوانا . والإياب : مصدر (آب) ، بمعنى رجع .

التفسـير

١٧ - (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) :

استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية ، وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون ، وذلك بالاستشهاد عليه بأربعة أدلة مشاهدة لا يستطيعون إنكارها .

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال : لمَّا نعت الله - تعالى - ما فى الجنة عجب من ذلك أهل الضلال ، فأنزل - سبحانه وتعالى - : (أَفَلَا يَنظُرُونَ) الآية .

والهمزة للإنكار والتوبيخ ، أى : أينكرون البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله - عز وجل - فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم ، يستعملونها كل حين ،

ولا يستطيعون إنكارها كيف خلقت خلقًا بديعًا معدولًا به عن سنن خلق سائر أنواع الحيوانات فى عظم جثتها ، وشدة قوتها ، وعجيب هيئاتها اللائقة بتأتى ما يصدر عنها من الأعمال الشاقة كتحمل الأثقال العظيمة وهى باركة ؟ ثم إيصالها الأحمال الفادحة إلى مختلف الأقطار ؟ وفى صبرها على الجوع والعطش حتى إن ظمأها ليبلغ ثمانية أيام ، وقدرتها على قطع الفيافى والقفار مع لين وسهولة فى السير حتى اعتبرت بحق سفينة الصحراء؟!وفى أنها تكتفى فى غذائها بما تيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم ! وهى مع ضخامتها تنقاد للضعيف ، وتخضع للصغير وتبرك لتحمل من قرب ، ثم تنهض بما تحمل ! وينتفع بأصوافها وأوبارها وألبانها ولحومها ! وفيها غير ذلك من المزايا التى لا يماثلها فيها حيوان آخر !

وخُصَّت بالذِّكر لأنها أعجب ما عند العرب ، ولهم على أحوالها أتم وقوف ، وعن الحسن أنها خُصت بالذكر لأنها تأكل النوى والقَتَّ ، وتخرج اللبن ، وقيل له : الفيل أعظم فى الأعجوبة ، فقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره كما يركب ظهر البعير من غير مشقة فى ترويضه ، ولا يحلب دره .

والتناسب بينها وبين المتعاطفات عليها - كما قال عصام الدين- :إن خيال العرب جامع بين الأربعة ، لأن ما لهم النفيس الإبل ، ومدار السقى لهم على السماء ، ورعيهم فى الأرض ، وحفظ مالهم بالجبال .

١٨ - ٢٠ -(وَإِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) :

أى : وإلى السماء التى تقع عليها أبصارهم ليلًا ونهارًا ، كيف رُفعت رفعًا بعيد المدى بلا مساك ولا عمد بحيث لا ينال ذلك الفهم والإدراك؟! وكيف زُيِّنت بنجوم تكثر هذه الكثرة فلا تدخل فى حساب الخلق ، صنع الله الذى أتقن كل شىء خَلَقَه ، كما قال- تعالى : « أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ »[1] .

(١) سورة ق ، الآية رقم : ٦ .

(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) على الأَرض نصبًا ثابتًا راسخًا مع ارتفاعها الشَّاهق لئلا تميد الأَرض بأَهلها وتتزلزل ، وجعل فى تلك الجبال ما جعل مِمَّا فيه خيرهم وصلاحهم .

(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) أى : مدت بتوطئة وتمهيد ، حسبما يقتضيه صلاح أُمور أَهلها بحيث يسهل عليهم أن يضربوا فيها ، وينقلبوا عليها. فهى كلها بساط واحد تنبسط من الأُفق إلى الأُفق .

فبهذه الآيات الأَربعة ، نُبِّهَ البدوى إلى الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى يركب عليه والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى ينتفع بما فيه ، والأَرض التى هى مستقره ومثواه ، بها يستدل على أن من خلق هذه الأَشياء الشاهدة على قدرة الخالق العظيم ، المالك المتصرف ، لا يعجزه أن يحقق البعث والنشور ، وذلك ليرجعوا عمَّا هم عليه من الإنكار ، والنفور ، ويسمعوا إنذارك ، ويستعدوا ليوم اللقاءِ بالإِيمان والطاعة .

(فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(بِمُصَيْطِرٍ) : بمسلط عليهم ، قاهر لهم .

(إِلَّا مَن تَوَلَّى) : إلا مَن أعرض عن الطاعة .

(إِيَابَهُمْ) : رجوعهم إلينا لا إلى غيرنا ، من (آب) إذا رجع .

التفسـير

٢١ - ٢٤ - (فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) :

بدأت الآيات بقوله - تعالى - : (فَذَكِّرْ) فالفاء لترتيب الأمر بالتذكير على عدم النظر فى مخلوقات الله الدالة على قدرته البالغة ، والتى هى نصب أعينهم ، أى : فاقتصر على التذكير ، ولا تلح عليهم ، ولا تعبأ بما يقع منهم من إعراض عن النظر والتفكير ، وقوله - سبحانه - : (إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ) تعليل للأمر بالتذكير وتحديد لذلك الأمر الذى بعث الله لأجله رسوله ﷺ وهو تذكير الناس بالأدلة وبما نسوه من أمور دينهم ، وليس فى سلطانه - عليه الصلاة والسلام - أن يخلق الاعتقاد فيهم ، أو أن يكون رقيبًا على قلوبهم ، لأنه هاد ومرشد ، وليس عليه إلَّا البلاغ .

(لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) أى : لست بمتسلط عليهم ، تقهرهم على ما تريد ، وتدفعهم إليه كقوله - تعالى - : « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ »[1] .

(إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ) أى : لكن من أعرض عن الطاعة وجحد الحق المفروض عليه ، فإن لله - تعالى - الولاية عليه والقهر . (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) : وهو عذاب الآخرة ، فإنه الأكبر ، وعذاب الدنيا بالنسبة إليه أصغر ، وقيل : المعنى : لست بمصيطر عليهم إلَّا من تولَّى وأقام على الكفر ، فإنك مسلط عليه بما يؤذن لك من جهاده وقتله وسبيه وأسره ، وبعد ذلك يعذبه الله - تعالى - فى جهنم ، فيكون فى الآية وعيد لهم بجهادهم وقتالهم ، حيث يقتلون ويؤسرون ، وبعذاب جهنم فى الآخرة ، ويجوز أن يكون إيعادًا بالجهاد فقط ، على أن المراد بالعذاب الأكبر : القتل وسبى النساء والأولاد ، وسائر ما يترتب على الجهاد من البلايا ، فيكون فيه إشارة إلى أن هذه الأمة أكبر عذابها فى الدنيا ذلك العذاب ، لا ما كان فى الأمم السابقة من الخسف والمسخ ونحوهما .

---

(١) سورة ق ، من الآية : ٤٥ .

٢٥ ، ٢٦ ـ (إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) :

تعليل لتعذيبه إياهم بالعذاب الأكبر ، أى : إن إلينا رجوعهم بالموت والبعث ، لا لأحد سوانا لا استقلالًا ، ولا اشتراكًا ، بمعنى أن إيابهم ليس إلّا إلى المقتدر على الانتقام الذى لا يملك هذا العذاب سواه .

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) أى : إن حسابهم علينا فى المحشر لا على غيرنا ، فنحاسبهم على أعمالهم ، ونجازيهم بها جزاءً أمثالهم ، و (على) فى قوله :(عَلَيْنَا) لتأكيد الوعيد لا للوجوب ؛ إذ لا يجب على الله شىءٌ . وفى تصدير الجملتين بـ « إنَّ » ، وتقديم خبرها . والإتيان بضمير العظمة ،وعطف الثانية على الأُولى بكلمة (ثم) المفيدة لبعد منزلة الحساب فى الهول والشدة : ما يدل على غاية السخط الموجب لتشديد العذاب . والله أعلم .

سـورة الفجـر

هذه السورة مكية ، وآياتها ثلاثون

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر ـ سبحانه ـ فى السورة السابقة « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ » و « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ » أتبعه ـ تعالى ـ فى هذه السورة بذكر طوائف المكذبين والمتجبرين كقوم عاد وثمود ، وقوم فرعون ، وهؤلاء وجوههم خاشعة ذليلة ، وأشار ـ سبحانه ـ إلى الصنف الآخر الذين اتصفوا بأن وجوههم ناعمة بقوله ـ تعالى ـ (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) وتلك مناسبة واضحة لمجىء هذه السورة بعد السورة السابقة ، وأيضاً فيها مما يتعلق بأمر الغاشية وما فيها .

اهم مقاصدها :

١ ـ ذكرت السورة قصص بعض المكذبين لرسل الله ، وبينت ما حل بهم من تنكيل ، وتدمير (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ) الآيات .

٢ ـ أبرزت ما بدر من الإنسان حينما اختبره ربه فى هذه الحياة بالخير والشر ، والغنى والفقر ، وأشارت إلى طبيعته فى حبه الشديد للمال ، والرغبة فى الاستزادة منه ،ولا يسألون أهو من حلال أم من حرام ؟ ! (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ..) الآيات .

٣ ـ تحدثت عن الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وعن مجىء ربك لفصل القضاء والملائكة صفًّا صفًّا ، وإحضار جهنم ، وانقسام الناس إلى سعداء ، وأشقياء . (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ..) الآيات .

٤ ـ لفتت الأنظار إلى ندم المفرطين والعصاة ، وأسفهم فى وقت لا ينفع فيه الندم ، ولا يجدى الأسف ؛ بل هم يومئذ يعذبون عذاباً لامثيل له ، ويوثقون وثاقاً بلغ الغاية فى الضبط والإحكام (يَقُولُ يَالَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ...) الآيات .

٥ ـ ختمت السورة ببيان أن مرجع المؤمن عند الموت إلى الرحمة والرضوان ، ونعيم الجنان (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِى فِى عِبَادِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) : الزوج والفرد من كل شيء .

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) أي : يمضي بحركة الكون العجيبة ، أو أقسم بالليل وقت أن يُسْرَى فيه ، وإسناد السرى إليه مجاز على حد (ليل نائم) أي : ينام فيه .

(لِذِي حِجْرٍ) أي : لذى عقل ، سمى به لأنه يحجر صاحبه ويمنعه عن التهافت فيما لاينبغى .

(إِرَمَ) هى عاد الأُولى ؛ تسمية لهم باسم جدهم ، وقيل : إرم : بلدتهم وأرضهم التى كانوا عليها .

(ذَاتِ الْعِمَادِ) أى : أن قدودهم وقاماتهم كالأعمدة فى الطول .

(جَابُوا الصَّخْرَ) أى : قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً ، ومنه : يجوب فلان البلاد ، أى : يقطعها .

(ذِى الْأَوْتَادِ) أى : الجنود الكثيرة ، وكانت لهم مضارب كثيرة ، يشدون خيامها إذا نزلوا بالأوتاد .

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) الصب : التتابع ، والسوط : الجلد المضفور ، أى المجدول ، وذلك مجاز عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه ؛ إذ الصب يشعر بالدوام ، والسوط بزيادة الإيلام ، بمعنى أنهم عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً .

(لَبِالْمِرْصَادِ) : وهو المكان الذى يقوم فيه الرصد ، وهذا مثل لإرصاده العباد ، وأنهم لايفوتونه ، وأنه عالم بما يصدر عنهم ، فيجازيهم عليه .

التفسير

١ ـ ٥ ـ (وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ) :

أقسم الله ـ سبحانه ـ بهذه الأقسام الخمسة لشرفها وعظمها ، ولما فيها من الفوائد الدينية والدنيوية ، فأقسم بالفجر ـ وهو الصبح ـ لما يحصل به من ظهور الضوء ، وانتشار الناس لتحصيل الرزق ، وقيل : هو صلاة الفجر ؛ لأنها مشهودة يشهدها ملائكة الليل ، وملائكة النهار . وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالى العشر ، كما أقسم بالليالى العشر لشرفها بما يقع فيها ، والمراد بها : عشر ذى الحجة كما قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف ، وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس مرفوعاً : (مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إلى اللهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ) يعنى عشر ذى الحجة . قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال : (وَلاَ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِن ذَلِكَ بِشَىْءٍ) ، وقيل : المراد العشر الأول من المحرم وفيها يوم عاشوراء ، وقد ورد فى فضله ماورد . وروى

عن ابن عباس أنهن العشر الأواخر من رمضان ، واستدل له بعضهم بالحديث المتفق على صحته ؛ قالت عائشة – رضى الله تعالى عنها – « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ – تعنى العشر الأواخر من رمضان – شَدَّ مِئْزَرَهُ ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ » وأيًّا ما كان فتنكير ليالٍ للتعظيم ، وقيل: للتبعيض ، لأنها بعض ليالى السنة أو الشهر . وكونه للتعظيم والتفخيم أولى .

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) أى : أقسم – سبحانه – بشفع الأشياء ووترها ، أو بشفع هذه الليالى ووترها ، أو بشفع الصلاة ووترها ، أو بيوم النحر وهو شفع ، وبيوم عرفة وهو وتر ، وقد كثرت فيها الأقوال ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) أى : وأقسم بالليل وقت أن يسرى فيه ، وإسناد السُّرى إليه مجاز ، على حد « ليل نائم » أى : يُنام فيه ، أو المراد: أقسم بالليل إذ يمضى بقدرة الله العجيبة ، كقوله تعالى « وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ » والقسم بالليل لما فيه من الستر الذى قد يقتضيه الحال ، وجواب هذا القَسَم والأقسام السابقة محذوف يدل عليه قوله – تعالى – « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » إلى قوله: « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » أى : ليعذبن الذين كفروا بالله ، وأنكروا البعث أشد العذاب وأقساه (هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ) المشار إليه بـ (ذَلِكَ) هو الأمور الخمسة المقسم بها ، والاستفهام للتقرير ، أى : إن فى هذه الأمور المشتملة على باهر الحكمة وعجيب الصنعة قسماً مقنعاً لذى عقل ولب فضلا على أنها مستحقة لأن يقسم بها تنبيهاً على علو شأنها ، وفخامة قدرها لإشارتها إلى الخالق العظيم .

٦ – ٨ (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ) :

استشهاد بعلمه – عليه الصلاة والسلام – بما يدل عليه من تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه ﷺ فى الطغيان والفساد ، كأنه قيل : ألم تعلم علماً يوازى العيان فى الإيقان كيف عذب ربك عاداً ونظائرهم؟! فيعذب هؤلاء أيضاً لاشتراكهم فيما يوجبه

الكفر والمعاصى؟ ! والاستفهام للتقرير ، والمراد بعاد : أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام ابن نوح - عليه السلام - وهم قوم هود - عليه السلام - سُمُّوا باسم أبيهم ، كما سمى بنو هاشم هاشمًا .

وقيل لأوائلهم : عاد الأُولى ، ولأواخرهم : عاد الآخرة ، وإطلاق اسم الأب على نسله مجاز شائع حتى أُلحق بعضه بالحقيقة .

(إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) . إرم عطف بيان لعاد زيادة فى التعريف بهم ، وللإيذان بأنهم عاد الأُولى ، وهو تسمية لهم باسم جدهم ، والأكثرون على أنها اسم مدينة عظيمة باليمن ، والوصفان لها ، والمراد : ذات البناء الرفيع ، ولقد أرسل الله إلى عاد هودًا - عليه السلام - فكذبوه وخالفوه فنجاه الله ونجى من آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا »[1] وذكرت قصتهم فى القرآن فى غير موضع ، وكانوا يسكنون خيام الشعر ذات الأعمدة التى ترفع عليها - عن قتادة وابن عباس فى رواية عطاء : المراد : ذات الخيام والأعمدة .

وقد يراد بذات العماد الوصف لإرم نفسها ، بمعنى أنها ذات القدود الطويلة ، على تشبيه قاماتهم بالأعمدة ، واشتهر أنه كان طول أحدهم اثنى عشر ذراعاً وأكثر ، وقيل غير ذلك .

(الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ) : صفة أخرى لإرم ، أى : ليس لهم مثيل فى عظم الأجرام ، وقوة البطش فى بلاد الدنيا ، حتى قيل : كان الرجل منهم يحمل الصخرة ، ويلقيها على الحى فيهلك كل من فيه ، وهم الذين قالوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً »[2] وكانوا يسكنون عُمَان وحضرموت من بلاد الأحقاف[3] .

---

(١) سورة الحاقة من الآية رقم ٧ .

(٢) سورة فصلت ، من الآية : ١٥ .

(٣) يقال للرمل المعوج : حقف ، والجمع : أحقاف .

قال تعالى : « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ »[1] وقد امتن عليهم - سبحانه - بقوله : « وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً »[2] .

٩ - (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) :

عطف على عاد ، وثمود : قبيلة مشهورة ، سميت باسم جدهم (ثمود) أخى جديس ، وهما ابنا عامر بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام - كانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك ، وكانوا يعبدون الأصنام ، وقد جابوا صخر الجبال أى : قطعوه ، واتخذوا فيها بيوتًا نحتوها من الصخر ، كما قال تعالى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ »[3] وهم أول من نحت الجبال ، والصخور ، والرخام ، وقيل : إنهم بنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة بوادى القرى .

١٠ - ١٢ - (وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) :

أى : وفرعون ذى الجنود الكثيرة ، وكانت لهم مضارب متعددة يضربون أوتادها إذا نزلوا حتى تستوعب تلك الأعداد الموفورة ، وقيل : إنه كان يدق للمعذب أربعة أوتاد ، ويشده مبطوحاً على الأرض فيعذبه بما يريد من ضرب أو إحراق أو غيرهما .

(الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ) صفة للمذكورين : عاد ، وثمود ، وفرعون ، أى : وعتوا فى البلاد التى كانت لهم وتجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان . (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) أى : بالكفر بالله ، واقتراف سائر المعاصى .

١٣ - (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) :

المراد : إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه وأشدها ، إذ الصب لشىء مائع يشعر بالتتابع والسوط يشعر بزيادة الإيلام ، حيث إنه شاع استعماله فى الجلد المضفور الذى يتخذ عادة للمبالغة فى العقاب ، أى : عذبوا عذاباً دائماً مؤلماً .

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية : ٢١ .
(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٦٩ .
(٣) سورة الشعراء الآية : ١٤٩ .

١٤ - (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) :

تعليل لما قبله ، والأصل فى المرصاد المكان الذى يقوم فيه الرصد للمراقبة والاستطلاع . والمراد أنه - تعالى - يرقب عمل كل إنسان ، ويحصيه عليه ، ويجازى بالخير خيرًا ، وبالشر شرًّا ، ولا يفوته من الخلق أحد ، ولا من أعمالهم شىء ، ومنهم أولئك الجبابرة الطُّغاة الذين عاثوا فى الأرض فسادًا ، واتخذوا لله أندادًا وشركاء ، وأضرابهم ككفار مكة .

(فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(إِذَا مَا ابْتَلَاهُ) : عامله معاملة المختبر .

(فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) : أى ضيقه عليه .

(التُّرَاثَ) : المال الموروث .

(أَكْلًا لَمًّا) أى شديدًا لاتتركون منه شيئاً ، واللَّمُّ : الجمع .

(جَمًّا) : كثيرًا مع حرص يقال : جم الماءُ فى الحوض : إذا كثر واجتمع .

التفسير

١٥ - (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) :

هذه الآية وما بعدها كلام متصل بما قبله ، أى : الواجب لمن علم أن ربه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ولا يصرف كل همه للعاجلة ، كأنه قيل : إنه - تعالى - لبالمرصاد من أجل الآخرة لمراقبة أحوال عباده ومجازاتهم على أعمالهم خيرًا كانت أو شرًّا ، فهو - سبحانه - لا يطلب إلا السعى لها ، أما الإنسان فقد عكس ، وأصبح كل همه الدنيا ولذائذها (إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ) أى : عامله معاملة المختبر بالغنى واليسار (فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ) بالمال الوفير ، والجاه العريض ، وأسباب القوة والعزة (فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) أى : أكرمنى بذلك لمزيد استحقاق له ، فيرى أن الإكرام فى كثرة الحظ من الدنيا ، ولم يخطر بباله أنه فضل تفضل الله به عليه فى دنياه ليختبره هل يشكر أو يكفر ؟ ! كما قال الله - تعالى - : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ »[1] .

١٦ - (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) :

وأما هو - أى : هذا الإنسان - إذا ما اختبره ربه (فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) أى : جعله ضيقاً بمقدار ما يحفظ به رمقه ، ليرى هل يصبر أو يجزع (فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) أى : إنه يرى الهوان والمذلة فى الفقر ، وقلة الحظ من الدنيا التى هى كل همه ، وغفل عن أن التقتير قد يؤدى إلى كرامة الدارين ، وأن التوسعة قد تفضى إلى خسرانهما ، وأن كل ما يقع قد اقتضته الحكم البالغة لله - تعالى - فإن الله يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، فقد يوسع على الكافر وهو مهان ، ويضيق على المؤمن وهو مكرم ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى الحالين ؛ بأن يشكر الله إذا كان غنياً ، وأن يصبر إذا كان فقيرًا .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .

١٧ - (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) :

بدئت الآية بقوله سبحانه (كَلَّا) لردع الإنسان عن قوليه المحكيين فى الآيات السابقة والتكذيب له فيهما ، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - المعنى : لم أبتله بالغنى لكرامته علىّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه علىّ ، بل ذلك لمحض القضاء والقدر ، وقوله - سبحانه - (بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) إلى آخره ، انتقال وترق من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفِعْلِ ، وتوجيه الخطاب إلى كفار مكة الداخلين فيما سبق دخولا أولياً لتشديد التقريع أى : بل لكم أفعال وأحوال أشد شرا مما ذكر ، وأدل على تهالككم على المال الذى أكرمكم الله بكثرته فتبخلون به ، وتحرمون اليتيم الذى هو أهل له ، وأحق بالبر به والإحسان إليه كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن ماجة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «خَيْرُ بَيْتٍ فِى الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِى الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ» وورد أيضاً : (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِى الْجَنَّةِ ، وقرن بين أصبعيه : الوسطى والتى تلى الإبهام) كما رواه البخارى ومسلم .

١٨ - (وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

أى : لا يحض بعضكم بعضاً على إطعام المساكين ، ولا تأمرون به ، والمراد من المسكين : ما يعم الفقير .

١٩ - (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا) :

أى : وتأكلون المال الموروث أكلا ذا كمٍّ وجمع من أى جهة حصل لكم من حلال أو حرام ، وكانوا لا يورثون النساء والصبيان ، ويأكلون أنصباءهم ويقولون : لا يأكل الميراث إلا من يقاتل ويحمى الحوزة ، أو يأكلون ما تركه المورث سواء أَجَمَعَه من حلال أم من حرام عالمين بذلك .

وفى الكشاف : يجوز أن يذم الوارث الذى ظفر بالمال سهلا مهلا من غير أن يفرق فى جمعه فيسرف فى إنفاقه ، ويأكله أكلا واسعًا جامعًا .

٢٠ - (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) :

أى : كثيرًا ، كما قال ابن عباس . وزاد بعضهم : فاحشا ، والمراد : أنكم تحبونه مع حرص وشره ، والْجَمُّ : الكثير .

(كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(دَكًّا دَكًّا) الدك : الهدم وكسر الحائط والجبل ، أى : دكت الأرض مرة بعد أخرى حتى صارت هباءً منثورًا .

(وَجَاءَ رَبُّكَ) أى : أمره وقضاؤه .

(وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) : ومن أين له التذكر؟ ! استفهام إنكارى لتحقيق أنه ليس يتذكر لعدم جدواه ولوقوعه بعد أوانه .

التفسير

٢١ - (كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) :

يخبر - تعالى - عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، والشدائد المذهلة فيقول : (كَلَّا) وهى ردع وزجر لهم عن أفعالهم القبيحة ، وقد يكون معناها « حقًّا » وقوله

- سبحانه - : (إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) إلى آخره استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلا للردع .

أى : إذا هدم كل ما على الأرض بالدك والزلزلة مرة بعد أخرى حتى انكسر وتفتت ، وأصبح كل ما على وجهها من جبال ، وقصور وأبنية وحصون هباءً منثورًا ، وتكرير الدك للاستيعاب ، بمعنى أنها دكت دكا متتابعًا . وقال المبرد : الدك : حط المرتفع بالبسط والتسوية ، وعليه فالمعنى : إذا سويت الأرض تسوية بعد تسوية ، ولم يبق على وجهها شيء حتى صارت كالصخرة الملساء ، وأيا ما كان فهو عبارة عمًّا عرض لها عند النفخة الثانية .

٢٢ - (وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) :

أى : وجاء أمر ربك وقضاؤه بحذف المضاف للتهويل ، واختار جماعة أنه تمثيل لظهور آيات اقتداره ، ووضوح آثار قدرته وسلطانه - عز وجل - ورأى السلف - رضى الله عنهم - أنه مجيء من غير تكييف ولا تمثيل نؤمن به ولا نطلب معناه .

(وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) أى : جنسهم ، فيشمل ملائكة السمٰوات والأرض جميعًا ، يجيئون بين يدى ربهم مصطفين ، أو ذوى صفوف ، فإنه قيل : ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف بحسب مراتبهم ومنازلهم محدقين بالإنس والجن . وروى أن ملائكة كل سماء تكون صفا حول الأرض ، فالصفوف سبعة على ما هو الظاهر ، والآية تصور لنا الهيبة والعظمة ، وظهور السلطان الإلٰهى فى ذلك اليوم .

٢٣ - (وَجِيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ) :

أى : وكشفت جهنم يوم القيامة للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، فالمجيء متجوز فيه كما فى قوله تعالى : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى »[1] ، وقوله سبحانه : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ »[2] والأرجح أن يكون المجيء على حقيقته ، فقد أخرج مسلم والترمذى

---

(١) سورة النازعات ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الشعراء : ٩١ .

وابن جرير وغيرهم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) ، وفى رواية بزيادة (حتى تُنصب على يسار العرش لها تَغَيُّظ وزفير) .

قال الآلوسى : وحمله على المجاز لا يدعو إليه إلَّا استحالة الانتقال الذى يقتضيه المجىء الحقيقى ، وهو لعمرى غير مستحيل ، فيجوز أن تخرج وتنتقل من محلها فى الحشر ثم تعود إليه ، والحال فى ذلك اليوم وراء ما تتخيله الأذهان . اهـ

(يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ) أى : فى ذلك اليوم العصيب ، والموقف الرهيب تذهب الغفلة ويتذكر الإنسان عمله الذى نسيه ، وفرط فيه ، وذلك بمشاهدة آثاره وأحكامه ، أو بمشاهدة عينه ، بناءً على أن الأعمال تتجسم فى النشأة الآخرة ، فتبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة أو القبيحة أو (يتذكر) من التذكر بمعنى الاتعاظ ، أى : يتعظ بما يرى من آثار قدرة الله – عز وجل – وبالغ عظمته ، وقوله – سبحانه – : (وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ) اعتراض جىء به لتحقيق أن ما وقع منه ليس بتذكر حقيقة لخلوه عن الفائدة ؛ لكونه وقع فى غير أوانه ، أى : ومن أين تكون له منفعة الذكرى وقد فات وقتها بمضى الحياة التى أضاعها بغفلته ؟! ولو كان على بصيرة من أمره لعلم أن الحياة هى دار العمل ولا جزاء فيها ، وأن الآخرة التى تذكر فيها هى دار الجزاء ولا عمل فيها .

٢٤ – (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) :

استئناف وقع جوابًا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا يكون عند تذكره ؟ فقيل : (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) أى : يدفعه ما يقبض به نفسه من الندم والحسرة إلى أن يقول : يا ليتنى قدمت عملًا صالحًا ينفعنى فى آخرتى فهى حياتى فى الباقية ، أو يا ليتنى قدمت وعملت أعمالًا نافعة وقت حياتى فى الدنيا لأنتفع بها اليوم .

٢٥ ، ٢٦ – (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) :

ففى ذلك اليوم الذى ذكر فيه ما سبق من الأحوال والأقوال كدك الأرض ، ومجئ ربك والملائكة صَفًّا صَفًّا ، وكشف جهنم للناظرين أو الإتيان بها ، وتذكر الإنسان لما نسيه فى

ذلك اليوم (لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) الهاءُ إما لله ، أى : لا يتولى عذاب الكافر ووثاقه بتقييده بالسلاسل والأغلال لا يتولى ذلك أحد ولا يباشره أحد إلّا الله ، إذ الأمر كله له - تعالى - فى ذلك اليوم ، والمراد أنه ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله لذلك الكافر وإما أن تكون الهاء للإنسان الموصوف ، أى : لا يُعَذِّب ولا يوثق أحد من الزبانية أحدًا من أهل النار مثل ما يعذبون ذلك الكافر ويوثقونه ، كأنه أشدهم عذابًا ووثاقًا . لأنه أكثرهم سيئات وقبائح ، وبعد أن ذكر الألوسى هذا الوجه قال : وهو وجه حسن ، بل هو أرجح من الأول ، وقيل : إن الضمير يراد به أُبى بن خلف ، أى : لا يعذب أحدًا أبدًا مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل مثل وثاقه لتناهيه فى كفره وعناده أحد .

(يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾)

المفـردات :

(رَاضِيَةً) : بما أعطاها الله من النعم الكثيرة .

(مَرْضِيَّةً) : يرضى الله عنها بما قدمت من عمل صالح .

(فِى عِبَادِى) أى : فى زمرة عبادى الصالحين .

التفسـير

٢٧ ، ٢٨ - (يَٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) :

الآيتان وما بعدهما حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله - عز وجل - وطاعته من النفوس الزكية المطمئنة إثر حكاية من اطمأن إلى الدنيا وسكن إليها من المجرمين الظالمين .

والمعنى : ينادى الله النفس المطمئنة ، أى : يقول الله لها : (يَـٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ ..) الآية إما دون واسطة إكرامًا لها كما كلم موسى ، وإمّا على لسان ملك ، واستظهر أن ذلك القول عند تمام الحساب ، وقيل : عند البعث ، وقيل : عند دخول الجنة ، ويراد بها النفس الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا فزع يوم القيامة ، المتوفاة على الإيمان ، المطمئنة إلى الحق الواصلة إلى ثلج اليقين وبرودته بحيث لا يخالطها شك ، ولا يمازجها سخونة اضطراب القلب فى الحق أصلا ، لأنها إذا وصلت إلى معرفته – تعالى – حق المعرفة اطمأنت واستغنت به – سبحانه – عن وجودها ، وسائر شئونها ، ولم تلتفت إلى ما سواه – جل وعلا – وذلك أعلى مراتب الاطمئنان .

(ارْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ) أى : إلى محل عنايته – تعالى – وموقف كرامته – عز وجل – وإلى ما أعد لعباده فى جنته ، ولا يخفى ما فى قوله – سبحانه – : (إِلَىٰ رَبِّكِ) من مزيد اللطف (رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) أى : راضية بما تعطاه من النعم الكثيرة ، ومرضية عند الله بما عملت رضى عنها وأرضاها .

٢٩ ، ٣٠ – (فَادْخُلِى فِى عِبَادِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى) :

أى : فادخلى فى زمرة عبادى الصالحين المخلصين وانتظمى فى سلكهم ، واستضيئى بضوئهم .

(وَادْخُلِى جَنَّتِى) أى : مع عبادى ، ويراد بهم الخواص كما قال تعالى : « وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ »[1] وكان الأمر بالدخول فى جملة عباد الله الصالحين إشارة إلى السعادة الروحانية لكمال استئناس النفس بالجليس الصالح . والأمر بدخول الجنة إشارة إلى السعادة الجسمانية .

---

(١) سورة النمل ، من الآية : ١٩ .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت الآيات ، فروى الضحاك عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنها نزلت فى عثمان بن عفان – رضى الله تعالى عنه – حين اشترى بئر رومة وجعلها سقاية للناس ، وقيل : نزلت فى خبيب بن عدى الذى صلبه أهل مكة ، وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال : اللهم إن كان لى عندك خير ، فحول وجهى نحو قبلتك ، فحول الله وجهه نحوها . فلم يستطع أحد أن يحوله بعدُ ، وقيل : هى عامة فى المؤمنين ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والله أعلم .

ســورة البلد

هذه السورة مكية ، وآياتها عشرون

صلتها بما قبلها :

لَمَّا ذم الله سبحانه وتعالى فى السورة التى قبلها – وهى (سورة الفجر) – ونعى على من أحب المال حبا جما وأكل التراث أكلًا لَمًّا جمع فيه بين الحلال والحرام وما يحمد وما لا يحمد ، ولم يحض ويحث على إطعام المسكين ، ذكر هنا – جل شأنه – الخصال التى تطلب من صاحب المال لينجو من العذاب الأليم ويقى نفسه من غضب ربه ، وهذه الخصال هى تخليص العبيد من الرقّ ، وإطعام ذوى الفاقة والحاجة .

وكذا لَمَّا ذكر هناك النفس المطمئنة ذكر هنا بعض ما يحصل به اطمئنان نفس الرسول والمؤمنين ، حيث وعد الله رسوله ﷺ بدخول مكة وفتحها .

بعض مقاصد السورة :

١ – بدأت السورة الكريمة بالقَسَم بمكة لحرمتها وشرفها ؛ لأن فيها أول بيت وضعه الله لعبادته – تعالى – ولأنها مولد الرسول ﷺ وموطن آبائه من لدن إسماعيل – عليه السلام – إيماءً إلى شرف رسوله ، وتعظيمًا لمنزلته ومكانته عند ربه .

٢ – أبانت السورة أن الإنسان قد جعله الله فى مكابدة ومشقة من يوم ولادته إلى يوم القيامة ، إشارة إلى أن العاقل ينبغى أن يؤمن ويعمل صالحًا كى يدخل الجنة فيحسن ماله وينعم فى أخراه ؛ فيستريح من معاناة الشدائد ، ولا تسلمه أعماله القبيحة إلى النار وبئس المصير (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى كَبَدٍ) .

٣ – جاءت السورة بنعم جليلة امتن الله بها على عباده ؛ حثًّا لهم على أن يؤدوا شكرها ويقوموا بحقها ويجاهدوا فى تحقيقها ؛ حتى يجتازوا العقبة الكئود التى تعترض طريقهم إلى الجنة ، وذلك بإنفاق المال فى فك إسار الأرقاء من قيد العبودية ، وفى إطعام الفقراء واليتامى والمساكين ، وذلك بعد أن يكون الإيمان قد تمكن من قلوبهم : (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ...) إلى قوله – تعالى – : (وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان أن الناس يوم القيامة صنفان : أهل اليمين والبركة أو أصحاب الجنة : (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) وصنف الشؤم والبوار ، أو أهل النار : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾)

المفردات :

(حِلٌّ) : حلال ، أى : يحل لك أن تقاتل فيها ، وقيل غير ذلك وسيأتى .

(فِي كَبَدٍ) : فى مشقة وشدة ، وأصله : من كبد الشخص كبدًا : إذا وجعه كبده ، ثم استعمل فى كل تعب ومشقة .

التفسير

١ - (لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) :

المراد بالبلد هنا : مكة المكرمة - زادها الله تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا - وفضلها معروف ومعلوم ؛ حيث جعلها الله - تعالى - حرمًا آمنًا ، وجعل مسجدها قبلة لأهل الأرض جميعًا « وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »[1] ، وجعل من دخله كان آمنًا ، وشرف مقام إبراهيم فقال - سبحانه - : « وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى »[2] وأمر الناس بحج هذا البيت

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٤٤ . (٢) سورة البقرة : من الآية ١٢٥ .

« وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ »[١] كما قال فى حقه - تعظيمًا له - : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا »[٢] ، وقد حرم - سبحانه - صيد هذا المكان المبارك ، وقطع شجره ، وجعله بإزاء البيت المعمور فى السماء ، إلى غير ذلك من الفضائل والمزايا التى لا تتأتى لغيره من الأمكنة فى الأرض سوى البقعة الطيبة المباركة التى دفن فيها سيدنا رسول الله ﷺ فهى أفضل مكان فى الأرض وفى السماء ؛ لأنها تضم جسده الشريف .

هذا ، وفى رحاب مكة المكرمة يكون التلاقى حيث البيت العتيق فى ابتداء الأمر أول بيت وضع للناس ، ثم رسالة سيدنا محمد ﷺ تأتى فى النهاية خاتمة للرسالات ، فيجمع الله لتلك البقعة المباركة بين عظيم البدء وكريم النهاية .

ولَمَّا اجتمعت هذه الفضائل لمكة أقسم الله بها ، وله - سبحانه - أن يقسم بما شاء على ما شاء ، قال تعالى : (لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) أى : أقسم بهذا البلد لشرف مكانته وسمو منزلته وحرف (لا) هنا لتأكيد القسم وتقويته ، وهذا كثير ومألوف فى اللغة العربية .

٢ - (وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) :

هذا وعد من الله لرسوله بأنه سينزله ويمكنه من البلد الحرام (مكة) ويحلها له فيفتحها ويقاتل بها ويقتل من شاء ويترك من شاء ، وقد جعل الله له ذلك يوم الفتح ، فقد أمر رسول الله ﷺ بقتل عبد الله بن خطل ، ومقيس بن صبابة يوم الفتح ، قال ﷺ : « إِنَّ اللهَ - تعالى - حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ إِلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، لَم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، فَلا يُعْضَدُ شَجَرُهَا ، وَلا يُخْتَلَى خَلاهَا ، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا ، وَلا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ »[٣] ، فقال العباس : إِلَّا الإذخِر[٤] ؛ فإنها لقيوننا[٥] وبيوتنا ، فقال ﷺ : « إِلَّا الإِذْخِر » .

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٩٧ . (٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٥ .

(٣) (يعضد) : يقطع : (لا يختلى خلاها) الخلا : الحشيش الرطب ، ولا يختلى : ولا يقطع . (اللقطة) : هى الشىء الذى تجده ملقى فى الطريق فتأخذه (المنشد) : هو الذى يُعَرِّفَ اللقطة بأوصافها .

(٤) (الإذخر) : نبت .

(٥) (القيون) : جمع قين ، وهو الحداد .

وقيل فى قوله تعالى : (وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) : إنَّ الكفار كانوا يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه الحرمات ، ولكنهم كانوا يستحلون إيذاءك ، ولو تمكنوا منك لقتلوك ، فأنت حل فى اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك مع إكرام الله – تعالى – إياك بالنبوة ، فعن شرحبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيدًا أو يعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك ، وعلى هذا فيكون المقام تثبيت لرسول الله ﷺ وبعث له على احتمال ما كان يكابد ويعانى من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم فى عداوتهم له .

وقيل المعنى : وأنت مقيم وحالٌ بها ، فكأنه – تعالى – عظَّم مكة من جهة أنه ﷺ مقيم بها ، إلى غير ذلك من الأقوال ، والآية الكريمة تتسع لكل هذه المعانى .

٣ – (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) :

هذا عطف على قوله – تعالى – : (بِهَٰذَا الْبَلَدِ) وداخل فى المقسم به ، أى : وأقسم بوالد وبما ولد ، والمراد بالوالد هو آدم – عليه السلام – وبما ولد : هم جميع ذريته ، أقسم بهم – سبحانه – إذْ إنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما منحهم – جل شأنه – من البيان والنطق والتدبير ، واستخراج المعلوم ، واستعمار الأرض ، وفيهم الأنبياء ، والدعاة إلى الله ، والأنصار لدينه ، بل إن كل ما فى الأرض مخلوق لهم ، قال تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا »[1] .

وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وعلَّمه الأسماء كلها ، قال – سبحانه – : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ »[2] ، وقيل : أقسم – جل شأنه – بآدم والصالحين من ذريته بناءً على أن الطالحين والمفسدين كأنهم ليسوا من أولاده ، أو أراد بالوالد إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – وما ولد : محمد ﷺ وذلك لأن إبراهيم وإسماعيل قد أقاما البيت فى مكة ، ومحمد ﷺ والمؤمنون سكانها .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء : من الآية ٧٠ .

ويحتمل أن الوالد : النبيّ ﷺ لتقدم ذكره بقوله تعالى : (وَأَنتَ حِلٌّ) وما ولد : أمته ؛ لقوله – عليه الصلاة والسلام – : « إِنَّما أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ »[1] فأقسم به وبأُمته بعد أن أقسم ببلده مبالغة فى تشريفه – عليه الصلاة والسلام .

٤ – (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى كَبَدٍ) :

هذا جواب القسم ، أى : أقسم بالبلد الحرام ووالد وما ولد لقد أوجدنا الإنسان محاطًا بتعب ومشقة وعناء ، فإنه لا يزال يقاسى ضروب الشدائد وفنون المتاعب من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه وما وراء ذلك ؛ فقد خلقه الله أطوارًا كلها شدة ومشقة ، تارة فى بطن أمه ، ثم زمان الإرضاع ، ثم إذا بلغ يكون الكد والتعب فى تحصيل المعاش ، ويكابد كذلك فى أمر دينه وذلك بالشكر على السَّرَّاء والصبر على الضَّرَّاء ، ويعانى ويُكابد المشاق فى أداء العبادات ، ثم الموت ومساءلة الملك وظلمة القبر ، ثم البعث والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار إمَّا فى الجنة وإمَّا فى النار .

(أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(لُبَدًا) : جمًّا كثيرًا .

(النَّجْدَيْنِ) : طريقى الخير والشر ، أو الثديين .

---

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان .

التفسير

٥ - (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحدٌ) :

أى : أيظن هذا الشقى الذى يؤذى ويناوئ الرسول ويصد عن سبيل الله ويستذل المؤمنين ويستضعفهم ، أيظن ألَّا يقدر أحد على أن ينال منه أو يصيبه بالأذى والضرر ، ويخال ويظن أنه بقوته وجبروته وماله وسلطانه لا يقدر أحد على الانتقام منه ومكافأته على سوء صنيعه ؟ إن الله الذى خلقه فى المشاق والشدائد والمكابدة التى لا يستطيع منها فكاكًا ولا تحولًا إنه - سبحانه - قادر عليه لا يفلت من قبضته ولا يهرب من سلطانه ، فهو وغيره من المخلوقات كلها تحت قهر عظمته ورهن قدرته ووفق مشيئته وإرادته ، ولو كان الأمر للإنسان لما اختار هذه الشدائد .

والاستفهام هنا جاء إنكارًا وتهديدًا لكل إنسان بدر منه ذلك ، وإن قيل : إن الآية نزلت فى أشخاص بأعيانهم كأبى الأشد أسيد بن كلدة الجمحى ، أو الوليد بن المغيرة ، أو أبى جهل عمرو بن هشام ، أو الحارث بن عامر .

٦ - (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا) :

أى : يقول هذا الصِّنف من الناس - افتخارًا واعتزازًا بما لديه من طريف المال وتليده - يقول : أهلكت وأنفقت مالًا كثيرًا فى المفاخر والعظائم والمعالى والمكارم ، فمن الذى يحاسبنى عليه؟ وفى الحق أن الأمر ليس كما يزعم هذا السفيه ، بل إن الأموال التى أهلكها كانت معول هدم وأداة تخريب وتسلُّط ، وانتهاكًا للحرمات ، وترويعًا للآمنين ، وتعبيدًا للأحرار وهتكًا للأعراض ، وسفكًا للدماء ، وتضييعًا للعقول ، وكانت عاقبة أمرها سوءًا وذلك باستعمالها للصدّ عن سبيل الله وإيذاء رسوله ﷺ والتنكيل بمن آمن به وصدق ، وهذا السفيه وأمثاله مع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، وأنهم إذا رجعوا إلى ربهم يوم القيامة ستكون لهم العاقبة الحسنى ، وقد حكى الله عنهم ذلك بقوله : « وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَى »[١] وكذبوا ، فقد خيَّب الله ظنهم ورد عليهم بقوله : « فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) سورة فصلت : من الآية ٥٠

بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ »[(١)] ، ويقول : « وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[(٢)] . هذا وإن الله سيحاسبهم على أموالهم من أين اكتسبوها وفيم أنفقوها ، ولا تزول أقدامهم يوم القيامة حتى يسألوا عن ذلك .

هذا وقد عبر عن الإنفاق فى هذه الوجوه السيئة بالإهلاك إظهارًا لعدم المبالاة ، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع ، أو أنه إشارة إلى أنه مال ضائع لا خير فيه ، أو يقول ذلك إعلانًا عن شدة عداوته لرسول الله ﷺ .

٧ - (أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ) :

أى : أيظن ذلك المغرور الأحمق أن أحدًا لم يره حين أنفق وأهلك هذا المال فى تلك الموبقات والمهالك والسفاهات ، أيظن أن ذلك يخفى على الله الرقيب العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؟! إنه - سبحانه - مطلع عليه ، وسيحاسبه يوم القيامة ويجازيه على ما قدم .

٨ - ١٠ - (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) :

جاءت هذه الآيات البينات تذكيرًا لذلك المشرك بنعم الله عليه ليتعظ ويعتبر ويرجع إلى ربه ، أى : ألم نجعل ونخلق له عينين يبصر بهما ، وينظر ويتصرف على ما ينفعه وما يضره ، ويتفكر بعد النظر فى ملكوت السموات والأرض ، ويرى من بديع صنع الله وكمال إبداعه ما يدلّه على ربه ، وألم نجعل له لساناً لافِظاً ينطق به ويكون ترجماناً عما يختلج به فؤاده ، وما يتردد فى صدره ، ويكون لسانه أداة للتآلف والتعارف بينه وبين بنى البشر جميعاً ؛ اقتدار لهم على إعمار الأرض واستقرار الحياة فيها ، وألم نجعل له شفتين يطبقهما على فمه منعا من تناثر الطعام ، وتمكيناً له من نطق سديد لتقيم التفاهم بين الناس ، كما وأن الشفتين للإنسان مظهر من مظاهر تناسق خلقته وكمالها ، فهما آية وعلامة على تكريم

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ٥٠ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣ .

الله له وكمال عنايته به ، روى الحافظ ابن عساكر عن مكحول قال : قال النبي ﷺ :
« يَقُولُ اللهُ – تعالى – : يَابْنَ آدَمَ : قَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ نِعماً لا تُحْصِي عَدَدَهَا ، وَلاتُطِيقُ شُكْرَهَا وَإِنَّ مِمَّا أَنْعَمْتُ بِهِ عَلَيْكَ أَنْ جَعَلْتُ لَكَ عَيْنَيْنِ تَنْظُرُ بِهِمَا ، وَجَعَلْتُ لَهُمَا غِطَاءً فَانظُرْ بِعَيْنَيْكَ إِلى مَا أَحْلَلْتُ لَكَ ، وَإِنْ رَأَيْتَ مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَأَطْبِقْ عَلَيْهِمَا غِطَاءَهُمَا ، وَجَعَلْتُ لَكَ لِسَانًا ، وَجَعَلْتُ لَكَ غِلَاقًا فَانطِقْ بِمَا أَمَرْتُكَ وَأَحْلَلْتُ لَكَ ، وَإِنْ عُرِضَ عَلَيْكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَأَغْلِقْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَجَعَلْتُ لَكَ فَرْجاً ، وَجَعَلْتُ لَهُ سِتْرًا ، فَأَصِبْ بِفَرْجِكَ مَا أَحْلَلْتُ لَكَ ، فَإِنْ عُرِضَ عَلَيْكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَأَرْخِ عَلَيْكَ سِتْرَكَ ، ابْنَ آدَمَ : إِنَّكَ لا تَحْمِلُ سُخْطِي وَلا تُطِيقُ انْتِقَامِي » .

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) :

أي : وأرشدناه إلى طريق الخير ليسلكه فينجو ويفلح ، وبينا له طريق الشر لينأى عنه ويتجنبه كيلا يهلك ، وذلك حتى لايكون للناس على الله حجة . روى عن قتادة قال : ذُكر لنا أن النبيّ ﷺ كان يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا هُمَا النَّجْدَانِ : نَجْدُ الْخَيْرِ ، وَنَجْدُ الشَّرِّ ، فَلِمَ تَجْعَلُ نَجْدَ الشَّرِّ أَحبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَجدِ الْخَيْرِ ؟ » .

وروى عن عكرمة قال : النجدان : الثديان ، وهو مروى عن ابن عباس وعلى – رضى الله عنهما – لأنَّهُمَا كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، أي : إن الله يهدى ويرشد الرضيع إليهما دون إرشاد أو دلالة من أحد .

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾)

المفـردات :

(اقْتَحَمَ) : الاقتحام ؛ الدخُول فى الشىء بسرعة وشدة من غير روية .

(الْعَقَبَةَ) : الطريق الوعر فى الجبل ، والمراد بها هنا : الأعمال الصالحة لما فى القيام بها من المعاناة والمشقة ومجاهدة النفس .

(فَكُّ رَقَبَةٍ) : الفك : تخليص شىء من شىء ، والمراد تخليص رقبة العبد بالإعتاق .

(مَسْغَبَةٍ) : مجاعة ، قال الراغب : الجوع مع التعب .

(مَقْرَبَةٍ) : قرابة .

(مَتْرَبَةٍ) : افتقار ، يقال : ترب : إذا افتقر ، فكأنه قد لصق بالتراب من الفقر .

التفسير

١١ - (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) :

أى : فهلا أنفق ماله الذى يزعم أنه أهلكه فى المكارم والمفاخر ، أو فى عداوة النبى ﷺ هلاَّ أنفقه فى شكر الله على نعمه العظيمة وآلائه الجليلة ؟ : لم يفعل ذلك ، بل قصر فجحد النعمة وكفر بالمنعم ، واتبع هوى نفسه ، وكان الأُولى به أن يكون عارفاً لفضل ربه ، متعرفاً عليه فى الرخاء ليعرفه فى الشدة ، حاملا نفسه على اقتحام الشدائد والدخول فى الصالحات بمسارعة ومسابقة ، والقيام بمشاق الأعمال وأكثرها تعباً وعناءً ومجاهدة لنفسه حتى يجتاز العقبة الكئود والحاجز الصعب الذى يحول بين المرء ورحمة ربه ورضوانه فى الجنة ، ولا يجتازه إلا بقهر النفس ورياضتها على المكاره ، وحملها على أن تكون تابعة لما جاءَ به الله ، لأن الجنة قد حفت بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات .

وقيل : هذا دعاءٌ على هذا الكافر ألاَّ يرزقه الله الخير ، أى : فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله فى فك الرقاب وإطعام الجياع .

١٢ ـ (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) :

أى : وما أعلمك وأخبرك ما اقتحام العقبة ومجاوزتها وتخطيها ؛ وهذا ينبئ عن عظيم شأنها وكبير خطرها ، وقد أبانها الله لرسوله بقوله بعد : (فَكُّ رَقَبَةٍ) إلخ .

قال سفيان بن عيينة : كل شيء قال فيه : (وَمَا أَدْرَاكَ) فإنه أخبر به ، وكل شيء قال فيه : (وَمَا يُدْرِيكَ) فإنه لم يخبر به .

١٣ ـ (فَكُّ رَقَبَةٍ) :

أى : الإسهام والمساعدة فى تحرير الرقيق من إسار الرق ، وتخليصه من ربقة العبودية بأن يعطيه بعض ماله ليكون ذلك عوناً له على فكاك نفسه من ذل الرق ، لينعم بالحرية ، والله ـ سبحانه ـ قد خفف على هؤلاء المترفين ذوى النعم الكثيرة فلم يأمرهم بعتق الرقبة كلها حتى لايشق عليهم ذلك ، وإنما حثهم على إعطاء الرقيق المكاتب ما يساعده على تحرير رقبته وتخليصها من الرق ، فقد ورد أن أعرابياً قال : يا رسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة قال : « عِتْقُ النَّسمَةِ ، وَفَكُّ الرقَبَةِ » قال : أو ليستا بواحدة ، قال ﷺ : « لا ، إنَّ عِتْقَ النَّسمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا ، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِى عِتْقِهَا » .

هذا ، وإن عتق الرقبة كلها فضلا كبيرًا وثواباً عظيماً بيّنه ﷺ بقوله : « أَيُّمَا امْرِىءٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِماً كَانَ فِكَاكَهُ مِنَ النَّارِ يَجْزِى كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْواً مِنْهُ ؛ وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فِكَاكَهَا مِنَ النَّارِ ، يَجْزِى كُلُّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْواً مِنْهَا » [1]

١٤ ـ (أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ) :

إطعام الطعام فضيلة ، رغب فيه الإسلام ودعا إليه الرسول الكريم وحث عليه ، غير أنه مع السغب وفى يوم المجاعة والجوع العام يكون أفضل وأزكى وأنمى فى أعمال البر ، روى عنه ﷺ أنه قال : « مِنْ مُوجِبَاتِ الرحْمةِ إِطْعَامُ الْمُسْلِمِ السَّغْبَانِ » [2] . أى : إنه قام بالإطعام

---

(١) الترمذى عن أبى أمامة .

(٢) رواه الحاكم وصححه ، والبيهقى متصلا ، ومرسلا .

فى وقت اشتدت بالناس الحاجة ، وعمتهم الفاقة ، وأصابهم الجهد ، وعز فيه القوت وقل الطعام ، وقال الراغب فى المسغبة : الجوع مع التعب .

١٥ - (يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ) :

أى : قات وأطعم هذا الغنى صغيراً ضعيفاً فُقد أبوه ومات عائله ، وهو لا يملك مالا ولا يجد قوتاً ولا يقدر على كسب ، فضلا على أن هذا اليتيم له بذلك الغنىّ قرابة وصلة ، وفى إطعامه يكون قد جمع بيْن الصدقة وصلة الرحم ، وفيهما من الثواب ما فيهما . وقيل لا يخص القريب نسباً بل يشمل من له قرب بالجوار .

١٦ - (أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) :

أى : أو أطعم من أسكنته الحاجة ، وقعد به الفقر ، وهدّه العوز ؛ فلم يملك ما يسد به خَلَّته ، أو يقضى به حاجته ، بل صار فى حالة لا يقيه من التراب شىء فهو كما يقولون يفترش الغبراء ، ويلتحف بالسماء . وقيل : هو المطروح على الطريق الذى لا بيت له .

هذا ، وإن ذلك الغنى الفاجر الذى عناه القرآن سواء أكان شخصاً بعينه أم هو كل من كان على هذا النحو من الغلظة والشدة والقسوة ، إن هذا الفاجر الذى تكبر بماله وتجبر بسلطانه قد ترك ما هو أحق بالإنفاق وأولى بالبذل والإعطاء : من رقيق ذليل، إلى يتيم قريب فقير إلى مسكين معدم مجهود ، ترك ذلك وتجاوزه إلى السفه وإهلاك المال فى غير ما نفع أو خير بل أهلكه فيما يرديه ولا ينجيه من عداوة الرسول ﷺ والصد عن سبيل الله .

(ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾)

المفـردات :

(تَوَاصَوْا) : أوصى بعضهم بعضاً .

(أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) : أهل اليمين ، وهى الجهة التى فيها السعداء ، أو أصحاب الْيُمْنِ ؛ لأنهم ميامين ومباركون على أنفسهم وعلى غيرهم .

(أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) : هم أهل جهة الشمال التى فيها الأشقياء ، أو أصحاب الشؤم الشر على أنفسهم وعلى غيرهم .

(مُؤْصَدَةٌ) : مغلقة ومطبقة .

التفسـير

١٧ ـ (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) :

كلمة (ثُمَّ) هنا تفيد التراخى والتباعد فى الرتبة والفضيلة ، أى : إن مرتبة الإيمان ومنزلته فوق جميع ما سبقه من فك الرقبة وما عطف عليه ؛ لأن الإيمان وحده يكون سبباً للنجاة بدون أعمال ، وذلك فيمن آمن إيماناً كاملا تامًّا ومات فى يومه قبل أن يتمكن من عمل شىء من التكاليفَ ؛ فإن ذلك ينفعه ويخلصه من النار ، بخلاف الأعمال فإنه لايعتد بها بدون الإيمان .

والمعنى : ثم لا يكون مقتحماً للعقبة إلا إذا كان من الذين اتصفوا بالإيمان وتحلوا به وماتوا على ذلك ؛ إذ كل عمل لا يكون معه إيمان بالله لا يعتد به ولا ينظر إليه ، قال تعالى فى حق غير المؤمنين : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا »[1] وقال : « وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ »[2] وقيل : إذا فعل الطاعات لوجه الله وهو غير مؤمن ثم آمن بسيدنا محمد ﷺ ومات على الإيمان فإنها تنفعه ، فقد ورد أن حكيم بن حزام قال ـ بعد ما أسلم ـ : يا رسول الله : إنَّا كنا نتحنث (نتعبد) بأعمال فى الجاهلية ، فهل لنا فيها من شىء ؟ فقال ﷺ : « أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنَ الْخَيْرِ » .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣ .
(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٥٤ .

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) :

أى : يوصى بعضهم بعضاً بالصبر وحبس النفس ورياضتها على تحمل تبعات الطاعات ومشاقها ، ومغالبة شهوات المعاصى وسورتها وغلوائها ، والبعد عن بطر النعمة والفتنة بها وأشرها ، والتَّجَافِى من الجزع فى المصائب والنوازل وأهوالها .

(وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) :

أى : يحث بعضهم بعضاً على الأخذ بأسباب الرحمة ، وذلك بأن يرحم المظلوم فيعينه على أخذ حقه ، ويشفق على الفقير فيعطيه مما أفاء الله عليه ، ويمنع المقدم على المنكر من مقارفته ، وأن يدل غيره على طريق الخير والحق ، ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما وسعه ذلك ، وفى الجملة يكونون محل رحمة ومكان شفقة : يعاونون غيرهم من أرباب الحاجات وأصحاب الكربات حتى يكون الله فى عونهم ويعمهم برحمته .

وفى قوله : (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) : إشارة إلى تعظيم أمر الله بالصبر على شدائد التكاليف الشرعية ، وبذل الجهد والوسع فيها ، وفى قوله : (وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) إشارة إلى الشفقة على خلق الله ، هذا وإن الطاعات لاتقوم إلاَّ على هذين الأصلين صدق مع الحق - سبحانه - ، وخُلق مع الخلق وشفقة بهم .

١٨ - (أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) :

أى : أولئك الذين علت منزلتهم وارتفعت مكانتهم باتصافهم بالصفات الجليلة والنعوت العظيمة أصحاب اليمين والبركة ، فهم مباركون وميامين على أنفسهم وعلى غيرهم ممن يعاشرونهم ويخالطونهم ، أو هم أهل الجنة السعداء .

١٩ ، ٢٠ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ) :

أى : والذى كذبوا بآياتنا وأنكروها ولم يؤمنوا بها مع كمال ظهورها ووضوح حجتها هم - دون غيرهم - أرباب الشؤم والشر ، وأهل الشقاء والبؤس ، تتسلط عليهم نار شديدة الإحراق ، مطبقة ومغلقة عليهم لا يفتح لهم منها باب ، ولا يخرجون منها من غم أصيبوا به ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، فهم فيها أبد الآباد ، لا تنفك عنهم ، وما هم منها بمخرجين .

سـورة الشمس

هذه السورة الكريمة نزلت بمكة المكرمة وآياتها خمس عشرة آية

صلتها بما قبلها :

أنه لما ختم – سبحانه – السورة التى قبلها (البلد) بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أعاد ذكرهما هنا ولكن بصورة أخرى وأسلوب آخر فقال : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) ، ثم كان قوله – تعالى – فى هذه السورة : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) كالبيان والتوضيح لقوله تعالى فى سورة البلد : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » على أنهما طريقا الخير والشر .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ – أن الله – جلت قدرته – ابتدأ السورة الكريمة بالقسم بأنواع من خلقه : بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تبعها وقد اكتمل نوره ، وبالنهار إذا أبان وأظهر الأشياء بضيائه ، إلى قوله : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) أقسم – تعالى – بهذه المخلوقات على أن الإنسان يفوز ويسعد إذا تطهر من الذنوب وأنمى نفسه وأعلاها بالطاعات ، وأنه يخسر ويهلك إذا غمس نفسه فى المعاصى وتردى فى الفجور : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) .

٢ – أن السورة جاءت بقصة (ثمود) قوم سيدنا صالح ، وقد كذبوا به وتجاوزوا الحد فى الطغيان حتى عقروا الناقة التى كانت آية ومعجزة دالة على وحدانية الله ، وعلى صدق رسالة صالح – عليه السلام – ثم ما كان من إهلاك الله لهم بتدبيرهم واستئصالهم وتسوية الأرض بهم . وختمت السورة ببيان أن الله لا يخشى عاقبة إهلاكهم فإنه « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾)

المفردات :

(ضُحَاهَا) : ضوؤُها .

(جَلَّاهَا) : أظهر الأَرض وكشفها وأَبان ما عليها .

(يَغْشَاهَا) : يغطى الدنيا ويسترها بظلامه .

(طَحَاهَا) : بسطها ومهَّدها ومدها .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) : أنشأَها وأَبدعها بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة والباطنة .

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) : عرَّفها وبيَّن لها رشدها من ضلالها .

(زَكَّاهَا) : طَهَّرَهَا من الذنوب ، أَو زادها وأَعلاها بعمل الطاعات .

(دَسَّاهَا) : نقصها وغمسها وأَخفاها بالفجور .

التفسير

١ - (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) :

أَقسم - سبحانه - بالشمس وهى خلق من خلقه كبير نفعها ، عظيم خطرها ، فهى - بما أَودعه الله فيها - تمد الكائنات بأَسباب الحياة والصحة والنماء ، وتدفع عنها كثيرًا من

الأدواء والأمراض . (وَضُحَاهَا) وأقسم – جلت قدرته – بضحى الشمس – وهو إشراقها وارتفاعها – لأن هذا الوقت يكون أكثر أوقاتها خيرًا ، وأعظمها فائدة ونفعاً ، أو أنه أقسم بهذا الوقت – وهو وقت الضحى – لأنه الوقت الذى يكون فيه الناس فى أمر معاشهم وشواغل دنياهم : أما عباد الرحمن فهم فى هذه الآونة ينقطعون عن هذه الأعمال ويأخذون أنفسهم من تلك الشواغل ويخلدون إلى ربهم يتبتلون له ويعبدونه بما شرعه من صلاة الضحى .

٢ – (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) :

أى : وأقسم بالقمر فى زمن اكتماله وتمامه وقت أن يتلو ضوؤه ضوء الشمس ويتبعها فيتلاقى فيه الضوءان ويتعانق النوران ، وذلك فى الليالى البيض من كل شهر : ليلة الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، حيث ينعم الله على عباده بليل مشرق مضىء ، وهنا فى هذا الوقت الذى يعم فيه الفضل الإلٰهى والفيض الربانى يسنّ رسول الله ﷺ لأمته أن يشكروا ربهم على هذا الخير فيصوموا نهار تلك الليالى النيّرات المشرقات عرفاناً بعظيم فضله عليهم .

٣ – (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا) :

وأقسم – سبحانه – بالنهار إذا أظهر وأبان مافى الأرض من حيوان وغيره ليكون ذلك عوناً للإنسان على التعرف على ما فيها من خير ونفع له ؛ ليتوخى ويقصد ما يصلح لأمر دينه ومعاشه ، ويبتعد وينأى عما يضره ويؤذيه .

٤ – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) :

كما أقسم بالليل الذى يغطى الكائنات ويسترها فيكون ذلك إيذاناً بالهجوع والسكون فيه قطعاً للكد والتعب ، واستجماماً بعد العناء ، كما يكون انقطاعاً من بعض عباد الله المخبتين الطائعين إلى ربهم يحيون هزيعاً من الليل فى طاعة مولاهم بعيدًا عن صخب النهار ، وضجيج الحياة وإخلاصاً وإفرادًا له – سبحانه – بالعبادة دون رياء أو سمعة أو نفاق ليكون ذلك أرجى فى قبول الطاعة فى وقت يتجلى فيه ربنا على عباده ، وبخاصة فى الثلث الأخير من الليل ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : « يَتَنَزَّلَ رَبُّنَا تَبَارَكَ

وتعالى - كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِير ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ »[١] .

٥ - (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا) :

أى : وأقسم سبحانه بالسماء وعظمتها ، وبما اشتملت عليه من أنواع الخلائق البديعة والأسرار العظيمة ، وما فيها من اللوح والكرسى والعرش ، وكونها مقرًّا ومسكناً لأكثر الملائكة الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وما ضمت من اللطائف العلوية التى لايدرك كنهها ولا يقف على حقيقتها كثير من الخلق . (وَمَا بَنَاهَا) أى : وما خلقها ورفعها ، أقسم بذاته العلية ونسب وأسند بناءها إليه - جلت عظمته - إشعارًا بعظيم هذه المخلوقات الجليلة .

أو أن المراد إبداع صنعها وكمال تركيبها ، فقد شد أجزاءَ ها بعضها إلى بعض برباط وثيق كما يشدو يربط أجزاءٍ البناءِ الواحد .

٦ - (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) :

وأقسم بالأرض التى عليها يستقر الإنسبان ويسعى فى إعمارها ، وما فيها من بديع صنعه - سبحانه - من ماءٍ وزرع وحيوان وطير ، وما فى جوفها من معادن ومواد لها نفع كبير للإنسان . وجميع ما يلج ويدخل فيها ، وما يخرج منها .

(وَمَا طَحَاهَا) وأقسم بمن بسطها ومهَّدها وَذلَّلها وهو الله - جل شأنه - وذلك لييسر على عباده السير فيها والتقلب فى جنباتها والمشى فى مناكبها ونواحيها . ابتغاءً للرزق وسعياً وراءَ الخير والنفع . وقيل : وطحوها : وبسطها .

٧ - (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) :

وأقسم - جل شأنه - بالنفس ، وهى نفس آدم - عليه السلام - أو كل نفس منفوسة ومخلوقة .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات .

(وَمَا سوَّاهَا) وهو الله ، فقد خلقها ــ سبحانه ــ فأحسن خلقها وصورها فأبدع تصويرها ، وذلك على نظام تام عجيب ؛ لتؤدى رسالتها فى الحياة على أكمل وجه . وقيل : وتسويتها وخلقها وتركيبها على صورة كريمة مع إحكام وإبداع .

٨ ــ (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) :

أى : إنه ــ سبحانه ــ عرف كل نفس وأرشدها إلى سبيل الخير والتقوى ودعاها إليه ، كما بين لها طريق الشر والفجور ، ونهاها عن السير فيه واتباعه ، وكان من دعاء رسول الله ﷺ « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها » كما رواه مسلم .

وذكر ابن كثير أن هناك روايات فيها مقال أنه كان يقول ذلك عندما يقرأ الآية .

٩ ، ١٠ ــ (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) :

هذا جواب القسم (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) وما عطف عليه ، بمعنى : لقد أفلح ، وحذفت منه اللام لطول الكلام المقتضى للتخفيف ، وقيل : الجواب تقديره : لتبعثن ، وقال الزمخشرى : تقديره : ليُدَمْدِمَنَّ الله عليهم ــ أى : على أهل مكة ــ لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحًا ، وأما (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) فكلام تابع لقوله : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) جاء على سبيل الاستطراد ، أى : قد فاز ونجا من طهر نفسه من الذنوب بتباعده عنها فلم يقارفها ، أو طهرها ونقاها منها بالتوبة النصوح والاستغفار ، وذلك بعد الوقوع فيها أو نماها وزاد فى منزلتها رفعة وسموًا ، فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البر شهر نفسه ورفعها وأعلى ذكرها ، وقد خسر وهلك من غمس نفسه فى الذنوب وأحاطها بالمعاصى وأخفاها فى الدناءات والفسوق ، فانحط بها إلى درك الرذيلة ومهاوى الكفر فالفاسق الفاجر دائمًا يكون قليل المروءة ، هابط الهمة ، ذليل النفس ، ناكس الرأس ، خاملًا متروكًا منسيًا ، وذلك بفعله السوء والفحشاء .

وقيل : قد أفلحت نفس زكاها الله ، وقد خسرت نفس أضلها الله ، والأول هو المتبادر ، لقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى »[١] .

(١) سورة الأعلى ، الآية : ١٤ .

وفى القسم بهذه الكائنات بعث للإنسان على التفكر فى بديع صنع الله والتدبر فى آياته .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾)

المفردات :

(بِطَغْوَاهَا) : بطغيانها ومجاوزتها الحد فى العصيان ، أو بالعذاب الذى أُنذروا به لأنه كان صيحة مجاوزة للحد .

(انبَعَثَ) : انطلق بسرعة بعد أن بعثه قومه وحرضوه .

(سُقْيَاهَا) : شِربها ونصيبها من الماءِ الذى اختصها الله به فى يومها .

(فَعَقَرُوهَا) : فقتلوها .

(فَدَمْدَمَ) : فأطبق الله عليهم العذاب ، أوأهلكهم جميعًا .

(فَسَوَّاهَا) : سوَّى بلادهم بالأرض ، أو جعلهم سواءً فى نزول العذاب بهم .

(عُقْبَاهَا) : عاقبة إهلاكهم وتَبِعَته .

التفسير

١١ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) :

أى : إن ثمود قوم نبىِّ الله صالح - عليه السلام - قد كذبت نبيَّها بسبب أنهم قد تجاوزوا الحد فى العصيان والكفر ؛ فطغيانهم حملهم على التكذيب ، أو إنهم كذبوا بالعذاب الذى توعدهم وأنذرهم به ؛ لأنه كان صيحة زائدة عن القدر المعتاد ، قال تعالى : « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ »[1] .

(١) سورة الحاقة ، الآية رقم : ٥ .

١٢ ـ (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) :

أى : كذبت ثمود حين قام شقيها قُدار بن سالف بعدأن بعثه قومه وحرضوه على عقر الناقة ، قال تعالى : « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ »[1] .

١٣ ـ (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) :

أى : إن ثمود لَمَّا اقترحوا آية من رسول الله صالح تدل على نبوته أخرج لهم ـ بإذن الله ناقة من الصخرة . وقال لهم : هذه ناقة الله وآيته الدالة على توحيده وقدرته . وعلى نبوتى ولها شرب يوم من ذلك البئر ولكم كذلك شرب يوم من البئر نفسه . فلكلٍّ نصيبه . ونهاهم وحذرهم من أن يمسُّوها بسوءٍ . أو أن يمنعوها من سقياها وشربها فى نوبتها . ولا يستأْثروا به عليها . فشق ذلك عليهم .

١٤ ـ (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) :

أى : فكذبوا نبيَّهم صالحًا ـ عليه السلام ـ فيما أَوعدهم وأنذرهم به من العذاب . وفعلوا ما حذرهم منه ، فقتلوا الناقة . وأُسند العَقْرُ والقتلُ إليهم لأَنهم قد رضوا وتواطأُوا على ذلك . بل إنهم قد حرضوا وحضُّوا أَشقاهم على اقتراف هذه الفعلة الشنعاء . قال قتادة : بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذَكَرُهُمْ وأُنثاهم .

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) أى : أَطبق الله عليهم العذاب واستأْصلهم به فسوَّى الدمدمة والإهلاك عليهم ؛ لأَن الصيحة أَهلكتهم جميعًا فأَتت على صغيرهم وكبيرهم . وذلك بسبب ذنبهم الذى هو الكفر والتكذيب وعقر الناقة . أو أَهلكهم فجعلهم تحت التراب وسوَّى عليهم الأَرض .

---

(١) سورة القمر ، الآية رقم : ٢٩ .

١٥ ـ (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) :

أى : فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعة إهلاكهم من أحد ؛ إذ لا يُسأل ـ سبحانه ـ عمَّا يفعل ، ولا معقب لحكمه ، أو لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه ، ولا يخشى ضررًا يعود عليه من عذابهم ؛ لأنه بصَّرهم فأنذرهم وحذرهم ، ونجَّاه الله حين أهلكهم ، وقيل : ولا يخاف ذلك الكافر الذى قام بعقر الناقة (قدار بن سالف) عاقبة ما صنع ، فقد أقدم على فعلته وهو كالآمن مِن نزول الهلاك به وبقومه ، وذلك كناية عن إيغاله فى الكفر ، وتماديه فى التكذيب ، وإفراطه فى الجهل ، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه . والله أعلم .

سـورة الليـل

هذه السورة الكريمة مكية ، وآياتها إحدى وعشرون آية

صلتها بما قبلها :

لَمَّا ذكر - سبحانه - فيما قبلها (سورة الشمس) « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا » ذكر - جل شأنه - فى هذه السورة من الأوصاف والنعوت مايحصل به الفوز والفلاح ، وماتحصل به الخيبة والخسران (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ) إلى قوله - تعالى - : (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ) ففى هذه السورة نوع تفصيل لذلك ، وبخاصة أنه - جل وعلا - عقب بشئ من أنواع الفلاح وأنواع الخيبة ، وذلك من قوله : (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ...) إلى آخر السورة .

بعض مقاصد السورة :

١ - أقسم الله - جلت قدرته - بنوع من مخلوقاته العظيمة التى يتجلَّى نفعها وتظهر فائدتها ويتضح جلالها لكل ذى عينين : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ) . أقسم - سبحانه - بذلك على أن أعمال الناس مختلفة فى حياتهم ، وأن منها الخير والبر ، ومنها الشر والفجور ، وأنهم متفاوتون فى درجات الخير ، كما أنهم متباينون فى دركات الشر ، وأنهم مختلفون فى الجزاء : ففريق فى الجنة ، وفريق فى السعير (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ) .

٢ - بينت السورة طريق الخير بقوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ...) إلخ ، وأوضحت سبيل الشر بقوله : (وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ...) الآية ، وحذرت من افتتان بعض الناس بما أعطاه الله من المال ، وأبانت أن ذلك لا ينفعه ولا ينجيه (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ) .

٣ - جاءت السورة فى نهايتها بنموذج للطالح الشقى : (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) وبنموذج آخر للصالح التَّقى : (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ) وذلك إرشاد للناس ليبتعدوا ويميلوا عن

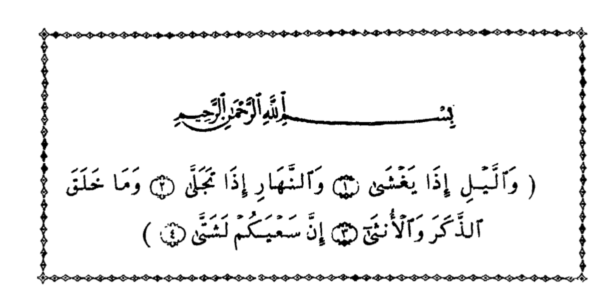
طريق الشر ، ويعمدوا ويقصدوا طريق الخير ليقيهم الله لظى النار وسعيرها (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى) .

سبب النزول :

الجمهور على أن هذه السورة نزلت فى الصديق أبى بكر - رضى الله عنه - روى ذلك بأسانيد صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . وعن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر - رضى الله عنه - يعتق على الإسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أىْ بُنَىّ أراك تعتق أناسًا ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالًا جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟ فقال : أبَتِ إنما أريد - أظنه قال - ما عند الله .

وقال السدّى : إنها نزلت فى أبى الدحداح الأنصارى ، وذلك أنه كان فى دار منافق نخلة يقع منها فى دار يتامى فى جواره بعض البلح فيأخذه منهم ، فقال له ﷺ : « دعها لهم ولك بدلها محل فى الجنة » فأبى ، فاشتراها أبو الدحداح بحائطها فقال للنبىّ - عليه الصلاة والسلام - : أَهَبُهَا لهم بالنخلة التى فى الجنة ؟ فقال ﷺ : « افعل » فوهبها ، فنزلت ، والأول هو الصحيح .

ولفظ الآية الكريمة وإن كان عامًّا وهو قوله تعالى : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ..) إلخ ، فالصديق - رضى الله عنه - داخل فيها وأولى الأمة بعمومها ، فهو مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الصفات الحميدة ؛ فإنه كان صِديقًا تقيًا كريمًا جوادًا بذّالًا لأمواله فى طاعة الله ، ونصرة رسوله ، ولم يكن لأحد عنده منّة ولا نعمة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله على السادات والرؤساء من سائر القبائل ؛ ولهذا قال عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف - يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يَدٌ لك عندى لم أجزك بها لأجبتك ، وكان الصديق - رضى الله عنه - قد أغلظ له فى المقال ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ؟



المفردات :

(يَغْشَىٰ) : يغطى بظلمته .

(تَجَلَّى) : انكشف وظهر .

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ) شتّى : واحده شتيت ، أى : مختلف، وإنما قيل للمختلف : شتيت لتباعد ما بين بعضه وبعضه ، أى : إن عملكم لمتفرق ومختلف فى حقيقته وفى جزائه .

التفسير

١ ، ٢ – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ) :

أقسم – سبحانه – بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن الخلق عن الاضطراب والضرب فى الأرض ، ويغشاهم النوم الذى جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم ثم أقسم بالنهار إذا جاء انكشف وظهر بضوئه ما كان فى الدنيا من الظلمة ، وجاء الوقت الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكامنها ، فلو كان الدهر كله ليلًا لتعذر على الناس السعى فى معاشهم . ولو كان كله نهارًا لمنعوا الراحة ونالهم الكلال . لكن كانت المصلحة فى تعاقب الليل والنهار . وقال تعالى : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »[1] . وقال – سبحانه – : « وَسَخَّرَ

(١) سورة الفرقان من الآية : ٦٢ .

لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ »[1] أى : أقسم بالليل إذا غطى النهار أو يغطى كل شىء بظلمته ، أو يغشى الأرض ويسترها بظلامه ، وأقسم بالنهار إذا انكشف وظهر ضوؤه .

٣ - (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ) :

القَسَم إما بالخلق وإما بالخالق ، فأقسم بخلق الذكر والأنثى ، وما فى هذا الخلق من إبداع واقتدار حيث خلقهما من نفس واحدة ، وغاير بينهما فى كثير من الغرائز والصفات والطبائع فتركيب كلٍ مختلف عن تركيب الآخر فى كثير من الأعضاء والغدد وغيرها ، والذكر يتباين فى بعض المهام عن الأنثى ، ولكلٍّ خصائصه ودوره ورسالته فى الحياة ، أو أقسم بالخالق وهو الله القادر العظيم الذى خلقهما على نظام بديع وإبداع حكيم ، وأنه - جلت قدرته - جعل الحياة لاينتظم أمرها ولايستقيم شأنها إلَّا بهما معًا ، هذا والمراد بالذكر والأنثى ، آدم وحواء ، أو جميع ذوى الأرواح الذين هم أشرف المخلوقات .

٤ - (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ) :

هذا جواب القسم ، أى : إن عملكم لمتباين ومختلف فى جزائه ، فمنكم الصالح التقى الذى يثاب على عمله بالجزاء الحسن ، ومنكم الكافر والمذنب الذى يعاقب على ما بدر وصدر منه وفقًا لعدل الله فى إثابة الصالح ومعاقبة العاصى والكافر ، كما أن عملكم لمختلف ومتباين فى الدنيا أيضًا ، فبعض الناس يحرث ، وآخر يصنع ، وذاك يداوى ، وسواه يعمل فى شئون الحياة المختلفة ، لأنها لا تسير ولا تستقيم إلَّا بتعاون الناس كلٌّ فى شأن من شئونها وعمل من أعمالها ؛ حتى يشعروا جميعًا أن كلاًّ منهم فى حاجة إلى الآخر ؛ ليتم التعاون ويكمل الترابط ، ويتخذ بعضهم بعضًا سُخريًّا ، فلايشعر أحد أنه فى غنى عن الآخر .

---

(١) سورة إبراهيم : من الآية : ٣٣ .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾)

المفردات :

(بِالْحُسْنَىٰ) : بكلمة التوحيد : لا إلٰهَ إلَّا الله . أو بملة الإسلام . وقيل غير ذلك .

(لِلْيُسْرَىٰ) : للخصلة المؤدية والمفضية إلى اليسر والراحة .

(لِلْعُسْرَىٰ) : للخصلة والصفة الموصلة إلى العسر والشدة والعذاب .

(اسْتَغْنَىٰ) : زهد ورغب عمَّا لدى الله من الثواب ، وقيل غير ذلك .

(تَرَدَّىٰ) : سقط وهلك ، تَفَعَّلَ من (الردى) وهو الهلاك .

التفسير

٥ - (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ) :

هذا تفصيل وتفريع يوضح تباين الناس واختلافهم فى سعيهم وعملهم ، أى : فأما الذى يعطى ويمنح مًّا رزقه الله وأعطاه ؛ فيبذل الغنى بعض ماله للفقير ، ويرشد العالمُ الجاهل ، ويهدى الراشد الضال ، ويعطى الطبيب من علمه وطبه المريض أخذًا بأسباب الشفاء ، ويمنح صاحب الجاه والسلطان من جاهه وسلطانه مظلومًا يعينه على أخذ حقه ، أو يدفع عنهُ حيفًا وقع به ، أو يرد ويمنع ظالمًا عن ظلمه ، فإن كل ذلك عون على الخير ، وبذل من عطاء الله .
وذلك حملاً للإعطاء على معناه الواسع الذى يعم بذل المال وغيره ، قال تعالى :
« وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ »[1] .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٣ .

(وَاتَّقَى) أى : كان فى وقاية من غضب الله وعقابه ، فلم يفعل ما نهى الله عنه ، واتقى المحارم ، أو اتقى وبَعُد عن البخل ، أو اتقى الرياء وأخلص لله عمله .

٦ - (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ) :

أى : وأيقن بكلمة التوحيد وهى (لَا إِلٰهَ إِلَّا الله) أو بملة الإسلام ، أو مُصدقًا بأن الله - تعالت عظمته - سيعطيه الخلف والعوض الذى وعده الله به فى قوله تعالى : « وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ »[1] ، وكلمة (الحسنى) تسع كل خصلة حسنة ؛ إذ كلها ترجع إلى ثواب الله الذى هو الجنة .

٧ - (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ) :

للعاقبة اليسرى والمآل الحسن ، أى : فسنسهل عليه كل ما كلف به من الطاعات فيفعلها ونيسر له سبيل البعد عن المنهيات فيتركها ، أو نيسر له العود إلى الطاعة التى فعلها . قالوا : أمارة قبول الطاعة أنها تثمر وتفضى إلى طاعة ، وكل هذا له المصير الكريم لدى الله - سبحانه -

٨ - (وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ) :

أى : وأما الذى ضن وشح وبخل بعطاء الله له ؛ فلم يبذل منه شيئًا لمحتاج إليه ، ولم يفرج كربة مكروب ، ولم يغث ملهوفًا ، ولم يعن مظلومًا ، ومنع الموجود ، وأساء الظن بالمعبود .

وبالجملة ، فإنه انغلق على نفسه ومنعها الخير ، وظن أن ما عنده إنما ناله بعلمه وذكائه وفطنته .

٩ - (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ) :

أى : وكفر فلم يعتقد بكلمة التوحيد ، أو كذب بالجنة ، أو بما وعده الله من الجزاء والخلف والعرض ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (مَا مِنْ

---

(١) سورة سبأ من الآية : ٣٩ .

يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، ويَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا) كما رواه مسلم .

١٠ - (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ) :

أى : للخصلة المفضية والمؤدية إلى العسر والشدة : كعذاب القبر ، وشدة الحساب ، ودخول النار ، أى : سنهيئه لذلك ونعده له ؛ إذ قد علم الله ذلك منه وقدره عليه .

وقيل : التيسير فى العطاء بمعنى اللطف ، وفى البخل بمعنى الخذلان ، واليسرى والعسرى الطاعة ، لكونها أيسر شىء على المتقى وأعسره على غيره ، والمعنى على هذا : فأما من أعطى فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها ، من قوله تعالى : « فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ »[١] وأما من بخل فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شىء عليه وأشد ، وذلك من قوله تعالى : « وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ »[٢]

١١ - (وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ) :

أى : وما ينفعه ماله ولا يدفع عنه العذاب فى النار إذا سقط وهلك فيها .

والمعنى : فماذا يغنى ويمنع عنه ماله الذى بخل به وتركه لورثته ولم يصحبه منه شىء إلى آخرته التى هى موضع فقره وحاجته ، كما قال تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ »[٣] ، وقال : « وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا »[٤] أى : لا ينجيه هذا المال الذى تركه إذا هلك وسقط فى النار ، إنما الذى ينتفع الإنسان به هو ما يقدمه لنفسه من أعمال البر : كإعطاء الأموال فى حقوقها دون المال الذى يخلفه على ورثته .

(١، ٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ٩٤ .

(٤) سورة مريم ، من الآية : ٨٠ .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(لَلْهُدَىٰ) : للإرشاد والتبيين لطريق الخير من طريق الشر .

(لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ) : للدنيا والآخرة .

التفسير

١٢ - (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ) :

أى : إن أمر إرشاد العباد وتبيين طريق الهدى وما يؤدى إليه . وتمييزه عن طريق الضلال وما ينتهى إليه - إن هذا الأمر - من شأننا نحن وليس لأحد سوانا دَخْلٌ فيه ، غير أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ليس عليهم إلّا البلاغ فحسب ، قال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ »[١] .

١٣ - (وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ) :

أى : إن التصرف الكلى المطلق فى الدارين - الدنيا والآخرة - لنا وحدنا نفعل فيهما ما نشاءُ وكيفما نشاءُ ، أو إن لنا كل ما فى الدارين ، فلا ينفعنا اهتداؤكم كما لا يضرنا ضلالكم : « مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا »[٢] .

وما دام الأمر كذلك فإن على العاقل أن يعتمد على ربه فى طلبهما ، ولا يلجأ أو يركز إلى أحد فى ذلك ؛ لأنه يكون قد أخطأ الطريق ، وجانبه التوفيق .

---

(١) سورة القصص من الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الإسراء من الآية : ١٥ .

(فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(فَأَنذَرْتُكُمْ) : فحذرتكم وخوفتكم .

(تَلَظَّى) أصله : تتلظى ، أى : تتوقد وتتاهب .

(لَا يَصْلَاهَا) : لايجد صلاها وهو حرها .

(وَسَيُجَنَّبُهَا) : وسيكون فى جانب والنار فى جانب آخر ، أى : يكون بعيدًا عنها .

(يَتَزَكَّىٰ) : يطلب من الله أن يكون طاهرًا من الذنوب ، أو يكون ناميًا زائدًا فى الخير .

(نِعْمَة) : منة ويد .

(تُجْزَىٰ) : يكافأ صاحبها عليها .

التفسير

١٤ ـ (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ) :

أى : فحذرتكم وخوفتكم يا أهل مكة نارًا تتوهج وتتوقد .

١٥ ـ (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ) :

أى : لا يعذب بين طبقاتها إلَّا الكافر ؛ فإنه أشد شقاءً من الفاسق والعاصى ، ثم بين ـ سبحانه ـ ذلك الأشقى بقوله :

١٦ - (الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) :

أى : الذى كذب بالحق وكفر بوحدانية الله فاعتقد له الشريك ، أو جحده وأنكره كما كذب برسله - عليهم الصلاة والسلام - وأعرض وأدبر عن طاعة الله وتجنبها .

هذا ، وقد يبدو أن غير الأشقى كالعصاة والفساق لا يعذبون فى النار ، والأمر ليس كذلك إذ الصلى فى اللغة : أن يحفروا حفيرة فيجمعوا فيها جمرًا كثيرًا ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه بين أطباقه ، فالمعنى - إذن - : لا يعذب بين أطباق النار ولا يقاسى حرها على وجه الأشدّية إلَّا الأشقى ، أما العاصى والفاسق فلا يعذب بين أطباقها ولا يقاسى حرها على هذه الصورة ، ولا يلزم منه أنه لا يدخلها ولا يعذب بها أصلًا ، بل يجوز أن يدخلها ويعذب بها على وجهها فى الطبقة الأولى عذابًا دون ذلك العذاب ، حتى إن بعض العصاة من تبلغ النار إلى كعبه ، وأشد العصاة من تبلغ وتصل إلى موضع سجوده فيحسه ، ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها البتَّة بوعد الله تعالى .

١٧ - (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى) .

أى : وسيكون الأكثر تقى المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى - سيكون - فى جانب ، وتكون النار فى جانب آخر ، فلا يحوم حولها بل يمر بها ويطَّلع عليها دون أن يؤلم بمسها ، ويُصَارُ به إلى الجنة ، وإنما أطلعه الله عليها إظهارًا لإكرامه له بإنجائه من عذابها وجعله فى دار كرامته ، قال تعالى : « وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »[1] .

١٨ - (الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ) :

هذا بيان للصفات التى يتحلى بها الأتقى ، والتى اقتضت أن يجنب النار ، أى : هو الذى يعطى ماله ويصرفه ابتغاء تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب ، أو هو الذى يرغب ويطلب من ربه أن يكون زاكيًا ناميًا فى الخير ، مسارعًا ومسابقًا فيه ، لا يريد بعمله هذا رياءً ولا سمعة ، إنه سيكون بعيدًا عن هذه النار .

---

(١) سورة مريم الآيتان: ٧١ ، ٧٢ .

١٩ - (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ) :

هذه الآية جاءت مقررة ومؤكدة للآية السابقة ، أى : إن هذا الأتقى قد قدم ما قدم من المال والخير والعمل الصالح للتزكى والتطهر ، وليس لشيء آخر ، فليس مكافأة على يد قدمت له ، أو نعمة أسديت إليه ، حتى لا يكون قد قصد بإعطاء ما بذل مجازاة لصاحب النعمة .

٢٠ - (إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ) :

أى : لكنه فعل ما فعل لخالص وجه الله من غير أن يشوبه طمع فى ثواب أو رهبة من عقاب .

٢١ - (وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) :

هذا وعد من الله للأتقى بأنه - سبحانه - سينيله وسيعطيه كل ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها . وقيل : ولسوف يرضى الله عنه ، لأن رضا الله عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه - عز وجل .

وبالجملة فلا بدَّ من حصول الأمرين - رضا العبد ورضا الله - كما قال تعالى : «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً »[1] . والله أعلم .

(١) سورة الفجر الآيتان : ٢٧، ٢٨

سورة الضحى

هذه السورة الكريمة مكية ، وآياتها احدى عشرة آية

صلتها بما قبلها :

لَمَّا ذكر – سبحانه – فيما قبلها (سورة الليل) قوله تعالى : « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » وكان سيدُ كل الأتقياء هو رسول الله ﷺ عقب – سبحانه – ذلك بذكر نعمه – عز وجل على رسوله – عليه الصلاة والسلام – فى تلك السورة من قوله : (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ..) إلى قوله : (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) وجاء فى كتاب روح المعانى للآلوسى : وقال الإمام : لَمَّا كانت السورة الأُولى (سورة الليل) سورة أبى بكر – رضى الله عنه – وهذه سورة رسول الله ﷺ عقب – عز وجل – بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ؛ ليعلم أن لا واسطة بين رسوله ﷺ والصديق – رضى الله عنه – وتقديم سورة الصديق على سورته ﷺ لا يدل على أفضليته منه ﷺ ألا ترى أنه – تعالى – أقسم أولًا بشيء من مخلوقاته – سبحانه – ثم أقسم بنفسه – عز وجل – فى عدة مواضع منها السورة السابقة على ما عرفت ، والخدم تتقدم بين يدى السادة ، وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة ، ولا يضر النَّوْرَ تأخره عن أغصانه ، ولا السِّنَان كونه فى أطراف مُرَّانه[1] ، ثم ما ذكر زهرة ربيع لا تتحمل الفرك كما لا يخفى .

بعض مقاصد السورة :

١ – أنها أكدت – بالقسم – أن رسول الله ﷺ لم يتركه ربه ولم يبغضه ، وإنما هو عنده فى كريم المكانة ، وجلال القدر ورفيع المنزلة : (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى) .

٢ – أنها جاءت بما يثلج صدر الرسول ﷺ ويقر عينه ؛ وذلك بأن بشرته بأن عطاء ربه له عظيم ، فسيعطيه ويمنحه ما يرضيه : (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) .

---

(١) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، الواحدة : مرانة .

٣ - أن الآيات - بعد ذلك - ذكَّرت الرسول - عليه الصلاة والسلام - بنعم الله عليه ليكمل إيناسه ويزيد اطمئنانه : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ) .

وكانت نهاية السورة وصيته - سبحانه - لرسوله ﷺ أن يكون على تذكُّر دائم لنعم الله السابقة عليه ، وذلك بأن يرعى اليتيم ويؤويه ، ويعطف على السائل والمحتاج ويعطيه ، وأن يذكر ويحدث بنعم الله عليه شكرًا له - سبحانه - وتعليمًا لعباده حتى يكونوا على الجادة وسواءِ الصراط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾)

المفردات :

(الضُّحَىٰ) : وقت ارتفاع الشمس بعد بزوغها وطلوعها .

(إِذَا سَجَىٰ) : إذا سكن أهله ، وقيل غير ذلك .

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ) : ما تركك ربُّك منذ اختارك ، وأصل (ودع) من التوديع ، وهو من الدعة وهو أن تدعو للمسافر أن يدفع عنه كآبة السفر ، وأن يبلغه الدعة وخفض العيش ثم صار متعارفًا على تشييع المسافر وتركه ، ثم استعمل فى الترك مطلقًا .

(وَمَا قَلَىٰ) : وما أبغضك منذ أحبك .

سبب النزول :

اشتكى النبيّ ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يامحمد ما أرى شيطانك إلَّا قد تركك : فأنزل الله – عز وجل – (وَالضُّحَىٰ ...) الآية . رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم . قيل : إن المرأة هى العوراءُ بنت حرب زوج أبى لهب ، وهى حمالة الحطب .

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم : لَمَّا نزلت « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ... » الآية ، قيل لامرأة أبى لهب أم جميل : إن محمدًا ﷺ قد هجاك ، فأتته – عليه الصلاة والسلام – وهو جالس فى الملأ فقالت : يامحمد علام تهجونى ؟ فقال : « إِنِّى مَا هَجَوْتُكِ ، مَا هَجَاكِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى » ، فقالت : هل رأيتنى أحمل حطبًا أو فى جيدى حبلًا من مسد ؟ ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ لاينزل عليه ، فأتته فقالت : ما أرى صاحبك إلَّا قد ودعك وقلاك فأنزل الله ذلك .

التفسير

١ ، ٢ – (وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ) :

أقسم – سبحانه – بالضحى ، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى بشعاعها ، وأقسم بالليل إذا سجى وسكن أهله ، أو إذا غطى بظلامه النهار ، أو ستر كل شىء .

وخص وقت الضحى بالقسم ؛ لأنه وقت اجتماع الناس ، وكمال أُنسهم بعد الخوف وعدم الاطمئنان فى الليل لظلمته وانقطاع الحركة فيه ؛ فبشره – سبحانه – بأنه بعد وحشتك بسبب فترة الوحى يظهر الضحى بنزوله ، ويكمل أُنسك وينشرح صدرك . وكان قسمه – سبحانه – بالليل ؛ لأنه وقت الراحة بعد العناء ، والسكون بعد الحركة والاضطراب ، أو أنه – جل شأنه – أقسم بالضحى والليل ؛ لأنهما وقتان فيهما صلاته – عليه الصلاة والسلام – التى جعلت قرة عينه ، وسبب مزيد قربه وأُنسه ، أما الضحى فلما رواه الدارقطنى عن ابن عباس مرفوعًا : « كُتِبَ عَلَىَّ النَّحْرُ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ ، وأُمِرْتُ بِصَلَاةِ الضُّحَى وَلَمْ

تُؤْمَرُوا بِهَا » ، وأما الليل فلقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا »[1] أو أنه أقسم بالضحى لأنه الساعة التى كلّم الله فيها موسى – عليه السلام – وألقى فيها السحرة سجّدًا لقوله تعالى : « وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى »[2] وأقسم بالليل لأنه الوقت الذى أُسرى وعرج به ﷺ إلى بيت المقدس ، ثم إلى السموات العلا ، فإلى سدرة المنتهى ؛ فاكتسب الضحى والليل تلك الفضيلة ، وهذه المزية لكون كل منهما ذات وقتًا وظرفًا لحدث عظيم .

٣ – (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ) :

هذا جواب القسم ، أى : ماتركك ربك منذ اصطفاك ، ولا أبغضك بعد أن أحبك واجتباك ؛ فأنت لديه فى رفيع المكانة وجليل القدر ، وشرف المنزلة التى لاتدانيها منزلة أحد من الخلق .

وحذف المفعول فلم يرد بلفظ (وما قلاك) لئلا يواجه – عليه الصلاة والسلام – بنسبة القلى والبغض إليه وإن كان فى كلام منفى وذلك لطفًا به ﷺ وشفقة عليه .

واختلفوا فى قدر مدة انقطاع الوحى ، فقال ابن عباس : خمسة وعشرون يومًا ، وقيل : أربعون يومًا ، أو اثنا عشر يومًا ، أو خمسة عشر يومًا ، أو أربعة أيام ، قال العلامة الآلوسى – بعد أن أتى بهذه الأقوال : وأنت تعلم أن مثل ذلك مما يتفاوت العلم بمبدئه ، ولا يكاد يعلم على التحقيق إلّا منه – عليه الصلاة والسلام – والله تعالى أعلم .

كما اختلفوا فى سبب احتباس جبريل – عليه السلام – : فذكر بعض المفسرين أن اليهود سألت رسول الله ﷺ عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف فقال : « سَأُخْبِرُكُم غَدًا » ولم يقل : « إن شاء الله » ، وقيل : السبب كون جرو (كلب صغير) فى بيته ، وقيل غير ذلك ، ويحتمل أن فترة الوحى كانت لزيادة تشويق الرسول ﷺ إلى الوحى

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٩ .

(٢) سورة طه من الآية ٥٩ .

حتى يكتمل أنسه وفرحه بنزوله ، فقد روى البخارى أن النبى ﷺ قال لجبريل : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » ؟ فنزلت « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ »[1] .

قال الإمام الفخر الرازى فى تفسيره : هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله ؛ إذ لو كان من عنده لما امتنع .

٤ – (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ) :

لما نزل قوله تعالى : « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ » حصل لرسول الله ﷺ بهذا تشريف عظيم ، فكأنه – عليه الصلاة والسلام – استعظم هذا التشريف، فقيل له : (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ) أى : إن هذا التشريف وإن كان عظيمًا إلا أن مالك عندنا فى الآخرة خير منه وأعظم ، أو أن المعنى : وللأحوال الآتية خير لك من الماضية ،كأنه – تعالى – وعده بأنه سيزيده كل يوم عزًّا إلى عز ، ومنصبًا إلى منصب ؛ أو أن خيرات الدنيا مشوبة بالآفات والنقص والانقطاع ، ولذات الآخرة كثيرة خالصة كاملة دائمة .

٥ – (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) :

هذا ترَقٍّ وسمو بقدر رسول الله ﷺ ورفع لمنزلته ، فبعد أن أبان – عز وجل – أنه فى محل الإعزاز والتكريم ، وأنه لم يتركه ولم يبغضه بعد أن أحبه واجتباه ، وأن الآخرة تكون خيرًا له وأفضل مما أكرم به فى الدنيا ، بعد ذلك سوف يكون الإرضاء التام ، وتحقيق ما تصبو إليه نفس الرسول ويرجوه ، وذلك بأن يعطيه ربه كل ما يرجوه منه – سبحانه – حتى يكون ﷺ راضيًا وتلك المنزلة هى الشفاعة فى جميع المؤمنين .

ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول الله تعالى فى إبراهيم : « فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »[2] ، وقول عيسى : « إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ »[3] فرفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي » وبكى ، فقال الله – تعالى – لجبريل : « اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ – وَرَبُّكَ أَعْلَمُ – فَسَلْهُ مَا يُبْكِيهِ » فأتى جبريلُ

(١) سورة مريم ، من الآية : ٦٤

(٢) سورة إبراهيم ، من الآية : ٣٦

(٣) سورة المائدة ، من الآية : ١١٨

النبيَّ ﷺ فأخبره ، فقال الله – تعالى – لجبريل : « اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ : إنَّ اللهَ يَقُولُ لَكَ : إنَّا سَنُرْضِيكَ فِى أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوؤُكَ » .

وقال على – كرم الله وجهه – لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية فى كتاب الله – تعالى – « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ »[1] قالوا : إنا نقول ذلك ، قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ) .

هذا وقد ورد فى الحديث الشريف أن هذه الآية لَمَّا نزلت قال النبىّ ﷺ : « إذًا وَاللهِ لا أَرْضَىٰ وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِى فِى النَّارِ » كما ذكره القرطبى فى تفسيره . وذكره الطبرى عن ابن عباس فى أهل البيت .

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾)

المفردات :

(آوَىٰ) : جعل له مأوى يأوى إليه ، وضمه إلى من يرعاه .

(ضَآلًّا) : غافلًا لم تكن تدرى القرآن والشرائع التى لا تهتدى إليها العقول وإنما طريقها الوحى .

(عَآئِلًا) : مفتقرًا مُعْدِمًا ، من (عال الرجل) يعيل عيلة : إذا افتقر .

---

(١) سورة الزمر من الآية ٥٣ .

(تَقْهَر) : تذله وتحقره ، أو تظلمه .

(تَنْهَر) : تزجره وتغلظ له فى القول .

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) : وانشر أنعم الله عليك بالشكر والثناء .

التفسير

٦ - (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ) :

عدد - سبحانه - نعمه ومننه على رسوله ﷺ تقوية لقلبه ووعدًا له بدوام نعمه عليه فيزداد فؤاده الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسرورًا وانشراحًا وحبورًا أى : قد علمك ربك صغيرًا ، قد مات أبوك فضمك إلى من قام بأمرك ورعاك ، فكان - عليه الصلاة والسلام - بعد أمه فى حجر جده وعنايته ، ثم كفله عمه الشقيق الشفيق أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب ، أو باختيار الرسول له ، وكان أبو طالب شديد الاعتناء به إلى أن بعثه الله ، وكان يرى منه فى صغره ما لم ير من صغير ، قال أبو طالب لأخيه العباس بن عبد المطلب : وكنت كثيرًا ما أسمع منه كلامًا يعجبنى ، وذلك عند مضى بعض الليل ، وكنا لا نسمى على الطعام والشراب ولا نحمد بعده ، وكان يقول فى أول الطعام : باسم الله الأحد ، فإذا فرغ من طعامه قال : الحمد لله ، فكنت أعجب منه ، ولم أر منه كذبة ولا ضحكًا ولا جاهلية ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون ، وقيل : ألم أجدك يتيمًا لم ترغب فيك المراضع فآواك إلى مرضعة تحنو عليك ، ورزقها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبتك وتكفلتك .

٧ - (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) :

أى : ووجدك وعلمك غافلًا عن الشرائع التى لا تهتدى إليها العقول وإنما طريقها وسبيلها هو السماع ، فهداك الله إلى مناهجها وطرقها ، وذلك فى أثناء ما أوحى الله إليك من الكتاب المبين ، وعلمك ما لم تكن تعلم .

وجمهور العلماء على أنه – عليه الصلاة والسلام – قد فطر على الإيمان بالله ، وما كان ﷺ على دين قومه لحظة واحدة بدليل قوله تعالى : « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ »[1] ، وأنه كان يتعبد فى الغار قبل البعثة على دين إبراهيم .

وقيل : ضل فى الطريق وهو مع عمه أبى طالب فى رحلة الشام عندما عدل إبليس بناقته ﷺ عن الطريق فجاء جبريل – عليه السلام – ورده إلى القافلة ، وقيل ضل عن جده فى شعاب مكة فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه فرده إلى جده وهو متعلق بأستار الكعبة يضرع إلى الله – تعالى – ويقول :

يارب رد ولدى محمدًا اردده ربى واصطنع عندى يدا

٨ – (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ) :

أى : علِمَكَ مفتقرًا فأغناك بما أفاء الله عليك من ربح التجارة فى مال السيدة خديجة وبما وهبته – رضى الله عنها – له ﷺ .

أو أغناك بالقناعة ، فجعل قلبك راضياً ، أو أغناك بالحجج والبراهين .

٩ – (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) :

أى : لا تقهره بظلمه ، ولا تتسلط عليه بأخذ ماله ، بل عليك أن تدفع إليه حقه . وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله ، وفيه أيضاً تذكير للرسول ﷺ بيتمه ليكون أكثر رعاية له ، ودلت هذه الآية على اللطف والشفقة على اليتيم وبره والإحسان إليه ؛ لأن ذلك يلين القلب ويذهب قسوته وغلظته ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رجلا شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال : « إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ فَامْسَحْ رأْسَ الْيَتِيمِ . وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ »[2] وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ كَهَاتَيْنِ » وأشار بالسبابة والوسطى .

---

(١) سورة النجم ، الآية : ٢ .

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

١٠ - (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) :

أى : لا تغلظ له القول ولا تزجره ، ولكن تلطف معه وردّه ولو بعطاء قليل أو ردٍّ جميل واذكر فقرك . وقد روى أن النبى ﷺ قال : « رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفِ شَاةٍ » والرسول ﷺ يشير بهذا إلى أن الملائكة قد تأتى فى صورة من يسأل أصحاب المال وذوى النعم اختباراً لهم وابتلاءً . وقيل : المراد بالسائل هنا : الذى يسأل عن الدين ويريد أن يعرف ماجهل منه ، أو ما التبس عليه فيه ، أى : فلا ترده بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين هذا ، وإن إجابة السائل عن الدين فرض كفاية على العالم .

وعن أبى هارون العبدى قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى - رضى الله عنه - يقول : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - قال : « إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ ، وَإِنَّ رِجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا »[١] .

١١ - (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) :

أى : انشر وأظهر وأذِعْ ما أنعم الله به عليك بالشكر والثناء ؛ فالتحدث بنعم الله والاعتراف بها شكر ؛ أخرج البخارى فى الأدب وغيره عن رسول الله ﷺ مرفوعاً « مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ . فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ كَانَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ »[٢] ولذا استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير إذا لم يرد به الرياء والافتخار ، وظن الاقتداء به ، وأمن على نفسه الفتنة .

جاء فى تفسير القرطبى : وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول : لقد رزقنى الله البارحة كذا ، قرأت كذا ، وصليت كذا ، وذكرت الله كذا ، وفعلت كذا فقلنا له : يا أبا فراس : إن مثلك لا يقول هذا : قال : يقول الله تعالى : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) وتقولون أنتم : لا تحدث بنعمة الله .

---

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى فى تاريخه . (٢) رواه الترمذى ، وضعفه .

والمراد أمر الرسول ﷺ أن يتحدث بما أفاضه الله عليه من ضروب النعم وفنونها ، ومن جملتها ما تقدم ، وما أوحى الله إليه به .

وحاصل المعنى : أنك كنت يتيماً وضالا وعائلا ، فآواك الله ، وهداك ، وأغناك ، فمهما يكن من شيء فلا تنس نعمة الله عليك فى هذه الثلاث ، واقْتَدِ بالله فَتَعَطَّفْ على اليتيم وَآوِهِ ؛ فقد ذقت اليتم ورأيت كيف فعل الله بك ، وتَرَحَّمْ على السائل وَتَفَقَّدْهُ بمعروفك ، ولا تزجره وترده عن بابك ، كما رحمك ربك فأغناك بعد فقر ، وحدث بنعم الله كلها ، ويدخل فى ذلك هدايتك الضُّلَّالَ وتعليمهم الشرائع والقرآن مقتدياً بالله فى أن هداك وأرشدك ، وفى الدعاء النبوى المأثور : « .. وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ ، مُثْنِينَ بِهَا عَلَيْكَ ، قَابِلِيهَا ، وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا » اللَّهُمَّ آمين .

سورة ألم نشرح

هذه السورة مكية ، وعدد آياتها ثمان ، وتسمى أيضا سورة الشرح

مناسبتها لما قبلها :

هى شديدة الاتصال بما قبلها ، أى : بسورة « الضحى » حتى إنه روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : إنهما سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم ، وعلى ذلك الشيعة ـ كما حكاه الطبرسى منهم ـ ورد ذلك الإمام . وقال الآلوسى : والحق أنهما متصلتان معنى مع كونهما سورتين يفصل بينهما بالبسملة ، ويدل على شدة اتصالهما ما فى حديث الإسراء الذى أخرجه ابن أبى حاتم أن الله تعالى قال لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويت وضالا فهديت ، وعائلا فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، ولا أذكر إلا ذُكرت معى ... إلى آخره ، والجمع بينهما فى الحديث يدل دلالة قوية على ما بينهما من تناسب .

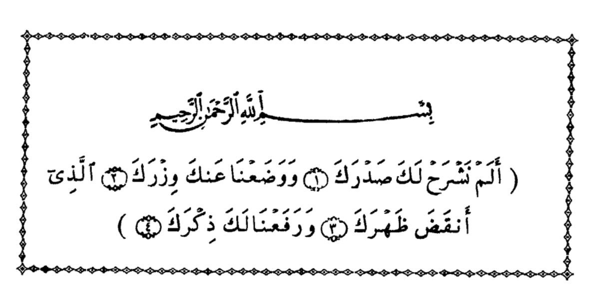
أهم مقاصدها :

ابتدأت بالحديث عن نعم الله العديدة على عبده محمد ﷺ وذلك بشرح صدره بالإيمان ، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان ، وعصمته من الذنوب والآثام ، وتيسير أعباء النبوة عليه حتى أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة . قال تعالى : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ..) الآيات .

ثم تحدثت كذلك عن إعلاء منزلته ﷺ والتنويه بما بلغه من تكريم وتعظيم حيث جعله مذكوراً على لسان كل مؤمن مقروناً باسمه جل وعلا . قال تعالى : (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) .

ثم طمأنت الرسول وهو ومن معه يقاسى الشدائد والأهوال من كفار مكة ، طمأنته إلى ما ينتظره من الفرج ، والنصر القريب على الأعداء . قال تعالى : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

وختمت السورة بتذكير الرسول بما يجب عليه بعد الفراغ من أمر الدعوة ، ومقتضيات الجهاد ، وذلك ببذل الجهد فى عبادة أخرى بحيث لايخلى وقتاً من أوقاته منها متجها إلى رَبِّه وحده بمسائله وحاجاته ، قال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤))

المفـردات :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) : أى ألمْ نوسعه ، ونجعله رحيباً بما أودعناه فيه من الحكم والعلوم ؟ ! والاستفهام للتقرير ، كأنه قيل : قد شرحنا لك صدرك .

(وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) : الوزر : الحمل الثقيل ، أى : حططنا عنك حملك الثقيل الذى تلقيه عليك أعباءُ النبوةِ .

(أَنقَضَ ظَهْرَكَ) : أى : أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض ، وهو الصوت الخفى الذى يسمع من الرحل فوق ظهر البعير من ثقل الحمل وشدته ، والكلام على التمثيل .

التفسـير

١ ــ ٤ ــ (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) :

المعنى : ألم نوسع لك صدرك بإخراجك من تلك الحيرة التى كان يضيق لها لما تلاقيه من جحود قومك وعنادهم؟ وذلك بما أودعناه فيه من الحكم والعلوم والهدى ونور الإيمان ؛

حتى يتيسر لك تلقى ما يوحى إليك بعد ما كان يشق عليك ! ؟ وعن الحسن : ملئ علما وحكمة .

وقيل المعنى : ألم نفسح لك صدرك حتى وسع عالمى الغيب والشهادة وجمع بين ملكتى الاستفادة ، والإفادة ، ووجه نسبة الشرح إلى الصدر : لأنه لما كان محلا لأحوال النفس ، ومخزنًا لسرائرها من العلوم والإدراكات ، والملكات ، والإرادات وغيرها - عبَّرَ بشرحه عن توسيع دائرة تصرفات النفس بتأييدها بالقوة القدسية ، والكمالات الإلهية .

وعن ابن عباس وجماعة أنه إشارة إلى شق صدره الشريف فى صباه - عليه الصلاة والسلام وقد وقع هذا الشق على ما فى بعض الأخبار ، وهو عند مرضعته حليمة السعدية ، وقد ذكر ذلك كثير من المفسرين .

وفى حديث لأبى يعلى ، وأبى نعيم وابن عساكر ما يدل على تكرار هذا له - عليه الصلاة والسلام - وهو عند حليمة ، وروى أنه وقع له أيضاً وهو ابن عشرين سنة وأشهر ، كما فى الدر المنثور ، ووردت فى شق الصدر للرسول ﷺ روايات كثيرة ، فمن أرادها فليرجع إليها فى أمكنتها من كتب السيرة ، والله وحده أعلم بمدى صحة ما قيل .

(وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) : عطف على مضمون الجملة السابقة . كأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، أى : خففنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء النبوة ، ومشاق القيام بأمرها ، والوزر : الحمل الثقيل ، وقيل : المراد به الأمور التى فعلها ﷺ عن اجتهاد وعُوتِبَ عليها ، ووضْعها : غفرانها كقوله تعالى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[1] واختار أبو حيان كون وضع الوزر كناية عن عصمته ﷺ من الذنوب وتطهيره من الأدناس ، عبر عن ذلك بالوضع ، على سبيل المبالغة فى انتفائه .

(الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ) أى : الذى أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض يصدر عنه لثقل الحمل ، وهو صوت خفيف كالصوت الذى ينبعث من الرحل على ظهر البعير لثقل الحِمْل ، والكلام على التمثيل ، مثل به حاله - عليه الصلاة والسلام - مما كان يثقل عليه ويؤلمه من عدم

---

(١) الفتح ، من الآية : ٢ .

إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع مما لا يُدْرك إلا بالوحى ، أو من حرصه على إسلام المعاندين من قومه ، وتلهفه عليه وغير ذلك من أمور تثقل عليه ﷺ .

« وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » بالنبوة وغيرها ، وأىُّ رفع أكمل وأسمى من أن يقرن اسمه ﷺ باسمه – عزَّ وجلَّ – فى كلمة الشهادة والأذان والإقامة ، وجعل طاعته طاعته فى غير موضع من القرآن . فقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ »[1] « واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ »[2] وصلى عليه مع ملائكته ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، وخاطبه بالألقاب فى قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » « يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » « يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ » « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ » وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به ، وذكره سبحانه فى كتب الأولين ، وفى حديث مرفوع أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « أَتَانِى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ – فَقَالَ : إنَّ رَبَّكَ يَقُولُ : أَتَدْرِى كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : اللهُ تَعَالى أَعْلَمُ ، قَالَ : إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِى » واقتصرَ بما ذكر على ما هو أعظم قدرًا من أفراد رفع الذكر .

(فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾)

المفـردات :

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ) يقال : عسر الأمر عسرًا ، مثل : قرب قرباً ، وعسارة بالفتح فهو عسير ، أى : صعب شديد ، إشارة إلى ماهم فيه من فقر وضيق .

(يُسْرًا) أى : سعة وغنى .

(فَانْصَبْ) أى : فَأَتْعِبْ نفسك فى طلب الآخرة ، ونصِبَ نصباً ، من باب : تَعِبَ : أعيا .

---

(١) من الآية : ٥٩ من سورة النساء . (٢) من الآية : ٦٢ من سورة التوبة .

التفسير

٥ - (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) :

وعد للنبي ﷺ بتيسير كل عسير له وللمؤمنين ، مسوق لتسليته والتنفيس عنه أى : فإن مع الشدة التى أنت فيها من مقاساة أذى المشركين بمكة يسرًا . كأنه قيل : خولناك ما خولناك من جلائل النعم لتأييدك ، فكن على ثقة بفضل الله ولطفه ولاتيأس ، فإن بعد الشدة التى صادفتك من المعاندين لدعوتك يسرًا عظيماً وذلك بإظهارك عليهم ، وقهرك لهم .

وقيل فى المعنى : كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله ، فذكره سبحانه بما أنعم به عليه من نعم عظيمة ثم قال : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ) أى : الذى أنتم فيه (يُسْرًا) عظيما ، وأى يسر ، والمراد به : ما تيسر لهم من فتوح فى أيام رسول الله - ﷺ - أو يسر الدنيا مطلقاً .

٦ - (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) :

يحتمل أن تكون تكريرًا للجملة السابقة لتقرير معناها فى النفوس ، وتمكينه فى القلوب ، ويحتمل أن تكون وعدًا مستأنفاً له ﷺ ، واحتمال الاستئناف هو الراجح ، كما يقول الآلوسى - لما علم من فضل التأسيس على التأكيد لإفادة التأسيس لمعنى جديد والتنوين فى (يُسْرًا) للتعظيم .

والمراد : أن مع ذلك العسر يسرًا آخر ، ولن يغلب عسر يسرين ، ويشير إلى ذلك ما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال ؟ ذُكِر لنا أن رسول الله ﷺ بشر بهذه الآية أصحابه فقال - عليه الصلاة والسلام - : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ إِنْ شاءَ يُسْرَيْنِ » .

وهذا مما تنطق به قواعد اللغة ؛ لأن العسر أُعيد معرفة ، فكان واحدًا ؛ لأن المعرفة إذا أُعيدت معرفة ، كانت الثانية عين الأُولى ، واليسر أُعيد نكرة ، والنكرة إذا أُعيدت نكرة كانت الثانية غير الأُولى ، والمراد باليسرين يسر الدنيا ويسر الآخرة والإتيان بكلمة (مع) فى الجملتين للإيذان بغاية مقاربة اليسر للعسر زيادة فى التسلية .

٧ ، ٨ - (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) :

أى : فإذا فرغت من التبليغ ، وقيل : من الغزو ، فاجتهد فى العبادة ، وأتعب نفسك فيها ببذل أقصى طاقتك فى أدائها شكراً لما أوليناك من النعم السابقة ، ووعدناك من الآلاء الآتية ، والنصَبُ فيها ألا يخلى وقتاً من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأُخرى ، وفى ذلك من الحث له ﷺ على العبادة مافيه (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) أى : وإلى ربِّك وحده تكون رغبتك بالسؤال فى حرص وإقبال ولا تسأل غيره . فإنه - عز وجل - القادر على إنقاذك وتفريج كروبك ، فى الدنيا وتحقيق آمالك فيما عنده فى الدار الباقية .

قال ابن كثير : المعنى : إذا فرغت من أُمور الدنيا وأشغالها ، وقطعت علائقها فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة .

وقيل : فإذا فرغت من صلاتك ، فاجتهد فى الدعاء ، وأخرج ابن جرير وغيره من طرق عن ابن عباس قال : أى : إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء ، وروى نحوه عن الضحاك وقتادة ، وأخرج ابن نصر وجماعة عن مجاهد ، أى : إذا فرغت من أسباب نفسك . وفى رواية : من دنياك فصلِّ ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

سورة والتين

ويقال لها سورة التين بلا واو ، وهى مكية ، وآياتها ثمان آيات

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر سبحانه فى السورة السابقة (أَلَمْ نَشْرَحْ) حال رسول الله ﷺ وهو أكمل النوع الإنسانى بالاتفاق ، بل أكمل خلق الله على الإطلاق ، ذكر فى هذه حال النوع الإنسانى بعامة وما ينتهى إليه أمره ، وما أعده سبحانه لمن آمن منه بذلك الفرد الأكمل ، ناسب أن يقرن بينهما .

أهم مقاصدها :

ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المشرفة ، والأماكن المقدسة التى خصها سبحانه بإنزال الوحى فيها على أنبيائه ورسله وهى بيت المقدس ، وجبل الطور ، ومكة المكرمة ، أقسم بها جلَّ وعلا – على أنه كرم الإنسان ، فخلقه فى أحسن تقويم ، وأشارت إلى أنه إذا لم يشكر نعمة الله عليه رده سبحانه إلى أسفل سافلين : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ...) الآيات .

وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين بأعظم المثوبات الحسان ، جراء ماعملوا . وعقاب الكافرين المكذبين بيوم الدين بأقصى العقوبات ، (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾)

المفـردات :

(طُورِسِينِينَ) : هو جبل الطور الذى كلم الله عليه موسى – عليه السلام – وقيل : سينين وسيناء – بكسر السين وفتحها – علمان على الموضع الذى هو فيه ، ولذلك أُضيف إليهما .

(الْبَلَدِ الأَمِينِ) : مكة المكرمة .

(تَقْوِيمٍ) : أكمل تعديل ، يقال : قَوَّمَ العودَ : عدّله وجعله مستقيماً .

(غَيْرُ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع ، من المن : وهو القطع .

(بِالدِّينِ) : المراد به الجزاءُ .

التفسير

١ – (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) :

أقسم الله – تعالى – ببقاع مباركة عظيمة ظهر فيها الخير والبركة بسكنى الأنبياء والمرسلين . فأقسم بالتين . وقد اختلف المفسرون فى المراد منها على أقوال كثيرة ، فقيل :

يراد بها مسجد دمشق ، وقيل : هى نفسها ، وقيل : الجبل الذى عندها ، واختلفوا كذلك فى الزيتون . فقال كعب الأحبار ، وقتادة ، وابن زيد وغيرهم : هى مسجد بيت المقدس وقيل : بيت المقدس نفسه ، وقيل غير ذلك ؛ لأنها منابت التين والزيتون ، وعلى هذه الأقوال يكون التين والزيتون كناية عن مواضع كنى بها عن مغارسها التى تكثر فيها ، حتى يتناسب الإقسام بهما مع الإقسام بطور سينين ، وبالبلد الأمين اللتين عطفتا عليهما ، وقال قليل من المفسرين : إن الإقسام هو بالنوعين لذاتهما ، لاختصاصهما بخواص عجيبة . وفوائد عظيمة ، روى أبو ذر أنه أهدى إلى النبى ﷺ طبق من تين ، فأكل منه ، وقال لأصحابه : « كلوا ، فلو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت : هذه » إلى آخر ماروى . وأما الزيتون فهو إدام ، وله فوائد جمة ، وشجرته من الشجرة المباركة المشهود لها فى التنزيل . وعن معاذ بن جبل أنه مر بشجرة زيتون ، فأخذ منها سواكاً فاستاك به وقال : سمعت النبى ﷺ يقول : « نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة » .

ورجح الرأى الأول على الثانى حيث فقد فى الثانى التناسب الذى يقتضيه العطف إذ عُطِفَت الأماكن على الأشجار ، وهو أن المراد بهما مغارسهما — .

٢ — (وطُورِ سِينِينَ) :

هو الجبل الذى كلم الله تعالى — عليه موسى — عليه السلام — ويقال له أيضاً : طور سيناء — بفتح السين وكسرها مع المد — وهو بقرب التيه . وقيل : إن سينين وسيناء علمان على البقعة التى فيها الجبل . وعن قتادة أنه قال : سينين مبارك حسن ذو شجر . وقيل : كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء .

٣ — (وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ) :

وهو مكة المكرمة . وَأَمانَتَهَا أنها تحفظ من دخلها كما يحفظ الأمينُ ما يؤتمن عليه . ويبذل الجهد فى حفظه وصيانته . فلا يعتريه أى أذى أو عدوان .

ويجوز أن يكون الأمين بمعنى المأمون ، لأنه مأمون الغوائل فلا يصيب داخله أى ضر ولا يقع عليه أى اعتداء على نفسه أو ماله كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ »[(١)] .

ونسبة الأمين بمعنى الأمانة أو بمعنى المأمون الغوائل إلى البلد مجازية . والإتيان باسم الإشارة للتعظيم .

والغرض من القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة دينيا ودنيويًّا ، وعما ظهر فيها من خير وبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين .

وقال ابن كثير : ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محال ثلاثة بعث الله فى كل منها نبياً مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول محلة التين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى - عليه السلام - والثانى طور سينين وهو طور سيناء الذى كلم الله منه موسى بن عمران ، والثالث مكة وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمناً وهو أثر إبراهيم عليه السلام - أرسل فيه محمداً ﷺ وقد ذكر فى آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة . قالوا : « جاء الله من طور سيناء ، يعنى الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، وأشرق من ساعير . يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى ، واستعلن من جبال فاران : يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمداً ﷺ » أ هـ . ابن كثير .

٤ - (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) :

جواب القسم ، أى : لقد خلقنا جنس الإنسان - وهو شامل للمؤمن والكافر - فى أحسن ما يكون من التعديل والتقويم صورة ومعنى . حيث بَرَأَهُ - سبحانه - مستوى القامة . متناسب الأعضاء حسن الصورة . قوى الإحساس . سليم العقل ، متصفاً بالحياة والعلم . والسمع والبصر ، والإرادة والتكلم ، وغير ذلك من الصفات والعجائب التى أودعت فيه .

ويكفى فى هذا الباب - وهو القول الفصل - أن الله خلق آدم بيديه ، وأمر - سبحانه - ملائكته - عليهم السلام - بالسجود له وهم المكرمون لديه .

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ٦٧ .

٥ – (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) :

ثم للتراخي . أي : ثم كان عاقبة أمره أن جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح صورة ، وأسفل من كل سافل شكلا وتركيباً ، لعدم استقامة كل منهم على موجب ما خلقناه عليه من الصفات السوية . والصورة الحسنة التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين ، أو ثم رددناه أسفل ممن سفل من أهل الدركات ، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل ممن سفل هيئة وبنية حيث نكسناه في خلْقِه ، فقوس ظهره بعد اعتداله . وابيض شعره بعد سواده ، وكَلَّ سمعه وبصره ، وتغير كل شيء فيه ، فمشيه دليف[1] . وصوته خفات[2] . وقوته ضعف . وشهامته خرف أي : فساد عقل كما قال تعالى : « وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ »[3] وقوله تعالى : « وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. »[4] .

٦ – (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) :

أي : ثم رددنا الإنسان إلى صورة مشوهة قبيحة في النار إلا الذين آمنوا وجروا في عملهم على موجب تلك الصفات التي منحهم الله إياها ، ونشأهم عليها ، فإنهم لا يردون أسفل سافلين ولا تقبح صورهم يوم القيامة ، وإنما يكون لهم ثواب غير منقطع على طاعتهم وامتثالهم وشكرهم لله على نعمائه ، يزدادون به بهجة إلى بهجتهم ، وحسناً إلى حسنهم ، والاستثناء متصل من ضمير رددناه العائد على الإنسان ؛ فإنه في معنى الجمع .

أو المعنى : لكن الذين كانوا مؤمنين صالحين من الزمنى والهرمى ، فلهم ثواب متصل دائم ، أو غير ممنون به عليهم جزاء امتثالهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم ، ومقاساة المشاق . والقيام بالعبادة مع ضعفهم ووهنهم .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية : إذا كبر العبد وضعف عن العمل كتب له أجر ما كان يعمل في شبيبته .

---

(١) أي : يمشي مشي المقيد .
(٢) الخفات : إسرار المنطق .
(٣) سورة يس ، من الآية ٦٨ .
(٤) سورة النحل ، من الآية : ٧٠ .

٧ - (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) :

خطاب للإنسان الكافر على سبيل الالتفات لتشديد التوبيخ والتقريع ، والاستفهام إنكارى ، أى : فأى شىء يضطرك - أيها الإنسان - بعد ما بينا من الدليل القاطع . على قدرة الله عز وجل على البعث والبرهان الساطع على أنه واقع لا محالة إلى أن تكون مكذباً به فإن الله خلقك من نطفة ، وقومك على وجه يبهر الأذهان ، ويضيق عنه نطاق البيان مع تحويلك من حال إلى حال ، وذلك من أوضح الدلائل على قدرة الله - عز وجل - على البعث والجزاء .

وقيل : الخطاب لرسول الله ﷺ أى : فأى شىء ينسبك إلى الكذب بسبب إخبارك بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به ؟ ! وهذا القول اختاره ابن أبى حاتم .

٨ - (أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) :

أى : أليس الذى فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء ؟ ! وكان النبى إذا قرأ هذه الآية . قال : « بَلَى وَأَنا على ذلك من الشاهدين » ومآل الاستفهام فى قوله تعالى : (أَلَيْسَ) أن الله أعلى المدبرين حكمة ؛ ولهذا وضع الجزاء لهذا النوع الإنسانى ليحفظ لمن عمل منه واتقى منزلته من الكرامة التى أعدها له بأصل خلقته ، وهو سبحانه لا يجور ولا يظلم أحدًا لأنه أعدل العادلين وبذلك استحال عدم كونه أحكم الحاكمين ، وتعين الجزاء بعد البعث حتى ينصف المظلوم فى الدنيا من ظالمه ، وليؤتى كل ذى حق حقه ، والجملة تقرير لما قبلها .

وقيل : إن الحكم بمعنى القضاء ، فهى وعيد للكفار ، وبيان بأن الله عز وجل - يحكم على كلٍّ بما هو أهله من الجزاء ؛ لأنه - سبحانه - أحكمهم قضاءً بالحق ، وعدلا بين الخلق - والله أعلم .

ســورة العـلق

تسمى سورة (اقرأ) وهى مكية ، وآياتها تسع عشرة آية
وهى اول مانزل من القرءان

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر - سبحانه - فى سورة التين والزيتون خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، بين - عزَّ وجلَّ - هنا أنه تعالى خلقه من علق ، فكان ما تقدم كالبيان لكمال تصويره ، وهنا كالبيان للمادة التى خلق منها وذكر - سبحانه - هنا أيضاً من أحواله فى الآخرة ما هو أبسط وأكثر مما ذكره - عزَّ وجلَّ - هناك .

اهم مقاصدها :

ابتدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعليم ، وأشارت إلى بعض المراحل فى خلق الإنسان ، وبينت فضل الله على رسوله الكريم بإنزال القرآن ، وتذكيره بأول النعماء وهو يتعبد ربه بغار حراء حيث تنزل عليه الوحى بآيات الذكر الحكيم : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ...) الآيات .

ثم تحدثت عن طغيان الإنسان فى هذه الحياة مغترًّا بما أُوتى من قوة وثراء ، وعن تمرده على أوامر ربه بسبب ما أولاه ، وهددته بالعودة إلى خالقه لينال الجزاء : (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ...) الآيات .

ثم تناولت قصة أبى جهل الذى كان يتوعد الرسول وينهاه عن الصلاة انتصاراً لعبادة الأوثان : (أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ...) الآيات .

ثم أبرزت تهديد ذلك الشقى ، وزجره بأقصى العقوبات إذا استمر على بغيه وضلاله : (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ...) إلخ الآيتين .

وكان ختام السورة : الإشارة إلى عجز ذلك الشقى عن تنفيذ تهديده للرسول ﷺ بكثرة عشيرته ووفرة أنصاره حين أغلظ ﷺ له القول لردعه : (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ...) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾)

المفردات :

(بِاسْمِ رَبِّكَ) : أى ؛ سمّ باسم ربك قائلًا : باسم الله ، ثم اقرأ .

(مِنْ عَلَقٍ) : أى ؛ دم جامد ؛ جمع علقة .

التفسير

١ ، ٢ - (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) :

عن ابن عباس ومجاهد : هذه أول سورة نزلت ، والجمهور على أن الفاتحة أول سورة نزلت ، ثم سورة (نٓ)وفى شرح صحيح مسلم الصحيح أن أول ما نزل اقرأ ، أى : مطلقًا ، وأول ما نزل بعد فترة الوحى (يَٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) وجزم جابر بن زيد بأن أول ما نزل (اقْرَأْ) ثم (نٓ) ثم (يَٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) ثم (يَٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) ثم (الفاتحة) وقيل : أول ما نزل صدرها إلى قوله تعالى : (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) وكان ذلك فى غار حراء . ثم نزل آخرها حين شاء الله تعالى ، وهو ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد والشيخان وعبد بن حميد وعبد الرزّاق وغيرهم عن طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة فى حديث بدء الوحى ، وفيه : أنّ النبى ﷺ أول ما تمثل له الملك الذى يتلقى عنه الوحى ، وهو يتحنث فى غار حراء ، فى شهر رمضان ، قال له الملك : اقرأ ، قال رسول الله : فقلت : ما أنا بقارىء

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارى ، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، فقال : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » حتى بلغ « عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » فرجع بها رسول الله ترتجف بوادره[1] حتى دخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال : « ياخديجة مالى » ؟! وأخبرها الخبر . وتمام الكلام فى هذا المقام يطلب من محله .

والمعنى : اقرأ ما يوحى إليك من القرآن الكريم ، فإن الأمر بالقراءة يقتضى مقروءًا قطعًا ، أى : اقرأه ملتبسًا باسم ربك ، أعنى مبتدئًا به ، لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء ، كأنه قيل : سمّ باسم ربك ثم اقرأ ، وهو ظاهر فى أنه لو افتتح بغير اسمه - عز وجل - لم يكن ممتثلًا ، وهذا أول خطاب إلٰهى وجه إلى النبى ﷺ . قال الآلوسى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره - عليه السلام - للإشعار بتبليغه - عليه الصلاة والسلام - إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحى المتواتر . اهـ .

ووصف الرب بقوله تعالى : (الَّذِى خَلَقَ) لتذكير رسوله ﷺ أول النعماء الفائضة عليه ، - صلوات الله وسلامه عليه - منه تعالى - وهى الخلق - مع ما فى ذلك من التنبيه على أنه تعالى قادر على تعليم القراءة بألطف وجه ، إذ القادر على الخلق والإيجاد لا يعجزه قطعًا تعليم القراءة .

وقيل : أريد بوصف الرب بالذى خلق فى قوله : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) تأكيد عدم إرادة غيره تعالى من الأرباب ، فإن العرب كانت تسمى الأصنام أربابًا لكنهم لا ينسبون الخلق إليها.

ولم يذكر مفعول خلق ، لأنه فى معنى فِعْل لازم ، أى : الذى حصل منه الخلق ، واستأثر به ، أو أنه لم يذكر لأنه أريد تقديره بأمر عام ، كأن يقال : الذى خلق كل شىء ، فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق ، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) .

---

(١) البادرة من الإنسان : لحمتان فوق عرق فى الثدى ، أو عصبة تحته ، والجمع : بوادر .

تخصيص الإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لشرفه ، وفيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه ، مع أن الله قد خص الإنسان بالرسالة إلى الثقلين ، وعن الزمخشرى : أن المناسب أن يراد خلق الإنسان بعد الأمر بقراءة القرآن تنبيهًا على أن الله خلقه للقراءة ، والدراية ، وعلى هذا يكون عدم ذكره فى الجملة الأولى ، وذكره فى الثانية قصدًا لتفخيمه بالإبهام ثم التفسير ، ودلالة على عجيب فطرته ، وكان خلقه من دم جامد ، لبيان كمال قدرته تعالى ؛ بإظهار ما بين حالتيه الأولى والآخرة من التباين البيِّن ، وللتنبيه على أن الذى خلقه من هذه المادة ثم سواه بشرًا سويًا فى أحسن تقويم ، قادر على كل شىء ، ولما كان الإنسان مرادًا به الجمع قيل : « علق » ولم يقل : من علقة .

٣ ـ ٥ ـ (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *) :

أى : امض لما أمرتك به من القراءة (وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) استئناف وارد لإزاحة ما أبداه ﷺ من العذر بقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لجبريل ـ عليه السلام ـ : ما أنا بقارئ ، حين قال له : اقرأ . يريد ﷺ أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ ، وأنا أمىّ ، فقيل له : وربك العظيم الكريم الذى أمرك بالقراءة ، لا يدانيه كريم .

(الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) أى : علَّم ـ سبحانه ـ وحده بواسطة الكتابة بالقلم وليس ذلك لغيره ، علَّمه ، وكما عَلَّم ـ سبحانه ـ القارى بواسطة الكتابة بالقلم يُعلِّمك القراءة بدونها وإن كنت أُميًا ، وحقيقة الكرم كما قيل : إعطاء ما ينبغى لا لغرض ، فهو صفة لا يشاركه ـ تعالى ـ فى إطلاقها أحد .

(عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) أى : علمه بالقلم وبدونه من الأُمور الكلية والجزئية ، والجلية ، والخفية ما لم يخطر بباله ، فدل على كمال كرمه ـ تعالى ـ حيث علم ـ سبحانه ـ عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، قال القرطبى : نبه ـ سبحانه ـ على فضل علم الكتابة لما فيه من الفوائد العظيمة التى لا يحيط بها إنسان ، وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلّا بالكتابة ، ولولاها ما استقامت أُمور الدين والدنيا وهذه الآيات الخمس أول ما تنزل من القرآن كما ثبت فى الصحاح ، وقد فصل ذلك أول السورة .

(كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩)

المفردات :

(لَيَطْغَىٰٓ) : ليتجاوز الحد فى المعصية وفى الاستكبار على ربه .

(الرُّجْعَىٰٓ) مصدر بمعنى الرجوع ، أى : إلى ربك رجوع هذا الطاغى .

(وَتَوَلَّىٰٓ) : أعرض عن الإيمان .

(لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) أى : لنأخذن بناصيته ، ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع : القبض على الشىء وجذبه بشدة . والناصية : شعر مقدم الرأس .

(نَادِيَهُ) أى : أهله وعشيرته ، والنادى والنَّدِى : المجلس الذى يجتمعون فيه ، والإسناد مجازى .

(الزَّبَانِيَةَ) : مأخوذ من الزبن ، وهو الدفع ، ويراد الملائكة الشداد الغلاظ .

التفسـير

٦ – ٨ – (كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰٓ) :

روى أن هذه الآيات وما بعدها إلى آخر السورة نزلت فى أبى جهل بعد زمن من نزول ماقبلها ، وكان طاغيًا متكبرًا فخورًا بكثرة ماله ، مبالغًا فى عداوة رسول الله ﷺ وفى الحديث الصحيح : أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن أتى محمدًا ﷺ يصلى ، ليطأن على رقبته ، وليعفرن وجهه . فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليفعل ، فما فاجأهم منه إلّا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيديه ، فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقًا من نار ، وهولًا ، وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا ، والآيات وإن نزلت فى أبى جهل إلّا أن الحكم عام فى كل طاغ متكبر ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والمعنى : ابتدأت الآيات بكلمة « كَلَّا » ردعًا وزجرًا لهذا الإنسان الذى كفر نعمة ربه بطغيانه واستكباره ، ووُجِّه إليه الردع وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه ، حيث إن الآيات من مفتتح السورة إلى هذا المقطع تدل على أن الله تفضل على الإنسان بأعظم المنن التى كرمه بها ، فكان بشرًا سويًا ، وذلك يستدعى الشكر والعرفان ، لكنه كما قال سبحانه : (إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ) أى : ليتجاوز الحد فى الطغيان والاستكبار على عبادة الله ، واتباع هوى النفس فيا يفعل وما يدع (أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ) أى : بالغ فى الطغيان لأنه رأى نفسه ذا مال وثروة ، وبطش وقوة (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰٓ) تهديد لهذا الإنسان الطاغى ، وتحذير له من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات ؛ للتشديد فى العقوبة ، أى : إلى ربك وحده أيها الإنسان ، لا إلى غيره – استقلالًا أم اشتراكًا – المرجع والمصير بالموت والبعث ، فيجازيك على أعمالك التى اقترفتها بما تستحق من تعذيب وتنكيل .

٩ ، ١٠ – (أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ) :

ذكر لبعض آثار الطغيان ، ووعيد عليها ، وتعجيب منها ؛ للإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بمكان بحيث يجب أن يراها كل من تتأتى منه الرؤية ، ويقضى منها العجب العجاب

ولا خلاف بين المفسرين كما قال ابن عطية فى أن المصلى هو رسول الله ﷺ والناهى هو أبو جهل .

والإتيان بلفظ (العبد) منكرًا لتفخيمه - عليه الصلاة والسلام - واستعظام النهى ، وتأكيد التعجيب منه ، وكلمة (أرأيت) صارت تستعمل فى معنى (أخبرنى) على أنها لا يقصد بها فى مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقى ، ولكن يقصد بها إنكار الحالة المستخبر عنها وتقبيحها .

ولَمَّا كانت الرؤية سببًا للإخبار عن المرئى ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار .

١١ - ١٤ - (أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) :

أى : أخبرنى يامن له أدنى تمييز عن هذا الذى ينهى بعض عباد الله فضلًا عن النبى المجتبى ، ينهاه عن الصلاة ، إن كان على طريقة سوية فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ) أو كان آمرًا بالمعروف والتقوى فيما يدعو إليه من عبادة الأصنام كما يزعم ، أو كان على التكذيب للحق ، والتولى عن الدين الصحيح .

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) أى : ألم يعلم هذا الطاغى الفاجر بأنَّ الله يراه ؟! أى : يطلع على أحواله من هداه وضلاله ، فيجازيه على حسب ذلك ، ألم يعلم ذلك حتى اجترأ على ما فعل من إفك وطغيان ، وهذا وعيد له ، وتهديد على ما وقع منه .

وقيل : المعنى : أخبرنى إن كان هذا العبد المصلى وهو النبى ﷺ الذى تنهاه عن الصلاة صالحًا مهتديًا فى قوله وفعله (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ) أى : أو كان آمرًا بالإخلاص والتوحيد ، داعيًا إلى الهدى والرشاد ، كيف تزجره وتنهاه ، فما أبلهك أيها الغبى الذى تنهى مَنْ هذه أوصافه عن الصلاة ، ثم عاد الخطاب إلى الرسول ﷺ فقال : (أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) أى : أخبرنى يا محمد إن كذب بالقرآن ، وأعرض عن الإيمان .

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) أى : ألم يعلم ذلك الشقى أن الله مطلع على أحواله ، مراقب لأفعاله ، وسيجازيه - سبحانه - عليها يوم الدين ، ويله ما أجهله وأغباه .

١٥ ، ١٦ - (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) :

بدئت الآية بكلمة « كَلَّا » لوعيد ذلك الناهى - وهو أبو جهل - وزجره حيث إنه سبحانه له بالمرصاد ، كما قال تعالى : (لَئِن لَّمْ يَنتَهِ) أى : والله لئن لم ينته عمَّا هو عليه بتركه والابتعاد عنه (لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) أى : لنأخذن بناصيته ولنسحبَنَّهُ بها إلى النار ، لنذلنه بذلك الإذلال الشديد . يقال : سفعت بالشىء : إذا قبضت عليه وجذبته بشدة ، والمراد بالناصية : شعر مقدم الرأس ، وقيل : المراد : لنسحبنه على وجهه فى الدنيا يوم بدر ، وفيه بشارة بأنه تعالى يمكّن المسلمين من ناصيته حتى يجروه إن لم ينته ، وقد فعل - عز وجل

(نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) بدل من الناصية ، أى : هى ناصية وصفت بالكذب وبتعمد الخطإ على الإسناد المجازى ، وهما لصاحبها حقيقة ، وذلك يفيد المبالغة ، حيث يدل على وصفه بذلك بطريق الأولى ، ويفيد أنه لشدة كذبه وخطئه ، كأنَّ كل جزء من أجزائه يكذب ويخطى ، وفى هذا الإسناد من الحسن والجزالة ما ليس فى قولك : ناصيةُ كاذبٍ خاطىء .

١٧ ، ١٨ - (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) :

هذا إشارة إلى ما صح من أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلّى فقال : ألم أنهك ، فأغلظ - عليه الصلاة والسلام - له . فقال : أتهددنى ، وأنا أكثر أهل الوادى ناديًا ، فنزل (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) فالأمر للتعجيز ، إشارة إلى أنه لا يقدر على ذلك ، ولا يستطيعه ، أى : فليدع أهله وعشيرته لنصرته فى إيذاء الرسول ﷺ ومنعه من الصلاة فى المسجد إن قدروا على ذلك ، والنادى وكذلك الندىّ : المكان الذى ينتدى فيه القوم ، أى يجتمعون للحديث ، والإسناد مجازى (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) أى : ملائكة العذاب ، وهم غلاظ شداد ، ليجروه إلى النار ، ويلقوه فيها ، والزبانية فى الأصل عند العرب : الشُّرَط ، واحدها : شَرْطى ،

وهم أعوان الأمير من الزبن وهو الدفع ، وسميت ملائكة العذاب بذلك لدفعهم من يعذبونه إلى النار .

قال ابن عباس : لو دعا ناديه ، لأخذته ملائكة العذاب من ساعته .

١٩ - (كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) :

« كَلَّا » ردع لذلك اللَّعين بعد ردع ، وزجر له إثر زجر (لا تُطِعْهُ) فيما دعاك إليه من ترك العبادة ، ودُمْ على ما أنت عليه من معاصاته والإعراض عنه (وَاسجُدْ وَاقْتَرِبْ) أي : وصل لله تعالى ، وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث بما صدر عنه من تهديد ووعِيد ، وتقرب إلى ربك بطاعته ، والامتثال إلى أمره ونهيه ، وفي الحديث الذي خرجه مسلم وغيره ما يشير إلى فضل السجود إذ يقول ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » والله أعلم .

سـورة القـدر

وهى مكية ، وآياتها خمس آيات
وسميت بذلك لتكرار ذكر ليلة القدر فيها ، وعظم شرفها

مناسبتها لما قبلها :

لَمَّا كانت كالتعليل للأمر بقراءة القرآن فى بدء السورة السابقة (العلق) . كأنه قيل : اقرأ القرآن لأن قدره عظيم ، وشأنه فخم ، لذلك ذكرت هذه عقب تلك .

أهم مقاصدها :

١ ـ تحدثت عن بدء نزول القرآن ، وأنه كان فى ليلة القدر :
(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ) .

٢ ـ أبرزت الشرف العظيم لتلك الليلة على العدد الكثير من الأيام والليالى لما فيها ، من الأنوار والنفحات الربانية : (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) .

٣ ـ أكدت علوّ قدر هذه الليلة . بتنزل الملائكة المقربين من عند الرحمٰن من أجل كل أمر قدره الله لتلك السنة إلى قابل : (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ) .

٤ ـ أشارت فى ختامها إلى أن سلام الملائكة على أهل الإيمان مستمر إلى طلوع الفجر :
(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾)

المفردات :

(فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ) أى : ليلة تقدير الأمور وقضائها ، والقدر : بمعنى التقدير ، وهى بذلك تشرف وتفضل سائر الليالى .

(وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) أى : لم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها العظيم .

(وَالرُّوحُ فِيهَا) أى : جبريل – عليه السلام – أو خلق من خلق الله لم يُر مثلهم .

(سَلَامٌ هِىَ) أى : أنها سلام من كل أمر مخوف إلى مطلع الفجر . أو تسليم من الملائكة على المؤمنين إلى تلك الغاية .

التفسير

١ – (إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ) :

يخبر الله تعالى بأنه – سبحانه – عظم القرآن الكريم بإسناد إنزاله إليه – جل شأنه – لا إلى غيره ، أنزله – سبحانه – فى ليلة مباركة كما قال تعالى : « إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ »[1] وهى ليلة القدر التى جعلها الله من ليالى شهر رمضان ، كما قال سبحانه : « شَهْرُ

(١) سورة الدخان ، الآية : ٢

رَمَضَانَ الَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »[١] وفى إسناد إنزاله إليه – سبحانه – مرتين فى قوله : (إنا) وقوله : (أنزلناه) مع تأكيد الجملة فى الآية الكريمة مزيد من التعظيم والتفخيم مع إفادة اختصاص الإنزال به تعالى كما قال الزمخشرى .

وفى التعبير عن القرآن بضمير الغائب فى « أَنزَلْنَاهُ » مع عدم تقدم ذكره تعظيم له أى تعظيم ؛ لما أنه يُشعر بأنه لعلو شأنه كأنه حاضر عند كل أحد ، والمراد : ابتدأنا فى تلك الليلة إنزاله على محمد ﷺ .

٢ – (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) :

تعظيم لليلة القدر التى خصها – تعالى – بإنزال القرآن ، أى : ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ؛ لأن علوها خارج عن دائرة دراية الخلق ، لا يَعْلَم ذلك ، ولا يُعْلِمُ به إلَّا علَّام الغيوب ، كما يشعر به قوله تعالى :

٣ – (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) :

بيان إجمالى لشأنها إثر تشويقه – عليه الصلاة والسلام – إلى درايتها بقوله : (وَمَآ أَدْرَاكَ) فإن ذلك معرب بالوعد بإدراكها وإعلام الله له ﷺ بها .

وقد روى عن سفيان بن عيينة أمر أن كل ما فى القرآن من قوله تعالى : (وَمَآ أَدْرَاكَ) أعلم به الله تعالى نبيه ﷺ وما فيه من قوله – سبحانه – : (وَمَا يُدْرِيكَ) لم يعلمه – عز وجل – به أى : هى خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وسبب ارتقائها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من إنزال القرآن ، وتنزل الملائكة والروح فيها ، وفصل كل أمر حكيم ، ولذلك فإن العبادة فيها أكثر ثوابًا ، وأعظم فضلًا من العبادة فى أشهر كثيرة ليس فيها ليلة القدر ، والعمل القليل قد يفضل الكثير باعتبار الزمان والمكان ، وكيفية الأداء ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو الصواب كما يقول ابن كثير .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٥ .

وذكر فى تخصيص خيريتها على هذه المدة أن النبى ﷺ ذكر رجلًا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فعجب المسلمون من ذلك ، وتقاصرت إليهم أعمالهم. فأُعطوا ليلة هى خير من مدة ذلك الغازى . وقد روى ذلك عن مجاهد . وقيل : المراد من الألف التكثير كما فى قوله تعالى : « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ »[1] .

وقد نزل القرآن – كما روى عن ابن عباس– جملة واحدة من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا . ثم نزل به جبريل مفصلًا حسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم بما روى عن ابن عباس . بل حكى بعضهم الإجماع عليه ، نعم لا يبعده القول بأَن السفرة هناك نجموه لجبريل – عليه السلام – وكان ينزل به على النبى ﷺ نجومًا فى ثلاث وعشرين سنة ، وفى رواية أُخرى عن ابن عباس : أنه أُنزل فى ليلة القدر جملة واحدة من السماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى إثر بعض . ومعنى إنزال القرآن من اللوح المحفوظ : إظهاره من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، أَو إثباته لدى السفرة هناك أَو نحو ذلك .

واختلف فى الوقت الذى تلتمس فيه ليلة القدر . فقيل : إنها فى العشر الأَواخر من رمضان ، وقيل : إنها ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن أُبى بن كعب عن رسول الله ﷺ إنها ليلة سبع وعشرين ، وقيل : إنها ليلة ثلاث وعشرين وقيل : إنها ليلة أَربع وعشرين. والأَقوال فيها مختلفة جدًا ،إلا أن الأَكثرين على أَنها فى العشر الأَواخر لكثرة الأَحاديث الصحيحة فى ذلك . وأَكثرهم على أَنها فى أَوتارها وكثير إلى أَنها الليلة السابعة والعشرون .

والحكمة فى إخفائها أَن يجتهد من يطلبها فى العبادة فى غيرها ليصادفها ، فيحيى ليالى شهر رمضان كلها كما كان دأب السلف .

روى البخارى فى صحيحه عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر . فتلاحى رجلان فرفعت أَى : رفع تعيينها – وعسى أَن يكون خيرًا لكم .

---

(١) البقرة ، من الآية : ٩٦ .

٤ ــ ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ :

استئناف مبين لمناط خيريتها على تلك المدة المتطاولة المقدرة بألف شهر ، أى : تتنزل فيها الملائكة من كل سماء إلى الأرض ، أو إلى السماء الدنيا ، مع البركة والرحمة . وينزل معها الروح وهو جبريل ــ عليه السلام ــ كما قال الجمهور ، وخص بالذكر لزيادة شرفه ، وعلو قدره فضلا على أنه النازل بالذكر ، وقيل : الروح ــ كما قال كعب ومقاتل ــ : طائفة من الملائكة . لاترى إلا فى تلك الليلة . وقيل : حفظة على الملائكة كالحفظة علينا ، وقيل : المراد به الرحمة كما قرئ ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِن رُّوحِ اللَّهِ ﴾ بالضم .

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أى : ملتبسين بإذن ربهم ، أى : بأمره . والتقييد بذلك لتعظيم أمر تنزلهم من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل ، وأظهره ــ سبحانه وتعالى ــ لملائكته ، وقيل : تقييد التنزيل بالإذن للإشارة إلى أنهم يرغبون فى أهل الأرض من المؤمنين ويشتاقون إليهم ، فيستأذنون فيؤذن لهم ، وفى ذلك حث للمؤمنين على العمل ، وترغيب لهم فى الطاعة للحظوة بهذا اللقاء الكريم .

٥ ــ ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ :

أى : ماليلة القدر إلا سلامة وخير كلها ، لا شر فيها ، قال الضحاك فى معنى ذلك إنه لايقدر الله فى تلك الليلة إلا السلامة وفى سائر الليالى يقضى بالبلايا والسلامة .

وقال مجاهد : إنها سالمة من الشيطان وأذاه ، أو أن المراد كونها سبباً تاماً للسلامة والنجاة من المهالك يوم القيامة ، كما ورد أن من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

وقيل المعنى : ماهى إلا سلام ، أى : تسليم ، وذلك لكثرة التسليم والمسلمين من الملائكة على المؤمنين ، فلا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه ، روى عن الشعبى ومنصور ، وتستمر السلامة فيها من المهالك ، ووسوسة الشيطان ، وتسليم الملائكة على المؤمنين القائمين فيها إلى غاية هى وقت طلوع الفجر أى : هى ليلة كلها سلام وأمن وكلها خير وبركة من مبدئها إلى نهايتها . أو أن تنزل الملائكة فوجاً بعد فوج يتتابع إلى طلوع الفجر . .

سورة البينة

وتسمى سورة القيامة ، وسورة لم يكن ، وسورة البرية
وهى مدنية ، وآياتها ثمان

مناسبتها لما قبلها :

هى أن قوله تعالى : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ ..) إلخ .. كان كالتعليل لإنزال القرآن ، كأنه قيل : إنا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفاً مطهرة ؛ لذلك وقعت تالية للسورة السابقة .

اهم مقاصد السورة :

١ – بينت تمرد أهل الكتاب – اليهود والنصارى – على دعوة رسول الله ﷺ بعد أن ظهر لهم الحق ، وسطعت أنواره بما عرفوا من الأوصاف المذكورة فى كتبهم للنبى المبعوث آخر الزمان وكانوا ينتظرون بعثته ، فلما بُعث كفروا وعاندوا : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ...) الآيات .

٢ – تحدث عن أهم عناصر الإيمان التى أمروا بها ، وهى إخلاص العبادة لله العلى الكبير ، والتوجه إليه سبحانه فى جميع الأقوال والأفعال مائلين عن كل دين يخالف دين التوحيد : (وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ..) الآية .

٣ – أبرزت بيان ما ينتظر شر البرية من كفرة أهل الكتاب والمشركين فى الآخرة من عذاب أليم ، وخلود فى نار الجحيم : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ...) الآية .

٤ – وختمت بالإشادة بخير البرية . أهل المنازل العالية الذين أطاعوا الله حق طاعته ، وتحدثت عن جزائهم فى الآخرة لقاء اتصافهم بخشية ربهم وحسن مراقبته : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ...) الآيات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾)

المفردات :

(أَهْلِ الْكِتَابِ) : اليهود والنصارى .

(وَالْمُشْرِكِينَ) وعبدة الأصنام والنيران من العرب والعجم .

(مُنفَكِّينَ) أى : لم يكونوا منتهين ولا مفارقين لما كانوا عليه .

(الْبَيِّنَةُ) : الحجة الواضحة .

(يَتْلُواْ) يقرأ عليهم من حفظه (صُحُفاً مُّطَهَّرَةً) أى : صحفاً من القرآن منزهة عن الباطل والشبهات .

(فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) أى : فى الصحف أحكام لاعوج فيها تبين الحق من الباطل .

(حُنَفَاء) : مائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق

(دِينُ الْقَيِّمَةِ) أى : دين الملة المستقيمة .

١ - ٣ - (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُوا۟ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) .

أى : لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ من أهل الكتاب - اليهود والنصارى والمشركين وهم عبدة الأصنام والنيران من مشركى العرب والعجم ، لم يكونوا منتهين ولا مفارقين ماعاهدوا الله عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث فى آخر الزمان ، والعزم على إنجاز هذا الوعد (حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) أى : إلى أن تأتيهم الحجة الواضحة ، والمراد بها محمد ﷺ أى : إنهم جعلوا إتيان البينة ميقاتاً لتنفيذ وعدهم بالإيمان بالنبى الذى تحدثت عن بعثته كتبهم ، وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا به إذا بعث فيهم مؤيدًا بالقرآن ، ولكنهم افترقوا فى أمره ، وجعلوا إتيانه ميقاتاً للانفكاك والاقتران واختلاف الوعد . فآمن بعضهم بنبوته وأنكرها بعضهم بغياً وحسدًا .

وكان أهل الكتاب يستفتحون على المشركين ، ويقولون : اللهم افتح علينا ، وانصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ، وذلك لما يجدونه فى التوراة والإنجيل من نعوته وأمارات بعثه ، وكان المشركون يسمعون ذلك منهم فاعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصر الله لهم على أعدائهم ، وكانوا يسألون اليهود عن رسول الله ﷺ وهل هو النبى المذكور فى كتبهم ، وإيراد الصلة فعلا فى قوله تعالى « الَّذِينَ كَفَرُوا۟ » للإشارة إلى أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم بإلحادهم فى صفات الله عز وجل (رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُوا۟ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً) بيان للبينة ، وأن المراد منها محمد ﷺ وتنوينه للإيذان بغاية ظهور أمره ، وأنه حقيق بالتفخيم والتعظيم ، وفى وصفه بأنه (من الله) تأكيد لما أفاده التنوين فى (رسول) من الفخامة الذاتية وذلك بالفخامة الإضافية إلى الله تعالى ، أى : رسول وأى رسول كائن من الله تعالى يتلو عليهم صفحا من القرآن مما حفظه عند التلقى من جبريل - عليه السلام - منزهة عن الباطل ، أو المراد بتطهيرها : تطهير من يمسها كأنه قيل : « لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ »[١] .

---

(١) سورة الواقعة ، آية : ٧٩ .

(فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) أى : وفى تلك الصحف أحكام مكتوبة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل وقيل : المراد بالكتب التى فيها ، هى كُتُب الأنبياء السابقين ، لأن القرآن مصدق لها . فكأنها فيه لاسيما وأنه قد جمع ثمرتها .

٤ - (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) :

هذا ظاهر فى أن كفرهم قد زاد ، فمنهم من أنكر نبوته ﷺ ظلماً وحسدًا ، ومنهم من آمن وأطاع . قال جار الله : كان الكفار من الفريقين يقولون قبل البعث : لا ننفك عما نحن فيه من ديننا حتى يبعث اللهُ النبي الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والإنجيل ، وهو محمد ﷺ أى : إنهم كانوا يعدون باتفاق الكلمة ، والاجتماع على الحق إذا جاءهم ﷺ ثم ما فرقهم عن الحق ، وأقر بعضهم على الكفر إلا مجيؤه ، والآية كلام مسوق لمزيد التشنيع على أهل الكتاب خاصة ، وتغليظ جناياتهم ببيان أن ما نسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه ما فى الأمر ؛ بل كان بعد وضوح الحق ، وانقطاع الأعذار بالكلية ، وهو السر فى وصفهم بإيتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكنهم منه بمطالعته والإحاطة بكل ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها نعوت النبى ﷺ وذلك كقوله تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ »(١) .

وإنما أفرد هنا أهل الكتاب ، بعد ما جمع بينهم وبين المشركين أولا ، وإن كان التفرق من الفريقين ، لأن أهل الكتاب كانوا على علم بأمر بعثة الرسول ﷺ لوجوده فى كتبهم فإذا وصف بالتفرق من له كتاب كان من لا كتاب له أدخل فى الوصف بذلك وقد اختلف أهل الكتاب اختلافاً كثيرًا ، كما جاء فى الحديث المروى من طرق عن أبى داود وابن ماجه ومسند أحمد عن أبى هريرة الذى يقول فيه : « إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً » إلى آخر الحديث.

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٠٥ .

(إِلَّا مِن بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) أى : : وما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما تبينوا الحجة الواضحة الدالة على أن رسول الله ﷺ هو الموعود به فى كتبهم دلالة جلية لاشك فيها .

وحاصل المعنى مختصرا : أن أهل الكتاب والمشركين ظلوا مستمسكين بما وعدوا به ، وتعاهدوا عليه من الإيمان بالنبى الموعود به فى التوراة والإنجيل لغاية هى بعثته ﷺ التى جعلوها ميقاتاً للإيمان به ، واتباع النورالذىأنزل معه تنفيذًا لما وعدوا به ، وتعاهدوا عليه ، وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا به بعد بعثه ، وينصروه نصرًا مؤزرًا ، ولكنهم تفرقوا واختلفوا فمنهم من آمن بنبوته ﷺ وهدى إلى صرط مستقيم ، منهم من أعرض وجحد وأنكرها طغياناً وحسدًا .

٥ - (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) :

إشارة لغاية قبح ما فعل اليهود والنصارى من تفرق فى الإقرار بنبوة محمد ﷺ مع أنهم ما كلفوا بما كلفوا به فى كتابهم لشىء من الأشياء إلا بأن يعبدوا الله ، فتكون عبادة الله هى المأمور بها فحسب (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أى : جاعلين دينهم خالصاً له تعالى ،منزهاً عن الشرك والنفاق (حُنَفَاءَ) : مائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، مؤمنين بالرسل جميعاً ، إذ كانت ملتهم - عليهم السلام - هى التوحيد ، وهى الملة الحنيفية الحقة .

(وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) كما أمروا بالصلاة والزكاة فى شريعتهم ، وعليه فالأمر بهما ظاهر ، وإن أريد ماف شريعتنا فمعنى أمرهم بها فى كتابهم : أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التى هما من جملتها .

(وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) إشارة إلى ما ذكر من عبادة الله بالإخلاص له ، وإقامة الشرائع

التى أمروا بها ، والميل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق مع الإيمان بجميع الرسل ، أى : ذلك هو دين الملة المستقيمة ، أو ذلك هو دين الحجج المستقيمة ، أو دين الكتب التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، التى بعث بها - سبحانه - رسله .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾)

المفـردات :

(كَفَرُواْ) الكافر : هو من أعرض عن دين محمد ﷺ فلم يؤمن به .

(وَالْمُشْرِكِينَ) : هم الذين أشركوا مع الله غيره فى العبادة .

(الْبَرِيَّةِ) : الخليقة ، من براه الله يبروه : خلقه ، والمعنى لا يختلف عما فى قراءة من قرأ بالهمز (البَرِيئَةِ) .

(عَدْنٍ) أى : إقامة .

(وَرَضُواْ عَنْهُ) : فرحوا بما أعطاهم .

التفسـير

٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) :

بيان لحال الفريقين - أهل الكتاب والمشركين - فى الآخرة إثر بيان حالهم فى الدنيا .

أى : إنهم فى الآخرة فى جهنم ، بمعنى : يصيرون إليها يوم القيامة ، أو إنهم فيها الآن على معنى أن ملابستهم لما يوجبها منزل منزلة ملابستهم لها أو يعذبون فى قبورهم (خَالِدِينَ فِيهَا) أى : إن عذابهم فيها لا ينقطع ، وسيبقى أبدَ الآبدين ، واشتراك الفريقين فى الخلود لا ينافى تفاوت عذابهم فى الكيفية ، فإن جهنم دركات وعذابها ألوان ، فيُعذب أهل الكتاب بنوع من العذاب فى درك منها ، ويُعذب المشركون فى درك أسفل منه بعذاب أشد ، لأن الشرك ظلم عظيم ، وقد استدل بالآية على خلود الكفار مطلقاً فى النار .

(أُولَـٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) :أشير إليهم باعتبار اتصافهم بما اقترفوه من القبائح المذكورة فهم بذلك شر الخليقة ، والمراد أنهم شر الناس أعمالا لكفرهم مع علمهم بصحة رسالته ﷺ ومشاهدتهم لمعجزاته الذاتية والخارجية ، ولما أقدموا عليه من تحريف الكلم عن مواضعه ، وصد الناس عنه ﷺ ومحاربتهم له . فتكون الجملة فى حيز التعليل لخلودهم فى النار .

٧ ــ ٨ ــ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) :

بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكافرين وفق المتبع فى السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب ، أى : إن الذين آمنوا إيماناً يقينياً ، قارن فيه التصديق القلبى العمل الصالح بالجوارح (أُولَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) أى : هؤلاء المؤمنون المنعوتون ببلوغ الغاية من الشرف والفضيلة فى الإيمان والطاعة هم خير الناس ثواباً حيث يكون (جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) أى : إن جزاءهم فى الآخرة بمقابلة مالهم من الإيمان الصادق ، والعمل الطيب جنات إقامة تجرى من تحت أشجارها الملتفة ، وأغصانها المتشابكة ، وبين قصورها العالية أنهار صافية رقراقة لزيادة المتعة ، وكمال النعيم ، يتمتعون فيها بفنون النعم الجسمانية والروحانية ، لايموتون ولا يخرجون منها ، فهم فى نعيم دائم لاينقطع ، والتعرض فى قوله ــ سبحانه ــ : (جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ) لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والبلوغ بهم إلى الكمال مع الإضافة

إلى ضميرهم ، وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة إلى عدن ، وتأبيد الخلود فيه من الدلالة الواضحة على حسن حالهم وعلو منزلتهم مالايخفى .

(رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ) استئناف بيانى وقع جواباً لمن يقول : هل لهم بعد ذلك جزاء ، فأجيب بالجملة السابقة ، أى : رضى الله عنهم بقبول أعمالهم ومكافأتهم عليها .

(وَرَضُواْ عَنْهُ) أى : فرحوا بما أعطاهم من الكرامة والنعيم الدائم ، حيث بلغوا من المطالب قاصيها ، وملكوا من المآرب ناصيتها ، وأتيح لهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) أى : ما ذكر من الجزاء ، والإنعام لمن اتصف بخشية الله ، وحسن مراقبته ، فإن الخشية التى هى من خصائص العلماء بشئون الله - عز وجل - مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية ، ولولاها لم تترك المناهى والمعاصى ، ولما كان الاستعداد ليوم يؤخذ فيه بالنواصى والأقدام .

وفى ذلك إشارة إلى أن مجرد الإيمان والعمل الصالح ليس موصلا إلى أقصى المراتب ، بل الموصل إلى ذلك خشية الله عز وجل : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »(١) .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٢٨ .

سورة الزلزلة

هذه السورة مدنية ، وعدد آياتها ثمان آيات ، وسميت بذلك لافتتاحها بها

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر – سبحانه – فى السورة السابقة جزاء الفريقين – المؤمنين خير البرية ، والكافرين شر البرية . كان ذلك كالمحرك عن السؤال عن وقت ذلك الجزاء ، فبينه – عز وجل – فى هذه السورة .

اهم مقاصدها :

تحدثت عن أحوال القيامة ، وأهوالها الشديدة بذكر الزلزال الشديد الذى يقع ، بين يدى الساعة ، فيحصل بسببه أمور عجيبة ، يندهش لها الإنسان بما يرى من انهيار كل راسخ * وزوال كل شامخ ، وإخراج الأرض لما فيها من موتى ، وإلقاء ما فى بطنها من كنوز ودقائق ، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها فتقول له : عملت يوم كذا كذا وذلك بإيحاء ربك لها : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ...) الآيات .

كما تحدثت أيضاً عن خروج النّاس من قبورهم وانصرافهم إلى موقف الحساب ، ليروا جزاء الطاعة ، وعقوبة المعصية اللتين قدرتا التقدير العادل ، وضبطتا الضبط الدقيق ، ليتبينوا مصيرهم ، هل هو إلى الجنة أو إلى السعير ؟ جزاء وفاقا لما عملوا : (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ....) الآيات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨)

المفـــردات :

(زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) : أى : حركت تحريكاً عنيفا بالغ الغاية فى الشدة .

(أَثْقَالَهَا) أى : كنوزها وموتاها وكل مافى بطنها ، جمع ثِقْل – بكسر وإسكان – وهو الحمل الثقيل : وقيل : جمع ثقل – بالتحريك – وهو كل نفيس مصون .

(يَصْدُرُ) ينصرف ، يقال : صدر الناس عن الورد ، أى : انصرفوا عنه .

(أَشْتَاتاً) متفرقين ، جمع شتيت ، أى : متفرق .

(مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) أى : مقدار وزن نملة صغيرة ، أو مقدار وزن ذرة مما يرى فى شعاع الشمس الداخل من الكوة ، وهو الهباء .

التفسير

١ - ٣ - (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا) :

أى : إذا حركت الأرض تحريكاً عنيفاً ليس له ما يشبهه أو يدانيه فى الهول والشدة ، إذ هو مخصوص بها حسبما تقتضيه المشيئة الإلهية المنبئة على الحكم البالغة .

أو المعنى : إذا حركت تحريكاً عجيباً لا يقادر قدره ، ولا يستبان كنهه . وذلك عند نفخة البعث ؛ لقوله تعالى : (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) أى : لفظت بسبب الزلزال كنوزها وموتاها أحياء للحساب والجزاء . روى ذلك عن النقاش ، والزجاج ، ومنذر بن سعيد ، واقتصر بعضهم على تفسير الأثقال بالكنوز وقال : تخرج الأرض كنوزها يوم القيامة ليراها أهل الموقف ، فيتحسر العصاة إذا نظروا إليها ، حيث عصوا الله فيها ، ثم تركوها لاتغنى عنهم شيئاً ، وعليه فالأثقال جمع ثقل - بالتحريك - وهو كل نفيس مصون.
(وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا) أى : ما بالها زلزلت هذه الشدة ، ولفظت مافى بطنها ، قال ذلك كل فرد من أفراد الإنسان عند الزلزلة والعودة إلى الحياة ، لما شاهدوا من الأمر الهائل الذى بهرهم لفظاعته . حيث سيرت الجبال فى الجو ، وصيرت هباء ، على أن المؤمن يقول ذلك بطريق الاستعظام ، والكافر يقوله بطريق التعجب ، وقيل : هذا قول الكافر ؛ لأنه كان لايؤمن بالبعث ، وأما المؤمن فيقول : « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ »[١] .

٤ ، ٥ - (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) :

أى : يوم إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا الشديد المتكرر تحدث الخلق أخبارها .

قيل : ينطقها الله حقيقة ، فتخبر بطريق المقال بما عُمِلَ عليها من خير وشر ، وتشهد على كل واحد بما عمل على ظهرها ، ويشهد لذلك ما أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) ثم قالَ : «أتدرُونَ مَا أخْبَارُهَا» ؟ قَالُوا : اللهُ وَرسولُهُ أعْلَمُ . قَالَ فَإِنَّ أخْبَارَهَا أنْ تَشْهَدَ عَلى كلِ عَبْد وَأمَة

(١) سورة يس ، من الآية : ٥٢ .

بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا فَتَقُولُ : عَمِلَ يَوْمَ كَذَا كَذَا ، وقال يحيى بن سلام : تحدث بما أخرجت من أثقالها ، ويشهد له ما في حديث ابن ماجه في سننه : « تَقُولُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَارَبِّ هَذَا مَا اسْتَوْدَعْتَنِي » وعن ابن مسعود : تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان : ما لها ، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى ،وأمر الآخرة قد أتى. فيكون ذلك جواباً عند سؤالهم ، إلى غير ذلك مما قيل .

وقيل : يكون تحديثها بطريق الحال ، حيث تدل دلالة ظاهرة على مالأجله وقع زلزالها وإخراج أثقالها ، وذلك بما يخلق الله فيها من الأحوال التي تقوم مقام التحديث باللسان ، حتى ينظر من يقول : ما لها ؟ ! إلى تلك الأحوال ، فيعلم لِمَ زلزلت ؟ ولم لفظت أثقالها (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) بمعنى أنها تحدث أخبارها بسبب إيحاء الله لها ، وأمره – سبحانه – إياها بالتحدث عن أخبارها ، فالمراد من الوحي : الإيحاء والإلهام ، كما أوحى الله إلى أم موسى ، وقيل : الوحي إليها : وحي إرسال ، بأن يرسل إليها – عزَّ وجلَّ – رسولا من الملائكة بذلك فتعيه وتعمل بمقتضاه وفق تقدير العزيز العليم .

٦ – (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) :

أي : يوم إن يقع ما ذكر يخرج الناس من قبورهم ، وينصرفون إلى موقف الحساب متفرقين بحسب أعمالهم ، بيض الوجوه آمنين ، وسود الوجوه فزعين ، ومقيدين بالسلاسل ،وغير مقيدين ، ليبصروا أجرية أعمالهم خيرًا كانت أو شرًا ، وتجسم لهم الأعمال نورانية وظلمانية كما قيل ، وقيل : ليعرفوا أعمالهم ، ويقفوا عليها تفصيلا عند الحساب ، وعليه فلاحاجة إلى تجسيمها ؛ لأن الرؤية علمية ، وليست بصرية .

وقيل : ينصرفون من موقف الحساب متفرقين ؛ فآخذ جهة اليمين إلى الجنة ، وآخذ جهة الشمال إلى النار ، وعن ابن عباس : أهل الإيمان على حدة ، وأهل كل دين على حدة .

٧ ، ٨ – (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) :

تفصيل للرائين وما يرونه من الأعمال خيرها وشرها . وسبب النزول – على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير – أنه لما نزل « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ » كان المسلمون

يرون أنهم لايؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه ، فيجيء المسكين إلى أبوابهم ، فيستقلون أن يعطوه التمرة والبسرة ، فيردونه ويقولون : ما هذا بشيء ، إنما نؤجر على ما نعطى ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة ، والنظرة ، والغيبة ، وأشباه ذلك ، ويقولون : إنما وعد الله تعالى النار على الكبائر فنزلت الآيتان ترغبانهم فى القليل من الخير أن يعملوه ، وتحذرانهم اليسير من الشر أن يأتوا به ويعملوه .

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتصدقون بعد نزول الآيتين بالقليل والكثير وبما عزَّ وهان ، لايدخرون فى ذلك وسعاً ، أسوة برسول الله ﷺ فقد ، أخرج الزجاجى فى أماليه عن أنس بن مالك أن سائلا أتى النبى ﷺ فأعطاه تمرة ، فقال السائل : نبى من الأنبياء يتصدق بتمرة؟! فقال النبى ﷺ : (أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ فِيهَا مَثَاقِيلَ ذَرَّةٍ كَثِيرَةٍ) وجاء أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) .

والمعنى : فمن يعمل - من مؤمن أو كافر - خيرًا أو شرًّا يَرَ جزاء عمله يوم الحساب ، ولو كان ما عمله يعادل فى القلة وزن ذرة أى : أقل شيء يعرفونه ، قيل : هى النملة الصغيرة وقيل : هى واحدة الذر ، وهو الهباء الذى يُرَى فى شعاع الشمس الداخل من كوة ؛ وروى عن ابن عباس أنه أدخل يده فى التراب ثم رفعها ثم نفخ فيها ، وقال : كل من هؤلاء مثقال ذرة ، كما روى عنه أيضًا فى شرح الآية أنه قال : ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرًا أو شرًّا فى الدنيا إلَّا أراه الله إيَّاه يوم القيامة ، فأمَّا المؤمن فيرى حسناته وسيئاته ، فيغفر الله له سيئاته - أى : إذا كان مجتنبًا للكبائر - ويثيبه على حسناته ، وأما الكافر فيرى كذلك حسناته وسيئاته ، فيرد الله حسناته ، ويعذبه بسيئاته .

وقيل فى معنى رد حسناته : إنه لايثاب عليها لكفره ، وهو محبط للعمل ، لكنه يخفف عنه العذاب ؛ للأحاديث الصحيحة ، فقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه العذاب لكرمه ، وأن أبا لهب كذلك لسروره بولادة النبى ﷺ وإعتاقه جاريته « ثويبة » حين بشرته بذلك ، والحديث فى تخفيف عذاب أبى طالب مشهور كما قالوا ، ويشيرون إلى الحديث الذى روى بطرق فى البخارى ومسلم ، فقد قال البخارى : حدثنا مسدد بسنده عن العباس بن عبد المطلب

- رضى الله عنه - قال للنبى ﷺ : ما أغنيت عن عمك ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال : « هُوَ فِى ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » ، وفى البخارى أيضًا عن عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله ﷺ وذكر عنده عمه : (لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلَ فِى ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ عَقِبَيْهِ يَغْلِى مِنْهُ دِمَاغُهُ) وتحدث مسلم عن ذلك فى باب الشفاعة من صحيحه .

وقيل فى معنى إحباط عمل الكفار : إنه لا ينجيهم من العذاب المخلد كأعمال غيرهم ، وهو معنى (هباء) فى الآية الكريمة : « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا »[1] وبظاهرها استدل قوم على حبوط جميع أعمال الكافر لكفره ، فلا ينتفع منها بشىء . وادُّعى فى شرح المقاصد الإجماع على ذلك ، ورده الآلوسى فقال : ودعوى الإجماع على إحباطها بالكلية غير تامة ، كيف وهم مطالبون بالتكاليف فى المعاملات والجنايات اتفاقًا ، ولا شك أنه لا معنى للخطاب بها إلَّا عقاب تاركها ، وثواب فاعلها ، وأقله التخفيف ، وإلى هذا ذهب العلامة شهاب الدين الخفاجى عليه الرحمة . اهـ .

ونقل عن التبصرة فى شرح المشارق ، وتفسير الثعلبى : أن أعمال الكفرة الحسنة التى لا تحتاج إلى اشتراط الإيمان : كإنجاء الغريق ، وإطفاء الحريق ، وإطعام ابن السبيل ، يُجْزَوْن عليها فى الدنيا ، ولا تدخر لهم فى الآخرة ، كالمؤمنين بالإجماع للتصريح به فى الأحاديث وعليه فالكافر يرى جزاء خيره فى الدنيا فى نفسه وماله وأهله ، ويعذب بِشَرِّه فى الآخرة ، والمؤمن يرى جزاء شرِّه فى الدنيا بما يبتلى به مِمَّا يكره ، ويرى جزاء خيره فى الآخرة . روى عن أبى أيوب أنه ﷺ قال له إذ رفع يده : (مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ خَيْرًا فَجَزَاؤُهُ فِى الْآخِرَةِ . وَمَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ شَرًّا يَرَهُ فِى الدُّنْيَا مُصِيبَاتٍ وَأَمْرَاضًا ، وَمَنْ يَكُنْ فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ) وتقديم عمل الخير فى الآية لأنه أشرف القسمين والمقصود بالأصالة ، وليس فى الآية تكرار ؛ لأن الأول متصل بقوله : (خَيْرًا يَرَهُ) والثانى متصل بقوله : (شَرًّا يَرَهُ) والله أعلم.

---

(١) سورة الفرقان ، الآية رقم : ٢٣ .

سورة العاديات

وهى مكية ، وآياتها احدى عشرة آية

مناسبتها لما قبلها :

لَمَّا ذكر – سبحانه وتعالى – فى السورة التى قبلها (سورة الزلزلة) الجزاء على الخير والشر . أتبع ذلك فى هذه السورة (سورة العاديات) بتوبيخ مَنْ آثر دنياه على آخرته ، ولم يستعد ليوم القيامة بعمل الخير فى دنياه .

مقاصد السورة :

١ – بُدئت السورة الكريمة بالقسم بخيل الجهاد على أن الإنسان لكفور بنعمة ربه : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ...) إلى قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) .

٢ – ثم ذكرت أن الإنسان لشهيد على نفسه بذلك يوم القيامة ، وأنه محب للمال حريص عليه : (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) .

٣ – وختمت السورة بذكر البعث وما فيه من جزاء وثواب وعقاب : (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ ...) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾)

المفردات :

(العَادِيَاتِ) : الخيل تعدو فى الغزو ، واحدتها : عَادِيَةٌ ، من الْعَدْو ، وهو الجرى .

(ضَبْحًا) : الضَّبْح ، صوت أنفاس الخيل عند عَدْوِها .

(فَالْمُورِيَاتِ) : واحدها مورِيَة ، من الإيراء ، وهو إخراج النار .

(قَدْحًا) : القدح ، الضرب والصك المعروف ، يقال : قدح فَأَوْرَى : إذا أخرج النار ، وقدح فَأَصْلَد : إذا لم يخرجها .

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) : فالخيل تُغِير على العدو مُبَاغتة فى وقت الصباح ، واحدها : مُغيرة ، من أغَار على العدو : إذا هجم عليه بغتة .

(فَأَثَرْنَ) : من الإثارة وهى تهييج وتحريك الغبار .

(نَقْعًا) : الغبار ، وقيل : رفع الصوت .

(فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) : فوسطن ، بمعنى توسطن ، أى : صِرْنَ وسَطه به ، أى : بذلك الوقت ، أو النقع .

(جَمْعًا) : من جموع الأعداء .

(لَكَنُودٌ) : لكفور جَحُود ، من كَنَدَ النعمة : كَفَرَها ولم يشكرها ، وأصل الكنود : الأرض التى لا تنبت شيئًا ، شبه بها الإنسان الذى يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات .

(الْخَيْرِ) : المال .

(لَشَدِيدٌ) : لبخيل ، أو لَقَوِىّ .

(بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ) : أُخرج وأُثير ما فى جوفها من الأموات ، أى : بعثوا .

(وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ) : أى : أُظْهِر ما فى القلوب مُحَصَّلًا مجموعًا ، أو مُيِّز خيره من شره ، فقد استعمل (حَصَّل الشىء) بمعنى مَيَّزه من غيره كما فى البحر ، وأصل التحصيل : إخراج اللُّب من القشر ، كإخراج البُر من التبن .

التفسير

١ - (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا) :

(وَالْعَادِيَاتِ) الجمهور على أنه قسم بخَيْلِ الغزاة فى سبيل الله تعالى التى تعدو ، أى : تجرى مسرعة نحو العدو فتضبح (ضَبْحًا) والضبح : صوت أنفاسها عند عَدْوِهَا ، وأخرج ابن جرير عن على - كَرَّم اللهُ وَجْهَه - : الضَّبح من الخيل الحمحمة .

٢ - (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) :

المراد بها الخيل أيضًا ، أى : فالخيل التى تُورى النار وتخرج شَرَرَها من صدم حوافرها للحجارة ، واندفاعها فى سيرها عند الجرى .

٣ - (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) :

أى : فالخيل تُغِير على العدو وتعدو لتهجم عليه وقت الصباح ؛ لأخذه بغتة على غير أهبة واستعداد ، وفى وصف الله سبحانه للخيل بما سبق من أنها العاديات المُوريات المُغيرات

إشارة إلى الغاية من اقتناء الخيل وهو الجهاد والفروسية والقوة، لا للخيلاء والزينة كما يفعل كثير من أغنياء هذا الزمان .

٤ - (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا) :

أى : فهيجت هذه الخيل وأثارت فى مواقع الْعَدْو غبارًا شديدًا كثيفًا ، ويجوز أن يراد بالنقع : الصياح ، أى : فهيجن فى المُغار عليهم صياحًا وجلبة .

٥ - (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) :

المعنى : فتوسطن بذلك الوقت أو النقع جمعًا من الأعداء ، ففرقن صفوفه ، وشَتَّتْنَ شمله ، قال الآلوسى : والفاءات كما فى الإرشاد للدلالة على ترتيب ما بعد كل منها على ما قبله ، فَتَوَسُّط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الْإِيراء المُتَرَتِّب على الْعَدْو .

٦ - (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) :

هذا ذكر المحلوف عليه والمقسم به بتلك الأَيْمَانِ السابقة فقال : (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) أى : إنَّ الإنسان طُبِع على نكران الحق وجحوده وكفران النعمة ، وعدم شكر المنعم ، وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، والحكيم الترمذى وغيرهما تفسير (الكنود) بالذى يمنع رِفْدَه ، وينزل وحده ، ويضرب عبده ، والجمهور على تفسيره بالكفور .

وكل ما ذكر يدخل تحت هذا العنوان ، وقيل : المراد بالإنسان كافر معين ، لما روى عن ابن عباس أنها نزلت فى قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشى ، وقيل : المراد به كل الناس ، على معنى أنَّ طبع الإنسان يحمله على ذلك إلَّا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه من ذلك ، واختاره عصام الدين ، وقال : فيه مدح للغزاة لسعيهم على خلاف طبعهم .

٧ - (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ) :

أى : وإن الإنسان على كفره وكنوده وجحوده لنعم ربه فى الآخرة لشهيد على نفسه معترف بذنوبه ، وقال ابن عباس وقتادة : ضمير (إنه) عائد على الله تعالى ، أى : وإن

ربه - سبحانه وتعالى - شاهد عليه ، فيكون الكلام على سبيل الوعيد والتهديد ، واختاره التبريزى .

٨- (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) :

أى : وإن الإنسان لحبه المال وتعلقه به لشديد ، أى : لبخيل ، وتفسير الخير بالمال ورد بهذا المعنى فى القرآن كثيرًا حتى زعم عكرمة : أن الخير حيث وقع فى القرآن هو المال ، وخصه بعضهم بالمال الكثير ، وفسر به قوله تعالى : « إن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ »[1] وإطلاق كونه خيرًا على المال باعتبار ما يراه الناس ، وإلَّا فمنه ما هو شر يوم القيامة .

وجوز غير واحد أن يراد بالشديد : القوى ، ولعله الأظهر ، أى : وإنه لقوى مبالغ فى حبه للمال ، والمراد قوة حبه له ، قال الزمخشرى : المعنى : وإنه لحب المال وإيثاره الدنيا وطلبها قوى مُطِيق ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه سبحانه ضعيف متقاعس ، وفى قول آخر للزمخشرى فى الكشاف : جواز أن يراد بالخير هو ما عند الله من الطاعات ، على أن المعنى : وإنه لحب الخيرات غير هاشّ منبسط ، ولكنه شديد منقبض ، ثم هدد الإنسان الذى هذه صفاته وتوعده بقوله :

٩- (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ) :

تهديد ووعيد ، والهمزة للإنكار ، والفاءُ للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والمعنى : أيفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم مآله إذا بُعثر ونُشر مَنْ فى القبور من الموتى ، أى : بعثوا .

١٠- (وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ) :

أى : جُمع ما فى القلوب من خير اكتسبوه ، وشر اقترفوه ، أو أُظهر كإظهار اللُّب من القشر ، أو مُيِّز خيره من شره ، وقد سجله الله عليهم فى صحفهم ، وتخصيص (مَا فِى الصُّدُورِ) أى : القلوب ، لأنه الأصل لأعمال الجوارح ، ولذا كانت الأعمال بالنيات .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٠ .

١١ - (إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) :

أى : إن مربيهم وخالقهم خبير بأعمالهم وجزائهم يوم البعث والحساب ، أى عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه ، ومجازيهم عليه .

قال الزمخشرى : معنى علمه بهم يوم القيامة : مجازاته لهم على مقادير أعمالهم ، لأن ذلك أثر علمه وخُبْره بهم .

سورة القارعة

مكية ، وآياتها احدى عشرة آية

مناسبتها لما قبلها :

ختمت السورة السابقة (سورة العاديات) بذكر بعض أوصاف يوم القيامة ، وهذه السورة بأسرها فى وصف ذلك اليوم ومايكون فيه من أهوال .

مقاصد السورة :

١ - بُدئت السورة الكريمة بتهويل شأن القارعة التى تقرع الناس ويصك صوتها أسماعهم : (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ...) الآية .

٢ - ثم ذكرت بعض أهوالها ومايحدث للناس وماتكون عليه الجبال : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ...) الآية .

٣ - وبينت جزاء الصالحين المؤمنين وجزاء الكافرين والمخالفين : (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ...) الآية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾)

المفردات :

(الْقَارِعَةُ) : من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطَّامَّة ، وقيل : صوت النفخة ، وقال الضحاك : هى النار ، وأيًّا ما كان فهى من القرع : وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد .

(الْفَرَاشِ) : قال فى الصحاح : جمع فراشة التى تطير وتتهافت على النار ، وقال الفراء : هو غوغاء الجراد ، سمى فراشًا لتفرشه وانتشاره .

(الْمَبْثُوثِ) : المتفرق المنتشر .

(الْعِهْنِ) : الصوف مطلقًا ، أو المصبوغ منه ذو الألوان .

(الْمَنفُوشِ) : المُفَرَّق بالأصابع ونحوها .

(ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : بأن رجحت حسناته على سيئاته ، قال الكشاف : الموازين : جمع موزون ، وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله ، أو جمع ميزان ، وثقلها : رجحانها .

(عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) أى : عيشة يرضاها صاحبها وتطيب نفسه بها .

(خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) : بأن رجحت سيئاته على حسناته – يقال : خَفَّ ميزانه ، أى : سقطت قيمته فكأنه ليس بشىء .

(فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) : فمأواه جهنم.

التفسير

١ – (الْقَارِعَةُ) :

الجمهور على أنها القيامة نفسها ، ومبدؤها النفخة الأولى ، ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق ، وسمِّيت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها ، كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر ومصائبه قارعة ، قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ »(١) أى : حادثة عظيمة تقرعهم وتصكهم .

٢ – (مَا الْقَارِعَةُ) :

تهويل لشأنها . أى : أى شىء عجيب هى فى فخامتها وخطرها وفظاعتها ؟! وهذا أسلوب يراد به تهويل أمرها ، كأنها لشدة ما يكون فيها من الأهوال يصعب تصويرها ويتعذر إدراك حقيقتها .

٣ – (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) :

ثم زاد أمرها تعظيمًا فقال : (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) أى : وأى شىء أعلمك ما شأن القارعة فى شدة هولها على النفوس ، كأنه لا شىء يحيط بها . مهما تخيلت أمرها ، فهى أعظم من تقديرك وتوقُّعاتك ، ولما ذكر سبحانه أن إدراك حقيقتها مما لا سبيل إليه أخذ يعرف بزمانها الذى تكون فيه ، وما يحدث للناس حينئذ من الأهوال فقال :

---

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٣١ .

٤ ـ (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) :

قال صاحب التأويلات : اختلفوا فى تأويله على وجوه ، لكن كلها ترجع إلى معنى واحد وهو الإشارة إلى الحيرة والاضطراب من هول ذلك اليوم ، واختار غير واحد أن المراد بالفراش المبثوث : الحشرة الصغيرة التى تراها تترامى على ضوء السراج ليلاً ، وبها يضرب المثل فى الجهل بالعاقبة شُبِّهُوا فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والمجىء والذهاب على غير نظام وَالتَّطَايُرِ إلى الداعى من كل جهة حين يُدْعَوْن إلى المحشر ـ شبهوا ـ بالفراش المتفرق المتطاير .

٥ ـ (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ) :

أى : إنّ الجبال ـ وهى الثقيلة والقوية التماسك ـ تصير فى ذلك اليوم خفيفة هشة كالصوف الذى نُفِش ففرقت شعراته بعضها عن بعض حتى صار على حال يطير مع أضعف ريح ، وإذا كان هذا هو حال مايحصل لبعض الأجسام العظيمة التى من طبيعتها الاستقرار والثبات لفخامتها وثقلها ، فما بالك بما يحدث للإنسان ، وهو المخلوق الضعيف ؟!

وفى هذا تحذير للإنسان وتخويف له كما ترى ، وبعد أن ذكر أوصاف ذلك اليوم وما يكون من أحوال بعض الخلائق فيه ، أعقب ذلك بذكر الجزاء على الأعمال فقال :

٦ ـ (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) :

هذا بيان لتحزُّب الناس وانقسامهم حزبين ، وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل منهما إشارة إلى وزن الأعمال ، وهو مما يجب الإيمان به ، ويكون هذا بعد تطاير الصحف وأخذها بالأيمان والشمائل .(وبعد السؤال والحساب كما ذكره الواحدى) وتوزن الأعمال بميزان الله أعلم بما هيئته وبكيفية الوزن ، قال القرطبى ، لايكون الميزان فى حق كل أحد ؛ لما فى الحديث الصحيح الذى جاء فيه : « فَيُقَالُ : يَامُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَاحِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ » ، وذكر القاضى منذر بن سعيد البلوطى أن أهل الصبر لاتوزن أعمالهم وإنما يصب لهم الأجر صبًّا ، وأنكر المعتزلة الوزن حقيقة ، وكذلك أنكره جماعة من أهل السنة منهم مجاهد والضحاك والأعمش ، وقالوا : إن الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل .

٧ـ (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) :

أى : فهو فى عيشة يرضاها صاحبها ،تطيب نفسه بها لما يراه من النعيم ، وما يلقاه من الثواب والتكريم .

٨ ، ٩ ـ (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) :

أى : وأما من خفت موازينه بأن لم تكن له حسنة يعتد بها أو رجحت سيئاته على حسناته ممن كان فى الدنيا عظيم الشر لاخير فيه ، أكل خير الله وعبد غيره ، وعاث فى الأرض فسادًا ـ لم يكن شيئًا له قيمة فلاترجح له كفة ميزان لو وضع فيها ـ (يقال : خف ميزانه ، أى : سقطت قيمته ومروءته فكأنه ليس بشىء ، حتى لو وضع فى كفة ميزان لم يرجح بها على أختها) .

٩ ـ (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) :

أى : فمأواه (هَاوِيَةٌ) أريد بها النار كما يؤذن به قوله تعالى : (وَمَآ أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ) فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، والإشعار بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل ، وذكر إن إطلاق (هاوية) على النار لغاية عمقها وبعد مهواها ، وعبر عن المأوى بالأم على التشبيه بها ، فالأم مفزع الولد ومأواه ، وفيه من التهكم مافيه .

١٠ ـ (وَمَآ أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ) :

أى : وما أعلمك ما الهاوية وأى شىء تكون؟ ! والهاءُ للسكت ثم فسرها بعد إبهامها فقال :

١١ ـ (نَارٌ حَامِيَةٌ) :

أى : هى نار حارة شديدة الحرارة ، قوية اللّهب والسَّعِير ، لا تبلغ حرارتَها أيةُ نار مهما سُعِّرت وأُلقى فيها من وقود ، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « نَارُ بَنِى آدَمَ الَّتِى

تُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » . قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : « إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا » رواه البخارى ، وروى مثله مسلم مع المخالفة فى بعض الألفاظ (ابن كثير) .

هذا وعلينا أن نؤمن بما ذكره الله تعالى من الميزان فى هذه الآية ، وفى مثل قوله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ »[1] ومن وزن الأعمال وذلك لتمييز مقدار كل عمل وليلقى كلٌّ جزاء ما عمل ، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك . والله أعلم .

---

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٤٧ .

سورة التكاثر

مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الكوثر

مناسبتها لما قبلها :

فى السورة السابقة (سورة القارعة) جاء ذكر بعض أهوال يوم القيامة وجزاء الأخيار والأشرار ، وفى هذه السورة جاء ذكر الجحيم وهى الهاوية التى ذكرت فى السورة السابقة ، كما جاء ذكر السؤال عما قدم المرء من أعمال ، وهذه بعض أحوال الآخرة .

مقاصد السورة :

١ - بدئت السورة الكريمة بتوبيخ النّاس لأنهم شغلوا بالتكاثر فى أمور الدنيا عن العمل للآخرة حتى دهمتهم المنايا : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) .

٢ - ثم أنذرتهم بما سيلقون يوم القيامة من معاينة النار : (كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) إلخ .

٣ - ثم أنذرتهم بما يكون من سؤالهم عما كانوا فيه من النعيم فى الدنيا ، وهل أدوا حق شكره لواهب النعم : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾)

المفردات :

(أَلْهَاكُمُ) : شغلكم عن طاعة ربكم ، من اللهو : وهو الغفلة ، ثم شاع فى كل شاغل ، وخصه العرف بالشاغل الذى يسر المرء ، وهو قريب من اللعب ، ولذا ورد بمعناه كثيرًا ، وقال الراغب : اللهو : ما يشغلك عما يعنى ويهم .

(التَّكَاثُرُ) : التبارى فى الكثرة والتباهى بكثرة العدد والأموال والأولاد .

(زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) : مُتُّمْ ودفنتم فى القبور ، أو عددتم الموتى تكاثرًا .

(كَلَّا) : كلمة ردع ، أو بمعنى حقًّا .

(لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) : لو تعلمون مآلكم علماً يقيناً لما ألهاكم التكاثر .

(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) أى : والله لتشاهدُنَّ النَّار الموقدة : (دار العذاب) .

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) أى : ثم لترونها رؤية يقينية مبعثها المشاهدة والمعاينة .

(النَّعِيمِ) : كل ما يتلذذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب وغير ذلك .

التفسير

١ ، ٢ - (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) :

أى : شغلكم عن الجد والاجتهاد وصرفكم عن العمل للآخرة تبَاهِيكم بالأنصار والأولاد وتفاخركم بالأموال والأحساب والأنساب ، والتَّبَارِى فى كثرة العدد ، بأن يقول هؤلاء : نحن أكثر ، وهؤلاء : نحن أكثر ، حتى إذا استدعيتم عدد الأحياء صرتم إلى المقابر وانتقلتم إلى ذكر مَن فيها فتكاثرتم بالأموات .

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بريدة قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة وبنى الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان ؟ ! وقال الآخرون مثلَ ذلك - تفاخروا بالأحياء - ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان تشير إلى القبر ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك . فأنزل الله

تعالى : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) وزيارة المقابر على ما تقدم على ظاهرها ، وقيل المراد : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم فى طلب الدنيا والتهالك عليها إلى أن أتاكم الموت وأنتم لاهون عن العمل لآخرتكم ، وزيارة القبور على هذا عبارة عن الموت .

قال الآلوسى : وفى هذا إشارة إلى تحقق البعث ، يحكى أن أعرابياً سمع ذلك فقال : بعث القوم ورب الكعبة فإن الزائر منصرف لا مقيم ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال : لابد لمن زار أن يرجع إلى جنة أو نار ، وفيه أيضاً إشارة إلى قصر زمن اللبث فى المقابر ، والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع ، قال ابن كثير : والصحيح أن المراد بقوله تعالى : (زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أى : صرتم إليها ودفنتم فيها – روى أسلم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) فى الأموال والأولاد عن الطاعة (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أى : حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ ، ثم نبههم إلى خطأ ماهم فيه ، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التى تنتهى إلى وخيم العاقبة فقال :

٣ – (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

كَلَّا : أى : ارتدعوا عن الاشتغال بما لا يعنيكم وانتبهوا إلى ما وقعتم فيه من خطأ . (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) : وتعرفون سوء مغبة ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبته وشاهدتم جزاءه ، ونزل بكم عقابه ، وهذا إنذار لهم ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم ، ثم أكد هذا وزاد فى التهديد فقال :

٤ – (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

وعيد بعد وعيد والتكرير تأكيد للردع والإنذار لهم ، و (ثُمَّ) للدلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول وأشد كما يقول العظيم لعبده : أقول لك ثم أقول لك : لا تفعل .

والمعنى : سوف تعلمون خطأ ما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من أهوال الاخرة ، وإن هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة بكم ، وقال على كرم الله وجهه : الزجر الأول فى القبور ،

والثانى فى النشور ، فلا تكرار ، فالتراخى على ظاهره ، وقال الضّحاك : الزجر الأوّل للكافرين والثانى للمؤمنين ، ثم كرّر التنبيه أيضاً فقال :

٥ ـ (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) :

أى : ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم فإنكم لو تعلمون يقيناً سوء مصيركم وعاقبة أمركم وما يُفْضِى إليه حالكم لفزعتم من تكاثركم ولَشَغَلَكم هذا عن افتخاركم بأموالكم وأولادكم ، وتزودتم بالعمل الصالح لآخرتكم ومآلكم .

وإنما ذكر ــ سبحانه وتعالى ــ هذا زيادة فى زجرهم لتغريرهم بأنفسهم ، وخداعهم لها فقد جرت عادة الغافلين أنهم يدعون اليقظة والمعرفة إذا ذكِّروا بغفلتهم ، ثم ذكر لهم بعض ما يفضى إليه هذا اللهو وهو عذاب الآخرة بعد خزى الدنيا فقال :

٦ ـ (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) :

أى : أقسم لكم وأؤكد ــ أيها الناس ــ أنكم ستشاهدون النار الموقدة ، وهى دار العذاب التى أُعدت لمن يلهو وينصرف عن الحق ، والجملة جواب قسم مضمر ، أكد به الوعيد وشدد به التهديد ، وأوضح به ما أُنذروا به بعد إبهامه تفخيماً لشأنه ، وإعظاماً لقدره ، وما هددوا به سابقاً هو قوله تعالى : (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) فتوعدهم بهذه الحال وهى رؤْية النار التى إذا زفرت زفرة واحدة خَر كل رسول مقرب وكل ولى وعابد على ركبتيه من المهابة والمعاينة ؛ لرؤْية ما فيها من الأَهوال على ما جاءت به الآثار ، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم .

وقيل : المراد برؤية الجحيم ذوق عذابها ، وهذا استعمال شائع فى الكتاب الكريم ، ثم كرر ذلك للتأكيد فقال :

٧ ـ (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) :

أى : ثم أُقسم وأؤكد أنكم ستشاهدونها عياناً ويقيناً قال الآلوسى : أى الرؤْية التى هى نفس اليقين ؛ فإن الانكشاف بالرؤْية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات ، فهو أحق

بأن يكون عين اليقين ، واليقين[١] فى اللغة – على ما قيل : العلم الذى لاشك فيه ، ثم شدد عليهم وزاد فى تأنيبهم فقال :

٨ – (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) :

أى : ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ، أى : ماذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته ؟ !

قيل : الخطاب فى (لَتُسْأَلُنَّ) للكفار ، وعليه ابن عباس : وقيل : الخطاب مخصوص بكل من ألهته دنياه عن دينه ، والنعيم مخصوص بما شغله عن ذلك ، وخير القول فى النعيم قول مجاهد ؛ كل لذة من لذات الدنيا .

وفى التفسير الكبير : الحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعم به سواء كان مالابد منه أم لا ؛ لأن كل ما يهب الله تعالى يجب أن يكون مصروفاً لطاعته سبحانه لا إلى معصيته – عز وجل – فيكون السؤال واقعاً عن الكل ، ويؤكده قوله – عليه الصلاة والسلام – « لا تَزولُ قَدَمَا الْعَبدِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ :

١ – عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ .

٢ – وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبلاهُ .

٣ – وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ .

٤ – وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ » لأن كل نعيم داخل فيما ذكره ﷺ وما ورد فى بعض الآثار مثل ماروى عن عمر – رضى الله عنه – أنه قال : أى نعيم نسأل عنه يا رسول الله وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ظِلالُ الْمَسَاكِنِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَخْبِيَةِ الَّتِى تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ ، وَالْمَاءُ الْبَارِدُ فِى الْيَوْمِ الْحَارِّ » فذلك من باب التمثيل ببعض أفراد خصت بالذكر لأمر اقتضاه الحال ، ويؤيد ذلك قوله – عليه الصلاة والسلام – فى غير رواية عند ذكر شىء من ذلك : « هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى تُسْأَلُونَ عَنْهُ » بمن التبعيضية ، والله أعلم .

---

(١) وعلم اليقين : العلم بما أعطاه الدليل من إدراك الشىء على ما هو عليه ، وعين اليقين : العلم بما تمطيه المعاينة والمشاهدة والكشف ، أما حق اليقين فهو ملابسة الأمر والدخول فيه بالفعل .

سورة العصر

مكية ، وآياتها ثلاث آيات

مناسبتها لما قبلها :

فى السورة السابقة (سورة التكاثر) بيان حال من ألهاه التكاثر عن العمل لآخرته وما آل إليه أمره ، وفى هذه السورة بيان حال من لم يلهه التكاثر عن عمل الصالحات .

مقاصد السورة :

١ ـ أقسم الله تعالى بالزمان لما يقع فيه من أحداث وعبر يستدل بها على قدرة خالقه وبالغ حكمته على أن جنس الإنسان لفى خسر : (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ) .

٢ ـ استثنى الله سبحانه من جنس الإنسان الخاسر مَنْ اتصفوا بأربعة أشياء :

١ ـ بالإيمان .

٢ ـ بالعمل الصالح .

٣ ـ بالتواصى بالحق .

٤ ـ بالتواصى بالصبر .

فهؤلاء المؤمنون الصالحون الذين يعملون الخير ويدعون غيرهم للعمل به ، ولا يزحزحهم عن الدعوة إليه ما يلاقونه فى سبيله من مشقة وبلاء ، هؤلاء ناجون من الخسران ، مفلحون فى الدنيا والآخرة : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾)

المفردات :

(الْعَصْرِ) : صلاة العصر ، وقيل : الزمان والدهر ، وقيل : العشى ، وقيل غير ذلك.

(الإِنسَانَ) : جنس الإنسان .

(لَفِى خُسْرٍ) : لفى خسران ونقصان وهلاك .

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) : وأوصى بعضهم بعضًا بالحق ، وهو الخير كله .

(الصَّبْرِ) : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة والمكاره .

بعض ما جاء فيها :

قال الآلوسى : سورة العصر ، وآياتها ثلاث ، وهى على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت ، فقد روى عن الشافعى – عليه الرحمة – أنه قال : لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس ؛ لأَنَّهَا شملت جميع علوم القرآن ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط . والبيهقى فى الشعب : عن أَبى حذيفة – وكانت له صحبة – قال : كان الرجلان من أَصحاب رسول الله – ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأَ أَحدهما على الآخر سورة العصر ، ثم يسلم أَحدهما على الآخر .

التفسير

١ – (وَالْعَصْرِ) :

أَقسم الله – سبحانه وتعالى – بصلاة العصر لفضلها ؛ لأَنها الصلاة الوسطى عند الجمهور – لقوله – عليه السلام – : (شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى : صَلاةِ الْعَصْرِ) :

وفى الحديث : « مَنْ فَاتَتْهُ صَلاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ » وخُصَّت صلاة العصر بالفضل لأَن التكليف فى أَدائها أَشق لتهافت الناس على تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار ، واشتغالهم بمعايشهم فى ذلك الوقت ، وقال قتادة : العصر : العشى ، وهو ما بعد الزوال إلى الغروب ، أَقسم به – سبحانه وتعالى – كما أَقسم بالضحى لما فيها من دلائل القدرة ، وقال ابن عباس : هو الزمان والدهر – أَقسم به – سبحانه – لاشتماله على أَصناف العجائب ، ولما فيه

من أحداث وعبر يستدل بها على قدرته وبالغ حكمته وواسع علمه ، وكان الكفار فى الجاهلية ينسبون أحداث الزمان ونوائبه وكوارثه إلى الدهر ، فيقولون : هذه نائبة من نوائب الدهر ، وهذا زمان بلاء وعناء ، فأرشدهم – عز وجل – إلى أن الدهر خَلْقٌ من خلقه ، وأن الزمان ظرف تقع فيه الحوادث خيرها وشرها ، فإذا وقعت للمرء مصيبة فبما كسبت يداه ، وليس للدهر فيها من سبب .

٢ – (إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ) :

أى : إن كل إنسان لفى نوع من الخسران لغلبة الأهواء والشهوات والرغبات والمطامع عليهم فى أعمالهم ومساعيهم ، وصرف أعمارهم فى مطالبهم التى لاينتفعون بها فى الآخرة ، بل ربما تَضُرُّ بهم ، وتكون سبب شقائهم وعذابهم ، و (أل) فى الإنسان لشمول جميع الجنس بدليل الاستثناء الذى جاء بعدها : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) إلخ ، والتنكير فى (خُسْرٍ) قيل : للتعظيم ، أى : فى خسر عظيم ، ويجوز أن يكون للتنويع ، أى : نوع من الخسران غير ما يعرفه الإنسان .

٣ – (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ) :

(إِلَّا الَّذِين آمنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ) استثنى المولى – جلَّ وعلا – من جنس الإنسان الواقع فى الخسران ، استثنى – سبحانه – الذين آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً خالصاً لله . وعملوا الصالحات بجوارحهم ، فجمعوا بين صدق العقيدة وصدق العمل ، وتجد فى كتاب الله دائماً قرن الإيمان بالعمل الصالح ؛ للإشارة إلى أن الإيمان بلاعمل كزرع بلاثمر . قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » [1] والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى تجارة لن تبور ؛ لأَنَّهُمْ باعوا الفانى الخسيس واشتروا الباقى النفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات . فيالها من صفقة ما أربحها ، ومنفعة جامعة للخير ما أوضحها وأنجحها !! وهذا – هو قوله تعالى – : (الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ١٠٧ .

الصَّالِحَاتِ) بيان لتكميلهم لأنفسهم ، وقوله تعالى : (وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ) بيان لتكميلهم لغيرهم ، أى : وَصَّى بعضهم بعضا بالحق – وهو الأمر الثابت الذى لاسبيل لإنكاره ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره ، وهو الخير كله : من توحيد ، وطاعة ، واتباع كتبه ورسله ، – جلَّ شأْنه – وزهد فى الدنيا ، ورغبة فى الآخرة .

(وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ) :

أى : وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على المعاصى التى تشتاق إليها النفس بحكم الطبيعة البشرية ، وعلى الطاعات التى يشق عليها أداؤها ، وعلى ما يبتلى الله – سبحانه – به عباده من المصائب ، والصبر المذكور داخل فى الحق ، وذكره بعده لإبراز كمال العناية به . وفى السورة دعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه يجب على الإنسان أن يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه .

سورة الهُمَزَة

مكية ، وآياتها تسع آيات

مناسبتها لما قبلها :

ذكر – سبحانه وتعالى – فى السورة السابقة (سورة العصر) أن جميع أفراد الإنسان منغمسون فى الضلال والخسران إلا من عصم الله ، وفى هذه السورة (سورة الهمزة) يبين – سبحانه – أحوال بعض الخاسرين ، وصفات أهل الضلال .

مقاصد السورة :

١ – فى السورة وعيد لمن اعتاد أن يعيب الناس وجمع مالا كثيرًا وعَدَّدَهُ افتخارًا ظانًا أن ماله أخلده : (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ).

٢ – وفى السورة تهديد لهؤلاء بإلقائهم فى نار موقدة تحطم أجسامهم وقلوبهم ، وتغلق عليهم أبوابها فلا خلاص لهم منها : (كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ) إلى آخر السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾)

المفـردات :

(هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) الهمز : الكسر ، واللمز : الطعن ، شاعاً في النَّيْل من أعراض الناس .

وقيل : الْهَمْز : الطَّعن في الوجه ، واللَّمْز : الطعن في الخلف ، وقيل : الهمّاز : الطاعن بالقول ، واللماز : الطاعن بالفعل ، وقيل : اللُّمَزَةُ : الطَّعّان في الأَنساب خاصة ، وقيل غير ذلك ، والمراد : طعّان غيّاب عيّاب ، وبناءُ فُعَلَة يدل على أن ذلك صار طبعًا وعادة ، ونحوهما : الضُّحَكَة .

(وَعَدَّدَهُ) : عدّه مرة بعد أُخرى ، أَو جعله عُدَّةً لنوائب الدهر .

(أَخْلَدَهُ) : أخلده وخلَّده بمعنى ، أَى : تركه خالدًا ، أَى : ماكثاً مكثاً لايتناهى ، أَو مكثاً طويلا جدًا .

(كَلاَّ) : ردع له عن كل ما سبق .

(لَيُنبَذَنَّ) : ليطرحن ، والنَّبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير .

(الْحُطَمَةِ) : النَّار التى تحطم كل ما يلقى فيها ، أَى : تكسره .

(تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) : تصل إلى القلوب وتُحِيطُ بها ، أَو يقصد بالاطلاع : المعرفة والعلم .

(مُّؤْصَدَةٌ) : مطبقة . من : أَوصدت الباب ، أَى : أَغلقته .

(فِى عَمَدٍ) العمد : واحدها عمود ، أَو عماد .

(مُّمَدَّدَةٍ) : صفة لِعَمَد ، أَى : طوال .

التفسير

١ـ (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) :

أَى : هلاك وعذاب شديد وعقاب أَليم . وقيل : واد فى جهنم أعد وهيىء لمن دَأْبُه أَن يعيب النَّاس ويغض من أَقدارهم ، وينتقص من هممهم فى حضورهم أَو فى غيبتهم ، يفعل ذلك بالقول أَو الإشارة ، ويتكلم فى أَعراضهم بما لايليق ، مما تأْباه النفوس الكبيرة ،

وتتباعد عنه أصحاب الهمم العالية ، وروى عن ابن عباس أنه سئل عن الْهمزَةِ اللُّمَزَةِ فقال : « هو المشَّاءُ بالنميمة ، الْمُفَرِّق بين الجمع ، الْمُغْرى بين الإخوان .

قيل : نزلت السورة فى الأخنس بن شريق ، كان يلمز الناس ويغتابهم ، وقيل : فى أمية ابن خلف ؛ وكان يهمز النبي ويعيبه ، وقيل : فى الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب الرسول ويغض منه ، ثم بيَّن التَّنْزِيل سبب عيبه وطعْنه فى الناس فقال :

٢ - (الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ) :

أى : إن الذى دعاه إلى الحطِّ من الناس والغضِّ من أقدارهم والزراية عليهم هو جمعه للمال وتعديده له - أى : عَدُّه مرة بعد أخرى ؛ حبًّا له ، وشغفاً به ، وتهالكاً عليه ، وقيل : جعله أصنافاً وأنواعاً : كعقار ، ونقود ، أو جعله عُدَّةً لمصائب الأيام ومدخرًا لنوائب الدهر ونوازله ، وتنكير (مَالًا) للتكثير ، ويجوز أن يكون للتحقير والتقليل باعتبار أنه عند الله أقل وأحقر ، ثم بين - سبحانه - خطأه فى ظنه فقال :

٣ - (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) :

أى : يظن ذلك العيّاب الطَّعّان أن ما عنده من المال جعله خالدًا ، والمراد أن المال طوَّل أمله ومنَّاه الأمانى البعيدة ، فهو يعمل من تشييد البنيان ، وغرس الأشجار ، وشق الأنهار ، ونحو ذلك ، عَمَلَ من يظن أن ماله أبقاه حيا ، والإظهار فى (مَالَهُ) فى مقام الإضمار لزيادة التقرير ، ويجوز أن يراد أنه حسب ذلك حقيقة ؛ لفرط غروره واشتغاله بالجمع والتكاثر عما أمامه من قوارع الآخرة ، أو لزعمه أن الحياة والسلامة عن الأمراض تدور على مراعاة الأسباب الظاهرة . وأن المال هو أساس كل شىء . وأنه هو الذى يصنع كل شىء ، وهذا زعم فاسد ، ثم أخذ - سبحانه وتعالى - فى بيان ما أعد لهم من العذاب الشديد فقال :

٤ - (كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ) :

كلاَّ : ردع له عن كل ما تضمنته الجمل السابقة من الصفات القبيحة (لَيُنبَذَنَّ) جواب قسم مقدر . والجملة استئناف مبين لعلة الردع ، أى : والله لَيُطْرَحَنَّ ويُلْقَيَنَّ بسبب

أفعاله المذكورة (فِي الْحُطَمَةِ) أى : النار التى من شأْنِهَا أن تحطم كل ما يُلْقَى فيها - والحطْم : كسر الشىء كالهشم ، ثم استعمل لكل كسر مُتَنَاهٍ .

وقيل : الحطمة باب من أبواب جهنم ، أو طبقة من طبقاتها ، وقيل غير ذلك ، ثم أخذ - عز وعلا - يهول أمر هذه النار ويعظم شأْنها فقال :

٥ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) :

أى : وأى شىء أعلمك وعرَّفك ما حقيقة هذه النار الحطمة ؟! إن هذه الحطمة ، ما لا تحيط بها معرفتك ، ولا يقف على حقيقتها عقلك ، فلا يعلم شأْنها ، ولا يقف على كنهها إلَّا من أعدها لمن يستحقها ، فهى من الأُمور التى لا تنالها عقول الخلق ، ثم فسر هذه الحطمة بعد إبهامها فقال :

٦ - (نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ) :

أى : هى نار الله المسعرة الموقدة دائمًا بأَمر الله - عز وجل - وفى إضافتها إليه - سبحانه - ووصفها بالإيقاد من تهويل أمرها مالا مزيد عليه ، ثم وصفها بأَوصاف تخالف ميزان الدنيا ليؤكد مخالفتها لها فقال :

٧ - (الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) :

أى : تعلو هذه النار أوساط القلوب وتغشاها وتقهرها وتتسلط عليها وتتمكن منها ، وتخصيص الأَفئدة بالذكر لأَن الفؤاد ألطف ما فى الجسد وأشد تألمًا بأَدنى أذى يمسه ، أو لأَنه محل العقائد الفاسدة والنيات الخبيثة ، فهو أنسب بما تقدم من ألوان العذاب من جميع أجزاء الجسم ، أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب أنه قال فى الآية : تأْكل النار كلَّ شىء منه حتى تنتهى إلى فؤاده ، فإذا بلغت فؤاده أى ابتدأ خلقه (أى : من جديد) ويجوز أن يراد بالاطلاع العلم ، وكأن هذه النار تعلم وتعرف وتدرك فى ما أفئدة الناس يوم البعث ؛ فتميز الطائع عن العاصى والخبيث من الطيب وتُفَرِّق بين مَنْ ارتكبوا السيئات ، ومن فعلوا الصالحات ، وفى وصفها بالاطلاع على الأَفئدة التى أودعت فى باطن الإنسان ، فى أخفى مكان منه ؛ إشارة إلى أنها إلى غيره أشد وصولًا وأكثر تغلبًا .

٨ – (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) :

ومن أوصاف تلك النار أنها عليهم مؤصدة ، أى : مطبقة مغلقة أبوابها ، لا يخرجون منها ولا يستطيعون الخروج منها لو أرادوا .

٩ – (فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) :

أى : هم موثقون فيها مشدودون إلى عمدٍ ممددة ، فلا حركة لهم فيها ، ولا خلاص لهم منها ، وقال بعضهم : لا مانع أن يكون قوله تعالى : (فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) صلة لمؤصدة على معنى : أن الأبواب أوصدت بالعمد ، وسدت بها ؛ تأكيدًا ليأسهم ، واستيثاقًا بعد استيثاق .

والمراد بذلك : تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكامها عليهم ، والمبالغة فى ذلك ؛ ليزرع فى قلوبهم اليأس والخوف ، لأن المحدَّث عنهم همزوا ولمزوا خير البشر .

قال الآلوسى : من تأمل فى هذه السورة ظهر له العجب العجاب من التناسب .

١ – فإنه لما بولغ فى الوصف فى قوله : (هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) قيل : الحطمة للتعادل ؛ ليُطابِق العذابُ الذَّنْبَ .

٢ – ولَمَّا أفاد قوله : (هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) كسر الأعراض بالطعن فيها قوبل بكسر الأعضاء المدلول عليه بالحطمة .

٣ – وجىء بالنبذ المنبئ عن الاستحقار ، فى مقابله ما ظن الهامز اللامز بنفسه من الكرامة والاستعلاء على الناس .

٤ – ولَمَّا كان منشأً جمع المال استيلاء حبه على القلوب جىء فى مقابله بقوله تعالى : (الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) .

٥ – ولَمَّا كان مِنْ شأْن جامع المال المحب له أن يُوصد عليه ويغلق عليه الأبواب حرصًا عليه ، قيل فى مقابله : (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) أى : النار .

سورة الفيل

وهى مكية ، وآياتها خمس

مناسبتها لما قبلها :

ذكر – سبحانه – فى السورة السابقة (سورة الهُمَزة) أن المال والسلطان لا يغنيان من الله شيئًا ، وفى هذه السورة أقام – سبحانه وتعالى – الدليل على ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل ، وكذلك فى السورة السابقة توعد الله كل كافر بقوله تعالى : (لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ) وهنا فى هذه السورة أتى – عز وجل – بما يدل على إنفاذ وتحقيق ما توعد به أولئك الكفرة .

مقاصد السورة :

يخبر الله – سبحانه – نبيه ﷺ بقصة أصحاب الفيل الذين قصدوا بيت الله بمكة لهدمه : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) ويقص عليه ما حوته هذه القصة مِنْ عِبَر دالّة على قدرة الله وعظمته : (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ) ويذكر له كيف انتقم من هؤلاء المعتدين على حرماته : (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ) كما يذكر له عاقبة اعتدائهم ، وما آل إليه أمرهم : (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾)

المفردات :

(كَيْدَهُمْ) الكيد : إرادة وقوع ضرّ بغيرك على وجه الخفاء ، والمراد به : عزمهم على تخريب الكعبة وسعيهم على هدم البيت .

(تَضْلِيلٍ) : تضييع وإبطال ، وأصل التضليل : مِنْ ضَلَّ عنه : إذا ضاع .

(أَبَابِيلَ) أى : جماعات متفرقة ، جمع إبَّالة ، وحكى الفراءُ إبَالة – بالتخفيف– وهى حزمة الحطب الكبيرة ، شبهت بها الجماعات من الطير فى تَضَامِّها ، وقيل : واحده إبِّيل كسكِّين ، وقال أبوعبيدة : لاواحد له من لفظه .

(سِجِّيلٍ) : طين مطبوخ متحجر ، وقيل : حجارة من جهنم .

(كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) أى : كَتِبْن أكلته الدَّوابّ وَرَاثَتْه ، أو كورق زرع أصابته آفة فأتلفته .

التفسير

١ – (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) :

(أَلَمْ تَرَ) – استفهام تعجيب – أى : أعجبت كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟! وهم أبرهة وقومه .

أى : قد علمت يا محمد عِلْمًا لا يُخالطه شك فِعْل ربك بأصحاب الفيل ، ووقعت القصة عام مولد الرسول ، قال السهيلى : ولد الرسول بعدها بخمسين يومًا ، وكانت القصة فى الحرم ، والولادة فى شهر ربيع الأول ، وقيل غير ذلك ، ولعظم القصة كانوا يؤرخون بها ؛ شأن الأحداث الكبيرة ، والوقائع الخطيرة ، فيقولون : ولد فلان ، أو مات قبل الفيل بعام أو بعده بعامين مثلًا .

وخلاصة قصة الفيل كما رواها الإمام ابن كثير والزمخشرى فى الكشاف : أن أبرهة ملك اليمن من قبل النجاشى بنى كنيسة (بصنعاء) وسماها (القُلَّيس) وأراد أن يصرف الحجاج إليها ، فخرج رجل من كِنْدَةَ فأحدث فيها ليلًا ، وقيل : أَجَّج فيها نارًا فأحرقتها ،

فحلف أبرهة ليهدمن الكعبة ، فخرج ومعه فيل ، وكان قويًّا عظيمًا ، وقيل : كان معه أكثر من فيل ، فلمَّا بلغ (المُغَمّس) وهو موضع فى طريق الطائف بالقرب من مكة خرج عليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى ، وعبَّأ جيشه وقَدَّم الفيل ، وكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو غيرها من الجهات هرول ، فأرسل الله طيرًا سودًا ، وقيل : خضرًا ، وقيل : بيضًا ، مع كل طائر حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، ففروا فهلكوا فى كل طريق ومنهل ، ومرض أبرهة فتساقطت أنامله وأعضاؤه ، وما مات حتى انصدع صدره .

والمعنى : إنك رأيت آثار فِعْلِ الله بأهل الحبشة الذين قصدوا هدم البيت ، وسمعت الأخبار به متواترة ، فقامت لك مقام المشاهدة .

قال الآلوسى : وتعليق الرؤية بكيفية فعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا بفعله بأن يقال : ألم تر ما فعل ربك .. إلخ ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية خارقة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى ، وكمال علمه وحكمته ، وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك ـ كما قال غير واحد ـ كان من الإرهاصات ، بمولد الرسول ﷺ ، قال إبراهيم ابن المنذر شيخ البخارى : لا يشك فى ذلك أحد من العلماء وعليه أكثرهم ، وعن عكرمة : أن من أصابته الحجارة جَدَرَتْهُ ، وهو أول جُدَرِيٍّ ظهر ، أى : بأرض العرب ، فعن يعقوب ابن عتبة أنه حدَّث أنه أول ما رؤيت الحصبة والجدرى كان بأرض العرب فى ذلك العام .

٢ ـ (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ) :

بيان إجمالى لما فعل الله بهم ، والهمزة للتقرير ، كأنه قيل : قد جعل الله كيدهم فى هدم الكعبة وتخريبها فى تضييع وإبطال ؛ بأن دَمَّرهم أشنع تدمير ، وأهلكهم على أفظع صورة ، فضيع تدبيرهم وخيب سعيهم ، ولم ينالوا قصدهم ، ثم فصَّل تدبيره فى إبطال كيد أولئك القوم فقال :

٣ ـ (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) :

أى : وسلط الله عليهم من جنوده فِرَقاً من الطير ، أتتهم جماعات مسرعة متتابعة ، وأحاطت بهم من كل جهة ، وجاءت هذه الطير ـ على ما روى عن جمع ـ من جهة البحر ، وعن عكرمة : كأن وجوهها مثل وجوه السباع ، لم تُر قبل ذلك ولا بعده .

٤ ـ (تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ) :

صفة أخرى كقوله : (طيرًا) وعبر بالمضارع فى (تَرْمِيهِم) لحكاية الحال ، واستحضار تلك الصورة الغريبة .

والمعنى : تقذفهم بحجارة من سجيل ، أى : من طين مطبوخ متحجر ، وقيل : هو عربى من السِّجل بالكسر وهو الدلو الكبيرة ومعنى كون الحجارة من الدلو : أنها متتابعة كثيرة كالماء الذى يصب من الدلو ، وقيل : من الإسجال ، بمعنى الإرسال ، وقيل : من سجين ، أى : من جهنم (آلوسى وكشاف بتصرف) وقيل : هو ليس بعربى بل هو منقول من غير العربية ، واختلف فى حجم تلك الطير ، وكذلك فى حجم تلك الحجارة ، روى أن الطير فى الجسم كالخطاطيف ، والحجارة منها ما هو كالحمصة ، أو أصغر أو أكبر .

قال الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ : فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة ، وهى نعمة من الله غمر بها أهل حرمه مع وثنيتهم حفظًا لبيته ؛ حتى يرسل إليه رسوله الذى يحميه بقوة دينه ، وهى نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت .

٥ ـ (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) :

أى : فجعلهم كورق زرع أصابته آفة فأتلفته ، وذهب غير واحد إلى أن المعنى : فجعلهم كَتِبْن أكلته الدواب وراثته ، والمراد : كَرَوْث إلَّا أنه لم يذكره بهذا اللفظ لهجنته ، فجاء على نظام الآداب القرآنية ، فشبه تَقَطُّعَ أوصالهم بتفرّق أجزاء الرَّوْث ، ففيه إظهار تشويه حالهم ؛ حيث جعلهم مبتذلين ضائعين ، لا حافظ لهم ، ولا يلتفت إليهم أحد ، ولا يدفنهم .

سورة قريش

وهى مكية ، وآياتها اربع

مناسبتها لما قبلها :

إن كلاًّ منهما تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ، فالأُولى (سورة الفيل) تضمنت إهلاك عدوهم الذى جاء ليهدم بيتهم وهو أساس مجدهم ، والثانية (سورة قريش) ذكرت نعمة أُخرى ، وهى اجتماع أمرهم والتئام شملهم ليتمكنوا من القيام برحلتى الشتاء والصيف ، ولشدة الصلة بين السورتين كان أُبى بن كعب - رضى الله عنه - يعتبرهما سورة واحدة .

مقاصد السورة :

١ - فى هذه السورة الكريمة يبين الله فضله على قريش ويَمُنُّ عليهم بأَنه حمى البيت من الأَعداء ، وجعلهم عُمَّاره وأهل جيرته ، وبهذا اكتسبوا عزًّا ومجدًا ، وهو الأَمن ، فهم يمضون إلى مزاولة تجارتهم بين الشام واليمن ، دون أن يعترض طريقهم أحد ، وهم بهذا ضمنوا - إلى نعمة الأَمن - نعمة الغنى واليسار :

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ * رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) .

٢ - وهذه كلها نعم توجب عليهم عبادة ربهم الذى أَطعمهم من جوع وآمنهم من خوف :

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾)

المفردات :

(لِإِيلَافِ) إيلاف : مصدر أَلِفْتُ الشيء إِلْفًا وَإِلافًا ، وآلَفْتُهُ إيلافًا : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأُنس به ، وقال الراغب : الإيلاف : اجتماعٌ مع التئام ، وقال الهروى : عهود بينهم وبين الملوك .

(قُرَيْشٍ) : ولد النضر بن كنانة ، وهو أصح الأقوال ، وهو فى الأصل تصغير (قَرْش) بفتح القاف اسم لدابة فى البحر أقوى من كل دابة ، وقال الفراء : هو من التَّقَرُّش ، بمعنى التكسب ؛ سموا بذلك لاشتغالهم بالتجارة ، وقيل : من التقرش بمعنى التجمع .

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) : فليوحدوه بالعبادة ولا يشركوا معه غيره .

التفسير

١ - (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) :

متصل بقوله : (فَلْيَعْبُدُواْ) واللام للتعليل . أمرهم أن يعبدوه لإيلافهم الرحلتين ، والمعنى : أن نعم الله لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ، وهذا رأى الخليل ، وقال الكسائى والفرَّاءُ : المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش (بدليل السياق) كأَنه قيل : اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة الله الذى أعزهم

ورزقهم وآمنهم؛ فلهذا أمروا بعبادة ربهم المنعم عليهم بالرزق والأمن ، وقال الأخفش : (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) متعلق بآخر السورة التي قبلها ، أي : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، والقرآن كله كالسورة الواحده .

والمعنى : أهلك الله - سبحانه وتعالى - من قصدهم من الحبشة ، ولم يسلطهم عليهم ؛ ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ، ويحترموهم فضل احترام ، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم ، فلايجترئ أحد عليهم .

٢ - (إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) : بدل من إيلاف قريش :

أي : فلتعبد قريش ربها شكرًا له على أنه جعلهم قومًا تجارًا لهم رحلتان : رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاويه ، ورحلة في الصيف إلى الشام لجلب الأقوات إلى بلادهم ، ولقد كان العرب يحترمونهم في أسفارهم لأنهم جيران بيت الله وولاة الكعبة ، فيذهبون آمنين ويرجعون سالمين ، على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التي لا تنقطع ، ولهذا ألفت قريش الأسفار ، وتعلقت بالرحيل طلبًا للرزق ، وهذا الإجلال الذي ملك نفوس العرب للبيت الحرام ولجيرانه ، إنما هو من تسخير رب البيت - سبحانه - ولقد حفظ الله حرمته فرد الحبشة عنه حين أرادوا هدمه وأهلكهم ، قبل أن ينقضوا منه حجرًا ولو نزلت مكانة البيت عند العرب ومكانة أهله وجيرانه واستطالت الأيدي عليهم لنفروا من تلك الرحلات وأعرضوا عن هذه الأسفار فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم صحراء قاحلة وليسوا مهرة في الصناعات ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

٣ - (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) :

أي : فليخلصوا العبادة لرب هذا البيت الذي مكنهم من القيام بهاتين الرحلتين ، ولا يشركوا به غيره ، ويفردوه بالتعظيم والإجلال ، وهذا البيت هو الكعبة التي حميت من

أصحاب الفيل . وعن عمر - رضى الله عنه - أنه صلّى بالناس بمكة عند الكعبة ، فلمّا قرأ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ جعل يومئ بإصبعه إليها وهو فى الصلاة بين يدى الله عز وجل.

ثم وصف رب هذا البيت بقوله :

٤ - ﴿ الَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ :

أى : رب البيت هو الذى أطعمهم من جوع بأن وسع لهم الرزق ومهد لهم سبيله ، بسبب هاتين الرحلتين اللتين تمكنوا منهما بسبب كونهم من جيران بيته ، وأهل حرمه. وقيل : أراد بالجوع : القحط الذى أكلوا فيه الجيف والعظام ، فأغاثهم الله بعد ذلك وأمدهم برزقه . ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أى : وآمنهم من خوف عظيم شديد الهول : وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف فى بلدهم ورحلاتهم .

سورة الماعون

وهى مكية ، وآياتها سبع آيات

مناسبتها لما قبلها :

لَمَّا ذكر – سبحانه وتعالى – فى السورة السابقة (سورة قريش) أنه (أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ) ذم هنا فى (سورة الماعون) من لم يحضُّ على طعام المسكين ، ولما قال تعالى فى السورة السابقة : (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) ذم – سبحانه وتعالى – هنا من سها عن صلاته التى يتوجه فيها إلى هذا البيت .

مقاصد السورة :

١ – تحدثت السورة الكريمة عن المكذب بالدين ، وأن من أوصافه أنه يهين اليتيم ويزجره ، وأنه لايحض بقول أو فعل على إطعام المسكين : (أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّين * فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ) .

٢ – ثم ذكرت السورة فريقاً آخر شبيهاً بهذا المكذب بالدين ، وهم الذين هم عن صلاتهم ساهون وغافلون لا يؤدونها ، والذين هم مراءُون بأعمالهم ، وهم مع ذلك يبخلون بالمعونة عمن يحتاج إليها ، ولا يساعدون غيرهم فيما جرت به العادة أن يساعد بعضهم بعضاً فيه ، وتوعدت هؤلاء بالويل والهلاك : (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ...) إلى آخر السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧)

المفردات :

(أَرَأَيْتَ) : أَعَلِمْتَ ؟

(يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) : يجحد الجزاء والبعث ، وينكر القرآن .

(يَدُعُّ الْيَتِيمَ) : يدفعه دفعًا عنيفًا ويزجره زجرًا قبيحًا .

(وَلَا يَحُضُّ) : ولايحث على إطعام المسكين ولايدعو الناس إلى ذلك .

(سَاهُونَ) : غافلون عنها غير مبالين بها ، أو تاركون لها .

(يُرَآءُونَ) قال الزمخشرى : المراءاة : هى مفاعلة من الإراءة ، لأَنَّ الرَّائِى يُرِى النَّاسَ عملَه ، وهم يُرُونَه الثناء عليه والإعجاب به . والمعنى : يظهرون للناس أعمالهم ليثنوا عليهم.

(الْمَاعُونَ) : المعروف والمعونة والخير .

التفسير

١ - (أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) :

استفهام بالهمزة ، أُريد به تشويق السامع إلى تعرّف المكذب لأَنَّ ذلك مِمَّا يجب على المُتَدَيِّن معرفته ليحترز عنه وعن فعله ، وفيه أيضًا تعجيب منه ، والخطاب فى (أَرَأَيْتَ) لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له الخطابُ .

والمعنى : هل عرفت وعلمت الذى يكذب بالجزاء والبعث ؟ أو بالإسلام وتعاليمه من هو ؟

٢ ـ (فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ) :

الفاءُ للسببية ، وما بعدها مسبب عن التشويق الذى يدل عليه الكلام السابق .

والمعنى : إن أردت أن تعرفه فهذه صفاته : فذلك الذى يكذب بالدين ، هو الذى يدعُّ اليتيم ، أى : يدفعه ويزجره ، مع إظهار الجفوة والاحتقار له والتَّعالى عليه .

٣ ـ (وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

أى : ولا يحث نفسه ولا غيره ، ولا يبعث أحدًا من أهله وغيرهم من الموسرين ويحثه على طعام المسكين ، أى : على بذل طعام المسكين ، وهو ما يتناوله من الغذاء ، والمسكين : هو الفقير المحتاج الذى لا شىء له يقوم بأوده وكفايته ، والتعبير ب (طعام المسكين) للإشعار بأن المسكين كأنه مالك للطعام الذى يقدم له ، كما فى قوله تعالى : « وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ »[1] فهو بيان لشدة الاستحقاق ، وفيه إشارة للنهى عن المنّ .

قال الزمخشرى : جعل عَلَمَ (وأمارة) التكذيب بالجزاء منع المعروف ، والإقدام على إيذاء الضعيف ، يعنى : لو أنه آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشى الله تعالى وعقابه ، ولم يقدم على ذلك ، فحين أقدم عليه عُلِم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ، وما أبلغه فى التحذير من المعصية ؛ وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان .

وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا عجز عن مساعدة المسكين كان عليه أن يحث غيره من القادرين على ذلك ويدعوه إلى فعل الخير .

٤ ، ٥ ـ (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) :

ثم وصل به قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ) كأنه قيل : فإذا كان الأمر كذلك وكان دَعُّ اليتيم ودفعه وعدم الحض على طعام المسكين بهذه المثابة فويل ؛ أى : هلاك وعذاب . أو واد فى جهنم للمصلين (الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) أى : الذين يسهون عن الصلاة ،

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ١٩ .

قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها ، أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف . ولكن ينقرونها نقرًا من غير خشوع ولا إخبات ، ولا اجتناب لما يكره فيها من مثل العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدرى الواحد منهم كم صلى من الركعات ، التى انصرف عنها ، ولاما قال من السور .

٦ ، ٧ – (الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) :

(الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ) أى : يقصدون الرياء بأعمالهم ، ويعملون حيث يرون الناس ويرونهم طلبًا للثناء عليهم ، ولا يكون الرجل مرائيًا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله ﷺ : « وَلا غمَّةَ فِى فَرَائِضِ اللهِ » لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين وتاركها يستحق المقت والذم ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعًا فحقه أن يخفى ؛ لأنه مما لا يلام بتركه ، ولا تهمة فيه ، فإن أظهره للاقتداء به كان جميلًا وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين ؛ فيثنى عليه بالصلاح .

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) : قيل معناه : ويمنعون الزكاة عن مستحقيها من الفقراء والمساكين وباقى الأصناف التى تستحق الزكاة ، ولا ترق قلوبهم للجياع والمحتاجين ، وعن ابن مسعود : (الْمَاعُونَ) : ما يتعاور بين الناس فى العادة من الفأس والقدر والدلو .

وعن عكرمة : رأس الماعون : زكاة المال ، وأدناها : الدلو ، وهذا يشمل كل الأقوال ؛ لأن المراد ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولذا قال ابن كعب : الماعون : المعروف .

والمعنى : أن هؤلاء الذين سهوا عن الصلاة التى هى عماد الدين . والفارق بين الإيمان والكفر ، والذين راءوا بها والرياء شعبة من الشرك ، والذين منعوا الزكاة التى هى شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام أولى وأجدر بهم أن يطلق عليهم أنهم مكذبون بيوم الدين لأنهم نسوا عاقبة أفعالهم التى سيعاقبون عليها يوم القيامة .

سورة الكوثر

وهى مكية ، وآياتها ثلاث آيات

مناسبتها لما قبلها :

قال الإمام : هذه السورة كالمقابلة للسورة التى قبلها (سورة الماعون) لأن الله سبحانه وصف المنافقين فى السورة السابقة بأربعة أمور :

١ - البخل . ٢ - وترك الصلاة . ٣ - والرياء .

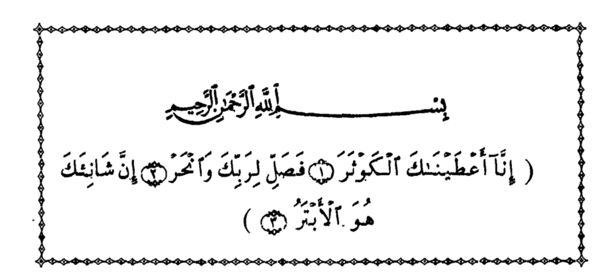
٤ - منع المعاونة ، وذكر الله فى هذه السورة فى مقابلة البخل (إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وفى مقابلة ترك الصلاة (فَصَلِّ) أى : دم على الصلاة . وفى مقابلة الرياء (لِرَبِّكَ) أى : لرضا ربك لا لرضا الناس . وفى مقابلة منع الماعون (وَانْحَرْ) وأراد به سبحانه التصدق بلحوم الأضاحى .

مقاصد السورة :

١ - فى هذه السورة امتنَّ الله على عبده ورسوله ﷺ بأنه أعطاه الكوثر ، وهو الخير العظيم فى الدنيا والآخرة (إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) .

٢ - وطلب منه شكرًا على هذه النعمة أن يديم الصلاة خالصة لوجهه ، وأن ينحر من طيبات أمواله شكرًا للمنعم المتفضل : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) .

٣ - وختمت السورة بهذه البشارة العظيمة : (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) أى : إن عدوك ومبغضك هو المقطوع الذكر ليس له أثر صالح ، أما أنت فسيبقى ذكرك فى العالمين .



المفردات :

(الْكَوْثَرَ) : فوعل من الكثرة – صيغة مبالغة ، أى : الشىء الكثير كثرة مفرطة ، والكوثر : قيل : هو نهر فى الجنة ، وقيل : هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، والنهر فى الجنة بعض هذا الخير ، وقيل : النبوة ، وقيل غير ذلك .

(فَصَلِّ) أى : فدم على الصلاة .

(لِرَبِّكَ) أى : خالصة له وابتغاء مرضاته وحده .

(وَانْحَرْ) أى : اذبح الأضحية ، وقيل غير ذلك .

(شَانِئَكَ) أى : مبغضك وكارهك .

(الْأَبْتَرُ) : الذى ليس له عقب ، وليس له ذكر حسن ، وأصل البتر فى اللغة : القطع ، وشاع فى قطع الذنب ، وقيل لمن لاعقب له : (أبتر) على التشبيه .

التفسير

١ – (إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) :

أى : إنا منحناك وأوليناك يا محمد الخير الكثير الدائم الذى لا ينقطع فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأكثر المفسرين على أن الكوثر نهر فى الجنة ، لما رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما

أن النبي ﷺ قال : « هَلْ تَدْرُون مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ اللهُ فِى الْجَنَّةِ ». وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير ، فقال سعيد ابن جبير : إن ناسًا يقولون : هو نهر فى الجنة ، فقال : هو من الخير الكثير . والحق ما قال ابن عباس ؛ لأنه يشمل كل ما جاء من روايات وأقوال بلغت أكثر من ستة وعشرين قولًا ، وكلها ترجع إلى ما ذكر فى تفسيره بالخير الكثير ، وكأن ما جاء فى الروايات أمثلة لهذا الخير الكثير ، كقولهم : المراد به النبوة ، أو القرآن ، وقيل : أولاده ، وقيل : علماءُ أُمته ، قال الآلوسى : وفى التعبير بالماضى فى (أَعْطَيْنَاكَ) قيل : إشارة إلى تحقق الوقوع ، وقيل : إشارة إلى تعظيم الإعطاء وأنه أمر مرعى لم يترك إلى أن يُفْعل بعد ، وقيل : إشارة إلى بشارة أُخرى ، كأنه قيل : إنا هيأْنا لك أسباب سعادتك قبل دخولك فى الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية ؟!

٢ - (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) :

الفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها (فَصَلِّ) قيل : المراد بالصلاة التى أُمر بها فى الآية جنس الصلاة ، وقيل : الصلاة المفروضة ، وقيل : صلاة العيد بناءً على قول من قال : إن السورة مدنية ، وكذلك قوله : (وانْحَرْ) قيل : المراد بالنحر نحر الْبُدْنِ للأُضحية ، وقيل : وانحر ، أى : استقبل القبلة بنحرك ، وإليه ذهب الفراءُ ، وقيل : اجعل صلاتك لله لا لغيره ، واجعل ذبحك باسم الله لا باسم غيره كما يفعل المشركون .. وقيل غير ذلك .

قال الزمخشرى : والمعنى : أعطيتك مالا غاية لكثرته من خير الدارين الذى لم يُعْطَه أَحَدٌ غيرك ، فاجتمعت لك الفضيلتان : إصابة أشرف عطاءٍ وأوفره من أكرم مُعْطٍ وأعظم مُنْعِم ، فاعبد ربك الذى أعزك بإعطائه وشرفك وصانك وجعلك أشرف قومك الذين يعبدون غير الله ، وانحر لوجهه واسمه إذا نحرت ، فخالفهم فى النحر فإنهم يقدمونه للأَوثان ، وبعد أن بَشَّر الله رسوله بأعظم البشارة ، وطالبه بشكره على ذلك ، وكان من تمام نعمته على نبيه أن يصبح عدوه مقهورًا ذليلًا ، قال :

٣ ـ (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) :

أى : إن مبغضك وعدوك ـ كائنا من كان ـ هو الأبتر الذى لا عقب له . لا يبقى له نسل ولا حُسْنُ ذكر ، لا أنت يا محمد . لأن كل من يولد من المؤمنين إلى يوم القيامة فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع إلى آخر الدهر ، يُبدأُ بذكر الله ويثنى بذكرك ؛ فمثلك لا يقال له أبتر ، وإنما الأبتر شانئك ومبغضك فى الدنيا والآخرة ، وإذا ذكر ذكر باللعن ، قيل : مات القاسم ، وهو أول ميت من ولده بمكة ، ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمى : قد انقطع نسله ، فهو أبتر ، فأنزل الله تعالى : (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) وقيل : نزلت فى أبى جهل ، وقيل : فى عقبة بن أبى معيط ، والجمهور على أنها نزلت فى العاص ابن وائل ، وأيًّا ما كان فلا ريب فى ظهور عموم الحكم ، وهذه السورة الكريمة على قصرها وإيجازها قد اشتملت على ما يدل على عظيم إعجازها ، وقد أطال الإمام فيها الكلام ؛ وذكر أن قوله تعالى : (وَانْحَرْ) متضمن الإخبار بالغيب ـ وهو سعة ذات يده ﷺ وأمته . وقيل مثله فى ذلك : (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) والله أعلم .

سورة الكافرون

وهى مكية ، وآياتها ست آيات

وتسمى الْمُقَشْقِشَة ، أى : الْمُبَرِّئَة من الشرك والنفاق – وسورة العبادة ، وسورة الإخلاص .

مناسبتها لما قبلها :

فى السورة السابقة (سورة الكوثر) أمر الله رسوله بالشكر على نعمه الكثيرة وذلك بإخلاص العبادة له ، وفى هذه السورة (الكافرون) التصريح بما أشير له فيما سلف وهو الأمر بإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى .

مقاصد السورة :

١ – فى هذه السورة الكريمة أمر الله رسوله أن يقطع أطماع الكافرين فى مساومتهم له فى عقيدته للاختلاف التام بينه وبينهم فى المعبود وفى طريقة العبادة :

(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) .

٢ – فلكم – أيها الكافرون – دينكم الذى قلدتم فيه آباءكم ورضيتموه لأنفسكم وهو الشرك . ولى دينى الذى ارتضاه الله لى وهو دين الحق والتوحيد : (وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ..) إلى آخر السورة .

بعض فضائلها :

قيل : يُسَنُّ قراءتها مع سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فى ركعتى سنة الفجر ، وفى الركعتين بعد المغرب . وجاء فى بعض الروايات أنها تعدل ربع القرآن ؛ لأن مقاصد القرآن :

١ – صفاته تعالى .   ٢ – والنُّبوَّات .

٣ – والأحكام .

٤ – والمواعظ . وهى مشتملة على الأساس الأول وهو التوحيد ، ولذا عدلت ربع القرآن ، وقيل غير ذلك . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(الْكَافِرُونَ) : المراد بهم كفرة من قريش مخصوصون قد علم الله أنهم لا يؤمنون ، واللفظ يشمل كل كافر .

(لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) أى : لا أعبد الذى تعبدونه من دون الله : من الأصنام والأنداد .

(وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) : ولا أنتم عابدون الذى أعبده وهو الله وحده .

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) : لكم شرككم وكفركم وستجازون عليه ، ولى توحيدى ، وإخلاصى وسأُجازى عليه .

التفسـير

١ - (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) :

قال جمهور المفسرين : المراد بهم كفرة مخصوصون من قريش قد علم الله أنهم لا يؤمنون أبدًا ، أخرج[1] ابن جرير أن رسول الله ﷺ لقى الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف فقالوا : يا محمد؛ هلم فلتعبد ما نعبد ، ونعبد

---

(١) آلوسى .

ما تعبد ، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله ، فإن كان الذى نحن عليه أصحَّ من الذى أنت عليه كنتَ أخذتَ منه حظًّا ، وإن كان الذى أنت عليه أصَحَّ من الذى نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظًّا ، فأنزل الله تعالى : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) إلى آخره حتى انقضت السورة ، وفى رواية أن رهطًا من عتاة قريش قالوا له ﷺ : هلم فاتبع ديننا ، ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلٰهك سنة ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : « مَعَاذَ اللهِ أَنْ أُشْرِكَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ غَيْرَهُ » فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلٰهك ، فنزلت ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ، وفيه الملأُ من قريش ، فقام – عليه الصلاة والسلام – فقرأها عليهم ، فَأَيِسُوا ، ولعل نداءهم بـ (يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) للمبالغة فى طلب إقبالهم ؛ لئلا يفوتهم شئ مما يلقى عليهم ، وفى ندائه – عليه الصلاة والسلام – بذلك فى ناديهم ومكان قوتهم دليل على عدم اكتراثه – عليه الصلاة والسلام – بهم ؛ إذ المعنى : قل يا محمد للكافرين : يا أيها الكافرون .

٢ – ٥ – (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) :

الظاهر أن فيه تكرارًا للتأْكيد ، فالجملة الثالثة المنفية (وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) على ما فى البحر تأْكيد للأُولى : (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) على وجه أبلغ ؛ لاسمية المؤكّدة ، والرابعة : (وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) توكيد للثانية : (وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) وهو الذى اختاره الطيبى ، وذهب إليه الفراءُ ، وقال : إن القرآن نزل بلغة العرب ، ومن عادتهم تكرير الكلام للتأْكيد والإفهام ، فيقول المجيب : بلى بلى والممتنع : لا لا ، وعليه قوله – تعالى – : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »[1] وهو كثير نظمًا ونثرًا ، وفائدة التوكيد هنا قطع أطماع الكافرين . وتحقيق أنهم باقون على الكفر أبدًا ، والرسول باق على عبادة ربه أبدًا .

---

(١) سورة التكاثر الآيتان : ٣ ، ٤ .

والذى عليه الجمهور : أنه لا تكرار فيه ، ولكنهم اختلفوا فى بيان ذلك وتوجيهه . فقال الزمخشرى : (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) أريد بالنفى فى الآيتين النفى فى المستقبل ، فمعنى (لَآ أَعْبُدُ) : نفى العبادة فى المستقبل ، لأن (لا) لا تدخل إلّا على مضارع فى معنى الاستقبال ، والمعنى : لا أعبد فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه ، أى : فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلٰهى .

فمعنى (وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) أى : وما كنت عابدًا فيما سلف ما عبدتم فيه ، يعنى لم تعْهَد منى عبادة صنم فى الجاهلية ، فكيف تُرْجَى منى فى الإسلام .

٦ - (وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) :

أى : وما عبدتم فى وقت مضى ما أنا على عبادته ، فالآيتان الأخيرتان للنفى فى الماضى

ولقد ذكر الآلوسى آراء كثيرة فى هذا الموضوع فليرجع إليه من أراد .

٧ - (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) :

(لَكُمْ دِينُكُمْ) هو عند الأكثرين تقرير لقوله تعالى : (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) . وقوله تعالى : (وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) كما أن قوله تعالى : (وَلِىَ دِينِ) عندهم تقرير لقوله تعالى : (وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) .

ومعنى (لَكُمْ دِينُكُمْ) : إن دينكم - وهو الإشراك - مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول إلىّ كما تطمعون فيه ، فلا تعلقوا به آمالكم الكاذبة .

ومعنى (وَلِىَ دِينِ) : إن دينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول إلىّ ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضًا ، لأن الله قد ختم على قلوبكم لسوء استعدادكم ، أو لأنكم علقتموها بالمحال الذى هو عبادتى لآلهتكم ، أو استلامى لها ، ويجوز أن يكون هذا تقريرا لقوله : (وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) وقيل : المراد به المتاركة ، أى : لكم دينكم - وهو كفركم وشرككم - ولى دينى ، أى : لى توحيدى - على معنى أنى نبى مبعوث لكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فدعونى ولا تدعونى إلى الشرك ، وإليه ذهب الزمخشرى (انظر الكشاف) .

سورة النصر

وهى مدنية ، وآياتها ثلاث آيات

مناسبتها لما قبلها :

إنه لَمَّا ذكر فى السورة السابقة (الكافرون) اختلاف دين الرسول الذى يدعو إليه ، ودين الكفار الذى يعكفون عليه ، أشار فى هذه السورة (سورة النصر) إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذى يدعو إليه الرسول – وهو الإسلام – سيغلب عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم .

مقاصد السورة :

طلبت هذه السورة من رسول الله ﷺ أنه إذا جاء نصر الله وفتح مكة ، ورأى الناس يدخلون فى دين الله جماعات – أن يسبح بحمده شكرًا له ، وينزهه عمَّا لا يليق ، ويستغفره لنفسه وللمؤمنين ؛ لأنه سبحانه هو الذى يقبل توبة التائبين :

(إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ...) إلى آخر السورة .

ولقد حدث الفتح كما أخبر الله ، وذلك من علامات نبوته ﷺ .

قال الآلوسى : سورة النصر ، وتسمى سورة (إذا جاء) وعن ابن مسعود أنها تسمى (سورة التوديع) لما فيها من الإيماء إلى قرب وفاته ﷺ وتوديعه الدنيا وما فيها ، وجاء فى عدة روايات عن ابن عباس وغيره أنه ﷺ لما نزلت دعا إليه فاطمة – رضى الله عنها – وقال : « إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَىَّ نَفْسِى » فبكت ، ثم ضحكت ، فقيل لها ، فقالت : أخبرنى أنه قد نعيت إليه نفسه فبكيتُ ، ثم أخبرنى بأنَّكِ أَوَّلُ أهلى لحوقًا بى فضحكتُ ، وقد فهم ذلك منها عمر – رضى الله عنه – وكان – عليه الصلاة والسلام – بعدها يفعل فعل مُوَدِّع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾)

المفـردات :

(نَصْرُ اللهِ) : عونه لك على أعدائك ، يقال : نصره على عدوه ، أى : أعانه عليه .

(الْفَتْحُ) : الفصل بينه وبين أعدائه ، وإعزاز دينه ، والمراد به - على الأرجح - : فتح مكة .

(أَفْوَاجًا) : جمع فوج ، وهو - على ما قال الراغب : الجماعة المارة المسرعة ، ويراد به مطلق الجماعة .

التفسير

١ - (إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) :

(إِذَا) : ظرف للزمن المستقبل ، والإعلام بذلك من أعلام النبوة ، روى أنها نزلت فى أيام التشريق بمِنًى فى حجة الوداع .

والمعنى : إذا تحقق نصر الله والفتح لك وللمؤمنين ، وإذا تأكد نصر الله لدين الحق وانهزام أهل الشرك ، وفتح الله بينك وبين قومك بجعل الغلبة لك عليهم ، وإعزاز أمرك ، وإعلاء كلمتك ، قال الزمخشرى ، والفرق بين النصر والفتح : أن النصر الإغاثة والإظهار على العدو ، ومنه نَصَرَ الغيثُ الأرض : إذا أغاثها وأعانها على إخراج نباتها ، والفتح : فتح البلاد . والفصل بينك وبين الأعداء .

والأكثرون على أن المراد بالنصر صلح الحديبية ، وكان فى آخر سنة ست ، والمراد بالفتح : فتح مكة ، روى ذلك عن مجاهد وغيره ، وصححه الجمهور وكان فى السنة الثامنة وكان المسلمون فى هذه الغزوة عشرة آلاف من المهاجرين والأنصاروطوائف العرب ، وقيل : كانوا اثنى عشر ألفًا ، قال ابن كثير : المراد بالفتح هنا فتح مكة قولًا واحدًا ؛ فإن أحياء العرب كانت تقول : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلمَّا فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجًا ، وأقبلوا على الإسلام من كل حدب وصوب ، ولم تمض سنتان حتى ملئت جزيرة العرب إيمانًا ، وقيل : المراد جنس نصر الله لرسوله وللمؤمنين وجنس الفتح ، فيعم ما كان فى أمر مكة – زادها الله تعالى شرفًا – وغيره ، وفتح بلاد الشرك .

٢ – (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا) :

أى : ورأيت العرب وغيرهم يدخلون فى الإسلام وهو دين الله الذى لا دين غيره جماعات جماعات لا أفرادًا كما كان فى بدء الدعوة .

قال الآلوسى : والمراد بدخول الناس فى دينه تعالى أفواجًا – أى : جماعات كثيرة : إسلامهم بكثرة من غير قتال ، وقد كان ذلك بين فتح مكة وموته – عليه الصلاة والسلام – وكانوا قبل الفتح يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين ، أخرج البخارى عن عمرو ابن سلمة قال : لـمَّا كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم[1] بإسلامها فتح مكة ، فيقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبى ، وقال عكرمة ومقاتل : المراد بالناس : أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل وأسلموا ، واحتجوا بما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : بينما رسول الله فى المدينة إذ قال : « اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ » قيل : يا رسول الله وما أهل اليمن ؟ قال : « قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ لَيِّنَةٌ طَاعَتُهُمْ ، الْإِيمَانُ وَالْفِقْهُ يَمَانٍ ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ) . وَرَوَى مثل هذا البخارى ومسلم والترمذى ، وقيل : إن ذلك لأن أهل مكة – وفيهم بعث النبى ومنهم المهاجرون – يمانيون ، وكذلك أهل المدينة ومنهم الأنصار .

---

(١) تلوم فى الأمر : تمكث وانتظر . (القاموس المحيط) .

والظاهر أنه ثناء على أهل اليمن ؛ لإسراعهم إلى الإيمان وقبولهم له بسهولة ويسر ، ويشمل الأنصار وغيرهم ، والظاهر أيضًا أن الخطاب فى (وَرَأَيْتَ) للنبى ﷺ وقيل : الخطاب عام لكل مؤمن .

٣ - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) :

أى : إذا تم لك ما ذكر فاشكر المنعم (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أى : فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه ، حامدًا له - جل وعلا - زيادة فى عبادته والثناء عليه سبحانه لزيادة إنعامه عليك ، فالتسبيح : التنزيه ، لا التلفظ بكلمة (سبحان) .

والمعنى : اجمع بين تسبيحه تعالى - وهو تنزيهه عمَّا لا يليق من النقائص - وتحميده وهو إثبات مايليق به من المحامد له لعظم ما أنعم سبحانه به عليك صلوات الله وسلامه عليك .

(وَاسْتَغْفِرْهُ) أى : واطلب منه أن يغفر لك ولأُمتك ، روى فى مسند أحمد وصحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، ويجوز أن يراد بالتسبيح : التعجب ، أى : فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحدٌ على أهل الحرم ، واحمده على ذلك ، وقيل : المراد بالتسبيح ؛ الصلاة ؛ لاشتمالها عليه ، ونقل ابن الجوزى ذلك عن ابن عباس ، وقد روى أنه ﷺ لَمَّا دخل مكة صلَّى فى بيت أُم هانئ ثمانى ركعات ، وهى سُنَّة واستغفاره - ﷺ - لأنه كان دائما فى الترقى إذا ترقى إلى مرتبة استغفر لما قبلها .

وقيل : لتعليم أُمته ، وقيل : استغفاره لأُمته ، أى : واستغفره لأُمتك .

قال الآلوسى : وأنت تعلم أن كل أحد مقصر عن القيام بحقوق الله تعالى كما ينبغى ، وعن أدائها على الوجه اللائق بجلاله ، وإنما يؤديها على قدر ما يعرف ، والعارف يعرف أن قدر الله - عز وجل - أعلى وأجل من ذلك ، فهو يستحى من عمله ، ويرى أنه مقصر ، وكلما كان الشخص بالله تعالى أعرف كان له - سبحانه وتعالى - أخوف ، وبرؤية تقصيره أبصر ، فيمكن أن يكون استغفاره - عليه الصلاة والسلام - لما يعرف من عظيم قدر الله وعظمته ، فيرى أن عبادته وإن كانت أجل من عبادة جميع العابدين فهى دون ما يليق بهذا الجلال

وتلك العظمة التي هي وراء ما يخطر بالبال ، فيستحى ويهرع إلى الاستغفار ، وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام - كان يستغفر الله فى اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة ، وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار قيل : على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق ، كما قيل : ما رأيتَ شيئًا إلّا وجدت الله قبله ؛ لأن جميع الأشياء مرايا تجليه - جل جلاله - وذلك لأن فى التسبيح والتحميد توجهًا بالذات لجلال الخالق وكماله ، وفى الاستغفار توجهًا بالذات لحال العبد وتقصيراته ، ويجوز أن يكون تأخير الاستغفار عنهما لما هو مقرر من مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار ، وقيل : فى تقديمهما عليه تعليم أدب الدعاء ، وهو ألّا يسأل فجأةً من غير تقديم الثناء على المسئول منه (إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) أى : إنه - سبحانه - منذ خلق المكلفين تواب ، أى : كثير القبول لتوبة عباده ، فليكن المستغفر التائب متوقعا للقبول ، فالجملة فى موضع التعليل لما قبلها ، واختيار :(تَوَّابًا) على (غَفَّارًا) مع أنه الذى يستدعيه - ظاهرًا - قوله تعالى : (وَاسْتَغْفِرْهُ) للتنبيه - كما قال بعض الأجلة - على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة ؛ لأن المطلوب طلب وقاية شر الذنب الماضى بالدعاء والندم عليه ، ووقاية شر الذنب المتوقع بالعزم على الإقلاع منه ، وهذا هو الذى يمنع الإصرار والله أعلم .

سورة المسد

وهى مكية ، وآياتها خمس آيات وتسمى سورة (تبت)

مناسبتها لما قبلها :

إن الله – سبحانه وتعالى– ذكر فى السورة السابقة (سورة النصر) أن ثواب الطاعة هو حصول النصر والاستعلاء فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة ، وهنا فى سورة المسد ذكر أن عاقبة العاصى الخسار فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، وسورة النصر من آخر مانزل بالمدينة ، و (سورة تَبَّتْ) من أول مانزل بمكة ، وهذا يدل على أن ترتيب السور على ماجاء فى المصحف الشريف بأمر من الله عز وجل .

مقاصد السورة :

١ – بُدئت السورة الكريمة بالإخبار بهلاك أبى لهب ، وعدم إغناء شىء عنه من ماله أو ولده أو جاهه ، وتوعدته بأنه سيلقى فى الآخرة نارًا ذات لهب (تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) .

٢ – ثم ذكرت السورة أن زوجته ستكون معه فى النار ، وخصها الله بنوع من العذاب . وهو مايكون حول عنقها من حبل تجذب منه فى النار ، وتعرف به يوم القيامة ؛ لما كانت عليه من إيذاءٍ للرسول وأصحابه ، ومحاربة الدعوته ، وهكذا شاركت زوجها فى الكيد لدين الله والصد عن سبيله فى الدنيا ، فشاركته فى عذاب جهنم يوم القيامة .

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾)

المفردات :

(تَبَّتْ) : خسرت وخابت وهلكت ، ومنه قولهم : أَشَابَّةٌ أم تَابَّةٌ ؟ يريدون : أم هالكة ؟ وقال الشهاب : إن مادة (التَّباب) تدور على القطع ، وهو مؤد إلى الهلاك ولذا فسر به ، وقال الراغب : التباب : الاستمرار فى الخسران . وجملة (تَبَّتْ) دعاء عليه .

(وَتَبَّ) أى : وقد هلك وخسر (والجملة خبر عنه) .

(سَيَصْلَىٰ نَارًا) : سيدخل نارًا لامحالة فى الآخرة ويقاسى حرها .

(ذَاتَ لَهَبٍ) أى : ذات شرر وإحراق شديد ، ولهب النار : ما يسطع منها عند اشتعالها وشدة توقدها .

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) : امرأته هى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، وكانت تحمل حزمة من الشوك فتنشرها بالليل فى طريق رسول الله ، وقيل : كانت تمشى بين الناس بالنميمة .

(فِى جِيدِهَا) : فى عُنقها .

(مِن مَّسَدٍ) المسد : ما فُتِل من الحبال فَتْلًا شديدًا من ليف أو جلد أو غيرهما .

التفسير

١ - (تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ) :

أى : هلكت وخسرت يدا أبى لهب ، والمراد كله وجملته ، وعبّر عن ذلك باليدين لأن أكثر الأفعال تزاول بهما ، وهذه الجملة دعاء عليه .

وقوله تعالى :(وَتَبَّ) أى : وقد أجاب الله ذلك الدعاء وحققه بالفعل ، وقد هلك وخسر ، وهذا كقولهم : أهلكه الله وقد هلك .

(وأبو لهب) هو عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان شديد العداوة له وللإسلام ، أخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس : لما نزلت « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » صعد النبى ﷺ على الصفا ، فجعل ينادى « يَا بَنِى فِهْرٍ ، يَا بَنِى عَدِىٍّ : لبطون قريش » حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال الرسول :« أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادى تريد أن تُغِيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِىَّ ؟» قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلَّا صدقًا ، فقال :« إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر الأيام ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ، ويروى أنه مع ذلك القول أخذ بيده حجرًا ليرمى به رسول الله ﷺ .

ومن هذا يعلم وجه إيثار التباب على الهلاك ونحوه مما تقدم ؛ لإيغاله فى عداوة رسول الله ﷺ ، وإسناده إلى يديه ، والتعبير بالماضى فى الموضعين لتحقق الوقوع ، قال الزمخشرى : وذكر أبو لهب بكنيته - والأصل فى الكنية التكريم - قيل : لاشتهاره بها ، وقد أريد بها تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ، وذكرهُ بكنية أوفق بذلك ، أو لكراهة اسمه القبيح (عبد العزى) ، أو لجعله كناية عن الجهنمى ، كما يقال : أبو الخير ، وأبو الشر .

٢ - (مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) :

(ما) استفهام فى معنى الإنكار ، أو نافية ، والمعنى : لم ينفعه ماله وما كسب بماله من الأرباح والمنافع والوجاهة والأتباع ، أو ما نفعه ماله الذى أورثه عن أبيه والذى كسبه بنفسه

وعن ابن عباس : ماكسب من الولد ، أخرج أبو داود عن عائشة مرفوعًا : « إِنَّ أَطْيَبَ مَا يَأْكُلُ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ » ، وروى أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخى حقًّا فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدى ، وكان له ثلاثة أبناء : عتبة ، ومعتب وقد أسلما يوم الفتح ، وسُر النبى ﷺ بإسلامهما ودعا لهما ، وشهدا حنينًا والطائف ، وعتيبة - بالتصغير - لم يسلم ، وهو الذى قتله الأسد ببركة دعاء النبى ﷺ وقد كان أبو لهب شديد العداوة لرسول الله ، شديد التحريض عليه ، شديد الصد عن دين الله .

٣ - (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) :

أى : سيدخل النار لا محالة فى الآخرة ويقاسى حرها ، والسين لتأكيد الوعيد والتنوين فى (نَارًا) للتعظيم ، أى : نارًا عظيمة ذات اشتعال وشرر وتوقد ، وهى نار جهنم .

٤ - (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) :

أى : وستصلى معه وتُعذب بهذه النار أيضًا امرأته حمالة الحطب ، وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، وكانت عوراء كما جاء فى البحر ، وسُميت بحمَّالة الحطب على ما أخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن زيد ؛ لأنها كانت تأتى بأغصان الشوك تطرحها بالليل فى طريق رسول الله ﷺ وكان رسول الله يطؤها كما يطأ الحرير . وروى عن قتادة أنها كانت مع كثرة مالها وشرفها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها . وعن مجاهد أنها كانت تمشى بالنميمة ضد رسول الله ﷺ وضد دعوته ، ويقال لمن يمشى بالنميمة هو يحمل الحطب بين الناس ، أى : يوقد نار العداوة ، ويورث الشر بينهم .

٥ - (فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ) :

وأكد - سبحانه - تبشيع عملها وتقبيح صورتها فقال : (فِى جِيدِهَا) أى : فى عنقها (حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ) أى : حبل مما مُسِدَ وفتل وقُوِّى من الحبال ، والمراد تصويرها بصورة الحطَّابة التى تحمل الحزمة وتربطها فى جيدها ؛ تحقيرًا لحالها لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها ؛ إذ كانا فى منصب الثروة والجاه ، ولقد أغضبها ذلك .

فيذكر الآلوسى أنها لَمّا سمعت هذه السورة أتت أبا بكر - رضى الله عنه - وهو مع رسول الله ﷺ فى المسجد وبيدها فهر[1] ، فقالت : بلغنى أن صاحبك هجانى : ولأفعلن ولأفعلن ، وإن كان شاعرًا فأنا مثله أقول : مُذَمَّمًا أَبَيْنَا ، ودينه قَلَيْنَا ، وأمره عَصَيْنَا .

وأعمى الله بصرها عن رسول الله ﷺ فروى أن أبا بكر قال لها : هل ترين معى أحدا؟ فقالت : أتهزأ بى ؟! لا أرى غيرك ، فسكت أبو بكر ، ومضت وهى تقول : قريش تعلم أنى بنت سيدها . فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ حَجبَنِى عَنْهَا مَلائِكَةٌ فَمَا رَأَتْنِى ، وَكَفَى اللهُ تَعَالى شَرَّهَا » .

قال الزمخشرى : يحتمل أن يكون المعنى : تكون هذه المرأة فى نار جهنم على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار ، وفى جيدها حبل من مسد من سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله فى جرمه ، قال ابن المسيب : كانت فى جيدها قلادة فاخرة من جوهر ، وأنها قالت : واللّاتِ والعُزَّى لأنْفِقها على عداوة محمد ، وهكذا شاركت هذه الزوجة زوجها فى العداوة الضارية للرسول ، وفى الإيذاء للإسلام وأتباعه ، فشاركته عذاب جهنم وبئس المصير . والله أعلم .

---

(١) الفهر : الحجر .

سورة الإخلاص

وهى مكية ، وآياتها أربع
وسميت بذلك لما فيها من التوحيد ، ولذا سميت أيضا سورة الأساس ، وسورة (قل هو الله أحد) ، وسورة التوحيد ، وسورة الإيمان ، ولها غير ذلك أسماء كثيرة

مناسبتها لما قبلها :

قيل – وهو الأولى – : إنها متصلة بسورة (قل يأيها الكافرون) فى المعنى فهما بمنزلة كلمة التوحيد فى النفى والإثبات ، ولهذا تسميان بالمقشقشتين ، وقرن بينهما فى القراءة فى صلوات كثيرة ، إلَّا أنه فصل بينهما بالسورتين : (سورة النصر ، وسورة المسد) ، لما تقدم فى موضعه ، من أن سورة النصر قرنت بسورة (الكافرون) لأن سورة (الكافرون) تضمنت اختلاف دين الرسول ودين قريش ، وسورة النصر تضمنت أن دينه – عليه الصلاة والسلام – هو الغالب ، وهو السائد والمنصور ، وسورة المسد قرنت بسورة النصر ، لأن سورة النصر تضمنت أن ثواب الطاعة حصول النصر والغلبة والاستعلاء فى الدنيا ، وسورة المسد بينت أن عاقبة العاصى الخسران فى الدنيا فلهذا تلتها .

مقاصد السورة :

السورة تضمنت نفى الشرك بجميع أنواعه ، فقد نفى الله عن نفسه أنواع الكثرة والتعدد بقوله : (اللَّهُ أَحَدٌ) ونفى عن نفسه جميع أنواع الاحتياج بقوله :(اللَّهُ الصَّمَدُ) ونفى عن نفسه المجانسة والمشابهة بقوله :(لَمْ يَلِدْ) ونفى عن نفسه الحدُوث والأَولية بقوله : (وَلَمْ يُولَدْ) ونفى عن نفسه الأَنداد والأَشباه بقوله :(وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) والسورة الكريمة تعلن التوحيد الخالص .

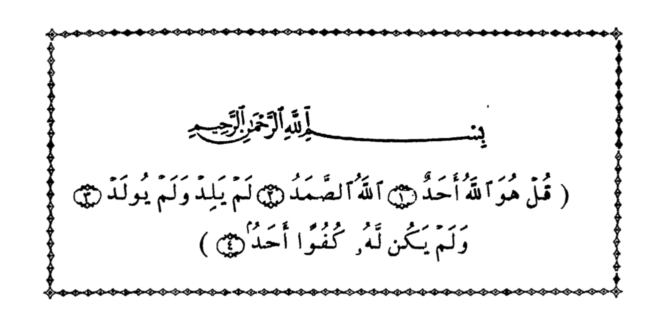
سبب نزول السورة :

قال الإمام أحمد : إن المشركين قالوا للنبى ﷺ : انسب لنا ربك ، فأَنزل الله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) . وعن ابن عباس : قالت قريش : يا محمد صف لنا ربك الذى تدعونا إليه ، فنزلت ، وعنه أيضًا أن السائل اليهود .

بعض ما جاء فى فضلها :

روى مبارك عن أنس أن رجلًا قال : يا رسول الله ، إنى أحب هذه السورة (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) قال : « إنَّ حُبَّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ » وأخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن أبى سعيد أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يردّدها فلمّا أصبح جاء إلى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ » ولقد جاء أنها تعدل ثلث القرآن فى عدة أخبار ، واختلف فى المراد بذلك ، فقيل : المراد أنها باعتبار معناها ثلث من القرآن المجزء إلى ثلاثة ، لا أن ثواب قراءتها ثلث ثواب القرآن ، وإلى هذا ذهب جماعة ، لكن اختلفوا فى بيان ذلك ، فقيل : إن القرآن يشتمل على : قصص ، وأحكام ، وعقائد ، كلها ممّا يتعلق بالعقائد؛ فكانت ثلث القرآن بذلك الاعتبار . وقيل غير ذلك ، قال الآلوسى : ويؤيد اعتبار الأجزاء القصص ، والأحكام ، والعقائد دون الثواب ما فى صحيح مسلم عن قتادة عن أبى الدرداء أن رسول الله ﷺ قال : « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلَّ يَوْمٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؟ » قالوا : نعم ، فقال : « إِنَّ اللهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ ، فَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ثُلُثُ الْقُرْآنِ » .

وقيل : المراد : تعدل ثلث القرآن ثوابًا لظواهر الأحاديث الواردة فى ذلك ، قال الآلوسى : والذى أختاره أن يقال : لا مانع من أن يخص الله – سبحانه – بعض العبادات التى ليس فيها كبير مشقة بثواب أكثر من ثواب ما هو من جنسها وأشق منها بأضعاف مضعّفة ، وهو سبحانه لا حجر عليه ولا يتناهى جوده وكرمه ، فلا يبعد أن يتفضل – جلّ وعلا – على قارىء القرآن بكل حرف عشر حسنات ، ويزيد على ذلك أضعافًا مضاعفة – لقارئ الإخلاص ، بحيث يعدل ثوابه ثواب قارئ ثلث منه غير مشتمل على تلك السورة . وتُفَوَّض حكمة التخصيص إلى علمه سبحانه ، وكذا يقال فى أمثالها ، وهذا مراد من جعل ذلك من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، والأحاديث الصحيحة الواردة فيها تكفى فى فضلها .



المفردات :

(أَحَدٌ) : واحد لاشريك له ، ولا يوصف به إلَّا الله - سبحانه وتعالى - لخلوص هذا الاسم الشريف له تعالى .

(الصَّمَدُ) : هو وحده السيد المقصود فى الحوائج على الدوام .

(كُفُوًا) : مكافئًا ومماثلًا ونظيرًا .

التفسير

١ - (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) :

المشهور أن (هُوَ) ضمير الشأْن ، والسر فى تصدير الآية الكريمة به بعد قوله : (قُلْ) هو التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير فإن الضمير لايفهم منه من أول الأمر إلَّا شأْن مبهم له خطر جليل ، فيبقى الذهن مترقبًا لما يفسره ويزيل إبهامه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن .

والمعنى : قل يا محمد لمن سأَلك عن صفة ربك ، أو لمن قال لك : انسب لنا ربك : الله هو الواحد لاشريك له ، منزه عن التركيب والتعدد .

٢ - (اللهُ الصَّمَدُ) :

قال ابن الأنبارى : لاخلاف بين أهل اللغة فى أن (الصمد) هو السيد الذى ليس فوقه أَحَد ، الذى يصمد إليه الناس فى حوائجهم وفى أُمورهم ، وعن أَبى هريرة : هو المستغنى عن كل أَحد ، المحتاجُ إليه كلُّ أَحد .

قال الآلوسى : والمعول عليه تفسيرًا : أَن الصمد السيد الذى يصمد إليه الخلق فى الحوائج ، ويقصدونه فى المطالب ، وتفسيره بغير ذلك إما راجع لذلك ، أَو لاتساعد عليه اللغة . اهـ .

وبهذه العقيدة الصافية من الشوائب ، وبهذا التوحيد الخالص ، أَبطل الإسلام عقيدة مشركى العرب الذين يتخذون الشفعاء والوسطاء من الأَوثان تقربًا إلى الله ، وعقيدة غيرهم من أَهل الأَديان الأُخرى الذين يعتقدون بأَن لرؤسائهم منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط لغيرهم لدى ربهم فى نيل مآربهم ، وحرّر الإسلام الإنسان لأَول مرة فى تاريخ البشرية من نير العبودية لغير الله وحده .

وقال الزمخشرى : (الصَّمَد) (فَعَل) بمعنى (مفعول) من صمد إليه : إذا قصده .

٣ - (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) :

(لَمْ يَلِدْ) أَى : تنزه ربنا أَن يكون له ولد ، لأَن الولادة تقتضى انفصال مادة منه سبحانه ، وذلك يقتضى التركيب النافى للأَحدية ، ولأَن الولد من جنس أَبيه ، وهو - تعالى - لايجانسه أَحد لأَنه - سبحانه - واجب الوجود ، والاقتصار على الماضى دون أَن يقال : لن يلد ، لوروده ردًّا على من قال : إن الملائكة بنات الله ، أَو المسيح ابن الله .

(وَلَمْ يُولَدْ) وكذلك نفى المولودية عنه - سبحانه - لاقتضائها المادة ، فيلزم التركيب المنافى للغنى المطلق ، والأُحدية الحقيقية ، أَو لاقتضائها سبق العدم ، أَو لاقتضائها المجانسة المستحيلة على واجب الوجود ، وقدّم نفى الولادة لأَنه الأَهم ؛ لأَن طائفة من الكفار توهموا

خلافه فهو رَدّ على النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وعلى اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله .

٤ ـ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ :

أى : ولم يكافئه ولم يماثله ولم يشاكله أحد .

قال الآلوسى : وهذه السورة الجليلة قد انطوت مع تقارب أقطارها على أشتات المعارف الإلهية ، والعقائد الإسلامية ، ولذا جاء فيها ما جاء من الأخبار ، وورد ما ورد من الآثار ، ثم ذكر بعض هذه المعارف ، وكذا فعل الزمخشرى فليرجع إليهما من أراد .

ســورة الفــلق

وهي مكية ، وآياتها خمس آيات

هذه السورة والتي بعدها نزلتا معًا كما فى الدلائل للبيهقى ، فلذا قرنتا واشتركتا فى التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، ولقد ورد فى فضلهما أخبار كثيرة ، أخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال : « أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَاتٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهُنَّ قَطُّ : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .

مناسبة السورة لما قبلها :

لَمَّا شرح الله – سبحانه – أمر الألوهية فى السورة التى قبلها (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) جىء بهذه السورة (سورة الفلق) بعدها لتكون شرحًا لما يستعاذ منه بالله الأحد – سبحانه – من أنواع الشر .

مقاصد الســورة :

فى هذه السورة طلب الله من نبيه أن يلجأ إليه فهو رب الفلق ، وأن يلوذ به من شر ما خلق : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) .

كما طلب إليه أن يتحصن به من شر الليل إذا أقبل بظلامه وبما فيه من مخاوف ، ومن شر من يسعى بين الناس بالفساد والإفساد ، ويحل ما بينهم من عقد وصلات ، ويصيبهم بالضرر ، ومن شر حاسد يتمنى زوال ما يسبغ الله على عباده من نعمة :

(وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(أَعُوذُ) : ألتجئ وأعتصم .

(الْفَلَقِ) (فَعَل) بمعنى (مفعول) كقَصَص بمعنى (مقصوص) من فَلَق : شَقَّ وفَرَّق ، وهو يعم جميع الموجودات الممكنة ، وخص عرفا بالصبح ؛ لأن الليل يفلق عنه . ويقال فى المثل : هو أبين من فَلَق الصبح .

(غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) أى : الليل إذا دخل ظلامه ، أو القمر إذا غاب .

(النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) : النساء السواحر ينفثن فى عقد الخيط حين يسحرن ، والنَّفَّاثَات جمع نَفَّاثة ، والنفث : النفخ مع ريق ، وقيل بدونه .

(حاسِدٍ) : هو الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره .

التفسير

١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ) :

أى : قل يا محمد : أعوذ وألوذ برب الفلق ، أى : برب المخلوقات ، ومبدع الكائنات . أو قل : أعتصم برب الصبح الذى ينجلى الليل عنه ، وعن ابن عباس : الفلق : الخلق ،

وأخرج العوفى عنه أنه فسره بالصبح ، وعليه فتعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبئ عن النور عقيب الظلمة ، والسعة بعد الضيق هو علةٌ كريمة بإعاذة العائذ مِمّا يتعوذ ، وإنجائه منه ، وتقوية لرجائه بذكر بعض نظائره ، ومزيد ترغيب له فى الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه عز وجل .

وقيل : إن تخصيص الفلق بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة ؛ لأن من الناس من يغدو فيلقى وينال خيرًا ، ومنهم من يجد ما يضره ويكرهه .

وفى رواية عن ابن عباس وجماعة مِن الصحابة والتابعين أن الفلق : جُبٌ فى جهنم ، أو وادٍ فيها .

٢ - (مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) :

أى : من شر الذى خلقه من الثقلين وغيرهما ، وقال بعض الأفاضل ، هو عام لكل شر فى الدنيا والآخرة ، وشر الإنس والجن والشياطين ، وشر السباع والهوام ، وشر النار ، وشر الذنوب والهوس ، وشر النفس ، وشر العمل .

٣ - (وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) :

فى هذا تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبل ، لزيادة مساس الحاجةِ إلى الاستعاذة منه ؛ لكثرة وقوعه ، ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناءِ بالاستعاذة ، والغاسق إذا وقب ، أى : الليل إذا اعتكر سواده وعم ظلامُه كُلَّ شىء ، من قوله تعالى : « إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ »[1] ، والتقييد بهذا الوقت لأن حدوث الشر فيه أكثر ، والتحرز منه أصعب وأعسر ، ومن أمثالهم : (الليل أخفى للويل) وقولهم : أغدر من ليل ، إذ أنه ستار يحتمى فى ظلامه المجرمون والعابثون بالأمن ، وهو عَوْنٌ لأعدائك عليك ، وتفسير الغاسق إذا وقب بما ذكر هو المأثور عن ابن عباس ومجاهد ، وقيل : معناه : القمر إذا امتلأ نورًا ، على أن الغسق : الامتلاء ، وَوُقُوبُه : دخُولُه فى الكسوف واسوداده ، أو دخوله فى المحاق

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٧٨

فى آخر الشهر ، والمنجمون يعدونه نحسًا ، ولذلك لاتشتغل السحرة بالسحر المورث للمرض إلّا فى ذلك الوقت ، قيل : وهو المناسب لسبب النزول ، واستدل على تفسيره بالقمر ـ بما أخرجه الإمام أحمد والترمذى والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت : نظر رسول الله ﷺ يومًا إلى القمر لما طلع ، فقال : (يا عائشةُ : استعيذى بالله تعالى من شَرِ هَذَا ؛ فَإِنَّ هَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ) ، وقيل : الغاسق إذا وقب : الحية إذا لدغت ، وقيل : هو كل شر يعترى الإنسان ، والشر يوصف بالظلمة والسواد ، ووقوبه : هجومه ووقوعه .

٤ ـ ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾ :

أى : ومن شر السواحر اللاتى يَعْقِدْن عقدًا وينفثن عليها ، والنفث : النفخ مع ريق ، قاله الزمخشرى ، وقيل : هو شبه النفخ يكون فى الرّقية ولا ريق معه ، ورجح ابن القيم رأى الزمخشرى .

روى البخارى وغيره أن رسول الله سحر ، قيل : والذى سحره لبيد بن الأعصم وبناته ، فمرض النبى ﷺ فنزل جبريل بالمعوذتين ، وأخبره بموضع السحر ، وبمن سحره ، وبم سحره ، فأرسل ﷺ عليًا والزبير وعمارًا فنزحوا ماء البئر وهو كنقاعة الحناء ، ثم رفعوا راعوثة[1] البئر فأخرجوا أسنان المشط ومعها وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فجاءوا بها النبى ﷺ فجعل يقرأ المعوذتين عليها ، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد ـ عليه الصلاة والسلام ـ خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين فقام النبى ﷺ كأنما نشط من عقال . (آلوسى) .

ونقل الماتُريدى عن أبى بكر الأصم أنه قال : إن حديث السحر المروى هنا متروك ، لما يلزمه من صدق قول الكفرة : إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسحور ، وهو مخالف لنص القرآن الكريم . وقال الإمام المازرى : قد أنكر ذلك الحديثَ المبتدعةُ لأنه يحط من منصب

---

(١) الراعوثة : حجر يقوم عليه المستقى ـ ويسمى أيضا الراعوفة ، ولقد جاء بهذا الاسم فى بعض الروايات .

النبوة ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وأجيب بأن الحديث صحيح وغير معارض للنص ، ولا يلزم عليه حط منصب النبوة والتشكيك فيها ؛ لأن الكفار أرادوا بمسحور أنه مجنون ، وحاشاه ، أو مرادهم أن السحر أثر فيه وأن ما يأتيه من الوحى تخيلات السحر ، وهو كذب أيضًا ؛ لأن الله عصمه فيما يتعلق بالرسالة ، وقال القاضى عياض : قد جاءت روايات حديث عائشة مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده الشريف وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده .

وأنكر بعضهم أصل السحر – ونفى حقيقته ، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها .

ومذهب أهل السنة وعلماء الأمة على إثباته وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء ؛ لدلالة الكتاب والسنة على ذلك ولا يستنكره العقل .

قال الزمخشري : ومعنى الاستعاذة (مِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ) أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ، ومن إثمهن فى ذلك ، وأن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن .

ويجوز أن يراد بالنفاثات : النساء الكيّادات من قوله تعالى : « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ »[1] تشبيهًا لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد ، أو اللاتى يَفْتِنَّ الرجال بتعرضهن لهم وعرض محاسنهن عليهم .

وقيل : المراد من النفاثات فى العقد : من يمشى بين الناس بالنميمة ليقطعوا روابط المحبة ويبددوا شمل المودة ، وقد شبه عملهم بالنفث وشبهت رابطة الوداد بالعقدة ، والعرب تسمى الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة ، كما سمى الارتباط بين الزوجين (عقدة النكاح). (اهـ : كشاف) .

٥ – (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) :

أى : ونستعيذ بك ربنا من شر حاسد إذا حسد ، أى : إذا أظهر ما فى نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادئ الإضرار بالمحسود قولًا وفعلًا ، ومن ذلك

(١) من الآية ٢٨ من سورة يوسف .

ما قيل : النظر إلى المحسود وتوجيه نفسه الخبيثة نحوه على وجه الغضب ، فإن نفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة ربما تؤثر فى المحسود ، بحسب ضعفه وقوة نفس الحاسد ، تؤثر شرًا ربما يصل إلى حد الإهلاك ، ورب حاسد يؤذى بنظره مثل ما تؤذى بعض الحيات بنظرهن ، وذكروا أن الحاسد والعائن – من يصيب الناس وتؤذيهم بالنظر إليهم – يشتركان فى أن كلاً منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من تريد أذاه ، إلا أن العائن تتكيف نفسه عند مقابلة العين للمحسود والمعاينة له ، والحاسد يحصل حسده فى الغيبة والحضور ، وأيضًا قد يعين . أى : (يصيب بعينيه) من لا يقصد حسده من إنسان أو حيوان أو زرع .

والحسد : هو تمنى زوال النعمة عن الغير ، والحاسد ممقوت عند الله وعند عباده ، آت بابًا من الكبائر ، ويطلق الحسد على الغبطة مجازًا ، وكان ذلك شائعًا فى العرف الأول : وهى تمنى أن يكون له مثل ما لأخيه من النعمة من غير تمنى زوالها عن غيره ، وهذا لا بأس به إذا كان فى الخير ، ومن ذلك ما صح من قوله ﷺ : « لاحَسَدَ إِلَّا فِى اثْنَتَيْنِ : رَجُل آتَاهُ اللهُ مَالًا وَسَلَّطَهُ عَلى هَلَكَتِهِ فِى الْحَق ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا لِلنَّاسِ » وإنما خص هؤلاء الثلاثة : الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد بالنص على الاستعاذة منهن – مع أن قوله تعالى : (مِن شَرِ مَا خَلَقَ) يشملهم – لأن كلاً منهم يَخْفَى أمره ويعظم ضرره ويلحق الشر بالإنسان من حيث لا يعلم ، كأنما يغتال به ، ولذا قالوا : شر العُدَاةِ المُدَاجِى الذى يكيدك من حيث لا تشعر .

سورة النـاس

وهى مكية ، وآياتها ست

وتسمى مع ما قبلها ـ كما اشرنا اليه قبل ـ بالمعوذتين ـ بكسر الواو

مناسبتها لمـا قبلها :

قيل : هذه السورة والتى قبلها (الفلق) نزلتا معًا ولذلك قرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بـ (قُلْ أَعُوذُ) .

مقاصد السـورة :

فى السورة الكريمة أمر من الله لنبيه أن يلجأ إليه ويستعيذ به ؛ فهو خير من يُلجأُ إليه ويُستعاذ به : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلٰهِ النَّاسِ) ولذا فهو يستعين به لدفع شر عظيم ، يخفى على الناس إدراكه ، لأنه يجيئهم من طريق شهواتهم وأهوائهم مستترًا عن العيون أو ظاهرًا لها ، مُخْفيًا وسوسته بالمكر والخديعة (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(بِرَبِّ النَّاسِ) : بمربيهم ومدبر أحوالهم .

(إِلَٰهِ النَّاسِ) : معبودهم الحق .

(الْوَسْوَاسِ) قال الزمخشرى : اسم مصدر بمعنى الوسوسة ، والمصدر بالكسر ، والوسوسة صوت الحُلِىِّ ، والهمس الخفى ، ثم استعمل فى الخطرة المؤذية ، وأُريد به هنا الشيطان ؛ سمى بفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة .

(الْخَنَّاسِ) : صيغة مبالغة ، أو نسبة ، أى : الذى عادته أن يخنس ويتوارى ويتأخر إذا ذكر الله ، من الخنوس : وهو الرجوع والاختفاء .

التفسير

١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) :

أمر الله - سبحانه - رسوله ﷺ أن يستعين برب الناس ومالك أُمورهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم ، ودفعه ما يضرهم .

٢ - (مَلِكِ النَّاسِ) :

عطف بيان جيء به لبيان أن تربيته - تعالى - إيَّاهم ليست بطريقة تربية سائر المُلاَّك لما تحت أيديهم من مماليكهم ، بل بطريق الملك الكامل ، والتصرف الكلى والسلطان القاهر ، وكذا قوله تعالى :

٣ - (إِلَٰهِ النَّاسِ) :

فإنه لبيان أن ملكه - تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم ، والقيام بتدبير أُمورهم ، والتولى لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك ، بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الأُلوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكامل فيهم : إحياء وإماتة ، وإيجادًا وإعدامًا . وذكر القاضى أن فى النظم الجليل إشعارًا بمراتب الناظر المتوجه لمعرفة خالقه : فإنه يَعْلَمُ أَولًا بما يَرَى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له ربًّا .

ثم يتغلغل فى النظر حتى يتحقق أنه - سبحانه - غنى عن الكل ، وذَاتُ كل شىء له ، ومصارف أمره منه ، فهو الملك الحق . ثم يستدل بهذا النظر على أنه المستحق للعبادة لا غيره .

وإنما قال : رب الناس ، ملك الناس ، إلٰه الناس ، وهو رب كل شيء ومَلِك كل شيء وإلٰه كل شيء ؛ لأن الناس هم الذين أخطأوا فى صفاته وضلُّوا فيها عن الطريق السَّوِىِّ ، فجعلوا لهم أربابًا ينسبون إليها بعض النعم ويلجأون إليها فى دفع النقم ، ولم يكتف بإظهار المضاف إليه الذى هو الناس مرة واحدة ، بل كرر لمزيد الكشف والإيضاح والتقرير والتشريف بالإضافة . وقيل : لا تكرار ؛ فإنه يجوز أن يراد بالعام بعض أفراده ،(فالناس) الأول بمعنى الأَجِنَّةِ والأطفال المحتاجين للتربية ، و (الناس) الثانى : المراد بهم الكهول والشبان لأنهم المحتاجون إلى من يسوسهم ، و (الناس) الثالث : الشيوخ المتعبدون المتوجهون إلى الله عز وجل .

٤ ـ (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) :

بيان للمستعاذ منه ، أى : ألجأ إليك رب الناس وملكهم وإلٰههم ومعبودهم أن تنجينا وتحفظنا من شر الشيطان الموسوس للناس ، الكثير الخنوس والاختفاء ؛ لأنه يأتى من ناحية الباطل فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه ، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ مصير إذا انجرَّت مع وسوسته ، وانساقت معه إلى تحقيق ما خطر بالبال .

والمراد الاستعاذة من جميع شروره المؤثرة على البدن والنفس ، وعُدَّ من شره ـ كما ورد فى صحيح البخارى ـ أنه يعقد على قافية رأس العبد إذا هو نام ثلاث عقد ، مراده بذلك منعه من اليقظة للعبادة ، وبعضهم عد منه التخبّط ، إذِ الحق عند أهل السنة ؛ أن التخبط قد يكون من مسّ الشيطان ، والخناس : المتوارى المختفى المتأخر ، إذا ذكر الله ـ عز وجل ـ أمسك عن الوسوسة إلى أن تسنح له فرصة أخرى ، أخرج الحاكم وصححه ، وابن المنذر وغيره : عن ابن عباس قال : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى قَلْبِهِ الْوَسْوَاسُ ، فَإِذا عَقَلَ فَذَكَرَ اللهَ خَنَسَ ، فَإِذَا غَفِلَ وَسْوَسَ ، فَلِذَلِكَ سُمِّىَ الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ » . ولقد وصف الله هذا الوسواس الخناس بقوله :

٥ ـ (الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ) :

أى : الذى يلقى خفية فى صدور الناس ما يصرفهم عن سبيل الحق والخير والرشاد ، ويدعوها إلى الشر والفساد ، قيل : أريد بصدور الناس : قلوبهم ، وإنما جعلت الوسوسة

فى الصدور ، لأنه عهد فى كلام العرب أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، ألا تراهم يقولون : إن الشك يحوك فى صدرك ويجيش فى صدرى ، وما الشك إلَّا فى نفسه وعقله وقلبه .

قال بعضهم : إن الشيطان يدخل الصدر ، فيُلقى منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ، ويوصله إليه : ولا مانع عقلًا من دخوله فى جوف الإنسان ، وقد ورد السمع به فوجب قبوله ، والإيمان به : ومن ذلك قوله ﷺ : (إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرى مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ) ومن الناس من حمل ذلك على التمثيل .

٦ – (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) :

هذه الآية الكريمة بيان للذى يُوَسْوِس ، على أن الموسوس نوعان : إنسى وجنى كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِن يُوحِى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »[1] .

وعن أبى ذر – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال له : (يَا أَبَا ذَرٍّ : تَعَوَّذْ باللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) رواه الإمام أحمد من حديث طويل ، أو (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) يتصل ب‍(يوسوس) و (مِنْ) لابتداء الغاية ، أى : يوسوس الْمُوَسْوِسُ فى صدور الْمُوَسْوِسِ إليهم من جهة الجن أنهم ينفعون أو يضرون ، ومن جهة الناس : أن المنجمين والكهان يعلمون الغيب .

وقد بدئت السورة بطلب الاستعاذة برب الناس ، ومن كان ربهم فهو القادر على دفع إغواء الشيطان ووسوسته ، وقد أرشد فى هذه السورة إلى الاستعانة به – تعالى شأنه – كما أرشد إليها فى الفاتحة ، للإشارة إلى أن ملاك الأمر كله : هو التوجه إلى الله وحده والإخلاص له فى القول والعمل ، والالتجاء إليه فيما لا قدرة لنا على دفعه . والله أعلم .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١١٢

والحمد لله فى البدء والختام ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أُنزل عليه القرآن

والله نسأل أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه ، وأن يرفع مقته وغضبه عنا ، وألّا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأْنا ، وأن يغفر لنا ولإخواننا من أعضاء لجنة التفسير الذين سبقونا إلى رحمته ورضوانه ، ولجميع المسلمين . كما نسأله – سبحانه – أن يوفقنا للعمل بالقرآن ، وأن يرحمنا به ، وأن يجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة . وأن يذكرنا منه ما نسينا ، ويعلمنا منه ما جهلنا ، ويرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، وأن يجعله حجة لنا وشفيعاً يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم ، والله – سبحانه وتعالى – أعلم وأكرم وأعظم .

وكان الفراغ من إتمام هذا العمل الجليل فى يوم الأربعاء السادس من جمادى الأُولى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة ، الموافق الثالث عشر من شهر نوفمبر سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف من الميلاد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أعضاء لجنة التفسير

السيد مصطفى شريف عبد المهيمن محمد سليمان الفقى

إبراهيم السيد السويركى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٢/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٥٤٢٨ — ١٩٩١ — ٢٥٠٠٤

